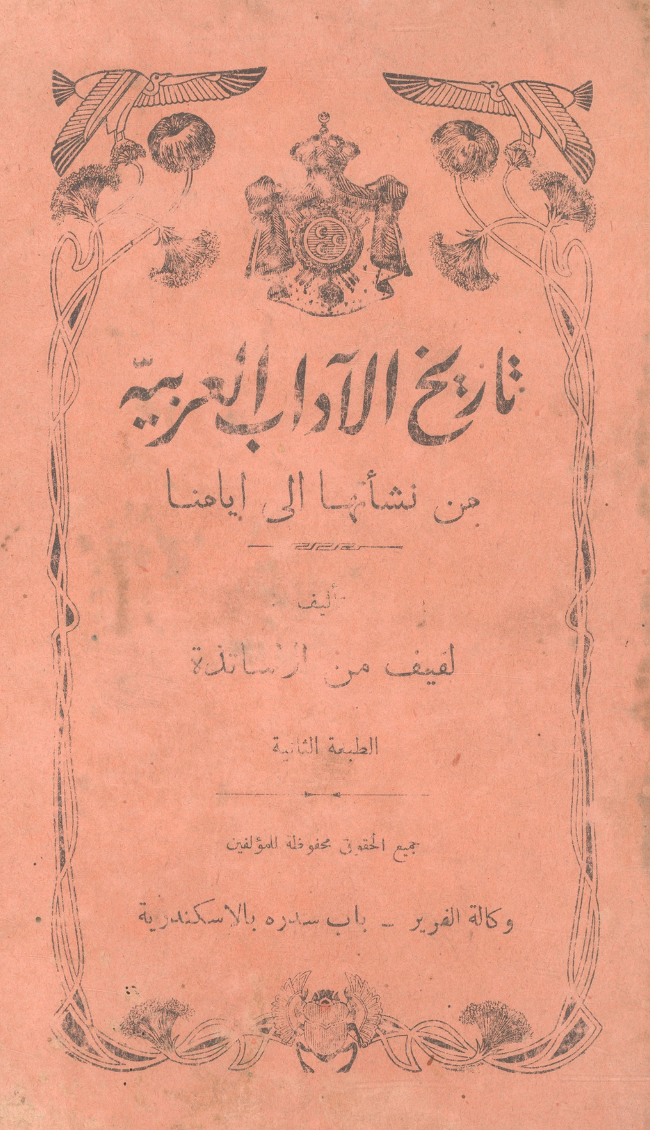


تاريخ الآداب العربية

من نشأتها الى ايامنا

تأليف

لفيف من الاساتذة

الطبعة الثانية

وكالة الفوير ـ باب سدره بالاسكندرية

تاريخ الآداب العربية

من نشأتها الى ايامنا

تأليف

لفيف من الاساتذة

الطبعة الثانية



وكالة الفرير — باب سدره بالاسكندرية
سنة ١٩٢٧

مقدمة

هذه عدة مباحث في تاريخ الآداب والعلوم العربية اي فيما خلفه لنا العرب من نتائج قرائحهم في كل علم وفن من عهد جاهليتهم الى ايامنا وقد اردفنا كل مبحث بتراجم الاعلام الاماثل الذين اشتهروا بالعلم او الفن الذي دار عليه محور الكلام. وذكرنا نبذاً من اقوال السواد الاعظم من الادباء تتمة للفائدة وتبصرة للطالب اللبيب متحرين ما استطعنا التحقيق والوضوح والايجاز

فتألف من مجموع تلك المقالات والتراجم والمنتخبات مختصرٌ رأيناهُ اهلا لخدمة مريدي اللغة العربية وجعلناه تقدمة للناشئة النجيبة راجين ان يكون لهم منه دليل يرشدهم الى مزايا لغتهم الشريفة فيزدادون لها اعزازاً وعليها اقبالاً ويحدوهم مثال العرب الكرام الى الجدّ والاجتهاد للتشبه بهم فيحيون لدى الملا مآثرهم الغراء ويمثلون في انفسهم هممهم الشماء فيسعدون حالاً ويحمدون مآلاً وتشهد لهم اعمالهم انهم ابرّ خلف بخير سلف. ان شاء الله

توطئة

﴿ في اللغات عموماً وفي اللغة العربية خصوصاً ﴾

خلق الله آدمَ ناطقاً ينظم من غرر المعاني ودرر الالفاظ عقودَ الحمد للباريْ سبحانَه، ويُوقع[١] على اوتار الطبيعة نغمات الحبّ لمبدع الكون فتودّ نسمات الفجر لوغدت عيدانَه[٢]، وتتلهف اطيارُ السماءِ لوكانت قيانَه[٣]، ويدعو المخلوقات بأسمائها فتنقاد لأمره وتهاب سلطانَه، ويسألها فيؤدّي كلٌّ منها بلغته عن عظمة الخالق دليلهُ وبرهانَه، ويبحث في الكائنات فيقرأ على صفحاتها من آثار المنشيء العظيم ما يحيّر لبَّهُ ويبهر عيانَه[٤]، وتتجلّى[٥] لهُ الذات الالهية بالأبهة والمجد فيخفق فؤادهُ جذلاً[٦] ويطلق بالشكر لسانَه، ثم يعود الى حواءَ فيناجيها[٧] بخطرات قلبه ويبثها وجدانَه،[٨] فتحدثهُ امُّ الاحياء عن نعم الرب المنّان باعذب كلم وارق نغم فتخلب عقله وتسترقّ جنانَه،[٩] فيهبان معاً يشيدان بذكر[١٠] الواحد الصمد ويذيعان مجده واحسانَه، ويصدحان[١١] بنشيدٍ شجيٍ[١٢] لايُطيق حيٌّ بعدهما محاكاتهُ وبيانَه، واذا صمتا هيبةً وخشوعاً ردَّت

١ يبين الحان الغناء او يبينها على موقعها ٢ جمع عود وهو آلة من المعازف يضرب بها ٣ جمع قينة بالفتح وهي الامة المغنية ٤ اللب القلب وبهر النور عينيه غلب عليهما ٥ تظهر ٦ فرحاً ٧ يسرها ٨ يكشف لها ما يشعر به ٩ تملك قلبه ١٠ يرفعان ذكره بالثناء عليه ١١ يرفعان صوتهما بغناء ١٢ عذب

الآفاق على اجنحة النسيم أَصداء [١] تسبيحها والحانَه، أَن تبارك ربٌ السماواتِ العاليات سبحانهُ وسُعدانَه، [٢] تبارك ربٌ الأرضين الواسعات ما اكبر اسمهُ واعظمَ شانَهُ

تلك اللغة التي فتق الله بها لسان آدم وتكلّم بها بنوه من بعدهِ الى عهد نوح ثم الى زمن البلبلة قد طالما بحث فيها القوم واكثروا من المناظرات [٣] وافاضوا [٤] في المقابلات فلم يتوصّلوا الى الوقوف على شيءٍ من كنهها وما هيتها والتكهُّن [٥] بكيفية نطقها ولهجتها. وقد ادَّعى اقوام كثيرون الاصالة للغاتهم وبلغوا غاية الجهد في اقامة الأدلّة واحكام الحجة على صحة مدّعاهم فزاغت اقيستهم وفنِدت [٦] براهينهم. ولعلّ البحث في هذه المسألة من قبيل محاولة المحال لا يعود على اصحابهِ بغير وهن [٧] العزيمة وخيبة الآمال

وهناك بحث آخر اوفر منفعة واقرب منالاً عُني بهِ رجال العلم وهو النظر في استنباط [٨] الكلام واصل وضعهِ. ولهم في ذلك آراء ومذاهب متنوعة نذكر اشهرها متوخّين [٩] الايجاز على قدر المستطاع

استنباط الكلام

قال جماعة من جلّة العلماء إنَّ الكلام وحيٌ الهيٌّ وان الانسان من تلقاء نفسه عاجزٌ عن الكلام عجزه عن معرفة الحقائق المنزلة بمجرد قواه فلو

---

١ جمع صدى وهو ما يرده الجبل وغيره على المصوت فيه ٢ اسبحه واسعده أي اطيعه ٣ المجادلات ٤ اندفعوا واطالوا ٥ القضاء بالغيب ٦ ضعفت ٧ ضعف ٨ اختراع ٩ متعمدين

لم يوحِ اليه الله تعالى الكلام لما توصل الى معرفته وظل ابكم لا يسمع له الا اصوات مبهمة شأن سائر الحيوانات. وحجّة اصحاب هذا القول ان المرء اذا نطق بما في ضميره اقتُضي عليه اولاً ان يضمر نطقه بمعنى أن ما يتصورهُ من المعاني يستلزم اولاً كلاماً في الباطن قبل ان يمكنه التعبير عنه بكلام في الخارج. وهذا الرأي مردود لما فيه من الغلوّ [١] الظاهر. اما اولاً فلأنه مبنيٌّ على فرض أن الانسان لا يستطيع ان يعرف فكر نفسه ولا ان يفكر بدون الكلام بحيث يجرد العقل عن كل سببية ويردّ الى علة خارجية حسية — الى كلمة الى صوت — جميع المعلومات البشرية. وفي هـذا المبدإ ما فيه. واما ثانياً فلأنه لا ينبغي للمرء ان يلجأ الى العلل الخارقة الطبيعة ما لم يستحل عليه ردّ المسببات الى اسباب طبيعية. وليس مـا نحن فيه من هذا القبيل لأن الخالق سبحانه وتعالى خلق الانسان كاملاً في نوعه مجّهزاً بكل ما يُعينه على بقاء جنسهِ من القوى العقلية والجسدية ولما كان الكلام من ضروريات كيانه لزم لا محالة ان يكون الله تعالى قد أودع في نفسه ما يمكنه من التوصل الى الكلام والحصول عليه

وذهب جماعة ان الكلام نتيجة غريزة [٢] خاصة في الانسان يعمل بها عفواً [٣] وضرورةً فهو طبعاً متكلّم كما انه طبعاً متنفس مثلاً او متحرك. وهو راي قريب جداً من الراي السابق اذ لا فرق بين ان يكون الله تعالى اوحى الى الانسان الكلام او أن يكون ركز في فطرته غريزةً متكلمة. وكلا القولين راجع الى جعل العقلَ بمعزل عن استنباط الكلام

وزعم فريق ان الكلام اصطلاحٌ تواطأ [٤] عليه الناس بعد ارتقائهم

---

١ المبالغة ٢ طبيعة ٣ من غير كلفة ٤ توافق

من حالة الهمجيَّة الى حالة المدنيَّة . وهو رأي فائل [1] مرذول لاقتضائه زماناً كان فيه البشر على الحالة القصوى من التوحّش بحيث لم يكن بينهم وبين البهائم العجماء [2] فرق البتة . ثم لاستلزامه زماناً انكر اولئك المتوحشون وحشيتهم ونبذوا [3] بغتة بهيميتهم وتواطأوا دون سابق معرفة لهم بالنطق على وضع هذا الكلام بأقسامه العجيبة وتراكيبه المتنوعة وسائر مقتضياته. وعليه فيكون ابدع اختراع في العالم وانفس حلية مميزة لهذا الانسان الناطق عن العجماوات البكم ثمرة الهمجية والتوحش والجهل الفاحش الذي ليس وراءَهُ جهل . ومؤدّاه [4] اشتقاق النور من الظلم وانتاج الوجود من العدم ... وقد دفعت ضرورة القياس احد اصحاب هذا المذهب الى القول «بأنهُ لم يكن بدٌّ من كلام سابق لاختراع الكلام» وبالتالي [5] لا بدّ من كلام سابق السابق لاختراع الكلام السابق وهلم جرًّا بالتسلسل الى مالا نهاية له...

وارتأى [6] عدَّة من العلماء أن الكلام ثمرة اللغة الطبيعيَّة [7] نمت ونضجت شيئاً فشيئاً شأن سائر الاشياء الطبيعيَّة ولعله الرأي الارجح وهو

---

١ ضعيف ٢ الخرساء ٣ طرحوا ٤ محصله ونتيجته ٥ الناتج ٦ اتخذ رأيا ٧ المراد باللغة الطبيعية مجموع الظواهر الجسدية الغريزية العامة الدالة على احداث النفس الباطنة. فالضحك والبكاء مثلا دليل على ما يعرض للنفس من لذة الفرح والم الحزن وهو دليل طبيعي مشترك بين افراد البشر كلهم وله عند جميعهم المعنى نفسه وكذلك القول عن الصياح والانين وحركات العضل والاشارات والهيئة العامة. فان في بعض تكيفات الملامح من الدلالة على ما يختلج في النفس ما يعجز عن بيانه افصح كلام وابلغ تعبير وهذا ما سماه شيشرون « البلاغة الجسدية

ويقابل اللغة الطبيعية اللغة الوضعية وسبب هذه التسمية اعتبارهم هذه اللغة كانها نتيجة اصلاح واتفاق وهي عندهم مجموع الدلائل الخاصة التي اصطلح كل قوم على اتخاذها للتعبير عن معانيهم وتختلف باختلاف الامم اذ لكل امة لغه كما لا يخفى

وللغتين مميزات ومزايا وبينهما فروق ليس هذا موضعها ولا الاطناب في تعدادها من غرضنا

المعول عليه الآن عند جمهور المحققين. فعند هؤلاء انَّ الكلام مبدأه في نفس الانسان وان الانسان استنبط الكلام لا بمواطأة بل بمجرد نموّ قواه وتبعاً لاتساع دائرة مداركه على ما يقتضيه ناموس التدريج في كلّ رقيّ[١] سُنّة[٢] الله في خلقهِ — ولا مناقضة بين هذا القول وما جاءَ من النص في الكتاب الشريف كما قد يتبادر الى الوهم لأول وهلة. فان العلم في مثل هذه الظروف لا ينكر الوحي ولا يحاول نقضه انما ينظر في المسألة من وجهة أخرى بان يطرح هذه القضية للبحث قائلاً «اذا فُرض عدم وحي الكلام ابتداءً افكان يمكن الانسان الحصول عليه» فعلى هذه المسألة يجيب العلم بالايجاب

وخلاصة القول ان اوجه الآراء هو رأي من يسلم تبعاً لنص الكتاب انَّ الانسان لم يفتقر فعلاً الى العمل لاستنباط الكلام لأن الله تبرع[٣] به عليه من فيض مكارمهِ ويسلم ايضاً تبعاً لتقرير العلم ان الانسان لو خُلق غير ناطق لاستطاع مع ذلك استنباط الكلام لما رُكز في نفسه من قوى التعبير والنطق والحاجة الى الائتلاف والانس وما زُين به من الآلات الصوتية العجيبة الكمال. واذا فُرض هذا الاستنباط وجب التسليم بأنه لابدّ أن يكون قد تم شيئاً فشيئاً طبقاً للسُّنة العامة — ومهما يكن فالفضل في كل ذلك لمن لافضل لسواه. فكل حقّ وخير وحسن من الله مأتاهُ ومرجعه الى الله

بقي بحث آخر في اصول اللغات وفروعها عُني به العلماء فنظروا في كيفية تشعّبها[٤] وترقيها وتوقفها واضمحلالها. وقد حللوا كلاً منها فنظروا في مقوماتها ومميزاتها ومشابهاتها وفروقها فتوّصلوا الى تبويبها وترتيبها فرقاً وطوائف باعتبار ما بينها من الجوامع والفوارق وسنورد هنا لمعة[٥] من

---

١ صعود وتقدم ٢ شريعة ٣ تفضل ٤ تفرقها ٥ قطعة من القول

ابحاثهم مما يدخل في موضوع هذا المختصر ولا يشق على الناشئة ادراكهُ توفية لما نحن فيه وتتمة للفائدة

اللغات باعتبار المتكلمين بها

قسم رجال البحث اللغات باعتبار المتكلمين بها الى طائفتين اوليتين اللغات الساميّة واللغات الآريّة

فاللغات الساميّة هي اللغات الجارية على السنة الأُمم التي يرتقي نسبها الى سام بن نوح كالعرب والعبرانيين والسريان والأشوريين وغيرهم فلغات هؤلاء الشعوب لهجات مختلفة لاصل واحد مشترك تفرَّع[١] منه عدّة فروع وما يُرى بينها من الفروق لا يتعدى[٢] الظواهر وليس من الجوهر بشيءٍ وهذا الاختلاف الذي طرأ عليها هو من العوارض التي تقتضيها ضرورة المنتحلين[٣] لها وتباين الاخلاق وانقطاع الصلات وتنوع الحاجات وتعاقب الاحقاب.[٤] فهي اشبه شيءٍ بحلقات متماسكة مهما تشكلت وتميزت فلا تزال اجزاء سلسلة واحدة

واللغات الآريّة وتدعى ايضاً الهندية الاوربية هي لغات الامم الممتدّة من الهند الى اورّبا. فلغات هؤلاء الشعوب مرجعها الى اصل واحد ايضاً وهذا الاصل هو اللغة السنسكريّة وهي لغة الهند القديمة المدونة في كتب البراهمة وهم يعدونها مقدسة. ومن فروع هذه اللغة اليونانية واللاتينية والبهلوية (الفارسية القديمة) واللغات الصقلبية والجرمانية واللغات اللاتينية الحديثة

---

١ تفرق ٢ يتجاوز ٣ المنتسبين اليها ٤ جمع حقب بالضم وهو مدة من الزمان غير معينة قيل هي ثمانون سنة وقيل اكثر

(الفرنسية والايطالية والاسبانية) ويقال في التباين الظاهر في هذه اللغات ما قيل في سوابقها

وزاد قوم طائفة ثالثة تعرف عندهم باللغات الطورانيّة . منها في اوربّا المجريّة والتركية وفي آسيا التترية والمغوليّة

طبقات اللغات

ويقسمون اللغات من حيث تكوينها وارتقائها الى ثلاث طبقات كلّ منها ارقى واكمل من الأخرى ففي الطبقة الاولى اللغات الأحاديّة وفي الثانية اللغات المزجية وفي الثالثة اللغات المتصرّفة

فاللغات الأحاديّة هي التي لا تتعدى كلماتها المقطع الواحد ولا اثر فيها للتغيّر تبعاً للمعاني. فلكل مقطع معنى عام مشترك يستدل على المراد منه بالقرائن. واوضح انموذج [1] لهذا النوع اللغة الصينية ولها اربعون الف حرف واللغة السيامية واللغة التبتية . وهذه اللغات لا تزال في طور الطفولية وقد توقفت عن النموّ مذ آلاف من السنين فكأنها مرآة الشعوب المتكلمين بها وهي احطّ اللغات درجة كما لا يخفى

واللغات المزجية هي التي يدخل الفاظها بعض التغيير بالصاق لفظة بلفظة تدل اولاهما على اصل المعنى والثانية على المعنى المضاف اليه من مثل الفاعل والزمان والمكان وتبقى كلتا اللفظتين على اصلها لا يدخلها تغيير عند الالصاق ومن امثلة هذه اللغات التركية واليابانيّة والكوريّة والمكسيكية

---

١ مثال

وغيرها . وهذا النوع ارقى من الاول واحط من الثالث فهو واسطة بين الفرقين آخذ بكلا الطرفين

واللغات المتصرفة هي التي يتغير فيها الاصل الواحد ويتحوّل الى صور شتى للدلالة على المعاني المختلفة التي تعرض للمتكلم. وهي ارقى الطبقات الثلاث واكملها فنها العربية والعبرانية والسريانية وتمتاز العربية بكونها اعرابية فان حركات اواخر الكلم تزيد اللغة رونقاً [١] وفصاحةً وتفنناً في النطق. وعلاوة على ذلك فالعربية لغة اشتقاقية يؤخذ فيها من اصل المادة الدال على المعنى الكلي سائر المعاني الجزئية التي لها علاقة قريبة او بعيدة بالمعنى الاصلي العام وزيادةً للايضاح ناخذ مثلاً مادة «عَلِمَ» فاذا اعتبرنا ما يشتق منها من الافعال والاسماء ظهر لنا جلياً ان كل هذه المعاني متماسكة متسلسلة ترمي كلها الى اصلها وترجع على كثرتها وتلونها الى المعنى الكلي الذي تؤديه المادة الاولى التي منها اشتقت جميع المعاني الجزئية . واذا احببت تقدير اهميّة هذه المزيّة [٢] وكشف سرّ هذه الحكمة فخذ المادة المقابلة «لعلم» في احدى اللغات الاعجمية وانقل اليها جميع مشتقاتها فترى ثم من تباين المواد ما يقضي بالعجب ويكون الحجة الملزمة على كل مماحك [٣] في فضل هذه اللغة الشريفة. ولا يخفى ما في هذه الخاصة من حسن العائدة على اللغة ولاسيما فيما يضطرّ [٤] كتبة العصر الى وضعه من الالفاظ للمعاني المتسحدثة [٥]. واكثر ما يكون وضع هذه المفردات من طريق الاشتقاق كالمنطاد [٦] مثلاً والدراجة [٧] والسيارة [٨] والبيئة [٩] وغيرها

---

١ حسناً ٢ فضيلة ٣ مخاصم ملاج ٤ اضطره احوجه ٥ المتخذة حديثاً
٦ المرتفع والمراد هنا القبة الهوائية التي ترتفع في الجو ٧ مركبة ذات دولابين يسيرها الراكب بالضغط بقدميه ٨ مركبة تسير بواسطة زيت الكاز او البخار او الكهرباء
٩ ما يحيط بالمرء ويؤثر في اخلاقه من مكان واقليم واشخاص وغير ذلك

اللغات من حيث التعبير

ويقسم علماء الالسنة اللغات من حيث التعبير عن المعاني الى اجمالية وتفصيلية

فاللغات الاجمالية هي التي اذا عرض للمتكلم المعنى وتوابعه من الزمان والفاعل وغير ذلك عبرّ فيها عن مراده بكلمة بخلاف اللغات التفصيلية فان للمعنى فيها ولكل من توابعه حظاً بكلمة من العبارة خذ مثلاً لفظة « اسُترعيتَ » من قول الشاعر

ياراعي الشاء لا تُهمل رعايتها فانت عن كل ما استُرعيت مسؤولُ

فانها تتضمن معنى الرعاية الاصلي ومعنى الطلب المستفاد من نقل الفعل الى وزن استفعل وزمان الفعل وكونه مبنيّا للمجهول مع تعيين المسند اليه انه مخاطب مفرد مذكر واذا عبرّت عن نفس هذا المعنى بالافرنسية والانكليزية احتجت الى اربعة الفاظ او خمسة وبقي ان جنس المخاطب لا يعرف غالباً الاّ بالقرينة. واللغات القديمة كلها اجمالية كالعربية واليونانية واللاتينية واللغات الحديثة كلها تفصيلية كالفرنسية وانكليزية والايطالية وتفرّدت الالمانية بكونها مشتركة بين الفريقين

واما ترجيح فريق على آخر فما يعسر الحكم فيه فان لكليهما مزايا لا تنكر. ولعلّ للغات التفصيلية فضلاً في سهولة عبارتها وتبادر معانيها الى الفهم. وقد لوحظ ان اللغات اول ما تكون اجماليّة ثم اذا اخذت تترقى مالت الى التفصيل وللعلوم في اللغات تأثير يميل بها الى الجهة التفصيلية كما ترى في معظم اللغات الحديثة والله اعلم

ويقسمون اللغات من حيث البقاء والدثور [١] الى حية وميتة. فاللغات الحية هي التي لا يزال شعب من الشعوب يتكلم بها كالعربية والانكليزية واللغات الميتة هي التي استعملها شعب قديم وانقرضت [٢] بانقراضه او حلّت لغة اخرى محلها كالفينيقية والسريانية واللاتينية ولا أثر لهذه اللغات الاّ في بطون الدفاتر

واللغة العربية اقدم اللغات الحية الراقية

اللغة في الجاهلية

اذا استقرينا [٣] الآثار [٤] الادبية التي خلفتها الامم السالفة رأينا الشعر اقدمها عهداً عند كلٍّ منها. سواءٌ ظلت الامة في اول اطوار العمران او بلغت ارقى درجات المدنية مما يدلنا ان كل شعب في بداوته اول ما يكون شاعراً وباكورة أثمار قريحته واعماله العقلية لا تكون الا المنظومات كالراماياتة والمهابهارتة عند الهنود والالياذة والاوذيسية عند اليونان والانياذة عند اللاتين والمعلقات عند العرب [٥]. وذلك امر طبيعيٌّ فان قرض [٦] الشعر ينطلق به لسان البدويّ طبعاً وترسله قريحته عفواً ولا

---

١ الامحاء والبلى ٢ فنيت ٣ تتبعنا ٤ جمع اثر وهو ما بقي من اعمال السلف والاثار نوعان مادية كاهرام مصر وهيكل بعلبك وعقلية وهي ما نبحث فيه الان ٥ واما الامم الحديثة فاشهر ما يذكر عندهم من الاثار القديمة أغنية رولان عند الفرنسيس والرواية الالهية واورشليم المحررة عند الايطاليان وقصيدة اسكندر عند الاسبان ومنظومات شكسبير والفردوس الضائع عند الانكليز والمسيانة عند الالمان ٦ نظم

يقتضي منه رقيًّا في المدارك وحُنكة [١] في التجريدات الفلسفية لا يقوى عليها عقله. والبيئة [٢] التي جعلته فيها الطبيعة تعينه على الحداء [٣] والنظم فانَّ الجولان في البيد [٤] والأنفراد في القفار من اشد الدواعي الى اثارة [٥] التصورات المتنوعة والايغال [٦] في عالم الخيال. وكيف لا تتّقد قرائح قوم وتشف [٧] اذهانهم وقد استوطنوا بلاداً واسعة الارجاء [٨] صافية السماء باهرة الضياء رقيقه الهواء تتدفق اشعة الشمس في فضائها امواجاً ماسيّة وتنعكس المرئيّات فيها اشكالاً غريبة فتتراءى للضارب في تلك الفيافي الشاسعة [٩] اشباحاً يُخيَّل اليه انها خلائق حيّة مسكنها الفضاء وكيانها الهواء... وتلك الخيالات التي قمصها [١٠] الوهم اجساماً وبث [١١] الفكر فيها ارواحاً فرأتها العين خلقاً سويّاً كان لها عندهم اصوات يدوي صداها في المفاوز [١٢] فتسمعها الاذن وتميزها عما سواها. فما تبصره العين هو الجن والتوابع وما سمعته الاذن هو عزيفها. واذكان مضطرَب هذه الجن بين الارض والسماء فلا بدّ ان يكون لها شأن في احوال الخلق. ومن ثَمَّ نشأ في اعتقادهم ان لكل شاعر جنيًّا اوتابعاً يلقنه الشعر ويوحي اليه ما يقوله في العدوّ من هجاء يكيده [١٣] وفي الحليف من مدح يكفّ عنه شر العدى فيكون كلام الشاعر — والشاعر عندهم العالم والحكيم والخبير بخفايا الامور — كأنَّهُ منزل من عالم الغيب يمناً [١٤] اذا رغب وشؤماً [١٥] اذا غضب. وهذه الغاية القصوى في اصطياد الخياليات وتجسيم الوهميات والبلوغ الى اوج [١٦] التصورات الشعرية. ومعلومٌ انه كلما قوي خيال المرء ودق احساسه

---

١ الاسم من حنك الدهر الرجل اذا جعلته التجارب والامور حكيما ٢ ما يحف بالمرء ويؤثر في اخلاقه ٣ سوق الابل والغناء لها ٤ الفلوات ٥ تهييج ٦ الذهاب بعيداً ٧ ترق ٨ النواحي ٩ الفيافي جمع فيفاة وهي الفلاة لا ماء فيها والشاسعة البعيدة والاشباح جمع شبح وهو الخيال ١٠ البسها ١١ نشر ١٢ جمع مفازة وهي الفلاة لا ماء فيها ١٣ يؤذيه ويمكر به ١٤ سعداً ١٥ نحساً ١٦ اعلى درجة

توفّر استعداده للشعر وقرب من كمال الشاعريّة

والعرب من اعقاب سام بن نوح كما قلنا آنفاً وجميع الامم الساميّة مطبوعون على الشعر والعرب في مقدمتهم ولعلهم اشعر فطرة من اخوانهم العبرانيين[١] والسريان لاستقلالهم بحكم انفسهم في بواديهم التي لا يطمع بهم فيها طامع وعدم وصول يد حاكم يستبدّ بهم ويسومهم[٢] الذل والهوان. فبينا نرى العبرانيين مثلاً ينظمون الاناشيد باكين نائحين نادبين سوء حظهم شاكين عنف الظالم وجوره واستعباده متأوّهين على خراب الاوطان جالسين على انهار بابل ذارفين الدموع عند ذكر صهيون معلقين على الصفصاف كنانيرهم اذا العرب على رحال ابلهم او صهوات[٣] خيولهم معتقلين الرماح الخطيّة[٤] متقلدين السيوف الهندية متنكّبين[٥] القسيّ ينقرون على أوتار الطبيعة وينشدون الشعر متغزلين متحمسين مفاخرين منافرين[٦] متوعدين مادحين هاجين واصفين فتتمثل لك الهمة الشماء والاريحيّة العربيّة بابهى مجاليها وهم في كل ذلك ينطقون بوحي السليقة[٧] متعمّدين الحقيقة سواء عبروا عن شؤونهم او ذكروا حادثة او وصفوا ما لديهم من المحسوسات. فلا يعتور[٨] كلامهم التكلف والتعمل ولا يشين[٩] اوصافهم الزخرفه الكاذبة والمبالغة المرذولة بحيث اضحى شعرهم مرآةً جلية انعكست عليها اخلاقهم وتمثلت فيها حقيقة حالهم. وسترى فيما يأتي ان شعرهم كان للباحثين عن تاريخ الجاهلية اغزر المصادر واصدقها

---

١ ليس المراد بهذا القول انكار ما للعبرانيين من بدائع المنظومات وكفى بالاسفار الالهية شاهداً لما عندهم من معجزات الآثار الشعرية وانما فضلنا عليهم اخوانهم العرب من حيث شيوع الشعر على السنة افرادهم كما هو مشهور عنهم ٢ يكلفهم ٣ الصهوة مقعد الفارس ٤ اعتقل الرمح جعله بين ركابه وفخذه والرماح الخطية المنسوبة الى الخط وهو مرفا سفن بالبحرين كانت تباع فيه الرماح ٥ تنكب القوس القاها على منكبه وهو مجتمع رأس الكتف والعضد ٦ محاكين في الحسب والنسب ومفاخرين ٧ الطبيعة ٨ يتداول ويشوب ٩ ضد يزين

كثرة شعر العرب في الجاهلية

وشعر عرب الجاهلية كثيرٌ جدًّا لتوفّر ملكة الشعر واستحكامها فيهم ولأنهم كانوا في ذلك العهد اذا جرى لهم حادث مهم أثر في عقولهم ذكروه في شعرهم تخليداً [١] له وحباً للتحدث بالخوارق. والحوادث التي تقع في عقل البدويّ موقع الاعجاب كثيرة لمكانه من السذاجة وقصوره عن ردّ الواقائع الى اسبابها. فمن هذا القبيل الظواهر الجويّة الخارقة كالكسوف والخسوف وظهور المذنّبات وتساقط الرُجُم [٢] وكالقحط والطوفان ولا سيما الحروب. ولما كان العرب قبل الاسلام قبائل شتّى مستقلة بعضها عن بعض في الحكم مشتركة الحاجات في ضروريّات المعاش كثر فيما بينهم النزاع وشنّ الغارات [٣] والبدويّ سريع الغضب كلمةٌ واحدة تقيمه وتقعده غيورٌ على حريّته تأبى نفسه الضيم [٤] والصبر على الذل. فمهما كان الاجحاف [٥] بحقه — اوما يظنه اجحافاً — يسيراً تافه القدر بادر الى المطالبة بهِ والاثئار [٦] من خصمه وتبعته قبيلته في ثأرهِ عملاً بسنة العصبية [٧] واجابة لداعي الشرف

وكان يزيد هذه الوقائع حدوثاً عادة البدو ان يكونوا ابداً شاكي ّ [٨] السلاح على أُهبة [٩] النزاع والدفاع. ولما كان العرب اشد شعوب الارض نخوة ونجدة ونَزَقاً [١٠] لم تزل الغزوات في قبائلهم قائمة على قدم وساق وهم يسمونها اياماً. ولكلّ يوم عندهم اسمٌ يؤخذ امّا من المكان الذي جرت فيه الواقعة او السبب الذي دعا اليها او ظرف من ظروفها او غير ذلك [١١]

---

١ ابقاء ٢ النجوم المتساقطة ٣ شنّ صبّ والغارة الخيل المغيرة اي صبها من كل جهة ٤ الظلم ٥ الاهلاك ٦ ادراك الثأر ٧ ما يحمل قوماً على التعاون والتناصر لرابطة بينهم كالدين والوطن والجنس والنسب وغير ذلك ٨ لابسين السلاح التام ٩ عُدة ١٠ النخوة الحماسة والمروءة . والنجدة الشجاعة ومضاء العزيمة والنزق الطيش والخفة عند الغضب ١١ اكثر ما تكون تسمية اليوم بالمكان كيوم الكلاب وهو موضع

وكان شعراء كل قبيلة حتى النساء ينظمون القصائد في الواقعة اضراماً لنيران الحماسة وافتخاراً بالغلبة وابتغاءً لحسن الأُحدوثة . فتتناقلها الالسن ويلهج [١] بها الركبان ويتغنّى بها الحُداة [٢] ...

وبلغ العرب في المغالاة بالشعر ورفع قدرهِ الغاية القصوى. وكانوا اذا نبغ شاعر في قبيلة اتتها الوفود من القبائل للتهنئة فيعقدون مجالس الفرح ويحيون الليالي بالملاهي والغناء ويولمون الولائم استبشاراً بقيام من يقي اعراضهم ويُفحم [٣] حسّادهم ويرفع اقدارهم ويخلد مآثرهم على مرور الدهور. وكان اشدّ مصابٍ وطأةً عليهم وافضح عار يتوقعونه ويسعون جهدهم في تلافيهِ [٤] ان يتناول شاعرٌ مشهورٌ اعراضهم [٥] بشيءٍ من الهجاء فتنتشر اقواله في احياء العرب بسرعة البرق فتتناقلها الرواة ويبثونها في ارجاء البادية فيلهج بها الكبير والصغير ويصبح المقصودون بالهجاء مضغةً في الافواه يضرب بهم المثل في اللؤم وهناك الطامة [٦] الكبرى. حتى لقد كان الملوك والامراء انفسهم يفتخرون بمدح الشعراء ويبذلون النفائس في صلتهم واسترضائهم واذا بلغهم عن شاعر هجوٌ في حقهم عمدوا الى قطع لسانه بغمرهِ بالاحسان الجزيل وتغاضَوْا [٧] عن سيّئاتهِ وتناسوا اهاجيهُ خوفاً من ان يتفاقم الشرّ ويزيد الشاعر في الطعن. فاذا كان هذا قدر الشعراء عند ملوكهم فما ظنّك بمن سواهم من القوم... وكانوا اذا وقع شاعرٌ اسيراً بين ايديهم على اثر حرب جرت انفدوا [٨] مافي طاقتهم لارضائهِ واخذوا عليه المواثيق والأيمان المغلّظة [٩] الاّ

بين الكوفة والبصرة . ويقولون يوم حليمة وهي امرأة كانت تطيب الذين يخرجون للقتال ويقولون يوم تحلاق اللمم وهو من ايام حرب البسوس حلق احد الفريقين رؤوسهم علامة لهم وكانت نساؤهم يطفن في ساحة القتال فاذا الفين رجلاً صريعاً حليق اللمة سقينهُ الماء واغثنه والا اجهزن عليه بهراوة كانت بايديهن

١ يتحدث بها ٢ جمع حادٍ وهو سائق الابل المتغني ٣ يسد افواههم ٤ منع وقوعهِ ٥ جمع عرض وهو محل المدح والذم من الانسان ٦ الداهيه تفوق ما سواها ٧ تغافلوا ٨ افرغوا ٩ غلظ اليمين اكدها

بهجوهم واذا تعذر[١] عليهم سدُّ فمه بالحسنى ربطوا لسانه بنِسعة[٢] كما فعل بنو تميم بعبد يغوث بن وقاص المحاربي حين اسروه يوم الكُلاب الثاني ومن قوله

اقول وقد شدوا لساني بنسعة ٍ   أمعشرَ تيم ٍ أَطلِقوا لي لسانيا

والخلاصة ان الحسن عندهم ما استحسنه الشاعر والقبيح ما استقبحه ومن رفعه بمدحه ارتفع ومن وضعه بهجائه اتّضع وسترى مصداق ذلك فيما يأتي إن شاءَ الله

اسواق الجاهلية

كان للعرب في جاهليتهم مواسم عامة تحضرها الوفود من جميع القبائل وهم يسمُّونها اسواقاً وكانوا يقيمونها في ازمنة ٍ وامكنة ٍ معينة يقصدها القوم لمصالحهم. فمن تلك الاسواق[٣] واحفلها سوق عكاظ بين نخلة والطائف فكان يتقاطر اليها العرب من كل فجّ ٍ وصوب[٤] ويُقيمون فيها نحو شهر ٍ يبيعون ويشترون ويأخذون ويعطون ويقضون مهامّهم وأُمورهم ثم يأخذون في القاء الخطب وانشاد القصائد فيتفاخرون ويتنافسون على مسمع من تلك الجماهير الغفيرة وفيهم الامير والمأمور والرئيس والمرؤوس والرفيع والوضيع من جميع قبائل العرب قاصيها ودانيها[٥] وكان لذلك المحفل الحافل جماعة من الزعماء القُرشيّين يترأسونه ويقضون فيما يسمعون من القصائد الطنّانة لفحول الشعراء. فمن اجمع رؤساء المحفل على علوّ طبقته واقروا له بالأفضلية نال القدر الرفيع والشهرة الواسعة وكتبت قصيدته بماء الذهب على القباطي[٦] وعُلّقت على استار الكعبة

---

١ امتنع ٢ النسعة بالكسر سير من جلد على هيئة اعنة النعال تشد به الرحال ٣ ومنها ذو المجاز والمجنة ودومة الجندل وغيرها ٤ الفج طريق بين جبلين والصوب الناحية يعني من جميع الجهات ٥ بعيدها وقريبها ٦ القباطي ثياب ابيض رقاق من كتان سميت

لتخليد ذكر قائلها على ممرّ الاحقاب. والشعراء الذين نالت قصائدهم شرف التعليق سبعة سيأتي ذكرهم فيما يلي ولذلك دعيت قصائدهم بالمعلقات. وكانت الرئاسة في سوق عكاظ لقريش دون سائر القبائل لعلوّ منزلتها عند العرب وسلامة لغتها من كل عيب حتى كان يضرب المثل بفصاحتها على حين لم تكن لغة قبيلة تخلوا من عيب كالوَكْم والوَهْم والوتم والعنعنة والفخفخة والكسكسة والشنشنة والطمطمانيّة والاستنطاء [1] وغيرها من قبيح اللغات فضلاً عن وحشيّ الالفاظ ومُستهجن [2] التعابير

ولا يخفى ماكان لعكاظ ورئاسة قريش من الفضل في توحيد لهجات العرب ولغاتها. فان شعراء القبائل الوافدين الى عكاظ كانوا يتحدَّون [3] جهدهم لغة قريش بانتقاء المفردات الفصيحة العذبة واختيار التراكيب البليغة المنسجمة [4] طمعاً بشهادة زعماء المحفل وكثرة المستحسنين. فكانت لغة قريش حينئذٍ بمنزلة اللغة الفُصحى عندنا واللغات الشاذة عنها بمنزلة اللغة العامية لا بُدّ من العدول عنها الى الفصحى فيما ينشر على رؤوس الملا. وهكذا سلمت اللغة من التبعثر [5] والتشعب اذ لو طال زمان التقاطع بين القبائل ولبثوا مستقلين بلغاتهم استقلالهم باحكامهم لزاد التباين في كلامهم ولهجاتهم واصبح البون [6] بينها

بذالك نسبة الى اقباط مصر الذين كانوا يتعاطون نسجها

١ الوكم كسر الكاف في نحو عليكم وبكم وهي لغة ربيعة والوهم كسر الهاء في نحو منهم وعنهم وهي لغة كليب. والوتم ابدال السين تاء نحو النات في الناس وهي لغة اليمن والعنعنة ابدال الهمزة في اول الكلمة عيناً نحو ظننت عنك ذاهب في انك ذاهب وهي لغة قضاعة والفخفخة ابدال الحاء عيناً نحو عتى وعين في حتى وحين وهي لغة هذيل والكسكسة ابدال كاف المخاطب سيناً نحو منس وعنس في منك وعنك والكشكشه ابدال كاف المخاطبة شيناً نحو منش في منك والاولى لغة بكر والثانية لغة تميم والشنشنة ابدال الكاف شيناً على الاطلاق نحو شلمتش في كلمتك وهي لغة اليمن والطمطمانية ابدال لام ال التعريف ميماً نحو امشمس في الشمس وهي لغة حمير والاستنطاء ابدال العين الساكنة نوناً اذا وقع بعدها طاء نحو انطاني في اعطاني ٢ مستقبح ٣ يتعمدون ويبارون ٤ السائلة المنصبة ٥ التبدد ٦ البعد والفرق

شاسعاً يتعذَّر معه التفاهم على حدِّ ما نرى من الفرق بين العربية واختيها العبرانية والسريانية ... ثم جاءَ الاسلام واساسه القرآن وهو بلغة قريش فكان القول الفصل في الامر وختم به على اللغة فأتم ما شرع فيه بعكاظ من التوحيد. ولا يزال مع ذلك في اسفار اللغة ونحوها آثار لذلك التفرق والاختلاف مما سنشير اليه في حينه وهو العقبة الكؤود[1] في سبيل ارتقاء اللغة على قدر الحاجات الحاليَّة ولحاقها بلغات العصر وعموم اللغة الفصحى على ألسنة المتكلمين بهـا

آثار عرب الجاهلية

إلاَّ ان ما انتهى الينا من آثار العرب في جاهليتهم وان كانت فيه كفاية حسنة لمعرفة منزلتهم من آداب اللغة فليس الا قليلاً من كثير. لان العرب مع استحكام ملكة البلاغة من السنتهم وتوفر مادة الشعر في اذهانهم كانوا قوماً أُمّيّين لا يقرأون ولا يكتبون. وقد ظلوا على اميتهم دهراً طويلاً مع انهم كانوا محاطين بأمم من جنسهم لهم كتابات عثر[2] عليها الباحثون كالنقوش الحميريَّة بالحرف المُسند والخطوط النبطية بالحرف النبطيّ وسبب تخلف عرب مُضَر عن اخوانهم في اتخاذ الكتابة اعراقهم[3] في البداوة وبعدهم عن صناعات الحضارة والكتابة من جملتها. ولم يدخل الخط عند العرب الا قبيل الاسلام ولعلَّ اقدم ما كتب من شعرهم معلقة امرئ القيس المتوفى سنة ٥٣٩ للميلاد. ومن ثم ترى ان ما وصل الينا من كلامهم لا يرجع الى ما وراء القرن الخامس وهو ما قيَّده علماء

---

١ العقبة المرقى الصعب في الجبال والكؤود الصعب الشاق المصعد فالنعت هنا للتوكيد فقط ٢ اطلع عليها ٣ تأصلهم وتعمقهم

الاسلام واخذوه عن أفواه الرجال . واما ما يعزى من الاقوال الى العرب البائدة كعاد وثمود وطسم وجديس فهو مما يأباه العقل ولا يثبت على محك المنتقد. فضلاً عما ينسبونه الى آدم نفسه[١] على انه اذا فرض وجود شيء من شعر العرب البائدة بل اذا فرض العثور على نسخة عربيّة لسفر ايّوب فانه كان من عرب البادية ويقال ان سفره كُتب شعراً عربيًّا وان موسى نقله الى العبرانية وقد ضاع الأصل الذي نقل عنه[٢] — اذا فرض ذلك فلاشك انه لا يكون في شيء من لغة امرىء القيس اذ لا يتصور ثبوت لغة اولئك الاقوام علي وتيرة[٣] واحدة الى أواخر الجاهلية وقد رأيت آنفاً كيف كان مصير اللغة لولا عكاظ ثم مجيء الاسلام وتقييدها بالضوابط والاحكام وتدوينها في الكتب صيانةً لها من الضياع

---

١ لا بأس ان نذكر على سبيل الفكاهة ما نسبوا لآدم من الشعر . قالوا لما قتل قاين هابيل رثاه آدم بقوله

تغيرت البلاد ومن عليها	فوجه الارض مغبرّ قبيح
تغير كل ذي ضعم ولون	ولم يُرَ في الدنى شيء مليح
بكت عيني وحق لها التباكي	وجفني بعد احبابي قريح

فاجابه ابليس :

تنوح على البلاد ومن عليها	وبالفردوس ضاق بك الفسيح
وكنت به وعرسك في نعيم	من الدنيا وقلبك مستريح
فما زالت مكايدتي ومكري	الي ان فاتك الثمن الربيح

وهذه ابيات شهادتها معها كما ترى . واما نسبة شعر عربي الى ابليس فهو شرف كنا وايم الحق في غنى عنه ولم يبقّ الا ان يقوم محقق فيروي لنا شيئاً من الشعر عن لسان اتان بلعام فيتم لنا بذلك المجد الاثيل ٢ هذا رأي جماعة من علماء التفسير الا أن المحدثين من علماء النقد يرتأون ان هذا السفر ألف في زمان سليمان او بعده بقليل مستندين في ذلك الى ما في الكتاب من كمال الصناعة الشعرية ٣ طريقة

دخول الكتابة عند العرب

واما كيفيّة دخول الكتابة عند العرب فخلاصة ماقالوا فيها ان رجلاً منهم اسمه بشر بن عبد الملك الكندي اخو أُكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل تعلّم الخط من اهل الانبار وكان لهُ صحبة بحرب بن اميّة القرشيّ لتجارته عندهم في بلاد العراق فتعلم حرب منه الكتابة ثم سافر معه بشر الى مكة فتعلم منه الكتابة جماعة من اهل مكة فكثر من يكتب بمكة من قريش ولذلك قال رجل كندي من دومة الجندل يمنّ[١] على قريش بذلك

لا تجحـدوا نعماءَ بشر عليكمُ ... فقد كان ميمونَ النقيبة[٢] أزهرا
اتاكم بخطّ الجزم حتى حفظتمُ ... من المال ما قدكان شتّى مبعثرا[٣]
فاجريتم الاقلام عَوداً وبدأةً ... وضاهيتمُ كتّاب كسرى وقيصرا
وأغنيتمُ عن مُسند الحيّ حِميرٍ ... وما كتبت في الصحف اقلامُ حميرا

والجزم المشار اليه هو نوع من الخط وضعه رجل من اهل الانبـار وقيل الحيرة اسمه مرامر بن مرة الطائي. قالوا وسبب تسمية هـذا الخط بالجزم انه جُزم اي قطع عن المسند وهو خط حمير اهل اليمن وكان لهم التقدُّم في الحضارة[٤] على سائر العرب الاَّ أنَّ كتابتهم هذه كانت محصورة فيهم قلّما يعلمونها احداً. وارتأى قومٌ ان الجزم اسم كان يطلق على الخط الكوفيّ قبل وجود الكوفة وحلولها محل الحيرة وهو مأخوذ عن الكتابة السريانية بأدلة منها المشابهة بينه وبين الحرف السرياني المعروف بالاسطرنجيليّ ومنها ان مرامر بن مرة كان من اهل الانبار او من اهل الحيرة وهما من مواطن النساطرة من السريان. وذهب البعض ان السريانيّ

---

١ يعدّد ما فعله من الخير ٢ محمود المخبر ٣ متفرقاً ٤ خلاف البداوة او سكنى المدن

هو اصل المسند لانه اقرب شبهاً به من الكوفي فيكون الكوفي منقولاً عن المسند والمسند منقولاً عن السرياني وقيل غير ذلك والله اعلم

وانتشرت الكتابة في الاسلام بعد الهجرة بنحو سنةٍ. وذلك لما اسرت الانصار سبعين رجلاً من قريش وغيرهم في غزوة بدر جعلوا على كل واحدٍ منهم فدية من المال وعلى كل من عجز عن ادائها ان يعلم الكتابة لعشرة من صبيان المدينة فلا يطلقونه الاّ بعد تعليمهم. وهكذا انتشرت الكتابة عند العرب وهم عمّموها في البلاد التي افتتحوها بعد الاسلام. وكانوا على ما ذكر بعضهم[1] يستعملون في كتاباتهم قلمين او خطين القلم الكوفي لكتابة القرآن ونحوهِ من النصوص الدينية كما كان السريان يستعملون سلفه الاسطرنجيلي في كتابة الاسفار المقدسة والقلم النبطي او النسخي المأخوذ عن الانباط وهم امّة عربية او متعرّبة كانت مساكنهم في الشمال الشرقي من بلاد العرب وآثارهم تدل على ضخامة عمرانهم.[2] وهذا الخط كان يكتب به ماسوى الاسفار الدينية من المكاتبات الجارية والمعاملات الاعتيادية ولم يزل في الدرجة الثانية حتى اصلحه ابن مقلة الخطّاط الشهير وبلغ به مقاماً من الحسن بحيث عمّت الكتابة بـه واهمل الخط الكوفي. وفي خطّ ابن مقلة يقول الوزير الفقيه ابو عبيد البكري الاندلسي:

خط ابن مقلة من ارعاهُ مقلتهُ   ودّت جوارحهُ لو اصبحت مُقَلا[3]
فالدرّ يصفرّ لاستحسانـهِ حسداً   والورد يحمرّ من إبداعهِ خجلا

---

١ هذا رأي جرجي زيدان في كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي الجزء الثالث الصفحة ٥٣ » غير ان ابن خلكان يقول ان ابن مقلة نقل الخط الكوفي الى الصورة الانيقة المتعارفة اليوم ٢ عظمة تمدنهم ٣ جمع مقلة وهي العين او شحمة العين تجمع السواد والبياض والجوارح الاعضاء

ثم جاء بعده ابن البوّاب فهذّب طريقته ونقحها وكساها طلاوةً وبهجةً على ما نراه اليوم وتفرع القلم النسخي الى عدة اقلام[1] وسترى في الكلام على ابي الاسود الدؤلي والحجاج شيئاً مما نحن في صدده لانذكره هنا مخافة التطويل

وأمّا ترتيب حروف الهجاء عندهم لذلك العهد فكان على ترتيب أبجد اتباعاً للسريان والعبرانيين والى هذا النسق اشار الشاعر بقوله

تعلمت باجاداً وآل مرامر وسوّدت اثوابي ولست بكاتبِ

اراد بباجاد ابجد وبآل مرامر بقيّة الكلمات السبعة لان مرامر بن مرة المار ذكرُهُ كان قد سمَّى كل واحد من اولاده بكلمة من ابجد وهم ثمانية. ويحكى في هذا المعنى أن عمر بن خطاب لقي اعرابياً فقال له «هل تحسن ان تقرأ شيئاً من القرآن» فقال «نعم» قال «فاقرأ امّ القرآن»[2] فقال «والله ما احسن البنات فكيف الام» فضربه ثم اسلمه الى الكتاب فمكث فيه حيناً ثم هرب وانشأ يقول

اتيت مهاجرين فعلموني ثلاثة أسطرٍ متتابعاتِ
كتاب الله في رقٍ[3] صحيحٍ وآياتِ القُرانَ مفصّلاتِ

---

[1] كانوا يستعملون في الدواوين اقلاماً متنوعة لكلّ منها اسم خاص اشهرها قلم الطومار وهو اجلها اي اغلظها وعرض قطته اربع وعشرون شعرة من شعر البرذون او نحو ثلاثة مليمترات ثم قلم الثلثين وعرضه ست عشرة شعرة او مليمتران ثم قلم النصف وعرضه اثنتا عشرة شعرة او مليمتر ونصف ثم قلم الثلث وعرضه ثماني شعرات او مليمترٌ واحد وبين قلم الطومار وقلم الثلثين مختصر الطومار وعرضه نحو عشرين شعرة او مليمتران ونصف ثم تأخذ الاقلام بعد قلم الثلث تستدق شيئاً فشيئاً فيجيء خفيف الثلث ثم القلم اللؤلؤي ثم قلم التوقيع والرقاع والمحقق والغبار وهو ادقها وبه تكتب بطائق الحمام ونحوها — واعلم ان الطومار اسم للكامل من مقادير الورق عندهم [2] ام القرآن فاتحته وهي اول صورة منه [3] الجلد الرقيق يكتب فيه

وخطُّوا لي اباجادٍ وقالوا تعلَّمْ سعفصاً وقُرَيْشيَاتِ
وما انا والكتابة والتهجّي وما حظّ البنين من البنَاتِ

والمغاربة يخالفون المصطلَح المعتاد في ترتيب الابجديَّة وحروف المعجم ونقط الفاء والقاف وضبط الشكل اما الابجدية فهي عندهم ابجد هوز حطي كلمن صعفض قرست ثخذ ظغش ومن ثم الاختلاف في حساب الجمّل بين الاصطلاحين وترتيب حروف المعجم هو عندهم ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و لا ي . وينقطون الفاء من اسفل (ڢ) والقاف بنقطة واحدة من فوق (ڧ) واذا كان الحرف المشدّد مضموماً او مفتوحاً وضعوا الحركة بين الحرف وعلامة التشديد فيرسمون شدَّ وشدُّوا مثلاً « شدَّ وشدُّوا»

كيف توصلوا الى النظم

بقي ان نختم هذه المقالة بكلمة عن كيفية توصل القوم الى النظم والمعاني التي نظموا فيها مع الاشارة الى تقسيم الشعر عند العرب وتقسيمه عند الافرنج تتمَّة للفائدة وتبصرة للمطالع الاديب

اما كيفية توصلهم الى النظم فالمتبادر الى ظن الباحث هو انه لما كان الانسان مطبوعاً على ايثار [1] الايقاع في الاصوات وترديد نغمةٍ لذَّت بها اذنه اخذ يحاكي ما يقع تحت حسّهِ من الحركات الدوريَّة . فنسق كلماتٍ منتظماتٍ متتابعات على قدر ما اوحت اليه فطرته فتغنى بها فوجد من نفسه طرباً وخفة حببت اليه العود على ذلك البدء فاضاف الى الدور الاول دوراً

---

١ تفضيل

آخر يقابله فكان منه السجع ثم ما عتم [١] البدوي الضارب في عرض الصحراء ان عمد الى تقطيع كلام يضمنه ما تناجيه به نفسه وينسجه على ذلك المنوال [٢] فرأى في ذلك النظم من الأنس في تلك القفار الموحشة ما سوّل [٣] له المزيد منه فجعل ينشد فِقَراً فقراً [٤] على هذه الطريقة ويضمنها ما يُوحي اليه قلبه من شؤونهِ الشخصيّة او تُعيده عليه ذكراه من الاحداث التي شهدها سالفاً فهو تارةً يناغي [٥] نفسه بذكر الحبيبة معدداً محاسنها خَلقا وخُلقاً وطوراً يتأسف على فراق الاحبة الذين ظعنوا [٦] في طلب النجعة [٧] ذارفاً الدموع على اطلال [٨] مضاربهم وهو حيناً يصف واقعة بين حيّين أبلى فيها بلاءً حسناً [٩] فيفاخر وينافر ويتوعد ويتحمّس وهلمّ جرًّا في سائر أغراضه فكان من ذلك الحداء وهو الانشاد بتطريب وترجيع يسير ورفعٍ للصوت. ثم يلبث طويلاً ان احسّ في ناقتهِ اذا حدا وهو على ظهرها انها تنتعش ويخفّ سيرها فرغبه ذلك في مواصلة حدائه وغنائهِ

وجاء في مروج الذهب ان مضر بن نزار بن معدّ سقط عن بعيرٍ له في بعض اسفارهِ فانكسرت يده فجعل يقول يايداه يايداه وكان من احسن الناس صوتاً فاستوسقت [١٠] الابل وطاب لها السير فاتخذه العرب حداءً برجز الشعر وجعلوا كلامه اوّل الحداء فمن قول الحادي ياهاديا ياهاديا ويايداه يايداه. قالوا ولعلّ الهزّات الاربع المتتابعة في سير الناقة ارشدته الى ايقاع حدائه على اجزاءٍ رباعيَّة فكان من الحداء الرجز وهو على ما يقولون اول بحور الشعر لقربه من النثر وسهولة مزاولتهِ [١١] حتى سموه حمار الشعراء

---

١ ابطأ ٢ خشبة الحائك ينسج عليها ويلفّ عليها الثوب والمراد هنا: الطريق والاسلوب ٣ زيّن له وحثه على المزيد ٤ جمع فقرة وهي الجملة المختارة ٥ يكلم بما يعجب ويُسر ٦ رحلوا ٧ طلب الكلأ اي العشب في مواضعهِ ٨ جمع طلل وهو الشاخص من الآثار ٩ أظهر بأساً وشجاعةً ١٠ انقادت ١١ معالجته والنظم على وزنه

لكثرة ما عبثوا[١] بوزنه واجزائهِ وسخّروه من المعاني التي ليست من اغراض الشعر بشيء كالنحو والطبّ وغير ذلك . وما كان احراهم ان يسمّوه مربّي الشعراء وسيدهم لما لهُ من فضيلةِ السهولة ومزيّة القِدم . ولكنه خُلُق الاحداث لاقيمةَ عندهم لقديم ولا حرمة لشيخ

وما زالت الاوزان ترقى وتتشعّب شيئاً فشيئاً حتى هبّت بالعرب نهضة الادب بالجاهلية فصقلتها اذ ذاك ألسنُ الشعراء وبلغت أشدَّها[٢] في ايام مُهَلهِل وابن اخته امرئ القيس. فمهلهل على ما يقال اوّل من قصّد القصائد وامرؤ القيس اول من أطالها وتفنّن في نظمها فبكى على الاطلال واتخذ له صديقين وهميّين يستوقفهما ويستبكيهما معه واستطرد[٣] الى الغزل بعد نضوب[٤] الدموع والى الوصف بعد نفاد[٥] عواطف الشوق... واما القافية فهي متأخرة عن النظم ويقال انها اول ما استعملت عند العرب ولعلهم بدأوا بالتصريع[٦] ثم لما اعجبتهم الرنة احبوا العود اليها والمزيد فكرّروها في آخر كلّ بيت

اقسام الشعر

نظم شعراء العرب في جميع ما يعرض للمرء من المعاني الخاصة والعامة ومن استقراء[٧] شعرهم قسم اصحاب البحث ما نظموه الى فنون متعددة ابلغَها ابن ابي الاصبع العدواني الى ثمانية عشر فناً — غزل ووصف وفخر ومدح وهجاء وعتاب واعتذار وادب وزهد وخمريّات ومراثٍ وبشارة وتهانئ ووعيد وتحذير ومُلَح وسؤال وجواب وزادوا عليها الزهريات والحكم والمجون[٨] والحماسة وهي اشرفها عندهم

---

١ استخفوا ٢ قوّتها ٣ انتقل ٤ نشوف ٥ فروغ ٦ هو ان ينفق آخر جزء من صدر البيت مع آخر جزء من عجزه في الوزن والحركة والتقفيه ٧ تتبع ٨ قلنا وما كان اغنى العربية عن هذا الفن السمج ولا ندري كيف يعدّ هذا القول الهراء فنا

ومن غريب عوائد الشعراء عند العرب انهم اذا مدحوا استهلُّوا [١] بالبكاء على الطلول حتى بعد انتقالهم من مضارب البادية الى قصور المدن واغرب منه استهلالهم المدح بالتشبيب [٢]. امَّا بكاؤهم على الطلول فيمكن ان يوجَّه باعتبار أن العرب لما كانوا في بداوتهم اصحاب ابل وسكان خيم تضطرهم احوال معيشتهم الى التنقل من مكان الى مكان ابتغاء النجعة في الصيف وطلب الدفء لانعامهم [٣] في الشتاء كثر في شعرهم ذكر المنازل الخاوية [٤] والاحبَّة الظاعنين وهاجت رؤية الأطلال في البدويّ عواطف الوجد [٥] والشوق والتلهّف. ثم لما اتسعت دائرة اغراض البدوي وانفسح لنظمه مجالٌ ارحب فتعدى الى ما سوى شؤونه الشخصية من مدح او وصف عزَّ عليه قطع سابق عادته وهجران مألوفه فظلَّ يستهل قصائده بالنوح على الطلول وذرف الدموع على فراق الاحبة قبل الاخذ في تعداد مناقب ممدوحه ووصف محامده ومآثره. واذا ذكر ناقتهُ التي اضناها التعب وبراها السير في الفيافي الشاسعة والمفاوز [٦] المهلكة الخطرة فتلك حكاية حالٍ يأنس بها السامع وتروق الممدوح روايتها والافتنان [٧] في تفصيلها بل قد يغتفر له الاخذ بطرف من التغزّل [٨] بمحبوبته والالماع [٩] الى محاسنها والاشارة الى حاله وحالها اذ كثيراً ما يكون تجشمه [١٠] لهائل الاسفار التي يحجم [١١] عنها من لم يكن نظيره جريءَ الصدر مشيَّع [١٢] القلب طمعاً باعجابها وتحبُّباً اليها والحصول على مال وافرٍ يؤديه مهراً عنها لابيها الذي قد تتخطَّى شروطه حدود الاعتدال كما جرى لبشر بن عوانة العبديّ فانه اضطر الى مصارعة الاسد وصرعه ليظفر بمهر ابنة عمه فاطمة

---

١ ابتدأوا ٢ وصف محاسن النساء شعراً ٣ ابلهم ٤ الفارغة الخالية ٥ الحب ٦ جمع مفازة وهي الفلاة لا ماء فيها ٧ التصرف ٨ محادثة النساء والافاضة بذكرهن في الشعر ٩ الإشارة ١٠ تكلفه على مشقة ١١ يكف ١٢ شجاع

نعم اذا فهم البكاء على الاطلال والتغزّل بصفات المحبوبة من بدويٍّ عريق في البداوة او حديث العهد بالحضارة تتشوق نفسه الى حريَّة باديته مهما توفر لديهِ من اسباب الترف[١] ولسان حالهِ ينشد

لبيتٌ تخفق الارواح فيــه احبُّ اليّ من قصر مُنيفِ[٢]
ولبسُ عبــاءَةٍ وتقرَّ عيني احبُّ اليّ من لبسِ الشفوفِ[٣]

اذا فهم ذلك منه فما قولك بحضريّ تقلب من ولادته على وثير[٤] الفرش وسكن المدن الحافلة يستهل مدحه بذرف الدموع على اطلال لم تطلّ عينه عليها قط؟ واي ذوق يُبيح له التشبب بمحبوبةٍ قد لا يكون لها وجود الاَّ في خياله وهو من حبّها افرغ من فؤاد امّ موسى[٥]؟ كأنه قُضي على كل شاعرٍ ان يكون الحبّ ضناه والشوق براه كما قال المتنبي:

اذا كان مدحٌ فالنسيب المقدَّمُ اكلُّ فصيح قال شعراً متيَّمُ[٦]

ولم يكن ذلك ليمنع المتنبي عن اقتفاء[٧] آثار غيره من الشعراء بتقديم النسيب على المدح. الاَّ انه كان كلما عدل عن هذه الخطة وعمل بمقتضى الحكمة التي نطق بها جاءَ استهلالُهُ ابرع وشعره ارفع فأَيُّ مطلع لقصيدةٍ في مدح امير احسن وقعاً من قوله

الرأْي قبل شجاعة الشجعانِ هو اولٌ وهي المقام الثاني

واي مطلع أبرد من استفتاحهِ المدح بقولهِ

أوْهِ بديلٌ من قولتي واها لمن نأت والبديلُ ذكراها[٨]

---

١ التنعم ٢ الارواح جمع ريح ومنيف مرتفع ٣ جمع شف وهو الستر أو الثوب الرقيق ٤ وطيء لين ٥ كليم الله. لانها اطمأنت على حياة ولدها وقد جعل تحت حماية ابنة فرعون. وهذا مثل فيه اشارة الى ما جاء في القرآن: «واصبح فؤاد ام موسى فارغاً» ٦ النسيب التشبيب بالنساء والمتيم الذي استرقه الهوى ٧ اتباع ٨ أوهِ كلمة

وسترى في كلامنا على ابي العتاهية شيئاً مما نحن فيه يدلك على استهجانهم [١] حتى في ذلك العصر توطئة المدح بالغزل. واذا أخذ على اولئك الشعراء اخذهم بهذه الخطة مع قرب عهدهم بالجاهليه ومُلابسة [٢] اكثرهم لاهل البادية فماذا يقال عن شعراء هذا الزمان وابناء التمدن الحديث المولعين بالطبع على غرار [٣] الأُوربيّين والتخلق بأخلاقهم مهما كانت اذا استمروا بشعرهم على أُسلوب امرئ القيس والمتنبي ومن اليهما من الشعراء الاقدمين... وعلى كل حال فالرأيُ مايراه السادة الشعراء والحكم ما أقرّتهُ دواوينهم الغراء [٤] والشكر لمن يخلي وتراً قد طالما نُقر عليه حتى سئمته [٥] الطباع ويكفّ عن نغمةٍ قد كثر ما رُدّدت حتى مجّتها [٦] الاسماع

وقد تغلغلنا [٧] في الكلام على هذه العادة الغريبة الى حد التنكيب عن الصدد [٨] الذي كنّا عليه فنرجع الآن الى اقسام الشعر

رأيت آنفاً ان العرب بنوا تقسيمهم للشعر على الاغراض المتنوعة التي يقصدها الشاعر وسمّوا تلك الاغراض فنوناً ذكرناها كلها او معظمها. واما الافرنج فعندهم ان الشعر يقسم الى قسمين اوليين تتشعب منهما عدة فروع منها الفنون التي ذكرها العرب في تقسيمهم. فالقسم الاول يعرف عندهم «بالشعر القصصي» والقسم الثاني يُعرف «بالشعر الغنائي» وذلك لأن الناظم اما ان يقصد بشعرهِ وصف واقعة يتفنن في قصها ويتلاعب في ايراد

توجع وواها كلمة تعجب ونأت بعدت. يريد انه كان يستطيب قرب الحبيبة فلما فارقته توجع لفراقها فصار التأوه بديلاً من الاستطابة كما صار ذكرها عنده بديلاً من شخصها

١ استقباحهم ٢ مخالطة ٣ مثال ٤ قال الشاعر

للسادة الشعراء فضلٌ ثابتٌ وهم مقام شامخ ومكانُ
وهم سلاطين الكلام الا ترى كل امرىء له ديوانُ

٥ مَلته ٦ مجّ الماء رماه من فمِ ٧ تغلغل في الشيء دخل فيه على تعب وشدة ٨ العدول عن القصد

تفاصيلها وسرد ظروفها يبرزها بمظاهر مؤنقة ووجوهٍ متلونة وذلك الشعر القصصي" واما ان يقصد اظهار ما تكنّهُ نفسه من العواطف ويجده قلبه من الشواعر ويتمثل لخاطره من التصورات والخيالات المبتكرة[١] والامثال والحكم السديدة وذلك الشعر الغنائي. وقد زادوا قسماً اخر يعرف «بالشعر التمثيلي» وهو ان يعمد الشاعر الى واقعة فيتصور الاشخاص الذين جرت على ايديهم وينسب الى كلٍ منهم ما تحتمله الظروف وتدل عليه القرائن من الافعال والاقوال فينطق كلاً منهم بلسان نفسه ويُحييهم للعيان بتمثيله اياهم في مكان معدّ لذلك بمرأى من الجمهور كما هو مشهور. وهذا النوع فرعٌ من الشعر القصصي حيث ينطق الشاعر بلسان جميع الذين كانت لهم يدٌ في الوقيعة

واذا اعتبرت فنون الشعر العربي" المار ذكرها رأيت انها راجعة الى الشعر الغنائي واما الشعر القصصي كما هو في عرف الافرنج فالعرب وسائر الأمم الساميَّة قليلو الحظ منه نادر الوجود في لغتهم وان كان العرب قد نظموا شيئاً من هذا الموضوع فانه لم يصل الينا لعدم تدوينهِ

والغالب في ظننا ان العرب لم يوفَّقوا الى نظم الملاحم[٢] لا في الجاهلية ولا في الاسلام اما في الجاهلية فلم يتفق لهم شيء من ذلك لعدم استعدادٍ في فطرتهم بعينهم على مثل تلك المنظومات الطويلة النفس المتشعبة الاغراض يردّها الناظم باجمعها الى قصد اصليٍ" واحد. واما في الاسلام فانهم مع وقوفهم على آداب الامم واطّلاعهم على ملاحم شعرائها لم تنبعث لاحد منهم همّة الى تحدي اولئك الفحول وتزيين العربية بمثل هذه الحلية النفيسة الفاخرة.

---

١ الجديدة المقولة لاول مرّة ٢ المراد بالملحمة ههنا المنظومة من الشعر القصصي. ومن شروطها ان تتخللها الخوارق ويكون فيها يدٌ للقوى العلوية وهذه خلة لم تتوفر للعرب فانهم مع قولهم بالجن والهواتف والتوابع وما شاكلها كانوا قليلي الاهتمام بما وراء الطبيعة

ولعلّ السرّ في ذلك افراط العرب في تعصّبهم للغتهم وآدابها كما ورثوها وزهدهم فيما سواها الى حدّ الخروج عن جادّة الاعتدال — والافراط والتفريط خلتان ذميمتان [١]

وقد ذكر ابن الاثير في ختام المثل السائر كلاماً فيما نحن فيه ساقهُ اليه تعليلهُ لعجز الشاعر دون الكاتب ان يجيد اذا احتاج الى الاطالة قال «اني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار اليها فان شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من اولهِ الى آخرهِ شعراً وهو شرح قصص واحوال ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم كما فعل الفردوسيّ في نظم الكتاب المعروف بشاه نامه وهو ستون الف بيتٍ من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم وقد اجمع فصحاؤهم على انه ليس في لغتهم افصح منه. وهذا لايوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها واغراضها وعلى ان لغة العجم بالنسبة اليها كقطرةٍ من بحر» قلنا ومن ثمّ ترى ان في قضية اتساع اللغة مجالاً واسعاً للنظر والاعتبار للباحث المدقق

واذا احببت الوقوف على نموذج من الشعر القصصي فعليك بمطالعة الياذة هوميروس المعربة حديثاً [٢] فترى ثمة من بدائع الاعجاز وعلوّ الطبقة مع طول النفس واستمرار اللهجة العلوية ما يخلب [٣] القلب ويبهر العقل ويقضي بالاسف ان تكون العربية خلواً من امثال تلك الغرر

الاّ ان العرب ان لم ينظموا الملاحم بحصر الكلام فان لهم من القصائد الطنانة في وصف الوقائع ما يعد من اعلى طبقات الشعر القصصي . فهذه

---

١ الافراط تجاوز الحد والتفريط التقصير عنه ٢ عرّب الالياذة وابدع في التعريب الشاعر البارع سليمان افندي البستاني وصدرها بمقدمة مطولة اودعها المباحث الجليلة في آداب العرب واليونان واشبع الكلام على الشعر العربي واوزانه وفنونه ومزاياه واطواره من عهد الجاهلية الى ايامنا فاجاد وافاد ٣ يخدع بلطف الكلام

المعلقات السبع اذا انت تدبرتها رأيتها اقرب الى الشعر القصصي منها الى الشعر الغنائي وكذلك القول عن اكثر الشعر الجاهلي وقد جمع ابو زيد محمد بن ابي الخطاب القرشي في كتابه «جمهرة اشعار العرب» تسعاً واربعين قصيدة لتسعة واربعين شاعراً كلّها من نفائس الشعر العربي ومعظمها قريب من النوع القصصي. وقد قسمها الى سبع طبقات في كل طبقة سبع قصائد — ففي الطبقة الاولى المعلّقات وقد خالف فيها الترتيب المشهور فحذف معلقة الحارث بن حلّزة اليشكري وجعل النابغة والاعشى بين اصحاب المعلقات فكانت المعلقات ثمانياً ومايليها ستّاً — وفي الطبقة الثانية المجمهرات اي المحكمة السبك اخذاً من الناقة المجمهرة وهي المتداخلة الخلق — وفي الطبقة الثالثة المنتقيات اي المختارات — وفي الطبقة الرابعة المذهّبات اي المكتوبة بماء الذهب — وفي الطبقة الخامسة المراثي — وفي الطبقة السادسة المشوبات اي التي شابها الكفر والاسلام — وفي الطبقة السابعة المُلحمات اي المحكمات النظم اخذاً من قولهم الحم الشعر اي احسن نظمه واحكم لحمته

وخلاصة القول ان العرب نظموا الشعر القصصي واجادوا فيه كما في سواه الاّ انهم لم يبلغوا به تلك المكانة الرفيعة التي رقي اليها هوميروس ومن حذا حذوه [1] من فحول الشعراء عند الامم

وقد طال بنا نفس الكلام في هذه المقالة الى ما يخشى معه سأم [2] المطالع ان زيد عليه. فنقف عند هذا الحدّ ونشرع في ذكر مشاهير الشعراء الجاهليين على قدر ما تحتمله الحدود التي اخذنا على انفسنا ان لا نتخطاها في هذا المختصر. ومن الله عزّ وجلّ نلتمس التوفيق والصواب فمنه المبدأ واليه المآب [3]

١ فعل فعله ٢ ضجر ٣ المرجع والمنقاب

الشعراء الجاهليون[1]

سِمة[2] شعر هذه الطبقة البداهة والصدق واستيفاء المعنى من جميع وجوههِ فلا يُرى في كلامهم أثر للتكلّف والغلوّ والتقصير. واستعمالهم للألفاظ الغريبة الضخمة دليلٌ على ما كانوا عليه من البدواة بخشونتها وحريّتها

أمرؤ ٱلقَيْس (٥٣٩ مسيحية)*

هو ابو وَهْب جَندح بن حُجْر الكندي الملقب بامرئ القيس والملك الضلّيل[3] لما اصابهُ من تضعضع الدهر. وُلد ببلاد بني أسد وكان ابوه ملكاً عليهم ونشأ ذكيّاً متوقد الفهم وقال الشعر من صباه فغضب عليه ابوهُ وكانت الملوك تأنف من قول الشعر. ولمّا لم يرتدع طرده ابوه فخرج في جماعة من اخلاط العرب وشذّاذهم[4] وكان اذا صادف غديراً أقام هناك يتصيّد معهم فيأكلون ويشربون الخمر ويتغنّون. ولمّا كان يوماً بدمّون من ارض اليمن اتاه رسول بمَنْعَى ابيهِ وهو مع نديم[5] يشرب ويلاعبه بالنرد[6] فأمسك النديم عن اللعب فقال له امرؤ القيس « اضرب » فلمّا فرغ من

---

١ قسم العلماء الشعراء الى اربع طبقات الطبقة الاولى الشعراء الجاهليون وهم قبل الاسلام والثانية المخضرمون وهم الذين ادركوا الجاهلية والاسلام. والثالثة المتقدمون ويقال لهم الاسلاميون وهم شعراء الدولة الاموية. والرابعة المولدون وهم شعراء الدولة العباسية وربما اطلقوا لقب المحدثين على من بعد هذه الطبقة ٢ علامة * الرقم الذي الى جانب الاسم يدل على سنة الوفاة ٣ الكثير الضلال ٤ الغرباء عن حيّهم ومنازلهم ٥ المنادم على الشرب ٦ لعبة تعرف عند العامة بلعب الطاولة

لعبه قال له «ما كنت لأفسدَ عليك دَستَك[١]» ثم اقبل على الرسول وسألهُ عن امر ابيه كلّهِ فاخبرهُ كيف ثارت[٢] به بنو اسد وقتلوه فقال :

تطاول الليل علينا دَمُّونْ   دمّونُ إنّا معشر يمانونْ
وإننا لأهلنا مُحبُّونْ

ثم قال «ضيّعني ابي صغيراً وحملني دمهُ كبيراً. لاصحوَ اليوم ولا سكر غداً. اليومِ خمر وغداً امر...» ولما صحا آلى[٣] ان لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدّهن بدهن حتى يدرك ثأر ابيه فيقتل من بني اسد مئة ويجزّ نواصي مئة ولمّا اجنّه[٤] الليل رأى برقاً فقال :

أرِقت لبرقٍ بليلٍ أهَل   يضيء سناهُ باعلى الجبل[٥]
اتاني حديث فكذّبتُهُ   بأمر تزعزعُ منه القُلَل[٦]
بقتل بني اسدٍ ربَّهم   الاكلّ شيءٍ سواهُ جَلَل[٧]

ثم هب للأثثار[٨] لابيه هبوب الابطال واستنجد ببكر وتغلب فانجدوه في وقعةٍ ثم خذلوه[٩] فاستأجر من قبائل العرب رجالاً وسار بهم الى بني اسد ومرَّ بتبالة وبها للعرب صنم تعظمهُ يقال له ذو الخَلَصة[١٠] فاستقسم عنده بقداحهِ[١١] فلم يعجبه خروج القدح الناهي ثلاث مرات متتابعة فجمع القداح وكسرها وضرب بها وجه الصنم وقال «ويحك لو ابوك قتل ما عقتني» وبلغ امره المنذر فانكر غزواتهِ وعيثه[١٢] فوجّه الجيوش في إثره والحّ في طلبهِ

---

١ هو الذي يكون فيه القلب في الشطرنج او غيره ٢ وثبت عليه ٣ حلف ٤ ستره واخفاه ٥ ارق ذهب عنه النوم وأهلّ ظهر وسناه ضياؤه ٦ جمع قلة وهي اعلى الجبل ٧ ربهم سيدهم وجلل يسير ٨ لأخذ الثأر ٩ تركوا اعانته ونصرته ١٠ واحدة الخَلَص وهو شجر كالكرم يتعلق بالشجر فيعلو وهو هنا اسم صنم ١١ جمع قدح بالكسر وهو السهم قبل ان ينصل ويراش ١٢ افساده

فتفرقت جماعته وفرَّ هارباً وتوجَّه الى قيصر الروم بالقسطنطينية يستنجده على اعدائه. فاودع ماله وسلاحه عند السموأل وقدم على الملك فتحفّى[1] له واكرم مثواه[2] وحظي عنده. واندس رجل من بني اسد يقال له الطماح كان امرؤ القيس قد قتل اخاً له حتى اتى بلاد الروم فأقام مستخفياً ووشى بامرئ القيس لدى قيصر وقال له «ان امرأ القيس غويٌّ[3] فاجر وقد قال في ابنتك اشعاراً يشهرها بها في العرب فيفضحها ويفضحك» وكان امرؤ القيس قد فصل عن القسطنطينية بجيش كثيف[4] فبعث اليه القيصر بحلّة وشيٍ[5] مسمومة منسوجة بالذهب. فلما وصلت اليه لبسها واشتدّ سروره بها فاسرع فيه السمّ وسقط جلده فسمي ذا القروح. وكان قد وصل الى بلدة من بلاد الروم تدعى أَنْقُرَة فنزل بسفح جبل هناك يقال له عسيب فرأى قبر امرأة من ابناء الملوك فسأل عنها فأُخبر بقصتها فقال:

أجارتَنا ان المزار قريبُ وانّي مقيم ما أقام عَسيبُ
أجارتَنا إنّا غريبانِ هٰهنا وكلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ

ثم مات ودفن بقربها

وامرؤ القيس شيخ الشعراء وزعيمهم المتبع. وفحولهم يتحدّون اسلوبهُ ويأخذون انفسهم بالطبع على غراره[6] في متانة البيت وبلاغة المعاني وتفنن الوصف. وقد قلنا آنفاً انه اول من استوقف على الطلول وبكى وشبب في مستهلّ قصائده وتبعه في ذلك الشعراء عصراً عصراً الى ايّامنا. وقد اجاد كل الاجادة فيما نظمه من المعاني وله الاوصاف البديعة للفرس والناقة والسيل والليل والبرق والقتال وسائر الاغراض

---

١ بالغ في اكرامه ٢ منزله ٣ ضالٌّ منقاد للهوى ٤ كثير ٥ محسنة بالالوان ومنقوشة ٦ مثاله

التي تعرض للبدو. وقد جرى كثيرٌ من اقواله مجرى المثل. وهو صاحب المعلقة الأولى نظمها في ابنة عم لهُ تدعى عُنَيزة واستطرد الى وصف الليل والخيل والسيل واشياء اخر. ومطلعها شهير يضرب به المثل فيقال «اشهر من قفا نبك» قال[1]:

قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزِلِ بسِقطِ اللِوَى بين الدَّخول فحَوْمَلِ [2]
وإنَّ شفائي عبرةٌ لو سفحتها وهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعوَّلِ [3]
وليلٍ كموج البحر ارخى سدولهُ عليَّ بانواع الهموم ليبتلي [4]
فقلتُ لهُ لمَّا تمطَّى بصُلبهِ واردفَ اعجازاً وناءَ بكلكلِ [5]
الا ايُّها الليلُ الطويل ألا انجلِ بصُبحٍ وما الاصباح منك بأَمثلِ [6]
فيالك من ليلٍ كأنَّ نجومه بكلِّ مُغارِ الفتل شُدَّت بيذْبُلِ [7]
كأنَّ الثريَّا عُلِّقت في نِصابها بامراس كتانٍ الى صُمِّ جَنْدَلِ [8]

---

١ لا سبيل الى مراعاة اللحمة فيما نذكر من المعلقات وما اليها من المنظومات الطويلة لئلا تتخطى حدود هذا المختصر ٢ ذكرى تذكر والسقط منقطع الرمل واللوى الرمل الملتوي والدخول وحومل موضعان في بلاد العرب ٣ عبرة دمعة وسفحتها ارقتها والرسم ما بقي من اثر الدار ودارس ممحو ومعول معتمد والاستفهام للنفي والمعنى: شفائي مما اصابني سكب الدموع وليس من معتمد على البكاء عند اثر ممحو لا يفيد الباكي شيئاً ٤ السدول جمع سدل بالكسر وهو الستر ويبتلي يختبر وليل مجرور لفظاً وهو في محل رفع مبتدا والخبر محذوف تقديره قطعته ٥ تمطى تمدد والصلب عظم الظهر واردف اتبع والاعجاز جمع عجز بفتح فضم وهو المؤخر وناء بعُدَ والكلكل الصدر وهنا استعير لأول الليل ومثله الصلب لوسطه والأعجاز لآخره وهذا ما يسميه البيانيون الترشيح في الاستعارة باعتبار ما يتصل بها واستعارة بالكناية باعتبار ما يذكر من الطرفين ٦ انجلِ انكشف والاصباح الصبح وامثل أفضل يريد: ادبر ياليل واقبل ياصباح ولكن لا تفضيل لأحدكما عندي لان همي متصل فيكما ٧ مغار الفتل محكمهُ وشدت ربطت ويذبل جبل في بلاد نجد ويا حرف تنبيه ولك متعلق بمحذوف تقديره عجباً وهو متعلق من ليلٍ ايضاً ٨ الثريا سبعة كواكب في عنق الثور والنصاب المرجع والمراد هنا المكان والامراس جمع مرس وهو الحبل والصم جمع اصم وهو الصلب والجندل الصخرة الكبيرة

وقد أغتدي والطيرُ في وُكُناتها ... بمنجردٍ قيدِ الاوابد هيكلِ [١]

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبلٍ مدبرٍ معاً ... كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السيلُ من علِ [٢]

له أيطَلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ ... وإرْخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفُلِ [٣]

أصاحِ ترى برقاً أُريكَ وميضه ... كلمع اليدين في حبيٍّ مكلَّلِ [٤]

يضيءُ سناه او مصابيحُ راهبٍ ... اهانَ السليطَ للذُّبالِ المفتَّلِ [٥]

قعدت واصحابي له بين ضارجٍ ... وبين العذيب بَعْدَ ما مُتأمَّلي [٦]

فاضحى يسحُّ الماءَ فوق كتيفةٍ ... يكُبُّ على الاذقانِ دَوحَ الكَنَهبُلِ [٧]

ومرَّ على القَنَانِ من نَفَيانهِ ... فأنزل منه العُصْمَ من كلِّ مَوْئلِ [٨]

وتَيماءَ لم يترك بها جِذعَ نخلةٍ ... ولا أُطُماً الاَّ مشيداً بجندلِ [٩]

كأنَّ ثبيراً في عرانين وَبْلهِ ... كبيرُ اناسٍ في بُجادٍ مُزمَّلِ [١٠]

---

١ اغتدي ابكر والوكنة العش والمنجرد القصير الشعر صفة للفرس والاوابد جمع آبدة وهي الوحش والمراد بقيد الاوابد ان الفرس يلحق الوحوش فيمنعها عن الفرار فكأنه قيد لها والهيكل الضخم ٢ مكر يصلح الكر ومفر يصلح للفر ومقبل آتٍ ومدبر ذاهب والجلمود الحجر العظيم وعلِ فوق ٣ ايطلا مثنى ايطل وهو الخاصرة وارخاء جري وسرحان ذئب وتقريب جرى ايضاً وتتفل ثعلب ٤ صاح مرخم صاحب ووميض البرق لمعانه والحبيّ السحاب والمكلل المستدير كالاكليل والمراد: هل ترى برقاً اريك لمعانه وتحركهُ في سحاب متراكم كتحرك اليدين ٥ سناه ضوؤه واهان بذل والسليط الزيت والذبال جمع ذبالة وهي الفتيلة يقول ان تلألؤ هذا البرق يحكي تحرك اليدين وضوؤه يحكي ضوء مصابيح راهب لم يكن عنده الزيت عزيزاً فصبَّه فيها ٦ ضارج موضع في اليمن والعذيب موضع في العراق وبعدَ مخفف بَعُدَ وما زائدة والمعنى: قعدت واصحابي بين هذين الموضعين فما ابعد السحاب الذي كنت اتأمله ٧ كتيفة اسم موضع في اليمن ويكبّ يقلب على الرؤوس والاذقان جمع ذقن مستعار لاعالي الاشجار والدوح جمع دوحة وهي ما عظم من الاشجار الكنهبل ضرب من الشجر العظيم ينبت في البادية ٨ القنان جبل لبني اسد والنفيان ما تطاير من قطر المطر والعصم جمع اعصم وهو الوعل او تيس الجبل في ذراعيهِ لون يخالف لونه والموئل الملجأ ٩ تيماء علم فلاة وجذع ساق وأطم حصن أو بيت مسقف ومشيداً مبنياً وجندل صخر ١٠ ثبير جبل بمكة اوماء بديار بني مزينة والعرانين جمع عرنين وهو معظم الانف وهنا مستعار لاوائل المطر

كأن ذُرى رأس المُجَيْمِر غُدوةً من السيل والغثّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ [١]
كأن سباعاً فيـــه غرقى غدّية بارجائهِ القصوى انابيش عُنْصُلِ [٢]
والقى بصحراءِ الغبيطِ بُعـــاعَهُ نزول اليماني ذي العِيابِ المحمّلِ [٣]

الاّ أن امرأ القيس شوّه محاسن شعرهِ وسجّل على نفسه عار التهتك والخلاعة بخرقهِ حرمة الأدب في كلامهِ وتهافتهِ على المعاني البذيئة [٤] والاقوال الفاحشة في معلقتهِ وسائر شعرهِ مما يندى [٥] لمطالعتهِ جبين الاديب وتتبرأ الآذان من سماعهِ. وانه ليعز وايم الحق على الاديب ان تكون امثال هذه المخازي مفتتح الآثار الادبية ويكون مدخل كعبة العلم عند العرب موسوماً [٦] بتلك السمة المؤلمة . ومهما قيل في تقبيح هــذه الخطة الذميمة التي استُدرج اليها جمهور من فحول الشعراء فلن نزال واقعاً دون الحقيقة بمراحل

على ان امرأ القيس امير الشعراء من حيث الطبقة الشعرية لا من حيث الآداب النفسيّة فهو بهذا الاعتبار الشاعر المجلّي [٧] الذي لا يلحقه لاحق والزعم الذي لا ينازع في علوّ مقامه منازع. وسُئل الامام عليّ عن اشعر

والوبل المطر والبجاد ثوب مخطط والمزمّل ملفف نعت كبير وجرّ بالمجاورة او للضرورة

١ ذرى جمع ذروة وهي اعلى الشيء والمجيمر علم اكمة والغثاء ماجاء بهِ السيل من الحشيش والكلاء والتراب وغير ذلك والفلكة ما استدار في رأس المغزل ٢ غرقى جمع غريق والغدية الغداة والارجاء النواحي والقصوى البعيدة والانابيش جمع انبوشة وهي اصول النبت والعنصل البصل البري ٣ الغبيط اكمة انخفض وسطها وارتفع طرفاها والبعاع الثقل او ما في السحاب من الماء واليماني صفة موصوفها محذوف اي التاجر والعياب جمع عية وهي صندوق الثياب . شبّه ضروب النبات التي نثرها المطر بأصناف الثياب التي ينشرها التاجر اليماني للبيع ٤ السفيهة ٥ يبتل ويعرق خجلاً ٦ اسم مفعول من وسم اي جعل للشيء علامة ٧ المجلي او خيل السباق ويليه المصلي فالمسلي فالتالي فالمرتاح فالعاطف فالحظي فالمؤمل فاللطيم فالسُكيت

الشعراء فقال «ان القوم لم يجروا في حلبة[1] تعرف الغاية عند قصبتها[2] فان كان ولا بدّ فالملك الضِلّيل» وهذا حكم يُتَيقَّن من سداده اذا اعتُبر ان امرأ القيس يكاد يكون في شعرهِ مبتدعاً لا متّبعاً

طَرَفَة (٥٥٢)

هو ابو عمرٍ طَرَفَة بن العبد البكريّ كان من حداثة سنهِ حادّ الذهن متوقّد الفؤاد وقال الشعر وهو صغير. يحكى انه جرج في سفرٍ مع عمّهِ وهو ابن سبع سنين فنزلوا على ماءٍ ونصب طرفة فخّه للقنابر[3] بمكان هناك اسمه معمر فلم يصد شيئاً ولما حمّلوا وهموا بالرحيل رأى القنابر يلقطنَ ما كان قد نثر لهنَّ من الحبّ فأنشأ يقول:

يا لك من قُبّرةٍ بمَعمَرِ خلا لك الجوّ فبيضي واصفري
قد رفع الفخ فلا تحذَّري ونقّري ماشئتِ ان تنقري
قد ذهب الصياد عنك فابشري لا بدّ يوماً ان تصادي فاصبري

وكان طرفة في حَسَب[4] من قومهِ شجاعاً جريئاً فخوراً شديد الشكيمة[5] منصباً على اللهو ومعاقرة[6] الخمرة وقد بلغ به نزق الشبيبة الى هجاء الملك عمرو بن هند مع مالهُ عليه وعلى ذويهِ من المنن[7] والافضال فحقد عليه

---

١ الدفعة من الخيل في الرهان خاصة استعارها لمكان السباق ٢ واحدة القصب وكان العرب ينصبون في حلبة السباق قصبة فمن سبق اقتلعها واخذها ليعرف انه السابق ٣ جمع قبرة عصفور ذو منقار طويل وعلى راسهِ قنزعة ٤ ما يعد من مفاخر الاباء او الشرف الموروث ٥ الانفة ٦ ملازمة ٧ الخفة والجهل ٨ جمع منة وهي الاحسان والمعروف

وهمَّ بقتلهِ. وبلغه انه قال بيتين من الشعر في اخته وكان طرفة قد رآها عند الملك وهو ينادمه مع خاله المتلمّس فدفع لكلّ منهما كتاباً الى عامله بالبحرين يأمره بقتلهما واوهمهما انه امر لهما بجائزة . فلما كانا في الطريق داخلت المتلمّس ريبة مما في الكتابين فالتمس من يقرأ له كتابهُ فاذا فيهِ «اذا اتاك كتابي هذا من المتلمّس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً» فالقى الصحيفة وقال « ياطرفة معك والله مثلها» فقال« كلاّ ما كان ليكتب لي مثل ذلك » ثم اتى طرفة الى العامل وكان بينهما قرابة فاشار عليه بالفرار فابى فاضطُرّ ان ينفذ امر الملك فقتله. وخُيرّ في ايّ قتلة يريد فاختار ان يُسْكَر ويُفْصَد أكْحَلُه [1] وقيل بل انف العامل من قتله وهو من ذوي قرابته فارسل الملك من قتل الاثنين معاً وقيل غير ذلك والله اعلم

وكان سبب انشائهِ لمعلقته انه اهمل رعاية إبل ابيه فقال له أخوه «ترى انها إن أُخِذت تردها بشعرك هذا؟» فقال « لا اخرج فيها حتى تعلم ان شعري يردُّها » وكما قال كان — تغزل في مطلعها ثم استطرد بغتة فوصف ناقته وصفاً مستفيضاً [2] ثم أخذ يعدّد مفاخرهُ قال:

لِخَوْلَةَ أطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهمَدِ   تلوحُ كباقي الوشم في ظاهرِ اليدِ [3]
وُقوفا بها صحبي عليَّ مطيَّهم   يقولون لا تَهلِكْ اسىً وتجلَّدِ [4]
اذا القوم قالوا من فتىً خِلْتُ أنني   عُنِيتُ فلم اكسَلْ ولم اتبلَّدِ [5]

---

١ عرق في الذراع ٢ متسعاً ٣ خولة اسم امرأة واطلال جمع طلل وهو ما شخص من رسوم الدار وبُرْقة ارض غليظة وثهمد علم موضع والوشم غرز اليد بالابرة ثم يذر عليها النيلج او الحبر فيصير فيها رسوم ٤ وقوفاً جمع واقف وهي منصوبة على الحالية والمطيّ المراكب جمع مطيّة مفعول به من وقوف واسىً حزناً وتجلد اصبر ٥ عنيت اردت واتبلد اكون عاجز الرأي ضعيف الهمة وفي البيت حذفٌ تقديره : اذا قالوا من فتىً يدفع شراً او يكفي مهماً الخ

وان تبغني في حلقة القوم تلقني وان تقتنصني في الحوانيت تصطد[1]
وما زال تشرابي الخمورَ ولذّتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي[2]
الى ان تحامتني العشيرةُ كلُّها وأُفردتُ إفراد البعير المعبَّد[3]
الا ايها ذا اللائمي أحضرَ الوغى وأن اشهدَ اللذات هل انت مُخلدي[4]
فان كنتَ لا تسطيعُ دفعَ منيَّتي فدعني أبادرْها بما ملكت يدي[5]
وان أُدْعَ للجلّى اكنْ من حماتها وان تأتِك الاعداء بالجُهْدِ أجْهَدِ[6]
وظلمُ ذوي القربى اشدُّ مضاضةً على المرء من وقع الحسام المهنَّد[7]
انا الرجل الضَرْبُ الذي تعرفونه خَشاشٌ كرأس الحية المتوقّد[8]
ويوم حبست النفسَ عندَ اعتراكها حِفاظاً على رَوْعاتها والتهدّد[9]
على موقف يخشى الفتى عنده الردى متى تعتركْ فيه الفرائصُ تُرعَدِ[10]
ارى الموت لا يرعى على ذي جلالة وان كان في الدنيا عزيزاً بمقعد[11]
لعمرك ما ادري واني لَوَاجلٌ أفي اليوم إقدام المنيَّة او غد[12]
لعمرك ما الايّام الاّ معارةٌ فما اسطعتَ من معروفها فتزوَّدِ[13]

---

١ تبغني تطلبني وحلقة القوم دائرتهم والحوانيت جمع حانوت وهو دكان الخمار ٢ تشراب شرب والطريف المكسوب حديثاً والتليد او المتلد المال الموروث ٣ تحامتني تجنبتني والمعبّد المطلي بالقطران ٤ الوغى الحرب ومخلدي اسم فاعل من اخلد اي ابقى ٥ تسطيع تقدر ومنيتي موتي وابادرها أعاجلها ٦ ادع انادى والجلّى الامر العظيم وحماة جمع حامٍ وهو المانع والجهد الطاقة والباء زائدة فيه لانه مفعول مطلق لأجهد ٧ الظلم الجور والمضاضة الوجع والتأثير والحسام السيف ٨ الضرب الخفيف اللحم وخشاش ماضٍ وداخل في الأمور والمتوقد المتلألىء ٩ اعتراك قتال وحفاظاً محافظة وروعاتها مخاوفها ١٠ الموقف المقام والردى الموت وتعترك تزدحم والفرائص جمع فريصة وهي لحمة بين الثدي والكتف ترعد عند الفزع ١١ يرعى يترحم ويشفق وجلالة وقار وعظمة ومقعد مجلس ١٢ لعمرك اللام للابتداء وعمر بالفتح لغة في العمر بالضم وهو مبتدأ محذوف الخبر وجوباً ومعناه عمرك قسمي وواجل خائف واقدام مجيء ١٣ معارة مقرضة واسطعت قدرت وتزوّد تمون

ولا خيرَ في خيرٍ ترى الشر دونهُ ولا نائلٍ يأتيك بعد التلدُّدِ [١]
ستُبْدِي لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالاخبارِ من لم تزوِّدِ [٢]
ويأتيك بالاخبار من لم تبع له بتاتاً ولم تضرب له حين موعدِ [٣]

وطرفة من فحول الشعراء ومنظوماتهُ من امتن الشعر وابلغهِ وقد بلغ مع حداثة سنّه ما لا يبلغه غيره بالسنين الطوال فانه قتل وله عشرون سنة وقيل ست وعشرون ولعلّ هذا الاقرب الى الصواب بدليل قول أُخته الخِرْنِق ترثيه وكانت من الشواعر المجيدات

عددنا له ستّاً وعشرين حِجَّةً فلما توفّاها استوى سيّداً ضخما [٤]
فُجعنا بهِ لمّا رجونا إيابَهُ على خيرِ حالٍ لا وليداً ولا قحما [٥]

زُهَيرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى (٦٣١)

هو ابو كعب بن ابي سُلمى المُزَني من مقدَّمي شعراء الجاهلية كان سيّداً كثير المال حليماً معروفاً بالورع [٦] وكان عمر بن الخطاب يسميه شاعر الشعراء لانه لا يتبع حوشيَّ الكلام ولا يعاظل [٧] ولا يقول الا ما يعرف ولا يمدح الرجل الا بما فيه

---

١ دونه قبله ونائل هبة وهدية والتلدّد التلفت يميناً وشمالاً واللبث بالمكان ٢ ستبدي ستظهر وتزود تعطي الزاد وهو طعام يتخذه المسافر ٣ تبع تشتري والبتات الزاد وكساء المسافر ولم تضرب لم تبين او تعين ٤ الحجة السنة وتوفاها استكملها وضخم كبير ٥ ايابه رجوعه وقحم شيخ هرم ٦ التقوى ٧ يعقد الكلام

وهو صاحب المعلقة الثالثة انشأها في مدح هَرِم بن سنان والحارث بن عوفٍ المرّيّين لعقدهما الصلح بين قبيلتي عبس وذُبيانَ واحتمالهما الديات[1] لقوم القتلى عن الغرماء. قال:

أمِنْ أمّ أوفى دمنةٌ لم تكَلَّمِ	بحَومانةِ الدُرّاجِ فالمُتَثَلَّمِ [2]
وقفت بها من بعد عشرين حجةً	فَلأْياً عرفت الدارَ بعد توهُّمِ [3]
فلما عرفتُ الدارَ قلت لربعها	ألا عِمْ صباحاً ايها الربعُ واسلمِ [4]
سعى ساعياً غَيْظِ بن مرَّةَ بعدما	تَبَزَّلَ ما بين العشيرة بالدمِ [5]
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله	رجال بنَوهُ من قُرَيْشٍ وجُرْهُمِ [6]
يميناً لنِعْمَ السيدانِ وُجدتما	على كل حالٍ من سحيلٍ ومُبْرَمِ [7]
تداركتما عَبْساً وذُبْيَانَ بعدما	تفانَوْا ودقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشَمِ [8]
وقد قلتما إن ندركِ السلم واسعاً	بمالٍ ومعروفٍ من الامر نسلمِ [9]

---

١ ما يعطى من المال بدل نفس القتيل ٢ ام اوفى كنية امرأة ومرادهُ امن دار ام اوفى ودمنة اثار الدار وتكلم تتكلم وحومانة الدراج والمتثلم علما موضعين في بلاد العرب ٣ الحجة السنة ولأيا مشقة والتوهم التفرس والمعنى : وقفت بهذه الدار بعد عشرين سنة فلم اعرفها الا بمقاساة مشقة شديدة ٤ الربع الدار والمنزلة المحلة وعم صباحاً انعم عيشاً في الصباح ٥ غيظ بن مرّة هو حيّ من ذبيان وساعيا مثنى ساعٍ وهما الحارث بن عوف وهرم بن سنان وتبزل تشقق والمعنى سعى هذان السيدان في ابرام الصلح بعدما تشقق ما بين القبيلة بسفك الدم ٦ اقسمت حلفت والبيت الكعبة وقريش وجرهم اسما قبيلتين ٧ السحيل المفتول فتلاً واحداً والمبرم المفتول على قوتين ويستعار الاول للضعيف وللثاني للقوي ٨ منشم اسم امرأة عطارة اشترى منها قوم عطاراً وتحالفوا على قتال عدوّهم وجعلوا آية الحلف غمس الايدي في ذلك العطر فتقاتلوا وتفانوا فضرب المثل في الشؤم بعطر منشم ٩ السلم الصلح والمعنى : وقد قلتما ان اتفق لنا اتمام الصلح بين القبلتين ببذل المال سلمنا من تفاني العشيرة

وأصبح يجري فيهم من تِلادكم ... مغانمُ شتّى من إفالٍ مُزَنَّمِ [١]
فمن مبلغُ الاحلافِ عني رسالةً ... وذبيانَ هل اقسمتم كلَّ مُقسَمِ [٢]
فلا تكتُمُنَّ اللهَ ما في صدوركم ... ليخفى ومهما يُكتَمِ اللهُ يَعلَمِ [٣]
يؤَخَّرْ فيوضَع في كتابٍ فيُدَّخَرْ ... ليوم حسابٍ او يُعَجَّل فيُنقَمِ [٤]
وما الحرب الا ما علمتم وذقتمُ ... وما هو عنها بالحديث المُرَجَّمِ [٥]
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وتَضرى اذا اضريتموها فتَضرَمِ [٦]
فتعرككُمُ عَركَ الرحى بثفالها ... وتَلقَحْ كِشافاً ثم تُنتَجْ فتتئِمِ [٧]
رأيت المنايا خبط عَشواءَ من تُصِب ... تُمِتْهُ ومن تخطئْ يعمَّر فيهرمِ [٨]
ومن هاب اسباب المنايا ينَلْنَهُ ... ولو نال اسباب السماءِ بسلَّمِ [٩]
ومن يجعلِ المعروفَ في دون عِرضِه ... يَفِرْهُ ومن لا يتَّقِ الشتمَ يُشتَمِ [١٠]

---

١ التلاد المال الموروث والمغانم جمع مغنم وهو الغنيمة والافال جمع افيل وهو صغير السنّ من الابل والمزنم المشروط الاذن منها ٢ الاحلاف جمع حليف وهو الجار واقسم حلف والمعنى من مبلغ الاحلاف وذبيان عني قولي وهو هل حلفتم على ابرام حبل الصلح كل حلف صادق ٣ لاتكتمن لا تخفُنَّ ما تضمرون من الغدر لان الله يعلم الخفايا ٤ ينقم يعاقب عليه وجزم يؤخر لوقوعه في جوابِ النهي لا تكتمن او على انه بدل من يعلم والمعنى لا مناص من عقاب الحنث آجلاً او عاجلاً ٥ ذقتم جربتم والحديث المرجم الذي لا يوقف على حقيقته ويؤخذ بالظن ٦ تبعثوها تثيروها وتضرى تشتد واضريتموها حملتموها على الضراوة أي شدة الحرص وتضرم تلتهب ٧ الرحى الطما والثفال جلدة تبسط تحت الرحى ليقع عليها الطحين وتلقح تحمل والكشاف هو ان تحمل الشاة او الناقة سنتين متواليتين وهذا مذموم وتنتج تلد وتتئم تلد توأمين يشير بذلك الى عواقب الحرب الوخيمة ٨ المنايا جمع منية وهي الموت وخبط عشواء تلميح الى المثل السائر يخبط خبط عشواء وهي ناقة لا تبصر ما امامها ويضرب للذي يسير على غير هداية ويعمر يطول عمره ويهرم يدركه الكبر ٩ هاب خاف وينلنه يدركنه ونال بلغ واسباب نواحي ١٠ دون امام ويفره يصنه ويتّق يحذر والمعنى من يبذل المال صوناً لعرضه يصنهُ ومن لا يحذر بالشتم شتم

ومن يجعلِ المعروفَ في غيرِ اهلهِ يَعُدْ حمدُهُ ذماً عليه ويندمِ[١]
ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقةٍ وان خالها تخفى على الناس تُعلَمِ[٢]
وكأْينْ ترى من مُعجِبٍ لك شخصهُ زيادتهُ او نقصهُ في التكلّمِ[٣]
لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبقَ الا صورة اللحم والدمِ[٤]
وانّ سفاهَ الشيخ لاحلمَ بعدهُ وان الفتى بعد السفاهة يحْلُمِ[٥]

ومن هذه الشذرات[٦] ترى ديباجة شعر زهير. والمزيّة في منظوماتهِ الوضوح والصدق والاكثار من الحكم السديدة والامثال السائرة وجمع الكثير من المعاني في القليل من الالفاظ والبعد عن سخف المقال. وله قصائد كثيرة غير معلقته ومعظمها في مدح هرم بن سنان. وكان هرم قد حلف ان لايمدحه زهيرٌ الا اعطاه ولا يسألهُ الا اعطاه ولا يسلم عليه الا اعطاه فاستحيا زهير مما كان يقبل منه فكان اذا رآه في ملاءٍ قال « عموا صباحاً غير هرم وخيركم استثنيت » وقال عمر لبعض ولد هرم « انشدني بعض مدح زهير اباك فانشده فقال عمر « ان كان ليحسن فيكم القول فقال «ونحن والله إن[٧] كنا لنحسن له العطاء» فقال «قد ذهب ما اعطيتموه وبقي ما اعطاكم» وكان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره فان اباه كان شاعراً وخاله

---

١ المعروف الاحسان واهله من يستحقه ويعد يرجع ٢ الخليقة الطبيعة وخالها ظنها والمراد ان الاخلاق تظهر والتخلّق يزول ٣ كأين خبرية لغة في كأين والمراد كم امرىء يعجبك شخصه ويزيد به اعجابك او ينقص عند تكلمه ٤ هذا كقول العرب في امثالهم المرء باصغرية قلبهِ ولسانهِ ٥ السفاه الجهل ورداءة الخلق وعدم الحلم وجزم يحلم للضرورة وهو من الجوازات القبيحة . يريد ان الشيخ السفيه لا يرجى حلمه واما الفتى فيحلم بعد السفاهة اذا تقدم في السن ٦ الشذرات قطع الذهب استعيرت هنا للابيات المقتطفة من معلقة زهير ٧ توكيدية مشبهة بالفعل مخففة عن انّ واسمها ضمير الشأن المحذوف

شاعراً واخته سلمى شاعرة وابناه كعب وبُحَيرْ شاعرين واخته الخنساء شاعرة [1]

لَبِيد (٦٨٠)

هو ابو عقيل لبيد بن ربيعة العامري وكان يقال لأبيه «ربيعة المعترّين»[2] لجوده وسخائه وكان لبيد من صباه بليغ المنطق ذَرِب[3] اللسان غزير المادَّة. حكي انه استأذن عمّه وجماعة من قومه في هجاء نديم للنعمان ذكرهم بلسان سوءٍ عند الملك وصدّهم[4] عنه فقالوا بعد المماطلة[5] «إنّا نبلوك» قال «وما ذاك» قالوا «تشمّ هذه البقلة» وقدامهم بقلة دقيقة القضبان قليلة الورق لاصقة بالارض تدعى الترِبة. فقال «هذه الترِبة لا تذكي[6] ناراً ولا تؤهل داراً ولا تسرّ جاراً. عودها ضئيل[7] وفرعها كليل[8] وخيرها قليل. اقبح البقول مرعًى واقصرها فرعاً[9] واشدها قلعاً. بلدها شاسع وآكلها جائع والمقيم عليها قانع» فاذنوا له فهجاه هجواً اليماً اغضب عليه النعمان فطرده من عنده الى ابد الدهر

ولبيد صاحب المعلقة الرابعة نظمها مفتخراً بمناقبه ومآثر[10] قومه. تغزل في اوائلها ثم وصف ناقته فشبّهها تارةً بالأتان ومرة بالبقرة الوحشية ثم افتخر بكرمه وشجاعته ووصف فرسه وختم بتعداد مآثر عشيرته قال:

---

١ الخنساء أخت زهير هي غير تماضر بنت عمرو بن الشريد الملقبة بالخنساء ٢ جمع معترّ وهو الفقير والمتعرض للمعروف من غير ان يسأل ٣ حديد اللسان ٤ منعهم ٥ التسويف ٦ توقد ٧ صغير دقيق ٨ الضعيف ٩ ما يتفرع من الاصل ١٠ مكارم

عَفَتِ الديارُ محلُّها فمُقامُها ... بمِنىً تأبَّد غَوْلُها فرِجامُها [١]

وجزورِ أيسارٍ دعوتُ لحتفها ... بمغالقٍ متشابهٍ اجسامُها [٢]

ادعو بهنَّ لعاقرٍ او مُطْفِل ... بُذِلَتْ لجيران الجميع لحامُها [٣]

فالضيف والجار الغريب كأنما ... وردا تبالةَ مخصباً أهضامُها [٤]

إنّا اذا التقتِ المحافلُ لم يزل ... منّا لِزازُ عظيمةٍ جشّامُها [٥]

ومقسّمٌ يُعطي العشيرة حقَّها ... ومُغَذمرٌ لحقوقها هضّامُها [٦]

فضلاً وذو كرمٍ يُعين على الندى ... سَمْحٌ كسوبُ رغائبٍ غنّامُها [٧]

من معشر سنَّت لهم آباؤهم ... ولكل قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها [٨]

لا يطمعونَ ولا تبورُ فعالهم ... اذ لا تميل مع الهوى احلامُها [٩]

فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه ... فسما اليه كهلُها وغلامُها [١٠]

فاقنع بما قسم المليك فانمّا ... قسمَ الخلائقَ بيننا علاَّمُها [١١]

---

١ عفت انمحت والمحلّ ما يقام فيه لايام معدودة والمقام مكان الاقامة لزمن طويل ومنى علم موضع وتأبّد توحّش والغول والرجام جبلان ٢ الجزور الناقه تشترى لتجزر وايسار جمع يَسَر وهو صاحب الميسراي المقامرة والحتف الموت والمغالق السهام جمع مغلق ٣ العاقر التي لا تلد والمطفل ذات ولد واللحام جمع لحم ٤ تبالة وادٍ مخصب من اودية اليمن والاهضام جمع هضيم وهو المطمئن من الارض ٥ المحافل المجامع واللزاز الذي يلزم الشيء ويعتمد عليه فيه وعظيمة صفة لمحذوف تقديره موقعة اوخصومة والجشام المتكلف للامور القائم بها ٦ المغذمر المتغضب مع همة والسيد الذي يسوس عشيرته فله فيها الامر والنهي والهضام الذي ينقص قوماً ويعطي قوماً يريد ان السيد منهم يوفر حقوق عشائرهِ بالهضم من حقوق نفسه ٧ فضلاً مفعول لاجله والندى الجود والسمح سهل الاخلاق ورغائب جمع رغيبة وهي ما رغب فيه من علق نفيس او خصلة شريفة والغنام مبالغة الغانم ٨ سنت فرضت والسنة الطريق والسيرة ٩ تبور تهلك وتفسد والاحلام العقول ١٠ السمك الارتفاع وسما ارتفع والكهل الرجل وخطه الشيب او اذا كان ما بين الثلاثين الى الخمسين من سنه ١١ المليك الله تعالى والخلائق الاخلاق والطباع

وله في اخيه مرثية غرّاء منها قوله :

بَلينا وما تبلى النجومُ الطوالعُ	وتبقى الجبالُ بعدَنا والمصانعُ [١]
وقد كنتُ في اكنافِ دارِ مضِنّةٍ	ففارقني جـــارٌ باربدَ نافعُ [٢]
فلا جَزِعٌ ان فرّق الدهر بيننا	فكلّ امرىءٍ يوماً به الدهر فاجعُ [٣]
وما المرء الاّ كالهلالِ وضوئهِ	يحورُ رماداً بعد اذ هو ساطعُ [٤]
اليس ورائي إن تراخت منيّتي	لزومُ العصا تحنى عليها الأصابعُ [٥]
اخبّرُ اخبارَ القرونِ التي مضت	ادبُّ كأني كلّما قمتُ راكعُ [٦]
فاصبحت مثل السيفِ اخلقَ جفنَهُ	تقادمُ عهدِ القينِ والنصلُ قاطعُ [٧]
فلا تبعدَنْ انّ المنيّة موعِدٌ	علينا فدانٍ للطلوع وطالعُ [٨]
أعاذلُ ما يدريكَ الا تظنّيا	اذا رحل الفتيانُ مَنْ هو راجعُ [٩]
اتجزعُ ممّا أحدث الدهرُ بالفتى	وايُّ كريمٍ لم تُصِبْهُ القوارعُ [١٠]
لعَمركَ ما تدري الضواربُ بالحصى	ولا زاجراتُ الطير ما اللهُ صانعُ [١١]

وادرك لبيد الاسلام وىسلم وانقطع عن قول الشعر ولم يكن يذكر ما جرى له في الجاهليّة الاّ مُكْرَهاً [١٢] وطال عمرهُ. قيل انهُ عمّر مئة

١ بلينا رثنا او شخنا والمصانع المباني من القصور والحصون ٢ المضنة ما يضن به لنفاسته واربد اسم اخيهِ اصابتهُ الصاعقة فات والباء للتجريد ٣ جزع خائف ٤ يحور يرجع ٥ تراخت منيتي ابطأ موتي ولزوم العصا الاعتماد عليها عند المشي ٦ أدب امشي على يديّ ورجلي كالطفل والمراد اخبر بشيخوختي عمن مضى وأدب كالطفل الصغير فاذا انتصبت واقفاً تقوّس ظهري كانني راكع ٧ اخلق ابلى وجفنه غمده والقين الحداد والنصل حديدة السيف وغيره ٨ المنية الموت ودانٍ قريب والمعنى ليس الاجل ببعيد فهو بين قاطع للاعمار ومشرفٍ على قطعها ٩ العاذل اللائم والتظني الظن ١٠ القوارع جمع قارعة وهي الداهية والنكبة المهلكة ١١ الضوارب بالحصى الضاربات الطيور بصغار الحجارة وزاجرات الطير اللواتي يصحن به فان ولّى ميامنة تفاءلن به وان مياسرة تشاءمنَ وهو ضرب من العرافة ١٢ منصوباً

وخمساً واربعين سنة ومن قوله في طول عمره

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها   وسؤالِ هـذا الناس كيف لبيدُ [١]

ولمّا حضرته الوفاة قال لأبنتيه:

تمنّى ابنتايَ ان يعيش ابوهما   وهل انا الاّ من ربيعةَ او مُضَرْ [٢]
فان حانَ يوماً ان يموت ابوكما   فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شَعَرْ [٣]
وقولا هو المرء الذي لا حليفَهُ   اضاعَ ولا خانَ الصديقَ ولا غَدَرْ [٤]
الى الحولِ ثم اسمُ السلامُ عليكما   ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ [٥]

فكانت ابنتاه تلبسان ثيابهما كل يوم ثم تأتيان مجلس بني جعفر بن كلاب فترثيانه ولا تندبان فاقامتا على ذلك حولاً ثم انصرفتا

عَمرُو بنُ كُلثوم (٦٠٠)

هو ابو عبادٍ عمرو بن كلثوم التغلبي كان اعزَّ الناس نفساً واكثرهم امتناعاً واعلى قومهِ همة حتى ساد قبيلته وهو بن خمس عشرة سنة وقال الشعر فاجاد فيه. وهو صاحب المعلقة الخامسة انشأها بين يدي الملك عمرو بن هند وعنده الوفود من قبيلتي تغلب وبكر وكان عمرو قد اصلح بينهم على إثر حرب البسوس ثم ادّعى التغلبيون بعد زمانٍ أن البكريّين نكثوا [٦] العهود في

١ سئمت ضجرت والناس مفرد باعتبار اللفظ وجمع باعتبار المعنى ٢ ربيعة ومضر اسما قبيلتين من العرب والاستفهام هنا للانكار او النفي اي ما انا الاّ من ربيعة او مضر اي كسائر الناس ٣ تخمشا تخدشا ٤ مراده: قولا ابونا هو المرء الذي لا أضاع حليفه ولا خان صديقه ولا غدر بهِ ٥ الحول العام ولفظة «اسم» زائدة ٦ نقضوا وافسدوا

حادثةٍ جرت بينهم وكادوا يعودون الى التقاتل والتفاني لو لم يتحاكموا الى الملك عمرو. فجاؤوه في اليوم المعين وجرت مجاذبةٌ عنيفة في الكلام بين عمرو بن كلثوم زعيم التغلبيّين والنعمان بن هَرِم بن ثعلبة اليشكري سيّد البكريين وتطاول النعمان في المقال على الملك عمرو فطرده من الحضرة وقام عمرو بن كلثوم فأنشد معلقته ويروى انه ارتجلها [١] ارتجالاً ولم ينشد الاّ ما وافق المقام ثمّ عمد فزاد عليها فيما بعد وقام بها خطيباً بسوق عكاظ. تغزل في اوائلها ثم التفت الى عمرو بن هند واخذ يفتخر ويتحمّس ويتوعّد ويعيّر بني بكر قال:

الاهُبّي بصحنكِ صبّحينا   ولا تُبقي خمورَ الأَنذَرينا [٢]
ابا هندٍ فلا تعجَلْ علينـــا   وأنظِرْنا نخبرّكَ اليقينـــا [٣]
بأنّا نُوردُ الرايــاتِ بيضاً   ونُصدرُهنَّ حمراً قد رَوينا [٤]
نطاعنُ ما تراخى الناسُ عنا   ونضرب بالسيوف اذا غُشينا [٥]
ورثنا المجدَ قد علمتْ معَدٌّ   نطاعنُ دونَهُ حتى يَبينـا [٦]
كأنّ سيوفنا منّا ومنهم   مخاريقٌ بأيدي لاعبينـــا [٧]

---

١ انشدها من غير ان يهيئها ٢ هبي استيقظي والصحن القدح العظيم وصبحينا اسقينا صباحاً واندرين قرية بالشام كثيرة الخمر ٣ ابا هند كنية الملك عمرو بن هند بابنة له اسمها هند ولم يكن العرب يأنفون من التكني بالبنات كابي هند المذكور وابي امامة كنية النابغة الذبياني وأبي سفّانة كنية حاتم الطائي وابي مليكة كنية الحطيئة وغير ذلك وانظرنا امهلنا واليقين الصدق ٤ اورده احضره المورد اي موضع ورود الماء واصدره ارجعه وروي شرب وشبع ٥ تراخى تباعد وغشينا أُتينا وهوجمنا ٦ معد هو ابن عدنان ابو قبائل نجد التي منها بكر وتغلب ويبين يظهر او يبعد وكلاهما محتمل على تأويل الاول « يظهر جليّاً لا عين الناس » والثاني « حتى يبعد من الناس الينا » ٧ المخاريق جمع مخراق وهو سيف من خشب يلعب به الصبيان يقول : لما كنا نقاتلهم كنا لا نبالي بضرب السيوف كما لا يبالي اللاعبون بالضرب بالمخاريق

الا لا يَجهلَنْ احدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا [١]
بايّ مشيئةٍ عمرو بنَ هندٍ تُطيع بنا الوُشاة وتزدرينا [٢]
فانّ قناتنا ياعمرُو اعيتْ على الاعداءِ قبلك ان تلينا [٣]
وقد علم القبائل من معَدٍّ اذا قببٌ بأَبطحها بُنينا [٤]
بأنا المنعمون اذا قدرنا وانّا المهلكون اذا أبتلينا [٥]
اذا ما الملْكُ سام الناسَ خسفاً أَبَينا ان نُقرَّ الخسفَ فينا [٦]
اذا بلغ الفطامَ لنا صبيٌّ تخرُّ لهُ الجبابر ساجدينا [٧]

ومزية هذه المعلقة وضوح مراد الشاعر وانسجام العبارة وسلاستها فلا تكاد تجد فيها تقديماً وتأخيراً ولا لفظاً غريباً مهجوراً

ويروى ان عمراً الملك قال يوماً لندمائه «هل تعلمون احداً من العرب تأنف امهُ من خدمة امي» قالوا «نعم أُمّ عمرو بن كلثوم» فارسل عمرو بن هند الى عمرو بن كلثوم يستزيرهُ ويسأله ان يُزير أمّه أمّهُ . فاقبل عمرو وأمّهُ ليلى فدخل على الملك في رواقه ودخلت ليلى على هند امّ عمرو في قبّة من جانب الرواق. وكان عمرو بن هند امر امّهُ ان تُنَحّي الخدم اذا دعا بالطُرَف [٨] وتستخدم ليلى . فدعا عمرو بمائدةٍ ثمّ دعا بالطرف فقالت هند « ناوليني ياليلى ذلك الطبق » فقالت ليلى « لتقم

---

١ يجهلن يسفهن والمراد لا يسفهن احدٌ علينا فانا نجازي السفهاء فوق سفاهتهم وسمى جزاء الجهل جهلاً للمشاكلة ٢ الوشاة جمع واشٍ وهو النمام وتزدرينا تحتقرنا ٣ قناة الرمح عوده واستعيرت هنا للعزّ اي ان عزنا لم تتمكن الاعداء قبلك من قهرهِ ٤ قبب جمع قبة وهي بناء سقفه مستدير معقود بالحجارة او الآجر والابطح المكان المتسع ٥ المنعمون المتفضلون والمهلكون المعدمو الاعداء وابتلينا اختبرنا ٦ سام الناس خسفا اهانهم وابينا امتنعنا ٧ تخرّ تنكب والجبابر جمع جبار وهو العاتي المتكبر ٨ جمع طرفة وهي الشيء المستحسن الغريب

صَاحبة الحاجة الى حاجتها » فاعادت عليها وألحّت فصاحت ليلى « واذُلّاه ... يالتَغلب ... » فسمعها عمرو ابنها فثار الدم في وجهه ووثب الى سيف لعمرو بن هند معلّق بالرواق فضرب به راس الملك ونادى في بني تغلب فانتهبوا ما في الرواق وانقلبوا راجعين الى الجزيرة [1]

ولمّا حضرت عمرو بن كلثوم الوفاة جمع بنيهِ وقال لهم « قد بلغت من العمر ما لم يبلغهُ احدٌ من آبائي ولا بد ان ينزل بي ما نزل بهم ... من سبَّ سُبّ فكفوا عن الشتم فانه اسلم لكم واحسنوا جواركم يحسن ثناؤكم ... واذا حُدّثتم فعُوا واذا حَدّثتم فاوجزوا فانهُ مع الاكثار تكون الاهذار [2] ... » ويقال انهُ عُمّر مئة وخمسين سنة

عَنْتَرَة (٦١٥)

هو ابو المُغلّس عنترة بن شداد العبسي وامّه امَةٌ [3] حبشية يقال لها زبيبة وكان ابوهُ قد نفاهُ واستعبدهُ على عادة عرب الجاهلية في استعباد ابناء الاماء فان انجبوا [4] اعترف آباؤهم بهم والحقوهم بنسبهم والا بقوا عبيداً ينسبون الى امهاتهم. واتفق ان بعض احياء العرب اغاروا على عبس فاصابوا منهم واستاقوا ابلاً فتبعهم العبسيُّون وعنترة يومئذٍ معهم فقال له ابوه « كرّ ياعنترة » فقال عنترة « العبد لا يحسن الكر انما يحسن الحلب والصرّ [5] » فقال « كرّ وانت حرّ » فكرّ وقاتل يومئذٍ قتالاً حسناً

---

١ ما بين النهرين دجلة والفرات وكان بنو تغلب اعتزلوا هنالك حسماً لاسباب النزاع
٢ جمع هذر وهو سقط الكلام ٣ الخادمة المملوكة ٤ كانوا محمودي الصفات ٥ شدّ ضرع الناقة بالصرار (خيط) لئلاّ يرضعها ولدها

فادّعاهُ ابوه بعد ذلك والحق به نسبه. وكان عنترة بطلاً صنديداً يحنّ ابداً الى الكفاح ومقارعة الفرسان وخوض غمرات[١] الموت شهماً هماماً كبير النفس مترفعاً عن عواطف النفوس الحقيرة وهو مع ذلك حنون القلب دمث[٢] الاخلاق ليّن العريكة[٣] رحب الصدر سريع الى التغاضي[٤] عن انكار قومه لفضله واجحافهم[٥] بحقّهِ. وشعره من امتن الشعر واعلاهُ بعيد عن حوشيّ[٦] الالفاظ وخشن المعاني سريعٌ الى الفهم تسابق معانيهِ الفاظهُ وهو مرآة اخلاقهِ الحسناء وهمّتهِ الشماء تطرب النفس للهجتهِ الابيّة ويهتزّ الفؤاد لتلك الاريحيّة العربيّة ومن شعرهِ قوله :

حكّمْ سيوفك في رقاب العُذَّلِ وإذا نزلت بدار ذُلٍّ فارحلِ[٧]
وإذا الجبانُ نهاك يوم كريهةٍ خوفاً عليك من ازدحام الجحفلِ[٨]
فاعصِ مقالتهُ ولا تحفلْ بها واقدمْ اذا حقَّ اللقا في الاوّلِ[٩]
واخترْ لنفسك منزلاً تعلو به اومت كريماً تحت ظلِّ القسطلِ[١٠]
ان كنتُ في عدد العبيد فهمّتي فوقَ الثريّا والسماكِ الاعزلِ[١١]
او انكرت فرسانُ عبس نسبتي فسنانُ رمحي والحسامُ يقرُّ لي[١٢]
وبذابلي ومهنّدي نلتُ العلى لا بالقرابةِ والعديد الاجزلِ[١٣]

---

١ جمع غمرة وهي شدة الشيء ومزدحمه ٢ سهل ٣ الطبيعة والخلق ٤ التغافل ٥ ذهابهم بهِ وظلمهم اياه ٦ الغريب المستقبح ٧ العذل جمع عاذل وهو اللائم ٨ الكريهة الشدة في الحرب والجحفل الجيش ٩ لا تحفل بها لا تهتمّ لها ١٠ ظل فيء والقسطل الغبار الساطع في الحرب ١١ الثريا سبعة كواكب في عنق الثور والسماك الاعزل اسم كوكب نيرّ في جهة الجنوب ١٢ سنان الرمح حديدته التي يطعن بها وقوله يقرّ على تقدير فسنان رمحي يقر لي والحسام كذلك فاكتفى برد الضمير الى احد السابقين كقوله والله ورسوله احق ان يرضوه وهو تركيب غير نادر ولا سيما في الشعر ١٣ ذابل صفة للرمح المستدق والمهند السيف المطبوع من حديد الهند والاجزل الاعظم

ورميت مهري في العَجاجِ فخاضهُ والنار تُقدحُ من شِفارِ الأَنصُلِ [١]
خاض العجاجَ محجَّلاً حتىً اذا شهد الوقيعةَ عادَ غيرَ محجَّلِ [٢]

وقال يتوعد النعمان:

لا يحملُ الحقدَ من تعلو به الرتبُ ولا ينال العلى من طبعهُ الغضبُ [٣]
لله درُّ بني عبسٍ لقد نَسَلوا من الاكارم ما قد تنسل العرب [٤]
قد كنت فيما مضى ارعى جمالهمُ واليوم أَحمي حماهم كلما نُكِبوا [٥]
لئن يعيبوا سوادي فهو لي نسبٌ يومَ النزالِ اذا ما فاتني النسَبُ [٦]
ان كنتَ تعلمُ يا نعمان أَنَّ يدي قصيرةٌ عنك فالأَيام تنقلبُ
ان الافاعي وان لانت ملامسُها عند التقلب في انيابها العطبُ [٧]
اليوم تعلم يا نعمانُ ايُّ فتى يلقى اخاكَ الذي قد غرَّه العُصَبُ [٨]
فتىً يخوض غبارَ الحرب مبتسماً وينثني وسنانُ الرمحِ مختضبُ [٩]
ان سلَّ صارمَهُ سالت مضاربُهُ واشرقَ الجوُّ وانشقتَ له الحجبُ [١٠]
ليَ النفوسُ وللطير اللحومُ وللـ وَحْش العظام وللخيَّالةِ السلَبُ [١١]
ما زلت القى صدورَ الخيل مندفعاً بالطعن حتى يضجَّ السرجُ واللبَبُ [١٢]
فالنقع يومَ طرادِ الخيل يشهدُ لي والضرب والطعن والاقلامُ والكتبُ [١٣]

١ العجاج الغبار والدخان وشفار جمع شفرة وهي حدّ السيف والانصل جمع نصل وهو شفرة السيف ٢ خاض دخل واقتحم ومحجلاً في قوائمه بياض والوقيعة صدمة الحرب والقتال ٣ الحقد الضغينة والعداوة ٤ نسلوا ولدوا ٥ احمي مضارع حمى الشيء من الناس منعهم عنه والحمى ما يحمى ويدافع عنه ونكبوا اصابتهم نكبة ٦ النزال القتال وفاتني اعوزني وما زائدة بعد اذا ٧ ملامسها جمع ملمس وهو موضع اللمس منها والعطب الهلاك ٨ العصب جمع عصبة وهي الجماعة ٩ ينثني يرجع ومختضب متلون والسنان نصل الرمح ١٠ سلّ جرّد والصارم السيف والمضارب جمع مضربة وهي حدّ السيف والحجب جمع حجاب وهو الستر وكل ما احتجب به كناية عن القلب ١١ السلب ما ينتزعه المرء من غيره قهراً ١٢ يضج يضطرب واللبب السيور التي تربط الى العنق فتمنع استئخار الرحل واضطرابه ١٣ النقع الغبار

وقال وقد خُيِّب امله في ابنة عمّه:

اذا جحدَ الجميلَ بنو قرادِ وجازى بالقبيح بنو زيادِ [١]
فهم ساداتُ عبس اين حلوا كما زعموا وفرسان البلادِ
حَلُمتُ فما عرفتم حق حِلمي ولا ذكرتْ عشيرتكم ودادي

ولعنترة شعر كثير في بنت عمه عبلة وكان قد خطبها من ابيها مالك بن قرادٍ فماطله وجشّمه [٢] الاخطار في الظفر بمهرها [٣] ولم يرعَ معه عهداً ولا ميثاقاً ولم يُنلهُ مبتغاهُ الاّ بعد خطبٍ طويلٍ. وكثيراً ما يخاطبها بشعرهِ ويصف لها بأسهُ وبطشهُ على عادة البدو تحبّباً اليها فمن ذلك قوله :

سلي ياعبلَ قومكِ عن فَعالي ومن حضر الوقيعة والطرادا [٤]
وردتُ الحربَ والابطالُ حولي تهزّ اكفّها السُمرَ الصعادا [٥]
وعدتُ مخضّباً بدمِ الاعادي وكَرْبُ الركض قدخضبَ الجوادا [٦]

وقال وقد خرج عن قومه غضبان وسار برهطه انفة من جودهم:

لا تقتضِ الدين الاّ بالقنا الذُبُلِ ولاتحكّم سوى الاسياف بالقُلَلِ [٧]
ولا تجاورْ لئاماً ذلَّ جارُهُمُ وخلّهم في عراص الدار وارتحلِ [٨]

---

١ جحد انكر ٢ كلّفه ٣ صداقها وهو ما يجعل للمرأة من المال تنتفع به وتنفقه معجلاً او موجّلاً ٤ سلي فعل امر من سأل المخففة وفَعال بفتح الفاء الفعل الحسن والكرم والطراد هجوم الفرسان بعضهم على بعض ٥ السمر جمع اسمر وهو الرمح والصعاد جمع صعدة وهي القناة المستوية تنبت كذلك فلا تحتاج الى تثقيف ٦ كرب اشتداد ٧ القنا جمع قناة والذبل جمع ذابل صفة للرمح المستدق والقلل جمع قلة وهي اعلى الراس ٨ عراص جمع عرصة وهي فسحة الدار

ياعبلَ انتِ سوادُ القلب فاَحتكمي	في مهجتي واعدلي ياغاية الامَلِ [١]
وان ترحلتِ عن عبسٍ فلا تقفي	في دار ذلٍّ ولا تصغي الى العذَلِ [٢]
لانَّ ارضَهم من بعد رحلتنا	تبقى بلا فارسٍ يُدعى ولا بطَلِ [٣]

وقال وهو في الاسر يودّع عبلة:

لحز الرجـــال سلاسلٌ وقيودُ	وكذا النساء بَخَانِقٌ وعقودُ [٤]
فالقتلُ لي من بعدِ عبلةَ راحةٌ	والعيش بعد فراقهـــا منكودُ
ياعبلَ قـــد دنت المنيّةُ فاندبي	ان كان جفنُكِ بالدموع يجودُ
ياعبلَ ان تبكيَ عليَّ فقد بكى	صرفُ الزمان عليّ وهو حسودُ
ياعبلَ ان سفكوا دمي ففعائلي	في كل يومٍ ذكرهنّ جديدُ
لهفي عليكِ اذا بقيتِ سبيّةً	تدعين عنتر وهــو عنك بعيدُ
ياعبلَ كم من جحفلٍ فرّقتهُ	والجوُّ اسودُ والجبـال تميدُ [٥]
فسطا عليَّ الدهر سطوةَ غادرٍ	والدهرُ يبخل تـارةً ويجودُ [٦]

وعنترة صاحب المعلقة السادسة أنشأهـا راداً على معيرٍ له بأُمّهِ واخوتهِ وسوادهِ — تغزّل في اوائلهـا ووصف ناقتهُ وفرسهُ وافتخر بكرمهِ وعفافهِ وشجاعته. قال:

هل غادرَ الشعراء من متَرَدَّمِ	ام هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ [٧]

---

١ سواد القلب حبّته وهي العلقة السوداء في جوفه ٢ العذل اللوم ٣ يُدعى ينادى مستغاثاً به ٤ بخانق جمع بُخْنُق وهو خرقة تتقنع بها الجارية فتشد طرفيها تحت حنكها وعقود جمع عِقْد وهو القلادة اي ما يجعل في العنق من الحلي ٥ جحفل جيش وتميد تهتز ٦ سطا وثب ٧ المتردم الموضع من الثوب الذي تحتاج الى ترقيع استعاره هنا للرديء من الشعر والتوهم التفرس ومراده: هل ترك الشعراء شيئاً من الشعر يحتاج الى الاصلاح لا تعرض له ثم خاطب نفسه قائلاً: هل عرفت الدار التي كنت ترى فيها اصحابك بعد تفرس طويل

يادارَ عبلة بالجِواءِ تكلّمي ... وعمي صباحاً دار عَبلة وأسلمي [١]
ولقد مررتُ بدار عبلة بعدما ... لعب الربيعُ بربعها المتوسّمِ [٢]
وخلا الذبابُ بها فليس ببارحٍ ... غرداً كفعل الشارب المترنمِ [٣]
هزِجاً يحكّ ذراعَهُ بذراعهِ ... قَدْحَ المُكبِّ على الزنادِ الأجذمِ [٤]
ولقد شربتُ من المدامةِ بعد ما ... ركدَ الهواجرُ بالمَشوفِ المُعلَمِ [٥]
بزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أسرّةٍ ... قُرنت بازهرَ في الشمال مُفدَّمِ [٦]
فاذا سكرتُ فانني مستهلك ... مالي وعرضي وافرٌ لم يُكلَمِ [٧]
واذا صحوتُ فلا اقصّرُ عن ندى ... وكما علمتِ شمائلي وتكرّمي [٨]
ومدجّجٍ كرهَ الكُماةُ نزالَهُ ... لا ممعنٍ هرباً ولا مستسلمِ [٩]
جادت يداي له بعاجلِ طعنةٍ ... بمثقّفٍ صَدقِ الكُعوب مُقوَّمِ [١٠]
فشككتُ بالرمحِ الاصّمِ ثيابَهُ ... ليس الكريمُ على القنا بمحرَّمِ [١١]

---

١ عبلة علم لامرأة والجواء علم موضع بديار عبس وعمي بمعنى انعمي ٢ الربع الدار والحلة والمنزلة المتوسَّم المتفرس فيه ٣ بارح زائل وغرداً مصوتاً والمترنم المردد صوته بضربٍ من التلحين ٤ هزجاً مصوتاً وقدح بالزند حاول اخراج النار منه والمكب المقبل على الشيء والاجذم مقطوع اليد شبّه حك الذباب احدى يديه بالاخرى بقدح الاجذم للنار من الزندين ٥ الهواجر جمع هاجرة وهي اشد الاوقات حرًّا والمشوف المجلوّ والمعلم مانقش فيه العلم وهو الرسم المميز والمشوف المعلم صفة للدينار وقيل للقدح ٦ الاسرة جمع السرّ وهو الخط من خطوط اليد والجبهة وغيرهما وبأزهر اي بابريق ازهر اي ابيض والمفدم المسدود بالفدام ٧ يكلم يجرح يقول مهما بلغ مني السكر واهلكت من المال فلست ازال كريماً متعففاً لا اخرج الى التهتك ٨ ندى كرم والشمائل جمع شمال وشميلة اي طبع يريد انه اذا صحا من سكره لا يقصر عن بذل المال لكن يجود به كسابق عادته ٩ المدجج الذي توارى بالسلاح والكماة جمع كميّ وهو الشجاع ولابس السلاح وممعن مبعد ومبالغ في الهرب ١٠ المثقف الرمح المقوّم بالثقاف والكعوب جمع كعب وهو عقدة الرمح ١١ شككت خرقت والاصم الصلب نعت للرمح المحذوف ومعنى الشطر الثاني ، ان الكريم لا يعصمه

فتركتهُ جَزَرَ السباع يَنُشْنَهُ يقضِمْنَ حُسنَ بنانهِ والمِعصَمِ [١]
يدعون عنتر والرماحُ كأنَّها أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الادهمِ [٢]
فاذا اشتكى وقعَ القنا بلَبانهِ ادنيته من سلِّ عضبٍ مِخذَمِ [٣]
فأزورَّ من وقعِ القنا فزجرته فشكا اليَّ بعَبرةٍ وتحمحُمِ [٤]
لوكان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلّمي [٥]
ولقد شفى نفسي وأذهب غِلَّها قولُ الفوارس ويك عنتر أقدِمِ [٦]
والخيل تقتحمُ الغبارَ عوابساً ما بين شَيْظمة واجردَ شيظمِ [٧]
ولقد خشيتُ بان اموت ولم تدر للحرب دائرةٌ على ابني ضمضمِ [٨]
الشاتمَيْ عِرضي ولم أشتمهما والناذرَيْنِ اذا لَمَ ألقهما دمي [٩]

وتوفي عنترة قتيلاً قتله وزر بن جابر النبهاني وكان عنترة قد اغار على بني نبهان فأطرد لهم طريدة [١٠] فرماه وزر وقال: خذها وانا ابن سلمى. فقطع مطاه [١١] فتحامل بالرميَّة حتى أتى اهله فقال وهو مجروح

كرمه من القتل

١ الجزر الشاة او الناقة تذبح وتنحر وينشنه يتناولنه بالاكل والقضم اكل الشيء اليابس والمعصم موضع السوار من اليد ٢ اشطان جمع شطن وهو حبل البئر واللبان الصدر والادهم الفرس الاسود ٣ سلّ جرد وعضب سيف ومخذم سريع القطع ٤ ازورّ مال وتحمحم صوت متقطع يردده الفرس ٥ يدري يعرف والمحاورة المجاوبة ومراجعة الكلام ٦ الغلّ العطش الشديد وويك مركبة من وَي اسم فعل بمعنى اعجب والكاف وعنتر منادى مرخم عنترة ٧ تقتحم ترمي نفسها في المشقات والشيظمة الطويلة واجرد قصير الشعر ٨ خشي خاف والدائرة الهزيمة وابني ضمضم هما هرم وحصين من بني مرة قتلهما ورد بن حابس العبسي ٩ العرض محل المدح والذم من الانسان والناذرين مثنى الناذر وهو من يوجب على نفسه امراً لم يكن واجباً ودمي مفعول به للناذرين ١٠ الطريدة ما طردته من صيد او غيره ١١ ظهره

وإن ابنَ سلمى عنده فاعلموا دمي   وهيهات لا يُرجى ابن سلمى ولا دمي
اذا ما تمشّى بين اجبال طيّءٍ   مكانَ الثريّا ليس بالمتهضَّم[1]

سيرة عنترة — تتداول ايدي كبار القوم وصغارهم قصة شهيرة ليس في عالم العرب والمستعربين من لم يسمع بها تعرف **بسيرة عنترة** وهي سلسلة حكايات حماسيّة مختلقة اتخذ صاحبها عنترة العبسي بطلاً لوقائعها المتعددة وجعله آية مثل فيها اخلاق الرجل الجامع لشمائل الفارس الشجاع. فعزا[2] اليه من الصفات كلّ مزيّة يمكن خطورها في الخيال حتّى رفعه عن درجة الابطال من بني البشر ونحله من الشعر كل ما يردُ على خاطر نظّام قوّال حتى حطّهُ عن منزلته العالية واسقطه من طبقة الشعراء المفلقين[3] فظلمه من كلا الطرفين

واختُلف في واضع هذه القصة فزعمت جماعة أنّ الاصمعيّ هو اول واضع لها غير أن ما وصل الينا منها لا يمكن ان يكون من كلام لغويّ شهير كالأصمعي. ومن ثم فما ذكره في هذه الأقاصيص الاّ من بَدَوات[4] الراوي الذي آثر[5] الطباق بين بطل الرواية ومؤلفها فقرع اسماع العامة باسم عالم نحرير[6] نسب اليه مستنبطات قريحته السيّالة وراع قلوبهم بذكر بطل صنديد قصه ثوباً من الفروسية ظنّه الكمال فاذا هو المحال. وذهب بعضهم ان واضعها رجل يقال له المؤيّد بن الصائغ من اهل القرن السادس للهجرة وهذا الراي اقرب الى التصديق لما يُرى من المشاكلة بين لهجة القصة وحالة الآداب في تلك المدة. وقيل بل واضعها

---

١ تهضمه ظلمه واذلّه يقول قاتلي سيسير آمناً لايخاف من يذله ويثأر منه في مقتلي وكما قال عنترة كان ٢ نسب ٣ الذين يأتون بالفِلْق اي الامر العجيب ٤ البدوات الخواطر المختلفة ٥ فضّل ٦ حاذق متقن نحر الامور علماً

شيخٌ اسمه يوسف او عليٌّ مطلع على اخبار العرب واشعارها كان يتردد على احد ملوك مصر وضعها [١] بإيعاز من العزيز ليتشاغل الناس بها عن ريبة [٢] حدثت في داره وكثر تحدث القوم بها فلفّق الشيخ هذه القصة وكان يصدرها اجزاءً ويدبرّ الكلام بحيث يصل بالحديث الى منتهى الجزء والوقائع في النهاية من الاشتباك وشوق القارئ الى الوقوف على مصير الحوادث في الغاية القصوى واذا بسلك الرواية ينقطع بغتة وتتمة السياق مؤجّلة الى الجزء التالي فيضطر الانسان ان يسعى وراء الجزء التابع لحلّ العقدة فيجد منه ما وجد من سابقه وهكذا الى منتهى آخر اجزاء القصة

أَلْحَارِثُ بْنُ حِلِّزة (٥٧٠)

هو ابو الظليم الحارث بن حلزة البكريّ كان من فحول الشعراء المجيدين وهو صاحب المعلقة السابعة. انشأها في حضرة الملك عمرو بن هند رادًّا على عمرو بن كلثوم التغلبيّ. ويحكى انه ارتجلها ارتجالاً وانشدها وهو متوكّئ على قوسه وزعموا انه اقتُطعت كفّهُ وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها واعجب عمرو بمنطقه واظهر له الايثار [٣] على خصمه ابن كلثوم. وهو ظفر مبين للشاعر ولا سيما بعد ما فرط من خطيب قومه النعمان بن هرم ما فرط كما مرّ ذكره سابقاً. تغزل في اوائلها ووصف ناقته فشبهها بالنعامة ثم أخذ يعيرّ التغلبيين بمواقع قُهروا فيها وذكر عدة من ايام العرب المشهورة ومدح عمرو بن هند وافتخر بقومه وعزهم ومنعتهم قال:

---

١ سنة ٣٦٥ هجرية ٢ تهمة بحادثة تشين العرض ٣ التفضيل

آذنتنا ببينها أسماء ... ربّ ثاوٍ يُملّ منه الثَّواءُ [١]

بعد عهدٍ ببُرقةَ شمّا ... ءَ فأدنى ديارها الخلصاءُ [٢]

واتانا من الحوادث والأنـ ... باءِ خطبٌ نُعنى به ونُساءُ [٣]

أنّ إخواننا الأراقمَ يَغلو ... نَ علينا في قيلهم إحفاءُ [٤]

يخلطون البريءَ منّا بذي الذنـ ... ـبِ ولا ينفعُ الخليَّ الخلاءُ [٥]

ايّها الناطقُ المرقِّشُ عنّا ... عند عمرٍو وهل لذاك بقاءُ [٦]

لا تخَلنا على غَراتِك إنّا ... قبلَ ما قد وشى بنا الاعداءُ [٧]

فبقينا على الشَّناءة تنميـ ... ـنا حصونٌ وعزّةٌ قعساءُ [٨]

ملكٌ مقسطٌ وأفضلُ من يمـ ... ـشي ومِنْ دونِ ما لديه الثناءُ [٩]

أيّما خُطّةٍ اردتم فأدّو ... ها الينا تسعى بها الأملاءُ [١٠]

فاتركوا الطَّيخَ والتعاشي وإمّا ... تتعاشَوْا ففي التعاشي الداءُ [١١]

واذكروا حِلْفَ ذي المجازِ وماقُدّ ... مَ فيه العهودُ والكفلاءُ [١٢]

---

١ آذنتنا اعلمتنا والبين الفراق واسماء علم امرأة والثواء الاقامة: يقول اعلمتنا اسماء بمفارقتها ايانا وكم مقيم تملّ اقامته وليست اسماء كذلك ٢ العهد اللقاء وبرقة شماء اسم مكان وكذلك الخلصاء ٣ الانباء الاخبار والخطب الامر العظيم وعني بالشيء اهتم له وساءهُ الامر احزنه ٤ الاراقم بطون من تغلب سمّوا بها لان امرأة شبهت عيون ابائهم بعيون الاراقم اي الحيات ويغلون يبالغون واحفاء الحاح ٥ يخلطون يشركون والبريءُ الخالي من الذنب ومثله الخليّ ٦ رقش الكلام زوّره وزخرفه والاستفهام هنا للنفي يقول ليس لأكاذيبك بقاء عند عمرو لعلمه بالحق ٧ خال ظنّ والغراة الاغراء ووشى به سعى به يقول لا تخلنا متذللين لاغرائك الملك فقد وشى بنا غيرك من قبل فخاب سعيهُ ٨ الشناءة البغض وتنمينا ترفعنا وقعساء عالية ٩ مقسط عادلٌ يقول ان عمراً ملك عادل وهو افضل ماشٍ على الارض والمدح قاصر عمّا عنده ١٠ الخطة الامر العظيم والأملاء الجماعات والواحد ملأ ١١ الطيخ التكبر والتعشي والتجاهل والتعامي ١٢ الحلف اليمين وذو المجاز علم موضع قرب مكة كانت العرب تقيم فيه سوقاً في الجاهلية والكفلاء جمع كفيل وهو الضامن

وأعلموا أنَّنا وايّاكُم فيـ ـما اشترطنا يوم اختلفنْا سَواء ١
عَنَناً باطلاً وظُلماً كما تُعْـ ـتَرُ عن حُجرةِ الربيضِ الظِباءُ ٢
أعَلينا جُناحُ كِندةَ أن يَغْـ ـنَمَ غازيهم ومنّا الجزاءُ ٣
ليس منّا المُضَرَّبونَ ولا قيْـ ـسٌ ولا جنْدلٌ ولا الحَذّاءُ ٤
ام علينا جَرَّى قُضاعةَ ام ليـ ـسَ علينا فيما جنَوْا إيذاءُ ٥
ثم جاؤوا يسترجعون فلم تُر جَعْ لهم شامةٌ ولا زَهراءُ ٦
لم يُحلّوا بني رِزاحٍ ببَرْقا ءِ نطاعٍ لهم عليهم دعاءُ ٧
ثم فاؤوا منهم بقاصمةِ الظهـ ـرِ ولا يَبْرِدُ الغليلَ الماءُ ٨
ثم خَيلٌ من بعدِ ذاك مع العَـ ـلّاقِ لا رأفةٌ ولا إبقاءُ ٩

---

١ اشترطنا اتخذنا شروطاً ٢ العنن الاعتراض والفعل عنّ وعتر ذبح العتيرة وهي ذبيحة كانت تذبح للأصنام في رجب والحجرة الحظيرة والربيض جماعات الغنم يشير الشاعر الى ماكانت يفعله العرب اذ ينذر احدهم ان بلغ الله غنمه مائة ذبح منها واحدة للاصنام ثم ربّما ضنت نفسه بها فأخذ ظبياً وذبحه مكان الشاة الواجبة عليه ٣ الجناح الذنب وكندة قبيلة من عرب اليمن غزت بني تغلب وقتلت رجالهم وغنمت اموالهم والغازي السائر الى قتال عدوّه في دياره والمراد من الاستفهام هنا التوبيخ ٤ المضربون الذين كثر فيهم الضرب وقيس وجندل والحذاء رجال من بني تغلب قتلهم المنذر لزرعهم الفتن في مملكته ٥ جرّى من اجل وقضاعة علم قبيلة اغارت على بني تغلب فقلت وسبت منهم عدداً عظيماً وجني اذنب وايذاء اذى ولا يخفى ما في البيتين من التعبير ٦ الشامة الناقة السوداء والزهراء الناقة البيضاء او الشاة البيضاء ٧ بنو رزاح بطن من تغلب وأحلّه جعله حلالاً وبرقاء نطاع قرية بالبحرين لبني رزاح ومراده لم يحل قومنا كما فعل بنو تغلب حرمات بني رزاح فتركوهم بيد اعدائهم في برقاء نطاع حال كون بني رزاح يدعون على بني تغلب ٨ فاء رجع وقاصمة الظهر الداهية التي تكسر الظهر اي رجع بنو تغلب من وقائعهم وقد اصيبوا بداهية كسرت ظهورهم واوهنت قوائم فضلاً عن ان عطشهم لا يبرده ماء ٩ العلاّق صاحب هجانٍ للنعمان بن المنذر وكان تميمياً وقيل هو من بني حنظلة ارسله عمرو بن هند الى بلاد بني تغلب فعاث فيها وقتل

وهو الربُّ والشهيدُ على يو م الحيارَين والبلاءُ بَلاءُ[1]

وبنو بكر كانوا يفتخرون بشاعرهم وقد ضرب بالحارث المثل في الفخر فقيل « افخر من الحارث بن حلّزة » وكان ابو عمرو الشيباني يعجب لارتجال الحارث هذه القصيدة في موقف واحد ويقول « لو قالها في حول لم يُلَم » ولها مزية معلقة عمرو بن كلثوم نفسها فانَّ كلتا القصيدتين أُنشدتا للدواعي وفي الظروف عينها وتمتاز عنها بذكر صاحبها كثيراً من ايّام العرب لابُدَّ من الوقوف عليها لمعرفة تمام مراده وهي اقرب المعلقات الى الشعر القَصَصي ولم يأنف[2] لخصمه من مدح الملك عمرو بن هند فاستلَّ من قلبه ضغينة[3] غرسها تهوُّر النعمان بن هرم زعيم قومه ولم يمنّ[4] عليه بذكر الايّام التي فاز بها البكريّون الاّ عرضاً فاستولى على رأي الملك ومال به الى حزبه بعد ما كان جاهر بإيثار التغلبيين. وسواء قال ما قال مداجاةً ام مصافاة فتلك حكمة علّمته اياها الايّام لا يجيء بمثلها في موقف الغضب والتنازع الاّ شيخ ذو دربة وخبرة وحنكة قد طالما عركهُ الدهر وعركهُ. وقد زعم الاصمعيّ انَّ الحارث كان له يومئذ من العمر نحو مئة وخمس وثلاثين سنة

الشَّنْفَرى (٥١٠)

هو ثابت بن اوس الازديّ الملقب بالشنفرى لعظم شفتيه. أُسر وهو صغير ودفعتهُ التقادير الى ايدي بني سُلامان فكان فيهم كانهُ منهم وهو

---

١ الرب عمرو بن هند والحيارين موضع قاتل فيه بنو بكر مع عمرو بن هند وقوله: والبلاء بلاء اي حين كان القتال في غاية الشدة ٢ يترفع ٣ حقداً ٤ منّ وامتن عليه ذكر وعدّد له ما فعله من الخير على سبيل التوبيخ.

بحسب نفسه احدهم حتى نازعته بنت مولاهُ اذ قال لها الشنفرى « اغسلي رأسي يا أخيَّة » فانكرت أنْ يكون اخاها ولطمتهُ. فذهب مغاضباً حتى اتى الذي اشتراه فقال له « اصدقني ممّن انا » فقال « انت من الاوس » فقال « اما اني لن ادعكم حتى اقتل منكم مائة بما استعبدتموني » وكان اذا لقي رجلاً من بني سلامان يقول له « لطرفك » ثم يرميه فيصيب عينه حتى قتل منهم تسعه وتسعين ونزل يوماً في مضيق ليشرب فتربصوا[1] له وأمسكوه وقتلوه وطرحوا رأسه فمرَّ به رجل منهم فضرب الجمجمة بقدمهِ فعقرت قدمه فمات منها فتمت به المائة. وللشنفرى قصيدة شهيرة تعرف بلاميَّة العرب أنشأَها معاتباً قومَهُ مفتخراً بانفرادهِ في البراري وصحبته للسباع وقد ضمّنها من الالفاظ الضخمة والمعاني الغريبة والتراكيب الخشنة ما يلائم القفار التي استوطنها والوحوش التي آخاها. قال:

أَقيموا بني أُمّي صدورَ مَطيِّكم ... فإني الى قومٍ سواكمَ لأَميَلُ[2]

فلي دونَكُمْ اهلونَ سِيدٌ عَملَّسٌ ... وأَرقطُ زُهلولٌ وعَرفاءُ جَيْأَلُ[3]

همُ الاهلُ لامستودعُ السرّ ذائعٌ ... لديهم ولا الجاني بما جرَّ يُخذَلُ[4]

واني كفاني فَقْدَ من ليس جازياً ... بحُسنى ولا في قربهِ مُتَعلَّلُ[5]

ثلاثةُ اصحابٍ فؤادٌ مشيَّعٌ ... وابيض إصليتٌ وصَفراءُ عَيْطَلُ[6]

ولستُ بعَلٍّ شرُّهُ دونَ خيرهِ ... أَلَفَّ اذا ما رُعتَهُ أَهتاجَ أَعزلُ[7]

---

١ انتظروهُ ٢ بني امّي اخوتي والمطي جمع مطيّة وهي الدابة للركوب واميل اسم تفضيل من مال ٣ السيد الذئب والعملّس القوي والارقط النمر والزهلول الاملس والعرفاء ذات العرف وهو الشعر الثابت على العنق وجيأل علم جنس للضبع ٤ ذائع ظاهر والجاني فاعل الجناية اي الذنب وجرّ ارتكب الذنب ويخذل لا ينصر ٥ جازياً مكافئاً والمتعلل الشيء الذي يتعلل به ويلتهى ٦ ثلاثة فاعل كفى ومشيع شجاع وابيض اصليت سيف صقيل او مجرّد وصفراء عيطل قوس طويلة العنق متينة ٧ العلّ القراد وهو

ولستُ بِمِحْيَارِ الظلامِ اذا انتحت هُدى الهَوجلِ العِسّيفِ يهماءُ هَوْجَلُ ١
اذا الامعزُ الصَوّانُ لاقى مناسمي تطايرَ منه قادحٌ ومُفَلَّلُ ٢
واغدو على القوتِ الزهيدِ كما غدا أزَلُّ تهاداهُ التنائفُ أطحَلُ ٣
غدا طاوياً يُعارِضُ الريحَ هافياً يخوتُ باذنابِ الشعابِ ويعسِلُ ٤
فلمّا لواهُ القوتُ من حيثُ أمَّهُ دعا فاجابتهُ نظائرُ نُحَّلُ ٥
مُهَلْهَلَةٌ شِيبُ الوجوهِ كأنَّها قِداحٌ بكفَّيْ ياسرٍ تتقلقلُ ٦
او الخشرمُ المبعوثُ حَثْحَثَ دَبْرَهُ محابيضُ أرداهنَّ سامٍ مُعسِّلُ ٧

ذبابة الخيل يستعار للرجل الصغير الجسم والالف العاجز لا يقوم لا لحرب ولا لضيف وراءه افزعه واهتاج تحيّر تحيّر الاحمق والاعزل من لاسلاح معه وهو خبر لمبتدا محذوف تقديره وهو اعزل

١ المحيار المتحير وانتحت قصدت واعترضت والهوجل الرجل الطويل الذي فيه تسرُّع وحمق والعسيف الآخذ على غير طريق واليهماء الفلاة التي لا يهتدى فيها الطريق ولا يستطيع المارّ فيها دفع تحيره وهوجل هائل مخيف والفلاة التي لا اعلام بها ٢ الامعز المكان الصلب الكثير الحصى والصوان الحجارة الملس ومناسم جمع منسم وهو خف البعير والقادح الذي يقدح ناراً والمفلل المكسر ٣ الازل الارسح اي القليل لحم الوركين « صفة للذئب المحذوف » والتنائف جمع تنوفة وهي المفازة وتهاداه تهديه من تنوفة الى اخرى واصلها تتهاداه والاطحل الذي لونه بين الغبرة والبياض ٤ الطاوي الجائع والهافي الخفيف الشديد العدو ويخوت ينقضّ ويخطف واذناب اواخر والشعاب الطريق في الجبل ويعسل يمشي خبباً ويسرع يقال عسل الذئب اذا مرّ مرّاً سهلاً في استقامة ٥ لواه دفعه ومطله وامّه قصده ونحل جمع ناحل وهو الضامر الجسم اراد لما امتنع على هذا الذئب القوت عوى فاجابته ذئاب تشبهه ضامرة الجسوم مثله لجوعها ٦ مهلهلة خفيفة اللحم والياسر اللاعب بالميسر والقداح السهام وتتقلقل تتحرك ٧ الخشرم رئيس النحل والمبعوث المنبعث في السير وحثحث حضّ والدبر جماعة النحل والمحابيض جمع محباض وهي عيدان تكون مع مشتار العسل يثير بها النحل وارداهن ارداهن اي دعمهنّ وسام مرتفع عالٍ والمعسّل طالب العسل يريد ان هذه الذئاب تشبه ايضاً رئيس نحل منبعث في السير فحضت جماعته عيدانٌ مكنها لها رجل معسّل رقي الى موضع عالٍ

مُهَرَّتَةٌ فُوهٌ كأَنَّ شُدوقَها شقوقُ العِصِيّ كالحاتٌ وبُسَّل [١]
وليلةِ نحس يصطلي القوسَ ربُّها واقطَعَهُ اللاتي بها يَتَنبَّل [٢]
دعَستُ على غَطْش وبَغْش وصحبتي سُعارٌ وإرزيزٌ ووَجْرٌ وأفكَل [٣]
فأيّمتُ نسواناً وأيتمتُ وِلْدةً وعُدتُ كما أبدأتُ والليلُ أَليَل [٤]
ويومٍ من الشِعرى يذوبُ لُعابُهُ افاعيه في رَمضائه تتململ [٥]
نصبتُ لهُ وجهي ولاكِنَّ دونَهُ ولاسترَ إلاّ الأَتحَميُّ المُرَعبَل [٦]
وضافٍ اذا هبَّت له الريحُ طيَّرت لبائِدَ عن أعطافهِ ما تُرجَّل [٧]
بعيدٌ بمسّ الدُهنِ والفَلْيِ عهدُهُ لهُ عَبَسٌ عافٍ من الغسلِ مُحْوِل [٨]

المُتَلَمِّسُ (٥٥٠)

هو جرير بنُ عبد المسيح الضبعيّ الملقب بالمتلمس لقولهِ في وصف الارض في اوان خصبها وزخرفها :

---

١ مهرتة مشقوقة الفم شقاً واسعاً صفة للذئاب وفوه مفتوحة الفم مفردها افوه والشدوق جمع شَدق وهو جانب الفم وكالحات عابسات وبسّل جمع باسل وهو الشجاع الكريه المرأى ٢ النحس ضد السعد والمراد هنا البرد واقطع جمع قطع بالكسر وهو نصل قصير عريض السهم وتنبله اتخذه نبلاً ليرمي به ٣ الغطش الظلمة والبغش المطر الخفيف وسعار حرّ الجوع والارزيز البَرَد الصغير والوجر الخوف والافكل الرعدة ٤ ايمت نسواناً تركتهنّ بلا ارواج والليل الأليل الشديد الظلام ٥ الشعرى كوكب في الجوزاء واللعاب ما تراه في شدة الحر مثل نسيج العنكبوت على الارض الحارة من وقع الشمس وتململ تتقلّب ٦ نصبت اظهرت والكنّ الستر والأتحمي ضرب من الاثواب والمرعبل الممزق ٧ ضافٍ طويل سابغ عنى به شعره واللبائد جمع لبيدة وهي ما تلبّد من الشعر والاعطاف الجوانب وترجّل تسرح وتمشط ٨ الدهن الزيت او ما اشبهه والفلي الافتلاء والعبس ما تعلق باذناب الابل من ابعارها وابوالها يجف عليها وعافٍ طويل ومحول مرّ عليه العام

وهذا اوانُ العَرَضِ طنَّ ذُبابُهُ   زنابيرُهُ والازرقُ المتلمِّسُ [١]

والمتلمس خال طرفة صاحب المعلقة الثانية وكان كلاهما ينادمان عمرو بن هند وقد مرَّ خبر الكتاب الذي سلمه لكلٍّ منهما وما كان من امرهما. ولمَّا بلغه ما في صحيفته رماها في نهر الحيرة وقال :

قذفتُ بها في اليمِّ من جنبِ كافرٍ   كذلك أُلقي كلَّ رأيٍ مضلِّلِ [٢]
رضيت لها بالماءِ لمَّا رأيتُها   يجولُ عليها الموتُ في كلِّ جَدْوَلِ [٣]

وبلغه خبر طرفة فقال :

عصاني فما لاقى الرَشادَ وانَّما   تبيَّنَ من امرِ الغويِّ عواقبُهْ [٤]
فاصبح محمولاً على آلة الردى   تمجُّ نجيعَ الخوفِ منه ترائبُهْ [٥]

وقال رادًّا على عمرو بن هند وكان قد عيَّره بأمّه واكثر هذه الابيات جرت مجرى الأمثال :

يعيّرُني أُمّي رجالٌ ولا ارى   اخا كرمٍ الاّ بأن يتكرَّما [٦]
ومن كان ذا عِرضٍ كريمٍ ولم يصُنْ   لهُ حَسَباً كانَ اللئيمَ المُذمَّمَا [٧]

---

١ العرض وادٍ باليمامة وطنّ صوّت والزنابير بدل من ذباب والازرق ذو اللون الازرق لضرب من الذباب والمتلمس المتطلّب الشيء مرة بعد اخرى ٢ اليم البحر ومعظم الماء والمضلل القائد الى الضلال ٣ الجدول النهر الصغير استعاره للسطر ٤ الرشاد الهداية والغوي الضال الهالك ٥ آلة الردى النعش وتمج ترمي والنجيع من الدم ما كان مائلاً الى السواد وترائبه جمع تريبة وهي العظمة من الصدر ٦ تكرم تكلف الكرم يريد ان الكريم هو من يكلف نفسه افعال الكرم لا المنتسب الى ابوين كريمين وقوله يعيرني امي على نزع الخافض والاصل يعيرني بأمي ٧ الحسب ما يعد من مفاخر الاباء واللئيم الدني الاصل

أَحارِثُ إنّـا لو تُساطُ دماؤُنـا ... تزايلْنَ حتى لا يَمَسُّ دمٌ دما [١]

وإنَّ نِصابي ان سألتَ وأُسرتي ... من الناسِ قومٌ يقتنون المزنّما [٢]

وكنّا اذا الجبـارُ صعَّر خدَّهُ ... اقمنـا لهُ من مَيْله فتقوَّما [٣]

لذي الحِلمِ قبل اليوم ماتُقرعُ العصا ... وما عُلِّم الانسانُ الاّ ليعلما [٤]

ولو غيرُ اخوالي ارادوا نقيصتي ... جلعتُ لهم فوقَ العرانينِ ميسَما [٥]

وهل ليَ أُمٌ غيرُها ان تركتهـا ... ابى اللهُ إلاّ أنْ اكونَ لها أبنَما [٦]

وما كنتُ الاّ مثلَ قاطعِ كفِّهِ ... بكفٍّ لهُ أخرى فاصبح أجذما [٧]

يداه أصابت هذه حتفَ هـذه ... فلم تَجِدِ الاخرى عليها تقدّما

فلماّ استقادَ الكفَّ بالكفِّ لم يَجِدْ ... لهُ دَرَكاً في أن تبينـا فأحجما [٨]

فاطرق اطراق الشجاع ولو يرى ... مساغاً لنـابيـه الشجاعُ لصمَّما [٩]

اذا لم يزل حبلُ القرينَيْنِ يلتوي ... فلابُدَّ يوماً من قُوى ان تُجذَّما [١٠]

---

١ حارث احد ندماء عمرو بن هند اتهم المتلمس بغموض النسب وتساط تخلط ٢ النصاب الاصل وأسرتي عشيرتي والمزنم ذو الزنمة وهي شيء يقطع من اذن البعير ويترك معلقاً ولا يفعل ذلك الا بكرام الابل ٣ الجبار القاهر والمتكبر وصعر خده اماله عن النظر الى الناس تهاونا وكبراً وتقوم اعتدل ٤ ما في الشطر الاول مصدرية او زائدة. في هذا البيت تضمين لمثل مشهور وهو « ان العصا قرعت لذي الحلم » واصله ان عامر بن الظرب العدواني من حكام العرب عاش حتى خرف فقال لبعض ولده اذا انكرت من فهمي شيئاً عند الحكم فاقرع على المجنّ بالعصا لارتدع فكان ابنه ينبهه للصواب بقرع العصا ٥ نقيصتي الوقيعة بي والعرانين جمع عرنين وهو الانف او ما صلب منه والميسم اثر الوسم والحديدة التي يوسم بها كنى بذلك عن الاذلال ٦ ابنم لغة في ابن والاستفهام انكاريّ يريد ليس لي امّ غيرها ويأبى الله الا ان اكون لها ابناً فلا يمكنني ان اتركها ٧ الاجذم المقطوع اليد ٨ استقاد القاتل بالقتيل طلب قتله به والدرك اللحاق وادراك الحاجة وتبينا تنفصلا واحجم كفّ ٩ مساغاً مجازاً وصمم عضّ ومضى في العظم والشجاع الحية ١٠ القرينين مثنى قرين وهو البعير يقرن بآخر وقوى الحبل طاقاته وتجذم تقطع .

ومن قوله :

ولن يُقيمَ على خسفٍ يُسامُ بهِ   الا الأذلّانِ عَيرُ الحيّ والوتدُ[١]
هذا على الخسفِ مربوطٌ برمّتهِ   وذا يُشجّ فما يرثي لهُ احدُ[٢]

أَلسَّمَوْءَل (٥٦٠)

هو ابو شريح السموءَل بن عادياء من يهود يثرب كان شاعراً فصيحاً مقدَّماً وجواداً عالي الهمة سريع النجدة شريف القول والفعل وهو صاحب الحصن المعروف بالأَبْلق[٣] بتيماء وكانت العرب تنزل به فيضيفها وتمتار[٤] من حصنه وتقيم هناك سوقاً . ومن قولهِ في حصنه :

بنى لي عاديا حصناً منيعاً   وماءً كلما شئت استقيتُ
واوصى عاديا يوماً بأن لا   تهدّمْ يا سموألُ ما بنيتُ

ونزل امرؤ القيس بالسموءَل وكان قاصداً قيصر بالقسطنطينيّة فاودع عنده ادراعاً كان ملوك كندة يتوارثونها ملك عن ملك ورحل في وجهته وجاء الحارث بن ابي شمر الغسّاني من قبل المنذر ليأخذ منهُ مال امرئ القيس فتحصن منهُ السموءَل وابى تسليم الدروع فقبض الحارث على ابنٍ للسموأل كان خرج الى قنصٍ[٥] لهُ ونادى بالسموأل « أتعرف هذا » قال

---

١ خسف ذل ويسام يكلف والعير الحمار ٢ الرمة قطعة الحبل ويشج يجرح ٣ الابلق كان مشرفاً على تيماء بين الحجاز الشام على رابية من تراب فيه آثار ابنية من لبن ويقال له ايضاً الابلق الفرد وسمي الأبلق لانه كان مبنياً بحجارة سود وبيض ٤ تتخذ الميرة وهي المؤونة ٥ صيد

« نعم هذا أبني » قال « افتسلم ما قِبَلَك أم اقتله » قال « شأنك بهِ فلست أُخفر[1] ذمتي » فضرب الحارث وسط الغلام فقطعهُ شطرين وانصرف فقال السموءَل :

وَفيت بأَدرُعِ الكِنديّ إني اذا ما ذُمَّ اقوامٌ وفيتُ

فضُرب بهِ المثل في الوفاء . ومن شعره الدالّ على كرم اخلاقهِ وشهامته قولهُ مفتخراً :

اذا المرءُ لم يدنَسْ من اللُّؤمِ عِرضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديهِ جميلُ[2]
وإن هو لم يحمِل على النفسِ ضَيْمها فليسَ الى حُسنِ الثناءِ سبيلُ[3]
تُعَيِّرُنا أنّا قليلٌ عديدُنا فقلتُ لها ان الكِرامَ قليلُ[4]
وما ضرَّنا أنّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الاكثرينَ ذليلُ
لنا جبلٌ يحتلُّهُ من نُجيرُهُ منيعٌ يردُّ الطَرْفَ وهو كليلُ[5]
رسا اصلهُ تحت الثرى وسما بهِ الى النجم فرعٌ لا يُنالُ طويلُ[6]
وإنّا لقومٌ لا نرى القتل سُبَّةً اذا ما رأتهُ عامرٌ وسَلولُ[7]
يقرِّبُ حبُّ الموتِ آجالَنا لنا وتكرههُ آجالُهم فتطولُ[8]

---

١ انقض ٢ العرض موضع المدح والذم من الانسان ومعنى البيت اذا سلم العرض من اللوم جمل على صاحبه كل ثوب لبسه ٣ الضيم الظلم والثناء المدح والمعنى او لم يكلف نفسه الصبر على المكاره فليس اهلا للمدح ٤ قليل يوصف بها المفرد والجمع ومثلها كثير ٥ اراد بالجبل الحصن المذكور انفاً ويحتله ينزل به ومنيع حصين وكليل ضعيف ٦ رسا ثبت وسما ارتفع والفرع من كل شيء اعلاه ٧ السبة السباب والشتيمة وعامر هو ابن صعصعة وبنو سلول هم بنو مرة بن صعصعة وكلتا القبيلتين من قيس عيلان وفي البيت استطراد من مدح قومه الى هجاء هاتين القبيلتين ٨ يريد ان قومه يحبون القتال لشجاعتهم فيقتلون وعامر وسلول يطول عمرهم لمجانبتهم القتال جبناً وخوفاً

تسيلُ على حدِّ الظُبات نفوسُنا ... وليست على غير الظبات تسيلُ[١]
ونُنكرُ إن شئنا على الناس قولَهم ... ولا يُنكرون القولَ حين نقولُ
اذا سيّدٌ منّا خلا قام سيّدٌ ... قَؤولٌ لما قال الكرام فَعولُ[٢]
وما أُخمِدت نارٌ لنا دونَ طارقٍ ... ولا ذمَّنا في النازلين نَزيلُ[٣]
وايّامنا مشهورةٌ في عدوّنا ... لها غُرَرٌ معلومةٌ وحجولُ[٤]
وأسيافنا في كل شرقٍ ومغربٍ ... بها من قراع الدارعين فُلولُ[٥]
سلي ان جهلتِ الناس عنا وعنهمُ ... فليس سواءً عالمٌ وجهولُ[٦]

أَلْمُهَلْهِل (٥٧٠)

هو ابو ليلى عديٌّ بن ربيعة التغلبيُّ الملقب بالمُهَلْهِل وهو اول من قصّد[٧] القصائد وعنه اخذ ابن اخته امرؤ القيس صناعة الشعر ففاق فيها وبرّز[٨] وكان المهلهل اصبح[٩] اهل زمانه وجهاً وافصحهم لساناً منكباً على اللهو ومعاقرة الخمر لايكاد يهتم بما سوى ملاذّه حتى قُتل اخوهُ كليب. فعظم عليه المصاب واخذ يبكيه ويندبهُ ويرثيه بالاشعار ويتوعد بني مُرّة وكان القاتل منهم. الا انه لما طال اجتزاؤه[١٠] بالتهدد والتوعد يئس قومه من

---

١ الظبات جم ظبة وهي حد السيف والنفوس بمعنى الدماء ٢ خلا مضى وقؤول فصيح لسن وفعول عامل لما يقول ٣ الطارق الآتي القوم ليلاً ٤ ايّامنا اي وقعاتنا مشهورة في اعدائنا فهي بين الايام كالافراس الغر المحجلة بين الخيل ٥ الدارع لابس الدرع والقراع الضرب والمقاتلة وفلول جمع فل وهو الكسر في حد السيف ٦ يريد سلي الناس عنا وعنهم ان كنت جاهلة فتحسني ظنك بنا لان العالم ليس كالجاهل في حكمه بالاشياء ٧ قصّد هذّب وجوّد ٨ غلب ٩ اجمل ١٠ اكتفاؤه

نجدته واثناره لأخيه وقالوا انه زير[١] نساء . وسخرت منه بكر وهمّ بنو مرة بالرجوع الى الحِمَى[٢] وبلغ ذلك المهلهل فآلمهُ ما يتحدَّث بـه عنه وهبَّ للكفاح والقتال وطلبِ الانتقام لكليب. وانتشبت بين بكر وتغلب حرب هائلة دامت على ما يقال اربعين سنة الى ان اصلح بينهم عمرو بن هند كما مرت الاشارة الى ذلك في ترجمَتي عمرو بن كلثوم التغلبي والحارث بن حلزة البكري وهذه الحرب هي التي تعرف بحرب البسوس

وملخص الخبر عن قتل كُليب ونشوب حرب البسوس انّ كليباً لما نادت به قبائل مَعَدّ ملكاً ودانت لهُ الرقاب داخلهُ من ذلك زهوٌ شديد واستفزّه[٣] العجب الى بغيٍ فادح[٤] وبلغ من استبداده ان يحمي مواقع الغيث[٥] فلا يرعى ويقول « وحش ارض كذا في جواري فلا يهاج وصيد ناحية كذا في جواري فلا يصيد احدٌ منه شيئاً ..... الى غير ذلك من الاقوال والافعال التي لا تصدر الاّ ممَّنْ مسّهُ جنون الطغيان[٦] وغشى بصيرتهُ شيطان الكبرياء

وكانت جليلة امرأة كليب من بني مرة ولها عشرة اخوة منهم جَسَّاس وهو اصغرهم فنزلت عليه يوماً خالة لهُ اسمها البسوس بنت منقذٍ ونزل بالبسوس رجلٌ من بني جَرْم يدعى سعداً ومعهُ ناقة خوَّارة[٧] يتبعها فصيلها[٨] فرعت ناقة الجرميّ مع ابل جساس وكانت ابلهُ وابل كليب مختلطة . فرآها كليب فانكرها ورماها بسهم خرق ضرعها ثم قتل فصيلها. فولّت الناقة تعجّ حتى بركت بفناء[٩] صاحبها فلما رآها صرخ بالذل

---

١ الذي يحب محادثة النساء ٢ عزموا على العودة الى مساكنهم والحمى الموضع ينزله القوم فيحمونه عمن سواهم ٣ استخفه ٤ ظلم ثقيل ٥ المطر ٦ الظلم ٧ غزيرة اللبن ٨ ولدها ٩ ساحة

وسمعتهُ البسوس فخرجت وأبصرت ما كان فصكّت[1] وجهها وصاحت « واذلاَّه... واجوار جساس واجوار مرة... » ثم انشدت :

لعمريَ لو أصبحتُ في دار مُنقذٍ   لما ضِيمَ سعدٌ وهو جارٌ لابياتي
ولكنني اصبحتُ في دار غربةٍ   متى يعدُ فيها الذئب يعدُ على شاتي[2]
فيا سعدُ لا تغررْ بنفسك وارتحلْ   فانك في قوم عن الجار اموات
ودونك أذوادي اليك فانني   محاذرةٌ ان يغدروا بُبنيّاتي[3]
وسر نحوَ جرمٍ ان جرماً أعزَّةٌ   ولاتكُ فينا لاهياً بين نِسواتِ

والعرب تسمي هذه الابيات بالموثبّات. فاوغرت[4] صدور القوم وهبَّ جسّاس وهو لا يعي من الغضب فقصد كليباً وفتك به فدارت على اثر ذلك بين الفريقين رحى حرب طاحنة كادوا يتفانون فيها فضرب المثل بالبسوس في الشؤم وقيل « اشأم من البسوس »
واكثر شعر المهلهل في رثاء اخيه كليب فمنهُ قولهُ :

اهاجَ قذاءَ عيني الأذكارُ   هدوءً فالدموعُ لها انحدارُ[5]
وصارَ الليلُ مشتملاً علينا   كأن الليلَ ليسَ لهُ نهارُ[6]
أصرِّف مُقلتي في إثر قومٍ   تباينت البلادُ بهم فغاروا[7]
وابكي والنجومُ مطلّعاتٌ   كأنْ لم تحوِها عني البحارُ[8]

---

١ لطمت ٢ عدا عليه سطا والشاة النعجة تريد ان ليس احدٌ يدافع عن حقوقها في جوار جسّاس ابن اختها ٣ أذواد جمع ذود وهي من النوق ما فوق الاثنتين ودون العشرة وقيل الثلاثين ودونك اسم فعل بمعنى خذ ومحاذرة خائفة ٤ اوقدتها غيظاً ٥ القذاء ممدود قذى وهو ما يقع في العين ويوجعها والهدوء اول الليل ٦ مشتملاً علينا محدقاً بنا ٧ اصرف أسرّح وأرسل والمقلة العين وتباينت تباعدت وغاروا غربوا عن العين واختفوا ٨ مطلعات طالعة : اي كان النجوم لا تغرب في البحار لطول الليل

على من لو نُعيتُ وكان حيّاً　لقاد الخيلَ يحجبُها الغُبارُ[١]
دعوتك يا كليب فلم تجبني　وكيف يُجيبُني البلدُ القفارُ[٢]
أجبني يا كليب خلاك ذمٌّ　لقد فُجعت بفارسها نزارُ[٣]
سقاك الغيثُ انك كنت غيثاً　ويُسراً حين يُلتمسُ اليسارُ[٤]
أبت عيناي بعدك ان تكفّا　كأن غضا القتادِ لها شفارُ[٥]
كأني اذ نعى الناعي كليباً　تطايرَ بينَ جنبيَّ الشرارُ[٦]
فدرت وقد عشي بصري عليه　كما دارت بشاربها العُقارُ[٧]
خذِ العهدَ الأكيدَ عليَّ عمري　بتركي كلَّ ما حوت الديارُ[٨]
ولست بخالعٍ درعي وسيفي　الى ان يخلعَ الليلَ النهارُ[٩]

وله في النسج على هذا المنوال شيء كثير — ولا بأس ان نذكر هنا ما اجابت به جليلة اخت جسّاس وامرأة كليب لنسوةٍ عيّرتها قائلات «هذه المرأة ليست ثاكلة انما هي شامتة فان اخاها هو القاتل» :

يا ابنةَ الاقوامِ إن شئتِ فلا　تعجلي باللومِ حتّى تسألي
فاذا أنتِ تبيّنتِ الذي　يوجبُ اللومَ فلومي واعذلي
واذا أختُ امرئٍ ليمتْ على　شفقٍ منها عليه فافعلي

---

١ قاد الخيل سار بفرسانها ويحجبها يسترها ٢ البلد القفار الخالي من اهله ٣ نزار اسم قبيلته ٤ الغيث المطر واليسر ضد العسر واليسار الغنى والسهولة ٥ الغضا شجر من الاثل خشبه اصلب الخشب وجمره يبقى زمناً طويلاً والقتاد شجر صلب له شوك كالابر والشفار جمع شفرة وهي السكين يريد ان عينه ابت الا ذرف الدموع كأنه دخلها شوك القتاد فيجرحها كما تجرح السكاكين ٦ الشرار ما يتطاير من النار ٧ عشي بصره ساء بالليل والنهار والعقار الخمرة ودارت به اثرت به فاصابه الدوار ٨ العهد الميثاق ٩ خالع نازع وفي عطف سيف على درعي ايجاز حذف : اي خالع درعي وتارك سيفي

جلَّ عندي فعلُ جسّاس فوا حسرتا عمّا أنجلت او تنجلي[1]
فعلُ جسّاس على وَجْدي بهِ قاطعٌ ظهري ومُدنٍ أجَلي[2]
لو بعينٍ فُقِئت عينٌ سوى أختها فأنفقأتْ لم أحفِلِ[3]
يا قتيلاً قوَّضَ الدهرُ بـــهِ سقفَ بيتيَّ جميعاً من علِ[4]
ورماني قتلُهُ من كَثَبٍ رِميةَ المُصْمِي به المستأصَلِ[5]
خصَّني قتل كليبٍ بلظىً من ورائي ولظىً مستقبلي[6]
هدمَ البيتَ الذي استحدثتُــهُ وانثنى في هدمِ بيتي الأوَّلِ[7]
يشتفي المدركُ بالثـــأرِ وفي دَرَكي ثأريَ ثُـكْلٌ مُثكِلي[8]
إنني قاتلـــةٌ مقتولـــة ولعلَّ اللّهَ ان يرتاح لي[9]

عديُّ بنُ زَيدٍ (٥٨٢)

هو عديٌّ بن زيد التميمي من نصارى الحيرة . كان شاعراً فصيحاً الا انه لا يعد من فحول الجاهلية لاشياء اخذت عليه في شعرهِ ولعلَّ ملابسته للفرس وطول اقامته بين ظهرانيهم أثرت في ملكته[10] العربية فقصر عن

---

١ جلَّ عظم وانجلت انكشفت ٢ الوجد الحزن ٣ لم احفل لم اكترث ٤ قوض هدم وبيتيَّ بالتثنية ارادت بيت اخيها وبيت زوجها وعلِ فوق ٥ الكثب القرب والمصمي اصمي الصيد اذا قتله مكانه والمستأصل المقلوع من اصلهِ ٦ لظى النار لهيبها ٧ استحدثته اتخذته حديثاً وانثنى رجع اي هدم بيت زوجها بموته ثم سيهدم بيت ابيها واخيها بسبب الطلب بثأر المقتول ٨ اشتفى نال الشفاء من مرض اوثأر والثكل فقد شخص عزيز ٩ يرتاح لي ينقذني من بليتي ١٠ ملكة الكاتب صفة راسخة في نفسه يقدر بها على التعبير عما في نفسه بكلام بليغ في اي معنى كان

اللحاق بالمجلّين في حلبة الشعر. ولد بالحيرة ولمّا ايفع[١] جعلهُ ابوهُ في الكتاب فنبغ الغلام وحذق. وكان لابيهِ صديق من المرازبة[٢] فأرسله مع ابنه الى بلاد فارس فتعلم الكتابة والكلام بالفارسية حتى خرج من افهم الناس بها. وذكره الفارسيّ بحضرة كسرى فاستدعاه فأعجبه جماله وعقله فاثبته مع ولد المرزبان في ديوانه بالمدائن. وعظمت حظوتهُ عند الملك ونما صيتهُ الى الحيرة فهابهُ اهلها وأجلّوهُ. ولمّا عاد الى الحيرة بعد قيامه بالمهامّ الخطيرة خرج المنذر بنفسه للقائه واحتفى[٣] بهِ. وولد للمنذر ابن سمّاه النعمان فجعله في حجر[٤] عديّ فربّاه وادّبه. ولمّا مات ابوه سعى عديّ عند كسرى في تمليكه مكان ابيه بمعزل عن اخوته الاثني عشر فنجح بعد خطب طويل. فحقد عليه قومٌ من خاصة اخٍ له كان يطمع بالملك ولم يزالوا بالنعمان يسعون بعديّ ويختلقون عليه الاكاذيب حتى اوغروا[٥] صدرهُ فتنكر لهُ. واطلعه الحساد على كتاب زوّروهُ ونسبوهُ اليهِ فاحتدم غيظهُ وبعث فالقى عليهِ القبض وزجّهُ في السجن ولم تطل مدتهُ حتى قتلهُ فكان ضحية زكية نُحرت بمُدْيَة التسرّع على هيكل الحسد الاثيم. وكم للحسد من ضحايا شقّت لشقائها القلوب منذ خروج آدم من الجنة الى يوم تقوم الساعة ساعة العدل والانصاف. وله في حبسه شعر كثير يذكّر فيه النعمان سابق حرمتهِ وفضلهِ. ومنه :

أَلا مَن مبلغٌ النعمانِ عني وقد تُهوى النصيحةُ بالمغيب[٦]
أَحظّي كان سلسلةً وقيداً وغُلّاً والبيانُ لدى الطبيبِ[٧]

---

١ ترعرع وناهز البلوغ ٢ جمع مرزبان وهو الرئيس عند الفرس ٣ بالغ في اكرامه ٤ حضن ٥ اشعلوه غيظاً ٦ تهوى تحب وترغب ٧ الغلّ القيد

لاتاك بأني قد طال حبسي	ولم تسأمْ بمسجونٍ حريبِ [١]
وبيتي مُقفرُ الارجاء فيه	اراملُ قد هلكنَ من النحيبِ [٢]
فهل لك ان تَداركَ ما لدينا	ولا تُغلَبْ على الرأي المُصيبِ [٣]
فاني قد وكلتُ اليومَ امري	الى ربٍّ قريبٍ مستجيبِ

ومن قوله في السجن ايضاً :

ليس شيءٌ على المنون بباقِ	غيرُ وجهِ المُسبَّحِ الخلّاقِ [٤]
ان نكنْ آمنين فاجأَنا شـ	ـرٌّ مصيبٌ ذا الودِّ والاشفاقِ [٥]
فاذهبي يا أُميمَ غيرَ بعيدٍ	لايؤاتي العناقُ مَن في الوثاقِ [٦]
واذهبي يا أُميمَ إن يشإِ اللـ	ـهُ يُنفِّسْ من أزْمِ هذا الخُناقِ [٧]
او تكنْ وِجهةٌ فتلك سبيلُ النـ	ـاسِ لا تمنعُ الحتوفَ الرواقي [٨]
يا ابا مِسهرٍ فأبلغ رسولاً	إخوتي إن بلغتَ صحنَ العراقِ [٩]
ابلغا عامراً وأبلغ أخاهُ	أنني موثقٌ شديدٌ وِثاقي [١٠]
في حديدِ القُسطاسِ يرقبُني الحا	رسُ والمرءُ كلَّ شيءٍ يلاقي [١١]

---

١ تسأم تضجر والحريب المسلوب المال والمتروك بلا شيء ٢ الارجاء الانحاء ٣ تدارك اصله تتدارك حذفت منه التاء تخفيفاً وتغلب يؤخذ منك بالغلبة والرأي المصيب السديد ٤ المنون الموت ٥ فاجأنا عاجلنا وطرقنا بغتة والود الصداقة والاشفاق الحنو والانعطاف ٦ اميم مرخم أميمة مصغر ام تصغير تحبب والعناق المعانقة والوثاق ما يُشدّ به من حبل او قيد ونحوه ٧ الازْم الشدة والخناق داء يعسر معه نفوذ النفس الى الرئة ٨ الوجهة ما يتوجهة اليه والحتوف جمع حتف بالفتح وهو الموت والرواقي فاعل تمنع وهو جمع راقية وهي التي تصنع الرقية اي ما يستعان به للحصول على امر بقوى تفوق القوى الطبيعية ٩ الصحن من الدار ساحتها ووسطها ومن الارض ما استوى منها ١٠ موثق مشدود بالوثاق ١١ القسطاس الميزان

في حديـــدٍ مضاعفٍ وغلولٍ   وثيـابٍ مُنضَحاتٍ خِلاقٍ[١]

ومن شعره في غير هذا المعنى قوله يصف الخمرة :

ودَعَوا بالصَبوح يوماً فجاءت   قَينةٌ في يمينهـــا إبريقُ[٢]
قدَّمتهُ على عُقارٍ كعينِ الـ   ديك صفّى سُلاَفها الراووقِ[٣]
مُرَّةٌ قبلَ مَزْجِها فاذا مـا   مُزِجت لذَّطعمُها من يذوقُ[٤]
وطفا فوقَها فقاقيعُ كاليـا   قوتِ حمرٌ يزينُها التصفيقُ[٥]
ثم كان المِزاجُ مـاءَ سحابٍ   لا صَرىً آجنٌ ولا مطروقُ[٦]

بِشْرُ بنُ أبي عَوَانَة

هو بشر بن ابي عوانة العبديّ كان من صعاليك العرب وأبطالهم مخشيَّ الجانب كثير الغارات[٧]. قيل انه طلب من عمّهِ ان يزوّجه ابنتهُ وقد سمع بصفاتها الحسنة ومزاياها الجليلة فانف عمهُ من مصاهرتهِ لما اشتهر من شطارته[٨] وتلصّصهِ فاحتدم بشر وثار ثائره واكثر من النكاية في رهط[٩] عمّه والحق بهم اذىً شديداً. فعمل عمهُ على اهلاكهِ بحيلة وقال له « إني آليت[١٠] ان لا ازوج ابنتي الا ممن يسوق

١ مضاعف مزاد عليه مثله ومنضحات ملطخة مدنسة وخلاق رثة بالية ٢ الصبوح الشرب صباحاً والقينة الامة المغنية ٣ العقار الخمرة والسلاف ما سال قبل العصر وهو افضل الخمر والراووق المصفاة ٤ المزج الخلط ٥ طفا علا فوق الماء والفقاقيع جمع فقاعة وهي نفاخة تعلو الماء والياقوت حجر ثمين صلب رزين شفاف تختلف الوانه والتصفيق تصفية الشراب بتحويله من اناء الى آخر ٦ السحاب الغيمة الممطرة والصرى الماء الطويل المكث والآجن الماء المتغير لونه وطعمه والمطروق منه ماخاضت فيه الابل ٧ المجوم على الاعداء والايقاع بهم ٨ الشطارة اعياء الناس خبثاً ٩ قومه ١٠ اقسمت

اليها الف ناقة حمراء ولا أرضاها إلاّ من نوق خزاعة» وكان في الطريق الى خزاعة اسد يقال لهُ داذٌ وحيةٌ يقال لها شجاع وفيهما يقول القائل:

أفتكُ من داذٍ ومن شجاعٍ ان يكُ داذٌ سيّدَ السباعِ
فانها سيّدة الافاعي

وايقن عمّهُ ان هو قبل ودخل تحت اشتراطهِ أن يلقى هنالك هلاكه. فسار بشر ولمّا نصف الطريقَ اعترض لهُ الاسد فجفل المهر واحجم [١] فنزل عنهُ وقصد الاسد فقطعهُ شطرين ثم كتب فيما يزعمون بدم الاسد على قميصهِ الى اختهِ فاطمة قصيدة طنّانة يصف فيها قصتهُ مع الاسد. وقد قال في المثل السائر إن وصفه للاسد من النمط العالي الذي لم يأتِ احد بمثلهِ وكل الشعراء لم تسمُ قرائحهم الى استخراج معنى ليس بمذكور في ابياتهِ. قال:

أفاطمَ لو شهدتِ ببطن خَبْتٍ وقد لاقى الهِزَبْرُ اخاكِ بشرا [٢]
إذاً لرأيتِ ليثاً أمَّ ليثاً هِزَبْراً أغلباً لاقى هِزَبْرا [٣]
تَبَهنسَ اذ تقاعس منهُ مهري محاذرةً فقلت عُقرتَ مهرا [٤]
أنِلْ قدميَّ ظهرَ الارض إني رأيتُ الارضَ اثبتَ منك ظهرا [٥]
فحِينَ نزلتُ مدَّ اليَّ طرفاً يُخالُ الموتُ يلمعُ منه شزرا [٦]

---

١ نكص ٢ الخبت المطمئن من الارض وربما كان بطن خبت علما لموضع والهزبر الاسد ٣ الليث الاسد والمراد بالاول بشر وبالثاني داذ والاغلب الضخم الرقبة من القاب الاسد والهزبر الاخير هو بشر ايضاً ٤ تبهنس تبختر والضمير المستكن فيه عائد الى الليث وتقاعس ارتدّ وتأخر وعقر المهر قطع قوائمه ٥ انال قدمه ظهر الارض مكّنه منها ٦ الطرف البصر وشزراً غضباً

فقلتُ لهُ وقــــد أبدى نِصالاً محدّدةً ووجهــاً مُكفهرّا[١]
يُدِلُّ بمِخلَبٍ وبحدِّ نــابٍ وباللحظات تحسبهنَّ جمرا[٢]
وفي يمنــايَ ماضي الحدِّ ابقى بمَضربهِ قِراعُ الـدهرِ أُثْرا[٣]
ألم يبلغْك مـــا فعلت ظُباهُ بكاظمةٍ غداةَ قتلتُ عمــرا[٤]
خرجتَ تروم للاشبالِ قــوتـاً ورمتُ لبنت عمّي اليومَ مَهرا[٥]
وقلبي مثلُ قلبِك ليس يخشى مصاولةً فكيف يخاف ذُعرا[٦]
ففيمَ ترومُ مثلي ان يولّي ويجعلَ في يديك النفس قَسْرا[٧]
نصحتك فالتمس يا ليثُ غيري طعاماً إن لحمي كان مُرّا[٥]
محضتك نُصحَ ذي شفَقٍ فحاذر مرامي لاتكن بالموت غِرّا[٨]
فلمّا ظنَّ أنَّ النصحَ غشٌّ فخـــالفني كأني قلت هُجرا[٩]
خطا وخطوت من اسدَيْن راما مراماً كان إذ طلباهُ وَعْرا[١٠]
يُكفكِفُ غيلةً احدى يديهِ ويبسطُ للوثوبِ عليَّ أُخرى[١١]
هززتُ لـه الحسامَ فخلت أني شققتُ به من الظلماءِ فجرا
واطلقت المهنّدَ من يميـــني فقدَّ له من الاضلاع عشرا[١٢]

---

١ النصال جمع نصل بالفتح وهو حديدة السيف يريد بها انيابه وابداها اظهرها والوجه المكفهر القليل اللحم العابس ٢ يدل يظهر دلالا وجرأة واللحظات النظرات ٣ مضرب السيف حدّه والقراع المقارعة والأثر أثر الجرح بعد البرء سمى به الثلوم التي في السيف استعارة ٤ الظبى جمع ظبة وهى حد السيف وجمعها تفخيماً لها وكاظمة اسم موضع وعمرو المذكور احد فرسان بني ثعلبة قتله بشر في احدى غاراته ٥ الاشبال اولاد الاسد ٦ الذعر الفشل والخوف ٧ يولّي ينهزم وقسراً غصباً ٨ الشفق الشفقة وغراً جاهلاً ٩ الهجر الهذيان ١٠ خطا مشى ومن اسدين بيان للضميرين في خطا وخطوت والوعر الصعب المنال ١١ يكفكف يصرف ويمنع وغيلة اغتيالاً وخديعة ١٢ هزّ الحسام حركه في يده وخلت تخيلت شبه بريق السيف ولمعانه بفجر شق من الظلماء

وجُدتُ لهُ بجائشةٍ أرتهُ بأن كَذَبتْهُ ما منّتهُ غدرا [1]
بضربةِ فيصلٍ تركتهُ شفعاً وكان كأنهُ الجلمودُ وِترا [2]
فخرَّ مضرَّجاً بدمٍ كأني هدمتُ بهِ بناءً مشمخرّا [3]
فقلت لـهُ يعزُّ عليَّ أني قتلتُ مماثلي جلَداً وقهرا [4]
ولكن رُمتَ أمراً لم يرمهُ سواك فلم أُطق ياليثُ صبرا [5]
تحاولُ ان تعلّمني فراراً لَعَمرُ ابيك قد حاولتَ نُكرا [6]
فلا تجزعْ فقد لاقيتَ حرّاً يحاذر ان يُعابَ فمتَّ حرّا

فلما بلغت الابيات عمّهُ خشي ان تغتالهُ الحية فقام في اثرهِ وبلغهُ وقد ملكتهُ سَوْرة الحية. فلما رآه بشر اخذته حمية الجاهلية فقبض على فم الحية بيدهِ وحكم سيفهُ فيها فقتلها ثم رجع بهِ عمهُ الى الحيّ وزوجهُ بابنتهِ وحسن حالهُ ورغد عيشهُ

وكانت وفاة بشر بن ابي عوانة في اواخر القرن السادس للمسيح .

قُسّ (٦٠٠)

هو قسّ بن ساعدة الايادي اسقف نجران خطيب العرب وشاعرها وحليمها وحكيمها [7] في عصرهِ. قيل إنه اول من علا على

---

١ الجائشة الهائجة صفة لضربه محذوفة ومنته اطمعته فيها ٢ الفيصل الحسام القاطع والشفع الزوج والوتر الفرد اي ضربته بسيفي فقسمته اثنين وقد كان واحداً ٣ خر سقط ومضرجا ملوناً وملطخاً ومشمخراً عالياً ٤ يعز عليّ يصعب ومماثلي مشاكلي ومشابهي والجلد الصبر ٥ اي رمت ان تفترسني وهذا شيء لم يطلبه احدٌ سواك ولذلك لم اطقه ٦ النكر المنكر ٧ حاكم في اختلافاتها

شرف [١] وخطب عليه وأوّل من قال في كلامه «أمّا بعد» وأوّل من اتكأ في خطبته على سيفٍ او عصا ويضرب به المثل في الفصاحة فغاية ما يقال في رجلٍ فصيح : افصح من قسّ. ومن خطبةٍ له بسوق عكاظ قوله :

ايّها الناس اسمعوا وعوا . من عاش مات ومن مات فات وكلّ ما هو آتٍ آت . ليلٌ داجٍ [٢] وسماء ذات ابراج ... مالي ارى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا ام تركوا فناموا ... يا معشر اياد اين الآباء والاجداد واين الفراعنة الشداد ... ألم يكونوا اكثر منكم مالاً واطول آجالاً طحنهم الدهر بكلكلهِ [٣] ومزقهم بتطاوله :

في الذاهبين الاولـــين من القرون لنا بصائرْ
لمّا رأيتُ مـــوارداً للموت ليس لها مصادرْ [٤]
ورأيت قومي نحوهـــا يمضي الاصاغر والاكابرْ
ايقنت اني لا محـــالةَ حيث صار القوم صائرْ

ومن كلامه «من عيّرك شيئاً ففيهِ مثلهِ ومن ظلمك وجد من يظلمه واذا نهيت عن الشيء فابدأ بنفسك ولا تجمع ما لا تأكل ولا تأكل ما لا تحتاج اليه . واذا ادَّخرت فلا يكوننّ كنزك الا فعلك وكن عفّ العيلة [٥] مشترك الغنى . ولا تشاور مشغولاً وان كان حازماً ولا جائعاً وان كان فهماً ولا مذعوراً وان كان ناصحاً ...»

---

١ مكانٍ عالٍ ٢ مظلم ٣ صدره ٤ الموارد من ورد الماء اذا سار اليه وبلغه والمصادر من صدر عن الماء اذا رجع عنه ٥ الفقر والاعواز اي اذا افتقرت فاقنع بالكفاف ولا تكن لجوجاً

ومن شعره قوله يرثي اخوين لهُ وقد وقف على قبريهما بدير سمعان:

خليليَّ هُبَّا طالما قد رقدتما ... أَجِدًّا كما لا تقضيان كَراكُما[١]

الم تعلما اني بسمعانَ مُفردٌ ... ومالِيَ فيه من حبيبٍ سواكما

أُقيم على قبريكما لستُ بارحاً ... طوالَ الليالي او يجيبَ صداكما[٢]

جرى الموت مجرى اللحم والعظم منكما ... كأن الذي يسقي العُقارَ سقاكما[٣]

فلو جُعِلَتْ نفسٌ لنفسٍ وقايةً ... لَجُدْتُ بنفسي ان تكون فداكما[٤]

سأبكيكما طولَ الحياة وما الذي ... يردّ على ذي عَولةٍ إن بكاكُما[٥]

النَّابغةُ الذُّبيَاني (٦٠٤)

هو أبو امامة زياد بن معاوية الذبيانيّ الملقب بالنابغة لخلوّ شعره من العيوب وعلوّ طبقته وجزالة عبارته ورونق لفظه ويُعدّ هو وأمرؤ القيس وزهير بن ابي سَلمى المزنيّ زعماء الشعر المقدمين على من سواهم من شعراء الجاهلية بلا خلاف. وكان النابغة من بطانة[٦] الملك النعمان ابي قابوس عالي المكانة عنده ينادمهُ ويؤانسهُ ثم تغيَّر عليه النعمان وتوعده ففرَّ هارباً ولحق بعمرو بن الحارث الاصغر ملك غسَّان فحظي عنده ومدحه بقصيدة شهيرة منها:

---

١ هبّا انتبها واستيقظا وأجدا كما الهمزة للاستفهام وجدّا مثنى جدّ وهو ضد الهزل وكراكما نومكما ٢ بارحاً ذاهبا يريد انه مقيم على قبر اخويه ليلاً ونهاراً الى ان يجاوبه صداهما اي صوتهما ٣ العقار الخمرة ٤ فدا كما مخفف فداء مصدر فادى ويجوز القصر على انه مصدر فدى وهو ما يعطى من المال عوض المفدي ٥ ذي عولة ذي بكاء برفع صوت ٦ خاصة

كِليني لهمٍّ يا أُميمةُ ناصبِ ... وليلٍ أُقاسيه بطيءِ الكواكبِ [١]

وصدرٍ أراح الليلُ عازبَ همّهِ ... تضاعف فيه الحزنُ من كلّ جانبِ [٢]

عليَّ لعمروٍ نعمةٌ بعد نعمةٍ ... لوالدهِ ليست بذات عقاربِ [٣]

وثقت له بالنصر اذ قيل قد غزَتْ ... كتائبُ من غسّان غيرُ اشائبِ [٤]

اذا ما غَزَوا بالجيش حلّق فوقَهم ... عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ [٥]

فهم يتساقَون المنية بينهم ... بايديهم بيضٌ رِقاقُ المضاربِ [٦]

ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم ... بهنَّ فلولٌ من قِراعِ الكتائبِ [٧]

لهم شيمةٌ لم يعطِها الله غيرهم ... من الجود والأحلام غيرِ عوازبِ [٨]

رِقاقُ النعال طَيِّبٌ حُجُزاتهم ... يُحيّون بالرَّيحان يومَ السباسبِ [٩]

تحيّيهم بيضُ الولائدِ بينهم ... وأكسيةُ الاضريجِ فوقَ المشاجبِ [١٠]

ولا يحسبون الخيرَ لا شرَّ بعدَهُ ... ولا يحسبونَ الشرَّ ضربةَ لازبِ [١١]

وعاد النابغة الى النعمان معتذراً مستغفراً فأمّنهُ النعمان واعاد لهُ سابق نعمتهِ وحظوتهِ عندهُ فأنشدهُ قصيدتهُ السائرة :

---

١ كليني دعيني وهم ناصب ذو تعب وأقاسيه اعالج دفع طوله وبطء الكواكب كناية عن الطول ٢ اراح رد وعازب بعيد ٣ العقارب النمائم والشدائد ٤ كتائب جمع كتيبة وهي الجيش والاشائب الأخلاط من الناس يريد ان غزا هذا الملك بغسان لم يخالطها غريب ٥ حلق ارتفع واستدار كالحلقة وعصائب جماعات ٦ البيض السيوف والمضارب جمع مضرب وهو حد السيف ٧ الفلول الثلوم والقراع المجالدة ٨ الشيمة الطبيعة والاحلام العقول العوازب البعيدة ٩ رقاق النعال كناية عن ترفهم اي انهم لا يمشون وحجزاتهم جمع حجزة وهي معقد الازار اي هم اعفاء القلوب والسباسب يوم الشعانين وقوله يحيون بالريحان اشارة الى ما كان من عادة العرب اذا حيوا ملوكهم رفعوا بايديهم اغصان الشجر ١٠ الولائد جمع وليدة وهي الامة والاضريج الخزّ الاحمر والمشاجب جمع مشجب وهو عود ينشر عليه الثوب ١١ لازب ثابت اي ان اصابهم خير لم يثقوا بدوامه فيبطروا وان اصابهم شرٌّ لم يقنطوا لعلمهم انه سيزول

يا دارَ ميَّةَ بالعلياءِ فالسندِ اقوت وطالَ عليها سالفُ الابدِ[١]

وهي طويلة منها يذكر النعمان:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه ولا أُحاشي من الاقوام من احدِ[٢]
الاّ سليمانَ اذ قال الالهُ له قم في البريّة فاحددْها عن الفَنَدِ[٣]
وخيّسِ الجنَّ إني قد اذِنتُ لهم يبنون تدمُرَ بالصُّفاحِ والعَمَدِ[٤]

ومنها يعتذر:

أُنبئتُ انَّ ابا قابوس أَوعدَني ولا قرارَ على زأرٍ من الاسدِ[٥]
مهلاً فداءٌ لك الاقوامُ كلُّهمُ وما أُثمّرُ من مالٍ ومن ولدِ[٦]
لا تقذفنّي بركنٍ لا كِفاءَ لهُ وان تأثّفكَ الاعداءُ بالرِفَدِ[٧]

وله ايضاً في الاعتذار:

اتاني أَبَيْتَ اللعنَ أنكَ لُمتَني وتلك التي تستكُّ منها المسامعُ[٨]
اتاكَ امرؤٌ مستبطنٌ ليَ بُغضةً لهُ من عدوٍّ مثلُ ذلك شافعُ[٩]

١ مية اسم امرأة والعلياء ما ارتفع من الارض والسند راس الجبل واقوت خلت من اهلها والسالف الماضي والابد الدهر يريد انه لما وقف على الدار اقبل يخاطبها استراحة منه اليها ثم انتقل الى الاخبار عنها اتساعاً ومجازاً ٢ احاشي استثني ومن زائدة واحد مجرور لفظاً منصوب محلاً لانه مفعول استثنى ٣ البرية الخلق واحددها احبسها والفند الخطأ في الرأي والقول ٤ خيّس ذلل وتدمر بلد بالشام والصفاح حجارة عراض رقاق والعمد من السواري الرخام ٥ ابا قابوس النعمان بن المنذر واوعدني هددني وزأر الاسد صوته ٦ مهلاً اصبر وأثمر اجمع ٧ الركن الامر العظيم وكفاء نظير وتأثفك الاعداء احتوشوك فصاروا حولك كالاثافي والرفد جمع رفدة وهي الجماعة ٨ تستك تضيق والمسامع الاذان ٩ مستبطن مضمر. يقول اتاك رجل من اعدائي معه آخر مثله يقول بقوله

اتاك بقولٍ هلهلِ النسجِ كاذبٍ ولم يأْتِ بالحقِّ الذي هو ناصع[1]
اتاك بقولٍ لم أكن لأقولَــهُ ولو كُبّلتْ في ساعديَّ الجوامع[2]
حلفتُ فلم أتركْ لنفسِكَ ريبةً وهل يأْثَمنْ ذو أمّةٍ وهو طائع[3]
لَكلّفتني ذنبَ امرىءٍ وتركتهُ كذي العُرِّ يكوى غيره وهو راتع[4]
فان كنتَ لاذو الضِغنِ عني مكذِّبٌ ولا حلِفي على البراءةِ نافع[5]
فانك كالليل الذي هو مُدركي وان خلتُ أن المنتأى عنك واسع[6]

وله في المعنى نفسه وذكر حسن وفادته عند الغسانيين :

حلفتُ فلم اترك لنفسِك ريبةً وليس وراءَ الله للمرءِ مذهب[7]
لئن كنتَ قد بُلّغتَ عني خيانةً لَمُبلِغُك الواشي أغشُّ وأكذب[8]
ولكنني كنت امرأً لي جانبٌ من الأرض فيه مستراد ومذهب[9]
ملوكٌ واخوانٌ اذا ما اتيتُهم أُحكَّم في اموالهم وأُقرَّب[10]
الم ترَ أن الله اعطاك سَورةً ترى كلَّ ملْكٍ دونها يتذبذب[11]
فانك شمسٌ والملوك كواكبٌ اذا طلعَتْ لم يبدُ منهنّ كوكب[12]

واعتذارات النابغة كثير شهيرة يضرب بها المثل. ووصله من ممدوحيه مال وافر وعطايا جزيلة حتى كان يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب.

---

١ هلهل النسج رقيقه وناصع واضح ٢ كبّل قيد والساعد الذراع والجوامع الاغلال مفردها جامعة ٣ الريبة الشك والامة النعمة ومراده ذو الدين ٤ العرّ قروح تخرج في اعناق الفصلان فيكوى بعير مُسنّ ليبرأ الفصيل ذو العرّ وهو من خرافات العرب ٥ الضغن اضمار البغض وحلفي قسمي ٦ المنتأى البعد ٧ الريبة الشك ٨ الواشي الذي يزين الكذب ٩ لي جانب اي متسع من الارض عنى بذلك نزوله عند الغسانيين على السعة والمستراد المكان الذي يذهب فيه ويجاء ١٠ ملوك خبر لمبتدا محذوف تقديره هم اي الغسانيون ١١ سورة سطوة ويتذبذب يضطرب ١٢ يبدو يظهر ومعناه اذا ظهرت غمرت الملوك كما يغمر ضوء الشمس الكواكب

وكان شعراء زمانهِ يقرّون لهُ بالفضل والتقدم وتُضرب له قبة من أدَم [١] بسوق عكاظ وتأتيهِ الشعراء فتعرض عليهِ اشعارها ويحكم فيها

حاتم (٦٠٥)

هو ابو سَفَّانة حاتم بن عبد الله الطائي كان شاعراً مجيداً وجواداً شهيراً يُضرب بهِ المثل في الجود وقد بلغ في البذل والسخاء الغاية القصوى. توفّي ابوه وهو صغيرٌ فكان في حجر جدهِ سعد بن الحشرج. وأخذ من صغره في العطاء فكان يخرج طعامهُ فان وجد من يأكلهُ معهُ والاطرحهُ. وجعلهُ جدهُ في رعاية الابل وكانت ثلاثمئة فقدم عليه ثلاثة رجال فنحر لهم ثلاثةً من الابل وفرّق عليهم مابقي فأصاب الرجل تسعة وتسعين بعيراً وكان اولئك الثلاثة عبيد بن الابرص وبشر بن ابي خازم والنابغة الذبياني فقالوا فيه اشعاراً وذكروا فضلهُ. الاّ ان جده اكبر الأمر واشتدّ غيظهُ فخرج بقومهِ وترك حاتماً ومعهُ جارية لهُ وفرسهُ وفلوها [٢] فقال :

وما ضرَّني أن سار سعدٌ بأهلهِ	وأفردني في الدار ليس معي اهلي
سيكفي ابتناء المجد سعدَ بن حشرج	واحمل عنكم كلَّ ما ضاع من نَفَلِ [٣]
ولي معَ بذلِ المال في المجدِ صَولةٌ	اذا الحربُ ابدت عن نواجذها العُصْلِ [٤]

وكان اذا اهلَّ الشهر الاصمُّ وهو شهر رجب وكانت مضر تعظمهُ في الجاهلية ينحر في كل يوم عشراً من الابل فيطعم الناس واذا جنَّ [٥]

---

١ جلد ٢ الفلو المهر اذا فطم او بلغ السنة ٣ النفل ما يُفعل مما لم يجب ٤ الصولة القدرة والنواجذ الاضراس او الانياب والعُصل جمع اعصل وهو الاعوج معناه اذا اشتدت الحرب ٥ اظلم

الليل اوعز الى غلامه[١] ان يوقد النار في يفاع[٢] من الارض لينظر اليها من أضلّهُ الطريق فيأوي الى منزله ويقول :

أوقدْ فانّ الليل ليلٌ قَرٌّ والريحُ يا موقدُ ريحٌ صِرٌّ[٣]
عسى يرى ناركَ من يمرُّ ان جلبَتْ ضيفاً فانت حرٌّ

ومن قوله يخاطب امرأته :

مهلاً نوارُ أقلّي اللومَ والعذلا ولا تقولي لشيءٍ فات ما فُعلا[٤]
ولا تقولي لمالٍ كنت مهلكَهُ مهلاً وان كنتُ أُعطي الجنَّ والجُبُلا[٥]
يرى البخيل سبيل المال واحدةً ان الجواد يرى في ماله سُبُلا[٦]

ومن قولهِ :

يا ابنة عبدالله وابنة مالكٍ ويا ابنةَ ذي البُردَين والفرسِ الوَردِ[٧]
اذا ما صنعتِ الزادَ فالتمسي لهُ اكيلاً فاني لست آكلهُ وحدي[٨]
أخاً طارقاً اوجارَ بيتٍ فانني اخاف مذمَّات الحديث من بعدي[٩]
واني لَعبدُ الضيف ما دام ثاويا وما فيَّ الاتلك من شيمةِ العبد[١٠]

وأخبار حاتم في السخاء والكرم لاتكاد تحصى وكان يشبه شعره جودهُ

---

١ أمره ٢ تلّ ٣ ليل قرّ ليل بارد وريح صر شديدة الصوت والبرد ٤ نوار اسم امرأته والعذل اللوم ٥ الجن خلاف الانس والملائكة والشياطين والجُبُل الجماعة من الناس ويروى البحر والجبلا اي مالاً يوازن ماء البحر وثقل الجبل ٦ الجواد الكريم اي ان البخيل لايرى ما يفعل بالمال الا اذّخاره اما الكريم فيفرقه على المستجدين وطالبي الاحسان وعلى نفسه وبنيه ٧ البردان مثنى برد وهو ثوب مخطط وذو البردين لقب عامر بن أحيمر كساه النعمان بردين امام وفود العرب دلالة على عزته والورد من الخيل ما كان احمر اللون الى صفرة ٨ الاكيل المؤاكل ٨ الطارق المستضيف ١٠ ثاوياً مقيماً والشيمة الطبيعة والخلق

أُميَّةُ بنُ أبي الصَّلْت (٦٣٠)

هو ابو عمرو أُميَّة بن ابي الصلت الثقفيّ من الشعراء المشهورين نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبُّداً وشك في الاوثان وحرّم الخمر وكان على دين الحنيفيَّة وهو دين قوم من العرب يقولون انهم لا يزالون على مذهب ابراهيم الخليل وهو القائل :

كلُّ دينٍ يومَ القيامةِ عندَ اللّـ ـهِ الاّ دينَ الحنيفيةِ زورُ[١]

وانفرد في شعرهِ بألفاظٍ كثيرة غريبة لا تعرفها العرب فكان يسمّي الله عزَّ وجلّ «السلطيط» و «التغرور» ويسمي السماء «صاقورة وحاقورة» وجعل للقمر غلافاً سمّاه «الساهور» ومن شعره قوله معاتباً ابناً عاقاً :

غذوتُكَ مولوداً وعُلْتكَ يافعاً تُعَلُّ بما أُدني اليك وتُنهَلُ[٢]
اذا ليلةٌ نابتك بالشكو لم أَبِتْ لشكواك الاّ ساهراً أَتململُ[٣]
كأني انا المطروقُ دونَك بالذي طُرِقتَ به دوني وعينكَ تهمُلُ[٤]
تخاف الردى نفسي عليك وإنها لَتعلم ان الموتَ حتمٌ مؤجَّلُ[٥]
فلما بلغتَ السنَّ والغايةَ التي اليها مدى ما كنتُ فيك أُؤمِّلُ

---

١ الزور الكذب ٢ اليافع الغلام اذا ترعرع وناهز البلوغ قبل سنّ العشرين تعلّ تسقى التريّة بعد المرة وتنهل تشرب اول الشرب ٣ نابتك اصابتك واتململ اتقلب مرضاً وغمّاً ٤ المطروق المصاب وتهمل تصب الدموع ٥ الردى الهلاك والحتم القضاء

جعلتَ جزائي منكَ جَبهاً وغِلظةً ... كأنك انت المنعمُ المتفضّلُ[١]
فليتك اذ لم ترعَ حقَّ أبـــوّتي ... فعلت كما الجارُ المجـاورُ يفعلُ[٢]
وسمّيتني باسمِ المفنّدِ رأيُــــهُ ... وفي رأيك التفنيدُ لو كنتَ تعقلُ[٣]
تراهُ مُعِدّاً للخــــلاف كأنّهُ ... بردٍّ على اهلِ الصوابِ موكَّلُ[٤]

إلاّ أن معظم المأثور من شعرهِ في الكمالات الالهية والمعاني الدينية ومن ذلك قوله :

لك الحمدُ والنعماءُ والملك ربّنـا ... فلاشيءَ أعلى منك مجداً وأمجدُ[٥]
مليكٌ على عرش السماء مُهَيمِنٌ ... لعِزَّتهِ تعنو الوجوهُ وتسجُـدُ[٦]
عليه حجابُ النورِ والنورُ حولهُ ... وانهارُ نورٍ حـــولهُ تتوقّدُ
فلا بصرٌ يسمو اليه بطرفـــه ... ودونَ حجابِ النور خلقٌ مؤيّدُ[٧]
ملائكةٌ لا يفترُونَ عبـادةً ... كَروبيّةٌ منهم ركوعٌ وسُجّدُ[٨]
فساجدهم لا يرفعُ الدهرَ رأسَهُ ... يعظِّمُ ربّاً فـــوقَهُ ويمجّدُ
وراكعُهم يحنو لهُ الدهرَ خاشعاً ... يردّدُ آلاءَ الالـــهِ ويحمَدُ[٩]

وله على هذا النفَس قولٌ كثير. ولمّا أظهر محمد بن عبد الله دعوته انضمَّ أُميّة الى مقاوميهِ وكان يحرّضهم على مناوأته[١٠] وقتالهِ ويرثي قتلاهم ببَدر. وقد ذكر عنه ابو الفرج الاصبهاني اموراً غريبة لا تقبل

---

١ جَبَهَهُ لقيه بما يكره والغلظة القسوة والفظاظة والمنعم والمتفضل الكريم وذو الفضل ٢ ترعى تحفظ والجاور الملاصق ٣ فنّد الرأي خطأ قائله ٤ معدًّا مهيئاً ٥ النعماء اليد البيضاء الصالحة ٦ مهيمن من اسمائه تعالى ومعناه الشاهد او المؤمن وتعنو تخضع وتذل ٧ يسمو يرتفع والطرف آلة البصر اي العين وخلق مؤيد اي ملائكة يقويهم الله عزّ جلاله ٨ لا يفترون تنكسر حدتهم والكروبية أحدى طغمات الملائكة التسع ٩ الآلاء النعم ١٠ معاداة

التصديق وتدلّ ان الرجل لم يخلُ من الوساوس والطمع في التنبُّؤ والله اعلم. ولما حضرته الوفاة أُغمي عليه ثم افاق وهو يقول:

ان تغفرِ اللّهمَّ تغفرْ جمَّا وأيُّ عبدٍ لك لا المَّا [١]

الأعشى (٦٢٩)

هو ابو بصير ميمون بن قيس الملقب بالأعشى ويقال له اعشى قيس والاعشى الاكبر كان من فحول الشعراء مهيب الجانب مَنْ مدحه ارتفع ومن هجاه اتضع. وسُئل يونس عن اشعر الناس فقال «امرؤ القيس اذا غضب والنابغة اذا رهب وزهير اذا رغب والاعشى اذا طرب» وللاعشى القصائد الطوال الجياد وكان يتغنى بشعرهِ فسمي «صناجة [٢] العرب» ويحكى ان رجلاً يقال له المحلّق الكلابي كان مُمْلِقاً [٣] لا يملك سوى ناقة وحلّتي برود [٤] وله ثلاث اخوات قد كسدن. فلما سمع ان الاعشى قادم على حيّه أسرع اليه ودعاه الى منزله فنحر له الناقة وسقاه خمراً وأهداه الحلّتين. فلما اعتلج الكبد والسنام [٥] والخمر في جوفه عرَتْهُ هزة الطرب ونظر الى عطفيه [٦] في البردتين فتاه عجباً وزهواً وانشأ يقول:

أرِقتُ وما هذا السُّهادُ المؤرِّقُ وما بيَ من سُقمٍ وما بيَ مَعشَقُ [٧]
لَعَمري لقد لاحت عيونٌ كثيرةٌ الى ضوءِ نارٍ باليفاعِ [٨] تُحرَّقُ

---

١ جمًّا اي جميع الخطايا والمّ اذنب ٢ صاحب الصنج ٣ فقيراً ٤ جمع برد وهو الثوب ٥ اعتلج التطم واختلط وسنام الجمل حدبته ٦ جانبيه ٧ الارق عدم النوم ومثله السهاد والمعشق مصدر ميمي من عشق ٨ التلّ

تشَبُّ لمقرورَينِ يصطليانِهـا وباتَ على النارِ الندى والمحلّقُ [١]
رضيعَيْ لبانٍ ثدي أمٍّ تحالفا بأسحمَ داجٍ عوضُ لا نتفرّقُ [٢]
ابا مِسمَعٍ سار الذي قد فعلتُمُ فأنجدَ اقوامٌ به ثمّ أعرقوا [٣]
به تَعقَدُ الاجمالُ في كلّ منزلٍ وتُعقَدُ اطرافُ الجبالِ وتُطلَقُ [٤]

فما اتت على المحلق سنة حتى زوّج اخواتهِ الثلاث كل واحدة على مئة ناقة فأيسر وشرف. ومن شعرهِ قوله يستغيث بابن السموءَل في اسرهِ فافتداه ووهبه ناقة وأطلقه:

شُرَيحُ لا تتركنّي بعد ما علِقت حبالَكَ اليوم بعد القدّ اظفاري [٥]
كن كالسَموءَل اذ طاف الهُمَامُ بهِ في جَحفَلٍ كهزيعِ الليلِ جرّارِ [٦]
اذا سامَهُ خُطّتَي خَسفٍ فقال له قل ما تشاءُ أني سامعٌ حارِ [٧]
فقال غدرٌ وثكلٌ انت بينَهما فاختر وما فيهما حظٌ لمختار [٨]
فشكّ غيرَ طويلٍ ثم قال لهُ أقتل اسيرَك اني مانعٌ جاري
إنّ له خلفاً ان كنت قاتلَهُ وان قتلتَ كريماً غيرَ خوّارِ [٩]

---

١ شب النار اضرمها والمقرور من اصابه القرّ اي البرد واصطلى بالنار استدفأ بها والندى الجود ٢ اللبان الرضاع واراد به اللبن مجازاً والاسحم الاسود صفة لليل المحذوف داجٍ مظلم وعوض ظرف زمان مبني على الضم وبمعنى ابداً واراد برضيعي اللبان الجود والمحلق يعني انهما اخوان تحالفا على عدم الافتراق ٣ انجد أتى نجد واعرق أتى العراق ٤ يقول ان كرمكم اشتهر في الناس بحيث صاروا يتحدثون بهِ في حلهم وترحالهم ٥ القدّ القطع واظفاري فاعل علقت يقول له لا تخيبني بعد ما علقت رجائي بك ٦ الهمام السيد الشجاع اراد به الحارث بن ابي شمر الغساني الذي جاء من قبل المنذر يطلب الادرع التي اودعها عند السموءل امرؤ القيس الكندي والجحفل الجيش والهزيع من الليل الطائفة منه والجرار الكثير ٧ سامه كلفه والخطة الطريقة والخسف الذل وحار منادى مرخم اصله ياحارث ٨ الثكل فقد الولد ٩ غير جبان

فاختارَ ادراعَهُ كيلا يُسبّ بها ولم يكن وعدهُ فيها بختّارِ [١]

وللاعشى قصيدة طويلة يعدّها بعضهم من المعلقات نذكر مطلعها وبعض ابيات منها قال :

ودّع هُرَيرةَ إنّ الركبَ مرتحلُ وهل تُطيقُ وَداعاً ايّها الرجل [٢]
أبلغْ يزيدَ بني شيبانَ مألُكةً أبا ثُبَيتٍ امـا تنفكُّ تأتكلُ [٣]
ألستَ مُنتهياً عن نحتِ أثلتنـا ولستَ ضائرَها ما أطّتِ الابلُ [٤]
كناطحٍ صخرةً يومـاً ليفلقَها فلم يضِرْها وأوهى قرنَهُ الوَعِلُ [٥]
لقـد زعمتم بأنّا لا نقاتلكم إنـا لامثالكم ياقومَنـا قُتُلُ [٦]
قالوا الطِرادَ فقلنا تلك عادتُنـا او تنزلون فانّا معشرٌ نُزُلُ [٧]

وسمع الاعشى بنبيّ المسلمين فقدم عليه بمدحة فرصدهُ القرشيون اعداء محمد ليصرفوه عن الذهاب اليه وقالوا له « انه يحرّم عليك القمار والرباء » فلم يبالِ فقالوا « يحرّم عليك الخمر » فقال اوّه ارجع الى صبابةٍ [٨] بقيت لي في المهراس [٩] فاشربها » فاتفقوا وايّاه ان يؤخر قدومهُ الى سنة وقال ابو سفيان لقومهِ « يا معشر قريش هذا الاعشى فوالله لئن اتى محمداً واتبعه ليضرمنَّ عليكم نيران العرب بشعره فاجمعوا له مئة من الابل » ففعلوا فاخذها وانطلق الى بلده. فلما كان بقاع منفوحة [١٠] رمى بهِ بعيره فقتلهُ

---

١ غدار ٢ هريرة علم امرأة والركب جمع راكب ٣ المألكة الرسالة وتأتكل تحترق كأن الغضب يأكلك ٤ الاثلة واحدة الاثل وهو شجر عظيم صلب الخشب ونحت اثلته طعن في حقهِ والضائر المضرّ وأطت الابل أنّت ٥ اوهى شق والوعل تيس الجبل ٦ قتل جمع قتول وهو كثير القتل ٧ اي تنزلون للقتال ٨ بقية الشراب ٩ حجر منقور مستطيل ١٠ قرية مشهورة من نواحي اليمامة كان يسكنها الاعشى وبها قبره

اللغة

في

صدر الاسلام

ظهر الاسلام ودخل فيه سكان جزيرة العرب فاتّحدوا بعد التفرق وتآخَوْا بعد التقاطع وخضعوا جميعاً لزعيم واحدٍ يجمع كلمتهم ويدبّر شؤونهم وينظر في مصالحهم. فزالت دواعي القلق بزوال الغارات المتواترة[١] قبلاً وهدأت الخواطر واطمأنّت النفوس الى حكومة تأخذ صاحبها من القويّ للضعيف وينصف المظلوم[٢] من الظالم فانصرفت حينئذٍ همم القوم الى توطيد أركان الدين[٣] وتعزيزه في القبائل ونشره في الآفاق فكان لهم من ذلك شغل شاغل عن الاهتمام بالشعر وتلت النهضة الجاهلية فترة وجيزة[٤] خلا فيها ميدان الشعراء وسكتت جلبتهم[٥] وزهد بعضهم في النظم فلم يعد لهم كبير التفات حتى الى شعر انفسهم وان كانوا من فحول الشعراء قبل اسلامهم. ومن هذا القبيل لبيد صاحب المعلقة الرابعة فان عمر بن الخطاب استنشده ايام خلافته فانطلق وكتب سورة البقرة في

---

١ الغزوات المتتابعة ٢ يأخذ له حقه ٣ تمكين أسه ٤ الفترة الانقطاع عن العمل مدة ووجيزة قصيرة ٥ صياحهم

صحيفة وجاءَ بها وقال ابدلني الله هذه في الإسلام مكان الشعر فسرّ عمر وأجزل عطاه ولم يرووا له في الاسلام الا بيتاً واحداً وهو :

الحمد لله اذ لم يأتِني أجلي حتى لبستُ من الاسلام سربالا

الاّ انَّ تلك الفترة لم تطل وما عتم الشعراء ان عادوا الى النظم على جاري عادتهم السابقة ولا سيما اذ رأوا أن صاحب الشريعة الاسلامية نفسهُ يسمع الشعر ويلذّ بهِ ويجيز عليه. وكأنَّ سكوتهم عن قول الشعر شحذ قرائحهم وأحكم ملكاتهم فما عادوا اليه حتى جاؤوا بالبدائع النادرة والآيات الباهرة وقرنوا بلاغة الجاهلية بشيءٍ من الرقة مما يدلّ على اتجاه الأمة نحو الرقيّ في العمران والميل الى الحضارة. وسترى ذلك في الامثلة التي سنوردها من اقوالهم إن شاءَ الله

الشعراء المُخَضْرَمُونَ

الشعراء المخضرمون هم الذين أدركوا الجاهلية والاسلام. وسمة شعرهم متانة السبك وقوة العبارة كما في الجاهلية مع الاخذ بشيءٍ من الرقة والتفنن

مُتَمِّم بن نُوَيْرَة (٦٣٤)

هو ابو نهشل متمم بن نويرة اليربوعي من مجيدي الشعراء وفصحائهم. كان له اخ يدعى مالكاً من فرسان العرب وشجعانها المعدودين أسلم وارتدّ بعد موت محمد مع من ارتدّ من القوم عن الاسلام. فجرد ابو بكر عليهم

جيشاً وقمع ثورتهم فمن عاد الى الاسلام عُفي عنه ومن أبى قُتل. ووقع مالك بن نويرة في يد خالد بن الوليد امير الجيش فقتلهُ وبلغ امرهُ اخاهُ متمماً فجزع عليه جزعاً شديداً ورثاه بقصائد غراء أودعها عواطف حبهِ ولوعتهِ ولم يزل طول حياتهِ يذكرهُ ويبكيهِ. فمن شعرهِ فيهِ قولهُ:

لَعَمري وما دهري بتأبينِ مالكٍ	ولا جَزِعاً مِمَّا أَصابَ فأَوجعا [١]
لقد غيَّب المِنهالُ تحت ردائهِ	فتى غيرَ مبطان العشيَّاتِ أَروعا [٢]
أَغرَّ كنصلِ السيفِ يهتزُّ للندى	اذا لم تجدْ عند امرئِ السوءِ مطمعا [٣]
أَعينيَّ جودي بالدموع لمالكٍ	اذا ذرَّت الريحُ الكنيفَ المرفَّعا [٤]
فتىً كان مِقداماً الى الروعِ ركضُهُ	سريعاً الى الداعي اذا هو أُفزعا [٥]
فتىً كان احيا من فتاة حَيِيَّةٍ	واشجعَ من ليثٍ اذا ما تمنَّعا [٦]
تقولُ ابنةُ العَمريِّ مالكَ بعد ما	أَراك قديماً ناعمَ الوجهِ أفرعا [٧]
فقلت لها طولُ الاساءةِ ساءَني	ولوعةُ حزنٍ تترك الوجهَ أسفعا [٨]
سقى الله ارضاً حلَّها قبرُ مالك	ذهابَ الغوادي المُدجنات فأمرعا [٩]
لئن تكن الايامُ فرَّقنَ بيننا	فقد بان محموداً أخي يومَ ودَّعا [١٠]

---

١ التأبين الثناء على المرء بعد موته وجزعاً خوفاً يقول لعمري ان دهري ليس كافياً لتأبين مالك ومهما جزعت فاني مقصر عن وفاء حق الحزن على ما اصابني به الدهر فأوجع قلبي ٢ المنهال القبر والكثيب العالي والمبطان العظيم البطن الأكول والاروع من يعجب بحسنه وجهارة منظره وشجاعته ٣ الاغرّ كريم الافعال ونصل السيف حديدته والندى الكرم ٤ ذرت فرقت ونثرت والكنيف حظيرة من شجر للابل ٥ الروع الفزع استعير للحرب ومقدام شجاع وافزع خُوّف ٦ فتاة حيية محتشمة والليث الأسد وتمنع تقوّى واحتمى ٧ افرع تامّ الشعر ٨ اسفع شاحب متغيّر اللون ٩ النهاب جمع ذهبة بالكسر وهي المطرة الضعيفة والغوادي جمع غادية وهي السحابة تنشأ غدوة والمدجنات كثيرات المطر وامرع اخصب بكثرة الكلا ١٠ بان بَعُد

وعشنا بخيرٍ في الحياة وقبلنــــا   أَصابَ المنايا رهطَ كسرى وتُبعًا [١]
وكنا كندمانَيْ جذيمةَ حِقبةً   من الدهر حتى قيل لن يتصدعا [٢]
فلما تفرّقنــــا كأني ومالكاً   لطولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معًا

ومن قوله فيه :

لقد لامني عنــد القبورِ على البكا   رفيقي لتَذراف الدموعِ السوافكِ [٣]
فقال أَتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَــهُ   لقبرٍ ثوى بين اللوى فالدكادكِ [٤]
فقلتُ له ان الشجا يبعث الشجا   فدعني فهــذا كلُّهُ قبرُ مالكِ [٥]

عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِب (٦٤٣)

هو أبو ثور عمرو بن معديكرب الزبيديّ كان فارساً مغواراً [٦] وبطلاً صنديداً مشهوراً بالبأس والاقدام في الجاهلية والاسلام . وهو من سادات قومهِ وفصحائهم أَرسلهُ النعمان بن المنذر فيمن أُرسل من شرفاء قبائل العرب الى كسرى أنوشروان بالمدائن ليتكلموا بين يديهِ ويرى من فصيح

---

١ الرهط قوم الرجل وقبيلته وكسرى اسم ملوك الفرس وتبع اسم ملوك اليمن
٢ جذيمة الابرش هو مالك بن فهم ملك الحيرة لقب بالابرص لوضحٍ كان فيه ثم قيل الابرش تأدباً وهو الذي قتلته هند بنت الريّان الملقبة بالزباء في مدينة عمان وندماناهُ هما مالك وعقيل ابن فارج وجدا ابن اخته عمرو بن عديّ اللخميّ فلما قدما بهِ اليهِ حكمهما في المكافأة وكان يأنف ان ينادم احداً فاختار منادمته ماعاش وعاشا. وحقبة مدة ويتصدّع يتفرق ٣ تذراف مصدر ذرف اي سكب الدمع والسوافك جمع سافك اي منصب ٤ ثوى نزل واقام واللوى ماالتوى من الرمل والدكادك جمع دكدك (بفتح الدالين) وهو ما تكبّس من الرمل او ارض فيها غلظ ٥ الشجا الحزن ٦ كثير الغارات

منطقهم وكامل آدابهم ما يكون لهُ فيهِ الدليل المقنع على صحة دعوى النعمان في العرب وافتخارهِ بهم وتفضيلهِ إياهم على جميع الامم طرًّا. ومما نطق بهِ عمرو بن معديكرب في مجلس كسرى قولهُ :

« انما المرء بأصغريهِ قلبهِ ولسانهِ. فبلاغ المنطق الصواب وملاك [١] النجدة الارتياد وعفو [٢] الرأي خير من استكراه [٣] الفكرة وتحقيق الخبر خير من اعتساف [٤] الحيرة. فاجتبذ [٥] طاعتنا بلطفك واكظم بادرتنا [٦] بحلمك وألِنْ لنا كَنَفك [٧] يسلُس لك قيادنا فانا أناسٌ لا يقاومنا من اراد لنا قضماً [٨] ومنعنا حمانا من كلّ من رام لنا هضماً [٩] »

وأسلم عمرو عند ظهور الاسلام إلاّ أنّ إسلامهُ كان على جانب من الغرابة. قيل إنّ عمر بن الخطّاب أمر سعد بن ابي وقاص بعد وقعة القادسية وكان عمرو قد خاض فيها غمرات الموت وطوّح بنفسهِ تطويحاً مفرطاً ان يفرّق بقيّة مال على حملة [١٠] القرآن. فجاء بشر بن ربيعة فقال لهُ سعد « ما معك من كتاب الله » قال « بسم الله الرحمن الرحيم » فضحك القوم ولم يعط شيئاً. وجاءَ عمرو فقصّر عن بشرٍ ولم يعرف شيئاً مطلقاً فمنع من العطاء فقال :

اذا قُتلنا ولا يبكي لنــا احدٌ   قالت قريشٌ الاتلك المقادير [١١]
نُعطى السويّة من طعن لهُ نَفَذٌ   ولا سويّةَ إذ تُعطى الدنانير [١٢]

ونزل عليهِ أحد أصحابهِ في الجاهلية فقدّم لهُ خمراً فقال لهُ ضيفهُ

---

١ ملاك قوام والارتياد الطلب والسعي ٢ ماجاء من غير كلفة ولا اعمال فكر ٣ اعمالها ٤ عدم الهداية الى السبيل أووجه الصواب ٥ اجتذب ٦ الحدّة وما يبدر منها ٧ الجانب والظل ٨ أكل الشيء اليابس اي اننا لانؤخذ بالشدة ٩ ظلماً واغتصاباً ١٠ جمع حامل وهو حافظ القرآن ١١ المقادير جمع مقدور وهو الأمر المحتوم ١٢ النفذ الانفاذ والخرق

« أوَ ليس قد حرّمها الله علينا في الاسلام » فقال عمرو « إني قرأت ما بين دفّتي المصحف فما وجدت لها تحريماً...» وانظر كيف يمكن أن يقرأ القرآن ولا يرى نصاً يحرّم الخمرة [١] إلا ان العجب يزول إذا أعتبر أن كذب الرجل كان على قدر شجاعته وقيل لهُ « إنك شجاع في الحرب والكذب » فقال « اني لكذلك» ولم يكن إقرارهُ هذا ليمنعهُ عن التبجّح [٢] أمام عمر بن الخطّاب أنهُ ما استحلّ الكذب في الجاهلية ولا الاسلام ومن شعرهِ :

اذا لم تستطع شيئاً فدعهُ وجاوزْهُ إلى ما تستطيعُ
وكيف تريد ان تدعى حكيماً وأنت لكل ما تهوى تبوعُ

وقولهُ :

ولما رأيت الخيل زُوراً كأنّها جداول زرعٍ أُرسلت فاسبطرَّتِ [٣]
فجاشت اليّ النفسُ اولَ مرةٍ فرُدَّت على مكروهها فاستقرَّتِ [٤]
علامَ تقوم الرمحُ يثقلُ عاتقي اذا انا لم أطعن اذا الخيلُ كرّتِ [٥]
لحا الله جَرماً كلّما ذرَّ شارقٌ وجوه كلابٍ هارشت فازبأرَّتِ [٦]
فلم تغنِ جرمٌ نهدَها اذ تلاقتا ولكنَّ جرماً في اللقاء أبذعرَّتِ [٧]
ظللت كأني للرماحِ دريئةٌ أُقاتلُ عن أبناء جَرمٍ وفرَّتِ [٨]

---

١ حرّمت الخمر في القرآن في عدّة مواضع: سورة البقرة ٢١٦ ـ وسورة النساء ٤٦ وسورة المائدة ٩٢ ـ ٢ الافتخار ٣ زور جمع أزور وزوراء وهو ما كان بهِ ميلٌ والذي يقبل على شقّ اذا اشتدّ السير وجداول جمع جدول وهو النهر الصغير واسبطرّت امتدّت في السير منهزمة ٤ جاشت غثت وحميت وارتفعت من حزن او جزع واستقرّت ثبتت ٥ العاتق ما بين المنكب والعنق ٦ لحا اخزى وذرّ طلع وبان وهارشت تحرشت وتواثبت وازبأرّت تنفشت حتى ظهرت أصول من وبر شعرها ٧ جرم ونهد علما قبيلتين وابذعر القوم تفرقوا وفروا ٨ الدريئة حلقة يتعلّم عليها الطعن

فلو أن قومي أنطقتني رماحُهم نطقتُ ولكنّ الرماحَ أجرَّتِ[١]

وكان لعمرو سيف شهير يدعى الصمصامة يضرب به المثل فسألهُ يوماً الخليفة عمر أن يبعث إليه بهِ فلما جرّبهُ وجدهُ دون ما يحكى عنهُ فقال لعمرو في ذلك فقال «انما ارسلت إليك السيف ولم أُرسل الساعد الذي يضرب به»

أَلْحُطَيْئَة

هو أبو مليكة جرْول بن أوس العبسيّ. كان من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم متصرّفاً في جميع فنون الشعر من الفخر والنسيب والمديح ولا سيما الهجا. وكان سيّئ الخلق لئيم الطبيعة دنيء النفس فاسد الدين جشعاً[٢] سؤولاً ملحفاً[٣] كثير الشرّ قليل الخير. بخيلاً قبيح المنظر رث الهيئة مغموز[٤] النسب متدافعاً بين قبائل العرب ينتمي إلى كلّ واحدة منها اذا غضب على الأُخر. وقد بلغ من لؤمهِ أنهُ هجا أُمهُ وامرأتهُ وبنيهِ حتى نفسهُ. قيل انهُ التمس ذات يوم إنساناً يهجوهُ فلم يجدهُ وضاق عليهِ ذلك فأنشأ يقول:

أبت شفتايَ اليوم إلاّ تكلماً بشرٍّ فما أدري لمن انا قائلُهْ

وجعل يدهور هذا البيت في أشداقهِ ولا يرى إنساناً إذ اطّلع في ركيّ[٥] فرأى وجههُ فقال:

---

١ أجر الفصيل او الجدي شق طرف لسانهِ لئلا يرضع يقول لوان قومي أبلوا بلاء حسناً لذكرتهم وافتخرت بهم لكنهم شقوا لساني بفرارهم ومنعوني عن الكلام واسند النطق والاجرار للرماح على سبيل المجاز ٢ شديد الحرص وسيّئهُ ٣ ملحّاً في السؤال ٤ متّهم ٥ جبّ

أرى ليَ وجهاً شوّه[١] الله خلقَهُ فقُبِّح من وجهٍ وقُبِّح حاملُهْ

وكان من الولوع بالوقيعة في الناس والنهم[٢] الى تمزيق أعراضهم بحيث لم يكن كبير ولا صغير الاّ هابهُ وباع عرضهُ منهُ بيذل ما في طاقتهِ. حتى ان الخليفة عمر بن الخطاب اضطُرّ أن يشتري منهُ أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة الاف درهم... وهي غاية الغايات في اتّقاء بوادر تلك السلطة الغريبة والاقرار بها. وسئل مرّة عن أشعر الناس فأخرج لسانهُ كأنهُ لسان حيَّة وقال « هذا إذا طمع » ومن قولهِ يهجو الزبرقان بن بدر:

لما بدا ليَ منكم عيب أنفسكم ولم يكن لجراحي منكمُ آسي[٣]
أزمعت يأساً متيناً من نوالكمُ ولن يرى طارداً للحرّ كاليأْسِ[٤]
جارٌ لقوم أطالوا هُونَ منزلهِ وغادروهُ مقيماً بين أرْماسِ[٥]
ملُّوا قِراهُ وهرَّتهُ كلابُهمُ وجرّحوهُ بأنيابٍ وأضراسِ[٦]
دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها واقعدْ فانّك أنت الطاعم الكاسي[٧]
من يفعلِ الخير لم يعدم جوازيهُ لا يذهب العُرف بين الله والناسِ[٨]

فاستعدى عليهِ الزبرقان عمرَ بن الخطّاب وأنشد البيت « دعِ المكارم... » فقال عمر « ما اسمع هجاءً ولكنها معاتبة » فقال الزبرقان «اما تبلغ مروءتي إلاّ ان آكل وألبس » فقال عمر « عليّ بحسانٍ » فجيء بهِ فسألهُ فقال « لم

---

١ قبح ٢ الشره ٣ عيب نقيصة ويروى غيب اي ما كان غائباً في أنفسكم من البغضة والآسي المداوي واراد بجراحهِ فقره وسوء حالهِ ٤ أزمعت صممت والياس قطع الرجاء ٥ الهون المذلّة وغادروهُ تركوهُ والأرماس القبور ٦ ملّوا ضجروا وقراهُ ضيافتهُ وهرتهُ نبحتهُ ٧ رجل طاعم حسن الحال في المطعم وكاسٍ ذو كسوة يقول لهُ حسبك من الاعمال ان تأكل وتشرب ٨ جوازي جمع جازية والعرف المعروف والجود

يهجُهُ بل فضحهُ » فأمر بهِ عمر فأُلقي في بئر فاسترحمهُ فلم يلتفت اليهِ فأنشدهُ

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَخٍ زُغْبِ الحواصلِ لاماءٌ ولا شجرُ [١]
ألقيتَ كاسبَهم في قعر مُظلمةٍ فاغفِر عليك سلام الله يا عمرُ [٢]
انت الامام الذي من بعد صاحبهِ ألقى إليك مقاليدَ النُّهى البَشرُ [٣]
لم يؤثروك بها إذ قدّموك لهـا لكن لانفسهم كانت بك الأثَرُ [٤]
فامنن على صبيةٍ بالرمل مسكنهم بينَ الأباطح اذ تغشاهم القِرَرُ [٥]
أهلي فداؤك كم بيني وبينهمُ من عرضِ باديةٍ تعمى بها الخِبَرُ [٦]

فأخرجهُ وقال لهُ « إياك وهجاء الناس » قال « اذاً يموت عيالي جوعاً . هذا مكسبي ومنهُ معاشي... » ومن بليغ شعرهِ قولهُ في المدح :

وفتيانِ صدقٍ من عديٍّ عليهم صفائح بُصرى عُلّقت بالعواتقِ [٧]
اذ ما دُعوا لم يسألوا من دعاهم ولم يُمسكوا فوق القلوب الخوافقِ [٨]
وطاروا الى الجُردِ العِتاقِ فألجموا وشدّوا على أوساطهم بالمناطقِ [٩]

---

١ عنى بالافراخ أولادهُ وذومرخ اسم مكان يكثر فيهِ شجر المرخ وزغب جمع أزغب وهو ذو الزغب اي صغار الشعر او الريش كناية عن صغرهم ٢ مظلمة نعت لمحذوف تقديره بئر ٣ مقاليد مفاتيح والنهى العقل ٤ يؤثروك يفضلوك والأثر جمع أثرة وهي المكرمة المتوارثة ٥ الأباطح جمع أبطح وبطحاء وهو مسيل واسع فيهِ رمل وحصى وتغشاهم تتتابهم والقرر جمع قِرة بالكسر وهي ما يصيب المرء من البرد ٦ خبر جمع خبرة وهي العلم بالشيء وتعمى تخفى ٧ الصفائح السيوف العراض جمع صفيحة وبصرى بلدة بالشام يظنّ انها حوران وعواتق جمع عاتق وهو ما بين المنكب والعنق ٨ « ولم يمسكوا فوق القلوب » اي لم يجزعوا ٩ العتاق الخيل السبّاقة الرائعة

أولئك آباء الغريب وغاثة الـ ... صريخ ومأوى المرملين الدرادق [١]
أحلّوا حياضَ المجد فوق جباههم ... مكانَ النواصي من وجوه السوابقِ [٢]

ولما حضرتهُ الوفاة اجتمع إليهِ قومهُ فقالوا « يا أبا مليكة أوصِ » فقال « أبلغوا أهل ضابىء انهُ شاعرٌ حيث يقول :

لكلّ جديدٍ لذّةٌ غيرَ انني ... رأيت جديدَ الموت غيرَ لذيذِ

فقالوا « اوصِ ويحك بما ينفعك » فقال « أبلغوا أهل آمرىء القيس أنه أشعر العرب حيث يقول :

فيالك من ليلٍ كأن نجومــهُ ... بكلِ مُغارِ الفتل شدَّت بيذبُلِ

فقالوا « اتقِ الله ودع عنك هذا » فقال « أبلغوا الأنصار ان صاحبهم أشعر العرب حيث يقول :

يُغشَوْن حتى مـا تهرُّ كلابهم ... لا يَسألون عن السوادِ المقبل

فقالوا « ما تقول في عبيدك وإمائك » فقال «هم عبيدُ قنٍّ [٣] ما عاقب الليل النهار » قالوا « فأوصِ للفقراء » أُوصيهم بالالحاح في المسألة فانها تجارة لا تبور [٤] قالوا « فما تقول في مالك » قال « للأُنثى من ولدي مِثلا حظّ الذكر » قالوا « ليس هكذا قضى الله » قال « لكن هكذا قضى الحطيئة » قالوا « فهل لك شيء تعهد فيهِ غير هذا » قال « نعم تحملوني على أتان وتتركوني راكبها حتى أموت فان الكريم لا يموت على فراشهِ

---

١ المرملون المحتاجون والدرادق الصبيان ٢ النواصي جمع ناصية وهي مقدم شعر الراس والسوابق جمع سابق وهو الفائز في السباق ٣ عبد قنّ من كان أبوهُ عبداً ٤ تكسد

والأتان مركب لم يمت عليهِ كريم قط » فحملوهُ على أتان وجعلوا يذهبون بهِ ويجيئون حتى مات وهو يقول :

لا أحدُ ألأم من حُطَيَّهْ   هجا بنيهِ وهجا المُريَّهْ[١]
من لؤمهِ مات على فُرَيَّهْ

وكانت وفاتهُ في أواخر خلافة عمر .

أَلْخَنساء (٦٤٦)

هي أمّ عمرو تماضِر بنت عمرو بن الحارث السليميّة الملقَّبة بالخنساء[٣] من أشهر شواعر العرب. وقد أجمع علماء الشعر أنهُ لم تكن امرأة أشعر منها وشعرها كلّهُ في رثاء أخويها معاوية وصخر ولا سيّما صخر لما خبرت من جودهِ وحنانهِ وما اشتهر بهِ من الشجاعة والحلم والاقدام. وكان أخواها قد قتلا كلّ منهما في غارة فأخذت ترثيهما بالشعر البديع المتين المبنى السامي المعنى أوحاهُ قلب مقرَّح حزناً وذائب لوعةً وأملاهُ لسان فصيح اللهجة خلاّب[٤] المنطق. واشتهر رثاؤها في أخويها وعظم مصابها بهما حتى ضرب بها المثل في قبائل العرب. وأنشدت الخنساء في عكاظ بين يدي النابغة الذبياني فأعجبهُ شعرها وقال لها « اذهبي فأنت أشعر من كل ذات ثديين. ولولا أن هذا الاعمى (يعني الأعشى) أنشدني قبلك لفضّلتك على شعراء هذا الموسم » فسمعهُ حسّان بن ثابت فغضب

---

١ تصغير مرأة ٢ تصغير فرأة وهي الأتان ٣ البقرة الوحشيَّة تشبه بها المرأة لحسن عينيها ٤ الخادع بألطف الأقوال

وقال « انا أشعر منك ومنها » فالتفت النابغة الى الخنساء وقال « أجيبيه ياخُناس » فأَقبلت عليه وقالت « ما أجود بيت في قصيدتك هذه التي عرضتها آنفاً » . قال « قولي فيها :

لنا الجفَنات[1] الغرُّ يلمعن في الضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة ٍ دما »

قالت « ضعّفت افتخارك وأنزرته ُ في ثمانية مواضع في بيتك هذا » قال « وكيف ذلك » قالت « قلت (لنا الجفنات) والجفنات ما دون العشرة ولو قلت « الجفان » لكان اكثر. وقلت (الغرّ) والغرّة بياض في الجبهة ولو قلت « البيض » لكان اكثر اتساعاً. وقلت (يلمعن) واللمعان شيء يأتي بعد شيء ولو قلت « يشرقن » لكان اكثر لأن الاشراق أدوم من اللمعان. وقلت (بالضحى) ولو قلت « بالدجى » لكان أبلغ لان الضيف اكثر طروقاً بالليل. وقلت (اسياف) والأسياف ما دون العشرة ولو قلت «سيوف» لكان اكثر. وقلت (يقطرن) ولو قلت « يجرين » لكان اكثر انصباباً. وقلت (دما) والدماء اكثر من الدم» فسكت حسان ولم يُحِرْ[2] جواباً. وشعرها الذي أنشدته ُ النابغة هو قولها ترثي صخراً :

قذى بعينك ام بالعين عُوَّارُ ... أم ذرَّفَت إذ خلت من اهلها الدارُ[3]

تبكي لصخرٍ هي العَبْرى وقد ولهت ... ودونه ُ من جديد التُرب أستارُ[4]

تبكي خناسُ على صخرٍ وحقَّ لها ... إذ رابها الدهرُ إن الدهرَ ضرَّارُ[5]

يا صخر ورَّاد ماءٍ قد تناذره ُ ... أهلُ الموارِدِ مافي وِرْدهِ عارُ[6]

---

١ جمع جفنة وهي القصعة ٢ يرد ٣ القذى ماوقع في العين من غبار وغيره والعوّار ماعار العين من القذى أو الرمد فأوجعها وذرّفت دمعها صبته ُ صباً متتابعاً ٤ العين العبرى التي لاتجف دموعها وقد ولهت اي استولى عليها الجزع والحزن وأستار القبر ترابه ُ وصفائحه ُ ٥ حق لها وجب لها البكاء والضرار الشديد الشرّ ورابها أوجعها وأحزنها ٦ استعارت الماء للموت وتناذره ُ بعضهم بعضاً منه وقولها « ما في وردهِ عار » اي لا ملام على

مشى السَّبَنْتى إلى هيجاءَ معضلةٍ لهُ سلاحان أنيابٌ وأظفـــارُ [١]
وان صخراً لوالينا وسيّدُنـــا وان صخراً إذا نشتو لنحّارُ
وان صخراً لمقدامٌ إذا ركبوا وان صخراً إذا جاعوا لعقّارُ [٢]
وان صخراً لتأتمُّ الهُداةُ بــهِ كأنهُ علَمٌ في رأسهِ نارُ [٣]
حمّالُ ألويـةٍ هبّاطُ أوديـةٍ شهّادُ أنديةٍ للجيش جرّارُ [٤]

ولها في الرثاء البديع القصائد الكثيرة الشهيرة المطبوعة التي لا يكاد يلحق شأوها فيها لاحقٌ .

كَعْب (٦٦٢)

هو أبو عقبة كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني من فحول الشعراء المخضرمين قال الشعر وهو حديث السنّ فكان أبوهُ ينهاهُ مخافة ان تكون ملكتهُ لم تستوسق فيروى لهُ ما لا خير فيهِ. وكان يضربهُ في ذلك فكلّما ضربهُ وشدّد عليه في ترك القريض غلب عليهِ الشعر وزادت نهمتهُ الى قولهِ . فتركهُ وشأنهُ بعد ما امتحنهُ وعلم ما عندهُ من قوّة العارضة واستحكام الملكة . ولما أظهر صاحب الشريعة الاسلاميّة دعوتهُ خرج إليهِ بُجَير وكعب أبنا زهير حتى بلغا العزّاف فقال كعب لأخيهِ « الحق الرجل وأنا مقيم ههنا فانظر ما يقول لك » فقدم بجير على محمد وأسلم وبلغ ذلك كعباً فقال :

من شرب كاس المنون

١ السبنتى النمر والجريء ومشى السبنتي أي مشيته والهيجاء الحرب والمعضلة الشديدة
٢ المقدام الذي يتقدم الفرسان في حروبهم والعقار كالنحار ٣ تأتم الهداة به تتخذهُ الادلاء اماماً والعلم الجبل ٤ الألوية جمع لواء وهو العلم او الراية والاندية المجالس تعني أن إخاها بطلٌ في الحروب وخطيب في المجالس

ألا أبلغا عني بُجَيْراً رسالــة فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
سقاك ابو بكرٍ بكاس رويّةٍ فأنهلك المأمون منها وعلّـكا [١]
ففارقتَ أسباب الهدى واتّبعتهُ علي أي شيء ويبَ غيرك دَلّـكا [٢]
على مذهبٍ لم تُلفِ أمّا ولا أباً عليهِ ولم تعرف عليهِ أخاً لكا
فان انت لم تفعل فلست بآسفٍ ولاقائلٍ إمّا عثرتَ لعاً لـكا [٣]

وبلغت أبياتهُ محمداً فأهدر [٤] دمهُ. وكتب إليهِ أخوهُ بجير «أُنجُ وما اراك بمفلت» ثم كتب اليهِ أن أسلم وأقبل على الرسول يعفُ عنك. فأقبل كعب حتى أناخ راحلتهُ بباب المسجد ودخل فاذا القوم حلقات حلقات ومحمّدٌ في وسطهم فتخطى الصفوف حتى جلس إليهِ وقال «يا رسول الله الأمان» فقال «ومن أنت» قال «كعب بن زهير» فقال «مأْمون» فأنشدهُ حينئذٍ كعب قصيدتهُ الشهيرة «بانت سُعاد» يعتذر فيها ويمدح محمداً وهي طويلة ذات ثمانية وخمسين بيتاً تغزَّل بثلاثة عشر بيتاً منها ثم وصف ناقتهُ وصفاً مسهباً بواحدٍ وعشرين بيتاً أردفها باربعة أبيات وطّأ [٥] بها التخلص إلى مدح محمد فمدحهُ بثلاثة عشر بيتاً واستطرد [٦] الى ذكر المهاجرين فمدحهم بسبعة أبيات ختم بها القصيدة. قال:

بانت سُعادُ فقلبي اليومَ متبولُ متيّمٌ إثرَها لم يُفْدَ مكبولُ [٧]
وما سعادُ غَداةَ البَينِ إذ رحلوا الا أغنُّ غضيض الطرف مكحولُ [٨]

---

١ أبو بكر هو عبد الله بن عثمان القرشي أول الخلفاء الراشدين وكاس رويّة تامّة مشبعة وأنهلك سقاك النهل وهو أول الشرب والعلل الشرب بعد الشرب تباعاً والمأمون لقب محمد ٢ أسباب طرق والهدى الرشاد وويب غيرك دعاء عليه معناهُ الزمهُ الله ويلاً ٣ لعاً كلمة تقال في الدعاء للعاثر ومعناها سلمت ونجوت ٤ أباح ٥ مهّد وسهّل ٦ انتقل ٧ بانت بعدت وتبلهُ الحبّ أسقمهُ وتيمهُ الحب استبعدهُ واثرها بعدها ومكبول مقيّد ٨ الأغن الذي في صوتهِ غنة وهو صفة للظبي المحذوف وغضيض الطرف في طرفهِ كسر وفتور

تجلو عوارضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمت ... كأنهُ منهلٌ بالراحِ معلولُ ١

سحَّ السقاةُ عليها ماءَ محنيةٍ ... من ماءِ أبطحَ أضحى وهو مشمولُ ٢

أكرِمْ بها خُلَّةً لو أنها صدقت ... موعودَها أو لوَ انَّ النُصحَ مقبولُ ٣

أمست سُعاد بأرضٍ لا يبلِّغُها ... الا العتاقُ النجيباتُ المراسيلُ ٤

ولن يبلِّغَها الاَّ عُذافرةٌ ... لها على الأينِ إرقالٌ وتبغيلُ ٥

غلباءُ وجناءُ عُلكومٌ مذكَّرةٌ ... في دَفِّها سَعةٌ قدّامُها ميلُ ٦

تسعى الوشاة جنابَيْها وقولُهُمُ ... إنك يا ابنَ ابي سُلمى لمقتولُ ٧

وقال كلُّ خليلٍ كنتُ آمُلُهُ ... لا أُلهينَّك إني عنك مشغولُ ٨

فقلت خلّوا سبيلي لا أبا لكُمُ ... فكلُّ ما قدَّر الرحمانُ مفعولُ ٩

كلُّ ابنِ أُنثى وان طالت سلامتهُ ... يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ ١٠

أُنبئتُ انَّ رسول الله أوعدني ... والعفوُ عند رسول الله مأمولُ ١١

ان الرسول لسيفٌ يستضاءُ بهِ ... مهندٌ من سيوف الله مسلولُ ١٢

في فتيةٍ من قريشٍ قال قائلهم ... ببطنِ مكّةَ لما أسلموا زولوا ١٣

---

١ العوارض الأسنان والظلم بفتح فسكون الريق وذو الظلم نعت الفم المحذوف والمنهل محل النهل وهو في الاصل أول الشرب والراح . الخمر والعلل الشرب الثاني ٢ سحَّ صبَّ والسقاة جمع ساقٍ والمحنية منعطف الوادي والابطح المسيل الواسع والمشمول الذي ضربتهُ ريح الشمال حتى برد ٣ الخلّة الخليلة ٤ العتاق الكرائم الاصل والنجيبات الكريمات والمراسيل جمع مرسال وهي الناقة السريعة ٥ العذافرة الناقة الصلبة العظيمة والأين الاعياء والارقال سرعة السير والتبغيل السير الشديد السريع ٦ الغلباء الغليظة الرقبة والوجناء العظيمه الوجنتين والعلكوم الشديدة والمذكرة التي تشبه الذكر ودفها جنبها وقدامها ميل طويلة العنق ٧ الوشاة جمع واشٍ وهو الذي ينقل الاحاديث بين المتحابين ليفسد بينهم وجنابيها جانبيها والضمير لسعاد ٨ ألهينك اشغلنك ٩ خلوا سبيلي دعوني ١٠ الآلة الحدباء النعش معناهُ كل امرىء وان عاش طويلاً لابدّ من ان يموت ١١ أنبئت خبرت وأوعدني تهددني ١٢ سيف مهنَّدٌ مطبوع من حديد الهند ومسلول مجرّد ١٣ فتية جمع فتى وهو السخيّ الكريم وان كان شيخاً والبطن وسط كل شيء وهنا وسط مكّة

زالوا فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ   عند اللقاءِ ولا مِيلٌ معازيلُ[١]
لا يقعُ الطعن الاّ في نحورهمُ   وما بهم عن حياض الموت تهليلُ[٢]

ويحكى أنهُ لما وصل الى قوله « إن الرسول لسيف... » ألقى عليهِ محمد بردتهُ[٣] وقد بذل معاوية لكعب في هذه البُردة عشرة آلاف من الدراهم فلم يبعها. ولما مات بعث معاوية الى ورثتهِ بعشرين ألفاً من الدراهم فأخذها منهم. وتوارثها الخلفاء الأمويّون والعباسيون ويقال إن هذه البردة هي عند سلاطين آل عثمان إلى اليوم.

حسّانُ بن ثابت (٦٧٤)

هو أبو الوليد حسّان بن ثابت الأنصاريّ. كان فحلاً من فحول الشعراء وقد قيل إنّهُ أشعر أهل المدر[٤]. ولما اظهر محمد نبيّ الاسلام دعوتهُ لحقهُ أذى كثير من أهل مكة فهاجر الى المدينة ولم يكفّ أعداؤهُ عن تعييرهِ وهجائه. فأذن لحسّان بن ثابت أن يعارضهم بمثل قولهم فكان يهجوهم بأقوال أشدّ عليهم من وقع النبل[٥] ومدح محمداً بقصائد غرّاءَ هي غاية في الحسن وكان يدلع لسانهُ[٦] ويقول « واللهِ لو وضعتهُ على شعر لحلقه

١ أنكاس جمع نكس وهو الرجل الضعيف والكشف جمع أكشف وهو الذي لا ترس معهُ في الحرب وحركت الشين للضرورة والميل جمع أميل وهو الذي لا سيف معهُ والمعازيل جمع معزال وهو الذي لا سلاح معهُ والمشهور أعزل ٢ تهليل تأخر ومعنى البيت انهم لا يقتلون منهزمين بل وجهاً لوجهٍ فلا يتأخرون عن ورود منهل الموت ٣ واحدة البرد وهي الثوب المخطّط ٤ المدر الحضر وفي الاصل الطين اليابس ثم اطلق على المدن والقرى ٥ السهام ٦ يخرجهُ

أو على صخر لفلقه » ولحسان في الجاهليّة والاسلام شعر كثير رائق في المدح والفخر والوصف والرثاء والهجاء فمن قوله يفتخر :

ولقد يعلمُ من حاربنا أننا ننفعُ قِدْماً ونَضُرْ

صُبُرٌ للموت إن حلّ بنا صادقو البأس غطاريفُ فُخُرْ [١]

وأقامَ العزُّ فينا والغنى فلنا فيه على الناس الكِبَرْ [٢]

نحن أهلُ العزّ والمجد معاً غيرُ أنكاسٍ ولا ميلٌ عُسُرْ [٣]

فاسألوا عنا وعن أفعالنا كل قوم عندهم علمُ الخَبَرْ

ومن قوله يمدح الانصار :

قوم اذا حاربوا ضرّوا عدوَّهم أو حاولوا النفعَ في أشياعهم نفعوا [٤]

سجيّةٌ تلك منهم غيرُ مُحدَثةٍ ان الخلائق فاعلم شرّها البِدَعُ [٥]

لا يرقع الناسُ ما أوهت اكفّهمُ عند الرِقاعِ ولا يُوهون ما رقعوا [٦]

ان كان في الناس سبّاقون بعدهمُ فكل سَبْقٍ لأدنى سبقِهم تَبَعُ [٧]

يُسْمُون للحربِ تبدو وهي كالحةٌ إذا الزعانفُ من أظفارها خَشَعوا [٨]

---

١ صبر جمع صبور وهو الصابر المعتاد الصبر والبأس الشدّة وغطاريف جمع غطريف وغطراف وهو السيد الشريف وفخر جمع فخور وهو المتمدح بالخصال ٢ العزّ القوّة ٣ الأنكاس جمع نكس وهو الرجل الضعيف وميل جمع أميل وهو الذي لا سيف معهُ وعسر جمع اعسر وهو الذي يعمل بشماله ٤ أشياعهم تابعوهم ٥ السجيّة الخلق والطبيعة ومحدثة جديدة والبدع جمع بدعة وهي ما كان مخترعاً على غير مثال سابق ثم غلب على ما هو زيادة في الدين او نقصان منهُ ٦ رقع الثوب أصلحهُ وأوهى خرّق وشقق اي ان الناس لا يصلحون ما أفسدهُ الأنصار ولا يفسدون ما أصلحوهُ ٧ اي مهما اجتهد الناس في السابق بعدهم لا يبلغ سابقهم الا ادنى الأنصار ٨ يسمون يرتفعون وكالحة عابسة عبوساً مفرطاً والزعانف جمع زعنفة وهو القصير والرذل وخشعوا خافوا

لا يفرحون اذا نالوا عدوَّهمُ   وان أُصيبوا فلا خَوَرٌ ولا جزَعُ ١
كأنهم في الوغى والموت مكتنعٌ   أُسود بيشةَ في أرساغها فَدَعُ ٢

ولهُ على هذا الطراز شيء كثير. وكان لهُ على عهد الجاهليّة حظوة عند ملوك غسّان وله في مدحهم القصائد العامرة وقد بقي على ولائهم وحفظ لهم منّتهم الى آخر عمرهِ مع زوال عزّهم واضمحلال آثارهم وتعيير قوم لهُ على ثبات موالاتهِ لهم وقد باد ملكهم وفنوا ومن قولهِ فيهم :

أَسأَلتَ رسمَ الدار ام لم تسألِ   بين الحواني فالبُصيع فَحَوْمَلِ ٣
دارٌ لقومٍ قد أراهم مرَّةً   فوقَ الأعزَّةِ عزُّهم لم يُنقَلِ ٤
للهِ درُّ عصابةٍ نادمتها   يوماً بجِلَّقَ في الزمان الأوَّلِ ٥
أولادُ جفنةَ عند قبر أبيهمِ   قبرِ ابنِ ماريةَ الكريم المُفضلِ ٦
يُغشَون حتى ما تهرُّ كلابهم   لا يَسأَلون عن السواد المقبل ٧
يسقون مَن وَرَدَ البريصَ عليهم   كاساً تُصفَّقُ بالرحيق السَلسَلِ ٨
بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أَحسابُهم   شُمُّ الأنوف من الطِراز الأوَّلِ ٩

---

١ أُصيبوا خسروا والخور الضعف والجبن ٢ الوغى الحرب ومكتنع حاضر ودانٍ وبيشة مكان مشهور بالاسود والأرساغ جمع رسغ وهو مفصل ما بين الساعد والكف او الساق والقدم والفدع اعوجاج الرسغ من اليد او الرجل حتى ينقلب الكف او القدم الى انسيّها (والانسي ما أقبل من اليدين والرجلين على الداخل) ٣ الحواني والبصيع وحومل أعلام امكنة ٤ الاعزّة جمع عزيز وهو الشريف والقويّ ٥ عصابة جماعة وجلق دمشق ٦ المفضل المتكرم ٧ يغشون يقصدون وهرّ الكلب صوّت بدون نباح اي ان كلابهم اعتادت الغرباء فلا تهرّ عند قدومهم ليلاً وقال الحطيئة عن حسان انهُ أشعر الشعراء في هذا البيت ٨ البريص اسم مكان وتصفّق تملأ والرحيق أطيب الخمر وأفضلها والسلسل البارد والسهل الدخول في الحلق ٩ شمّ جمع أشم أي ذو الشمم وهو ان يطول الأنف ويرتفع أعلاهُ يكنى بذلك عن الشهامة والطراز النمط

ولقد شربتُ الخمرَ في حانوتها صهباءَ صافيةً كطعم الفُلفلِ [١]
إنَّ التي عاطيتَني فرددتُها قُتلتْ قُتلْتَ فهاتِها لم تُقْتَلِ [٢]
كلتاهما حَلَبُ العصير فعاطِني بزجاجةٍ أرخاهما للمَفْصِلِ [٣]
بزجاجةٍ رقصت بما في قعرها رقصَ القلوص براكبٍ مستعجلِ [٤]
ولقد تقلّدنا العشيرة أمرها ونسودُ يومَ النائباتِ ونعتلي [٥]
وتزور أبوابَ الملوك ركابُنا ومتى نُحكَّمْ في البريَّة نعدلِ [٦]

ويروى أن حسان بن ثابت عُمّر مائة وعشرين سنة ستين في الجاهلية وستين في الاسلام .

ألنَّابغةُ ألْجعديّ (٦٨٠)

هو أبو ليلى حسان بن قيس الجعدي الملقّب بالنابغة . قيل انّهُ لقّب بذلك لأنّهُ اقام مدّة لا يقول الشعر ثمّ نبغ فيه . كان من مفلقي الشعراء ومقدميهم وعاش دهراً طويلاً في الجاهلية والاسلام وهو أسنّ من النابغة الذبيانيّ ومن شعره قولهُ :

خليليَّ عُوجا ساعةً وتهجَّرا ولُوما على ما أحدثَ الدهرُ أوذَرَا [٧]

---

١ الحانوت الدكان والصهباء خمر معصورة من عنب أبيض ٢ عاطيتني ناولتني وقتلت مزجت بالماء ٣ كلتاهما اي المزوجة وغير المزوجة وحلب العصير الخمر وعاطني ناولني وأرخاهما للمفصل هي الخمرة غير المزوجة ٤ القلوص الناقة الفتيّة ٥ النائبات المصائب ٦ ركابنا ابلنا والبريّة الخليقة ٧ عوجا قفا وتهجّر سار في الهاجرة وذرا دعا

ولا تجزعا انّ الحياةَ ذميمةٌ فخِفّا لروعات الحوادث أو قِرا [١]
خليليّ قد لاقيتُ ما لم تلاقيا وسيّرت في الأحياءِ مالم تسيّرا [٢]
تذكّرتَ والذِكرى تهيجُ لذي الهوى ومن عادةِ المحزونِ أن يتذكّرا
نُداماي عند المنذر بن محرّقٍ أرى اليومَ منهم ظاهرَ الارض مقفراً [٣]
كهولاً وشبّاناً كأنّ وجوههم دنانير مُمّا شيفَ في أرض قيصرا [٤]
وما زلتُ أُسعى بين بابٍ ودارهِ بنجرانَ حتى خفتُ أُن انتصَّرا [٥]
لدى ملكٍ من آل جفنةَ خالُهُ وجدّاهُ من آل أمرئِ القيس ازهرا [٦]
يُديرُ علينا كأسَهُ وشواءَهُ مناصفُهُ والحضرميّ المحبّرا [٧]
رحيقاً عِراقيّا ورَيطاً شآمياً ومعتبِطاً من مسك دارين أذفرا [٨]
ونحن أُناسٌ لانعوّدُ خيلنا اذا ما التقينا أن تحيدَ وتنفرُا [٩]
وما كان معروفاً لنا ان نردّها صِحاحاً ولا مستنكراً أن تُعقّرا [١٠]
بلغنا السما مجداً وجوداً وسؤدداً وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا [١١]
ولا خير في حِلمٍ إذا لم يكن لهُ بوادرُ تحمي صفوهُ أن يكدّرا [١٢]

---

١ خفّ أسرع وروعات الحوادث فزعاتها ووقر المرء رزن وثبت ٢ الأحياء جمع حي وهو محلة القوم ٣ ندامى جمع ندمان وهو المنادم والمحرّق هو جفنة بن المنذر الأكبر لقّب كذلك لأنهُ أحرق مدينة الحيرة ٤ الكهل من وخطهُ الشيب او من تراوح سنهُ من الثلاثين الى الخمسين وشيف مجهول شاف أي جلا وصقل ٥ نجران بلد في اليمن ٦ جفنة تقدم ذكره فويق هذا والأزهر المشرق الوجه نعت ملك ٧ الشواء ما شوي من اللحم وغيره ومناصف جمع مِنصف أي خادم وهو فاعل يدير والحضرمي الثوب المنسوب الى حضرموت وهي بلدة صغيرة شرقي عدن والمحبر المحسّن والمزين ٨ الرحيق أفضل الخمر والصافي منها والريط جمع ريطة وهي كل ملاءة كانت قطعتين متضامتين والمعتبط الطري ودارين فرضة في البحرين يحمل المسك اليها من الهند وفيها يباع والأذفر شديد الرائحة ٩ تحيد تميل وفي البيتين اشارة الى اعتيادهم الحرب ١٠ تعقّر تقطع قوائمها ١١ السؤدد السيادة ومظهر ارتفاع ١٢ بوادر جمع بادرة وهي الحدّة وما يبدر منها في الغضب

ولا خيرَ في جهلٍ اذا لم يكن لهُ　حليمٌ اذا ما أوردَ الأمرَ أصدرا [١]

وكان في جاهليتهِ ممن أنكر الأوثان وآمن باللهِ عزّ وجلّ ومن قولهِ

الحمـدُ للهِ الذي لا شريكَ لهُ　من لم يقُلْها فنفسَهُ ظلما
المولجُ الليلِ في النهار وفي آلـ　ـلَيْلِ نهـاراً يفرّجُ الظُلَما
ألحـافظُ الرافعُ السماءَ على　ٱلأرْضِ ولم يبنِ تحتهـا دُعُما [٢]

ولمـا خرج عليّ بن أبي طالب إلى صِفّين [٣] خرج نابغة بني جعدة معهُ وكان من حزبهِ لينظم القصائد في مدحهِ وهجاء خصمهِ معاوية بن أبي سفيان. ويحكى أن معاوية أخذ مالهُ وأهلهُ على يدِ مروان بن الحكم فدخل عليهِ يوماً وعندهُ عبد الله بن عامر ومروان وأنشدهُ قولاً كان حذّر بهِ غيرهُ سابقاً ومنهُ:

مَنْ راكبٌ يأتي بنَ هندَ بحاجتي　على النأْيِ والأنباءُ تُنْمى وتُجْلَبُ [٤]
ويُخبرُ عني مـا أقول أبنَ عامرٍ　ونعم الفتى يأوي إليهِ المعصَّبُ [٥]
فان تأخذوا أهلي ومالي بظِنَّةٍ　فاني لحرَّابُ الرجـال مجرَّبُ [٦]
صبورٌ على ما يكرهُ المـرءُ كلّهِ　سوى الظلمِ إني إن ظُلمتُ سأغضبُ

فأشار مروان ألاَّ يُردَّ عليهِ شيء. فقال معاوية « ما اهون واللهِ عليك أَنْ ينجحر [٧] هذا في غار ثم يقطع عرضي عليَّ فتأخذهُ العرب وترويهِ...

---

١ أورد الامر أتاهُ وتعاطاهُ واصدر رجع عنهُ اي لايدخل في مهمّة الا وهو عارف كيف يخرج منها ٢ المولج المدخل ودعم جمع دعام وهو عماد البيت يسند اليهِ ٣ موضع قرب الرقة على شاطىء الفرات كانت به الوقعة العظمى بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيـان في غرّة صفر سنه ٣٧ هجرية ٤ ابن هند هو معاوية والنأي البعد والأنباء الأخبار وتنمى تعزى وترفع او تزداد ٥ المعصّب المسوّد اي المجعول سيّداً ٦ ظنّة تهمة والحرّاب الشجاع الكثير الحرب ٧ انجحر السبع دخل حجرهُ اي حفرتهُ

أردد عليه كل شيء أخذته» وبلغ النابغة الجعدي شيخوخة قصيّة وعلى ذلك قوله :

أتت مئة لعامَ ولدت فيه وعشرٌ بعد ذاك وحجّتان [١]

عَلِيُّ بنُ أَبي طَالب (٦٦١)

هو أبو الحسن علي بن أبي طالب القرشي. كان غلاماً لما أظهر ابن عمّه محمد دعوته فآمن به وشبّ على حبه وتأصلت عقائد الاسلام في قلبه فكان اشد القوم تشبّثا [٢] بدينه وأقوام حماسة في الدفاع عن حوزته [٣] وأسرعهم إلى التفاني في إعلاء مناره ونشره في القبائل وأثقلهم يداً على أعدائه من مبتدعين وخوارج [٤] وبلغ عليّ مكانة رفيعة في الاسلام ففي مواقع القتال كان بطلاً صنديداً وقرماً [٥] عنيداً وخصماً مظفّراً لم يرجع قط منهزماً من نزال. وفي محافل الأمّة خطيباً مصقعاً آراؤه آيات باهرات واقواله حكم معجزات وما اتّصل إلينا من خطبه وجوامع كلمه وُسم كله بطابع البلاغة الرائعة والحكمة الواسعة ويشهد له ببعد الغور [٦] ورسوخ [٧] القدم في الكمالات الانسانية ويحلّه محلاً سامياً مجالس ارباب العلوم السنيّة .

ويقال ان عليّا كان مع ما امتاز به عن قومه من قرابة النبيّ ومقام الخلافة زاهداً في حطام الدنيا مزدرياً [٨] للاموال المتدفّقة على بيت المال في

---

١ الحجّة السنة اي انه عاش مئة واثني عشر عاماً ٢ تعلّقا ٣ حوزة الملك ما بين تخومها ٤ المبتدعون أصحاب البدع والخوارج العصاة ٥ القرم هو الفحل اذا ترك عن الركوب والعمل استعير للخصم الذي لا يقهر ٦ الغور من كل شيء اي انه عميق النظر ٧ ثبات ٨ محتقراً

ايّامه لكثرة الفتوحات واتساع المملكة خشن المطعم والملبس لايستحي من رقع قميصه وخصف[١] نعله بيده. ولما كان لا تأخذهُ في اقامة شعائر الدين لومة لائم ولا يعرف للدهاء والمحاباة[٢] معنى اراد عند تربعه في دست الخلافة ان يقوّم أَوَد[٣] القوم ويحملهم على الزهد في الدنيا ويعيدهم الى خشونة المعاش فأعظموا ذلك وأنكروه وامتنعوا عليه وكانوا قد اعتادوا رخاء العيشة على أيام عثمان بن عفّان الخليفة السابق واسترسلوا الى الملاذّ واستكثروا من الاموال على اختلاف انواعها فكان لهُ من ذلك متاعب ومصاعب نغصت عيشهُ في خلافته

وزاد الامور ارتباكاً وقوف معاوية بن أبي سفيان عامل الشام في المرصاد طامحاً الى الخلافة من زمن طويل بلا حقّ ولا مزية سوى مكره ودهائه ونهمه. فما كاد يبلغهُ مقتل عثمان — وكان امويّا مثلهُ — حتى قبض على الفرصة بناصيتها[٤] وهب لبلوغ امنيته بدعوى المطالبة بدم الخليفة القتيل. فأبى مبايعة علي وبثّ روح العداء لهُ في أهل الشام واصطنع الأحزاب ببذل الاموال الفاحشة وحشد الجيوش ونازل عليّا. فالتقى القومان في صفّين وجرت بينهما الحرب سجالا[٥] وفني خلق كثير. واتفقوا أخيراً على إقامة حكمين من قبل الفريقين والعمل بما يقرّ رأيهما عليه فاضطرّ عليّا أصحابهُ ان يحكّم ابا موسى الاشعريّ رجلاً خلواً من المكر وجاهلاً ملاوي السياسة وحكّم أصحاب معاوية عمرو بن العاص وكان داهية دهياء أبعد شيءٍ عن خلقه صدق المقال وحفظ الذمام[٦]. ولما اجتمعا أقنع عمرو أبا موسى ان يخلع كلٌّ منهما صاحبهُ ليتيسّر

---

١ خرزها بالمخصف او المخرز ٢ شعائر الدين ما يقتضيه من العبادات الظاهرة والمحاباة الميل الى الشخص مع انحراف عن العدل ٣ اعوجاج ٤ شعر مقدم الراس ٥ تارة لهم وتارة عليهم ٦ الحق والعهد

انتخاب خليفة يرضى بهِ الفريقان فقنع أبو موسى وتقدّم اليهِ عمرو ان يبدأ بالكلام في الناس متظاهراً باجلال سنّهِ وقدرهِ. فخطب أبو موسى وخلع عليّاً ثم قام عمرو فقرّر خلع عليّ واثبت الخلافة لمعاوية فتضعضع حزب علي إلا أنهُ لم ينزل عن سدَّة الخلافة. وقويت شوكة معاوية وتهيأ لهُ الاستيلاء على أزمّة الملك بعد مقتل عليّ. وقد كانت أبصارهُ تطمح إليهِ منذ ثلاثين سنة. وهكذا انتقلت الخلافة الى بني اميَّة وجعلها معاوية وراثية في أعقابهِ وكانت قبلا انتخابية

والمأثور من كلام علي بن أبي طالب كثير جدًّا لا يخلو منهُ مجموع ادبيَّات. وقد جمع السيد الرضي من أهل القرن الخامس للهجرة ما ينسب الى علي من الخطب والحِكَم في كتاب سمّاهُ «نهج البلاغة» وهو مطبوع متداول بين الادباء وشهرتهُ تغني عن الاطناب في وصفهِ. وينسب الى علي شعر حسن الديباجة عذب الالفاظ رقيق المعاني سهل المأخذ حتى على العامّة فهو عنوان الفصاحة الحقيقيّة ومعظمهُ حكم وابتهالات. فمن ذلك قولهُ :

لك ٱلحمد ياذا الجودِ والمجدِ والعلى ... تباركتَ تُعطي من تشاء وتَمنعُ
إلهي وخلاّقي وحِرزي ومَوئلي ... إليك لدى الاعسار واليُسر أفزعُ [١]
إلهي لَئِن خيبتني وطردتني ... فمن ذا الذي أرجو ومن ذا أشفّعُ
إلهي ترى حالي وذُلّي وفاقتي ... وانت مناجاتي الخفيةَ تسمعُ [٢]
إلهي فلا تقطع رجائي ولا تُزغ ... فؤادي فلي في باب جودك مطمعُ [٣]
إلهي لئن عذّبتني الفَ حجّةٍ ... فحبلُ رجوئي منك لا يتقطّعُ [٤]

---

١ الحرز الحصن والموئل الملجأ والاعسارَ الفقر واليسر الغنى وأفزع التجيء ٢ الفاقة الفقر والمناجاة او النجوى المسارّة ٣ تزغ تمل ٤ الحجّة السنة

إلهي اذا لم تعفُ عن غير محسنٍ ... فمن لمسيءٍ بالهوى يتمتَّعُ
إلهي لئن فرَّطتُ في طلب التقى ... فها انا إثرَ العفو أقفو وأتبعُ [١]
إلهي أَقِلني عثرتي وامحُ حَوبتي ... فاني مقرٌّ خائف متضرّعُ [٢]
إلهي حليفُ الحب بالليل ساهرٌ ... ينادي ويبكي والمغفَّل يهجعُ [٣]
إلهي يمنّيني رجائي سلامةً ... وقبح خطيَّاتي عليَّ يشنّعُ [٤]

ولهُ في النسج على هذا المنوال شيء كثير. ومن قولهِ :

الناس من جهة التمثال أكفاء [٥] ... أبوهمُ آدمٌ والأُمُّ حوَّاءُ
فان يكن لهم في أصلهم شرفٌ ... يفاخرون بهِ فالطينُ والماءُ
ما الفضل الاَّ لأهل العلم إنَّهمُ ... على الهُدى لمن استهدى أدلاَّءُ [٦]
وقيمةُ المرءِ ما قد كان يُحسنهُ ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
وان أتيتَ بجودٍ من ذوي نسبٍ ... فانَّ نسبتنا جودٌ وعلياءُ [٧]
فقم بعلمٍ ولا تبغِ بهِ بدلاً ... فالناس موتى وأهل العلم أحياءُ

وتوفي عليٌّ بن أبي طالب قتيلاً قتلهُ ابن ملجم وهو في المسجد وعمرهُ ثماني وخمسون سنة. ومدَّة خلافتهِ أربع سنوات وتسعة أشهر

---

١ فرط قصر وأظهر العجز ٢ أقاله عثرتهُ صفح عنهُ وأنهضهُ من سقطتهِ والحوبة الخطيئة ٣ يهجع ينام ٤ يمنيني يرغبني ٥ التمثال الصورة وأكفاء جمع كفء وهو القرن والمساوي ٦ أدلاء جمع دليل ٧ العلياء الرفعة والشرف

اللغة

في

الدولة الأموية

قُتل عليّ بن أبي طالب وصفا الجوّ المعاوية بن أبي سفيان وتهيّأ لهُ الحصول على أمنيّته [١] والظفر بما كانت تحدّثه به نفسهُ وتطلّ عليه انظارهُ منذ زمن طويل. وتمّ لهُ السعد باعتزال الحسن بن علي وكان حزب أبيه قد بايعهُ. فانّهُ لما رأى استفحال أمر معاوية واضطراب احوال الأمة سلّم مغالبهُ أزمّة الخلافة ونزل لهُ عن حقوقه وقد أحسّ من نفسه أنهُ غير كافٍ لمناهضة خصمه [٢] وركوب هذا المركب الخشن. فتربّع معاوية في دست الخلافة وبايعتهُ الامة بأسرها [٣] رغبةً او رهبةً. قالوا ومن لم يذعن إلى الوعد والوعيد من خاصّة القوم وكبرائهم وكل الى العسل [٤] ان يكفيهُ مؤونتهم. فاستتبّ لهُ [٥] الملك وحكم بدهائه عشرين سنة لم يألُ في أثنائها جهداً لتوطيد سلطانه والاستئثار [٦]

---

١ مرغوب ٢ لمقاومته ٣ جميعها ٤ زعموا ان معاوية كان اذا أعياهُ أمر رجل يخافه دسّ لهُ من يسقيه شربة عسل بسم ويتخلص من شرّه ولذلك قال بعضهم مشيراً الى هذه الخديعة الفظيعة «ان لله جنداً من العسل» ٥ استقام ٦ استبدّ به وخصّهم به دون سواه.

به لبنيه من بعده فأنفد[١] في نيل مبتغاه جعبة[٢] حيله وفنون سياسته ولم يترك سبباً قلّ أو جلّ الا اتخذه وعُني به

ومن جملة الأعوان على تملك خواطر العامّة في ذلك الزمان واصطناع الأحزاب فيهم استمالة الشعراء وحملهم على مدح الدولة الجديدة والافاضة في تعداد خيرها ومجدها. ولم يكن معاوية ليفوته مثل هذا الامر وكان يعلم أن الشاعر إذا قال القصيدة في مدحه أو هجائه جالت اقواله آفاق المملكة وتغنّى بها له او عليه كبير العرب وصغيرها حضريّها وبدويّها وقد رأيت مصداق ذلك في ترجمة الحطيئة والنابغة الجعديّ فكان يفيض[٣] على مشايعيه منهم الأعطيات الوافرة ويقطع عنه ألسنة اضداده بكرمه وحلمه[٤] وطول أناته[٥]. ولم يكن أحدٌ أدرى منه بحاجة الدولة إلى هؤلاء الجند الذين لا سلاح لهم سوى السنتهم الذربة[٦] ولا سيّما وان دولة بني أميّة قامت وعامّة المسلمين كارهون لها لا تمتّ[٧] إليهم بقرابة النبي ولا يرون لها مزيّة سوى المكر ولا دعامة سوى البطش فكانت جلبة[٨] الشعراء تموّه[٩] على عقول الجماهير وتصمّ الآذان عن الاصغاء الى دعوى المطالبين والمحتجّين فعزّ الشعراء وعلت مكانتهم في المملكة وقويت شوكتهم وهيبت سلطتهم

وزاد الشعراءَ رفعة وإعزازاً أن دولة الأمويين دولة عربيّة محضة والسيادة فيها للعنصر العربيّ دون سواه ولما كان العرب مطبوعين على قرض الشعر مولعين بإنشاده والمفاخرة به تمّ لقائليه في العصر الأموي اتقانه والابداع فيه. فنبغ منهم جماعة لهم في الشعر المكانة العالية والقدم

---

١ افرغ ٢ كنانة النشاب ٣ يسكب ٤ صبره ٥ تمهله ووقاره ٦ الحادّة ٧ تصل وتتوسل ٨ صياح ١٠ تزوّر وتزخرف

الراسخة وأمتاز شعرهم عن شعر متقدميهم بالرقة والسلاسة واتسم[١] بسحة من الحضارة مما يدل على تأثير مدنية الشعوب التي أخضعها المسلمون على بداوة العرب وخشونتهم فصقلت طباعهم ولطفت أذواقهم ولم يكن تحضرهم[٢] لينزع من شعرهم متانة العبارة وفحولة اللهجة البدويّة للصوقهم بالبادية واهلها وقرب عهدهم بسكناها. فكأنهم كانوا وهم على شرفات[٣] قصور دمشق عاصمتهم الجديدة يحنّون الى باديتهم ويوجّهون اليها نظرات الحبّ والشوق ويشعرون من انفسهم بعاطفة هي أشبه شيء بالحسرة والتلهّف على سابق حريّة بدوية وعيشة مطلقة الجناح قضى عليها الى الأبد رقّ الحضارة والعبودية المعشوقة المكروهة لحاجاتها المتعددة المتلونة

قلنا ولعلّ لهم من هذه الحال عذراً يشفع فيهم فيما يؤخذ عليهم من تحدّيهم[٤] شعراء البدو بذكر الطلول والبكاء على الأحبّة الذين ظعنوا في طلب المرعى وارتياد النجعة مما لم يعد لهُ معنى في ايامهم. والله أعلم

وسنذكر لُمَعاً[٥] من اخبارهم ونبذاً[٦] من اقوالهم يقف منها المطالع على مكانهم من الأدب في تلك المدّة. وبالله التوفيق.

الشعراء المتقدّمون

ألشعراء المتقدّمون ويقال لهم أيضاً الاسلاميون هم شعراء الدولة الأموية وسمة شعرهم البلاغة الموروثة عن الجاهلية وزيادة في التفنّن وصقل

---

١ اتّسم جعل لنفسهِ سمة اي علامة يعرف بها ٢ اقامتهم بالحضر وهو ضدّ البادية ٣ ما اشرف أي ارتفع من بنائها ٤ تحدّاهُ فعل فعلهُ ٥ جمع لمعة بالضم وهي القطعة من الخبر ٦ جمع نبذة بالضم وهي القطعة من القول

القول فهم أعلى طبقة في معانيهم ممن قبلهم إلا انهم أضعف ملكة وأقلّ أسراً [١]

مَالِكُ بْنُ الرَّيْب (٦٧٦)

هو مالك بن الريب التميمي من محسني شعراء الدولة الأموية سريع العارضة بدويّ البيت. وكان في بداءة أمره لصًّا فاتكاً يعيث [٢] في البادية ويقطع الطريق في شرذمة [٣] من أصحاب لهُ. ولما استعمل [٤] معاوية سعيد بن عثمان بن عفّان على خراسان مضى بجنده في طريق فارسَ فلقيهُ بها فأعجبهُ وقال لهُ «مالك ويحك تفسد نفسك بقطع الطريق وما يدعوك الى العيث والفساد» قال «يدعُوني إليه العجزُ عن مساواة ذوي المروآت ومكافأة الاخوان» قال «فان انا أغنيتُك واستصحبتُك أفتكفّ عما كنتَ تفعل» قال «اي والله أيها الامير أكفّ كفًّا لم يكفّ أحدٌ أحسن منهُ» فاستصحبَهُ وأجرى لهُ خمس مئة دِرهمٍ في كلِ شهرٍ. ولما كان ببعض الطريق أراد ان يلبسَ خِفّهُ [٥] فاذا بأفعى في داخلهِ فلسعتهُ فلما احسَّ بالموت استلقى على قفاهُ ثم أنشأ يقول:

دعاني الهوى من أهلِ ودّي وصُحبتي ... بذي الطَّبَسَيْنِ فالتفتُّ ورائيا [٦]
أجبتُ الهوى لما دعاني بزفرةٍ ... تقنّعتُ منها أن ألامَ ردائيا [٧]

---

١ ضبطاً ٢ يُفسد ٣ جماعة قليلة ٤ اتخذه عاملاً اي حاكماً من قبلهِ ٥ حذاءهُ ٦ أهل وديّ احبابي والطبسان كورتان بخراسان كل واحدة يقال لها طبس وهما بابا خراسان واول ما فتحهُ الاسلام منها ٧ الزفرة التنفس من حسرة وتقنع بردائهِ استتر بهِ يقول لما تبعت هواي وفارقت أهلي غلب علي الحزن فاستترت بردائي خوفاً من اللوم

لعمري لئن غالت خراسانُ هامتي لقد كنت عن بابَيْ خراسانَ نائيا [1]

فللّه درّي يومَ أتركُ طائعاً بنيَّ بأعلى الرقمتين وماليا [2]

ودرُّ الظباءِ السانحاتِ عشيّةً يخبّرن أني هالكٌ من أماميا [3]

تفقّدتُ من يبكي عليَّ فلم أجد سوى السيفِ والرمحِ الرُّدَينيِّ باكيا [4]

وأشقرَ خِنذيذٍ يجرُّ عِنانَهُ إلى الماءِ لم يترك لهُ الموت ساقيا [5]

أقول لأصحابي ارفعوني فانني يقرُّ لعيني أن سُهيلٌ بداليا [6]

فيا صاحبَيْ رحلي دنا الموت فانزلا برابيةٍ إني مقيمٌ لياليا [7]

وقوما اذا ما استُلَّ روحي فهيّئا لي القبرَ والاكفانَ ثم ابكيانيا

وخطّا بأطراف الاسنّة مضجعي ورُدّا على عينيَّ فضلَ ردائيا [8]

ولا تحسُداني باركَ الله فيكما من الارض ذات العرض أن توسعا ليا [9]

خُذاني فجُرّاني ببُردي اليكما فقد كنت قبلَ اليوم صعباً قياديا [10]

ولا تنسَيا عهدي خليليَّ بعدما تقطّعُ أوصالي وتبلى عظاميا

يقولون لا تَبْعَدْ وهم يدفنونني واين مكانُ البُعد غيرُ مكانيا [11]

غداةَ غدٍ يا لهفَ نفسي على غدٍ إذا أدلجوا عني وخُلّفتُ ثاويا [12]

---

١ غالت اهلكت وهامة راس ونائي بعيد ٢ لله درّي كلمة استحسان استعملها هنا للتحسر والرقمتان علم موضع كان بهِ منزل مالك بن الريب ٣ الظباء السانحات التي تمرّ عن يمين الناظر اليها وكانت العرب تتيمن بها ٤ تفقدت تطلبت والرديني نسبة الى ردينة وهي امرأة اشتهرت بتقويم الرماح ٥ الخنذيذ الكريم من الخيل والعنان سير اللجام ٦ يقرّ لعيني يرتاح نظري وسهيل اسم نجم وبدا ظهر ٧ الرابية ما ارتفع من الارض والرحل المنزل والمثوى ٨ خطّا احفرا والاسنّة جمع سنان وهو حديدة الرمح ومضجعي قبري ٩ العرض السعة وتوسعا تجعلا الحفرة من هذه الفلاة واسعة ١٠ البرد الثوب المخطط ١١ بعد هلك ومرادهُ يدعون لي بدوام البقاء وهم يدفنوني وهل من منزل هلاك غير منزلي هنا ١٢ أدلج سار من اول الليل وثوى بالمكان أقام بهِ

وبالرملِ مني نِسوَةٌ لو شهدنَني بكَيْنَ وفَدَّينَ الطبيبَ المداوِيا ١
تقولُ ابنتي لما رأتْ وَشْكَ رحلَتي سِفارُكَ هذا تارِكي لا أُباليـــا ٢
الا ليت شعري هل بكت أمٌّ مالكٍ كما كنت لوجاوُوا بنعيك باكيـا ٣
اذا متُّ فاعتادي القبورَ وسلّمي عليهنَّ تُسقَينَ السحابَ الغواديا ٤

لَيْلَى الاخيَلِيَّة (٧٠٨)

هي ليلى بنت عبد الله المعروفة بالأخيلية نسبةً الى الأخيل بن عبادة بن عقيل أحد أجدادها. وهي من شواعر العرب المتقدمات المشهود لهن بعلوّ الطبقة في جنسهنّ وأنشدت يوماً في مجلس الحجاج فأُعجب بهـــا الجلساء وقالوا «ما رأينا أمرأة أفصح ولا أبلغ منها ولا أحسن إنشاداً» واشتهرت بمراثيها لتوبة بن الحُمـيّر أحد فرسان بني عقيل وكان قد خطبهـــا الى أبيها فأبى ان يزوّجه اياها وزوجهـــا رجلاً غيوراً شرس الأخلاق ظنونا يضربها ويُسيء معاملتها ويعزب ٥ بها عن الناس فكانت عمرها معهُ هدفاً لبدواته وعبرة لاستبداد الوالدين بخليقةٍ ضعيفةٍ هما أولى برعايتها وحمايتها ... ومن شعرها في رثاء توبة قولها :

---

١ الرمل الرقمتان موطنهُ وفداهُ قال لهُ جعلت فداك اشارة الى استحثاثهن الطبيب لمداواته لو مرض في منزلهِ ٢ الوشك السرعة والسفار مصدر سافر ٣ ليت شعري اي ليتني اشعر يقول ليتني أعرف هل تبكي أمي عند ما أنعى اليها كما كانت ابكي لو نعيت الي ٤ السحاب الغيم والغوادي جمع غادية وهي السحابة تنشأ غدوة ٥ يبعد ٦ الهدف الغرض الذي يرمي والبدوات الخواطر المختلفة التي تبدو للمرء

لعَمْرُكَ ما بالموت عارٌ على الفتى ... اذا لم تُصبهُ في الحياة المعاير[١]
وما أحدٌ حيٌّ وان عاش سالماً ... بأخلدَ ممّن غيّبته المقابرُ
فلاالحيُّ مما أحدث الدهرُ معْتَبٌ ... ولا الميتُ إن لم يصبر الحيُّ ناشرٌ[٢]
وكل جديدٍ او شباب الى بلىً ... وكل امرىءٍ يوماً الى الموت صائرٌ
وكلُّ قرينَي ألفةٍ لتفرّق ... شتاتاً وان ضنّا وطال التعاشر[٣]
فلايُبْعِدَنك الله يا توبَ هالكاً ... أخا الحرب إن دارت عليك الدوائرُ[٤]
فآليت لا أنفكُّ ابكيك ما دعت ... على فَنَنٍ ورقاءُ أوطار طائرٌ[٥]

ولها فيه شعر كثيرٌ كلهُ حسن يُحلُّها اسمى محلّ بين الشاعرات بعد الخنساء. ولها مدائح في عبد الملك والحجاج وكان الحجاج يعجب بقولها ويجزل عطاءها. وجرى بينها وبين النابغة الجعديّ مهاجاة فكان لها الفوز عليه والغلبة ومن قولها فيه:

أنابغَ لم تنبغ ولم تكُ أوّلاَ ... وكنت صُنَيّا بين صدَّين مَجهلا[٦]
أنابغَ ان تنبغْ بلؤمك لا تجدْ ... للؤمك إلا وسْطَ جعدةَ مجعلا[٧]

وكبر على الجعديّين ظهور ليلى على صاحبهم وهمّوا برفع شكواهم الى صاحب المدينة بل الى الخليفة نفسه لينتقم لهم من امرأة ... وبلغ ذلك ليلى فقالت:

أتاني من الأنباء أن عشيرةً ... بشورانَ يزجُون المطيّ المذلّلا[٨]

---

١ المعاير المعايب ٢ اعتبهُ ازال عتبهُ وارضاهُ وناشر مبعوث من الموت ٣ ضن بخل والتعاشر التخالط ٤ توب مرخم توبة واخو الحرب صاحبها ومثيرها ودارت الدوائر عليه نزلت به الدواهي ٥ آليت حلفت والفنن الغصن والورقاء الحمامة ٦ صنياً تصغير صنو بالفتح وهو الماء القليل بين جبلين والصد الجبل والمجهل الارض لا يهتدى فيها وهو بيان لصنيّ ٧ جعدة قبيلة النابغة ٨ الأنباء الاخبار وزجا ساق واستحث

يروح ويغدو وفدُهم بصحيفــة   لكي يظهروا بي ساءَ ذلك معملا[١]

وقال لها الحجاج يوماً « بلغني أنك مررتِ بقبر توبة بن الحمــيّر وعدلت عنهُ » فقالت « أصلح الله الأمير لي عذر وهو اني سمعتهُ يقول:

ولو أنَّ ليلى الاخيليَّةَ سلّمت   عليَّ وفوقي جَنْدلٌ وصفائحُ[٢]
لسلمت تسليم البشاشةِ او زقــا   إليها صدىً من جانب القبر صائحُ[٣]

وكان معي نسوة قد سمعن قولهُ فكرهت أن أُكذّبهُ » فاستحسن قولها ثم طلبت منهُ ان يحملها الى ابن عمها قتيبة بن مسلم وهو على خراسان يومئذٍ فحملها إليهِ وأقبلت راجعة تريد البادية فلما كانت بالريّ ماتت فقبرت هناك .

ألأَخْطَل

هو أبو مالك غياث بن غوث التغلبيّ الملقّب بالأخطل[٤] من فحول شعراء الدولة الأُمويّة وهو وجرير والفرزدق طبقة واحدة ومنهم من يفضله على صاحبيهِ لكثرة قصائده الطوال الجياد ولسلامة كلامهِ من السقط وشدّة أسر[٥] شعرهِ وهو أشبه بالجاهلية قالوا لوأدرك الاخطل يوماً واحداً من الجاهلية ما قدّم عليهِ أحد. وكانوا يشبهونهُ بالنابغة لصحة شعرهِ .

---

١ الوفد قوم يفدون على الملك وراح سار مساء وغدا سار غدوة وظهر بهِ غلبهُ وساء قبح ومعمل مصدر ميمي بمعنى عمل ٢ الجندل الصخر والصفائح حجارة عراض رقاق تسقف القبور ٣ زقا صاح والصدى هو بزعمهم طائر يلازم قبر الميت ويكون بمنزلة روحهِ ٤ الكثير الكلام الخبيث اللسان ٥ ضبط

وسئل حماد الراوية عن الاخطل فقال « ماتسألوني عن رجل قد حبَّب شعرهُ إليَّ النصرانيَّة » وسأل جريراً ابنهُ « يا أبت انت أشعر أم الاخطل» فقال « يا بنيَّ أدركت الاخطل ولهُ ناب واحد ولو ادركتهُ ولهُ ناب آخر لأكلني بهِ » وقال عبد الملك للفرزدق « من أشعر الناس في الاسلام» فقال « كفاك بابن النصرانية إذا مدح » وهذه الاقوال من معاصريهِ ومناظريْهِ في الشعر — وأهواء التعصّب والأغراض حائلة دون سداد الرأي وصحة النظر في تلك المدّة — تدلّ جليًّا على علوّ مقام الأخطل في الشعر وسيادتهِ المقرّرة ومن ثَمَّ ما كادت تنفثئ سورة الأهواء[1] النافرة وتركد[2] رياح الأغراض المتدافعة حتى أقرَّ لهُ العلماء بزعامة شعراء عصرهِ لما رأوا في شعرهِ من جزالة اللفظ وفخامة العبارة وصحة التركيب مع طول النفس واستمرار المتانة في كل أبيات القصيدة لا يكبو[3] جواد قريحتهِ في بيت واحد. وهجاء الاخطل حادّ اللهجة شديد الجرأة مع حشمة وعفاف مترفع عن ذكر ما يندى لهُ جبين الأديب على حين كان جرير والفرزدق يشوّهان[4] شعرهما ببذيّ[5] الالفاظ وساقطها وقد قال الأخطل « ما هجوت أحداً قطّ بما تستحي العذراء ان تنشدهُ أباها » قيل إنهُ اهجى الشعراء حيث يقول :

وكنتَ إذا لقيتَ عبيد تَيْمٍ[6] وتيماً قلت أيُّهم العبيدُ
لئيم العالمين يسود تيماً وسيّدهم وان كرهوا مسودُ

واما المدح فلهُ فيهِ الباع الطويل والقدم الراسخة والقِدح المعلّى[7]. قيل

---

١ تنكسر حدتها ٢ تهدأ ٣ يعثر ٤ يقبّحان ٥ فاحش ٦ اسم قبيلة ٧ القدح واحدة القداح ويقال لها الازلام ايضاً وهي السهام قبل ان تراش وتنصل وكان العرب يتقامرون بها وذلك انهم كانوا يعمدون الى جزور فينحرونها ويقسمونها ثمانية وعشرين قسما ويتساهمون عليها بعشرة قداح ويفرضون لسبعة منها انصبة مقدرة ويجعلونها في خريطة

انهُ دخل على عبد الملك فقال لهُ « يا امير المؤمنين زعم ابن المراغة [1] انهُ يبلغ مدحتك في ثلاثة أيام وقد أقمت في مدحتك « خفَّ القطين » سنة فما بلغت كلَّ ما اردت » فقال عبد الملك « ما سمعناها يا أخطل » فأنشده إياها فكان عبد الملك يتطاول لها ثم قال « ويحك يا أخطل أتريد أن اكتب الى الآفاق انك أشعر العرب » قال « اكتفي بقول أمير المؤمنين » وأمر لهُ بجفنةٍ [2] كانت بين يديه فملئت دراهم وألقى عليه خلعاً وخرج بهِ مولى لعبد الملك على الناس يقول « هـذا شاعر امير المؤمنين هذا أشعر العرب » قال :

خفَّ القطينُ فراحوا منك وابتكروا وأزعجتهم نَوًى في صَرفها غِيَرُ [3]

كأنني شاربٌ يوم استُبدَّ بهم من قهوةٍ ضُمّنتها حمصُ أو جدرُ [4]

وهي طويلة منها في مدح عبد الملك :

نفسي فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النواجذَ يوماً عارمٌ ذكرُ [5]

الخائض الغمرةِ الميمونِ طائرُهُ خليفةِ اللهِ يُستسقى بهِ المطرُ [6]

يدفعونها لرجل عدل فيجيلها ويخرج للرجل منهم قدحاً فان كان من ذوات الانصبة أخذ نصيبهُ والاَّ غُرِمَ ثمن الجزور واما القداح الكاسبة فهي الفذّ ولهُ نصيبٌ واحد والتوأم ولهُ نصيبان والرقيب ولهُ ثلاثة والنافس ولهُ اربعة والحلس ولهُ خمسة والمسبل ولهُ ستة والمعلى ولهُ سبعة

[1] يعني جريراً [2] قصعة [3] خفَّ عجل واسرع وراح سار مساء وابتكر سار بكرة والقطين الخدم والاتباع وازعج اقلق والنوى الجهة التي ينويها المسافر والغير احداث الدهر [4] استبد بهم غلب عليهم وقهوة خمرة وحمص من بلاد الشام وجدر قرية بين حمص وسلمية تنسب اليها الخمر [5] الناجذ الضرس الذي يلي الناب والعارم الشديد البرد والذكر الشديد القتال [6] الغمرة معظم البحر استعاره هنا للحرب ومعظم الامور وميمون الطائر مبارك الطلعة

وما الفراتُ اذا جاشت حوالبُهُ ... في حافتَيْهِ وفي أوساطهِ العُشَرُ ١
وزعزعتْهُ رياحُ الصيفِ واضطربت ... فوق الجآجيءِ من آذيّهِ غُدُرُ ٢
مُسحنْفِرٌ من بلادِ الرومِ يستره ... منها اكافيفُ فيها دونَهُ زَوَرُ ٣
يوماً بأجودَ منهُ حين تسألُهُ ... ولا بأجهرَ منهُ حين يُجتَهَرُ ٤
في نبعةٍ من قريشٍ يعصمون بها ... ما إن يُوازَى بأعلى نبتِها الشجرُ ٥
حُشْدٌ على الحقّ عيّافو الخنا أُنُفٌ ... اذا أَلمّت بهم مكروهةٌ صبروا ٦
لا يستقلُّ ذوو الأضغانِ حربَهُمُ ... ولا يُبيِّنُ في عيدانهم خَوَرُ ٧
شُمسُ العداوة حتى يُستقادَ لهم ... وأوسعُ الناس أحلاماً اذ قدروا ٨
همُ الذين يُبارون الرياحَ إذا ... قلَّ الطعامُ على العافين أو قَتَرُوا ٩
بني أميّــةَ نعماكم مجلِّلةٌ ... تمت فلا مِنّةٌ فيها ولا كَدَرُ ١٠

---

١ الفرات نهر عظيم يصب في بحر فارس وجاشت حوالبهُ طفت امواجهُ والعشر ضرب من الشجر ٢ زغزعتهُ حركتهُ والجآجيء جمع جؤجؤ وهو مقدم السفينة والآذي الموج والغدر جمع غدير شبه بها الامواج التي تحركها الريح فتتعاظم ٣ المسحنفر السريع الجري والاكافيف التلال والزور الميل ٤ الباء في (بأجود) زائدة واجود خبر ما الحجازية الواقعة في قولهِ ، وما الفرات... وجهرت فلاناً واجتهرتهُ رأيتهُ رائعاً عظيماً ٥ النبعة الاصل ووازى قابل ٦ حشد دُعي فأجاب مسرعاً وخفّ للاعانة والعيّاف مبالغة من عاف الشيء اذا كرهه والخنا الفحش وأُنف جمع أنوف اي مترفع والمت بهِ مكروهة نزلت بهِ داهية ٧ الأضغان جمع ضغن كحقد زنة ومعنى والخور الضعف وكنى بالعود عن الاصل والقوة ٨ شمس فلان ابدى العداوة وهمّ بالشرّ فهو شَموس وهم شمس بضمتين وسكنت الميم للضرورة واستقاد لهُ خضع والأحلام جمع حلم بالكسر وهو الصبر عن الثار عند المقدرة — يروى عن الرشيد انهُ كان شديد الأعجاب بهذا البيت ٩ بارى سابق والعافي طالب الرزق وقتر ضيّق في النفقة ١٠ جلّلهُ بنعمهِ عمّهُ بها والمنة مصدر منّ عليهِ اذا ذكرهُ بسابق نعمهِ وعددها لهُ على سبيل التوبيخ

ومنها في هجاء بني كليب بن يربوع :

بئسَ الصِحابُ وبئس الشربُ شُربهمُ   إذا جرى فيهم المُزَّاءُ والسكرُ [١]
قومٌ تناهت إليهم كل مُخزيةٍ   وكلُّ فاحشة سُبَّت بها مُضَرُ [٢]
الآكلون خبيثَ الزادِ وحدهم   والسائلون بظهرِ الغيب ما الخبرُ

فقال عبد الملك « ان لكل قوم شاعراً وشاعر بني أمية الأخطل »

وكان الأخطل نصرانيّاً متمسّكاً بدينهِ وكثيراً ما حثهُ عبد الملك على الاسلام فلم يفعل. وكان يجيء وعليهِ جبة خزّ وفي عنقهِ سلسلة ذهب فيها صليب ذهب حتى يدخل على عبد الملك بغير اذن. وكان الأخطل مدمنا الخمرة فقال لهُ عبد الملك مرَّة « وما تصنع بالخمر وان أولها لمرّ وان آخرها لسكر » قال « اما اذا قلت ذلك فان فيما بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها الا كعلقة ماءٍ من الفرات بالاصبع وقد قلت في ذلك »

اذا ما نديمي علَّني ثم علَّني   ثلاثَ زجاجات لهنّ هديرُ [٣]
خرجت أجرُّ الذيلَ زهواً كانني   عليك أميرَ المؤمنين أميرُ

فضحك عبد الملك. ولم يزل مقرَّبا عند خلفاء بني أمية حتى ملك عمر بن عبد العزيز فأقصاهُ. ويحكى انهُ استأذن عليهِ في جماعةٍ من الشعراء فغضب وقال للآذن عند ذكرِ الأخطل « أعزب بهِ [٤] أولَيسَ هو القائل

فلستُ بصائم رمضان عَمري   واستُ بآكل لحمَ الأضاحي [٥]

---

١ المزّاء الخمر فيها مزازة يشير الى عربدتهم اذا سكروا ٢ تناهت انتهت ومخزية عيب واراد بمضر قبائل مضر ٣ علّني سقاني ٤ ابعد بهِ ٥ الاضاحي جمع اضحيّة وهي الشاة يضحّى بها

ولست بزاجرٍ عنساً بُكوراً الى بطحاءِ مكّةَ للنجاحِ [١]
ولست بقائمٍ كالعيرِ يدعو قُبَيلَ الصبح حَيّ على الفلاحِ
ولكني سأشربها شَمولاً واسجد عند مُنبلج الصباحِ [٢]

وكان الأخطل منقاداً لرجال الدين يصغي إلى تقريعهم وتأديبهم بغاية الخضوع والخنوع [٣] ويستخذي [٤] لهم وكثيراً ما حبسهُ القس في الكنيسة لتطاولهِ على أعراض الناس وهو يتواضع لهُ ولا يتجاسر على النشوز [٥] واذا قيل لهُ في ذلك يقول « إنهُ الدين انهُ الدين ... »

غير أنهُ ان صحّ ما روى عنهُ صاحب الأغاني من تطليقهِ امرأتهُ وتزوّجهِ بامرأة طالق كانت نصرانيتهُ على جانب من الغرابة والتساهل في أمور الدين الجوهرية وذلك دليل جليّ أن بين تمسّك الانسان بالدين وقوّة الدين عليهِ بوناً شاسعاً [٦] لا يخفى على ذي بصيرة. والله اعلم.

أَلفَرَزْدَق (٧٢٩)

هو أبو فِراس همام بن غالب بن صعصعة التميميّ من فحول الشعراء المقدمين ذوي الصيت الذائع والشهرة الواسعة. قال الشعر وهو حديث السن ففرح ابوهُ وجاء بهِ الى عليّ بن أبي طالب فقال له علي « علمهُ القرآن» فكان ذلك في نفس الفرزدق فقيّد نفسهُ وآلى [٧] ان لا يحلّ قيدهُ حتى يحفظ

---

١ زجرهُ صاح بهِ والعنس الناقة الصلبة الفتية والبكور الخروج بكرة ٢ الشمول الباردة من الخمر ومنبلج الصباح زمان انبلاجهِ اي اشراقهِ ٣ الذلّة ٤ تخضع ٥ العصيان ٦ مسافة بعيدة ٧ أقسم وحلف

القرآن. ثم عاد الى النظم فبرع فيه وفاق وكان يختار في شعره قصار القصائد فقيل لهُ في ذلك فقال «لأني رأيتها أثبت في الصدور وفي المحافل أجول» وله الأبيات السائرة التي يضرب بها المثل ومنها قولهُ:

وكنا إذا الجبار صعّر خدَّهُ ضربناهُ حتى تستقيمَ الأخادعُ[1]

وقولهُ:

وكنت كذئب السوء لما رأى دماً بصاحبهِ يوماً أحال على الدمِ

وقولهُ:

ترى كلَّ مظلوم إلينا فرارهُ ويهرب منا جهدَهُ كل ظالمِ

وقولهُ وهو على ما قيل أفخر بيتٍ قالتهُ العرب:

ترى الناسَ ان سرنا يسيرون خلفنا وان نحن أومأْنا الى الناس وقفوا

وهذا البيت الأخير من سرقاته لأنهُ كان اذا سمع بيتاً عائراً[2] جيّداً يقول لصاحبهِ «لتتركنَّ هذا البيت لي او تترك عرضك» فيضطر القائل المسكين ان ينزل لهُ عنهُ خوفاً من العار والفضيحة. لأن الفرزدق كان فاسد الاخلاق بذيء[3] الكلام فاحش النطق خبيث الهجو متباهياً بمخازيهِ مكثراً من ذكر الخلاعات في شعره خالع العذار بيّيء المنظر والمخبر. واشتهر بالقذع[4] حتى خافهُ الناس وأصبح كلٌّ يتفادى[5] من قذائف لسانهِ الشرير ويبذل النفس والنفيس اتقاءَ القاذورات[6] الهائلة التي كان يقدم على رمي

١ الجبار القاهر والمتكبر وصعّر أمال كبراً وتيهاً والأخادع جمع أخدع وهو عرق في صفحتي العنق ٢ سائر بين الناس ٣ سفه فاحش ٤ القذر والفحش ٥ يتحامى ٦ الفواحش

خصمه بها . وجرت له مع ابنة عم له تُدعى النوار وقائع غريبة واحتال عليها فارادت منافرته إلى ابن الزبير فلم يجرؤ أحد ان يكربها خوفاً منه. ورضيت بعد خطب طويل أن تتخذه بعلاً غير أنها كرهت العيشة معه وطلبت الطلاق فلم يكن من يتجرَّأ على الشهادة خوفاً من شرّ زوجها وخبث قوله. وطلقها أخيراً وما عتّم أن ندم وله فيها شعر كثير منه:

ندمتُ ندامة الكسعيّ لما غدت مني مطلقةً نَوارُ[1]
وكانت جنّتي فخرجت منها كآدمَ حين أخرجهُ الضِرارُ[2]
وكنت كفاقئٍ عينيه عمداً فأصبح ما يضيء له نهارُ

وكان الفرزدق شيعيّا مغالياً شديد التعصّب لأهل بيت النبيّ. وله في مدح عليّ بن الحسين الملقب بزين العابدين[3] قصيدة غرّاء طائرة الصيت هي عنوان البلاغة الرائعة ولباب الفصاحة العربيّة. أنشدها في وجه هشام بن عبد الملك يوم حج وطاف بالبيت وأراد ان يستلم الحجر الاسود فلم يصل إليه لكثرة الزحام فنصب له كرسي وجلس عليه ينظر الى الناس ومعه جماعة من أعيان أهل الشام. فبينما هو كذلك إذ اقبل زين العابدين فطاف بالبيت فلما انتهى الى الحجر الأسود تنحّى له الناس حتى استلمه فقال رجل من أهل الشام لهشام « من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة » فقال هشام « لا أعرفه » مخافة أن يرغب فيه أهل الشام. وكان الفرزدق حاضراً فقال « أنا أعرفه » فقال الشاميّ « من هو يا أبا فراس » فأنشد الفرزدق:

---

١ الكسعيّ هو غامد بن الحرث يضرب به المثل في الندامة لانه رمى عيراً ليلاً بأسهم كانت معه فظن أنه أخطأها فكسّر قوسه وعند الصباح أبصر أسهمه مضرّجة بالدم والحمر مطرّحة مصرّعة فندم فقطع ابهامه ٢ الضرار مصدر ضارّ اي خالف ٣ هو حفيد علي بن أبي طالب

هـذا الذي تعرف البطحاء وطأتَهُ والبيتُ يعرفهُ والحِلُّ والحرمُ[١]
هـذا ابن خير عبـاد الله كلّهمُ هذا التقيُّ النقيُّ الطاهر العلمُ[٢]
هذا ابن فاطمةٍ ان كنت جاهلَهُ بجدّهِ أنبياء الله قـد خُتموا
وليس قولك «من هـذا» بضائره العُربُ تَعرف من انكرتَ والعجمُ[٣]
سهلُ الخليقـة لا تُخشى بوادرُهُ يزينهُ اثنان حسنُ الخَلْق والشيَمُ[٤]
حمّـالُ أثقال أقوامٍ اذا فُدحوا حلوُ الشمائل تحلو عندهُ نَعَمُ[٥]
مـا قال لا قطّ إلاّ في تشهّـدهِ لولا التشهُّدُ كانت لاءَهُ نَعَمُ[٦]
إذا رأتهُ قريشٌ قال قائلهـا الى مكارم هذا ينتهي الكرمُ
عمَّ البريَّةَ بالاحسان فانقشعت عنها الغياهبُ والاملاقُ والعدمُ[٧]
يُغضي حياءً ويُغضى من مهابتهِ فما يكلَّمُ الا حينَ يبتَسِمُ[٨]
ينشقُّ ثوبُ الدجى عن نور غرّتهِ كالشمس تنجابُ عن اشراقها الظُلَمُ[٩]
من معشرٍ حبُّهم دينٌ وبغضهمُ كفرٌ وقربهمُ منجىً ومعتصمُ[١٠]
انْ عُدَّ أهل التقى كانوا أئمتهم أوقيل مَنْ خير أهل الأرض قيل همُ[١١]

---

١ البطحاء الارض المنبطحة التي في وسطها مكة والوطأة موضع القدم والبيت هو البيت الحرام اي مسجد مكّة والحرم ما أحاط بمكّة من الارض الى خطّ معلوم والحلّ ما سوى الحرم من بلاد الله . يريد أن الممدوح تعرفهُ أهل الدنيا قاطبة ٢ العلم السيّد ٣ ضائر مضرّ ٤ الخليقة الطبع والبوارد ما يبدو من الانسان عند الغضب ٥ فدحوا نزلت بهم فادحة اي مصيبة والشمائل الخصال ٦ التشهّد قول المسلم لااله الا الله ولاء اصلها لا مدّت للضرورة وأعربت نعم لانهُ أُريد لفظها ٧ البريّة الخلق وانقشع السحاب انكشف والغياهب الظلمات والاملاق الفقر ٨ أغضى خفض بصره يقول انهُ يغضي بصره من الحياء وهو مع ذلك عظيم الهيبة بحيث لا يرفع الناس اليهِ أبصارهم ولا يقدمون على محادثتهِ الا اذا ابتسم لهم تنشيطاً وايناساً ٩ الدجى الظلام والغرّة الطلعة وانجاب انكشف ١٠ المعتصم مكان الأعتصام اي الالتجاء ١١ أئمة جمع إمام وهو من يؤتم بهِ اي يقتدى

هُمُ الغيوث اذا ما أَزْمَةٌ أزمت والأُسْدُ أُسْدُ الشرى والبأسُ محتدِمُ [١]

وهي طويلة. فغضب هشام وحبسهُ بين مكة والمدينة فقال :

أتحبسني بين المدينة والتي إليها قلوب الناس يهوي مُنيبُها [٢]
يقلّب رأساً لم يكن رأس سيّدٍ وعين لهُ حولاء بادٍ عيوبُها [٣]

وبلغت الأبيات هشاماً فأمر باطلاقهِ . ولما حضرتهُ الوفاة اجتمع حولهُ أهل بيتهِ وفيهم عبيدهُ وكان قد اوصى بعتقهم [٤] بعد موتهِ فأنشأ يقول:

أروني من يقوم لكم مقامي اذا ما الأمرُ جلَّ عن الخطابِ [٥]
إلى من تفزعون إذا حثوتم بأيديكم عليَّ من الترابِ [٦]

فقال لهُ بعض عبيدهِ « الى الله » فأمر ببيعهِ قبل وفاته وأبطل وصيَّتهُ فيهِ ... وهكذا كان أن ذلك الجبان الذي كان يطير قلبهُ هلَعاً [٧] من مجرّد التهويل ختم حياتهُ المنكرة بجسارة على الله سبحانهُ وتعالى وهو على عدَّة الرحيل إليهِ والمثول بين يديهِ

جَرِير (٦٢٩)

هو أبو حزرة جرير بن عطية التميميّ. ولد باليمامة من بلاد نجد وقصد العراق وامتدح الحجاج بن يوسف وكان من فحول الشعراء

---

١ الغيوث جمع غيث وهو المطر والازمة الشدّة والشرى مأسدة يضرب بها المثل ٢ هوى نزل وأناب الى الله رجع اليه وتاب يقول أتحبسني بين المدينة ومكّة التي يسرع بالنزول اليها ذوو القلوب التائبة ٣ باد ظاهر ٤ تحريرهم ٥ جلّ عظم ٦ فزع اليهِ التجأ وحثا عليهِ التراب صبهُ ٧ خوفا

وأصحاب التقدم حادّ اللهجة شديد الشكيمة [١] ذا مشارّة [٢] ومهارّة [٣] ولم تزل المصاولة [٤] بينهُ وبين شعراء زمانهِ قائمة على قدم وساق . وكان ينهشهُ ثلاثة واربعون شاعراً فينبذهم [٥] وراء ظهرهِ ويرمي بهم واحداً واحداً ولم يثبت لهُ غير الفرزدق والاخطل ولهُ معهما مهاجاة ونقائض [٦] كثيرة تناقلتها الألسن وأصبحت الشغل الشاغل لشعراء الزمان فنهم من تحزَّب لهذا ومنهم من تعصّب لذاك. وكثرت الجلبة وجرير ثابت في الميدان يقارع ويدافع وهؤلاء الثلاثة هم زعماء الشعر في عصرهم لا يجرؤ أحدٌ أن يفضّل أحدهم على صاحبيهِ خوفاً من الفضيحة وكان كلما سُئل أديبٌ عنهم يجيب بما يرضي الثلاثة كقول بعضهم وقد سُئل عنهم « أما جرير فيغترف من بحر واما الفرزدق فينحت من صخر واما الاخطل فيجيد المدح والفخر » ويقال انّ جريراً أفخر الشعراء في قولهِ :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهمُّ غِضابا

واتّصل الهجاء بينهُ وبين عُبيد الراعي النميريّ وهو من زعماء قومهِ فهجاهُ جرير بقصيدة مطلعها :

أقلّي اللوم عاذلَ والعتابا وقولي ان أصبتُ لقد أصابا [٧]

وهي طويلة ختمها بقولهِ الشهير وهو أهجى بيت :

فغُضَّ الطَرْفَ إنك من نُمير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

---

١ الأنفة ٢ مخاصمة ٣ هارّهُ هرَّ في وجههِ كما يهر الكلب والاسم المهارّة ٤ المنازعة ٥ يطرحهم ٦ قصائد يناقض بها الشعراء بعضهم بعضاً ٧ عاذل مرخم عاذلة وأصاب لم يخطئ الغرض

فخزاهُ وأفحمهُ وتشاءمت بالراعي قبيلتهُ وسبّوهُ. ودخل يوماً على عبد الملك فأنشدهُ مدحة مطلعها :

أتصحو أم فؤادك غير صاحي ... عشيّةَ همَّ صَحبُكَ بالرواحِ[1]

ولما وصل إلى قولهِ :

ألستم خيرَ من ركبَ المطايا ... وأندى العالمين بطون راحِ[2]

استوى عبد الملك جالساً وكان متكئاً وقال « من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو فليسكت ». إلاّ أن جريراً لم يكن كبير الحظوة في بلاط دمشق لمكان الاخطل من قلوب الخلفاء حتى ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز فحظي عندهُ وقرّبهُ ومن قولهِ يمدحهُ :

انّا لَنرجو اذا ما الغيث أجلَفَنا ... من الخليفة ما نرجو من المطرِ[3]

نال الخلافة اذ كانت لهُ قَدَراً ... كما أتى ربَّهُ موسى على قدرِ[4]

أأذكر الجهدَ والبلوى التي نزلت ... ام تكتفي بالذي بُلّغتَ من خبري[5]

ما زلت بعدكُمُ في دارٍ تَعرّقني ... قد طال بعدك إصعادي ومنحدَري[6]

لا ينفع الحاضرُ المجهودُ باديَنا ... ولا يجود لنا بادٍ على حضرِ[7]

كم بالمواسمِ من شعثاءَ أرملةٍ ... ومن يتيمٍ ضعيف الصوت والبصرِ[8]

يدعوك دعوةَ ملهوف كأنَّ بهِ ... خَبَلاً من الجن اومسّا من البشرِ[9]

---

١ همّ نوى واراد والرواح الذهاب مساء ٢. المطايا جمع مطيّة وهي الركوبة وأندى اسخى والراح جمع راحة وهي باطن الكف ٣ الغيث المطر وأخلفنا أطمعنا في النزول ثم نكص عنهُ ٤ القَدَر قضاء الله وحكمه ٥ الجهد المشقّة والبلوى المصيبة ٦ تعرق العظم نزع ما عليه من اللحم ٧ البادي ساكن البادية والحاضر ساكن الحضر اي المدن ٨ المواسم الأسواق والشعثاء المنتشرة الشعر ٩ الملهوف المظلوم او الحزين والخبل بالسكون لغة في الخَبل بالفتح اي الجنون ومثلهُ المسّ

ممّن يعدُّك تكفي فقرَ والدهِ كالفرخ في العشّ لم ينهض ولم يطرِ

ذو ٱلرُّمَّة (٧٣٦)

هو أبو الحارث غيلان بن عقبة الملقب بذي الرمة . قيل انهُ اجتاز يوماً بخباء ميّ بنت مقاتل فاستسقاها فأتتهُ بماء وكانت على كتفهِ رُمّة[١] فقالت لهُ « اشرب يا ذا الرمّة » فلقب بذلك ولهُ في ميّ هذهِ شعر كثيرٌ وهو من محسني الشعراء ظريف القول حسن التشبيه وكان يقول « اذا قلتُ (كأنهُ) ولم أجد مخرجاً فقطع الله لساني » وكان مطلعاً على غريب كلام العرب كثير الاستعمال لهُ بدوي الاسلوب في نظمهِ . وقد قال بعضهم وهو لا شك من المولعين بغريب الكلام « إن ديوان ذي الرمّة يحوي ثلثي لغة العرب » ومن شعرهِ قولهُ يصف الثور الوحشي وقتاله لكلاب الصيد التي هاجتهُ :

ضمَّ الظلامُ على الوحشيِّ شَملتَهُ ورائحٌ من نِشاصِ الدلوِ منسكبُ[٢]
يغشى الكِناسَ برَوْقيهِ ويهدِمهُ من هائلِ الرملِ مُنقاضٌ ومنكثبُ[٣]
إذا أراد انكراساً فيهِ عنَّ لهُ دون الأَرومةِ منْ أطنابها طُنُبُ[٤]
وقد توجّس رِكزاً مُقفِرٌ نَدُسٌ بِنَبْأَةِ الصوتِ ما في سمعهِ كَذِبُ[٥]

---

١ قطعة من الحبل البالي ٢ الوحشيّ صلة للثور والشملة كساء يشتمل بهِ اي يلتف والرائح المطر والنشاص السحاب المرتفع ٣ الكناس بيت الثور الوحشي والروق القرن وهائل الرمل الساقط منهُ ومنقاض منهدم ومنكثب مجتمع ٤ الانكراس الدخول وعن لهُ عرض والأرومة الاصل والاطناب أعراق الشجر واحدها طنب بضمتين ٥ توجّس سمع والركز الصوت ومقفر منفرد وندس فطن وكلاهما صفة للصياد والنبأة الصوت الخفيّ

فبات يُشئِزُهُ ثأدٌ ويُسهِرُهُ — تذوُّبُ الريحِ والوسواسُ والهضَبُ ١

حتى إذا ما انجلى عن وجهه فَرَقٌ — هاديهِ في أُخرَياتِ الليلِ مُنتصِبُ ٢

أغباشُ ليلٍ تمامٍ كانَ طارقَهُ — تَطَخطُخُ الغيبِ حتى مالهُ جُوَبُ ٣

ولاحَ أزهرُ معروفٌ بنُقبتهِ — كأنهُ حينَ يعلو عاقراً لَهَبُ ٤

هاجت بهِ عُوجٌ زُرقٌ مخصَّرةٌ — شوازبٌ لاحَها التقريبُ والخبَبُ ٥

جُرْدٌ مهرَّتَةُ الأشداقِ ضاريةٌ — مثلُ السراحين في أعناقها العَذَبُ ٦

ومُطعمُ الصيدِ هبَّاشٌ لبغيتهِ — ألفى أباهُ لذاك الكَسْبِ يكتسِبُ ٧

مقزَّعٌ أطلسُ الأطمارِ ليس لهُ — إلا الضراءَ وإلا صيدَها نَشَبُ ٨

فانصاع جانبُهُ الوحشيُّ وانكدرت — يلحبنَ لا يأتلي المطلوبُ والطلَبُ ٩

حتى اذا دوَّمَتْ في الارضِ راجعَهُ — كِبرٌ ولو شاءَ نجّى نفسهُ الهرَبُ ١٠

---

١ يشئزهُ يقلقهُ والثأد الندى وتذوُّب الريح اختلافها من الجهات والوسواس حركة الشجر والهضب جمع هَضبة بالفتح وهي رفع المطر ٢ الفرق الصبح وهاديه أوله ٣ الأغباش ظلم الليل وتمام طويل وطارقه جعل بعضهُ على بعض وتطخطخ ظلام والجوب جمع جوبة بالفتح وهي ما انكشف من السحاب والفرجة بين السحاب ٤ لاح ظهر والأزهر الابيض والنقبة اللون والعاقر الرملة التي لا تنبت شيئاً واللهب والالتهاب وهو حمرةٌ وبياض ويحمل انه يريد بهِ السحاب او يعني بهِ الثور ٥ هاجت أُولعت وعوج جمع أعوج وهو السّيء الخلق صفة للكلب وزرق مخصّرة ضامرة البطون من الجوع والشوازب الضمر ولاحها غير الوانها والتقريب والخبب ضربان من السير قليل السرعة وسريع ٦ جرد جمع أجرد وهو القصير الشعر والمصقول ومهرّته الأشداق واسعتها والسراحين الذئاب والعذب جلدة مستطيلة ٧ الهبّاش الكثير الكسب والجمع صفة للصياد ٨ مقزّع قليل الشعر وأطلس أغبر والأطمار الثياب البالية مفردها طِمر بالكسر ونشب مال والضراء الكلاب الضارية ٩ فانصاع انحرف وجانبهُ الوحشي اي الجانب الأيمن سمّي كذلك لانهُ لا يركب منهُ الراكب وانكدرت أسرعت ويلحبن يؤثرن (اي الكلاب) في الارض من شدّة الجري ولا يأتلي لا يقصّر والمطلوب الثور والطلب الكلاب ١٠ دوّمت دارت والهاء في راجعهُ عائدة الى الثور

فكفَّ عن غَرْبهِ والغُضفُ تسمعُها خلفَ السبيبِ من الاجهادِ تنتحبُ [١]

حتى اذا أدركتهُ وهــو منخرقٌ وكاد يُمكنُها العرقوبُ والذنبُ

فكرَّ يمشُقُ طعناً في جواشنها كأنهُ الأجرُ في الاقتالِ يُحتسَبُ [٢]

بلَّتْ بهِ غيرَ طيّاشٍ ولا رعِشٍ إذ جُلنَ في معركٍ يُخشى به العطَبُ [٣]

فتارةً يخِضُ الاعناقَ عن عُرُضٍ وَخضاً وتنتظمُ الأسحارُ والحُجُبُ [٤]

يُنحي لها حدَّ مدريٍّ يجوفُ بهِ حالاً ويصلِدُ حالاً لهذمٌ سَلِبُ [٥]

حتى إذا كرَّ مجحوراً بنـــافذةٍ وراءَها وكلا رَوقيهِ مختضِبُ [٦]

ولّى يهُدُّ انهزاماً وسطَها زَعِلاً جَذلانَ قد أفرخَتْ عن رَوعهِ الكُرَبُ [٧]

كأنهُ كوكبٌ في اثرِ عِفريــــةٍ مسوَّمٌ في سوادِ الليلِ مُنقضِبُ [٨]

فهنَّ من واطئٍ يثني حَويّتَهُ وناشجٍ وعواصي الجوفِ تنشخِبُ [٩]

وسأل يوماً الفرزدق وقد وقف عليه وهو ينشد «كيف ترى ما تسمع

---

١ غربهُ جريهُ والغضف من الكلاب المثنيّة الآذان والسبيب الذنب والاجهاد شدّة الجري وتنتحب اي تصيح ٢ كرّ رجع ويمشق يسرع والمشق السرعة في الطعن والكتابة والجواشن الصدور والأجر الجزاء والأقتال الاعداء مفرد قتل بالكسر ٣ بلّت ظفرت والطيّاش القليل التثبّت والرعش الجبان والعطب الهلاك ٤ تارة مرّة ويخض مضارع وخض اي طعن وعرض ناحية وتنتظم تُنظم وتشكّ والاسحار جمع سحر بالفتح وهي الرئة والحُجُب جمع حجاب وهو حجاب القلب ٥ ينحي يصرف والمدريّ القرن ويجوف يطعن أجوافها وحالا مرّة ويصلد ينبو اذا وقع في العظم ولهذم حادّ من صفات القرن وسلب دقيق ٦ كرّ عطف والنافذة الطعنة والمجحور الملجأ الى جحرهِ اي حفرتهِ والروق القرن ومختضب مصبوغ ٧ يهدّ يُسرع والزعل النشط وجذلان فرحان وأفرخت انكشفت وروعهُ نفسهُ وكرب جمع كربة وهي المخافة ٨ كانهُ الضمير يعود الى الثور وعفرية جني ومسوّم معلم ومنقضب منقض ٩ فهن الضمير يعود الى الكلاب. واطيء ماش على الارض ويثني يرجع وحويّته ما تحوى أي تلوى من أمعائهِ اثر الطعن وناشج باكٍ من النشيج وهو الصوت وعواصي الجوف هي العروق التي لا ينقطع دمها وينشخب أي تسيل

يا أبا فراس» فقال «ما أحسن ما تقول» قال «فمالي لا اذكر من الفحول» قال «قصّر بك عن غايتهم بكاؤك للدمن وصفتك للظُعُن[١]» وكذلك كان فانه أجاد الغزل وصفة الابل والطلول وسائر الأغراض البدويّة ولم يُحسن المدح ولا الهجاء. ولما حضرتهُ الوفاة قال:

يارب قد أشرفت نفسي وقد علمت علماً يقيناً لقد أحصيت آثاري
يا مُخرجَ الروح من جسمي اذا احتُضرت[٢] وفارجَ الكربِ زحزحني عن النارِ

زِيَادُ ٱلْأَعْجم (٧٤٥)

هو أبو أُمامة زياد بن سليمان الملقب بالاعجم لأرتضاخه لكنة العجميّة[٣]. كان شاعراً جزل الشعر فصيح الألفاظ على لكنة لسانه. قيل إنهُ كان ينزل إصطخر فغلبت العُجمة على لسانه. ومن أمثلة لفظه الاعجميّ إنشادهُ للمهلب بن المغيرة مادحاً:

فتى زادهُ السلتان في الهمد رغبةً إذا غيّر السلتان كل جليلِ

يريد «السلطان والحمد» ومن بديع شعره قولهُ في رثاء المهلّب بن المغيرة:

قل للقوافلِ والقَريِّ إذا قَرَوا والباكرينَ وللمُجدِّ الرائحِ[٤]

---

١ الدمن آثار الدار مفردها دمنة والظعن جمع ظعينة وهي المرأة في الهودج ٢ حضرها الموت ٣ يقال فلان يرتضخ لكنة أعجمية اذا نشأ مع العجم ثم صار الى العرب فهو ينزع الى العجم في الفاظ ولو اجتهد ٤ القري الكثير القرى للضيف والرائح الذاهب مساء

ان المروءةَ والسماحةَ ضُمّنا قبراً بمَرْوَ على الطريقِ الواضحِ [١]
فاذا مررتَ بقبرهِ فاعقرْ لــهُ كُومَ الهجانِ وكلَّ طِرفٍ سابحٍ [٢]
وانضحْ جوانبَ قبرهِ بدمائها فلقد يكون أخا دمٍ وذبائحِ
مات المغيرةُ بعــد طولِ تعرضٍ للموتِ بين اسنّةٍ وصفــائحِ [٣]

وقولهُ في عبد الله بن الحشرج :

ان السماحة والمروءة والندى في قُبّةٍ ضُربت على ابن الحَشرجِ
ملكٌ أغــرُّ متوَّجٌ ذو نــائلٍ للمعتفين يمينُـــهُ لم تشنَّجِ [٤]
يــا خيرَ من صعد المنابرَ بالتُّقى بعــد النبيِّ المصطفى المتحرّجِ [٥]
لمـــا أتيتك راجياً لنوالــكم ألفيت بابَ نوالــكم لم يُرتَجِ [٦]

وكان في دارهِ مع قوم على الشراب اذ سجعت حمامة ألفت منزلهُ فقال:

تغنّي أنت في ذِممي وعهـــدي وذمّةِ والدي إن لم تُطاري [٧]
وبيتَكِ فأَصلحيهِ ولا تخــافي على صُفرٍ مزغّبةٍ صغـــارِ [٨]
فـــانكِ كلّما غنيتِ صوتـــاً ذكرت أحبتي وذكرت داري
فامّـــا يقتلوكِ طلبتُ ثــأراً لهُ نبــأٌ لأنكِ في جـــواري

وشعرهُ كلهُ من هذا الطراز الحسن. وكان مهيب الجانب في الهجاء حتى خافهُ الفرزدق نفسهُ

---

١ السماحة الجود ومرو بلدة بالعراق على شط الفرات والواضح الجليّ الظاهر ٢ كوم جمع اكوم وهو المرتفع الضخم السنام والهجان من الابل البيض الكرام والطرف الفرس ٣ اسنه جمع سنان وهو نصل الرمح والصفائح السيوف العريضة ٤ النــائل العطيّة والمعتفون الطالبون المعروف وتشنج تتقبّض ٥ المتحرج المتجنب للاثم ٦ يرتج يغلق ٧ أطارهُ نفّرهُ وجعلهُ يطير ٨ مزغّبة ذات زغب وهو صغير الريش يعني بهــا فراخ الحمامة

حمَّاد الرَّاوِية (٧٨١ م ١٥٦ هـ)

هو أبو ليلى حماد بن ميسرة . كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها واشعارها وأنسابها ولغاتها. وكان في أول أمرهِ يتشطّر[1] ويصحب الصعاليك واللصوص فنقب ليلة على رجلٍ وأخذ مالهُ وكان فيهِ جزء من شعر الأنصار فقرأهُ فاستحلاهُ و تحفّظهُ ثم طلب الأدب والشعر وأيّام الناس ولغات العرب وترك ما كان عليهِ فبلغ في العلم ما بلغ وهو الذي جمع المعلّقات السبع. قيل ان الوليد بن يزيد قال لهُ يوماً « بِمَ استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية » فقال « بأني أروي لكلّ شاعرٍ تعرفهُ يا أمير المؤمنين أو سمعت بهِ ثم أروي لأكثر منهم ممّن تعرف انك لا تعرفهُ ولم تسمع بهِ » فقال « فكم مقدار ما تحفظ من الشعر » قال « أنشدك على كلّ حرف من حروف المُعْجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطّعات من شعر الجاهلية دون شعر الاسلام » فا متحنهُ الوليد وأمرهُ بالانشاد فأنشده حتى ضجر فوكل بهِ من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفي عليهِ فأنشدهُ ألفين وتسع مئة قصيدة للجاهليين فأمر لهُ الوليد بمئة ألف درهم

وكانت ملوك بني أميَّة تقدّمهُ وتؤثرهُ وتستزيرهُ فيغدو عليهم وينادمهم ويسألونه من ايام العرب وعلومها ويجزلون صلتهُ. ولم يكن لهُ كبير حظٍّ مع بني العباس من بعدهم. ويؤخذ عليه في روايتهِ قلّة الأمانة فانه كان ينحل[2] من يروي لهم ابياتاً من عندهِ فيفسد شعر القدماء ولا يتميّز

[1] يعجز الناس خبثاً ودهاء [2] نحلهُ القول نسبهُ اليهِ كذباً

الصحيح منهُ الاعند عالمٍ نقّاد يندر وجودهُ غالباً . وكان حماد شريراً خبيثاً مدمناً للخمرة متّهما في دينهِ يُرمى بالزندقة .

الأَحْوَص (٧٩٦ م ١٨٠ ﻫ)

هو أبو محمد عبد اللهِ بن محمد الأنصاري المعروف بالأحوص[١] من متقدّمي الشعراء وفصحائهم سهل الكلام صحيح المعنى ولشعرهِ رونق وديباجة صافية وعذوبة الفاظٍ . كان دنيء الأخلاق والأفعال خالع العذار هجّاءً لم ينجُ أحد من شرّهِ حتى أنهُ هجا قومَهُ ونفسهُ واضطرّت خبائثهُ وقبائحهُ سليمان بن عبد الملك ان يحدّه مئة سوط ويشهّرهُ وينفيهُ إلى جزيرة دَهْلك ونوى هناك مدّة سليمان وعمر بن عبد العزيز ولم يُطلق سبيلهُ إلاّ في سلطان يزيد بن عبد الملك وقد سمع جارية لهُ تغنّي أبياتاً عملها الأحوص في مدحهِ منها :

كرمُ قريشٍ حينَ يُنسب والذي ... أقرّت لهُ بالملْكِ كهلاً وأمردا[٢]
وليس وإن أعطاكَ في اليوم مانعاً ... اذا عدتَ من أضعاف إعطائهِ غدا
أهان تلادَ المال في الحمد إنهُ ... امامُ هدى يجري على ما تعوّدا
تشرّف مجداً من أبيهِ وجدّهِ ... وقد ورثا بنيانَ مجدٍ تشيّدا

ومع ما يذكر من مكثهِ في منفاهُ أيام عمر فانهم يروون لهُ مدحاً أنشده

---

١ الضيّق مؤخر العين ٢ الكهل من تراوح عمرهُ بين الثلاثين والخمسين والأمرد الشاب طرّ شاربهُ ولم تنبت لحيتهُ

اياها بعد ما ولي الخلافة وكان عمر قد أقصى الشعراء وأنكر إعطاءَهم من بيت المال وصعب دخولهم عليهِ فلما دخل الأحوص وأُذن لهُ أنشدهُ

وما الشعر الا خطبةٌ من مؤلّفٍ بمنطق حقٍّ او بمنطق باطلِ
فلا تقبلَنْ الاَّ الذي وافق الرِضى ولا ترجعَنّا كالنساء الاراملِ
رايناك لم تعدلْ عن الحقّ يمنةً ولا يسرةً فعلَ الظلوم المجادل
ولكن أخذت القَصْدَ جُهدكَ كلّهُ وتقفو مثالَ الصالحين الأوائلِ [١]
فان لم يكن للشعر عندك موضعٌ وان كان مثلُ الدرِّ من قول قائلِ
فانّ لنا قربى ومحضَ مودّةٍ وميراثَ آباءٍ مشَوْا بالمناصلِ [٢]
فذادوا عدوَّ السِلم عن عُقرِ دارهم وأرسَوْا عمود الدينِ بعد تمايلِ [٣]
فكلٌّ الذي عددت يكفيك بعضُهُ ونَيلُك خيرٌ من بحورٍ سوائلِ

ولهُ في مدحهِ أيضاً قبل خلافتهِ قصيدة شهيرة مطلعها

يا بيتَ عاتكةَ الذي اتعزَّلُ حذَرَ العدى وبهِ الفؤاد موكَّلُ [٤]

وهي طويلة منها في مدح عمر

ماضٍ على حدث الامور كأنهُ ذو رونقٍ عضبٌ جلاهُ الصَّيقلُ [٥]
تُبدي الرجالُ اذا بدا إعظامَهُ حذَرَ البغاثِ هوى لهنَّ الأجدلُ [٦]
فيرون ان لهُ عليهم سَورةً وفضيلةً سبقت لهُ لا تجهلُ [٧]
متحمّلٌ ثِقلَ الأمور حوى لهُ سبْقُ المكارم سابقٌ متمهّلُ

---

١ القصد الاستقامة وتقفو تتبع ٢ المناصل السيوف ٣ ذاد أبعد ودافع وعقر الدار وسطها وأرسى وطد ٤ عاتكة علم امراة وتعزل المكان ابتعد عنهُ ٥ العضب السيف والصيقل الذي يجلو السيوف اي يزيل عنها الصدأ ٦ البغاث صغار الطير والأجدل الصقر وهو من الطيور الجارحة ٧ السورة السطوة

وله إذا نُسبت قريشٌ منهمُ   مجدُ الأَرومة والفَعالُ الأفضلُ[١]
ولقد بدأتُ أُريد ودَّ معاشرٍ   وعدوا مواعدَ أُخلفت ان حصّلوا[٢]
حتى اذا رجع اليقينُ مطامعي   يأساً وأخلفني الذين أُؤمّلُ[٣]
زايلتُ ما صنعوا اليك برحلةٍ   عجلى وعندك عنهم متُحوَّلُ[٤]
ووعدتني في حاجةٍ فصدقتني   ووفيتَ إذ كذبوا الحديثَ وبدّلوا
واراك تفعلُ ما تقولُ وبعضُهم   مَذِقُ الحديث يقولُ مالا يفعلُ[٥]

أَلخُطَبَاء

لما كانت أيام بني أُمية أيام حروب وفتوح في الخارج وفتوق[٦] وخروج خوارج في الداخل اقتضى تأييد الملك استنهاض الهمم على القتال والمكافحة وحض القوم على كبح جماح[٧] الثائرين واخضاعهم. وذلك لا يتأتى الاّ باقناع الناس وحملهم عن طيبة خاطر منهم على ممالأة السلطان ومعاضدته[٨] بنفوسهم. فنبغ من ثم في ذلك العهد عدّة خطباء لهم في بلاغة القول المكانة الرفيعة أَلقَوْا في قومهم الخطب الحماسية الشديدة اللهجة وتملكوا عقولهم وقلوبهم بساحر بيانهم وصرفوهم فيما شاءوا واكثرهم من امراء الجيوش السائرة الى ملاقاة العدوّ والعمال المنفذين[٩] من قبل الخلفاء الى البلاد الخارجة عليهم لردّ أهلها إلى الطاعة ومن إليهم من

١ الأرومة الاصل والفعال الفعل الحسن والكرم ٢ أخلفت لم تتمم ٣ أخلفني ردّني الى الوراء ٤ عجلى مسرعة ٥ مذق غير صادق ٦ جمع فتق وهو شقّ عصا القوم واعادة الحرب بينهم ٧ جماح الفرس تغلّب على راكبه ٨ الممالأة والمعاضدة المساعدة والمناصرة ٩ المرسلين

أعوان الملك وخاصّته في الدواوين والمصالح المتفرّقة. وسنذكر أشهرهم صيتاً عند الخلفاء إن شاء الله.

زِياد (٦٧٤م ٥٥هـ)

هو أبو المغيرة زياد بن سميّة المعروف بزياد بن ابيهِ لجهل العرب نسبهُ وحقيقة امرهِ على ما يقال إنهُ ابن رجل روميّ الأصل من موالي ثقيف اسمهُ عُبيد واسم أمهِ سميّة فكان العرب لعدم معرفتهم لابيهِ ينسبونهُ إلى أمهِ او يقولون لهُ (ابن أبيهِ) ولما طَمع معاوية بالخلافة جمع حولهُ دهاة العرب وكان زياد من أذكاهم وأدهاهم وهو مجهول النسب فادعى معاوية انه أخوه لأبيهِ من زواج غير شرعيّ فاستلحقهُ وسمّي زياد منذ حينئذٍ « زياد بن أبي سفيان » وما زال بنوهُ من بعدهِ يعدُّون من قريش كبني أُمية حتى ردّهم المهدي الى نسب عبيد المذكور وصاروا من موالى ثقيف

وكان زياد راجح العقل سديد الرأي عالي الهمّة فصيح المنطق خطيباً مِصْقعاً. قيل ان عمر بن الخطاب وكل إليهِ وهو حدث قضاء مهمّة فقام بها احسن قيام وعاد إليه وعندهُ المهاجرون والأنصار فخطب خطبة لم يسمعوا مثلها فقال عمرو بن العاص « لله درّ هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه » ولهُ عند قدومهِ البصرة خطبة في اهلها تعرف بالبتراء لأنه لم يستهلها بحمد الله منها

« أما بعد فان الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والعمى الموفي [1] بأهلهِ على النار ما فيهِ سفهاؤكم وتشتمل عليه حلماؤكم من الأمور

---

[1] المشرف

العظام لينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرأوا كتاب الله وتستمعوا بما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب العظيم لأهل معصيته ... ما أنتم بالحلماء وقد اتبعتم السفهاء ... اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح لا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف. واني اقسم بالله لآخذن الوليّ بالمولى [١] والمقيم بالظاعن [٢] والمقبل بالمدبر [٣] والصحيح بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه أو تستقيم لي قناتكم [٤] ... وقد احدثتم احداثاً [٥] لم تكن وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة. فمن غرّق قوماً أغرقناه ومن أحرق قوماً أحرقناه ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ومن نبش قبراً دفناه فيه حيّاً ... وقد كانت بيني وبين قوم إحَن [٦] فجعلت ذلك دُبُر [٧] أذني وتحت قدمي فمن كان محسناً فليزدد في إحسانه ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته .:. فربّ مبتئس [٨] بقدومنا سيسرّ ومسرور بقدومنا سيبتئس ...

سُحْبَان (٦٧٤م ٥٥هـ)

هو سحبان بن زُفَر بن أياس الوائليّ من مشاهير خطباء العرب يضرب به المثل في الفصاحة كان نادرة أهل زمانه في الخطابة وقوة العارضة [٩] فكان اذا خطب يسيل عرقاً ولا يُعيد كلمةً ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ من موضوعه لم يندّ [١٠] عن ذاكرته معنى. ودخل يوماً على معاوية وعنده خطباء القبائل فلما رأوه خرجوا لعلمهم بقصورهم عنه فقال :

---

١ السيد بالعبد ٢ الراحل ٣ المولي بالذاهب ٤ القناة عود الرمح واستقامتها كناية عن الطاعة والانقياد ٥ جمع حدث وهو الأمر المنكر الذي ليس معتاداً ولا معروفاً في السنة ٦ جمع إحنة وهي الحقد ٧ خلف ٨ حزين ٩ القدرة على الكلام ١٠ يشرد

لقد علم الحيُّ[1] اليمانون أنني اذا قلت اما بعدُ أني خطيبها

فقال له معاوية «أخطب» فقال «انظروا لي عصا» قالوا «وما تصنع بها وأنت في حضرة أمير المؤمنين» قال «وما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه» فأخذها في يدهِ فتكلم على ما يقال من الظهر الى أن كادت صلاة العصر تفوت ما تنحنح ولا سعل ولا توقف ولا ابتدأ في معنى فخرج منه وقد بقي عليهِ منه شيء ولا مال عن الجنس الذي يخطب فيه. فقال معاوية «الصلاة» فقال «هي امامك ألسنا في تحميدٍ وتمجيد وعظةٍ وتنبيه ووعد ووعيد» فقال له معاوية «أنت أخطب العرب» فقال «العرب وحدها بل أخطب الانس والجن.» ومن خطبة له

«أما بعد فان الدنيا دار ممرّ والآخرة دار مقرّ فخذوا من ممرّكم الى مقرّكم ولا تهتكوا[2] استاركم عند من لا تخفى عليهِ اسراركم وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ففيها حييتم ولغيرها خُلقتم. اليوم عمل بلا حساب وغداً حساب بلا عمل ...»

أَلْحَجَّاج (٧١٦م ٩٨ﻫ)

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي المشهور بالفظاعة والقسوة. كان في أوَّل أمرهِ خامل الذكر فقير الحال إلا أن ماركز في طبعهِ من

---

١ الحيّ البطن (مادون القبيلة) من بطون العرب والیمانیون نسبة الى اليمن.
٢ تخرّقوا وتشققوا

الحذق والدهاء والفصاحة وجّه إليه أنظار روح بن زنباع الجذامي وزير عبد الملك فجعله في شرطته[١] ورأى الخليفة انحلال عسكره فشكا ذلك الى روح بن زنباع فدلّه على الحجاج فقلّده إمرة الجند فردهم الى الطاعة والخضوع. ولما انتقض[٢] اهل العراق على عبد الملك واستفحل أمرهم وأعيوا[٣] عمالهم ارسل اليهم الحجاج أميراً عليهم. فعاملهم بعنفٍ وظلم لم يسمع بمثله فقوّم معوجهم وضبط أمورهم فانقادوا اليه صاغرين رغبة او رهبة كبيرهم وصغيرهم. وكان مقداماً على الفظائع سفّاحاً[٤] غدّاراً فاتكاً فولاذيّ الأحشاء. ألذّ شيء عنده سفك دماء رعيته لا تأخذه بهم رأفة ولا شفقة فعمّت الناس الرهبة والرعبة وكانوا لمجرّد ذكره تطير قلوبهم جزعاً وترتعد فرائصهم فزعاً. قيل لابرهيم النخعيّ «اين كنت حين طلبك الحجاج» قال بحيث يقول الشاعر

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى وصوّت انسانٌ فكدت أطيرُ

وقال له عبد الملك «ما من أحدٍ إلا وهو يعرف عيب نفسه فعب نفسك» قال «أوَ تعفيني» قال «والله لتفعلنَّ» قال «انا لجوجٌ حقودٌ حسودٌ» فقال عبد الملك «ما أظنّ في الشيطان أكثر من هذا» وكان تذلّله وضراعته[٥] لعبد الملك على قدر كبره وظلمه لرعيته

وللحجاج خطب شهيرة هي غاية في البلاغة تدلّ على دربة في فن الخطابة وحنكة نادرة وملكة معجزة. وكانت اقواله تنقضّ على سامعيه كالصواعق القاصفة فتنخلع لها قلوب الشجعان وتخور منها قوى الخوارج الاشدّ جراءة وبطشا. قيل انه لما ولي العراق ودخل الكوفة لأول مرّة صعد المنبر متلثما متنكباً قوسه فجلس واضعاً ابهامه على فيه فاحتقره

---

١ رجال الضبط ٢ استعصى ٣ أعجزوا ٤ سفّاكا للدماء ٥ تدنؤه

الناس وكادوا يحصبونه[١] كفعلهم بالولاة من قبله. فلما غصّ المجلس بأهله حسر[٢] عن وجهه ثم قام ونحّى عن رأسه وقال:

« أنا ابن جَلا وطلاّعُ الثنايا متى أضعِ العِمامةَ تعرفوني[٣]

اني والله لأرى ابصاراً طامحة واعناقاً متطاولة ورؤوساً قد أينعت وحان قطافُها واني لصاحبها. وكأني أنظر الى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ·

هذا أوانُ الحربِ فاشتدّي زِيَمْ قد لفّها الليل بسوّاقٍ حُطَمْ[٤]
ليس براعي ابـلٍ ولا غَنَمْ ولا بجزّار على ظهرِ وَضَمْ[٥]

الا وان أمير المؤمنين عبد الملك نكب كنانتهُ وعجم[٦] عيدانها فوجدني أصلبها عوداً وأشدّها مكسراً فوجهني اليكم ورماكم بي ... أما والله يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الاخلاق لألحوانكم[٧] لحو العصا ولأعصبنّكم[٨] عصب السَلَمة[٩] ولأقرعنّكم قرع المَروة[١٠] ولأضربنكم ضرب غرائب الابل[١١]. يا أهل العراق عبيد العصا واولاد الاماء انا الحجاج بن يوسف والله ما أحلف الاّ وفيت وما أخلُق الاّ فريت...[١٢]

---

١ يرمونهُ بالحصباء اي صغار الحجارة ٢ كشف ٣ أراد بابن جلا الواضح الامر والثنايا جمع ثنية وهي العقبة في الجبل وطلاع الثنايا اي مقدم على مشاق الامور ٤ الزيم قطع من الابل ما بين الثلاثة والخمسة عشر ولفّها ضمها وجمعها والسّوّاق السائق والحطم الراعي الظلوم للماشية ٥ الجزّار اللحام والوضم خشبة الجزّار يقطع عليها اللحم ٦ الكنانة وعاء النبل ونكب الكنانة قلبها ونثر ما فيها وعجم العود عضه ليعلم صلابته من رخاوته ٧ لحا العصا قشرها ٨ عصب الشجرة ضم ما تفرق من اغصانها ثم خبطها ليسقط ورقها ٩ شجرة ارادوا قطعها عصبوا أغصانها عصباً شديداً حتى يصلوا الى اصلها فيقطعوها ١٠ أصلب الحجارة ويعرف بالصوّان ١١ غرائب الابل هي الابل الغريبة ليست لأهل الواردة (القادمة لورود الماء) فتضرب وتمنع الورود ١٢ خلق الثوب قدره قبل قطعه وفرى قطع يقول لا أشرع في أمر الا إتيت على آخره مهما كان

إياكم وهذهِ الزَرافات [١] والجماعات وقال وقيل وما يكون وما هو كائن وما انتم وذلك؟ لينظر الرجل في أمرِ نفسهِ وليحذر ان يكون من فرائسي... يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين» فقال الكاتب «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان امير المؤمنين الى من بالعراق من المؤمنين سلام عليكم. فاني أحمد الله إليكم...» فصاح الحجاج «اسكت يا غلام» ثم قال مغضباً «يا أهل العراق يا أهل الفرقة والضلال يسلّم عليكم أمير المؤمنين فلا تردُّون عليهِ السلام؟ أما والله لأؤدبكم أدباً سوى هذا الأدب. اقرأ يا غلام الكتاب» فلما بلغ الكاتب السلام قال أهل المسجد «وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاتهُ» ...

ولهُ على هذه النغمة اقوال كثيرة ـ ومن عجيب قوتهِ في التصرف في الكلام انه كان اذا ذكر إحسانهُ الى أهل العراق وتجاوزهُ عن سيئاتهم خُيِّل الى السامع أنهُ صادقٌ في مدعاهُ وان أهل العراق اولئك الذين قتل منهم صبراً [٢] مئة وعشرين الفاً هم الظالمون لهُ المختلقون [٣] عليه الاكاذيب والقبائح ... وفي ذلك دليلٌ على خطورة فن الخطابة والقوة العجيبة التي بيد الخطيب الماهر يصرف بها الاهواء كما شاء. ولما توفي كان في سجنهِ خمسون الف رجل وثلاثون الف امرأة ـ ومن مآثر الحجاج ايعازهُ الى نصر بن عاصم احد كتبتهِ بوضع الاعجام للتمييز بين الاحرف المتشابهة.

---

١ الزرافة الجماعة من الناس مما فوق العشرة الى العشرين ٢ شد ايديهم وارجلهم وحبسهم الى ان ضرب أعناقهم ٣ المتقوّلون

طَارق (٧٢١م ١٠٣هـ)

هو طارق بن زياد مولى موسى بن نصير عامل الوليد بن عبد الملك على أفريقية. كان رجلاً مقداما شجاعاً حسن التدبير أرسلهُ سيدهُ لفتح الاندلس فعبر المضيق الفاصل بين أفريقية واسبانيا ونزل بقومهِ على مقربة جبل هناك فسمّي باسمهِ «جبل طارق» ونحت الافرنج الكلمتين فقالوا جِبْرَلْطار» فزحف اليهِ رُذْريك ملك القوطِ بجيوشهِ وتناجز[١] الفريقان أياماً فدارت الدائرة على رُذْريك وقومهِ وظفر طارق برُذْريك فاحتزّ رأسهُ وبعث بهِ الى موسى سيّدهِ. فدبّت الغيرة في قلبهِ وحسدهُ على ما نال من النصر الباهر والمجد الرفيع فاسترجعهُ وزجّهُ في السجن. وبلغ أمرهُ الوليد فأمر بأطلاقهِ. الا أنهُ لمّا لم يزل الحقد والنفور في ازدياد بين الرجلين استقدمهما الخليفة الى دمشق واهملهما حتى ماتا مرذولين منسيّين

ولطارق خطبة شهيرة في جيشهِ قبل اشتباك القتال شدَّد فيها عزائمهم وأقنعهم أنه ليس لهم الا احدى خطتين الظفر أو الموت ويحكى أنهُ أحرق مراكبهُ إقناطاً لهم[٢] من العود الى الأوطان وقيل أمر بها فردت الى أفريقيه. قال

« أيها الناس أين المفرّ والبحر وراءكم والعدوّ امامكم؟ ... إعلموا انكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام[٣]... ولا وَزَرَ[٤] لكم

---

١ تناجز القوم تبارزوا ٢ قطعاً لرجائهم ٣ المأدبة الوليمة يقول لهم ان حظكم من هؤلاء القوم حظّ أيتام اذلاء دخلوا على لئام بطرين في وليمتهم ٤٠٠ ملجأ

الا سيوفكم... وقد انتخبكم أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ثقةً منهُ بارتياحكم الى الطعان ومجالدة الأبطال والفرسان... واعلموا اني أوّل مجيب إلى ما دعوتكم إليه واني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية[1] القوم لذريق فقاتلهُ ان شاء الله تعالى. فاحملوا معي فان هلكت بعدهُ فقد كُفيتم أمرهُ ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون اموركم إليه. وان هلكت قبل وصولي إليهِ فاخلفوني في عزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليهِ واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتلهِ وقومهُ بعدهُ يخذلون.

عَبْدُ الحميد (٧٥٠م ١٣٢هـ)

هو ابو غالب عبد الحميد بن يحيي مولى بني عامر لُؤَيّ من أهل الشام. كان أولاً معلّم صبية يتنقلَ في البلدان ثم اقبل على الانشاء فبلغ فيهِ مقاماً رفيعاً وشهرة واسعة فاستكتبه[2] مروان بن محمد الملقب بالحمار[3] آخر خلفاء بني أمية ولهُ رسائل كثيرة بديعة تشهد لهُ بطول الباع وعميق التضلّع من فنون الانشاء وكلامهُ عنوان البلاغة والرشاقة وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب وعنهُ أخذ المترسلون[4] ولطريقتهِ لزموا ولآثارهِ اقتفوا[5]. قال ابرهيم الصولي «ما تمنيت كلام أحدٍ من الكتاب قط ان يكون لي مثل كلام عبد الحميد» وحضر مع مروان جميع وقائعه عند آخر أمرهِ. ويُحكى ان مروان حين أيقن بزوال ملكهِ قال لهُ «قد احتجت ان تصير مع

---

[1] العدوّ الجبار [2] قلّدهُ الكتابة في ديوانهِ [3] قيل لقب بذلك لثباتهِ وصبره
[4] كتاب الرسائل [5] أتبعوا

عدوّي وتظهر الغدر لي فان إعجابهم بك وحاجتهم الى كتابتك تحوجهم الى حسن الظن بك فان استطعت أن تنفعني في حياتي والا لم تعجز عن حفظ حرمي بعد وفاتي » فقال لهُ عبد الحميد « إن الذي أشرت بهِ علي أنفع الامرين لك وأقبحهما بي وما عندي الا الصبر حتى يفتح الله تعالى او اقتل معك » ولم يزل يقاتل مع سيدهِ ويشاطرهُ الاهوال والاخطار حتى قُتل معهُ وهلك ضحية الأمانة والصدق والشجاعة . ومن كلامهِ ما كتبهُ على يدِ شخصٍ يوصي بهِ بعض الرؤساء

« حق موصل كتابي اليك عليك كحقهِ علي اذ رآك موضعاً لأملهِ أهلاً لحاجتهِ وقد أنجزت الحاجة فصدّق أملهُ » ومن كلامهِ « القلم شجرة ثمرتها الالفاظ والفكر بحرٌ لؤلؤهُ الحكمة » ومما كتب به الى أهلهِ وهو منهزم

« اما بعد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكرهِ والسرور فمن ساعدهُ الحظ فيها سكن اليها ومن عضتهُ بنابها ذمّها ساخطاً [١] عليها . وقد كانت أذاقتنا أفاويق [٢] استحليناها ثم جمحت بنا نافرة ورمحتنا [٣] مولّية فملُح عذبُها وخشن ليّنُها فأبعدتنا عن الأوطان وفرقتنا عن الاخوان فالدار نازحة والطير بارحة [٤] »

« وقد كتبت الأيام تزيدنا منكم بعداً واليكم وجداً [٥] فان تتمّ البليّة [٦] الى أقصى مدّتها يكن آخر العهد بكم وبنا وان يلحقنا ظفر جارح من أظفار اعدائنا نرجع اليكم بذل الاسار [٧] والذل شرّ جار . أسأل الله

---

١ غاضباً ٢ أفاويق جمع افواق جمع فيقة بالكسر وهي اللبن ٣ جمحت بنا ركبت هواها وغلبتنا ورمحتنا رفستنا ٤ نازحة بعيدة والبارحة من الطيور والوحوش هي الآتية من يمين الناظر اليها الى يساره ٥ الوجد الحبّ ٦ البلية المصيبة اراد بها الموت ٧ الاسار الأسر

الذي يُعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء أن يهب لي ولكم أُلفة جامعة في دار آمنة تجمع سلامة الابدان والاديان فانهُ رب العالمين وأرحم الراحمين »

اللغة

في

الدَّولة العباسية

دالت [١] دولة بني أُميّة ودالت معها سيادة العرب في المملكة الاسلامية عملاً بناموس ردّ الفعل. فان دولة الأُمويين كانت عربية بحتة والزعامة فيها محتكرةٌ [٢] للعنصر العربي بمعزل عما سواهُ. ولم يكتف خلفاء بني امية بتعزيز شأن العرب وايثارهم [٣] على سائر الشعوب الخاضعة لهم مع كثرتهم وتعدد مللهم ونِحَلهم بل افرطوا في التعصب عليهم وازدرائهم الى حدّ يتعدى طور النَصَفة [٤] ويأباهُ العقل السليم. ولعلّ ما استدرجهم الى هذه الخطة الخطِرة هو توهّم العرب على اثر انتقالهم دفعةً واحدة من رعاية الابل الى سياسة الممالك أن في جِبلتهم مزية خاصة ليست فيمن سواهم

---

١ زالت ٢ منحصرة ٣ تفضيلهم ٤ العدل

تجعل السيادة حقـاً لهم والخضوع فرضاً للامم التي عنت[٧] لصولجانهم . فاحتقروا الاعاجم طرًّا حتى الذين اسلموا واصبحوا اخوة لهم في الدين فكيف اهل الذمة من نصارى ويهود

فأدى الامر بغير العرب من مِلّيين وذِمّيين الى النقمة على الدولة الاموية والتذمر مما يسامون[٢] من انواع الذل والجور والتشيع لكل خارج عليها[٣] وبذل النفس والنفيس في سبيل اسقاطها تشفياً من اربابها واثّاراً[٤] من العرب اتباعها ورافعي منارها

ونشأت طائفة تعرف بالشعوبية[٥] انحد ذووها في بغض العرب ونقض مزاعمهم وذكر مثالبهم[٦] وتفضيل سائر شعوب الارض عليهم . وكانوا في ايام بني امية يتسترون فلما اضطرب حبل الدولة الاموية عضد الشعوبية بني العباس وكان ما كان. فدكوا[٧] اركان السيادة العربية وردّوا للعرب اضعاف ما ساموهم من الامتهان[٨] والظلم وآلت السيادة في الدولة العباسية الى العنصر الفارسي لان الفرس هم الذين نزعوا الخلافة من ايدي الامويين وسلموها الى العباسيين. فاستأثروا بالخُطَط[٩] العالية واصبح تدبير المملكة وسياسة شؤونها في ايديهم. على ان الخلفاء لم يزالوا عرباً ولغة الدولة عربية يعنى بها ويتباهى بالتبحر فيها[١٠] والوقوف على اسرارها الاصيل والدخيل

وخلاصة القول ان واقعة الزاب الاعلى كانت الفاصلة بين العرب والفرس . فادرك هؤلاء ثأرهم من خصومهم وشفوا باذلالهم حزازات ربّاها

---

١ خضعت ٢ يحملون ٣ التشيع الموالاة والمتابعة والخارج على السلطان المتمرد عليهِ ٤ تشفى من غيظهِ اذهبهُ واثأر من عدوهِ انتقم منهُ ٥ نسبة الى الشعوب اي كل شعوب الارض ما عدا العرب ٦ معايبهم ٧ هدموا ٨ الاحتقار ٩ الخطط المقامات واستأثروا بها خصوا بها انفسهم دون سواهم ١٠ يتفاخر بالتعمق فيها

في قلوبهم تجبر العرب وأَثَرتهم. واستفحل امر الشعوبية فصاروا بعد التستر يقولون جهراً انهم ليسوا من سلالة ساداتهم الاجلاف[١] بل من عنصر آخر أعلى شرفاً وارقى ادباً وأشهر ذكراً. وتخطوا هم ايضاً حدود الاعتدال فصاروا يدّعون ان العرب أضعف خلق الله عقلاً وأحطّهم مدارك وأقلهم تعويلاً[٢] على انفسهمَ. وان في هذا الانقلاب لعبرة لقوم يعقلون

غير ان هؤلاء الحاملين هذه الحملة الشديدة على العرب كانت اللغة العربية لغتهم ولا وسيلة لهم الى اقامة حججهم وبث[٣] آرائهم ودعاويهم سوى اللغة العربية وهي اذ ذاك لغة الدين والعلم والسياسة. ففاتهم ان اضمحلال[٤] لغاتهم الاصلية على تعددها وبلوغ أكثرها درجة عالية من الرقيّ وحلول العربية محلها كلها برهانٌ قاطع على رئاسة العرب وسِمةٌ[٥] على جباههم لا يمحوها الدهر تذكرهم سيادة اولئك الفاتحين الذين دوخوا[٦] بلادهم وهددوا سائر اقطار المعمور حتى كانت تميد[٧] العروش من وقع اقدامهم وتنخلع لمجرد ذكرهم قلوب المتبوئين ذراها[٨]

وكان العرب لما آلت الخلافة الى بني العباس قد قضوا نهمتهم[٩] من الفتوح وجنحوا[١٠] الى الهدوء ولا سيما بعد ما ارتاحوا من المنازعات على الخلافة بفلّ[١١] جيوش بني امية وتعقب مريديهم وسدّ افواه الداعين الى انفسهم بالسيف والمال. فاخذوا في اجتناء ثمار الظفر ودعتهم الطمأنينة الى التبسط في اطراف الحضارة والاشتغال بالعلوم والصنائع المتداوَلة[١٢] بين الامم الخاضعة لسلطانهم فأقبلوا على تحصيلها اقبالهم على فتح الممالك. فلم يدعوا علماً

---

١ جمع جلف بالكسر وهو الغليظ الجافي ٢ اعتماداً ٣ نشر ٤ فناء ٥ علامة ٦ اخضعوها ٧ تهتز ٨ جمع ذروة وهي اعلى الشيء وتبوّأ العرش جلس عليه ٩ شهوتهم ١٠ مالوا ١١ بهزم ١٢ المتناقلة

الا عانوهُ ولا صناعة الا عالجوها. فنبغ[١] منهم في انواع العلوم والفنون عدة علماء رفعوا منار المعارف وأحيوا معالمها[٢] وأوضحوا آثارها فذاع صيتهم في الآفاق وأقرّ بفضلهم المشرق والمغرب

واما الشعر فقد انحطت مزيتهُ بعض الشيء وضعف امر قائليهِ وخُضدت[٣] شوكتهم لبعد عهد العرب عن البداوة وزوال مناقبها[٤] من نفوس السواد الاعظم لاختلاطهم بالاعاجم وسيادة عنصر غريب عليهم. والذين اشتهروا بالشعر حينئذٍ كانوا من ملازمي بلاط الدولة الحمدانية المتفرعة من الدولة العباسية وهي عربية المحتد والمنزع[٥]

الا ان الشعر لم يعدم في كل مملكة مَن يهتم بهِ ويسعى في إتقان قرضهِ لان جميع الامم الذين خضعوا للعرب واتخذوا لسانهم اخذوا عنهم الولوع بالشعر واعزاز شأنهِ. ولا شك ان الفرس الذين غضوا[٦] من شأن العرب خدموا اللغة العربية خدمة جليلة. فقد دونوا فيها مستنبطات قرائحهم واعمال قواهم الجنسية المميزة لهم. فهم من السلالة الهندية الاوربية التي لها القدم الراسخة[٧] في العقليات والعمليات وقد ادخلوا بين العرب الساميين الروح الآري[٨] ومزاياهُ العديدة

وبلغت المملكة في زمن العباسيين ذروة المجد والحضارة فعمَّ الامن وكثر الخير واتسعت ابواب الرزق وتفرغ القوم للتمتع بما فاض لديهم ورتعوا في بحبوحة العيش وتأنقوا في انواع التَرَف[٩] من مطعم وملبس وزخرف البناء والرياش[١٠] والمعاش وصُقلت[١١] طباعهم ورقت اذواقهم

---

١ برع وفاق ٢ جمع معلم اي دليل وعلامة يهتدى بها ٣ كسرت ٤ جمع منقبة وهي الخصلة الحميدة ٥ المنزع بمعنى النزوع اي الميل الى الشيء والمحتد الاصل ٦ نقصوا ٧ الثابتة ٨ الشعوب الآرية هي التي هاجرت من الهند الى اوربا في زمن عريق بالقدم وانشأت الدول الاوربية القديمة والحديثة ٩ الترفُّه ١٠ الزينة ١١ جليت

وامست بداوتهم اثراً بعد عين. فهم الآن يتقلبون على الطنافس [1] الحريرية في القصور المذهبة تحيط بها الحدائق الغنّاء ويلبسون الخز والديباج [2] ويطعمون الفالوذ والسكباج [3] ... وهيهات زمان كانوا يحسبون فيه الكافور ملحاً والرقاق كاغَداً [4]

ولما كان الشعر مرآة عصر قائليهِ أبدع شعراء الدولة العباسية في التفنن وكسوا كلامهم من زخرف البيان وطلاوة المقال أبهى حلة وأزهى حلية حتى أصبح شعرهم معدن المعاني النبيهة والمغازي الغريبة والاستعارات البديعة والكنايات الدقيقة. وتأنقوا في اللفظ فسبكوهُ جواهر ونظموهُ لآلئ. وتعمقوا في الصنعة فاستنفدوا [5] اسرارها او كادوا بحيث لم يدعوا آبدة الا قيدوها ولا خفية الا استنبطوها وأمعنوا في الغوص على غرائب المعاني وأوغلوا [6] في اصطياد شواردها فأَحاطوا بها ووفوها حقها ولم يتركوا مُنية لمتمنٍّ ولا زيادة لمستزيد. وان ادى بهم تعمقهم وتأنقهم الى الغلوّ والافراط فهم في ذلك صدى ايامهم وكلامهُم حكاية حال عصرهم

واسباب هذا الزهو كثيرة منها ما ذكرناهُ من عموم الطمأنينة بعد المنازعات والغارات ومنها احتكاك العرب بالشعوب الاجنبية والاختلاط بهم وفيهم الفرس والسريان والمصريون وغيرهم من الامم الراقية. وسترى مما سنذكره ان اقطاب [7] العلم وشيوخ الصناعة هم غالباً اعجميّو الاصل عربيّو اللغة يؤلفون فيها التآليف النفيسة كأَنهم من اربابها. وقد نبغ

---

١ البُسُط مفردها طنفسة بضم الاول والثالث وكسرهما ٢ الخز نسيج من الصوف والحرير والديباج من الحرير الخالص ٣ الفالوذ حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل والسكباج مرق يعمل من اللحم والخل ٤ الكافور صمغ ابيض قوي الرائحة يؤخذ من شجر الكافور والكاغد الورق والرقاق الخبز المنبسط الرقيق ٥ افرغوا ٦ امعن في القفز واوغل دخل وتقدم ٧ جمع قطب بالضم وهو سيد القوم الذي عليه مدار امرهم

منهم في الشعر من لا تنزل مرتبته عن مرتبة فحول شعراء العرب على اشتهارهم بـه واستعدادهم الفطري له. ولا مراء [١] ان لكلام العارف بلغة اجنبية مزيةً تزيد معانيه رونقاً وغرابة. ومن تلك الاسباب البيئة [٢] فان الشعراء كانوا في مقدمة اتباع القائمين بتلك الحضارة الواسعة ولهم منها أوفر نصيب فما هو الاَّ ان يفتحوا عيونهم فيبصروا وينطقوا فيجيدوا

وشعراء الدولة العباسية كثيرون جداً لا يقعون تحت حصر ولا يتسع لهم هذا المختصر. فنجتزئ [٣] بذكر أعلامهم طبقة وأشهرهم صيتاً في عالم الادب والله الموفق الى بلوغ الارب بمنه وكرمه

أَلشُّعَرَاءِ ٱلْمُوَلَّدُون

الشعراء المولدون ويقال لهم ايضاً المتأخرون هم شعراء الدولة العباسية وسمة شعرهم ابتكار [٤] المعاني والتصرف فيها ودقة الاغراض ورقة الالفاظ واتقان الصنعة. وقد بلغوا في ذلك الغايةَ القصوى وهذه مزيتهم على سابقيهم. الا انهم اضعف اسراً [٥] وفحولة ويؤخذ عليهم التصنع والتكلف

أَبُو دُلاَمَة (٧٧٧ م ١٦١ هـ)

هو ابو دلامة زند بن الجون الكوفي الحبشي. نبغ في ايام بني العباس وانقطع الى العباس والمنصور والمهدي فكانوا يقدمونه ويستطيبون مجالسته

---

١ جدال ٢ مايحيط بالمرء ويؤثر في اخلاقهِ من مكان واقليم واشخاص وغير ذلك
٣ نكتفي ٤ ابتكر المعنى كان السابق اليهِ ٥ ضبطاً

لنكتهِ ونوادرهِ وسرعة عارضته[1] مع ما كان عليهِ من فساد الدين وارتكاب المحارم وادمان[2] الخمرة ومجاهرته بالزندقة[3] . فمن نوادره انهُ لما امر المنصور بلبس السواد شعار[4] العباسيين واتخاذ قلانس[5] طوال ودراريع[6] يكتب على ظهورها « فسيكفيكهم الله وهو السميع العظيم » دخل عليه ابو دلامة بهذا الزيّ الغريب وانشدهُ :

وكنا نرجّي من امامٍ زيادةً فجاد بطول زادهُ بالقلانس
تراها على هام الرجال كأنها دِنان يهودٍ جُلّلت بالبرانس[7]

فضحك المنصور واعفاهُ وحدهُ من ذلك . وكتب يوما رقعة الى المهدي منها :

أدعوك بالرَحِمِ[8] التي هي جمّعت في القرب بين قريبنا والابعدِ

فغضب المهدي وقال « ويحك اي قرابة بيني وبينك » قال « رَحِمِ آدم وحوّاء . انسيتها يا امير المؤمنين » فضحك المهدي وأجازه . ودخل عليهِ يوماً وعندهُ جماعة من بني هاشم فقال لهُ « لئن لم تهجُ واحداً ممن في البيت لأقطعنّ لسانك » فحار في امرهِ ولم يرَ مخرجاً من هذه الورطة الا بهجاءِ نفسهِ فقال :

الا أبلغْ اليك أبا دُلامه فليس من الكرام ولا كرامه

---

١ بيانهِ ولسنهِ ٢ ملازمة ٣ الكفر ٤ علامة مميزة تتخذها فئة من الناس يتعارفون بها سواء كانت في اللباس ام في الكلام وما اشبه ذلك ٥ جمع قلنسوة بفتح الاولين وضم الرابع وهي كل ما لبس على الراس ٦ جمع درّاعة بالضم وهي جبة مشقوقة المقدّم ٧ هام جمع هامة اي راس ودنان جمع دن بالكسر وهو وعاء يشبه البرميل ٨ القرابة وهو لفظ مؤنث

اذا لبس العمامة كان قرداً وخنزيراً اذا نزع العمامة
جمعتَ دَمامةً وجمعتَ لؤماً كذاك اللؤم تتبعه الدمامه[١]

فضحكوا وأجازوه. وهذه الابيات مرآة صاحبها ومصداق المثل القائل «صاحب البيت أدرى بالذي فيهِ» ولأبي دلامة نوادر لا تحصى

بَشَّارُ بْنُ بُرْد (٧٨٤م ١٦٨هـ)

هو ابو معاذ بشار بن برد البصري. وهو فارسي الاصل كان جده يرجوخ من طُخارستان من سبي المهلّب بن ابي صفرة فقيد الى البصرة وبيع هناك. ولُد بشار مكفوف البصر[٢] ثم أُصيب بالجدري فكان مخدد[٣] الوجه ضخماً عظيم الخلق طويلاً جاحظ المقلتين[٤] قد تغشاهما[٥] لحم أحمر فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظراً. وشفع[٦] دمامة خَلقهِ بفساد خُلقهِ فكان زنديقاً يظهر الاسلام ويضمر المجوسية[٧] حوشيّاً[٨] ضيق الصدر خبيث الهجاء بذيء الكلام مخشيّ معرة[٩] اللسان يفتدي الناس اعراضهم منه بالاعطية الفاحشة واما شعره فغاية في المتانة مطبوع اللهجة غريب الابداع فتّان التفنن. لم ينظم في فن من فنون الشعر الاّ جاء بالعجب العجاب عفواً دون استكراه[١٠] قريحة ولا اعمال روية حتى كان كأنهُ السيل يتدفق. واذا اراد الانشاد صفق بيديهِ وتنحنح وبصق يميناً

١ الدمامة قباحة المنظر واللوم قباحة الطباع ٢ اعمى ٣ مشقق ٤ نآتيّ العينين
٥ غطاهما ٦ قرن ٧ نحلة المجوس وهم عبدة الكواكب والنار ٨ لا يخالط الناس
٩ البذيّ القاسد والمعرة الفضيحة ١٠ اتعاب

وشمالاً ثم ينشد فيجيءُ بالعجائب ومن محكم شعرهِ قولهُ في المشورة :

اذا بلغ الرأي النصيحة فاستعن بعزم نصيحٍ او بتأييد حازمٍ [١]
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً مكان الخوافي نافع للقوادمِ [٢]
وخلِّ الهُوَينا للضعيف ولا تكن نؤوماً فان الحزم ليس بنائمِ [٣]
وما خير كفٍّ امسك الغلُّ اختها وما خير سيف لم يؤيَّد بقائمِ [٤]
وحارب اذا لم تُعطَ الا ظُلامةً شبا الحربِ خير من قبول المظالمِ [٥]
وأدنِ على القُربى المقرّب نفسهُ ولا تُشهدِ الشورى أمرءًا غيركاتمِ [٦]
فانك لا تستطرد الهمَّ بالمُنى ولا تبلغ العليا بغير المكارمِ [٧]
اذا كنت فرداً هرّك القوم مقبلاً وان كنت ادنى لم تفز بالعزائمِ [٨]
وما قرع الاقوامَ مثل مشيّعٍ أريبٍ ولا جلّى العمى مثل عالمِ [٩]

ومن قولهِ :

اذا كنت في كلّ الامور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبهُ
فعش واحداً او صل اخاك فانهُ مقارف ذنبٍ تارة ومجانبهُ [١٠]
اذا انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربهُ [١١]

ولبشار اشعار هتك فيها حرمة الآداب حتى قالوا « ماشيء أدعى لأهل

---

١ النصيح الواعظ والجازم ضابط الامور والتأييد المساعدة ٢ ولا تجعل ولا تحسب والغضاضة الذلة والخوافي ما اختفى من ريش الطائر تحت جناحيهِ والقوادم ريشات كبار في مقدم الجناحين ٣ الهوينا التمهل والنؤوم كثير النوم ٤ الغل القيد وقائم السيف مقبضهُ ٥ شبا السيف حدهُ ٦ اي من قرب نفسهُ لمساعدتك فادنهِ منك كانهُ من ذوي قرابتك ٧ المنى جمع منية اي رغبة ٨ هرك عبس بوجهك ٩ قرع غلب ومشيع شجاع واريب ماهر وجلي كشف ١٠ قارف الذنب فعله ١١ مراراً احياناً والقذى ما وقع في الشراب من تبنة وغيرها وظمئت عطشت

البصرة الى الفساد من اشعار هذا الاعمى الملحد[١]. فان كلماته من أخدع حبائل الشيطان وأغواها» وادى بهِ الفجور الى هجاء الخليفة المهدي هجاءً فاحشاً فوشى بهِ الوزير يعقوب بن داود لمَوْجِدة[٢] كانت لهُ عليهِ ورماهُ بالزندقة . فأمر بهِ المهدي فضُرب بالسياط حتى مات. ومن قولهِ :

بني اميةَ هبوا طـــال نومكمُ انّ الخليفةَ يعقوبُ بن داودِ
ضاعت خلافتكم ياقـــوم فالتمسوا خليفة الله بين الزقّ والعودِ[٣]

ولما نعي بشار الى اهل البصرة تباشروا وهنأ بعضهم بعضاً وحمدوا الله وتصدقوا لِما انهم عوفوا من هذه البلية العامة التي ضاقوا بها ذرعاً

مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَة (٧٩٧م ١٨١هـ)

هو ابو السمط مروان بن ابي حفصة من اهل اليمامة. شاعر فحل متقدم حسن الديباجة[٤] شديد الاعتناء بأسر القول وإحكام النظم وقد قال عن نفسهِ. « اني اذا اردت ان اقول القصيدة رفعتها في حول. اقولها في اربعة اشهر وأتنخلها[٥] اربعة اشهر واعرضها في اربعة اشهر» وقد مرّ بك مثل ذلك عن زهير بن ابي سلمى المزني . ولهُ في مدح معن بن زايدة قصيدة هي من غرر شعرهِ. منها في مدح بني شيبان

---

١ الكافر ٢ غضب ٣ الزق وعاء للخمر والعود آلة طرب من ذوات الاوتار ويروى بين الناي والعود. والناي آلة طرب من ذوات النفخ تشبه الشبابة ٤ الديباجة في الاصل الوجه والطلعة استعيرت لصنعة القول واسلوبهِ ٥ انتقي افضلها

بنو مطرٍ يوم اللقاء كأنهم أسودٌ لها في بطن خفّانَ أشبُلُ [١]
هم يمنعون الجار حتى كأنما لجارهم بين السماكين منزل [٢]
لهاميم في الاسلام سادوا ولم يكن كأولهم في الجاهلية أوّل [٣]
هم القوم ان قالوا أصابوا وان دُعُوا أجابوا وان أعطوا أطابوا واجزلوا
فلا يستطيع الفاعلون فعالهم وان أحسنوا في النائبات وأجملوا

ومنها في مدح معن :

تجنّبَ لا في القول حتى كأنهُ حرام عليه قول لا حين يُسأل
تشابه يوماهُ علينا فاشكلا فلا نحن ندري ايُّ يوميهِ افضلُ
أيومُ نداهُ الغَمر ام يوم بأسهِ وما منهما الا اغرُّ محجّل [٤]

ولهُ فيهِ مرثية شهيرة هي من عيون القصائد العربية وآية في الجزالة والرشاقة لا يسعنا ذكرها كلها لطولها . منها :

مضى لسبيلهِ معن وأبقى مكارمَ لن تبيد ولن تُنالا
هو الجبل الذي كانت نزارٌ تهدّ من العدوّ بهِ الجبالا
فان يعلُ البلادَ لهُ خشوعٌ فقد كانت تطول بهِ اختيالا [٥]
أصاب الموت يوم أصاب معناً من الاحياء أكرمهم فعالا
وكان الناس كلهم لمعنٍ الى ان زار حفرتهُ عيالا [٦]

---

١ البطن المكان المنخفض المطمئن ٢ منع الجار حماهُ والسماكان كوكبان احدهما السماك الاعزل والاخر السماك الرامح ٣ اللهاميم جمع لهموم وهو كثير الخير ٤ الغمر كثرة الماء والفرس الاغر الذي في جبهتهِ بياض والمحجل الذي في قوائمهِ بياض . شبه بالفرس الاغر المحجل كلاً من يومي معن في التفرد عن الاشباه ٥ الخشوع الذل وتطول تفخر والاختيال الكبر ٦ اي ان كرمه عم الناس كانهم عياله فعالهم حتى مات

ولم يك طالب للعُرف ينوي الى غير ابن زائدةَ ارتحالا
اقمنا باليمامة اذ يئسنا مقاماً لا نريد بهِ زيالا[1]
وقلنا اين نرحل بعد معنٍ وقد ذهب النوال فلا نوالا[2]
وما شهد الوقائعَ منك أمضى وأكرم مقدماً وأشد بالا
سيذكرك الخليفة غير قالٍ اذا هو في الامور بَلا الرجالا[3]
ولا ينسى وقائعك اللواتي على اعدائهِ جُعلتْ وبالا[4]

ومدح الخلفاء ونال منهم اموالاً طائلة حتى كانوا يعدون ابيات قصائدهِ ويعطونهُ على كل بيت الف درهم. ولكنهُ كان على غناهُ وتدفق الهبات عليهِ حريصاً جامد الكف لا يلبس غير الاطمار[5] ولا ياكل الا الرؤوس. فقيل لهُ في ذلك فقال « الراس أعرف سعرهُ ولا يستطيع الغلام ان يغبنني[6] فيهِ. وليس بلحم يطبخهُ فياكل منهُ. فان مسَّ عيناً او اذناً او خدًّا وقفت عليه. وآكل منهُ الواناً آكل عينيهِ لوناً واذنيهِ لوناً وغلصمتهُ[7] لوناً واكفى مؤونة طبخهِ فقد اجتمعت لي فيه مرافق[8] ... »

أَبو نُوَاس (٨١٠م ١٩٥هـ)

هو ابو عليٍّ الحسنُ بنُ هانئٍ المشهورُ بأبي نواس وُلِدَ بالأهوازِ وتخرج بالبصرة على والِبَةَ بنَ الحُباب. ثمَّ طاف احياءَ العرب بالبادِية وحصّل عنهم شيئاً كثيراً حتى أصبحَ نسيجَ وحدهِ في الأدب. ولَهُ شِعْرٌ غزيرُ المادّة في

---

١ فرقاً ٢ عطاء ٣ قالٍ مبغض وبلا الرجال اختبرهم ٤ الوبال سوء العاقبة ٥ جمع طمر بالكسر وهو الثوب البالي ٦ يخدعني ٧ اللحم بين الراس والعنق ٨ منافع

المَدْح والهَجْو والرثاء والطَرَد والغَزَل ولا سيّما في الخَمْرة. ويَغلب على قوله الانسجام والرقّة ولُطف الاستِعارة وبُعد المرمى. ويُعدّ شعرهُ من الطبقة العالية غيرَ أنهُ كَثُر فيهِ الساقط وهو ماروي عنه في حالةِ سُكرهِ ونحلوه[١] شعراً كثيراً ليس لهُ فيه يدٌ. ورُزق ابو نواس حافظة تفوق طور المعتاد فانه مع سِعَة علمه ونادر معرفته بلغات العرب واشعارها واخبارها لم تكن لهُ كتب يستعين بها. وقد اشتهر في الشعر بالخمريّات حتى ضُرب بهِ المثل وله قصائد عديدة في وصف مجالس اللهو والشرب يذكر حلقات الندماء[٢] الملاح وانكبابهم على افراغ الاقداح لا يلهيهم امرٌ في الدنيا عن اتراعها وارتشافها[٣] ولا يعكّر صفاء انفسهم «تغريد المنادي[٤]» وصياحه من على المئذنة: «حيّ على الصلاة...» واذا غشي[٥] جوّ افراحهِ سحابة همٍّ عند ذكره الليالي البيض[٦] الماضية والاصحاب الذين نعب بينهم غراب البين[٧] فرّق شملهم كلّ ممزّق بدّدها من فورهِ[٨] بجرعة خمرةٍ معتّقة في دنٍّ غطاهُ نسيج العنكبوت فأصبحت كالياقوتة الحمراء تنفي ظلم الدجى[٩] وتعين على الليالي الباردة ... فمن ذلك قولهُ وهو حكاية حالهِ طول ايام حياتهِ

طربتُ إلى قُطربُّلٍ فأتيتها ... بالفٍ من البيض الصحاح وعيْنِ[١٠]
ثمانين ديناراً جياداً أعدها ... فأتلفتها حتى شربت بِدَيْنِ
رهنت قميصاً سابريّاً وجُبّةً ... وبعت إزاراً معلم الطرفين[١١]

---

١ أضافوا الى شعرهِ شعراً قاله غيره وادعوا عليه ٢ جمع نديم وهو المجالس على الشرب ٣ ملئها وشربها ٤ المؤذن ٥ غطى ٦ كنى بالليالي البيض عن ليالي الفرح وهذا ما يسميه أهل البديع التدبيج ٧ الفراق ٨ حالاً ٩ الدجى سواد الليل ١٠ قطربّل اسم مكان بقرب بغداد شهير بخمرهِ وعين ذهب ١١ السابريّ ثوب رقيق نسبة شاذّة الى سابور والازار الملحفة وما يستتر بهِ والمُعلم ما كان لهُ علم من طراز او غيره

وقد كنت في قطربّل اذ اتيتها　أرى أنني من أيسر الثقلين [١]
فروّحت منها معسراً غير موسرٍ　أقرطس في الافلاس من مائتين [٢]
يقول ليَ الخمّار عند وداعه　وقد البستني الراح خف حنين [٣]
الا رُح بزينٍ يوم رحت مودعاً　وقد رحت منه يوم رحت بشين [٤]

ومن قوله :

مازلت أستل روح الدنِّ في لطفٍ　وأستقي دمه من جوف مجروحِ
حتى انثنيت ولي روحان في جسدٍ　والدنّ منطرح جسماً بلا روحِ

ومن قوله :

اسقنيها بسوادِ　قبل تغريد المنادي
من عُقارٍ بلغت في الـ　ـدن أقصى مستزادِ [٥]
سمتها عند مجوسـ　ـيّ خصيب المستزادِ [٦]
فاشتريناها بما يعـ　ـدل مقروح الفؤاد
فشربنا شرب قومٍ　عطشوا من عهد عادِ [٧]
بين أفياء عريشٍ　عمدوه بعمادِ
في دنانٍ مسنداتٍ　معلماتٍ بمدادِ [٨]

---

١ أيسر اغنى والثقلان الأنس والجنّ ٢ رَوّح ذهب في العشيّ والمُعسر المُفتقر وأقرطس أصيب الغرض ومن مائتين اي من مائتي ذراع ٣ الراح الخمرة وخفّ حنين اشارة الى المثل المشهور يُريد انه عاد فارغ اليدين ٤ الزَّين الزينة والتحسين والشين ضد الزين ٥ العُقار الخمرة والدنّ وعاء كالبرميل تجعل فيه الخمر ٦ سام الخمرة والبضاعة طلب بيعها ثمنها وخصيب كثير والمجوسيّ نسبة الى المجوس ٧ عاد احدى قبائل العرب البائدة يضرب بها المثل في القدم ٨ المعلمات ما جعل لها علما والمداد الحبر

ومما ينسب اليه :

ومستطيلٍ على الصهباء باكرها في فتيةٍ باصطباح الراح حذّاقِ[١]
فكل شيءٍ رآهُ ظنّهُ قدحاً وكل شخصٍ رآهُ قال ذا السّاقي

وفي هذه الابيات من هذا الطرز كفاية وزيادة — الاّ أن أبا نواس كما شوَّه[٢] عمرهُ بادمان الخمرة شوّه شعرهُ بالمجون والبذاءة ولا بدع فان السكر مجلبة الدعارة وقد فات في قولهِ وتهتكهِ جميع من سبقهُ في هذه الخطّة الذميمة. وأدّى بهِ إفراطهُ الي المجاهرة بما تتبرأ منهُ البشريّة وتعافهُ البهائم العجماء نفسها ويتعذر على الاديب العثور[٣] على كلامٍ يفي بما يقصدهُ من تقبيح هذه الخطة ووسمها بسمة العار والفضيحة الى ابد الدهر. ولاسيما وان كثيرين من الشعراء المولّدين استدرجوا بكلام ابي النواس الى الاقتداء بهِ في شعرهم فشحنوا اقوالهم بما يندى لهُ الجبين وجعلوا ملكة الشعر التي هي من أسمى مواهب الخالق عزّ وجلّ وشعاعٌ من حسنهِ السرمديّ مدعاة[٤] الى أفظع جريمةٍ أُهينَت بها العزّة الصمدانية وأسمج رذيلة تمرَّغت بها الطبيعة الانسانيّة ...

غير أنهم يزعمون أن ابا النواس عاد الى نفسهِ في آخر العمر وأخذ يقيم شعائر[٥] دينهِ ويكفّر[٦] عما قدَّمت يداه من المنكرات ويحمل نفسهُ على الزهد ولهُ في هذا المعنى شعر حسن. ومن قولهِ :

أرى كل حيٍّ هالكاً وابن هالكٍ وذانسبٍ في الهالكين عريق[٧]

---

١ الصهباء الخمرة والاصطباح الشرب صباحاً والراح الخمر والحذّاق جمع حاذق وهو الماهر ٢ قبّح ٣ عثر عليه وجدهُ ٤ سبب ٥ ما يقتضيه الدين من العبادات الظاهرة ٦ يعوّض ٧ نسب عريق في الكرم او اللؤم لهُ فيه عرق

فقل لقريب الدار انك ظاعنٌ الى منزلٍ نـائي المحلّ سحيقِ[١]
اذا امتحن الدنيا لبيب تكشّفت لهُ عن عدوٍّ في ثياب صديقِ

أبو العَتَاهِيَة (٨٢٦م ٢١١هـ)

هو ابو اسحاق اسماعيل بن القاسم العَنَزيّ المعروف بابي العتاهية . كُني بذلك من قول المهديّ لهُ يوماً « انت انسانٌ متحذلق متعتّه[٢] » فاستوت لهُ من ذلك كنية غلبت عليهِ دون اسمه وكنيته. وُلد بعين التمر ونشأ بالكوفة وسكن بغداد وكان يبيع الجرار فقيل لهُ الجرَّار وكان الاحداث والمتأدّبون يأتون حانوته فينشدهم اشعاره فيأخذون ما تكسّر من الخَزَف فيكتبونها فيه. وشعرهُ لطيف المعاني سهل الالفاظ قليل التكلف قريب المُتناوَل حتى على الذين لا إلمام لهم باللغة والأدب وأكثره في الزهد والامثال ولهُ مدحٌ وهجاءٌ حسن. ونظم على اوزان لاتدخل في العروض فقيل لهُ في ذلك فقال « انا اكبر من العروض » وكان يقول « اكثر الناس يتكلمون بالشعر وهم لا يعلمون ولو أحسنوا تأليفه كانوا شعراء » ومن غريب امرهِ انهُ مع كثرة صياحهِ بالزهد واشتهارهِ في شعرهِ بذكر الموت وزوال الدنيا وما أشبه ذلك كان جامد الكف أحرص من نملة وقد جمع اموالاً كثيرة عزّ عليه ان يَنفقَ منها على نفسهِ وعلى غيرهِ... وكان في الدين مذبذب[٣] المذهب يعتقد شيئاً فاذا سمع طاعناً عليه ترك اعتقادهُ ايّاهُ وأخذ غيره وفي هذا من العتاهية[٤] فيهِ .

---

١ ظاعن راحل ومسافر ونائي بعيد ومثله سحيق ٢ مدعي الحذق مستحمق ٣ متردِّد
٤ نقصان العقل

واراد في آخر العمر ان ينقطع الى الزهد. الآ أن زهده كان على جانبٍ من الغرابة فانهُ اتخذ قَوْصَرَّتَين [1] ووصلها ودخل فيها وظلَّ على هذهِ الحال حتى أقنعه اصحابُه انه لا علاقة بين الزهد وهذا الزيّ المنكَر ومن شعرهِ قولهُ :

أرى الدنيا لمن هي في يديهِ ... عذاباً كلما كثرت لديهِ
تهين المكرمين لها بصغرٍ ... وتكرم كل من هانت عليهِ
اذا استغنيت عن شيءٍ فدعهُ ... وخذ ما انت محتاج إليهِ

وقال يرثي صديقاً لهُ أسمهُ عليّ :

الا من لي بأُنسك يا أُخيَّا ... ومن لي ان أبثّك ما لَديَّا
طوتك خطوب دهرك بعد نَشْرٍ ... كذاك خطوبه نشراً وطيَّا
فلو نشرت قواك لي المنايا ... شكوت اليك ما صنعت إليَّا
بكيتك يا عليّ بدمع عيني ... فما أغنى البكاء عليك شيَّا
وكانت في حياتك لي عظاتٌ ... وأنت اليوم أوعظ منك حيَّا

وقال :

عريتُ من الشباب وكنت غصناً ... كما يعرى من الورق القضيبُ
ونحتُ على الشباب بدمع عيني ... فما نفع البكاء ولا النحيبُ
فياليت الشباب يعود يوماً ... فأُخبرهُ بما فعل المشيبُ

ولا نزيد على هذا القدر فان زهديات ابي العتاهية شهيرةٌ جداً قلَّما يخلو منها مجموع ادبيات . ومدح يوماً عمر بن العلاء فأعطاهُ سبعين الفاً

---

[1] وعاءٌ من قصب يجعل فيه التمر ونحوه

وخلع عليه حتى لا يقدر ان يقوم. فغار الشعراء لذلك فجمعهم ثم قال « يا معشر الشعراء عجباً لكم ما أشد حسدكم بعضكم بعضاً. ان احدكم يأْتينا ليمدحنا بقصيدة يشبّب فيها بصديقته بخمسين بيتاً فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره. وقد أتانا ابو العتاهية تشبب بابيات يسيرة ثم مدحنا فالكم منه تغارون ...

ولما حضرته الوفاة قال « اشتهي أن يجيء مُخارق المغنّي ويغنّي عند راسي :

اذا ما انقضت عني من الدهر مدّتي   فانّ عزاءَ الباكيات قليلُ
سيُعرض عن ذكري وتُنسى مودّتي   ويحدث بعدي للخليل خليل

أبو تمّام (٨٤٥م ٢٣١ هـ)

هو ابو تمام حبيب بن اوس الطائيّ. وُلد بجاسم قرية من اعمال دمشق وابوهُ نصرانيّ يعرف بتدّوس العقاقيريّ[١]. كان شاعراً فحلاً مطبوعاً لطيف الفطنة دقيق المعاني غوّاصاً على مايُستصعب منها متين البيت جزل اللفظ ينحو في شعره منحى شعراء الجاهلية وكثر في كلامهِ اللفظ الوحشيّ واعتماد اللغات المهجورة حتى يصعب ادراك معانيهِ على غير المتضلع[٢] من اللغة تضلّعا واسعاً والمتبحر في اسرارها. وفي شعره كثير من الجناس الاّ أنّ تعمّده إياه حيث لايسوقه عفو الطبع أدى به الى التكلّف

واول ما نبغ في الشعر بمصر فاشتهر امرهُ وترامى صيتهُ في الآفاق ومدح

١ نسبة الى العقاقير وهي التي يُتداوى بها من النباتات ٢ من نال حظّاً وافراً من العلوم

الامراء ونال منهم الصلات الجزيلة وحَظِيَ عند المعتصم فمدحهُ بالقصائد الغرَّاء وظفر بالجوائز السنيّة. فمن شعرهِ قولهُ يمدحهُ بعد فتحهِ عمّوريّة وكان المنجّمون ادَّعوا ان الزمان غير موافق للفتح فلم يبالِ المعتصم بمخارقهم [١] وغزا المدينة فاوفى نصراً مبيناً :

ألسيف أصدق إنباءً من الكُتُبِ	في حدّهِ الحدُّ بين الجِدّ واللَّعِبِ [٢]
بيض الصفائحِ لاسودُ الصحائف في	متونهنّ جلاءُ الشكِّ والرِيَبِ [٣]
أين الروايةُ بل أين النجومُ وَمَا	صاغُوه من زُخرفٍ فيها ومن كَذِبِ
قد صيَّروا الأبرُجَ العُليا مرتّبةً	ما كان منقلباً أو غير مُنقلِبِ [٤]
يقضون بالامر عنها وهي غافلة	ما دار في فَلَكٍ منها وفي قُطُبِ [٥]
يا يوم وقعة عمّوريّة انصرفت	عنك المنى حُفَّلاً معسولة الحلَبِ [٦]
لقد تَركت أمير المؤمنين بها	للنار يوماً ذليل الصخر والخَشَبِ [٧]
تدبير معتصمٍ باللّه منتقِمٍ	للّهِ مرتقبٍ في الله مرتَهِبِ
لم يغز قوماً ولم ينهض الى بَلَدٍ	الاتقدّمهُ جيش من الرُّعبِ
تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت	جلودهم قبل نضجِ التين والعنبِ [٨]

---

١ جمع مخرقة وهي الكذِب والاختلاق ٢ إنباء إخباراً وحدّ السيف مقطعهُ والحد الثاني الحاجز بين الشيئين والجِدّ ضد الهزل والمراد بالكتب كُتب السحر والعرافة ٣ الصفائح جمع صفيحة وهي السيف العريض والصحائف جمع صحيفة وهي القرطاس المكتوب ومتن الشيء ما ظهر منه وجلاء كشف الرّيب جمع ريبة وهي الشك والتهمة ٤ الأبرُج جمع بُرج وهو قسم من فلك البروج ومرتبة مُثبتة ٥ الفَلَك مدار النجوم والقُطب كوكب لا يبرح مكانهُ يدور عليهِ الفلك وهو بين الجدي والفرقدين ٦ المنى جمع منية وهي الرغبة. وحُفَّلا جمع حافل مأخوذ من قولهم ناقة حافل اي مجتمعة اللبن ومعسولة ممزوجة بعسل والحلَب اللبن المحلوب: اي ذهبنا الى هذه الحرب ونحن نتمنى الانتصار فعدنا وامانينا قد تمت لنا ٧ أي ان أمير المؤمنين أحرق المدينة وجعلها بما فيها طعماً للنار ٨ الشرى مأسدة يضرب المثل بشدة اسودها يشير الى كذب المنجمين

بصرتَ بالراحة الكبرى فلم ترها تُنال الا على جسرٍ من التّعبِ

ولما زالت نعمة الافشين وظهر كفره أمر المعتصم باحراقه فقال ابو تمّام :

ما زال سرُّ الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سرَّ الزناد الواري[١]
ناريساور جسمَهُ من حرّها لهبٌ كما عصفرت شقَّ إزارِ[٢]
طارت لها شُعَلٌ يهدّم لفحُها اركانهُ هدماً بغير غبارِ[٣]
فصلّن منهُ كل مجمع مفصلٍ وفعلن فاقرةً بكل فقارِ[٤]
للهِ من نار رأيت ضياءها ضاق الفضاء بها على النظّارِ
مشبوبةٍ رُفعت لأعظم مشركٍ ماكان يرفع ضوءها للساري
صلّى لها حيّا وكان وَقودَها ميتاً ويدخلها مع الكفّارِ[٥]
ولقد شفى الاحشاء من بُرَحائها أن صار بابكُ جارَ مازيّارِ[٦]
وكأنّما ابتدرا لكيما يطويا عن ناطسٍ خبراً من الأخبارِ[٧]

الذين زعموا ان المدينة لا تؤخذ الا في الصيف بعد نضج التين والعنب

١ اصطلى استدفأ والزناد جمع زند وهو العود الاعلى الذي يقتدح بهِ والواري المشتعل نعت سرّ واراد بسرّ الزناد النار لانها كامنة فيها ٢ يساور يواثب وعصفر طلى بالعصفر وهو نبات يؤخذ منهُ صبغ اصفر ٣ شُعَل جمع شُعلة وهي لهبة النار ولفحها إحراقها ٤ فصّل قطع وجزّأ والفاقرة الداهية والفقار جمع فقارة وهي الخرزة من خرزات الظهر ٥ صلّى لها أي ان الافشين عبد النار وهو حي وغدا وقودها وهو ميت ودخل النار بعد موتهِ مع الكفار ٦ البُرَحاء الشدة والاذى . والشرّ وكان الافشين أمير أشروسنة وقائد جيوش المعتصم تظاهر بالاسلام ولم يزل يضمر المجوسية . وما زّيار هو أمير طبرستان وبابك أمير ارمينيا وهؤلاء الثلاثة كانوا يعملون على قلب دولة المسلمين واعادة دولة الفرس ٧ إبتدر أسرع وسبق وناطس اسم البطريق الرومي الذي كان أميراً على عمورية حين فتحها المسلمون

سود اللباس كأنّما نُسجت لهم　ايدي السموم مدارعاً من قارِ [١]
بكروا وأسرَوْا في متون ضوامرٍ　قِيدت لهم من مربط النجّارِ [٢]
لا يبرحون ومن رآهم خالهم　أبداً على سفرٍ من الأسفارِ

ولهُ في النسج على هذا المنوال شيء كثير في اغراض الشعر جميعاً . وكان ابو تمّام آيةً في سعة المحفوظ يُنشد اربعة آلاف أُرجوزة للعرب غير القصائد والمقطّعات. ولهُ مجموع سمّاهُ « الحماسةِ » وضعهُ عند رجوعهِ من عند عبد الله بن طاهر امير خراسان وبلوغهِ همَذان فسدَّت الثلوج السُبُل في وجهه فأقام هنالك مدةً ونزل على ابي الوفاء بن سلامة وكان يختلف الى خزانة كتبهِ الحافلة النادرة المثال فطالع منها كثيراً واستعان بها على جمع كتابهِ وضمَّنه شيئاً وافراً من شعر العرب في الجاهليّة ودل بحسن اختيارهِ على لطف ذوقهِ وغزارة علمه بالشعر حتى قيل « انه في انتقاء شعر العرب أشعر منهُ في شعرهِ »

دِعْبِل (٨٦٠م ٢٤٦هـ)

هو ابو عليّ دعبل بن عليّ الخزاعيّ. وُلد بالكوفة واقام ببغداد وهو من مجيدي الشعراء ومتقدّميهم الا انهُ كان هجّاءً خبيث اللسان لم يسلم

---

١ السَموم الريح الحارّة والسُوم جمع سُمّ والمدارع جمع مدرعة وهي جبة مشقوقة المقدم والقار الزفت اي مادة سوداء تطلى بها السفن ٢ بكروا ساروا باكراً وأسرَوْا ساروا ليلاً والمتون جمع متن اي ظهر والضوامر جمع ضامر وهو الحصان الدقيق الجسم القليل اللحم يقول ركبوا خيلاً ضامرة جيء بها من حانوت النجار يعني ان تلك الخيل هي الصلبان التي عقلوا عليها وقد اصطنعها النجار وسمى حانوت النجار مربطاً لترشيح الاستعارة

منهُ احدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا اولادهم ولا ذو نباهة احسن اليه او لم يحسن ولا أفلت منه احدٌ كبيرٌ. فلم يزل دهرهُ كلّهُ شريداً طريداً هارباً خائفاً وطال عمرهُ حتى كان يقول « أنا احمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة لست أُجد أحداً يصلبني عليها » وزاد على اخلاقهِ الذميمة التلصص [1] فكان يكمن [2] للناس بالليل ورصد يوماً صيرفيّاً عند رجوعه الى منزلهِ طمعاً بما معه ففتك بهِ ولم يجد في كمّهِ الاّ ثلاث رمّانات في خرقةٍ فاشتدّ الطلب عليهِ فاضطرّ الى الاستتار والهرب من الكوفة. وكان شيعيّاً شديد التعصّب للعلويين ومن ثمّ اهاجيهُ لبني العبّاس. ومن شعرهِ قولهُ يهجو الرشيد لمّا مات وقبر بالريّ وهنالك أيضاً قبر الرضا من ولد عليّ بن ابي طالب :

وليس حيٌّ من الاحياء نعلمهُ	من ذي يمانٍ ومن بكرٍ ومن مُضَرِ
الاّ وهم شركاءُ في دمائهم	كما تشاركَ ايسارٌ على جزُرِ [3]
قتلٌ واسرٌ وتحريق ومنهبةٌ	فعلُ الغزاة بأَرض الروم والخزَرِ [4]
أرى أُميّة معذورين ان قتلوا	ولا أَرى لبني العباس من عُذُرِ
قبران في طوس خير الناس كلّهم	وقبر شرّهمِ هذا من العِبَرِ [5]
ما يُنفع الرجس مُن قرب الزكيّ وما	على الزكيّ بقرب الرجس من ضَرَرِ
هيهات كل امرئٍ رهن بما كسبت	لهُ يداه فخذ ما شئت او فَذَرِ [6]

مع ان الرشيد كان قد غمره بالاعطية السنيّة فأغناهُ بعد الفقر ورفعه

---

[1] السرقة [2] يستتر بحيث لا يفطن لهُ [3] الأيسار جمع يَسَر وهم القوم المجتمعون على الميسر اي القمار والجزر جمع جَزُور وهو ما يجزر من النوق والغنم [4] ارض الروم آسيا الصغرى والخَزَر البلاد المجاورة بحر قزبين [5] طوس مدينة بخراسان قبر فيها هارون الرشيد وأراد الشاعر بخير الناس الرضا المتقدم ذكره وبشرهم الرشيد [6] هيهات اي بعد وذر دع

بعد الخمول ... ومن قوله في المأمون:

أيسومني المأمون خطة جاهلٍ أَو ما رأى بالامس رأس محمّدِ [١]
اني من القوم الذين سيوفهم قتلت اخاك وشرفتك بمَقْعَدِ
شادوا بذكرك بعد طول خمولهِ واستنقذوك من الحضيض الأَوْهَدِ [٢]

ولهُ في المعتصم هجاء آلم وقعاً من السهام:

وقام إمام لم يكن ذا هدايةٍ فليس لهُ دينٌ وليس لهُ لبٌّ [٣]
وما كانت الأنباء تأتي بمثله يملّك يوماً او تدين له العُرْبُ
ولكن كما قال الذين تتابَعُوا من السلف الماضين اذعظُم الخطبُ
ملوك بني العباس في الكتب سبعةٌ ولم تأتِنا عن ثامنٍ لهمُ كتبُ
كذلك اهل الكهف في الكهف سبعةٌ خيارٌ اذا عدّوا وثامنهم كَلْبٌ [٤]
واني لأُعلي كلبهم عنك رفعةً لأنك ذو ذنبٍ وليس لهُ ذَنْبُ

ولما مات المعتصم وقام الواثق أنشأ دعبل يقول:

الحمد لله لاصبرٌ ولا جَلَدُ [٥] ولا عزاءٌ اذا أهل البلا رقدوا
خليفةٌ مات لم يحزن لهُ أحدٌ وآخرٌ قام لم يفرح بهِ أحدُ

فهل من عجب ان امرءًا من مثل هذا مخشيٌّ معرّةِ [٦] اللسان حتى عند الخلفاء والأمراء يستفحل أمر شرّه عند عامّة الناس حتى يُرْوَى أن مجنوناً صُرع مرّة فأتاهُ دعبل وصاح في أُذنهِ «دعبل» ثلاث مرّات فأفاق ...

---

١ يسومني يكلفني ومحمد هو الامين اخو المأمون ٢ شادوا رفعوه بالثناء عليهِ والحضيض القرار من الارض عند اسفل الجبل والأوهد المنخفض ٣ اللب العقل ٤ والكهف مغارة لجأ اليها سبعة شبان خوفاً من ملك اضطهدهم فسدّ باب الكهف ثم بعثوا بعد زمنٍ طويل ٥ الصبر ٦ مساءة

وكان يهيّئ اهاجيَهُ من قبل حتى يظلّ على أُهبةٍ[١] من امرهِ فلا يفوتهُ أحد فاذا وَجَدَ[٢] على رجلٍ ذكر اسمهُ في شعرهِ وبادره[٣] بالهجاء الأليم …

عليّ بنُ الجَهْم (٨٦٣ م ٢٤٩ هـ)

هو ابو الحسن عليّ بن الجهم القُرَشي شاعر فصيح مطبوع حسن التصرّف في المعاني عذب الالفاظ. حظي عند المتوكّل وأنشده المدائح ونادمهُ[٤] وتقرّبَ إليه بهجاء الطالبيين والاغراء[٥] بهم. الاّ ان أثرتهُ[٦] كانت سبب زوال نعمتهِ وسقوطه من عين مولاهُ فانّه كان ينظر حظوة غيره عند الخليفة بعين الحسد فأكثر من السعاية بهم وذكرهم بالقبيح فكشف المتوكل عن حقيقة الأمر فاتضح لهُ انّ كلّ ما قالهُ عليّ بن الجهم افتراء[٧] ومحض اختلاق[٨] فتغير عليهِ ونفاه بعد ان حبسه مدة. ولهُ شعر قالهُ في الحبس منهُ :

قالوا حبستَ فقلتُ ليس بضائري   حبسي وايّ مهنّد لا يُغْمَدُ[٩]
أوَما رأيتِ الليث يألف غيلهُ   كبراً واوباش السباع تَصيّدُ[١٠]
والشمس لولا انها محجوبةٌ   عن ناظريك لما أضاء الفرقَدُ[١١]

---

١ عدة ٢ غضب ٣ عاجَلهُ ٤ جالسه على الشراب ٥ الحضّ عليهم ٦ الأُثرة اختصاص المرء نفسه بأحسن الشيء دون غيرهِ ٧ كذب ٨ اختراع ٩ ضائر مضرّ والمهنّد السيف المطبوع من حديد الهند ويُغمد يُجعل في الغمد اي الجفن ١٠ الليث الأسد وغيلهُ أجمته وعرينه وأوباش السباع ارذالها وتصيّد فعل مضارع حذفت تاؤه تخفيفاً والقياس تَتصيّدُ ١١ محجوبة مستورة والفرقد نجم قريب من القطب الشمالي يُهتدى بهِ

والبدر يدركهُ السرار فتنجلي أيّامـــهُ وكأنّهُ متجدّدُ[١]
والنار في أحجارها مخبوءةٌ لا تصطلي ان لم تثرها الأزندُ[٢]
والحبس ما لم تغشه لدنيئةٍ شنعاءَ نِعمَ المنزلُ المتودّدُ[٣]
بيتٌ يجدّدُ للكريم كرامةً ويُزارُ فيهِ ولا يزور ويُحمدُ

وردّ ندماء المتوكّل لعليّ بن الجهم كيدَهُ في نحرهِ — ولا بدعَ فان مجالس الملوك معترك المهالقات والوشايات والثارات — فلم يزالوا يقبّحونهُ ويسعون بهِ حتى أوغروا[٤] صدر الخليفة عليهِ فنفاه الى خراسان وأمر بصلبهِ عرياناً يوماً كاملاً فلما وصل الى الشاذياخ أُخذ وصُلِبَ ثم أُنزل فقال في ذلك :

لم ينصبوا بالشاذياخِ عشيةً الاثنين مسبوقاً ولا مجهولا
نصبوا بحمدِ الله ملءَ قلوبهم شرفاً وملءُ صدورهم تبجيلاً
ما ازداد الا رفعةً بنكوله وازدادت الاعداء عنهُ نكولا[٥]
هل كان الا الليث فارق غيلهُ فرأيته في محمـــلٍ محمولاً .
ما عابهُ ان بُزَّ[٦] عنهُ لباسهُ فالسيف أهول ما يُرى مسلولاً
ان يبتذل فالبدر لا يُزرى بهِ ان كان ليلة تمّهِ مبذولا[٧]
او يحبسوه فليس يحبس سائرٌ من شعرهِ يدع العزيز ذليلا

---

١ البدر القمر الممتليء والسرار آخر ليلة من الشهر وتنجلي تنكشف ٢ مخبوءة مستورة وتصطلي تشتعل والأزند جمع زند وهو العود الذي يقتدح به ٣ غشيهُ اتاهُ ونزله الدنيئة النقيصة والمتودّد المطلوبة محبّته ٤ أوقدوه من الغيظ ٥ النكول بفلان ان يفعل بهِ فعل يحذّر بهِ غيره اذا رآه ونكل عنه نكص وجبن ٦ بُزّ جرّد ٧ يبتذل يمتهن ويزرى بهِ يحتقر وليلة تمّ البدر كماله

ومن مستحسن شعره قولهُ :

بلاءٌ ليس يعدلـــهُ بلاءٌ عداوة غير ذي حسب ودينِ
يبيحك منهُ عرضاً لم يصنهُ ويرتع منك في عرضٍ مصونِ[١]

ولم يكن قولهُ هذا ليمنعهُ من ان يرتع في أعرض غيره ويمزّقها تمزيقاً... وادّعى ان أوّل شعرٍ قالهُ هو ما كتب بهِ الى أمّه وقد حبسهُ ابوه في الكُتّاب :

يا أمّتا أفديك من أمِّ أشكو اليك فظاظة الجَهْمِ
قد سُرِّح الصبيان كلهمُ وبقيت محصوراً بــلا جرمِ

بيد انهُ لاشتهاره بالكذب والادّعاء لم يصدّقه أحدٌ وقالوا انهُ نظم هذين البيتين وهو شيخ نيّف على الستين

إِبن الرومِيّ (٨٩٦م ٢٨٣هـ)

هو ابو الحسن عليّ بن العباس بن جُرَيج المعروف بابن الروميّ. وُلد ونشأ وتخرّج ببغداد ومنها أشعت أنوار شعره الباهرة وامتدّت الى الآفاق. وفيها يقول وقد غاب عنها في بعض اسفاره

بلدٌ صَحِبتُ بـهِ الشبيبةَ والصبا ولبست ثوبَ العيشِ وهو جديدُ
فـاذا تمثّل في الضميرِ رأيتُهُ وعليهِ أغصانُ الشبابِ تميدُ[٢]

---

[١] يبيحك يحلل لك [٢] تميل

وهو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها [١] ويبرزها في احسن صورة ولا يترك المعنى حتى يستوفيهُ الى آخره ولا يُبقي فيه بقيّة. والفاظهُ عذبة رشيقة خليقة [٢] بتلك المعاني الفتّانة وقصائده بديعة البنيان محكمة الرصف [٣] متينة لُحمة الأبيات وهو في اكثر معانيه مبتدع [٤] لا متّبع وشعره كثير الفنون متشعّب الأغراض. ومنهُ قولهُ في قصيدة تُدعى « حديقة الشعر » [٥] مدح بها اسماعيل بن بلبك وهي طويلة جداً

أجنت لك الوجد [٦] أغصانٌ وكثبانٌ ... فيهنَّ نوعانِ تفّاحٌ ورمانُ
وفوق ذلك أعناب مهدَّلَـةٌ [٧] ... سودٌ لهنَّ من الظلماء الوانُ
وتحت هاتيك عنّابٌ تلوحُ بـهِ ... اطرافهنَّ قلوب القوم قِنوَان [٨]
ونرجسٌ بات ساري الطلّ يضربهُ ... وأُقحُوَان منير النّور ريّانُ

ومنها مشيراً الى وجوب الاعتدال في المحلّلات :

تلك الغصون اللواتي في أكمّتها ... نعمٌ وبؤسٌ رافراحٌ واحزانُ
يبلو بها الله قوماً كي يُبين لـهُ ... ذو الطاعة البَرُّ ممن فيه عصيان [٩]
ومـا ابتلاهم لاعنات ٍ ولا عبَثٍ ... ولا لجهلٍ بما يطويه إبطـان [١٠]
لكن ليثبت في الأعناق حجّتهُ ... ويحسن العفو والرحمان رحمانُ

---

١ مخابئها ٢ جديرة بها واهل لها ٣ انضمام بعضها الى بعض بانتظام ٤ مخترع ٥ لكثرة ما ورد فيها من اسماء الفاكهة وللسبب عينه سماها بعضهم « دار البطيخ » وهي السوق التي كانت تباع فيها الفواكه ببغداد ٦ الوجد الحزن وكثبان تلال ٧ مُهدّلة مدلاّة ٨ القنوان جمع قنو وهو العذق من النخل كالعنقود من العنب ٩ البرّ الصالح ١٠ الاعنات هو ان يحمل المرء ما يشتق عليه تحمّلهُ والعبث اللعب والهزل والاستخفاف والابطان الاخفاء

ومن خاتمتها :

وللبلاء انفراجٌ بعد أزمتهِ ورعبةُ الدهر إعجاف وإسمانُ [١]
وللاله سجالٌ من فواضلهِ كل امرئٍ ناهلٌ منه وعلّانُ [٢]
إن لا يُعنّي على دهري أخو ثقةٍ من العباد فإن الله معوانُ
او يُبطلِ الحقّ عند الناس كلهم فليس للحق عند الله بطلانُ
خذها أبا الصفر بكراً ذات أوشيةٍ كالروض ناحى عراراً فيه حوذانُ [٣]
واسلم لراجيك مسعوداً وان تربت [٤] ممن يعاديك آنافٌ وأذقانُ

وهي تنيف على مائتي بيت. ومن قولهِ :

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم في الحادثات اذا دجونَ نجومُ
منها معالم للهدى ومصابحٌ تجلو الدجى والأُخريات رجومُ [٥]

وقال يذمّ الخضاب :

اذا دام للمرء السواد وأخلقت شبيبته ظُنَّ السواد خضابا [٦]
فكيف يظنّ الشيخ أنّ خضابهُ يُظَنُّ سواداً او يخال شبابا

ومن رقيق شعرهِ قولهُ :

وساقٍ صبيحٍ للصبوحِ دعوتهُ فقام وفي اجفانه سنة الغمضِ

---

١ الازمة الشدة والاعجاف الضعف والاسمان ضدّ الاعجاف ٢ السجال جمع سَجل وهو الدلو اذا كان فيها ماء استعيرت للنعم وناهل من يشرب أوّلاً والعلان الشارب ثانية ٣ البكر العذراء والأوشية جمع وشاء جمع وشي وهو نقش الثوب وناحى صار احدهما نحو الآخر وعرار بهار ناعم اصفر طيب الرائحة والحوذان نبات زهرهُ احمر في أصلهِ صفرة ٤ تربتْ أُصليها تراب ٥ رجوم جمع رجم وهو ما يظهر في السماء كأنهُ نجوم تتساقط ٦ اخلقت فنيت والخضاب ما يلوّن بهِ

يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقض علينا ومنفض [١]
وقد نشرت ايدي الجنوب مطارفاً على الجود كنا والحواشي على الأرض [٢]
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر في أصفر اثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض [٣]

وقوله في قالي زلابية :

ومحتقر على كرسيه تعب روحي الفداء له من منصب تعب
رأيته سحراً يقلي زلابية في رقة القشر والتجويف كالقصب
كأنما زينة المقلي حين بدا كالكيمياء التي قالوا ولم تصب
يلقي العجين لجيناً من أنامله فيستحيل شبابيكاً من الذهب [٤]

ودقائق معانيه كثيرة وكان سبب موته أن أبا الحسين وزير المعتضد دس عليه من اطعمه وهو في مجلسه خشكانجة [٥] مسمومة . وقد أقدم على هذه الفظاعة لشدة خوفه من هجائه وفلتات لسانه. فلما أكلها ابن الرومي أحس بالسم فقام فقال له الوزير « اين تذهب » فقال « الى الموضع الذي بعثتني إليه » فقال « سلم على والدي » فقال « ما طريقي على النار » وأتى منزله وكان الطبيب يعالجه فغلط في بعض العقاقير فمات. ومن قوله وهو يجود بنفسه :

---

١ العقار الخمر ومنقض ساقط ومنفض متفرق ٢ مطارف جمع مِطرَف وهو رداء من خز ذو إعلام والدكن جمع أدكن وهو ذو اللون المائل الى السواد ٣ الخود جمع خود وهي الصبية والغلائل بطائن تلبس تحت الفروع مفردها غليلة ٤ اللجين الفضة والأنامل الأصابع والشبابيك اعواد متعارضة من حديد تنصب في النافذة ٥ قرص بسمن وسكر

غلط الطبيب عليّ غلطة مُوردٍ   عجزت مواردهُ عن الاصدار[١]
والناس يلحون الطبيب وانما   غلطُ الطبيبِ إصابةُ المِقدارِ[٢]

أَلْبُحْتُرِيّ (٨٩٧م ٢٨٤هـ)

هو ابو عبادة الوليد بن عبيد الطائيّ ويقال لهُ البحتري نسبةً الى أحد أجداده. وُلد بمَنْبِج وَنَشأ وتخرَّج بها ثمّ خرج الى العراق وقصد بغداد وانقطع الى الخليفة المتوكّل. ولهُ فيهِ وفي وزيره الفتح بن خاقان وسائر كبراء حاشيتهِ قصائد كثيرة. ويحكى ان أبا تمّام سمع إنشاده وهو فتًى فأعجب بهِ وقال لهُ «أنت والله يا بنيّ أمير الشعراء بعدي» ولما كان البُحتري قليل ذات اليد[٣] كتب ابو تمام في شأنهِ الى أهل معرّة النعمان فأكرموه ووظّفوا[٤] لهُ اربعة آلاف درهم. وشعر البحتري كثيرٌ جدًّا ولذا كثر فيه الغثّ[٥] الساقط الاّ انّ منهُ قسماً على جانب عظيم من الطلاوة ودقّة المعاني وبراعة التصرّف والوصف. ومدحهُ معتدل اللهجة قليل الغلوّ وهذه مزية نادرة تزداد رفعتها اذا قستَ قول البحتري في ممدوحيه بمدائح غيره من الشعراء الذين لم يكتفوا بوصف من يمدحون بكل ممكنٍ من الكمالات البشرية فعلاً وعقلاً بل أحصوا ممدوحيهم في عداد الانبياء ثم رقّوهم الى مصافّ الملائكة وما عتّموا أن استحقروا تلك المنزلة فرشّحوا[٦] اصحابهم الى الألوهيّة وفي ذلك من الجراءة

---

١ المورد من يأتي بالماشية الى الماء والتوارد جمع مورد وهو مكان الشرب والذهاب اليه والاصدار الرجوع عنه ٢ يلحون يلومون المقدار الأمر المحتوم لابدّ منهُ ٣ المال ٤ عيّنوا ٥ الفاسد ٦ اهّلوهم

وقلّة الدين والفهاهة ما فيه... وكيف لا يبتذل شعرٌ جعل سِجلاً[١] لمثل هذه المستنكرات

وقد ضمّن البحتري مدائحهُ للمتوكّل ذكر القصور البديعة التي شادها[٢] والجنان الغنّاء التي غرسها والبرك الفسيحة التي أجرى فيها المياه على كل شكلٍ وفن. فوصفها بشعرٍ لطيف رشيق يذوب رقّة وانسجاماً ويضاهي[٣] بهاءً ورونقاً تلك المصنوعات العجيبة التي تتمثّل صورها لقارئ قصائد البحتري كأنه يراها بعينه. وقد برّز ايضاً بقوَّة تصوّرهِ وعجيب خياليّاته مما يدلّ على نفسٍ حسّاسة شديدة التأثّر سهلة الشعور والى هذا اشار المتنبّي بقولهِ «أنا وابو تمام الحكيمان والشاعر البحتريّ» وقد صدق فانّ المعاني الخليقة بالشعرهي المنزلة من عالَم الخيال والوجدان[٤] عثر عليها[٥] رائد[٦] الفكر الدقيق وكساها النظم من المجاز والبديع حللاً بهيّة فبدت مجسّمة محسوسه مع أنها من عالَم النفس وليست بشيءٍ من الهَيُولى[٧] والاعراض. ومن شعر البحتريّ قوله يصف البركة التي اصطنعها المتوكّل في حديقتهِ :

تنصبّ فيها وفود الماء معجلةً ... كالخيل جاريةً من حبل مجريها[٨]
كانما الفضـــة البيضاء سائلةً ... من السبائك تجري في مجاريها
اذا علتهـا الصبا أبدت لها حُبُكاً ... مثل الجواشنِ مصقولاً حواشيها

---

١ دفتر تقيد فيهِ الصكوك ٢ بناها ٣ يماثل ويشابه ٤ ما يجده الانسان من نفسهِ كالحب والبغض والفرح والحزن وما الى ذلك ٥ وجدها ٦ الرائد هو الرسول يتقدم القوم في طلب المرعى ٧ المادّة ٨ وفد على الامير قدم عليهِ رسولاً فهو وافد وهم وفود استعارهُ لمجاري المياه التى تنصب في البركة وشبهها بخيل اطلقها السائس فاندفعت تجري في الميدان ٩ الصبا ريح خفيفة وابدت اظهرت وحبكاً اشياء محبوكة مفردها حبيكة والجواشن جمع جوشن وهو الدرع

فحاجب الشمس احياناً يغازلها ... وريّق الغيثِ احياناً يباكيها [١]
اذا النجوم تراءت في جوانبها ... ليلاً حسبت سماءً ركّبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها ... لبعد ما بين قاصيها ودانيها [٢]
يَعُمْنَ فيها بأوساطٍ مجنّحةٍ ... كالطير تنفض في جوٍّ خوافيها [٣]
لهنّ صحن رحيبٌ في اسافلها ... اذا انحططن وبهوٌ في اعاليها [٤]
صورٌ الى صورة الدُّلْفِين يؤنسها ... منهُ انزواءٌ بعنيهِ يؤازيها [٥]

ومن شعره قوله يصف قصراً بناه المعتزّ باللهِ :

ذُعِر الحمام وقد ترنّم فوقهُ ... من منظرٍ خطِر المزلّةِ هائل [٦]
رُفعت لمخترَقِ الرياحِ سموكهُ ... وزهت عجائب حسنه المتخايل [٧]
وكأنّ حيطان الزجاج بجوّهِ ... لججٌ يمجنَ على جنوب سواحلِ
لبست من الذهب الصقيل سقوفهُ ... نوراً يضيء على الظلام الحافلِ [٩]
فترى العيون يجلنَ في ذي رونقٍ ... متلهّب العالي أنيق السافلِ
أغنتهُ دجلة اذ تلاحق فيضها ... عن فيض منهمر الرباب الهاطلِ [٨]
وتنفّست فيه الصبا فتعطّفت ... اشجاره من حُوّلٍ وحواملِ [٩]

---

١ حاجب الشمس شعاعها وريّق الغيث اول المطر وافضلهُ ٢ غايتها منتهاها والقاصي البعيد والداني القريب ٣ الخوافي ريشات من الجناح اذا ضمّ الطائر جناحيهِ خفيت ٤ صحن الدار ساحتها ورحيب واسع والبهو بيت متقدم على سائر البيوت يستقبل فيهِ الوفود ٥ صور جمع اصور اي مائل والدلفين دابة بحرية كبيرة ويؤنسها يعجبها والانزواء الانقباض والانحراف ويؤازيها يحاذيها ويقابلها ٦ ذعر خاف وخطر المزلة موضع السقوط فيهِ ذو خطرٍ ٧ مخترق الرياح مهبّها وسموكهُ سقوفهُ وزهت اشرقت والمتخايل المتكبر ٨ منهمر منسكب والرباب جمع ربب وهو الماء الكثير والهاطل السائل بشدة ٩ تعطفت مالت وحوّل جمع حائل يقال امراة وفرس وشجرة حائل اي لا تحمل

ولهُ الخياليات الفتّانة التي يضرب بها المثل ومنها :

اذا ما الكرى اهدى اليّ خيالهُ شفى قربهُ التبريح او نقع الصدى[١]
اذا انتزعتهُ من يديّ انتباهةٌ حسبت حبيباً راح منّي أن غدَا
ولم أرَ مثلينا ولا مثل شأننا نعذَّب أيقاظاً وننعم هُجَّدَا[٢]

وبهذه الرقّة امتاز البحتريّ عن ابي تمام سابقهِ ومدرّبهِ مع انّه لم يزل يقرّ لهُ بالتقدّم والأُستاذيّة. وكان مع ملابسته[٣] الملوك والأُمراء وافاضتهم[٤] عليهِ الاموال الطائلة قذر اللباس شحيح الكفّ لا تأخذهُ شفقة على أخٍ لهُ وغلام كانا يقاسيان من عذاب الجوع ألواناً.

إبنُ ٱلْمُعتزّ (٩٠٨م ٢٩٦هـ)

هو ابو العبّاس عبد الله ابن الخليفة المعتز بالله. كان شاعراً مطبوعاً نبيه المعاني عذب الالفاظ حسن الابداع وقد قرن في شعرهِ رقة الملوكيّة وغزل الظرفاء وهلهلة[٥] المحدثين بعلوّ طبقة المجيدين من الشعراء وقوة استنباطهم وقد تقدم اهل عصره فضلاً وشرفاً وادباً وشعراً. وشعره غايةٌ في الظرف. وطلاوة الجديد. ولما كان في غنًى بسموّ مقامهِ ونبل محتدهِ[٦] عن تملق الكبراء واستعطاف خواطرهم خلا شعره من المدح الكاذبة التافهة وأطلق لقريحته السيّالة عنانها[٧] في وصف الرياض النضرة[٨] ومجالس الأُنس

---

١ الكرى النوم والتبريح الشدة ونقع الصدى بلّ العطش ٢ ايقاظاً منتبهين وهجداً نياماً مفردهما يقظ وهاجد ٣ مخالطتهِ ٤ سكبهم ٥ من هلهل الثوب اذا رقق نسجهُ ٦ أصله ٧ سير اللجام ٨ الجيلة الخضراء

الانيقة وكل ما تهشّ [١] له النفس من المناظر الطبيعيّة الشائقة فأبدع في كل ذلك كما شاء وأوحت له سليقته [٢] وذهب كل مذهب في التفنّن والتقلّب في عرض ذلك الميدان الفسيح الأرجاء بالمعاني الشعريّة وبرّز في تشبيهاته البديعة المبتكرة واشتهر بها حتى لا يُشق له فيها غبار ولم يتعدّ الكلام السبط [٣] الرقيق المتبادر الى الفهم فشعره مرآة ظرفه ولطفه. وزاد على تضلّعه من آداب عصره معرفة حسنة بصناعة الموسيقى وله كتابٌ في الكلام على النغم وعللها

ولعبد الله بن المعتزّ مؤلفات منها «كتاب البديع» وهو اوّل من ألّف في هذا الفنّ جمع منه سبعة عشر شكلاً ثم جاء قُدامة الكتاب فزاد عليها ثلاثة عشر شكلا وهكذا أخذ كل مؤلف يزيد على سالفه حتى بلغ البديع كماله. ومن كلامه «البلاغة البلوغ الى المعنى ولم يطل سفر الكلام» وله اقوالٌ كثيرة تدلّ كلها على غزارة علم وفضل أدب. ومن شعره قوله في النرجس:

كأن عيون النرجس الغضّ حولها ... مداهن درّ حشوهنّ عَقيق [٤]
اذا بَلّهنّ القطر خلت دموعها ... بكاء عيونٍ كحلهنّ خلوق [٥]

ومن قوله:

إصبر على مضض الحسو ... د فإن صبرك قاتلُهْ
فالنار تأكل نفسها ... إن لم تجد ما تأكلُه

---

١ ترتاح وتنشط ٢ طبيعته ٣ المسترسل عكس المتجعّد ٤ النرجس نبت من الرياحين له زهر مستدير تشبه الأعين والمداهن جمع مُدْهُن وهو آلة الدهن او قارورته والعقيق خرز أحمر ٥ الخلوق طيب كثيراً مايؤخذ من الزعفران

ومن قوله في الصَّبوح [١] بالقرب من دير عبدون بالمطيرة وهي قرية من نواحي سامرّاء وكانت من متنزّهات [٢] بغداد :

سقى المَطيرةَ ذاتَ الظلّ والشجر ودير عبدونَ هطّال [٣] من المطرِ
فطالما نبّهتني للصَّبوح بهـــا في غرّة [٤] الفجر والعصفور لم يطرِ
أصواتُ رهبانِ ديرٍ في صلاتهمِ سود المدارعِ نعّارينٍ في السحرِ [٥]
مزنّرين على الاوساط قد جعلوا على الرؤوس اكاليلاً من الشَّعَرِ

ومن غريب شعر ابن المعتزّ الدالّ على قوّة تصرّفه في المعاني وعجيب تفنُّنه في الاستنباط قولهُ يذمّ القمر وقد اجترأ على هجائه وهو عند الخلق طرًّا عنوان الكمال وآية الجمال :

يا سارق الأنوار من شمس الضحى يا مثكلي طيب الكرى ومنغّصي [٦]
أمّـا ضياء الشمس فيك فناقصٌ واري حرارة نارهـــا لم تنقصِ
لم يظفر التشبيه منك بطـائلٍ متسلّخٌ بهقاً كلون الأبرصِ [٧]

ولما بويع للمقتدر كان دست [٨] الخلافة قد ضعف أمره وصار الحلّ والعقد في أيدي الجند والمماليك من أتراك وغيرهم فشغب [٩] جماعة منهم عليهِ وخلعوه وبايعوا عبد الله بن المعتزّ وتلقّب بالمرتضي الاّ أن أصحاب المقتدر تحزّبوا [١٠] وتراجعوا وحاربوا اعوان ابن المعتزّ وشتّتوهم وأعادوا المقتدر الى دَستهِ فاختفى ابن المعتزّ في دار تاجر جوهريّ يعرف بابن الجصّاص

---

١ شرب الحليب او الخمر صباحاً ٢ الامكنة النزهة اي المقصودة لجودة هوائها ٣ الظلّ الفيء والهطـال المنسكب بشدّة ٤ غرّة الفجر أوله وطلعتهُ ٥ المدارع جمع مِدرعة وهي جبّة مشقوقة المقدم ونعّارون جمع نعّار وهو الصياح ٦ مثكلي مفقدي ومنغّصي مكدّر ٧ المتسلّخ الذي زال عنه جلدهُ والبهق بياض في الجسد عن مرض غير البرص ٨ مقام ٩ هيّج ١٠ تجمعوا وصاروا أحزاباً

فاخذه المقتدر وسلّمه الى مؤنس الخادم الخازن فاعتقله في السجن ثم خنقه وسلّمه الى أهله ملفوفاً في كساء وهكذا استُبيح [١] دم هذا المسكين الذي لم يقبل البَيْعة [٢] الا على شرط أن لا يُقتل بسببهِ مسلم وكانت مدة خلافته يوماً واحداً ...

إبن الحجّاج (١٠٠٠م ٣٩١هـ)

هو أبو عبد الله الحسن بن احمد بن الحجّاج. كان متولّياً للحسبة [٣] ببغداد شيعيّا مفرط التعصّب في مذهبهِ حتى أوصى ان يحمل بعد موتهِ الى مشهد موسى الكاظم [٤] ويدفن عند رجليه وهو شاعرٌ عذب الالفاظ سلس المعاني سريع العارضة الآ انّهُ شحن شعره ببذيء الكلام وفاحش المقال حتى يكاد يتعذّر على مطالع شعرهِ ان يستخلص من تلك القاذورات شيئاً يمكن أن يقرأهُ الأديب دون تأفف فهو ممن تقفوا [٥] آثار أبي نواس في الهجوم على السحت [٦] والوَلوع بالمخزيات ولعلّهُ فاق استاذهُ في هذا النوع الجديد من المفاخر ... ومن نادر اديب شعره قولهُ :

قالوا غداً العيد فاستبشر به فَرَحاً ... فقلت مالي ومـا للعيد والفَرَحِ
قد كان ذا والنوى لم تُمس نازلةً ... بعقوتي وغراب البين لم يَصِحِ [٧]
فاليومَ بعدكَ قلبي غـير متسعٍ ... لما يسرُّ وصدري غـير منشرِحِ

---

١ استحلّ ٢ التولية اعقدها ٣ خطة المحتسب وهو الذي وكل اليهِ ضبط الموازين ونحو ذلك ٤ احد الائمة الاثني عشر ٥ اتبَعوا ٦ الحرام والفحش ٧ النوى البعد والاغتراب والعَقوة ما حول الدار

وطائرٍ ناحَ في خضراءَ مؤنقةٍ ... على شفا جدولٍ بالعشب متّشحِ [١]
بكى وناحَ ولولا انــهُ سَبَبٌ ... لكان قلبي لمعنى فيه لم يَنُحِ
بيني وبينك ودٌّ لا يغيّـره ... بُعدُ المزار وعهدٌ غير مطّرَحِ
فما ذكرتُك والاقداحُ دائرةٌ ... الّا مزجتُ بدمعي باكياً قدحي
ولا استمعتُ لصوتٍ فيه ذكرنوى ... الّا عصيتُ عليهِ كل مقترَحِ [٢]

ومن شعرهِ أيضاً :

يا صاحبيّ استيقظا من رقدةٍ ... تزري على عقل اللبيب الاكيسِ [٣]
هذي المجرّة والنجوم كأنها ... نهرٌ تدفّق في حديقةِ نرجسِ [٤]
واري الصبا قد غسّلت بنسيمها ... فعلام شرب الراح غير مغلّسِ [٥]
قوما اسقياني قهوةً [٦] روميةً ... من عهد قيصر دنها لم يُمسَسِ
صِرْفاً تضيف اذا تسلّط حكمها ... موت العقول الى حياة الأنفُسِ

أَلْمُتَنبيّ (٩٦٥م ٣٥٤هـ)

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكوفيّ الملقّب بالمتنبي لادّعائه النبوّة. وُلدَ بالكوفة في محلّةٍ يقال لها كندة فقيل لهُ الكِندي وقدم الشام في صباهُ وجال في اقطارها واشتغل بفنون الأدب ولقي كثيرين من اكابر علماء عصرهِ فتخرّج عليهم فخرج نادرة الزمان في صناعة الشعر لم يبلغ شأوَهُ [٧] في

١ خضراء اي شجرة او روضة خضراء ومؤنقة معجبة وشفاء الجدول حافتهُ ٢ المقترح السائل ٣ تزري تعيب واللبيب العاقل والأكيس الظريف الفطن ٤ المجرة منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة ترى كبقعة بيضاء ٥ الصباريح مهبُّها جهة الشرق والراح الخمر ومغلّس مشروبة في الغلس ٦ خمرة ٧ غايتهُ

العلم والأدب شاعرٌ من معاصريهِ. وكأنّ ما وجد في نفسهِ من قوّة الغارضة ورسوخ[١] ملكة الشعر على حداثة سنّهِ استفزّ[٢] رشدهُ وساعدهُ نزق[٣] الشبيبة فادّعى النبوّة في بادية السماوة. ولما كان المخرقون[٤] لا يعدمون في كل عصرٍ أشياعاً واتباعاً يأخذون بناصرهم تألّب[٥] حوله قوم من رائشي نبلهِ[٦] وفشا أمرهُ في تلك الجهات فخرج اليه لؤلؤ أمير حمص وبدّد شمل أنصاره واعتقله[٧] زماناً. فثابت[٨] اليهِ نفسهُ في الحبس وفارقهُ هوَسه[٩] بالنبوّة في خلوتهِ فاستعطف الامير وتنصّل[١٠] مما قُذف به[١١] فاستتابهُ وأطلقهُ. الاّ ان السجن الذي طهّرهُ من دعوى النبوّة لم يكسر شوكة كبرهِ واعجابهِ بنفسهِ اذ لم يزل الى آخر حياتهِ مفرط الزهو شديد الترفّع يدور حبّ الولاية والرئاسة في رأسهِ. وفي ديوانهِ صدى دائم لما تحدّثه بهِ نفسهُ عن الخروج على السلطان والاستيلاء على بعض الاطراف. ومن قوله في نفسهِ :

إن اكن مُعْجَباً فعُجبُ عجيبٍ   لم يجد فوقَ نفسهِ من مَزيدِ

فترى ان لنفسهِ عندهُ قيمة ليست بقليلة. ولهُ امثال هذا القول شيء كثير وان أحببتَ الوقوف على رأيهِ في الناس فهاك أُنموذجاً كافياً :

ايّ محلٍ أرتقي   ايّ عظيم أتّقي
وكلّ ما قد خلق اَ   للهُ وما لم يخلقِ
محتقرٌ في هِمّتي   كشعرة في مَفرقي[١٢]

---

١ ثبات ٢ استخفّهُ واستدعاه ٣ الخفّة والعجلة في جهلٍ وحمق ٤ المموهون والمختلقون ٥ اجتمع ٦ راش النبل اي السهام لزّق عليه الريش والمراد بهم هنا القائلون بقوله ٧ سجنهُ ٨ رجعت ٩ طرف من الجنون ١٠ تبرّأ ١١ أُتُّهِم ١٢ المفرق مكان فرق الشعر من الراس

وكان اذا مدح اميراً او ملكاً كثيراً ما يحمله صلفه[١] على مخاطبته مخاطبة الندّ لندّه[٢]. وكان الملك في عينيه مقاماً لا يليق بغيره ولا يُغتفر عنده ذنب من حلّ فيه. ومن قوله:

لا تحسبنّ المجد زقّا وقينةً ... فما المجد الا السيف والفتكة البِكرُ[٣]

وتضريب اعناق الملوك وان تُرى ... لك الهبوات السود والعسكر المَجْرُ[٤]

وجنّبني قربَ السلاطين مقتُها ... وما يقتضيني من جماجمها النَسرُ[٥]

وفي هذه الاقوال من حنوّ العواطف على الملوك ما يتعذّر على فوضوّيي[٦] ايّامنا أن يتخطّوه... وكان اوّل ما اشترط على سيف الدولة عند اتصاله به انه لا ينشده الا وهو جالس ولا يكلّف تقبيل الارض بين يديه...

واذا نقبت عن محتد هذا الرجل الفاحش الدعوى وجدت انه كان ابن سقّاء يبيع الماء بالكوفة رزقه الله توفيقاً عجيباً في الشعر فارتفع قدره حتى نادم الأمراء والملوك. وكان للمتنبّي مزايا شريفة في مقابلة كبريائه الذميمة فانه كان وقوراً رصين المقال لا ينطق بالكذب والهزل بعيد الغور عالي الهمّة شجاعاً مشيَّع القلب ولم يؤخذ عليه سوى حرص شديد مع ما كان يصله من ممدوحيه من الاموال الطائلة والجوائز السنيّة. ومدح في اوائل امره أشراف الشام وامراءها ثم اتّصل بسيف الدولة ملك حلب فحظي عنده وأفاض[٧] عليه المال والعطايا فانقطع اليه لا يمدح سواه وله

---

١ عجبه وكبرياؤه ٢ القرن والمساوي ٣ الزقّ وعاء الخمر والقينة المغنية والفتكة المرة من الفتك والبكر التي لا سابق لها ٤ الهبوات الغبرات والمجْر الكثير ٥ المقت البغض والجماجم جمع جمجمة وهي عظم الرأس ٦ نسبة الى الفوضى وهم اعداء كل ذي سلطة ٧ صب

فيهِ القصائد الطنّـانة التي خلّدت ذكر كليهما على مرور الايام وتوالي الأعوام. ولبث في حاشية[١] سيف الدولة تسع سنوات ثم فارقهُ لوحشة جرت بينهما. فقدم مصر ومدح كافوراً الاخشيدي فأجزل عطاياهُ ورغب المتنبّي ولاية عمل من اعمـال مصر فوعدهُ كافور بتحقيق أُمنيّتهِ ولم يوفهِ فحقد عليهِ وفارقهُ وهجاهُ وسار الى بغـداد ثم قصد عضد الدولة بشيراز فمدحهُ وحظي عندهُ. وانصرف عنهُ الى بغداد فالكوفة فعرض لهُ فاتك بن ابي جهل الأسدي في الطريق بجماعة من اصحابهِ ومع المتنـّبي جماعة من اصحابه أيضاً فقاتلوهم فقُتل المتنـّبي وابنهُ محسّد وغلامهُ مفلح

واما شعرهُ فمهما قال اضدادهُ في تحقيرهِ وتعييبهِ فهو غاية الاتقان وكمال الصناعة على قدر ما يُستطاع الكمال في عملٍ بشريّ. وكفاهُ فخراً اشتغال علماء الكلام بشعرهِ حتى شرح ديوانهُ نحو الخمسين من اكابر اهل العلم وجِلّتهم[٢] فألّفوا الكتب في تفسيره وحلّ مشكلهِ[٣] وعويصهِ[٤] وذكر جيدهِ ورديئهِ. وكثر اللغط[٥] بينهم في شأنهِ وتضاربت[٦] آراؤهم فيهِ الى حدّ لم يُرَ لهُ نظير في شعر غيرهِ فنهم من تعصّب لهُ وشمّر عن ساعد الجدّ في مدحهِ والنضح[٧] عنهُ ومنهم من تعصّب عليهِ وأفرغ كنانة[٨] حججهِ في ذمّهِ والقدح فيهِ. وقال الثعالبيّ في «يتيمة الدهر» انّ ذلك الاختلاف اوّل دليل على وفور فضلهِ وتفرّدهِ على اهل زمانهِ بملك رقاب القوافي ورق[٩] المعاني. فالكامل من عُدَّت سقطاتهُ والسعيد من حسبت هفواتهُ وللمتنبي سقطات وهفوات الا انها اذا قيست بحسناتهِ لم تعد شيئاً مذكوراً ولولا إعجاز شعرهِ لما زادت رواتهُ على كرور الزمان ولهجت بذكره

---

١ خاصّة ٢ جمع جليل وهو العظيم والمتقدم ٣ مُبهَمهُ ٤ غامضهُ ٥ الجَلَبَة ٦ اختلفت وارتبكت ٧ الدفاع ٨ جعبة ٩ العبودية

الركبان وعمرت به مجالس الأنس وبحثت فيه حلقات الدرس وجرى على ألسن الخُطباء في المحافل وتمثّلت به الكتّاب في الرسائل. وايّ مجموع أدبٍ يعدّ كاملاً ان لم ترصّع صفحاته بجواهر شعر المتنبّي وبعدائه وتقلّد فضوله بفرائده وروائعه فهو فيلسوف الشعراء غير منازَع وربّ جوامع الكلم في النظم غير مدافع

وللمتنبّي من الشعر الأنيق النسج البديع الوشي ما لا يقع تحت حصر ويجعل المنتقي في حيرةٍ من امره لا يدري ايّ قصائده يختار. وهناك شيئاً من شعره في سيف الدولة من قصيدة يمدحهُ بها ويذكر بناءَه ثغر الحدث

على قدر اهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ [١]
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائمُ [٢]
يكلّف سيفُ الدولة الجيش همّهُ وقد عجزت عنهُ الجيوش الخضارمُ [٣]
هل الحدثُ الحمراء تعرف لونها وتعلم ايُّ الساقيين الغمائمُ [٤]
سقتها الغمامُ الغرُّ قبلَ نزوله فلمّا دنا منها سقتها الجماجمُ [٥]
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا وموج المنايا حولها متلاطمُ [٦]
وكيف ترجّي الرومُ والروس هدمها وذا الطعنُ آساسٌ لها ودعائمُ [٧]
وقفت وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كأنّك في جفن الردى وَهْوَ نائمُ [٨]

١ العزائم جمع عزيمة بمعنى عزم والمكارم جمع مكرمة وهي اسم من الكرم يقول ان العزائم والمكارم تكون دائماً على اقدار فاعليها ومقاماتهم ٢ اي ان صغير القدر يستعظم صغار العزائم والمكارم واما كبير القدر فبعكس ذلك ٣ الخضارم جمع خضرم وهو الكثير من كل شيء ٤ وصف قلعة الحدث بالحمراء لتلطخها بدم الاعداء واراد بالساقيين جاجم الروم وسحائب المطر وكلاهما كانا كالغمائم ٥ الغمام جمع غمامة والغر البيض وهذا البيت تفسير لسابقه ٦ فاعلى اي فاعلاها والقنا جمع قناة وهي الرمح والمنايا جمع منية اي موت ٧ آساس جمع أسّ ٨ الردى الموت اي وقفت حيث لايشك الواقف انه مقتول ولم تصب مع ذلك بضرر فكان عين الموت نائمة عنك

تمرُّ بك الأبطال كلمى هزيمةً ووجهك وَضّاحٌ وثغرك باسمُ ١
حقرت الرُّدينيّاتِ حتى طرحتها وحتى كأن السيف للرمح شاتمُ ٢
ومن طلب الفتحَ الجليلَ فانّما مفاتيحهُ البيضُ الخِفافُ الصوارمُ ٣
الا أيّها السيف الذي ليس مُغمداً ولا فيهِ مرتابٌ ولا منه عاصمُ ٤
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعُلى وراجيك والاسلام أنك سالِمُ ٥

ومن قولهِ يمدحهُ:

الرأيُ قبل شجاعة الشجعانِ هو أوّلٌ وهي المحلُّ الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفس حرّةٍ بلغت من العلياءِ كلَّ مكان
ولَرُبَّما طعن الفتى أقرانَهُ بالرأي قبل تطاعن الأقرانِ ٦
لولا العقول لكان أدنى ضيغمٍ أدنى الى شرفٍ من الانسانِ ٧
قاد الجيادَ الى الطعانِ ولم يقد الاّ الى العادات والأوطانِ ٨
ان خُلّيت رُبطت بآداب الوغى فدعاؤها يُغني عن الأرسانِ
في جحفل ستر العيونَ غبارُهُ فكأنّما يبصرنَ بالآذانِ ٩

كلمى جرحى وهزيمة مهزومة ووضاح مشرق والثغر مقدم الفم ٢ الردينيات الرماح اي ان اعتمادك على السيف شان الشجعان في القتال شرّفهُ بحيث صار لهُ فخراً يعيّر بهِ الرمح المتروك لمن هو اقل شجاعة منك ٣ السيوف القاطعة ٤ اغمد السيف جعلهُ في الغمد ومرتاب بمعنى ارتياب وعصمهُ من كذا حماهُ ٥ الهام الرؤوس والمصدر المسبوك من انك سالم فاعل هنيئاً وهي حال محذوفة العامل والاصل عدت هنيئاً ٦ القرن الكفؤ في الحرب اي ربما غاب الانسان اقرانهُ برأيهِ وحسن تدبيرهِ قبل ان ينازلهم في حومة الوغى ٧ ادنى ضيغم احقر اسد وادنى الى شرف اقرب اليه ٨ يشير الى كثرة وقائعه حتى اعتادتها خيلهُ فاذا قادها الى القتال نشطت لهُ كانما يقودها الى ما ألِفت ٩ الوغى الحرب واراد بآداب الوغى ما دربت عليهِ الخَيل تصلح للقتال والجحفل الجيش الكثير. يصف بهذين البيتين عنايةَ سيف الدولة بتدريب الخيل انفسها على حسن العمل في القتال بحيث

ومن أنيق شعره قوله يصف شِعب بوّان [1] :

مغاني الشِعب طيباً في المغاني	بمنزلة الربيع من الزمان [2]
ولكنّ الفتى العربيّ فيها	غريب الوجه واليد واللسانِ [3]
ملاعبُ جنّةٍ لوسار فيها	سليمانٌ لسار بترجمانِ [4]
طَبَتْ فرساننا والخيلَ حتى	خشيت وان كرُمْنَ من الحرانِ [5]
غدونا تنفض الأغصان فيها	على اعرافها مثل الجُمانِ [6]
فسرت وقد حجبنَ الحرّ عنّي	وجئن من الضياء بما كفاني [7]
وألقى الشرق منها في ثيابي	دنانيراً تفرّ من البنانِ [8]
لها ثمر تشير اليك منهُ	بأشربةٍ وقفن بلا أوانِ [9]
وأمواهٌ تصلّ بها حصاها	صليل الحَلْي في ايدي الغواني [10]

صارت اذا تركت لم تبرح مكانها واذا احتيج اليها اكتفي بندائها فانقادت بالصوت انقياد سواها بالرسن واذا اثار الجيش غباراً يمنعها من النظر تسمعت الاصوات وفعلت ما تقتضيه فاصبحة آذانها بدلاً من اعينها... واذا كان هذا اهتمام سيف الدولة بالخيل فما ظنك بالجند

١ الشعب المنفرج بين جبلين وشعب بوان موضع عند شيراز ببلاد فارس كثير الشجر والمياه يعدّ من جنان الدنيا ٢ المغاني جمع مغنى اي منزل يقول ان منازل شعب بوان بالنسبة الى سائر المنازل بمنزلة الربيع بالنسبة الى سائر فصول السنة ٣ اراد بغريب اليد انهُ لا ملك لهُ فيها ٤ الجنة الجنّ يقول ان الشعب يشبه ملاعب اقام بها اناس كالجنّ بطيب مواطنهم وغرابة لغتهم حتى سليمان نفسه لا يفهمهم لو جاءهم بل احتاج الى ترجمان مع علمهِ باللغات ٥ طباهُ دعاهُ والضمير لمغاني الشعب يقول ان هذه المنازل استمالت قلوبنا وقلوب خيلنا حتى خشيت ان تحرن بنا الخيل فلا تتحول عن هذا المكان وان كانت كريمة لا عادة لها بالحران ٦ الاعراف جمع عرف وهو شعر عنق الفرس والجمان اللؤلؤ . شبه الندى المتساقط من الاغصان بحب الجمان ٧ الضمير في حجبن وجئن للاغصان ٨ البنان اطراف الاصابع واحدها بنانة . شبه ما يتخلل الاغصان من النور بدنانير تقع على الثياب ولا تثبت فيها ٩ أوانٍ جمع آنية جمع اناء ١٠ تصلّ تصوت والغواني

يقول بشعب بوّانٍ حصاني   أعن هذا يُسار الى الطعانِ
أبوكمُ آدمٌ سنَّ المعاصي   وعلّمكم مفارقةَ الجِنانِ [١]

ولهُ أمثال هذه البدائع القصائد الطنّانة في المدح والرثاء والهجاء والفخر والوصف.

أبو فِرَاس (٩٦٧م ٣٥٧هـ)

هو ابو فراس الحارث بن ابي العلاء الحمدانيّ. وهو ابن عم سيف الدولة صاحب حلب ورفيقهُ في غزواتهِ العديدة ببلاد الروم وكان يميّزه بالاكرام على سائر قومهِ. وأُسِرَ أبو فراس مرّتين فالمرّة الأولى لم يتعدَّ به العدوّ قلعة خرشنّة والمرّة الثانية حُمِل الى القسطنطينيّة وأقام في الأَسر أَربع سنين ولهُ في الأسر قصائد كثيرة تُعرف بالروميّات تسيل رقّةً ولطافة يصف بها حالهُ ويردّد فيها حنينهُ الى اهلهِ واخوانهِ. فمن ذلك قولهُ وقد بلغهُ أن والدتهُ قصدت سيف الدولة تكلّمهُ في المفاداة [٢] وتتضرّع إليه فلم يكن عندهُ ما رجت من حسن الايجاب:

ياحسرةً ما اكاد احملها   آخرها مزعج وأوّلُها
عليلةٌ بالشآمِ مفردةٌ   بات بأيدي العدى معلّلُها
تمسك أَحشاءَها على حرَقٍ   تطفئُها والهموم تُشعلُها

جمع غانية وهي المرأة الحسناء والحلي ما يلبس من المصوغات للزينة
١ يقول ان حصاني يعجب من بني البشركيف يدخلون مكاناً طيباً كهذا الشعب ثم يفارقونهُ لينهبوا الى القتال لكنه يعلل ذلك اقتداء الناس بابيهم آدم حين عصى ربهُ فأخرج من الجنة فكان فعلهُ المنكر سنة لبنيهِ من بعدهِ ٢ الاستنقاذ

تسألُ عنا الركبانَ جاهدةً بأدمعٍ ماتكاد تمهلُها

يامن رأى لي بحصنَ خرشنَةٍ أُسدَ الشرى[1] في القيوداً رجلُها

يا أيُّها الركبانُ هل لكمُ في حمل نجوى[2] يخِفُّ محملُها

يا أُمَّتا هذهِ منازلُنَا نتركها تارةً وننزلُها

يا سيّداً لا تعدُّ مكرُمةٌ الاوفي راحتيهِ أكملُها

أنت سماءٌ ونحن أنجمها أنت بلادٌ ونحن أجبلُها

بأيِّ عذرٍ رددتَ والهةً عليك دون الورى معوَّلُها[3]

جاءتك تمتاح ردَّ واحدها تنتظر الناس كيف تُقفِلُها[4]

تلك العقود التي عقدت بنا كيف وقد أُحكمت تحلِّلُها[5]

أرحامنا منك لِمْ تقطعُها ولم تزل دائباً تُوَصِّلُها[6]

وهي طويلة. ومن قولهِ يذكر والدتهُ ايضاً:

لولا العجوز بمَنْبجٍ ما خفت اسباب المنيَّة

ولكانَ لي عمَّا سألتُ من الفدى نفسٌ أبيَّه

لكن أردت مُرادَها ولو انجذبت الى الدنيَّه

أمست بمَنْبجَ حرَّةٌ بالحزن من بعدي حَرِيَّه

فيها التقى والدين مجموعانِ في نفسٍ زكيَّه

لا زال يطرق مَنْبِجاً في كل غادية تحيَّه[7]

يا أُمَّتا لا تحزني وثقي بفضل الله فيَّه

---

١ الشرى مأسدة يضرب بأسدها المثل ٢ النجوى المحادثة سرًّا ٣ الوالهة التي تحيَّرت من شدة الوجد او حزنت شديداً حتى كاد يذهب عقلها والمعول المعتمد ٤ تمتاح تطلب وتقفلها تردها ٥ احكمت عقدت عقداً متقناً ٦ قطع رحمهُ اي قرابته وأسبابها ٧ الغادية السحابة تنشأ غدوة ومطرة الغداة

يا أُمَّتا لا تيأسي ... لله أَلطاف خفيَّه
أُوصيك بالصبر الجميـ ... ـل فانَّهُ خير الوصيَّه

وفي هذه الأبيات من عواطف البرّ والرقّة والحنان ولطف الشعور ما يسبي[١] الفؤاد ويسترقّ[٢] اللبّ وانّهُ لمصداقٌ لما نبَّه إليه علماء الأخلاق من ان قلب البطل الصنديد ومِسعَر الحرب[٣] العنيد مظِنَّة لأرقّ العواطف وأعذبها ممَّا يتوهَّمهُ الانسان لاوَّل وهلةٍ محتكَراً[٤] للفتيات الخَفِرات[٥] من ربّات الحِجال[٦]. فبينا ترى أخا الحرب في حومة الوغى يُفلِّقُ الهام[٧] وينقف[٨] الرقاب لايرتوي من سفك الدماء اذا هـو يبكي وينحب وقد بلغهُ حسرة أُمّه على فراقهِ وتلهُّفها الى رؤيتهِ ان لمع البرق من جهة بلادهِ خفق قلبهُ وتأوّل[٩] لهُ معنى خفيًّا وردّ على أجنحة الريح حنينه الى الوطن وشوقه الى الاهل والخلاّن

وكان ابو فراس فارساً مقداماً عظيم الخطَر[١٠] حرّ الخصال وشاعراً مُفلقاً فخم المعنى جزل اللفظ صادق اللهجة بعيداً عن التخلّق[١١] جامعاً بين الحسن والجودة والعذوبة والفخامة والسهولة والمتانة وهو مرآة العواطف الشريفة المختلجة[١٢] في صدرهِ من المروءَة والعزَّة والاريحيَّة العربيَّة. وكان المتنبّي يشهد لهُ بالتقدّم والتبريز ويتحامى جانبهُ فلا ينبري[١٣] لمباراته ولا يجترئ على مجاراتهِ وانما لم يمدحهُ من آل حمدان تهيُّباً لهُ واجلالاً لا إغفالاً وإهمالاً

ولما مات سيف الدولة رغب ابو فراس في الاستقلال بإمارة حمص. فجرت بينهُ وبين ابن سيف الدولة وقائع هلك في اخداها

---

١ يأسر ٢ يستعبد ٣ مُوقدها ٤ محتبساً ٥ المستحيات أشد الحياء ٦ البيوت المزيّنة للنساء ٧ الرؤس ٨ يكسر ٩ فسَّر وقدَّر ١٠ الشأن ١١ التصنُّع ١٢ المتحركه والمضطربة ١٣ يبرز

كُشاجِم (٩٦١م ٣٥٠هـ)

وهو ابو الفتح محمود بن الحسين الكاتب المعروف بكُشاجم. وهو لقب ركّب من اوائل كلمات كان يوصف بها. فأُخذت الكاف من كاتب والشين من شاعر والألف من أديب والجيم من جميل والميم من مغنّن. وهو شاعرٌ صافي الديباجة نبيه المعاني حسن التشبيهات مؤنق التصرّف في النظم وكان يعدّ ريحانة الأدب في زمانهِ ويضرب المثل بلطائفهِ. وقد أبدع غاية الابداع في تفنّنهِ بالأوصاف. ومن شعرهِ قولهُ يصف وقوع الثلج:

أَلثلج يسقط ام لجين يُسبك ... ام ذا حصى الكافور ظلّ يفرَّك [١]
راحت بهِ أرض الفضاء كأنّها ... في كل ناحيةٍ بثغر يضحكُ
شابت مفارقها فبيّن ضحكها ... طوراً وعهدي بالمشيب يُنسِّك [٢]
أَربى على خضر الغصون فأصبحت ... كالدرّ في قضب الزبرجد يُسلك [٣]
وتردّتِ الاشجار منهُ مُلاءَةً ... عمّا قليلٍ بالرياح تهتّك [٤]
كانت كعود الهند طرّي فانكفا ... في لون ابيضَ وهو اسود أحلك [٥]
والجوّ من داجي الهواء كأنهُ ... خلعٌ تُعنبَرُ تارة وتمسّك [٦]

---

١ اللجين الفضة والكافور نبت طيب زهره كزهر الاقحوان يؤخذ منه طيب كالصمغ ابيض قاسٍ ٢ والمفارق امكنة فرق الشعر من الراس وينسّك يزهّد ٣ أربى زاد والزبرجد حجر كريم يُشبه الزمرُّد أشهره الاخضر ويُسلك ينظم ٤ الملاءة الملحفة وتهتك تخرق ٥ عود الهند خشب يتبخر بهِ وطرّي جعل طريّاً وانكفأ عاد وصار ٦ داجي مظلم والخلع الأثواب تُعطى منحة وتعنبر تُطيَّب بالعنبر

وانهب من الأَوتار حظك انّما يتحركّ الاطراب حين تحرّكُ [١]
فاليوم بوزن بالملاحم إنّهُ سيُطلّ فيه دم الدنان ويسفكُ [٢]

ومن قوله يرثي سكّيناً سُرقت لهُ :

يا قاتل الله كتّاب الدواوين ما [٣] يستحلّون من أخذ السكاكين
لقد دهاني لطيفٌ منهمُ ختلٌ [٤] في ذات حدٍّ كحدّ السيف مسنونِ
فأَقفرت بعد عمرانٍ بموقفِها منها دواةُ فتىً بالكُتْب مفتونِ
تبكي على مدية اودى الزمان بها كانت على جائر الاقلام تُغريني [٥]
كانت تقوّم أقلامي وتنحتها نحتاً وتسخطها بريّاً فتُرضيني
وأَضحك الطرس والقرطاس عن حلل تنوب للعين عن نور البساتينِ [٦]
فان قَشرتْ بها سوداء من صُحفي عادت كبعض خدود الخرّد العِينِ [٧]
هيفاء مرهفة بيضاء مذهَبةٌ قال الالهُ لها سبحانه كوني [٨]
لكن مِقَطّيَ أمسى شامتاً جَذِلاً وكان في ذلّةٍ منها وفي هُونِ [٩]
ولست عنها بسالٍ ما حييتُ ولا بواجدٍ عوضاً منها يُسلّيني

وله في امثال هذه المعاني شيءٌ كثير .

---

١ الإطراب التفريح ٢ الملاحم المواقع العظيمة القتل في الحرب ويطلّ ينهب هدراً ودم الدنان الخمر ٣ ما مصدرية زمانية اي مدة استحلالهم أخذ السكاكين ٤ خدّاع ٥ مدية مبراة اودى اهلك وأضاع وتغريني تحرضني ٦ الطرس الصحيفة والقرطاس الصحيفة التي يكتب فيها نَوْر البستان زهر اشجاره ٧ قشرت محوتُ والخرّد جمع خريدة وهي الجارية المظهرة الحياء والعِين جمع عَيْناء وهي الحسنة العين ٨ هيفاء مرهفة ، دقيقة قاطعة ٩ المِقط ما يقط عليه القلم والهون الخزي

ألصَّنَوبَرِيّ

هو ابو بكر احمد بن محمّد الحلبيّ المعروف بالصنوبريّ. كان شاعراً مطبوعاً فياض القريحة عذب الالفاظ رقيق المعاني واكثر شعره في وصف الرياض وله في ذلك كل معنّى رقيق وقصائده تباري النسيم لطفاً والماء انسجاماً والنَّور[1] المتفتّق عن اكامه[2] بهجةً ووشياً[3] فكأن شعره صورة الموصوفات الساحرة التي تصدَّى لتمثيلها بكلامه فتكاد العين تراها مجسَّمة لديها منبسطة امامها بأنيق زخرفها ورائع ديباجها حتى ضُرب المثل بروضيَّاته وهو القائل :

لو كنت املك للرياض صيانةً يوماً لما وطئ اللئام ترابها

ومن شعره يصف ازهار روضةٍ قوله :

خجل الورد حين لاحظه النر جس من حسنه وغار البهارُ
فعلت ذاك حمرةٌ وعلت ذا صفرةٌ واعترى البهارَ اصفرارُ
وغدا الأُقحوان يضحك عُجباً عن ثنايا لثامهنّ نضارُ[4]
ثم نمَّ النمَّام واستمع السو سن لمَّا أُذيعت الأسرارُ[5]

---

١ الزهر ٢ جمع كمّ وهو غلاف الزهرة ٣ نقش ٤ الأُقحوان نبات لهُ زهر أبيض واوراق زهره مفلجة صغيرة يشبّهون بها الاسنان والثنايا مقدم الاسنان واللثام ما على الانف وماحوله من ثَوْب او نقاب والنضار الذهب ٥ النمّام نبت لهُ بزر كالريحان عطري قويّ الرائحة والسوسن نبات من الرياحين يعرف بالزنبق

عندهـــا ابرز الشقيق خدوداً صار فيها من لطمةٍ آثارُ
سُكبت فوقها دموع من الطـــلّ كما تُسكب الدموع الغزارُ[١]
فاكتسى البنفسج الغضّ أثــوا ب حدادٍ دخانها الاصطبــارُ
وأضرّ السقام بالياسمين الغـــضّ حتى آذى به الاضرارُ
ثم نادى الخيريّ في سائر الزهـــرِ فوافاه جحفل جرّارُ[٢]
فاستجاشوا على محاربة النـــرجس بالجحفل الذي لا يُبَارُ[٣]
أتــوا في جواشنَ سابغاتٍ تحت سجف من العجاج يُثارُ[٤]
ثم لما رأيت ذا النرجس الغضّ م ضعيفـا ما إن لديه انتصارُ
لم ازل اعمل التلطّف للـــورْدِ حــذاراً ان يغلب النوّارُ[٥]
وجمعناهم لدى مجلسٍ فيــــهِ تغنّي الأوتار والاطيارُ

ولهُ في وصف حلب قصيدة رقيقةِ الحواشي تسيل عذوبةً وظرفاً مطلعُها:

إحبِسَا العيسَ أحبِساها وسلا الـــدارَ سلاها[٦]

وهي طويلة جدًّا لم يدع من محاسن حلب شيئاً الا ذكره وتأنّف في وصفه ما شاءَ ذوقهُ السليم وانجدته[٧] قريحته الحافلة

---

١ الطلّ الندى ٢ الخيريّ المنثور الأصفر والجحفل العسكر والجرّار الكثير
٣ إستجاشوا تجمعوا ويُبار يُهلَك ٤ جواشن دروع وسابغات وَاسعات والسجف الستر
والعجاج الغبار ٥ النوّار الزهر ٦ العيس النياق وسلا مخفف إسْألاَ ٧ ساعدته وامدّته

أَلْبُسْتيّ (١٠٠٩م ٤٠٠ هـ)

هو ابو الفتح علي بن محمد البستي. شاعر انيق النظم متفنن في وشي الكلام شريف المعاني حكمي المذهب ولهُ في بعض شعرهِ جناس حسن. فمن ذلك قولهُ مادحاً :

ان هزّ اقلامهُ يوماً ليُعملها ... أنساك كلّ كميٍّ هزّ عاملَهُ [١]
وان أقرّ على رَقٍّ انامِلَهُ ... اقرّ بالرِقّ كتابُ الانامِ لَهُ [٢]

ومن قولهِ :

اذا تحدثت في قومٍ لتؤنِسَهم ... بما تحدّثُ من ماضٍ ومن آتِ
فلا تُعِدْ لحديث انّ طبعَهُمُ ... موكّلٌ بمُعاداة المُعاداتِ

ومن قولهِ في مخالفة ألظاهر للباطن:

وقد يلبَس المرءُ خزَّ الثيابِ ... ومن دونها حالة مضنيَهْ [٣]
كمن يكتسي خدُّهُ حمرةً ... وعلّتها ورمٌ في الرِيَهْ [٤]

ولهُ قصيدة نونية شهيرة أودعها الحكم الرائعة بالعبارة الناصعة [٥]. وهي طويلة منها :

---

١ الكميّ اللابس السلاح والعامل صدر الرمح ٢ الرق بالفتح جلد رقيق يكتب فيه والرق بالكسر العبودية والانامل الاصابع والانام الناس ٣ الخز الحرير ومضنية متلفة ٤ الرية تخفيف الرئة لاهم أعضاء التنفس في الحيوان ٥ البهية

زيادةُ المرءِ في دنياهُ نقصانُ ... وربحُهُ غيرَ محضِ[1] الخيرِ خسرانُ
وكلُّ وِجدانِ حظٍّ لا ثباتَ لهُ ... فانَّ معناهُ في التدقيقِ فقدانُ
أَحسِنْ الى الناسِ تستعبدْ قلوبَهُمُ ... فطالما استعبدَ الانسانَ احسانُ
ياخادمَ الجسمِ كم تسعى لخدمتهِ ... أَتطلبُ الربحَ فيما فيهِ خسرانُ
أَقبِلْ على النفسِ واستكملْ فضائلَها ... فانتَ بالنفسِ لا بالجسمِ إنسانُ

وكلها اقوال سديدة[2] تدلّ على حصافة[3] ناظمها. ولهُ حكم منثورة بديعة منها: «من أَصلح فاسده أَرغم حاسدهُ. عادات السادات سادات العادات. المنيّة تضحك من الأُمنيّة. حدّ العفاف الرضى بالكفاف»

أَلسَّعْدِيّ (١٠١٤م ٤٠٥هـ)

هو ابو نصر عبد العزيز المعروف بابن نُباتة السعدي من فحول الشعراء دقيق النظم محكم السبك ولهُ الشعر السهل المأخذ البعيد المرام. طاف البلاد ومدح الملوك والوزراء والرؤساء ولهُ في سيف الدولة غُرر القصائد ونخب المدائح. ومن شعره ما كتبهُ الى سيف الدولة وكان قد أَهداهُ فرسا ادهم اغر محجّلاً[4]:

يا ايها الملكُ الذي أَخلاقُهُ ... من خَلقهِ ورُواؤُهُ من رائهِ[5]

---

[1] خالص [2] صائبة [3] جودة راي [4] الادهم من الخيل الاسود والاغر الذي في جبهته بياض والمحجل الذي في قوائمه بياض [5] الاخلاق جمع خلق بالضم وهو الطبع والرواء حسن المنظر والراء مقلوب الراي. يصف ممدوحهُ بالكمال فاخلاقه متمة لخلقهِ الجميل كأنها قسمهُ كما ان حسن منظرهِ مستمدّ من اصالة رايهِ

قد جاءنا الطِرْفُ الذي اهديتهُ هـاديه يعقد ارضهُ بسمائه [١]
نختـال منهُ على اغرَّ محجَّلٍ ماء الدياجي قطرة من مائه [٢]
فكأنمـا لطم الصباحَ جبينَهُ فاقتصَّ منهُ فخاض في احشائه [٣]
متمهّلاً والبرقُ من اسمائهِ متبرقعاً والبدر من أكفائه [٤]
ما كانت النيران يكمن [٥] حرُّها لوكان للنيران بعضُ ذكائه
لا تعلق الالحاظ في أعطافـه الا اذا كفكفتَ من غُلَوائه [٦]
لا يكمل الطِرفُ المحاسنَ كلّها حتى يكون الطَرفُ من أُسرائه [٧]

ومن حِكَمهِ :

هل ينفع الفتيانَ حسنُ وجوههم ان كانت الاخـلاق غير حِسانِ
لا تجعل الحسنَ الدليل على الفتى ما كلُّ مصقولِ الحـديد يمـاني [٨]

وحكى ابن نباتة عن نفسهِ قال كنت يوماً قائلاً [٩] في دهليزي فدُقَّ عليَّ الباب ودخل رجل من اهل المشرق فقال: انت القائل :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيرهِ تعددت الاسبابُ والموتُ واحدُ

فقلت «نعم» ولما كان آخر النهار جاء رجل من اهل المغرب وسأل السؤال نفسهُ فعجبت كيف وصل هذا البيت الى المشرق والمغرب

---

١ الطرف الحصان الكريم ويعقد ارضهُ بسمائهِ كناية عن سرعة جريهِ وهاديهِ قائدهُ ٢ نختال نتبختر والدياجي الظلمات ٣ قولهُ فكأنما الخ اشارة الى غرتهِ واقتصَّ منه عاقبه وفاعل اقتص عائد الى الصباح ٤ متبرقعاً متستراً اشارة الى دهمتهِ والاكفاء المماثلون والواحد كفؤ ٥ يختبئ ٦ الاعطاف الجوانب واحدها عطف بالكسر وكفكف كفَّ ومنع والغلواء الحدة ٨ جمع اسير ٨ اليماني السيف المطبوع من حديد اليمن ٩ نائماً القيلولة وهي النوم في منتصف النهار

أَلتِّهامِيّ (١٠٢٥م ٤١٦هـ)

هو ابو الحسن علي بن محمد التهامي. كان شاعراً مبرّزاً حسن الاستنباط رقيق المعاني منسجم القول عذب الالفاظ. ومن لطيف شعرهِ قصيدة رثى بها ولداً لهُ مات صغيراً قال :

حكمُ المنيّة في البريّة جاري ما هذه الدنيا بدار قرارِ [1]
بينا يُرى الانسانُ فيها مخبراً حتى يُرى خبراً من الاخبارِ
طُبعت على كدرٍ وانت تريدها صفواً من الاكدار والاقذارِ [2]
ومكلّفُ الايام ضدَّ طباعها متطلّبٌ في الماء جُذوة نارِ [3]
واذا رجوتَ المستحيل فانما تبني الرجاءَ على شفيرٍ هاري [4]
فالعيش نومٌ والمنيّة يقظةٌ والمرء بينهما خيالٌ ساري
يا كوكباً ما كان اقصر عمرهُ وكذا تكون كواكب الاسحارِ
أَبكيهِ ثم اقول معتذراً لهُ وُفّقت حين تركت أَلأَم دارِ [5]
جاورتُ اعدائي وجاور ربّهُ هيهات بين جِواره وجواري

وزعموا ان خطاياهُ غُفرت لهُ في هذا البيت الاخير كما زعموا انهُ غُفر لابي نواس — وما ادراك من ابو نواس — لقولهِ :

مالي اليك وسيلةٌ الا الرجا وجميلُ عفوك ثم اني مسلمُ

---

١ المنية الموت والبرية الخلق ٢ الكدر نقيض الصفاء والاقذار الاوساخ ٣ جرة نار
٤ شفير الوادي حرفهُ وحافته والهري المتهدم المتساقط ٥ الام من تفضيل اللؤم

وللفرزدق بمدحه زين العابدين. وقد مرّ بك من اخلاق الفرزدق ما فيه الكفاية... وهذه وايم الحق مزية غريبة لشعرائنا على سائر خلق الله بل دالّة [1] عجيبة لهم على المراحم الالهية ان ينالوا سماءً تُخطف خطفاً ويدخلوا جنّة حُفّت [2] بالمكاره في بيت من الشعر

وورد التهامي مصر مستخفياً بكتب من حسان بن مفرّج الطائي الى بني قرّة وكانوا قد خرجوا على الفاطميين فظُفر به وانكشف حالهُ فاعتقلوهُ في خزانة البنود [3] وهي سجن بالقاهرة ثم قتلوهُ هناك سراً.

ألْمَعَرّي (١٠٥٧ م ٤٤٩ هـ)

هو ابو العلاء احمد بن عبد الله التنوخي المعري. وُلد بمعرّة النعمان وبها نشأ وتهذب ومنها انبعثت انوار علمه الى الآفاق فتقاطر اليه طلّاب العلم والحكمة من كل فجٍ وصوب [4]. ولم يغادرها [5] سوى مرتين الى بغداد ولم يطمئنّ لهُ مقام فعاد الى مسقط رأسه ولزم منزلهُ الى وفاته. ومن قوله:

متى سألت بغدادُ عني واهلها ... فاني عن اهل العواصم سآل [6]
اذا جَنَّ ليلي جُنَّ لبّي وزائدٌ ... خفوق فؤادي كلّما خفق الآل [7]
وماء بلادي كان انجع مشرباً ... ولو أنّ ماء الكرخ صهباء جريال [8]

---

١ جراة الصغير على الكبير كجراة الولد على ابويه ٢ احيطت ٣ اعتقلوهُ سجنوهُ والبنود جمع بند بالفتح وهو الراية والعلم ٤ ناحية ٥ يفارقها ٦ العواصم بلاد قصبتها انطاكية ومنها معرة النعمان وسأل كثير السؤال ٧ جن الليل اظلم واللب القلب والآل ما يتلالا عند الظهيرة كأنهُ ماء وليس بماء ٨ انجع انفع والصهباء الخمرة وجريال احمر اللون الكرخ محلة ببغداد

فيـاوطني ان فاتني بك سابقٌ   من الدهر فلينعمْ لساكنك البالُ
فان استطعْ في الحَشرِ[1] آتك زائراً   وهيهـات لي يوم القيامة أشغـالُ

وقال :

فيابرق ليس الكرخ داري وانما   رماني اليها الدهرُ منذ ليالي
فهل فيك من ماءِ المعرّةِ قطرةٌ   تُغيثُ بها ظمآنَ ليس بسالي[2]

ولا بدع في حنين ابي العلاء الى المعرة فان ذا النفس الحرة عبد لوطنه

ولما بلغ ابو العلاء الرابعة من عمره أُصيب بالجدريّ فذهبت لهُ عين ثم غشي اليمنى بياضٌ فكُفَّ بصره. وكان يسمي نفسهُ « رهين المحبسين » اشارة الى عماهُ ولزومهِ لمنزلهِ. الا ان ما رُزق من استنارة البصيرة[3] وتوقد الفؤاد وعجيب الذكاء ونادر الحافظة مهّد له اقتباس العلوم مع انطفاء نور عينيه. فقرأ النحو واللغة على ابيهِ ثم الزمهُ ابوهُ اقطاب العلم فنبغ[4] الفتى في انواع المعارف والآداب وخرج منقطع النظير يقرّ بعلوّ منزلتهِ الكبير والصغير ولا ينازع[5] في رئاستهِ منازع. ونظم الشعر فبرع فيهِ وجمع شعرهُ بنفسهِ في ديوانين يعرف احدهما « بسقط الزّند[6] » وضع لهُ شرحاً سمّاهُ « ضوء السقط » وقد نسج في شعرهِ على منوال المتنبي فأَحسن وأَبدع. والديوان الاخر يعرف « بلزوم ما لا يلزم » اطلق فيهِ العنان لفكرهِ الحادّ ونظرهِ النقاد فخاض عُباب[7] الفلسفة الدينية واعمل رويتهُ في اختلاف الاديان وتناقضِ المذاهب فحار لبّهُ في تتبّع تلك الآراء المتشعبة[8] ثم وجّهُ نظراتهِ الصادقة الى زعماءِ تلك المذاهب فرآهم

---

١ القيامة ٢ تغيث تعين والظمآن العطشان ٣ العقل والفطنة ٤ برع وفاق ٥ يخاصم ٦ ما تقتدح بهِ النار من عود او قطعة فولاذ والسقط بالتثليث الشرر ٧ معظم الماء ٨ المتفرقة

على غير ما يرتأون ويعلّمون فحمل عليهم حملات قوية. وكانت اقوالهُ في كل حين صدى ما يضطرب في فؤاده من العواطف المتباينة [١] ويتوارد على نفسهِ من الانفعالات المتناقضةِ فبدرت منهُ اقوال ينكرها العقل السليم ولا تثبت على محكّ [٢] الناقد البصير. فاتخذها اعداؤهُ سلاحاً عليهِ ورموهُ بالزندقة والكفر. ولما كان يتردد في بغداد على ابي احمد عبد السلام بن الحسن البصري في جماعة من علماء البحث ومحبّي الفلسفة كفّرهُ [٣] جمهور المتعصبين واتهموهُ في صحة اعتقادهِ

ومكث نحو خمس واربعين سنة لا يأكل اللحم لانكارهِ تعذيب الحيوان بالذبح. وهو في ذلك على راي جماعة من المتقدمين. وفي ايامنا عصابة [٤] غير قليلة على هذا المذهب لا يأكلون غير البقول ويعرفون بالنباتيين. فكأن سيرتهُ غير المألوفة وحرّ مقالهِ في انكار ما يراهُ منافياً للحق مهما كان المخطئُ عظيماً مؤمَّراً [٥] اثارا عليهِ خواطر العامة وجمهور المتملقين فتناولوهُ بكل لسان ونعوا عليهِ [٦] كل سيّئة يمكن ان تستنبط من عديد اقوالهِ. وهاك مثالاً يوقفك على طرف من تلك الآراء. فمن ذلك قولهُ متعجباً من تعدد الاديان:

عجبتُ لكسرى واشياعه	وغسلِ الوجوهِ ببول البقَرْ
وقولِ النصارى إلهٌ يضامُ	ويُظلَمُ حيّاً ولا ينتصِرْ
وقولِ اليهودِ إلهٌ يحبّ [٧]	رشاشَ الدماءِ وريحَ القُتَرْ [٨]
وقومٍ اتوا من اقاصي البلادِ	لرمي الجمارِ ولثم الحَجَرْ [٩]
فواعجبا من مقالاتهم	أيعمى عن الحقّ كلُّ البشرْ

١ المختلفة ٢ ما يحك بهِ المعدن ليعرف خالصهُ من زائفهِ ٣ نسبهُ الى الكفر ٤ جماعة ٥ ذا امارة ٦ اظهروا معايبهُ ٧ يؤذي ٨ القتر ما يتصاعد من العظم المحروق ٩ الجمار الحصى واحدها جمرة بالفتح والحجر هو الحجر الاسود الذي في احد اركان الكعبة

إي نعم كلّ البشر عميان ما عدا ابا العلاء ... وفي تردده بين صحة الاديان يقول :

في القدس قامت ضجّة ما بين أحمدَ والمسيحْ
هـذا بناقوسٍ يـدقُّ وذا بمـأذنةٍ يصيحْ
كلٌّ يؤيّدُ دينـهُ ياليتَ شعري ماالصحيحْ

الا ان شكوكهُ لم تكن لتدوم فشمل الكلّ بقوله :

امورٌ تستخفُّ بها حلومٌ ولا يدري الفتى لمن الثبور[١]
كتابُ محمّدٍ وكتاب موسى وانجيلُ ابن مريمَ والزَبور[٢]

وزاد على ذلك بقوله :

اذا رجع الحصيف الى حجاهُ تهاونَ بالمذاهب وازدراها[٣]
فخذ منهُ بما اداهُ لبٌّ ولا يغمسْكَ جهلٌ في صراها[٤]
وهت اديانهم من كل وجهٍ فهل عقلٌ تُشدُّ به عُراها[٥]

فكأن صاحب هذا القول عقليٌّ[٦] ينكر الوحي غير انهُ في موضع آخر ينكر ان يكون العاقل متديّناً بقوله :

هفت[٧] الحنيفة والنصارى ما اهتدت والهودُ حارت والمجوس مضلّلهْ
اثنان اهلُ الارض ذو عقلٍ بلا دين وآخرَ ديّنٌ لاعقلَ لَهْ

---

١ الهلاك ٢ الزبور الكتاب مطلقاً ثم خص بكتاب داود اي المزامير ٣ الحصيف ذو الحصافة اي اصالة الراي والحجى العقل وازدرى احتقر ٤ اللب العقل والصرى الماء طال مكثهُ ففسد ٥ وهى ضعف والعرى جمع عروة وهي ما يتمسك بهِ من حلقة ونحوها ٦ من لايؤمن الا بما يفهمهُ العقل ٧ هفا زلّ

وفي هذا القول من الكذب والافتراء على ارباب العقول والدين ما فيهِ. ومن امثلة اقوالهِ المتناقضة في الحياة الاخروية قولهُ منكراً للبعث:

أأترك شربها صهباءَ صِرفاً[1] لِما وعدوهُ من عسلٍ وخمرِ
حياة ثم موت ثم حشرٌ حديث خرافة يا امَّ عمروِ

وقولهُ وهو اوضح:

ضحكنا وكان الضحكُ منا سفاهةً وحَقَّ لسكان البسيطة ان يبكوا
تحطّمنا الايام حتى كاننا زجاجٌ ولكن لا يعادُ لنا سَبكُ

والناطق بهذه الاقوال الكفرية هو نفسهُ القائل:

فيا ليتني هامدٌ لا أَقومُ اذا نهضوا ينفضون اللِمَمْ[2]
ونادى المنادي على غفلةٍ فلم يبقَ في أُذُنٍ صَمَمْ[3]
وجاءَت صحائف قد ضُمّنت كبائرُ آثامهم واللَمَمْ[4]

وشتان ما بين القولين... وكم لهُ من امثال هذه المناقضات بحيث لم يدع قولاً من اقوالهِ الزائغة[5] الانقضهُ بضدهِ حتى أَصبح الحكم عليهِ من أدق الامور وأَشقها فماذا كان ابو العلاء من حيث الدين. هل كان مسلماً ام نصرانيًا ام يهوديًا ام مجوسيًا. كان كلّ ذلك ولم يكن شيئاً من ذلك. اما النصرانية واليهودية والمجوسية فلا حاجة الى نفيهن عنهُ. وَان كان قد مدحهن في مواضع فقد نبذهنّ في كثير غيرها. واما الاسلام فلم يكن بأَوفر حظاً عندهُ من سائر الاديان. فكم من مرة صوب اليهِ سهام الانكار والاستخفاف

---

١ الصرف الخالص ٢ جمع لمة وهي الشعر المتجاوز شحمة الاذن ٣ طرش ٤ صغار الذنوب ٥ الجائدة عن الصواب

والهزء لا يرى في مناسكه ومذاهبه الا دواعي تعجب وسخرية وهدفاً [١] للوادع لسانه :

اجاز الشافعيُّ فعالَ شيءٍ وقال ابو حنيفة لا يجوزُ

فكأنهُ لم يرَ في اختلاف مذاهب العبادة سوى اسباب لاحتقار الآخذين بها . وهكذا أرضى الكلّ فمدحهم مرة وهجاهم اخرى ثم شملهم جميعاً وتبرّأ منهم كما انهم هم يتبرّأون منهُ

واما حقيقة امرهِ فنظنّ ان الرجل كان أعقل من ان ينكر الله سبحانهُ وتعالى لكنه كان مبلوًّا بداء الشكّ الذي لم يزل آفة [٢] ذوي العقول السامية الذين لا يخضعون لاحكام دين يستند الى اسفار منزلة وهي زلّة لا يعذر عليها عاقل فكيف من كان معجزة العقل في زمانهِ . واما ما في شعرهِ من الاقوال المنكرة فإما أن تكون منحولة [٣] لهُ وهو راي جماعة من علماء النقد وإما ان تكون بدرت [٤] منهُ وهو تحت قبضة الاوهام والاضطرابات العقلية حتى اذا افصمت [٥] عنهُ نوبة السويداء عاد الى مذهب سديد وراي رشيد فنقضها بما يقابلها مقابلة التضادّ . ولا ريب ان الرجل كان سوداويّ المزاج حوشيًّا متبرماً [٦] بالناس . ومن آرائهِ ان ايجاد الولد واخراجهُ الى العالم جناية [٧] عليهِ لانهُ يتعرض للحوادث والآفات... وهو راي فائل [٨] وفي غاية الغرابة يردده كثيراً في لزومهِ . مع انهُ لم يكن ناقماً على ابويهِ ولهُ في رثائهما شعر يدلّ على فرط حنانهِ وبرّهِ بهما. وكانهُ اشفق [٩] ان يُرتاب من رايهِ هذا فأمر ان يكتب على قبرهِ :

---

١ الهدف شيء ينصب على مسافة ويرمى بالسهام ونحوها ٢ عاهة وبلية ٣ نحلهُ الشعر نسبه اليهِ زوراً ٤ سبقت ٥ انفرجت ٦ متضجراً ٧ ذنب ٨ فاسد ٩ خاف

هـذا جناهُ ابي عليَّ   وما جنيتُ على احد

ولأبي العلاء رسائل ومؤلفات منها «اللامع» في شرح شعر المتنبي واختصر ديوان ابي تمام وسماهُ «ذكرى حبيب» وديوان البحتري وسماه «عبث[1] الوليد» وديوان المتنبي وسماهُ «معجز أحمد» وغير ذلك. ونختم هذا الكلام على فيلسوف زمانهِ بأبيات استهلّ[2] بها مرثية احد الفقهاء وهي آية من الآيات العربية في الحكمة والزهد:

غيرُ مُجدٍ في ملّتي واعتقادي   نَوحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِي[3]

وشبيهٌ صوتُ النَّعِيِّ اذا قِيـ   ـس بصوتِ البشيرِ في كلّ نادي[4]

أَبَكَتْ تلكمُ الحمامةُ ام غنَّـ   ـتْ على فَرع غصنها الميّادِ[5]

صاحِ هذه قبورُنا تملأُ الرحـ   ـبَ فأين القبورُ من عهد عادِ[6]

خفِّفِ الوطْءَ ما اظنُّ أديمَ الأ   رضِ الاَّ من هذه الاجسادِ[7]

وقبيحٌ بنا وان قدُمَ العهـ   ـدُ هَوانُ الآباءِ والاجدادِ

سِرْ إنِ اْسطعتَ في الهواء رويداً   لا اْختيالاً على رُفات العبادِ[8]

رُبَّ لحدٍ[9] قد صار لحداً مراراً   ضاحكاً من تزاحم الأَضدادِ

ودفينٍ على بقايا دفينٍ   في طويل الازمانِ والآبادِ[10]

فاسألِ الفرقدينِ عمّن أَحسّا   من قبيلٍ وآنسا من بلادِ[11]

كم اقاما على زوال نهارٍ   وانارا لمُدلجٍ في سوادِ[12]

تعبٌ كلُّها الحياة فما أَعـ   ـجبُ الاَّ من راغبٍ في اْزديادِ

---

١ لعب ٢ افتتح ٣ مجدٍ مفيد والملة المذهب والترنم التطريب والشادي المغني ٤ النعيّ الناعي وهو ضد البشير والنادي المحفل ٥ فرع الغصن اعلاهُ والمياد الميال ٦ الرحب الواسع وعاد اسم قبيلة من العرب البائدة يضرب بها المثل في القدم ٧ اديم الارض وجهها ٨ اختيالا كبراً وعجباً والرفات ما بقي من الميت بعد فساده ٩ قبر ١٠ الدهور ١١ الفرقدان نجمان الى جهة القطب واحس ادرك والقبيل القبيلة وآنس ابصر ١٢ المدلج

إنّ حزناً في ساعة الموت اضعا ف سرورٍ في ساعةِ الميلادِ
خُلق الناسُ للبقاء فضلّت أمّةٌ يحسبونهم للنفادِ [١]
انما يُنقلون من دار اعما لٍ الى دارِ شِقوةٍ اورشادِ
ضجعةُ الموتِ رقدةٌ يستريحُ الـ جسمُ فيها والعيش مثلُ السُّهادِ [٢]

وابو العلاء كلّهُ في هذه الابيات التي نحسبها مرآة تجلّت [٣] فيها نفسهُ الكبيرة وانعكست عليها عواطفهُ الحقيقية مجرَّدة من سفسطات [٤] الفلاسفة ودعاويهم. ولمّا توفّي وقف على قبرهِ نحوٌ من مئة وثمانين شاعراً وقرئ عند دفنهِ سبعون مرثية ومن جملة الراثين فقهاء ومحدّثون وصوفيون

أَلشَّريفُ ٱلرَّضِيّ (١٠١٥م ٤٠٦هـ)

هو ابو الحسن محمّد بن الحسن المعروف بالموسويّ نسبةً الى جدّةٍ ويرتقي نسبه الى عليّ بن أبي طالب. والى شرف محتده يشير بقولهِ من قصيدة كتبها الى القادر باللهِ :

عطفاً أمير المؤمنين فاننـا في دوحة [٥] العلياء لانتفرّقُ
ما بيننا يوم الفخار تفاوتٌ أبداً كلانا في المعالي معرقُ [٦]
الاّ الخلافـة ميزتك فانني أنا عاطلٌ منها وأنت مطوّقُ [٧]

وهو من مفلقي الشعراء ولهُ القِدح المعلّى في النظم البديع الأنيق

السائر ليلاً

١ للفناء ٢ شرود النوم ٣ ظهرت ٤ مغالطات وهي قياس باطل يقصد بهِ تمويه الحقائق
٥ شجرة عظيمة ٦ معرق عريق متأصّل ٧ العاطل الخالي والمطوّق والمزين بالطوق

وشعره رائع الأسلوب صافي الديباجة جامع بين السلاسة والمتانة والسهولة والرصانة فهو السهل الممتنع القريب جناهُ البعيد مداهُ. ومن مشهور شعرهِ وشريف نظمه قصيدة رثى بها أبا اسحاق الصابئ وهي طويلةٌ كلها غُررٌ منها:

أعلمتَ من حملوا على الاعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادي [1]
جبلٌ هوى لو خرَّ في البحر اغتدى ... من وقعه متتابعَ الازبادِ [2]
ما كنت أعلم قبل دفنك في الثرى ... أن الثرى يعلو على الاطوادِ [3]
بعداً ليومك في الزمان فانَّهُ ... أقذى العيونَ وفتَّ في الاعضادِ [4]
كيف انمحى ذاك الجناب وعُطلت ... تلك الفجاجُ وضلَّ ذاك الهادي [5]
هذا أبو اسحاق يَغلَقُ رهنُهُ ... هل ذائدٌ او مانعٌ أو فادي [6]
لو كنت تُفدى لافتدتك فوارسٌ ... مطروا بعارض كل يوم طرادِ [7]
أعزِزْ عليَّ بأن اراك وقد خلت ... من جانبيك مجالس العوَّادِ [8]
أعزِزْ عليَّ بأن أراك بمنزلٍ ... متشابه الامجاد والأوغادِ [9]
قد كنت أهوى ان أُشاطرك الرَّدى ... لكن اراد الله غير مرادي
ولقد كبا طِرف الرقاد بناظري ... منذ افتقدت فلا لعا لرقادي [10]

---

[1] الاعواد الأخشاب وخبا انطفأ والنادي المحفل [2] خرّ سقط ومتتابع متصل والازباد إخراج الزَّبد اي الرغوة [3] الثرى التراب واطواد جمع طود وهو الجبل العظيم شبه المرثي بهِ لعلوهِ [4] أقذى ألقى القذى وفت في العضد أضعفه وكسر قوَّته [5] الجناب الفناء والناحية والفجاج جمع فَج وهو الطريق الواسع [6] غلق رهنهُ صار ملك المرهون عنده والذائد المدافع والفادي المنجّي [7] العارض السحاب يعترض في السماء والطراد النزال والقتال. يقول لو فديت لافتدتك فوارس لم تحدث وقيعة الا شهدوها [8] اعزز على صيغة تعجب اي ما اعزّ عليّ والعوَّاد جمع عائد وهو زائر المريض [9] الكرام واللئام مفردهما مجيد ووغد [10] كبا سقط والطرف الحصان الاصيل ولعاً كلمة تقال للساقط معناها انعشك الله

ثكلتك أرضٌ لم تلد لك ثانياً ... أنّى ومثلك مُعْوِز الميلادِ
من للبلاغة والفصاحة إن همى ... ذاك الغمام وعبَّ ذاك الوادي[١]
من للملوك يحزّ في أعناقها ... بظبىً من القول البليغ حِدادِ[٢]
من للممالك لا يزال يلمّها ... بسِداد ثغرٍ ضائعٍ وسَدادِ[٣]
يا ليت أني ما اقتنيتك صاحباً ... كم قنيةٍ جلبت أسىً لفؤادِ[٤]
لا تطلبي يا نفس خلاًّ بعدهُ ... فلمثلهُ أعيا على المعتادِ[٥]
ان لا تكن من أسرتي وعشيرتي ... فلأنت أعلقهم يداً بودادي[٦]
لك في الحشا قبرٌ وان لم تأوه ... ومن الدموع روائحٌ وغوادي[٧]
ما مات من جعل الزمان لسانهُ ... يتلو مناقب عوّدٍ وبوادي[٨]
فاذهب كما ذهب الربيع واثره ... باقٍ بكل مهابطٍ ونجادِ[٩]

وشعر الشريف الرضي كثيرٌ وكلّهُ من هذا النسج الدقيق والوشي الأنيق. ويُروى أن بعض المتطرّفين في الدين لاموه لكونه وهو شريف قد رثى رجلاً كافراً... فقال « انما رثيت فضلهُ » وهذا القول عين الحكمة والسداد كما أن عذلهُ عين الجهل والرقاعة وهو دليل على نفس كبيرة سامية

---

١ ثكلتك فقدتك وانى اسم استفهام بمعنى كيف وهمى جرى بكسثرة والغمام السحاب وعبّ الوادي امتلأ ٢ يحزّ يقطع وظبى جمع ظبة وهي حدّ السيف وحداد حديد اي قاطع ٣ يلمها يجمعها والثغر المحل يخشى هجوم العدو منه وسداد الثغر اصلاحهُ والسداد صواب الراي والاستقامة ٤ اقتنيتك اتخذتك والقنية الشيء المقتنى والاسى الحزن ٥ الخل بمعنى الخليل واعيا اعجز ٦ الاسرة اهل الرجل والعشيرة القبيلة واعلقهم يداً اشدهم استمسا كاً ٧ اوى المنزل سكنهُ والروائح مطرات المساء والغوادي مطرات الصباح ٨ المناقب المحامد وعوّد جمع عائدة وبوادي مخفف بوادىء جمع بادئة اي ان لسان الزمان يتلو مناقبك عوداً على بدء لا يكاد يفرغ من التحدث بها حتى يعود اليها ٩ المهابط جمع مهبط وهو ما انخفض من الارض والنجاد جمع نجد وهو ما ارتفع من الارض

أعلى من أن تعتبر مذهب الرجل في تقدير مزاياه وارفع من ان تلج عليها عواطف تعصّب ذميم فيما لاعلاقة بينه وبين الدين

وكان أبو الشريف الرضيّ يتولّى نقابة [١] الطالبين والنظر في المظالم والحجّ بالناس ففوّضه هذه الاعمال كلّها. وينسب الى الشريف الرضيّ جمع كلام عليّ بن أبي طالب في كتاب عنوانه «نهج [٢] البلاغة» وقد مرّ الكلام عليه في ترجمة عليّ.

إبنُ ٱلهَبّاريَّة (١١١٠م ٥٠٤هـ)

هو الشريف ابو يعلى محمّد بن محمّد وينتمي نسبه الى عبد الله بن العباس وعُرف بابن الهبّاريّة نسبةً الى هبّار جدّه لأمّه. كان شاعراً مجيداً سيّال القريحة لكنّه خبيث اللسان كثير الهجاء والوقوع في الناس وقد سبك في قالب ابن الحجّاج وسلك أسلوبه وفاقه في الخلاعة... فانظر لايّ أستاذ تتلمذ وايّ أسوة اتخذ مع ما هو عليه من شرف العشيرة. فشتّان بين الشريفين الشريف الرضيّ والشريف أبي يعلى ... وما المرء الاّ ابن عمله شرُف او وضُع والنظيف من شعره سهل المتناوَل كثير الطُلاوة. فمنه قوله يردّ على من يقول «انّ السفر به يبلغ الوطر [٣]»

قالوا أقمتَ وما رزقت وانّما بالسير يكتسب اللبيب ويُرزقُ
فأجبتهم ما كل سيرٍ نافعاً الحظّ ينفع لا الرحيل المُقلقُ

---

١ مرتبة النقيب اي شاهد القوم وضمينهم وعريفهم ٢ الطريق الواضح ٣ المراد

كم سفرةٍ نفعت وأخرى مثلها ضرّت ويكتسب الحريص ويُخفِقُ[١]
كالبدر يكتسب الكمال بسيره وبه اذا حرم السعادة يُمحقُ

وكان ابن الهبّارية ملازماً لخدمة نظام الملك الوزير وله عليه الانعام التامّ والادرار المستمرّ[٢]. فأطمعه تاج الملك أبو الغنائم بمالٍ جزيل ان هو هجاه فقال «كيف أهجو شخصاً لا أرى في بيتي شيئاً الاّ من نعمتهِ» فقال «لا بُدّ من هذا» فعمل هذه الأبيات:

لاغروَ ان ملك ابن اسـ ـحاقٍ وساعده القَدَرْ
وصفت لهُ الدنيا وخُصَّ أبو الغنائم بالكَدَرْ
فالدهر كالدولاب ليـ ـسَ يدور الا بالبَقَرْ

وهذا كما ترى شكرانٌ غريب على ما قلَّده[٣] ذلك الرجل من النعم وطوَّقه[٤] من المنن[٥] فكأن جاحد النعمة أفعى كل ما يتناوله يعود في جوفه سمّاً ناقعاً... ولم يكن نظام الملك ليحقد عليه بل زاد مكرُمةً على مكارمهِ الشهيرة وسعة حِلمهِ بأن أغضى[٦] عليه بل بالغ في الافضال عليهِ شأن النفوس الشريفة. ومن شعر ابن الهبّارية في الهزل قوله:

يقول أبو سعيدٍ اذ رآني عفيفاً منذ عامٍ ما شربتُ
على يدِ أيِّ شيخٍ تُبتَ قل لي فقلتُ على يدِ الافلاس تبتُ

ولابن الهباريّة من المؤلفات كتاب «نتائج الفطنة في نظم كليلة

١ الحريص الشديد الشره ويُخفق يخيب ويرجع صفر اليدين ٢ الادرار المستمرّ الإنعام المتصل مأخوذ من ادرت الناقة اذا كثر لبنها وجرى ٣ أناله ٤ صنع اليه. وكلاهما مستعاران من الطوق والقلادة استعارة مكنية اذ شبه المعروف بالطوق والقلادة ثم ترك كلاًّ منهما واثبت شيئاً من لوازمه ٥ المنن جمع منة وهي الاحسان ٦ سكت

ودمنة » وكتاب « الصادح والباغم[1] » وهو مجموع اراجيز نظمها على أُسلوب كليلة ودمنة .

أَلطُّغْرَائِيّ (١١١٩م ٥١٣هـ)

هو مؤيّد الدين أبو اسماعيل الحسين بن عليّ الاصبهانيّ المعروف بالطُّغرائي كان غزير الفضل وافر الادب وقد فات أهل عصرهِ بصناعتي النظم والنثر. واتّصل بالسلطان مسعود بن محمّد السلجوقيّ بالموصل فوزر لهُ وكان يُنعت بالأُستاذ. ولما جرت بين السلطان مسعود وبين أخيهِ السلطان محمود المصافّ[2] بالقرب من همذان كانت النصرة لمحمود فأُخذ الطغرائيّ وقيد الى محمد فأغراه[3] وزيرهُ نظام الدين السُّمَيْرَميّ بقتلهِ حسداً وخوفاً. وكان أحد الكتاب المدعوّ الشهاب أسعد في الحضرة وهو اذ ذاك طغرائيٌّ بالنيابة عن النصير الكاتب فقال «هذا الرجل مُلحِد» يعني الاستاذ ابا اسماعيل. فقال السُّمَيْرَميّ « من يكن مُلحداً يُقتَل » فقُتل ظلماً

وشعر الطغرائي جيد السبك عامر الابيات منسجم العبارة حكميّ فائقٌ. ولهُ قصيدة شهيرة طنّانة كلّها دُرر تُعرف « بلاميّة العَجَم » نظمها ببغداد مُعارضاً «لامية العرب» للشنفرى التي مرّ ذكرها في حينها. وقد ضمّن هذه القصيدة الآيات الرائعة والحِكم الناصعة. ويتّضح جليًّا من

---

١ صدح الطائر صاح وبغمت الظبية صاحت بصوت رخيم تدعوولدها ٢ جمع مصفّ وهو الموقف في الحرب ٣ حضّهُ

المقابلة بين كلتا القصيدتين تأثير البيئة[١] في المرء. فانك بينا تسمع الشنفرى يُنشد لاميّته فتتمثل لك خشونة البداوة في التعبير الضخم واللفظ الوحشيّ والمعنى الغريب حتى يفتخر بتلبُّد شعَره وتراكم الأوساخ عليه فصار كأذناب الابل يعلوه العَبَس[٢] اذا بالطغرائي يُشنف الاسماع بمنظومة هي الغاية في عذوبة اللفظ وانسجام البيت ورقّة المعنى وشرفه. فكأن لاميّته مرآة صقيلة تتراءى فيها أخلاق رجل فاضل عرف أعالي الأمور وأسافلها وذاق من الدهر حلوه ومرّه فأصبح ذا حُنكة[٣] ودربة في سياسة الزمان فيحذر منه ويهتك الستر عن غدره وتلوّنه قال:

أصالة الرأي صانتني عن الخَطَلِ   وحلية الفضل زانتني لدى العَطَلِ[٤]

مجدي أخيراً ومجدي أوّلاً شَرَعٌ   والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفَلِ[٥]

فيمَ الإقامة بالزوراء لا سكَني   فيها ولا ناقتي فيها ولا جَمَلي[٦]

ناءٍ عن الاهل صفر الكفّ منفردٌ   كالسيف عُرّيَ متناهُ عن الخِلَلِ[٧]

أُريد بسطةَ كفٍّ أستعين بها   على قضاء حقوق للعلى قِبَلي[٨]

انّ العلى حدّثتني وهي صادقةٌ   فيما تُحدّث أنّ العزّ في النقَلِ

أهبت بالحظّ لو ناديتُ مستمعاً   والحظّ عنّيَ بالجهّال في شغُلِ[٩]

أُعلّلُ النفس بالآمال أرقبها   ما أضيق العيش لولا فسحه الأمَلِ

---

١ ما احاط بالمرء وأثّر في اخلاقه ٢ ماتعلق بأذناب الابل من ابعارها وابوالها يجف عليها ٣ تجربة وحكمة واختبار ٤ اصالة الراي صوابه والخطل فحش الكلام وفساد المنطق والفضل الأدب والعطَل مصدر عطلت المرأة اذا خلت من الحلى اراد به طرده من الوزارة ٥ شرع اي سواء ورأد الضحى وقتهُ والطفل ميل الشمس الى الغروب ٦ الزوراء لقب بغداد والسكن ما يأنس به الانسان من زوجة أو ولد وفي البيت تضمين للمثل السائر لاناقة لي في هذا ولا جمل ٧ ناء بعيد ومتنا السيف جانباهُ والخِلَل جمع خِلة وهي قراب السيف وما جعل فيه من الزينة ٨ العُلى جمع علياء وهي المراتب العالية والخصال الحميدة ٩ اهبت به ناديته والحظّ النصيب من الخير

ما كنت أوثر أن يمتدّبي زَمَني	حتّى أرى دولة الأوغاد والسفَل [١]
تقدّمتني أناسٌ كان شوطهم	وراءَ خطويَ اذ أمشي على مَهَل [٢]
أعدى عدوّك أدنى من وثقت بهِ	فحاذر الناس واصحبهم على دَخَلِ [٣]
وانمّا رجل الدنيا وَواحدها	من لا يعوّل في الدنيا على رَجُلِ [٤]

وهذا القدر كافٍ في هذا المقام لتعريف مزيّة القصيدة. ويُعرف أبو اسماعيل بالطُّغرائيّ لأنهُ كان مقلَّداً كتابة الطُّغراء وهي هذه الحروف المشبّكة التي تُطبع على السكة [٥] وفي راس المناشير [٦] السلطانيّة للدلالة على صحتّها ومضمونها نعوت الملك الذي صدر الكتاب عنهُ — وزاول الطُّغرائيّ صناعة الكيمياء أيضاً وهي من أضاليل عصره العلميّة وقلّما خلا من القول بها فاضلٌ .

ألأَرَّجانِيّ (١١٤٩م ٥٤٤هـ)

هو ناصح الدين ابو بكر أحمد بن محمّد الأرَّجَانيّ. وُلد بأرَّجان من بلاد فارس الا أنهُ عربي الاصل ينتمي نسبهُ الى الأنصار وتخرّج في العلوم بالمدرسة النظاميّة بأصبهان وبرع بالشعر والفقه وكان ينوب في القضاء ببلاد خوزستان تارة بتُستَر وتارة بعَسْكَر مُكرم والى ذلك يشير بقولهِ :

---

١ أوثر أختار وأفضل والوغد الساقط الهمة ٢ الشوط الطلق وأشدّ حركة الفرس ٣ الدخل المكر والغش ٤ يعوّل يتّكلُ ٥ حديدة منقوشة تضرب عليها النقود وتطلق على النقود نفسها ٦ ما كان غير مختوم من كتب الملوك

ومن النوائب أنَّني في مثل هذا الشغل نائب
ومن العجائب انَّ لي صبراً على هذي العجائب

وفي تعاطيهِ الشعر والفقهِ يقول :

أنا أشعر الفقهاء غيرَ مُدافعٍ في العصر او أنا أفقهُ الشعراءِ
شعري اذا ما قلت دوّنهُ الورى بالطبع لا بتكلّف الالقاءِ
كالصوت في ظلل الجبال اذا علا للسمع هاج تجاوب الأَصداء

وكان رفيع المكانة في الناس مُبجّلاً مكرَّماً. وشعرهُ جامعٌ بين العذوبة والصفاء والتفنن اللطيف وسداد[1] المغزى. ومن شعرهِ قولهُ :

شاور سواك اذا نابتك نائبةٌ يوماً وان كنت من أهل المشوُرات
فالعين تنظر ما منها دنا ونأَى[2] ولا ترى نفسها الا بمِرآةِ

ومن قولهِ :

سأل الفضا عنهُ وأصغى للصدى كيما يجيب فقال مثل مقالهِ
ناداهُ أين ترى محطّ رحالهِ فأجاب أين ترى محط رحالهِ

وقال في الصديق الامين — والبيت الثاني يُقرأ طرداً وعكساً :

أُحبُّ المرءَ ظاهرهُ جميلُ لصاحبهِ وباطنهُ سليمُ
مودّتهُ تدوم لكلّ هولٍ وهل كلٌّ مودّتهُ تدومُ

ومن شعرهِ أيضاً :

ما جُبتُ آفاق البلاد مطوّفاً الاّ وانتم في الورى مطّلبي

---

١ استقامة وصواب ٢ دنا قرب ونأى بَعُد

سعي اليكم في الحقيقة والذي تجدون عنكم فهو سعي الدهر بي
انحوكم ويُردّ وجهي القهقرى[1] عنكم فسَيْري مثل سَير الكوكب
فالقصدُ نحو المشرق الاقصى لكم والسيرُ رأيَ العين نحوَ المغرب

إبنُ التَّعَاوِيذِيّ (١١٨٨ م ٥٨٤ هـ)

هو أبو الفتح محمّد بن عُبيد الله المعروف بسبط بن التعاويذيّ نسبةً الى جدِّهِ لأمّه وهو أحد الزهاد المشهورين كان يكتب التعاويذ[2] فاشتهر بها ونُسب اليها. وهو الذي كفل حفيده[3] صغيراً ونشأ في حجرهِ. وابن التعاويذيّ من فحول الشعراء وامراء الكلام وقد جمع شعرهُ بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ورقة المعاني ودقّتها. كان كاتباً بديوان المقاطعات ببغداد وعمي في آخر عمرهِ ولهُ في عماهُ اشعار كثيرة يرثي بها عينيهِ ويندب زمان شبابهِ. وكان باسمهِ راتب في الديوان فلما عمي التمس ان يُنقل باسم اولادهِ. الاّ أن هؤلاء الاولاد لم يكونوا أهلاً لمثل هذه الثقة من لدن أبيهم فانهم عقّوه[4] ولم يعرفوا لهُ مِنّتهُ وتركوهُ وشأنهُ فعضّهُ الفقر بنابهِ حتّى اضطُرَّ الى انفاذ[5] قصيدة الى الامام الناصر لدين الله يسترحمهُ بها ويسألهُ ان يجدّد لهُ راتباً لمدّة حياتهِ. منها:

خليفةَ الله أنت بالدين والـ ـدنيا وأمر الاسلام مضطلِع[6]
أنت لما سنّهُ الأئمّةُ اعـ ـلام الهدى مقتفٍ ومتّبع[7]

---

١ الرجوع الى الوراء ٢ جمع تَعْويذة اي رقية وهي ما يكتب ويعلق على الانسان ليقيهُ في زعمهم من الجنون والعين ٣ ابن ابنهِ ٤ عصوه وتركوا الشفقة عليهِ والاحسان اليه ٥ ارسال ٦ قائم ٧ سنّه وضعه والهدى ضد الضلال ومتأثر وتابع

قد عدم العُدم في زمانك والـ جَور معاً والخلاف والبدع[١]
أرضيَ قد أجدبت وليس لمن أجدب يوماً سواك مُنتَجع[٢]
ولي عيـــالٌ لا درّ درّهمُ قد أكلوا دهرهم وما شبعوا[٣]
اذا رأوني ذا ثروةٍ جلسوا حولي ومالوا اليّ واجتمعوا
وطالما قطّعوا حباليَ إعـ ـراضاً اذا لم تكن معي قِطَع[٤]
يمشون حولي شتّى كأنّهمُ عقاربٌ كلّما سعَوا لسعوا
فمنهم الطفل والمراهق والـ ـرضيعُ يحبو والكهل واليَفَع[٥]
لهـم حلوقٌ تفضي إلى معدٍ تحمل في الأكل فوق ما تَسَع[٦]
من كلّ رحب المعاء أجوفهُ ناري الحشا لا يمسّهُ الشَّبَع[٧]
لا يحسنُ المضغ فهو يترك في فيه بــلا كلفةٍ ويبتلع[٨]
ولي حديثٌ يلهو ويعجبُ من يُوسعُ لي خلقهُ فيستمع
نقلتُ وسمي جهلاً الى وُلُدٍ[٩] لستُ بهم ما حييت انتفع
نظرت في نفعهم وما أنا في اجـ ـتلابِ نفع الأولاد مبتدع[١٠]
وقلت هذا بعدي يكون لـكم فما أطاعوا أمري ولا سمعوا
واختلسوهُ[١١] مني فما تركوا عيني عليهِ ولا يـدي تقع
فبئس والله ما صنعتُ فأضـ ـررت بنفسي وبئس ما صنعوا

---

١ عدم فقد والعدم الفقر والجور الظلم والبدع جمع ابدعة وهي عقيدة أحدثت تخالف الايمان ٦ أجدبت أمحلت والمنتجع الموضع يقصدهُ الناس في طلب الكلأ ٧ لادرّ درّهم لاكثر خيرهم ٤ قطّعوا حبلي هجروني والاعراض الصدّ والقِطع النقود ٥ المراهق الغلام اذا قارب الحلم والرضيع الولد قبل فطامة يحبو يزحف على يديهِ وبطنهِ والكهل من كانت سنو عمره بين الثلاثين والخمسين واليفع واليافع الغلام المترعرع المقارب البلوغ ٦ تفضي تُوصل ٧ رحب واسع ناري الحشا شديد الهضم ٨ المضغ لوك الطعام ٩ جمع وَلَدٍ ١٠ سابق غيري ١١ سلبوهُ

فان اردتم أمراً يزول به الـ خصام من بيننا ويرتفعُ
فاستأنفوا لي رسماً أعود على ضنك معاشي بـه فيتّسعُ [١]
وان زعمتم اني أتيت بها خديعةً فالكريم ينخدعُ
حاشا لرسم الكريم يُنْسَخُ من نسخ دواوينكم فينقطعُ [٢]
فوقعوا لي بما سألتُ فقد أطمعتُ نفسي واستحكم الطمعُ
ولا تطيلوا معي فلست ولو دفعتموني بالراح [٣] أندفعُ
وحلّفوني ان لا تعود يدي ترفع في نقله ولا تَضعُ

فأمر الخليفة باعادة راتبهِ . ومن هذه الأبيات يستدل ان ناظمها مالك أزمّة الكلام ورقاب المعاني يتصرّف فيها كيف شاء. وجمع ابن التعاويذيّ ديوانهُ بنفسهِ قبل عماهُ وكل ما جدَّدهُ بعد ذلك سمّاه « الزيادات » .

إبن ٱلنَّبِيه (١٢٢٢ م ٦١٩ هـ)

هو كمال الدين أبو الحسن عليّ بن محمّد المعروف بابن النبيه المصريّ من محسني الشعراء واكثر شعرهِ في مدح بني أيّوب اتّصل بالملك الأشرف موسى وكتب لهُ الانشاء بنصيبين . ومن شعرهِ قولهُ يرثي ولد الناصر بالله :

ألناس للموت كخيل الطِراد فالسابقُ السابقُ منها الجوادْ [٤]
والله لا يدعو الى دارهِ الا من استصلح من ذي العبادْ

---

١ استأنفوا جددوا والضنك الضيّق ٢ ينسخ يمحى ٣ جمع راحة وهي باطن الكفّ
٤ الطراد حمل الفرسان بعضهم على بعض والجواد الكريم

والموت نقّادٌ على كفّهِ جواهرٌ يختارُ منها الجيادْ
والمرء كالظلّ ولا بُدّ ان يزول ذاك الظلّ بعد امتدادْ
لا تصلح الأرواحُ الا اذا سرى[١] الى الاجساد هذا الفساد
أرغمت ياموت أُنوف القنا ودست أعناق السيوف الحدادْ[٢]
مصيبةٌ أذكت قلوب الورى كأنّما في كلّ قلبٍ زِنادْ[٣]
ياناثماً في غمرات الردى كحلت أجفاني بميل السُهادْ[٤]
ويا ضجيعَ الترب أقلقتني كأنّما فرشي شوك القتادْ[٥]
دفنت في الترب ولو أنصفوا ما كنت الا في صميم الفؤادْ[٦]

وشعر ابن النبيه سهلٌ عذب رقيق ولهُ أيضاً نثر لطيف أنيق.

إِبْنُ الفَارِض (١٢٣٤ م ٦٣٢ هـ)

هو أبو حَفْص عُمر بن عليّ المعروف بابن الفارض. أصلهُ من حماة ووُلد بالقاهرة وبها قضى معظَم حياتهِ وتُوفّي. قدم مكّة وجاور بها زماناً ولهُ ديوان شعرٍ مشهور بين العامّة والخاصّة وأُسلوبهُ رائقٌ ظريف وشعرهُ كُلُّهُ ما عدا مقطّعات قليلة في المعاني الصوفيّة وقد جرى على مُصطلحهم في العبارة والمنهج فنشد القصائد الطويلة في الخمرة

---

١ دبّ واتصل ٢ القنا الرماح والحداد القواطع ٣ أذكت أضرمت والزِناد جمع زَند وهو العود الذي يقتدح به ٤ غمرات جمع غمرة وهي شدة الشيء والميل الملول اي المرود الذي يكتحل بهِ والسهاد عدم النوم ٥ القتاد شجر صلب لهُ شوك كالابر ٦ انصفوا عدلوا

والحبّ وهو إنّما يريد وصف الذات الآلهيّة والتغزّل الروحي على ما يقولون. وله في المعاني والأغراض الخاصّة بالمتصوّفين تائيّتان تُعرف احداهما بالصغرى تبلغ مائة وثلاثة ابيات ومقدار الكبرى سبعمائة وستة وأربعون بيتاً وهما تستغرقان نصف الديوان ولا يكاد يُطالعهما الاّ من رُزق نصيباً وافراً من الجلد[١] والرغبة في حلّ رموز الصوفيّة بعكس بقيّة قصائده فهي متناقلة مشهورة يرويها الكبير والصغير لما هي عليه من السهولة والرقة والعذوبة التي ليس بعدها من مزيد. وقصيدته اليائيّة التي يُفتتح بها ديوانهُ ومطلعها:

سائق الاظعان يطوي البيد طَيْ   منعماً عرّجْ على كثبان طَيْ[٢]

أشهر من نار على علَم وهي على طولها تذوب لُطفاً ورونقاً وتفنّناً في ضروب الجناس ولا يؤخذ عليه سوى هذه القافية الغريبة التي بناها عليها وقد اضطرّته[٣] أحياناً الى الاغراب والتكلّف مما ليس من طبعه في سائر قصائده. غير أنّه قد يمكن ان تكون هذه القافية هي التي حبّبت الى كثيرين رواية هذه القصيدة وتحفّظها. ومن مشهور شعره قصيدتهُ الميميّة في الخمرة منها:

شربنا على ذكر الحبيب مُدامةً   سكرنا بها من قبل ان يُخلق الكرم[٤]

لها البدر كاس وهي شمس يُديرها   هلالٌ وكم يبدو اذا مزجت نجْمُ[٥]

ولولا شذاها ما اهتديت لحانها   ولولا سناها ما تصوّرها الوهم[٦]

---

١ الصبر ٢ الاظعان جمع ظعن جمع ظعينة وهي المرأة بالهودج والبيد الفلوات وطي الأولى مصدر طوى وعرّج مال وكثبان جمع كثيب وهو تل الرمل وطي الثانية اسم قبيلة ٣ أحوجته ٤ المدامة الخمرة وقيل اراد بها المعرفة الالهية ٥ مراده ان هذه الخمر شمس في كاس كالبدر يقدمها هلال فاذا مزجت بالماء يبدو على وجهها أنجم اي حباب كثيرة ٦ الشذا الرائحة الزكية الشديدة والحان حانوت الخمار والسنا النور والوهم الخيال

ولم يبقِ منها الدهر غير حشاشةٍ   كأنّ خفاها في صدور النُهى كتمُ [١]

ثمّ أخذ في تعداد صفاتها العجيبة ومزاياها الغريبة من ابراء الأسقام الى إحياء الموتى قال :

يقولون لي صفها فأنت بوصفها   خبيرٌ أجل عندي بأوصافها علمُ
صفاءٌ ولا ماءٌ ولطف ولا هوا   ونورٌ ولا نارٌ وروحٌ ولاجسمُ
تقدّم كلّ الكائنات حديثها   قديماً ولا شكلٌ هناك ولا رسمُ [٢]
وقامت بها الأشياء ثمَّ لحكمةٍ   بها احتجبت عن كلّ من لاله فهمُ [٣]
وهامت بها روحي بحيث تمازجا أ   تحاداً ولا جِرمٌ تخلّله جِرمُ [٤]
فخمرٌ ولا كرمٌ وآدم لي آبٌ   وكرم ولا خمرٌ ولي أُمّها امُّ
ولا قبلها قبلٌ ولا بعد بعدها   وقبليّة الابعاد فهي لها حتمُ [٥]
وقالوا شربت الاثم كلاً وانّما   شربت التي في تركها عنديَ الاثمُ [٦]
فدونكها في ألحان واستجلها به   على نغمِ الألحان فهي بها غُنمُ [٧]
فما سكنت والهمَّ يوماً بموضع   كذلك لم يسكن مع النغمِ الغمُ
وفي سكرةٍ منها ولو عُمرَ ساعةٍ   ترى الدهر عبداً طائعاً ولك الحكمُ
فلاعيش في الدنيا لمن عاش صاحياً   ومن لم يمُت سُكراً بها فاته الحزمُ [٨]
على نفسهِ فليبكِ من ضاع عمرهُ   وليس له فيها نصيبٌ ولا سهمُ

---

١ الحشاشة بقية الروح في المريض والخفا الخفاء والنهى جمع نهية وهي العقل والكتم الستر والاخفاء ٢ حديثها جديدها والشكل الصورة والرسم الاثر ٣ قامت ثبتت وثم هناك واحتجبت استترت ٤ هام به اولع وتمازجا اختلطا وجرم الشيء مادته وتخلله دخل في خلاله وبين أجزائه ٥ الحتم اللزوم والوجوب ٦ الاثم الاولى من اسماء الخمرة والاثم الاخيرة الذنب ٧ دونكها خذها والحان حانوت الخمار واستجلها اطلب جلاءها والغنم الغنيمة ومراده ان انجلاء الخمرة في الحان على نغم الالحان غنيمة ٨ الحزم الأخذ بالثقة والرأي السديد

وهذا القدر كافٍ للوقوف على كيفيّة تعبير هؤلاء المتصوّفين . ولقّب أبو الشاعر بالفارض لانّهُ كان يكتب الفروض للنساء على الرجال.

ألشَّوَّاء (١٢٣٠م ٦٢٨هـ)

هو ابو المحاسن يوسف بن اسماعيل الحلَبيّ المعروف بالشوَّاء . كان أديباً فاضلاً مُتقناً لعلم العَروض والقوافي شاعراً يقع لهُ في النظم معانٍ بديعة في البيتين والثلاثة وكان كثيراً ما يُشير الى اغراضٍ نحويّة ولُغويّة في شعرهِ . ومن قولهِ في المدح:

فتىً فاق الورى كرماً وباسا   عزيز الدار مخضرّ الجنابِ
ترى في السلم منهُ غيث جودٍ   وفي يوم الكريهة ليث غابِ

ولهُ أيضاً في شخصٍ لا يكتم السرّ:

لي صديقٌ غدا وان كان لاينـ   ـطق الا بغيبةٍ او مُحالِ [1]
أشبه الناس بالصدى ان تحدّ   ثهُ حديثاً أعادهَ في الحالِ [2]

---

١ الغيبة ذكر الغائب بالسوء وكشف معايبه والمحال الباطل ٢ الصدى ما يرجّعه الجبل او غيره الى المصوّت مثل صوته وفي الحال سريعاً

إبنُ مَطْرُوح (١٢٥١ م ٦٤٩ هـ)

هو جمال الدين ابو الحسن يحيى بن عيسى المعروف بابن مطروح. وُلِدَ بسيوط من صعيد مصر ونشأ هناك واتّصل بعد تنقلٍ كثير بخدمة الملك الصالح نجم الدين الأيُّوبيّ بن الملك الكامل ونائبهُ بالديار المصريّة وحظي عندهُ وصحبهُ الى البلاد الشرقيّة اذ قلّدهُ أبوهُ ولايتها على اثر الفتح. ولما عاد الملك الصالح الى مصر عاد ابن مطروح بعدهُ بمدّةٍ فرتّبهُ ناظراً في الخزانة. ثم أُعيد سيّدهُ الى إمرة دمشق فعهد اليه بالنيابة عنهُ فيها في صورة وزيرٍ فمضى اليها وحسنت حالهُ وارتفعت منزلتهُ. ثم أوعز اليهِ[1] بالمسير مع العسكر المتوجّه الى حمص لاستنقاذها من أيدي نوّاب الملك الناصر . الاّ انهُ ما عتّم ان بلغ الملك الصالح وهو بدمشق اجتماع الصليبيين بقبرس على عزم قصد الديار المصريّة فأمر جيش حمص بترك مقصدهم والعودة للمحافظة على مصر. وكان الملك الصالح قد تغيّر على ابن مطروح وعزلهُ عن ولايته بدمشق وتنكّر لهُ لأُمور نقمها[2] عليهِ غير أن الشاعر لم يكن لينكر أفضال وليّ نعمتهِ فواظب[3] على خدمته مع الاعراض عنهُ حتى تُوفّي مولاهُ فاعتزل الامور ولزم دارهُ وحدث لهُ في آخر العمر ألم في عينيهِ انتهى بهِ الى مقاربة العمى. وشعر ابن مطروح لطيف المعاني صافي الديباجة سهل المأخذ. فمنهُ قولهُ في مدح أحد الوزراء من قصيدةٍ

على مهلٍ يا من يحاول مجدهُ   فبين الثُّريّا والسماك منازلُهُ[4]

---

١ أمره ٢ أنكرها ٣ داوم وثابر ٤ يحاول يطلب والثريا مجتمع نجوم في كبد السماء والسماك اسم نجم

كريمٌ لهُ بيتٌ كريم تقاسمت ... أواخرهُ ارث العلى واوائلُه ١

لهُ شيمٌ لو إنّ في الدهر بعضها ... لما غالت الحرَّ الكريم غوائلُه ٢

بليغٌ اذا ما اورد اللفظ خلتهُ ... عن الوحي يُملينا الذي هو قائلُه ٣

تحلّى بهِ الدهر الذي كان عاطلاً ... فأضحى حريًّا بالنباهة خاملُهْ ٤

وأثنى عليه ليلهُ ونهارهُ ... وطابت بـه اسحارهُ واصائلُه ٥

واني وان اتحفتهُ بمدائحٍ ... هي السحر الأَّ أن فكريَ بابلُه ٦

فما تعبت لي فكرة في مديحهِ ... لأَنيَ راوي الفضل عنهُ وناقلُه ٧

فلا حمد لي فيما أقول وانّما ... كتبت الذي أملت عليّ فضائلُه

عفافٌ واقدامٌ وحزمٌ ونائلٌ ... الا في سبيل المجد ما انت فاعلُه ٨

ولهُ وقد مرض في بعض اسفارهِ فنزل بمسجدٍ في طريقهِ :

يارب ان عجز الطبيب فداوني ... بلطيف صنعك واشفني ياشافي

انا من ضيوفك قدحُسبتُ وان من ... شيم الكرام البرَّ بالاضياف

وكان بين ابن مطروح وبين ابن خلّكان وبهاء الدين زهير مودّة ومكاتبات ادبية لطيفة .

---

١ الارث ما يخلفه الميت لورثتهِ والعلى الرفعة والشرف جمع علياء ٢ الشيم جمع شيمة وهي الخلق وغالهُ اهلكهُ والغوائل جمع غائلة وهي الداهية والشرّ ٣ اذاما ما زائدة واورد سرد والوحي الالهام ٤ عاطل خالٍ من الحلى وحريّ جدير واهل والنباهة ضد الخمول والخامل الساقط الذكر ٥ أثنى عليهِ مدحه والاسحار جمع سحر وهو قبيل الصبح والاصائل جمع أصيل وهو ما بين العصر الى المغرب ٦ اتحفتهُ أهديتهُ والسحر المرافق استعارهُ للبيان وبابل عاصمة بلاد الكنعانيين بناها نمرود على شاطىء نهر الفرات اشتهر أهلها بالسحر ٧ راوي قاصٌ وناقل مخبر ٨ العفاف الكف عن المحرمات والاقدام الشجاعة والحزم ضبط الامر واحكامه والاخذ فيهِ بالثقةِ والنائل العطاء وهذا البيت لابي العلاء

بَهاء ٱلدِّينِ زُهَيْر (١٢٥٨ م ٦٥٦ هـ)

هو بهاء الدين أبو الفضل زُهير بن محمّد المهلّبي. ولد بمكّة وكان من فضلاء عصره واحسنهم نظماً ونثراً ومن أكبرهم مروءة. اتصل بالملك الصالح ابن الملك الكامل الأيّوبي وانتقل معهُ الى دمشق وأقام في خدمته الى أن جرت الواقعة المشهورة بين الملك الصالح وابن عمّه الملك الناصر صاحب الكرك فظُفر بالملك الصالح واعتُقل بقلعة الكرك فأقام بهاء الدين بنابلس محافظةً لصاحبه ولم يتّصل بغيره ولم يزل على ذلك حتى عاد مولاهُ الى ملك الديار المصريّة فقدم إليها في خدمته وكان متمكّناً من صاحبه كبيرَ القدر عندهُ لا يطّلعُ على سرّه غيره. ومع هذا كلّه فإنّهُ كان لا يتوسّط لديه الا بالخير. وهي مزيّةٌ فريدة تدلّ على علوّ همّة وكبر نفس في صاحبها لا يتذرّع [١] بمكانته وحظوته لدى الامير الاّ لنفع الخلق على حين كانت الوشايات والسعايات [٢] الصناعة الخاصّة التي اتقنها أخصّاء [٣] الأمراء والمقرّبين اليهم في عصور الاستبداد إذ كانت الحياة والموت بين شفتي الحاكم فما هو الاّ ان يتلفّظ بما يروقهُ فيُطاع أمرهُ ولا مُراقب هناك ولا محاسب ... وقد اجتمع به بالقاهرة ابن خلّكان وشهد لهُ انّهُ رآهُ فوق ما سمع عنهُ من مكارم الأخلاق ودماثة السجايا [٤] وانهُ نفع خلقاً كثيراً بحسن وساطته وجميل سفارته [٥]

---

١ يتوسّل بوسيلة ٢ جمع سعاية وهي النميمة ٣ المقرّبون منهم ٤ الاخلاق ٥ سفر بين القوم أصلح

وشعر البهاء زهير غايةٌ في الرقّة واللطف والوضوح والانسجام وهو السهل الممتنع المتداوَل بين الخاصّة والعامّة. فمن رقيق شعرهِ قولهُ يرثي صديقاً لهُ :

اراك هجرتني هجراً طويلاً	وما عوّدتني من قبل ذاكا
فكيف تغيّرت تلك السجايا	ومن هذا الذي عنّي ثناكا[1]
فلا واللهِ ماحاولتَ[2] غدراً	فكلٌّ الناس يغدر ما خلاكا
وما فارقتني طوعاً ولكن	دهاك من المنيّة ما دهاكا[3]
يعزّ عليّ حين أدير عيني	أُفتّش في مكانك لا اراكا
ختمت على ودادك في ضميري	وليس يزال مختوماً هناكا
لقد عجلت عليك يد المنايا	وما استوفيت حظّك من صباكا
فوا أسفي لجسمك كيف يبلى	ويذهب بعد بهجتهِ سناكا[4]
ومالي ادّعي أني وفيٌّ	ولست مشاركاً لك في بلاكا
تموت وما أموت عليك حزناً	وحقّ هواك خنتك في هواكا
وياخجلي اذا قالوا محبٌّ	ولم أنفعك في خطبٍ[5] أتاكا

وقال ملغزاً في القفل :

وأسودَ عارٍ انحل البرد جسمهُ	ومازال من أوصافه[6] الحرص والطمعْ
واعجب شيءٍ كونهُ الدهرَ حارساً	وليس لهُ عين وليس لهُ سَمَعْ

وحدث وباءٌ بالقاهرة فأُصيب بهاء الدين وتوفّي به.

---

١ ثناك ردّك وكفّك ٢ رمت وقصدت ٣ المنية الموت ودهاك اصابك ٤ يبلى يفنى والبهجة الجمال والرونق والسنا النور ٥ الامر المكروه ٦ الشره والبخل

أَلبُوصِيرِيّ (١٢٧٩ م ٦٧٨ هـ)

هــو شرف الدين ابو عبد الله محمّد بن سعيد المصريّ المعروف بالبوصيريّ نسبةً الى بوصير قريةٍ بمصر كان أحد أبويهِ منها. وهو شاعرٌ محسنٌ مطبوع اللهجة متفــنّن النظم عذب الالفاظ منسجم التركيب وقد اشتهر بقصائد طنّانة في مدح نبيّ المسلمين أشهرها القصيدة الميميّة المعروفة «بالبردة» ومطلعهــا :

أمن تذكّر جيرانٍ بذي سَلَمِ مزجت دمعاً جرى من مقلةٍ بدَمِ[1]

وسُمّيت بالـبُردة[2] لأن البوصيريّ ذكر انهُ أُصيب بفالج نصفيّ فعمل هذه القصيدة وكرّر انشادها ودعا وبكى ونام فرأى محمّداً في نومهِ فألقى عليهِ بُردةً فانتبه فاذا هو معافىً . ولهُ قصيدة أيضاً على وزن «بانت سعاد» في الموضوع نفسه واوّلها :

الى متى أنت بــاللذات مشغولُ وأنت عن كل ماقدّمتَ مسؤولُ

ولهُ أيضاً غير ذلك في هذا المعنى. ومن مليح شعرهِ قولهُ يشكو حالهُ الى بعض الرؤساء :

يا أيّهــا المولى الوزير الذي أيّــامهُ طائعــــةٌ أمرَهُ
اليك نشــكو حالنا انّنــا حاشاك من قومٍ أُولي عُسْرَهْ[3]

---

١ ذو سلم موضع وقولهُ من مقلة لمجرد التوكيد ٢ الثوب المخطّط ٣ أصحاب فقر وحاجة

في قلّة نحن ولكن انا ... عائلة في غاية الكثرة

صاموا مع الناس ولكنّهم ... كانوا لمن أبصرهم عبره [١]

وأقبل العيد وما عندهم ... قمح ولا خبز ولا فطره [٢]

فارحمهم ان عاينوا كعكة ... في كف طفل أو رأوا تمره

تشخص أبصارهم نحوها ... بشهقة تتبعها زفره [٣]

كم قائل يا أبتا منهم ... قطعت عنّا الخير في كرّه [٤]

ما صرت تأتينا بفلس ولا ... بدرهم ورق ولا نقره [٥]

وأنت في خدمة قوم فهل ... تخدمهم يا أبتا سخره

ويوم زارت أمّهم أختها ... والأخت في الغيرة كالضرّه [٦]

وأقبلت تشكو لها حالها ... وصبرها مني على العشره

قالت لها كيف تكون النسا ... كذا مع الأزواج يا عرّه [٧]

قومي اطلبي حقك منه بلا ... تخلّف منك ولا فتره [٨]

وان تأبّى فخذي ذقنه ... ونتّفيها شعرة شعره

قالت لها ما هكذا عادتي ... فانّ زوجي عنده ضجره

أخاف ان كلّمته كلمة ... طلّقني قالت لها: بعره!!

وهوّنت قدري في نفسها ... فجاءت الزوجة مجترّه [٩]

فقاتلتني فتهددتها ... فاستقبلت راسي بآجرّه [١٠]

فحقّ من حالته هذه ... أن ينظر المولى له أمره

---

١ عطلة ٢ ما يفطر عليه من الطعام وغيره ٣ تشخص ترتفع وأبصارهم أعينهم والشهقة الصيحة والزفرة التنفس مع مدّ النفس ٤ الكرّة المرة ٥ الفلس قطعة مضروبة من النحاس يتعامل بها والورق الدراهم المضروبة وهو بيان لدرهم والنقرة القطعة المذابة من الذهب والفضة ٦ ضرة المرأة امرأة زوجها ٧ العرة الخلة القبيحة ٨ التخلّف التأخر وفترة انكسار وضعف ٩ هونت حقرت واجترّت الناقة اعادت الاكل من بطنها فاكلته ثانية واراد به تهيؤ امراته للشر ١٠ بقرميدة

المُنشِئونَ

كان العرب في اوائل أمرهم يجتزئون [١] في مراسلاتهم على مايؤدي الغرض من العبارة يسبكونها في أمتن قالب من البلاغة. بل كان فصحاؤهم ولا سيّما الخلفاء والأمراء يتحرّونَ [٢] الايجاز في المنطق والكتابة. وقد أُثر عنهم من جوامع الكلم ونوابغ الحكم ما يُعدّ من أسمى آيات البلاغة العربيّة ويشهد لأربابها بقوّة العارضة في تضمين الكثير من المعاني في القليل من الالفاظ. وهي الغاية التي يرمي إليها فحول الرجال ولا يحوز قصب السبق فيها الا راسخو القدم في العلم المجلّون [٣] في حلبة البلغاء. ولا بدع فان اعجاز الايجاز هو نهاية الكمال التي لا يتسنّم ذروتها [٤] سوى أبطال الحكمة والمقال وقليلٌ ما هم.

بيد أنهُ لما استبحر [٥] العرب في الحضارة ولابسوا [٦] ارباب الممالك العريقة في التمدّن دفعتهم الغَيرة الى تحدّيهم ومباراتهم [٧] في كافّةَ خُطَطهم وأساليبهم فكان من جملة ما اقتضتهُ طبيعة العمران والتوسّع في أطراف التمدّن تفرّع مصالح الدولة وتشعّب مناصبها فرتّبوا للقيام بأعبائها الدواوين المتعدّدة المتنوّعة وانبرى [٨] للتصدّر فيها قوم أصبحت الكتابة صناعتهم الخاصّة ومورد معيشتهم فتفرّغوا لاتقانها والتبريز [٩] فيها. فاقتبسوا عن كتّاب الأعاجم أُسلوبهم في مخاطبة ملوكهم ومكاتبتهم من وصف الالقاب الضخمة الرنّانة

---

١ يكتفون ٢ يطلبون الأنسب ٣ السابقون ٤ يرقون اعلاها ٥ تبسّط وتوسّع
٦ خالطوا ٧ متابعتهم ومسابقتهم ٨ اعترض ٩ السبق

واطالة الديباجة بالحمدلة[١] والأدعية الضافية[٢] الأذيال والاطناب في شرح المقصود من الكتاب بأفخم العبارات وادلّها على تعظيم الأمر وتجليله

وقد رأيت ممّا سبق ان عبد الحميد بن يحيي الكاتب هو أوّل من اختطّ هذه الطريقة وأوضح معالمها[٣] فجاء بعده كتبة الدولة العباسيّة واقتفوا[٤] آثاره ففصّلوا الكلام فِقَراً[٥] ورتّبوه اسجاعاً قرعوا بها الاسماع وتلاعبوا بالمعاني وقلّبوها أنواعاً وأغرقوا[٦] في الاغراب والابداع وقدحوا زناد[٧] الفكرة وتفنّنوا في الاستنباط والاختراع. وتنافسوا في الصناعة وتغالَوا في إتقان آلة البيان وتطاولَ[٨] كلٌّ منهم الى تفرّع سنام الكمال والتبرز على الأقران والمجيء بمبتكر[٩] الآيات واستلفات نظرات الاستحسان من ارباب هذا الشان فأطلقوا لأقلامهم الأعنّة[١٠] وأجروها في ميدان الكتابة واستحثّوا مطايا[١١] القرائح في بلوغ أقصى الغايات فوشّوا ووشّعوا[١٢] وسجّعوا ورصّعوا وتهافتوا[١٣] على غرائب المعاني ودقائق الاغراض فحلّوا كلامهم بروائع الاستعارات وبدائع التشبيهات ولطائف الكنايات وطرائف[١٤] الاشارات وخلعوا عليه زخارف البديع الباهرة وأشكاله الزاهية الزاهرة. فكان من هذا السباق في حلبة الجمال والكمال أن نشأ جلّةٌ[١٥] من الكتّاب الأعلام وعصابةٌ من أئمّة الكلام لا يُشقّ لهم غبار ولا تُلحق لهم آثار فهمُ القوم الذين أُنزلت الفصاحة على أقلامهم وأُوحيت اليهم أسرار البلاغة فدوّنوها في كلامهم فخرجت من

---

١ حمد الله ٢ الطويلة السابغة ٣ آثارها ٤ تبعوا ٥ جُمَلاً ٦ بالغوا ٧ جمع زَنْد وهو العود الذي يقتدح بهِ ٨ مدّ عنقه ينظر الى الشيء البعيد ٩ مبتدع ١٠ جمع عِنان وهو سير اللجام ١١ ركائب ١٢ وشّع الثوب رقمهُ وجعل فيهِ طرائق ١٣ أقبلوا بشدة ١٤ نوادر وغرائب ١٥ جمع جليل وهو العظيم

بين أيديهم طروسٌ طرّزوها بفرائد[1] الكلم دونها اللؤلؤ المنضود[2] ورصّعوها بدرر الحكم دونها الجوهر المعقود ودبّجت[3] يراعاتهم من الصحائف ما يزري[4] بالحلل السندسيّة[5] ونمّقوا[6] من الرسائل ماتكسد[7] معهُ المطارف الموشيّة[8]. فكان للغة العربيّة من مؤلفاتهم آياتٌ معجزاتٌ خليقةٌ أن تكتب بذَوْب التبر[9] على جبين الدهر وفرائد كريمات قلّدت جيدها[10] بالعزّ والفخر وشهدت لمفصّليها بعلوّ الكعب في العلم والفضل ما أضاء النيّران وتعاقب الملوان[11]

وممّا تقدّم يُعلَم اننا عنينا بالمنشئين اولئك الذين لهم القدم الفارعة[12] في صناعة الانشاء او النثر وان كان لهم شعرٌ حسن كما عنينا بالشعراء الذين اشتهروا بالشعر خاصّة وان أُثر[13] لهم نثرٌ أنيق.

إبْنُ ٱلْمُقَفَّع (٧٧٤ م ١٥٨ هـ)

هو أبو محمّد عبدالله بن دَاذَوَيْه الفارسيّ الأصل من مشاهير كتّاب عصره وبُلَغاء مترسّليه[14] ويُضرب به المثل في براعة الانشاء وعلوّ الطبقة في الحكمة والفصاحة والتقدّم في التحبير[15] والتعبير. وقد حذا في صناعة الكتابة حذوَ[16] عبد الحميد وقفا أثرهُ وكانت بينهما مودّةٌ وصداقة موثّقة[17] العرى. ولما طُلب عبد الحميد بعد هزيمة مولاه كان هو وابن المقفّع في بيت واحد ففاجأهما الجند وسألوا «أيّكما عبد الحميد» فقال كلٌّ منهما «أنا» خوفاً من أن ينال صاحبهُ مكروه. فقال عبد الحميد «ترفّقوا بنا فانّ

١ لآلىء ٢ المنظّم ٣ زينت ٤ يعيب ٥ الحريرية ٦ حسّنوا ٧ لاتنفق ٨ المنقوشة ٩ الذهب ١٠ عنقها ١١ الليل والنهار ١٢ العالية ١٣ رُوي ١٤ كتّاب الرسائل ١٥ التحسين ١٦ سار سيره وامتثل بهِ ١٧ مُحكمة قوية

كلاًّ منّا لهُ علامات فوكّلوا بنا بعضكم ولبعض البعض الآخر ويذكر تلك العلامات لمن وجّهكم » ففعلوا وأُخذ عبد الحميد. وهذا الغاية القصوى في المروءَة والاريحيّة وذلك أُنموذج الكمال في الايثار[١] على النفس بين الاخوان...

واشتهر ابن المقفع بالأدب والفضل ونبل النفس. وقيل لهُ مرَّة «من أدّبك» فقال « نفسي. اذا رأيت من غيري حسناً أتيتهُ وان رأيت قبيحاً أبيتهُ » واجتمع يوماً بالخليل بن أحمد فلما افترقا قيل للخليل « كيف رأيت ابن المقفّع » فقال « علمهُ اكثر من عقلهِ » وقيل لابن المقفّع « كيف رأيت الخليل » فقال « عقلهُ اكثر من علمهِ » وكان ابن المقفّع مجوسيًّا يقيم بالبصرة ويكتب لعيسى بن عليّ عمّ المنصور الخليفة العباسيّ. فجاء يوماً الى عيسى وقال لهُ « قد دخل الاسلام في قلبي وأُريد أن أُسلم على يدك » فأجّله[٢] عيسى الى الغد ليكون إسلامه بحضرمن القوّاد ووجوه الناس. ثم حضر طعام عيسى عشيّة ذلك اليوم فجلس ابن المقفّع يأكل ويزمزم[٣] على عادة المجوس فقال لهُ عيسى «أتزمزم وأنت على عزم الاسلام» فقال « أكره أن أبيت على غير دين » فلمّا اصبح أسلم على يدهِ الاّ انهُ لم يزل متّهما بالزندقة عند عامّة الناس.

وكان ابن المقفّع حادّ اللسان في محادثة سفيان بن معاوية أمير البصرة كثير العبث[٤] بهِ والاستهزاء على ملاءٍ[٥] من الناس في خَلقهِ وخُلقهِ وكان سفيان كبير الانف فكان عبد الله اذا دخل عليهِ قال « السلام عليكما» يعني سفيان وأنفهُ... بل زاد في الاستخفاف بهِ وتخطّى حدود الأدب فحقد عليهِ سفيان وحلف ليقطّعنّهُ إرْباً إرْباً[٦]. وحدث أن ابن المقفّع كتب بأمرٍ من عيسى بن عليّ أماناً من المنصور لعبد الله بن عليّ أخيهِ

١ التفضيل ٢ أخرهُ ٣ يدندن ٤ اللعب والهزل ٥ جماعة ٦ عضواً عضواً

وبالغ في فصوله وشروطه حتى أوغر[١] صدر الخليفة بغلوّه وتطرّفه فأمر متولّي البصرة بقتله. فانتهز سفيان الفرصة للاثّئار[٢] منهُ وشفاء حزازات[٣] قلبه من سُخريّاته. فأمر بتنّور فسُجر[٤] ثم أمر بابن المقفّع فقطّعت أطرافه عضواً عضواً وهو يُلقيها في التنور حتى أتى على جميع جسده ثم أطبق عليه التنّور وقال «ليس عليّ في هذه المُثلة[٥] بك حرج[٦] لأنّك زنديق وقد أفسدت الناس» وهكذا هلك ذلك المسكين ضحيّة الاستبداد والحقد والهمجيّة[٧] في بوادر[٨] فرطت من لسانه فقتل قتلة تقشعرّ من ذكرها الأبدان وترتعد لهولها الفرائص ولم يشفع فيه علمٌ ولا ادب ولا فضل ...

ولابن المقفّع رسائل بديعة ولهُ كتاب «الدرّة اليتيمة» وهو على صغر حجمه كنز حكمة وبحر ادب يغترف من معينه[٩] المتدفّق العالم والجاهل والمالك والمملوك وعرّب عدّة مؤلّفات عن البهلويّة[١٠] أشهرها كتاب «كليلة ودمنة» وهو مجموع حكايات على ألسنة الحيوانات تبطّنت[١١] تحت ثوب الفكاهة واللهو ادقّ المغازي الحكميّة وأسمى الآراء الفلسفيّة وأشرف الاغراض الادبيّة والسياسيّة. وأصل وضع الكتاب بالهنديّة القديمة المعروفة بالسنسكريتيّة وضعهُ بيدبا الفيلسوف الهنديّ لدبشليم الملك ونقلهُ الطبيب بَرْزَوَيْه الفارسيّ الى الفارسيّة وعنها نقلهُ ابن المقفّع الى العربيّة وتفنّن في اختيار الأساليب الرائعة والعبارات الأنيقة والألفاظ العذبة الشريفة فخرج من بين يديه آية في الفصاحة والبلاغة ومتانة السبك ومثالاً بديعاً حريًّا

---

١ اوقدهُ من الغيظ ٢ للأخذ بالثأر ٣ جمع حزازة وهي وجع في القلب من غيظ او غيره ٤ مُلِئ حطباً وحمّي ٥ العقوبة والتنكيل ٦ إثم ٧ التوحش ٨ ما يبدو من الإنسان عند حدّته مفردها بادرة ٩ الماء الظاهر الذي تراه العين يسيل على وجه الارض ١٠ الفارسية القديمة ١١ وعت في باطنها

أن يتحدَّاهُ مترسّلو عصرنا ويطبعوا على غِرارِهِ[١] في مبانيهِ ومعانيه.
وعن نسخة ابن المقفّع نقلهُ جميع الأُمم المتمدنة الى لغاتها واهتمّ علماؤهم
بنظمهِ ومعارضتهِ وتحويلهِ وتطبيقهِ على آدابهم واذواقهم. وحسبهُ ذلك
فخراً ليس بعدهُ زيادة لمستزيد

ولقّب أبو عبد الله بالمقفّع لأن الحجّاج عَذَّبَهُ في مالٍ اختلسهُ
وكان قد ولاهُ خَراج فارس فتقفّعت[٢] اصابعهُ من شدّة التعذيب .

أَلْجاحظ (٨٦٨م ٢٥٥هـ)

هــو أبو عثمان عمرو بن بحر الكنانيّ البصريّ الملقّب بالجاحظ
لجحوظ[٣] عينيهِ فكان لهُ من ذلك منظر قبيحٌ للغاية ويُقال لهُ الحدَقيّ
للسبب نفسهِ. وُلد بالبصرة ونشأ بها وأكبّ على تحصيل علوم الأدب فبرع
في كلّ علمٍ وفنٍّ حتى أصبح نادرة زمانهِ وزعيم علماء عصرهِ غير معارَض.
وذكرهُ قوم بكمال الفضل في حضرة المتوكّل فاستقدمهُ لتأديب بعض وُلدهِ
فلمّا رآهُ استبشع منظرهُ فأمر لهُ بعشرة الاف درهم وصرفه ... وعُمّر
الجاحظ طويلاً وأُصيب في أواخر عُمرهِ بالفالج فكان يَطلي نصفهُ الأيمن
بالصندل[٤] والكافور لشدَّةِ حرارتهِ والنصف الأيسر لوقُرض بالمقاريض
لما أحسّ به من خدَرَهِ[٥] وشدّة بردهِ . وكان يقول في مرضهِ «اصطلحت
على جسدي الأضداد ان أكلت بارداً أخذ برجلي وان أكلتَ حارًّا أخذ
برأسي. وأشدّ ما عليَّ ستٌّ وتسعون سنة» وكان يُنشد :

---

١ مثاله ٢ تيبست وتقبضت ٣ عظم مقلتيه وتوهجها ٤ مستخرج شجر هندي طيب
الرائحة ٥ تشنج يصيب العضو فلايستطيع الحركة

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنت أيّام الشبابِ
لقد كَذَبَتْكَ نفسك ليس ثوب دريسٌ[1] كالجديد من الثيابِ

وللجاحظ تصانيف عديدة في كلّ علمٍ وفن تدلّ على سعة معارفهِ وغزارة مادّتهِ. منها كتاب «البيان والتبيين» ضمّنه شيئاً كثيراً من النكات البيانيّة والنوادر الادبيّة وغرر الاقوال وعيون الخُطب ومستملح الفصول. ولهُ كتاب «الحيوان» لم يهتمّ فيهِ بالتبويب والتفصيل بل أورد ما قيل في الحيوان من كلام الأدباء. وكتاب «البخلاء» مثّل فيه أخلاق أهل البصرة في زمانهِ وغير ذلك ممّا يطول وصفهُ. وكان الجاحظ معتزليًّا وهو منشئٌ فرقة خاصّة تُعرف باسمهِ «الجاحظيّة» ويحكى انهُ جرى ذكر الجاحظ في مجلس الأُستاذ أبي الفضل بن العميد فغضّ[2] منهُ بعض الحاضرين وأزرى[3] بهِ وسكت الوزير عنهُ فلمّا خرج الرجل قال بعض الجلوس لابن العميد «سكتَّ أيها الأُستاذ عن هذا الرجل في قوله مع عادتك في الردّ على أمثاله» فقال «لم أجد في مقابلتهِ أبلغ من تركهِ على جهلهِ ولو واقفتهُ وبينت لهُ لنظر في كتبهِ وصار بذلك انساناً. فكتب الجاحظ تعلّم العقل اوّلاً والأدب ثانياً ولم استصلحهُ لذلك» وكفى بكلام ابن العميد شهيداً على فضل الجاحظ وعلمهِ ونفاسة كتبهِ.

---

١ بالٍ ٢ وضع من قدرهِ ٣ احتقرهُ وعابهُ

إبْنُ ٱلْعَمِيد (٩٧٦م ٣٦٦هـ)

هو أبو الفضل محمّد بن الحُسين المعروف بابن العميد. والعميد لقب والده لقّبهُ بهِ أهل خراسان تعظيماً لهُ وكان ذا فضلٍ وأدب. وأمّا ولدهُ أبو الفضل فانهُ كان أوحد عصرهِ في الكتابة ويُضرب بهِ المثل في البلاغة ويُنتهى إليهِ في البراعة في حسن الترسّل وجزالة الالفاظ وسلاستها الى سموّ المعاني ونفاستها. وكان يقال « بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتِمت بابن العميد » وسافر الصاحب بن عبّاد الى بغداد فقال لهُ ابن العميد « كيف وجدت بغداد » فقال « بغداد في البلاد كالأُستاذ في العباد » وللصاحب فيهِ مِدَحٌ كثيرة غرَّاء وكان ابن العميد متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم جليل القدر في الناس. واستوزرهُ ركن الدولة بن بُويهِ الديلمي فأحسن تدبير الملك وقام بحقوقهِ أتمّ القيام وترامى صيتهُ في الآفاق وقصدهُ جماعةٌ من مشاهير الشُعراء من البلاد الشاسعة ومدحوهُ بأحسن المدائح ومنهم أبو الطيّب المتنبّي ورد عليهِ وهو بأرّجان ومدحهُ بقصائد منها قصيدة مطلعها :

بــادٍ هواك صبرت ام لم تصبرا   وبكاك ان لم يجرِ دمعك أو جرى[1]

---

١ بادٍ ظاهر ولم تصبرا اصلها لم تصبرَنْ قُلبت نون التوكيد الخفيفة الفاً للوقف اي ان هواك ظاهر صبرت ام لا وبكاؤك ظاهر جرى دمعك ام لا. وخطاب الشاعر في هذا البيت موجه الى نفسه على سبيل التجريد

ومن مدحه فيها :

من مبلغُ الأعراب اني بعدها جالستُ رسطاليس والاسكندرا[١]
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدياً متحضرا[٢]
ولقيت كل الفاضلين كأنما ردّ الالهُ نفوسهم والأعصرا

وكان المتنبّي يهاب جانب ابن العميد ويخشى انتقادهُ لما يعلم من سعة خبرته وصدق نظره في الشعر وكان قد عاب عليه من قصيدته الرائيّة بعض مواضع فرّط[٣] فيها فقال يعتذر :

إنا من شدّة الحياء عليلٌ مكرُمات المُعِلّه عوّادُه[٤]
ما كفاني تقصير ما قلت فيه عن علاه حتى ثناه انتقادُه[٥]
ما تعوّدتُ أن أرى كأبي الفضل وهذا الذي أتاهُ اعتيادُه[٦]

وما أدراك من هو ذلك الرجل الوحيد الذي كان المتنبّي يتحرّز منهُ هذا التحرّز ويخشى انتقادهُ ويتواضع لهُ مثل هذا التواضع مع ما علمت من فرط كبرياء المتنبّي وشدة اعجابه بنفسه وفاحش دعواه ... وهذه الغاية القصوى في إعظام ادب ابن العميد والتنويه[٧] بفضله وتفرّده

وكان أبو الفضل قليل الحظّ من العافية يقاسي مضض الأوصاب[٨] ويتجرّع

---

١ الاعراب جمع عرب ورسطاليس هو ارسطوطاليس الفيلسوف اليوناني الشهير والاسكندر هو الملك العظيم المعروف بذي القرنين ٢ بطليموس هو الفلكي اليوناني الشهير ومتبدياً مقيماً في البادية ومتحضراً مقيماً في الحضر اي المدن ٣ قصّر ٤ العواد جمع عائد وهو زائر المريض وقولهُ المعلّه بمعنى الذي اعلّهُ يقول انا عليل من حيائي وعوّادي المكرمات التي يتفضل بها علي الذي اعلّني ٥ يقول ما كفاني حياء اني قصرت في مدحه حتى زاد على ذلك انتقادهُ لشعري وكشفه مواطن الخلل فيه ٦ يقول ان هذا الذي اعجب منهُ لاني لم أرَهُ قط هو من عوائد ابي الفضل يصدر عنهُ كل حين ٧ الاظهار ٨ الأمراض

غصص الأوجاع لما يعتادهُ من القولنج [١] تارةً والنقرس [٢] أُخرى لا يكاد ينفرج من تمزيق أحشائه حتى يعتريهِ تشنّج [٣] الأعضاء. ويحكى انهُ رأى يوماً أكّاراً [٤] يأكل خبزاً ببصلٍ ولبن وقد أمعن [٥] منهُ فقال « وددت لو كنت كهذا الأكّار آكل ما اشتهي » وكم في هذه الدنيا من غنيٍّ محسود على نعمتهِ يردّد لسانُ حالهِ كلامَ ابن العميد وفي قلبهِ حسراتٌ لم يذق لوعتها البائسون بل هي لحكمةٍ إلهية محتكرة [٦] لارباب الثروة والترف ...

ويُقال ان الصاحب بن عبّاد عبر على باب دارهِ بعد وفاتهِ فلم يرَ هناك أحداً بعد ان كان الدهليز يغصّ من زحام الناس فانشد :

أيها الربعُ لِمْ علاك اكتئابُ　　أين ذاك الحجابُ والحجّابُ
أين من كان يفزع الدهر منهُ　　فهُوَ اليوم في التراب ترابُ
قل بلا رِقبةٍ [٧] وغير احتشامٍ　　مات مولاي فاعتراني اكتئابُ

أَلْخُوَارَزْمِيّ (٩٩٣م ٣٨٣هـ)

هو أبو بكر محمّد بن العبّاس الخوارزميّ. وُلد ونشأ بخوارزم وفارق وطنهُ وهو في حداثة السنّ ولم يزل يتقلّب في البلاد ويدخل كور العراق والشام ويأخذ عن العلماء ويقتبس من الشعراء ويستفيد من الفضلاء حتى خرج فرد الدهر في الأدب والشعر لا يُدانيهِ مدانٍ في معرفة أخبار العرب وأيّامها ودواوينها. وكان حلو المحاضرة جامعاً في كلامهِ بين الفصاحة والأناقة

١ مرض معدي مؤلم جدًّا　٢ هو ورم يحدث في مفاصل القدم وفي إبهامها اكثر
٣ تقبّض　٤ فلاحاً　٥ بالغ　٦ مجموعة ومحتبسة　٧ فزع واحتراس وتحفّظ

والبلاغة والرشاقة. واتّصل بعدَّةٍ من أُمراء زمانه ورؤسائه وحظي عندهم الا أنهُ مع وفرة علمه وسعة فضله كان لئيم الطبع كنوداً[١] هجّاءً يثقل عليه القيام بشكر منّة أولياء نعمته ولم ينجُ من لسانهُ واحدٌ من الأشراف الذين قرَّبوهُ في مجالسهم واصطنعوهُ. وفي هذا من العار والخسّة ما فيه ... ولمّا كان يغادر كل رئيسٍ هاجياً مغضباً اضطُرَّ الى ركوب متن الاغتراب والضرب في مناكب[٢] الارض شرقاً وغرباً ولقي الشدائد مراراً من سجن وقيد ومصادرة[٣] بأهاجيه ولواذعه

ومن مستملح ما يحكى عنهُ أنهُ قصد حضرة الصاحب بن عبّاد بأرّجان فلمّا وصل الى بابه قال لأحد حجّابه « قل للصاحب على الباب أحد الأُدباء وهو يستأذن في الدخول » فدخل الحاجب وأعلم مولاهُ فقال الصاحب « قل لهُ قد ألزمت نفسي ان لا يدخل عليَّ من الأُدباء الاَّ من يحفظ عشرين الف بيت من شعر العرب » فلما اعلم الحاجب أبا بكر بذلك قال لهُ « ارجع اليه وقل لهُ هذا القدر من شعر الرجال ام من شعر النساء؟ فقال الصاحب عند سماعه ذلك « هذا لا يكون الا أبا بكر الخوارزميّ » فأذن لهُ فدخل عليه وعرفهُ وانبسط وأحسن حفاوتهُ[٤] وأجزل صلتهُ وكثيراً ما فرّج كربتهُ في ضيقته بالأعطية المتواترة والجرايات[٥]. ومع كلّ هذا لم يكن ليعفوهُ من بوادر لسانه الخبيث ففارقه غير راضٍ عنهُ وقال يهجوهُ :

لا تَمدحنَّ ابن عبّادٍ وان هطلت كفّاهُ بالجود سحًّا يخجل الديَما[٦]

فانّها خطرات من وساوسه يُعطي ويمنع لا بخلاً ولا كَرَمـا

---

١ كافر النعمة ٢ نواحي وجهات ٣ صادر الامير فلاناً على كذا من المال طالبهُ بهِ وحصلهُ منهُ قسراً ٤ المبالغة في اكرامهِ ٥ مايجرى من الوظائف اي الارزاق المعينة ٦ سحّ الماء سحًّا صبّهُ والديم جمع ديمة وهي المطرة الدائمة

وبلغت الابيات الصاحب وعند ما نعي اليه ِ أبو بكر أنشد:

سألت بريداً [1] من خراسان جائياً أمَات خوارزميُّكم قال لي نعَمْ
فقلت اكتبوا بالجص [2] من فوق قبره ِ الا لعن الرحمان من كفر النعَمْ

وهجاهُ ابو سعيدٍ الخوارزمي بقوله ِ:

أبو بكرٍ لهُ ادبٌ وفضلٌ ولكن لا يدوم على البقاءِ
مودّتهُ اذا دامت لخلٍ فمن وقت الصباح الى المساءِ

ولابي بكرٍ شعرٌ حسنٌ رقيق ولهُ رسائل مشهورة متداولة تشهد لهُ بالبراعة في الانشاء وتُحِلُّه محلاًّ رفيعاً في عصابة البلغاء من المترسّلين.

ألصَّابِئ (٩٩٤م ٣٨٤هـ)

هو أبو اسحاق ابراهيم بن هلال الحرّاني المعروف بالصابئ. والصابئة قوم يعبدون الاجرام السماويّة والنار. ولِد بحرّان وانكبّ على درس العلوم والتدرّب في فنون الكتابة ففاق أهل زمانه ِ وبلغ الغاية في براعة الانشاء ونظم الشعر فأبرع فيه وسار ذكره في الآفاق وضُرب ببلاغته ِ المثل ودوّن لهُ من الكلام البهيّ النقيّ ما تتناثر دررهُ وتتكاثر غررهُ. وتقلّد الاعمال الجليلة وخدم الوزراء والخلفاء برئاسة ديوان الرسائل. وكان عظيم الحظوة عند الوزير المهلبيّ مقدَّما على سائر عمّاله ِ يصطنعه [3] لنفسه ِ ويستدعيه ِ في اوقات أنسه ِ ولا يرى الدنيا الا به ِ. ولمّا توفّي

١ رسولاً ٢ ما تطلى به ِ البيوت من الكلس ٣ يختارهُ

المهلّبيّ اعتُقل أبو اسحاق في جملة عمّال الوزير وصُودِر ولهُ في اعتقالهِ شعرٌ حسنٌ منهُ:

يا أيها الرؤساء دعوةَ خادمٍ ... أوفت[١] رسائله على التعديدِ
أيجوز في حكم المروءة عندكم ... حبسي وطول تهدُّدي ووعيدي
أنسيتمُ كُتُباً شحنت فصولها ... بفصول درٍ عندكم منضُودِ
ورسائلا نفذت الى أطرافكم ... عبدُ الحميد بهنَّ غير حميدِ
أنا بين أُخوان لنا قد أُوثقوا ... بسلاسلٍ وجوامع[٢] وقيودِ
وموكّلين بنا نذلّ لعزّهم ... فكأنّنا لهمُ عبيدُ عبيدِ
واللهِ ما سَمِع الأنام ولا رأَوا ... نقداً[٣] تُوكّل قبلهم بأُسُودِ
من كلّ حرٍّ ماجدٍ صنديدٍ ... في كل وغدٍ عاجزٍ رعديدِ[٤]
قصرت خطاهُ خلاخلٌ من قيدهِ ... فتراهُ فيها كالفتاة الرود[٥]
يمشي الهوينا ذلّةً لاغرَّةً ... مشيَ النزيف الخائف المزؤُودِ[٦]
فتفضّلوا وتعطّفوا وهبوا لنا ... عفواً مديم حفائظٍ وحقودِ[٧]

ثم أُعيد إلى عملهِ وكان أمر الخلفاء قد ضعف جدًّا في ذلك العهد ولم يبقَ لهم من السلطة الاّ الاسم وكان الحلّ والربط في يد الملوك من الدولة البُويهيّة ولمّا خلّي عن أبي اسحاق وجعل قيّماً[٨] على ديوان الرسائل ببغداد كان المتصرّف بأمر الخليفة عزّ الدين بن بُوَيْهِ وكانت

---

١ زادت ٢ جمع جامعة وهي الغُلّ ٣ النقد جنس من الغنم صغير الارجل الواحدة نقدة ٤ الماجد ذو المجد والصنديد السيد الشجاع والوغد اللئيم والرعديد الجبان الكثير الارتعاد ٥ الخلاخل جمع خلخل وهو سوار يلبس في الرجل والرود الرائدة الطوّافة في بيوت جاراتها ٦ الهوينا مشية فيها تؤدة ورفق والذلة الصغار والنزيف الذي سال دمهُ بافراط فضعف والمزؤُود الخائف ٧ ادام القدر سكن غليانها والحفائظ جمع حفيظة وهي الغضب والحمية والحُقود جمع حقد وهو البغض الخفي ٨ مترئساً

بينهُ وبين ابن عمّه عضُد الدولة بن بُوَيْه منافسات في الممالك أدَّت الى التنازع وأفضت الى التصافّ والمحاربة فقُتل عزّ الدولة في المصافّ وافتتح عضد الدولة بغداد واعتقل ابا اسحاق وعزم على إلقائه تحت ايدي الفيلة. فاستشفع في أمره أكابر الدولة وتلطّفوا في استيهاب دمه وما زالوا يتوسّلون حتى أمر باستحيائه مع القبض عليه وعلى اشيائه واستئصال امواله واشترط عليه تأليف كتاب من أخبار الدولة الديلميّة فدخل ذلك المسكين تحت هذا الشرط وبقي معتقلاً بضع سنوات الى أن تخلّص في آخر أيّام عضد الدولة وقد رزحت[1] حالهُ وتداعى[2] من الهرم وسوء المعاملة.

وكان سبب هذه الطامّة الكبرى لفظةٌ من كتابٍ أنشأهُ ابو اسحاق عن لسان الخليفة أنكرها عضد الدولة وتوسّم[3] فيها التعريض به فأسرّها في نفسه الى أن ملك بغداد فنكب صاحبها تلك النكبة الهائلة كأنّما عمل على قلب المملكة ظهراً لبطن. ويحكى ان صديقاً للصابئ دخل عليه يوماً فرآهُ في شغلٍ شاغلٍ من التعليق والتسويد والتبديل والتبييض لوضع كتابه في أخبار الدولة الديلميّة فسألهُ عمّا يعملهُ من ذلك فقال أبو اسحاق « أباطيل أُنمّقها واكاذيب أُلفّقها » فنُقِل كلامهُ الى عضد الدولة فحركت ساكنهُ وهيّجت حقدهُ ولم يزل غضبانَ عليه مهملاً صلته حتى مات منقطعاً مُعوزاً.

ومن الخليق بالاعتبار أن أبا اسحاق مع فظاعة[4] نكبته على هفوةٍ طفيفةٍ[5] كان لا يزال يرفع الى ناكبه من الهدايا ما تمكّنه منه خصاصته[6] ويشفع كلاً منها بأبياتٍ مِلؤها الاستعطاف والتذلّل والتحبّب تنفطر[7]

---

[1] ساءت [2] تهدم وتساقط [3] تبين [4] شدة شناعتها [5] خفيفة [6] فقره [7] تنشق

لسماعها الاكباد ويلين لها الجلمود[1]. وكان اذا كتب لصديقهِ الصاحب بن عبّاد يذكر بلواه غير متظلّم[2] من مبتليهِ ولا معرّض بعنفه وفظاظته[3]. وما قولك في ذلك الشيخ المسكين المنكوب في كلمة زلّ بها قلمه وهو الكاتب لناكبهِ مع هدية قوامها درهمٌ خسرواني وجزء من كتاب:

ولمّا رأيت الله يُهدى وخلقُهُ تجاسرتُ واستفرغت جهدَ جهيدِ
فكان احتفالي في الهديّة درهماً يطير من الانفاس يوم رُكودِ[4]
وجزءًا لطيفاً ذرعه[5] ذرع محبسي وتقييدهُ بالشكل مثل قيودي
ألأطف مولانا وكالماء طبعهُ تسلسل من عذب النطاف برودِ[6]
زلالاً على المستعطفين وجلمداً على كلّ عرّيضٍ ألَدَّ مريدِ[7]

فكأنّ القوم كانوا في تلك العصور اذا أفرغ ملوكهم عليهم نقمهم لداعٍ لم يجدوهم جاؤوا أمراً إدًّا[8]. فأين اولئك الأمراء الطغاة[9] من ملوك أيّامنا الذين لاحيلة لهم لصيانة ارواحهم سوى تملّق الشعب واسترضاء العامّة وهيهات ان ينالوا ما يتمنّونه من اغتفار الرعيّة لهم سموّ مقامهم وينجوا من مدية فوضويّ[10] توردهم حياض الموت على حين غرّة[11]...

وللصابئ ديوان رسائل هي لباب الفصاحة وله الطريقة المثلى في استنباط المعاني والتصرّف فيها وافراغها في قالبٍ من الجزالة والمتانة مع رقّةٍ وانسجام ممّا يجعلها خير مثال يتحدّاه مريدو البلاغة في الانشاء.

١ الصخر الاصم ٢ تظلم شكا الظلم ٣ فظّ فظاظة غلظ وساء خلقه ٤ ركدت الريح ركوداً سكنت ٥ قياسهُ وقدرهُ ٦ تسلسل جرى والنِطاف جمع نُطفة وهي الماء الصافي والبَرُود البارد ٧ الزلال الماء الصافي والجلمد الصخر والعرّيض كثير التعرض للناس بالشر والالد الشديد الخصومة ٨ فظيعاً ٩ الظُلّام ١٠ مدية السكين شفرتها والفوضويون اعداء كلّ ذي سلطة ١١ غفلة

وكتابهُ في أخبار الدولة الديلميَّة يعرف « بالتاجيّ » نسبةً الى تاج الملّة لقب عضد الدولة .

وكان ابو اسحاق متشدّداً في دينهِ وكثيراً ما أراده الخلفاء والملوك والوزراء على الاسلام واداروهُ بكل حيلة وتمنية جليلة فلم يُسلم. وكان يحفظ القرآن حفظاً يدور على طرف لسانهِ وسنّ قلمهِ ويصوم شهر رمضان فيوهم من لا يعرف كنهَ أمرهِ انهُ يعتقد معتقَدَ المسلمين.

ألصَّاحِب (٩٩٥م ٣٨٥هـ)

هو أبو القاسم اسماعيل بن عبّاد الطّالِقانيّ المعروف بالصاحب. وُلد بالطالقان من اعمال قزوين وكان أبوهُ وزيراً لركن الدولة ثم لعضد الدولة فصرف عنايتهُ في تهذيب ابنهِ وتخريجهِ في الآداب. فدرس على أحمد بن فارس اللّغويّ وأخذ عن ابي الفضل بن العميد وغيرهما من شيوخ العلم واقتبس[1] منهم شيئاً كثيراً حتى صار لهُ في فنون الأدب وعلوم اللغة المقام الرفيع والشهرة الواسعة. وزادهُ اعزازاً ورفعةً في عيون الناس اتّصافهُ بمكارم الاخلاق وأسمى المناقب[2]. وقد قال عنهُ الثعالبيّ في يتيمة الدهر « ليست تحضرني عبارة أرضاها اللافصاح[3] عن علوّ محلّهِ في العلم والأدب وجلالة شأنه في الجود والكرم وتفرّدهِ بغايات المحاسن وجمعهِ اشتات[4] المفاخر لأن همّة قولي تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليهِ وجهد وصفي يقصر عن أيسر فواضلهِ ومساعيه ... »

وكان الصاحب وزيراً لمؤيّد الدولة استوزرهُ بعد وفاة ابن العميد ولمّا مات مؤيّد الدولة وخلفهُ أخوه فخر الدولة أقرَّهُ على وزارتهِ ولم

---

١ استفاد ٢ الخصال الحميدة ٣ الاظهار ٤ متفرقات

ليقبل استعفاءه وكان مبجّلاً عنده ومعظّماً نافذ الأمر مطاع الاشارة. وكانت حضرته محطّ رحال الأدباء والشعراء وكعبة العلماء والفضلاء يتقاطرون إليه من المشارق والمغارب ويلقون من فضله وجوده واريحيّته ما لا غاية بعده لآمالهم ويعاينون من نادر فضائله وفاخر مزاياه ما يفسح المجال لشعرهم ومقالهم وقد اجتمع عنده من الشعراء مالم يجتمع الأبباب أعاظم الخلفاء ومشاهير الملوك ولم يكن في زمنه اديبٌ فاضلٌ الاّ ودّ مواصلته ومحاسنته ولمّا أخنى الدهر على أبي اسحاق الصابئ بذل لهُ الصاحب من ماله عن يدٍ سخيّةٍ وكان يودّ لو يقدم أبو اسحاق اليه ويلزم حضرته فيكفيه ويفيض[1] عليه مواهبهُ الاّ ان الصابئ كان كبير النفس فآثر معاناة غصص الضيقة على اللحاق به والانخراط في سلك أتباعه بعد أن كان من أكفائه[2]

وكان الصاحب شديد الولع بكتب العلم والأدب وجمع منها كلّ ما وصلت اليه يده الكريمة حتى كان يحتاج في نقلها الى اربعمائة جمل. وكان مجلسهُ ميدان فرسان الكلام من البلغاء والفقهاء يجرون في حضرته ويرون في سعة علمه ولين جانبه وكامل رعايته ما يشدّد عزائمهم على الخوض في أجلّ المباحث وهو يجاريهم في مناظراتهم ويفصح كلامهُ عن رجل لهُ في العلوم القدم الفارعة سيّال القريحة سريع العارضة حادّ النكتة. وكان في شهر رمضان يأمر فلا يخرج أحدٌ من داره قبل الافطار فلم تخلُ داره كلّ ليلةٍ من الف نفسٍ مفطرة فيها

وللشعراء في الصاحب مدائح كثيرة جدًّا وكان شديد الاعجاب بالشعر الحسن كثير الاهتزاز لانشاده سديد الرأي في البحث فيه صادق النظر في انتقاده ولهُ خاصّة ولوعٌ في نقد شعر المتنبي وكان أفرغ وسعهُ في

---

[1] يسكب [2] أقرانه ومساويه

استقدامهِ اليهِ ليزداد مقامهُ مجداً ورفعةً بمدائحهِ فلم يلقَ منهُ ارتياحاً الى تلبية دعوتهِ لما علمت من صلف[1] المتنبّي وخُيَلائهِ ولعلّ في هذا الرفض ما يكشف سرّ تعقّب الصاحب لشعر أبي الطيّب وتتبُّع مواقع الخلل فيهِ وكشف معايبهِ

ولقّب أبو القاسم بالصاحب لأَنهُ كان يصحب أبا الفضل بن العميد وقيل بل لأَنهُ صحب مؤيّد الدولة منذ الصبا فسمّاهُ الصاحب فاستمرّ عليهِ هذا اللقب واشتهر به. وللصاحب مؤلّف في اللغة سمّاهُ «المحيط» قلل فيه من الشواهد واكثر الألفاظ فجمع شيئاً كثيراً من اللغة وكتاب «الكافي» في الرسائل وغير ذلك. ولهُ شعرٌ حسنٌ منهُ في رقّة الخمر:

رَقّ الزجاجُ ورقّت الخمرُ وتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنّما خمرٌ ولا قدحٌ وكأنّما قدحٌ ولا خمرُ

عبد العزيز (١٠١٤ م ٤٠٥ هـ)

هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف من مشاهير كتّاب آل بُويْه. كان متقلّداً ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيّامهِ وافر الحظوة عنده معدوداً من وزرائهِ وخواصّ ندمائه وتولّى الوزارة بعد وفاتهِ لاولاده دفَعات وكانت لهُ المكانة العالية بين النوابغ من كتّاب عصرهِ ومودّة اكيدة عندهم ويُروى عن الصاحب بن عبّاد أنهُ كان يقول «كتّاب الدنيا وبلغاء العصر اربعة الأستاذ بن العميدِ وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف

---

[1] كبر

وأبو اسحاق الصابئ ولو شئت لذكرت الرابع » يعني نفسهُ. ومن هذا التخصيص تعرف قيمة عبد العزيز عند الأدباء ومزيّته في عصابة المترسّلين.
ولمّا عزم عضد الدولة على قتل أبي اسحاق الصابئ كان عبد العزيز في مقدّمة من تشفّع فيهِ وسعى في حقن [١] دمهِ فزاد على أدبهِ وفضلهِ مروءة وهمّةً وكرماً

ولأبي القاسم مكاتبات نثراً ونظماً الى أدباء زمانهِ تدلّ على طول باعهِ وبراعتهِ في فنون الأدب. فمن نظمهِ قولهُ من رسالةٍ الى الصاحب جمع فيها بين المنثور والمنظوم بعث بها إليهِ بعد فراقهِ :

أقــول وقلبي في ذراك مخيّمٌ	وجسمي جنيبٌ للصبا والجنائبِ [٢]
يجاذب نحو الصاحب الشوقُ مِقودي	وقد جاذبتني عنهُ أيدي الشواذبِ [٣]
سقى الله ذاك العهد عهداً من الحيا	وتلك السجايا الغرَّ غرَّ السحائبِ [٤]
تذكّرت أيّامي بقربك والمنى	تقابلني بالعزّ من كلّ جانبِ
وفي ربعك الدنيا تزفّ محاسناً	وتفترّ منك من ثنايا مناقبِ [٥]
وقد لحظت عيناي من شخصك العلى	ومن فرعك الفينان أعلى المناسبِ [٦]
ومن لفظك الدرَّ المصون ومن حيا	محيّاك مالم تحوهِ كفّ خاطبِ [٧]

١ حقن دمهُ منع اراقتهُ ٢ الذرا الفناء والناحية ومخيم نازل ومقيم وجنيب بمعنى مجنوب اي مدفوع والصبا ريح مهبها من جهة الشرق والجنائب جمع جنابة وهي الغربة والبعد ٣ الشواذب جمع شاذب اي قاطع من شذب الشجر اذا قطع بعض اغصانهِ ٤ العهد المنزل الذي اذا هجرهُ القوم عادوا اليهِ وعهداً من الحيا دفعة من المطر والسجايا الخصال الحميدة والغرّ الحسنة المشرقة وغرّ السحائب السحائب البيض ٥ الربع الدار وتزفّ تهدي وتفترّ تضحك والثنايا اسنان مقدم الفم والمناقب المفاخر ٦ الفرع مجتمع شعر الراس والفينان الطويل الشعر المناسب جمع منسبة بمعنى نسيب وهو التشبيب ٧ الحيا مقصور الحياء والمحيا الوجه والخاطب من خطب المرأة اذا دعاها الى التزوج — وفي هذين البيتين من نسبة

واخـلاقك الغرّ التي لوتجسّمت لـكانت نجومـاً للنجوم الثواقبِ [١]
فقـاضت على خدّي سوابق عبرةٍ كما اسلمت عقداً أنـامل كاعبِ [٢]
سلام على تلك المكارم والعُلى تحيّة خلّ عن جنابك غائبِ
يكابد ما لو كان بالسيف مـا مضى وبالمزن لم تبلل لهـاة لشاربِ [٣]
واني وإن روّعت بالبين شائمٌ طوالع عتبي من طلاع العواقبِ [٤]
وما أنا بالناسي صنائعك الـتي كتبن على الرقّ ضربة لازبِ [٥]

بَدِيعُ الزَّمَان (١٠٠٧ م ٣٩٨ ه)

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذانيّ الملقّب ببديع الزمان. وُلد بهمذان وغادرها [٦] صبيًّا وقد درس على أبي الحسين بن فارس واستنفد [٧] ما عندهُ وورد حضرة الصاحب بن عبّاد وجنَى من شهيّ ثماره مقداراً وافراً ثم قدم جرجان وداخل علماءَها واقتبس من أنوارهم وانتقل من هناك الى نيسابور وجرت بينهُ وبين أبي بكر الخوارَزْميّ مناظرة شهيرة

محاسن النساء الى الرجال ما يقضي بالعجب ويدلّ على ذوق من الغرابة بمكان

١ الاخلاق الطبائع وتجسمت اتخذت جسما ونجم ثاقب لامع مضيء ٢ عبرة دمعة والانامل اطراف الاصابع اطلقها على الاصابع كلها والكاعب الفتاة. شبه دموعه المتساقطة بلآلىء عقد نثرتها يد فتاة ٣ يكابد يقاسي ومضى قطع والمزن السحاب ذو المطر واللهاة اللحمة المشرفة على الحلق ٤ روّعت خوّفت والبين الفرقة وشام البرق رقبهُ اين يمطر والطوالع جمع طالع وهو ما يُتفاءل ويُتشاءم بهِ من الكواكب الطالعة وطلاع العواقب الاطلاع عليها والعواقب جمع عاقبة وهي ما يؤول اليهِ الامر ٥ الصنائع جمع صنيعة وهي الاحسان والرق العبودية وهذا الامر ضربة لازب اي لازم ثابت لابدّ منهُ ٦ تركها ٧ استفرغ

كانت سبباً لهبوب ريحهِ[١] وعلوّ أمرهِ وبعد صيتهِ اذ لم يكن في الحسبان ان أحداً من الأدباء ينبري لمباراة[٢] الخوارزمي والتحكّك بـه وهو اذ ذاك متسنّم[٣] ذروة مجدهِ. فلما تصدّى[٤] الهمذانيّ لمساجلته[٥] وقعت جُرأتهُ موقع الاستغراب عند علماء العصر. فتطالّت[٦] الى الخصمين الأبصار واشرأبّت[٧] الاعناق الى تلك المصاولة[٨] النادرة المثال بين فتىً في مقتبَل الشباب نازَلَ في ميدان الأدب شيخاً نيّف على الستين ملأت مهابتهُ العيون وذاع اسمهُ في البلاد. فلما انجلت المناضلة[٩] عن ظهور[١٠] أبي الفضل على قِرنهِ اكبر القوم ذلك الفوز المبين وأقرّوا لهُ بالرئاسة في مشيخة العلماء وانقطاع النظير في عالم الأدباء. وما عتّم الخوارزميّ ان لبيّ داعي ربّهِ وفي قلبهِ حسرات الفشل والانخذال فخلا الجوّ للهمذانيّ واستفحل أمرهُ وواصل رؤساء زمانهِ فحظي عند جميعهم ودرّت[١١] عليه الارزاق ورتع من الرفاهية في رياض غنّاء[١٢] وارفة[١٣] الظلال وسحب من الرفعة ثوباً طويل الاذيال

ورُزق بديع الزمان من ذكاء القريحة وتوقّد الذهن وقوّة النفس وسرعة الخاطر حظاً نادراً ويُروى عنهُ من معجزات الفكر مالا يكاد يحتملهُ طبع بشريّ حتّى لقد يتعذّر تصديقهُ. فمن ذلك أنهُ كان يُنْشَد القصيدة التي لم يسمعها قطّ وهي اكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلّها ويؤدّيها من أوّلها الى آخرها لا يخرم منها حرفاً. وينظر في الاربعة أو الخمسة ورقات من كتاب لم يعرفهُ نظرةً خفيفة ثم يؤدّيها عن ظهر قلبه بالتمام. وكان يُقترح[١٤] عليهِ عمل قصيدة او انشاء رسالة في معنىً بديع

---

١ لاشتهار امرهِ ٢ مسابقة ٣ مُعتلٍ ٤ تعرّض ٥ لمفاخرته ومعارضته ٦ ارتفعت ٧ تطاولت ٨ المواثبة ٩ المخاصمة والمدافعة ١٠ انتصار وفوْز ١١ غزرت وكثرت ١٢ كثيرة الشجر والعشب ١٣ ممتدة ١٤ اقترح عليهِ كذا طلبهُ منهُ

وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عنها فيها. وكان يبتدئ الكتاب المقترح عليهِ بآخر سطرٍ منهُ ثمّ هلمّ جرًّا الى الاوّل ويُخرجهُ كأحسن شيءٍ واملحهِ. ويأخذ النثر فيقرأه شعراً والشعر فيقرأهُ نثراً. وتُعرض عليهِ الابيات الفارسيَّة المشتملة على المعاني الغريبة فينظمها من فورهِ أبياتاً عربيّة ويجمع بين الابداع والاسراع. وكلامهُ كلّهُ عفو الساعة وفيض اليد ومجاراة الخاطر للناظر ومباراة الطبع للسمع ... فقد كان حقيقة معجزة أوانهِ وبديع زمانه

وبديع الزمـان هو مخترع فنّ المقامات الشريف وقد أملى اربعمائة مقامة وهو بنيسابور لم يصلنا منها الا خمسون فقط. ولهُ رسائل رائقة الأُسلوب بليغة اللهجة عالية الطبقة خليقة بكاتبها وناسج بردها. وشعر ابي الفضل عامر الابيات نفيس الصنعة منهُ قولهُ في المدح:

يا سيّد الأُمراء أفخرْ فما ملكٌ	الاّ تمنّاك مولىً واشتهاك أبا
اذا دعتك المعالي عُرفَ[1] هامتها	لم ترضَ كسرى ولا من قبله ذنَبا
ما السيف مختطماً والسيل مرتكماً	والبحر ملتطماً والليل مقتربا
أمضى شباً منك أدهى منك صاعقةً	أجدى يميناً وأدنى منك مطّلبا[2]
قد كاد يحكيك صوب الغيث منسكباً	لو كان طلقَ المحيّا يُمطر الذهبا[3]
والدهر لو لم يخُنْ والشمس لو نطقت	والليث لو لم يُصَدْ والبحر لو عذُبَا
يا من يراهُ ملوك الارض فوقهمُ	كما يرون على أبراجها الشُّهُبَا[4]
لا تُكذبنّ فخير القول أصدقهُ	ولا تهابنَّ في امثالها العَرَبَا[5]

---

١ عرف الجبل اعلاه ٢ مختطم مجرّد ومرتكم بمعنى متراكم وشبا جمع شباة وهي من السيف حدهُ واجدى اكثر جدواً اي عطاء وادنى اقرب ومطّلباً مصدر ميمي من اطلب بمعنى طلب ٣ يحكيك يشبهك وصوب الغيث انصبابهُ وطلق المحيا بشوش الوجه ٤ الشهب الكواكب مفردها شهاب ٥ كذبهُ قل لهُ الكذب يقول ان ما اصف من

ولما بلغ بديع الزمان الاربعين من عمرهِ عرض لهُ داء السكتة وعجل دفنهُ فأفاق في قبرهِ وسُمع صوتهُ فنُبش عنهُ فوُجد انهُ قد مات وقد قبض على لحيتهِ . فقامت نوادب الادب تنوح عليهِ وتبكيهِ . وهبّت الأكارم مع المكارم تؤبّنه[١] وترثيهِ .

أَلْحَرِيرِيّ (١١٢٢م ٥١٦هـ)

هو أبو محمّد القاسم بن عليّ الحريريّ. وُلد بالبصرة وانكبّ من صغره على الدرس وانقطع الى الاشتغال بالعلوم والغوص على لآلئ الآداب والأطّلاع على أسرار اللغة وكشف مكنونات[٢] البلاغة ولمّا كان من ذوي اليسار لم تنكّب[٣] بهِ الشؤون المعاشيّة عن الغاية التي سعى وراء تحقيقها فتضلّع من كل فنّ وعلم حتى أصبح نسيج وحدهِ في الأدب وقبض على أزمّة اللغة فتصرّف فيها كيف شاء بحيث لم يكن ليندّ عنهُ قليلٌ ولا كثير من كلام العرب ولغاتهم وأساليب فصحائهم وتفننهم في منطقهم وضربهم للامثال وتحاجيهم[٤] بلطائف الالغاز وتخاطبهم بدقائق الاسرار ولطائف الرموز اللغويّة . ومقاماتهُ الشهيرة هي الدليل المقنع على وفور فضلهِ وغزارة مادّتهِ وعلوّ طبقتهِ وقد تجسّم فيها علمهُ تجسّماً يكاد يكون محسوساً

سجاياك لا يشوبهُ كذب وقولهُ : ولا تهابنّ الخ اي مهما ضربت الامثال في الحامد بغيرك فانت فوق ذلك لا يخشى عليك ان تكونَ مسبوقاً. ثم يذكر مشاهير العرب فيما يلي من الابيات ويقول انهم لم يبلغوا معشار مآثر الامير الممدوح

١ أبّن الميت عدّد مآثره وأثنى عليهِ ٢ مستورات ٣ تعدل به وتُنحّيهِ ٤ تحاجى القوم تطارحوا الأحاجيّ وهي العبارات المغلقة يتفاكه بها القوم واحدتُها أُحجيّة

ونحا الحريريّ في مقاماته منحى بديع الزمان الهمذانيّ واضع الفنّ والسابق إليه غير أنه فاقهُ كثيراً ببداعة الانشاء ونصاعة [1] الالفاظ ونباهة المعاني فرصّع كلامه بجواهر البلاغة وحلاّهُ ما شاءَ ظرفهُ وذوقهُ بضروب الكنايات اللطيفة والاستعارات الدقيقة ووشّاهُ بأشكال البديع البديعة الأنيقة فجاءَت مقاماتهُ آية الآيات في الاعجاز والابداع ألفاظها خلاصة الفصاحة والمتانة ومعانيها لبّ البلاغة الفتّانة . فهي مثال الكمال في هـذا الفن عند فحول العلماء ونموذج الانشاء من الرتبة العليـا

قالو: وكان سبب وضع الحريريّ لمقاماته ما حكاهُ ولدهُ ابو القاسم عبد الله قال: كان أبي جالساً في مسجده ببني حرام فدخل شيخٌ ذو طِمْرين [2] عليه أُهبة السفر رثّ الحال فصيح الكلام حسن العبارة فسألتْهُ الجماعة «من اين الشيخ» فقال «من سَروج» فاستخبروهُ عن كنيته فقال «أبو زيد» فعمل أبي المقامة المعروفة بالحراميّة وهي الثامنة والاربعون وعزاها الى ابي زيد المذكور واشتهرت. ويحكى ان الحريريّ عمل اوّلاً اربعين مقامة وحملها من البصرة الى بغداد وادَّعاها فلم يصدّقهُ في ذلك جماعة من أهل بغداد. فاستدعاهُ شرف الدين وزير المسترشد بالله الى الديوان وكانت قد بلغتهُ المقامات وأَعجبتهُ وسألهُ عن صناعته فقال «أنا رجلٌ منشئٌ» فاقترح عليه إنشاء رسالة في واقعة عيّنها. فانفرد في ناحية من الديوان وأخذ الدواة والورقة ومكث زماناً كثيراً فلم يفتح اللهُ سبحانهُ عليه بشيءٍ من ذلك فقام وهو خجلان. فقال فيه أبو القاسم عليّ بن أفلح وكان من منكري دعواهُ:

---

[1] ظهور وصفاء [2] مثنى طِمْر وهو الثوب البالي

شيخ لنا من ربيعة الفرَسِ ينتف عُثنونهُ من الهَوَسِ [1]
أنطقهُ الله بالمَشانِ كما رماهُ وسطَ الديوان بالخَرَسِ [2]

فلما رجع الى بلدهِ عمل عشر مقامات أُخر وسيّرهنّ واعتذر من عيّهِ [3] وحصَرهِ في الديوان بما لحقهُ من المهابة

ويُحكى أنّ الحريريّ كان دميماً قبيح المنظر فجاءَهُ شخصٌ غريبٌ يزورهُ ويأخذ عنهُ شيئاً. فلمّا رآهُ استزرى [4] شكلهُ وفهم الحريريّ ذلك منهُ فلمّا التمس منهُ أن يُملي عليهِ قال له « اكتب:

ما أنت أوّل سارٍ غرَّهُ قمرٌ ورائدٍ اعجبتْهُ خضرة الدِّمَنِ [5]
فاْختر لنفسك غيري إنني رَجُلٌ مثل المُعَيديِّ فاْسمعْ بي ولا ترَني [6]

فخجل الرجل منهُ وانصرف

وقد انبرى [7] عدّةٌ من علماء الأدب لشرح مقامات الحريريّ. وأوسع الشروح التي علِّقتْ عليها وأوفاها شرح أبي العبّاس الشريشيّ فإنه لم يدع حسنة مكنونة الاّ أظهرها ولا نكتةً دقيقةً الاّ استخرجها. وللحريريّ ما عدا المقامات كتاب « درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ » ذكر فيهِ ما يفرط من خاصّة الأدباء من اللحن في الكلام وكتاب « مُلحة الاعراب »

---

[1] ربيعة هو ابن نزار ابو القبيلة المشهورة ورث من تركة ابيه الخيل فسمي ربيعة الفرس والعثنون شعر الذقن خاصة والهوس طرف من الجنون [2] المشان قرية على مقربة من البصرة كان اهل الحريري منها [3] عجزه واحتباسهِ [4] احتقرهُ واستهانهُ [5] الرائد الرجل يتقدم القوم في طلب المرعى والدمن جمع دمنة وهي الاوساخ المتراكمة ينبت عليها العشب فتغرّ الرائي [6] مثل المعيدي الخ مثل يضرب للرجل لهُ صيتٌ وذِكرٌ في الناس فاذا رأيتهُ ازدريت مرآه [7] تعرّض

وهي أُرجوزة وجيزة في النحو علّق عليها بعض شروح ولهُ نثر وشعرٌ غير ما دُوّن في مقاماته ِ أكثر فيهِ من استعمال التجنيس [١]

أبْنُ ٱلْأَثِير (١٢٣٩ م ٦٣٧ هـ)

هو ضياء الدين ابو الفتح نصر الله بن محمّد الجَزَرِيُّ المعروف بابن الأثير وُلد بجزيرة ابن عمر ونشأ بها وانتقل مع والدهِ الى الموصل وبها اشتغل وشمّر عن ساعد الجدّ في تحصيل العلوم وأُولع بحفظ اشعار العرب قديمها وحديثها فوعى منها شيئاً كثيراً أعانهُ على الابداع في الانشاء والتبريز في الأدب وفتق لهُ من المعاني الغريبة المبتكرة كل نوعٍ أنيق مليح . ولمّا كملت لهُ ادوات الصناعة وآنس من نفسهِ قوّة على الخوض في مضمار الادبِ والخروج منهُ مجلّياً [٢] قصد جناب الملك الناصر صلاح الدين فخدمهُ سنةً ثمّ اتصل بابنهِ الملك الأفضل نور الدين ولمّا تُوفّي السلطان صلاح الدين واستقلّ ولدهُ بمملكة دمشق استقل ابن الأثير بالوزارة ورُدّت امور الناس اليهِ وصار الاعتماد في جميع الاحوال عليهِ فأساء العشرة مع أهلها وتبغّض اليهم بكبريائهِ وقساوتهِ حتّى همّوا بقتلهِ عند تقلّص ظلّ [٣] مخدومهِ عن دمشق وانتقالهِ الى صرخد فأخرجهُ الحاجب محاسن بن عجم مستخفياً في صندوق مقفلٍ عليهِ... ولحق بمولاهُ وصحبهُ الى مصر لمّا استُدعي لنيابة ابن أخيهِ وكأنّهُ لم يتّعظ بما جرى لهُ في

١ من الخليق بالاعتبار ان إنشاء الحريري في رسائلهِ وشعرهِ هو غيره في مقاماتهِ وذلك دليل على حصافة الرجل وحسن ذوقهِ اذ للمقامات لغة خاصّة تليق بها وحدها فاذا استعملت فيما سواها استُثقلت واستهجنت ٢ فائزاً ٣ تقلّص انسحب وتقلّص الظل كناية عن زوال السلطة

الشام فلم يحسن معاملة المصريين وأحفظهم [١] بسوء تدبيره فحاولوا الفتك به لو لم يستخف ويخرج مستتراً. ولما أستقرّ الملك الافضل في سميساط عاد ابن الاثير الى خدمته مدّةً ثم فارقه واتّصل بخدمة أخيه الملك الظاهر صاحب حلب ولم يكن طبعه المقوت ليسمح له بطول المقام فخرج مغاضباً وعاد الى الموصل فلم يستقمْ حاله فورد إربل فلم ينتظم أمره فسافر الى سنجار فاستقض" [٢] مكانَه ثم عاد الى الموصل ووفّق الى القرار بها واتخاذها دار إقامة وكتب الانشاء لناصر الدين ثم قصد بغداد رسولاً من قِبَل مخدومه فأدركته الوفاة هناك

.ولابن الاثير من التصانيف كتاب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» وهو مؤلّفٌ نفيسٌ وافر المادّة مُحْكَم الوضع جمع فيه مؤلّفه اصول علم الانشاء وفروعه ولم يترك مسألةً الاّ أوضحها ولا فائدة الاّ دوّنها ولا مذهباً الاّ بحث فيه وكشف محاسنه وهتك معايبه فجاء سِفراً جليلاً مستوعباً [٣] لأحكام فنون الكتابة جامعاً لمنثور مسائلها مع حسن ترتيبٍ وتبويب. وهو الشاهد الناطق ببعد غور صاحبه وغزارة علمه ورسوخ قدمه في علوم الأدب. الاّ انه يؤخذ عليه فرط دعواه واطرائه لنفسه وكتاباته وتفوّقه ببراعته وحسن صناعته حتى لم يكتب فصلاً بل صفحةً من كتابه الا وَجّهَ أنظار القارئ الى عجيب اختراعه واستنباطه وغريب تفنّنه وابتكاره وقرّر علوّ كعبه في البلاغة وتفرّدهُ دون من سواه بسداد المقال وصدق النظر والاستدلال بحيث يدّعي أنه انفرد عن مواقف الأشباه ونَت خطى فحول الكتبة عن بلوغ مداه ... فرسم على صفحات تأليفه هذا كبره وصلفه وخيلاءه واعجابه بنفسه الى حدّ ازدراء سائر

---

١ اغضبهم ٢ وجده خشناً ٣ جامعاً

الناس ممّا نغّص عيشهُ وحرمهُ لذّة السلام والسكينة وأوقع نفسهُ في المهالك غير مرّة ... ولهُ أيضاً كتاب «الوشي المرقوم في حلّ المنظوم» وديوان رسائل كلّها غرر ودرر وغير ذلك من التصانيف الثمينة التي لا يُتصوَّر كيف امكنهُ وضعها مع ما رأيت من كثرة أشغالهِ وتواتر حلّهِ وترحالهِ.

أَلنُّحاةُ واللُّغويُّون[1]

كان العرب يتكلّمون كلاماً فصيحاً مُعرَباً بارشاد سلائقهم[2] وتلقين مَلَكاتهم[3] فكانت ألسنتهم مستقيمة النطق غير محتاجين الى الاستعانة بقوانين وضوابط تقيها اللحن والخلل[4]. الاّ أنهم ما كادوا يختلطون بالأعاجم حتى دبّ الفساد في كلامهم الى حدٍّ كاد يقضي على اللغة الفُصحى بعد مُضِيّ بضع سنوات من انسياحهم في الارض وافتتاحهم المهالك. فحدا[5] تفشّي اللحن في العامّة وبعض الخاصّة عدّة من أئمّة القوم الى تدارك[6] امر اللغة قبل استشراء[7] الفساد فيها بوضع قوانين وضوابط استنبطوها من استقراء[8] كلام العرب الموثوق بعربيّتهم. فقام جلّةٌ من العلماء الاعلام بهذهِ المهمّة أحسن قيام ووضعوا أُصول علم النحو وبيّنوا احكامهُ وحدَّدوا قواعدهُ فصانوا لغتهم من الهرم والاضمحلال وأُصبح النحو مرجعاً لمُريدي اللغة العربيّة من المستعجمين والاعاجم يجرون عليهِ ويقوّمون بهِ عوج السنتهم ويحذون حذو العرب في مخاطباتهم .

---

١ اثرنا معظم هذا المبحث عن مقالة للشيخ ابراهيم اليازجي تحت عنوان «اللغة العامية واللغة الفصحى» ٢ طبائعهم ٣ الملكة صفة راسخة في النفس ٤ الفساد ٥ ساق ٦ تدارك الامر حاول اصلاحهُ قبل فوات الفرصة ٧ تفاقم ٨ استقرى الشيء تتبعهُ

غير أن الامر لم يقف عند الحدّ المعتدل ولم يكتف القوم ببلوغ هذه الغاية الحميدة بل هبَّ جمهورٌ من المتأدّبين المتفلسفين الذين لم يكن لهم عملٌ سوى المجادلة والمناظرة وأخذوا يقلّبون الألفاظ على كلّ وجه ممكن وغير ممكنٍ وينقّبون عن لغات العرب على تعدّد قبائلها واختصاص كلٍ منها بلهجة ... فجمعوا من ذلك مذاهب شتّى وآراءَ متفرّقة واحكاماً متضاربة متناقضة سخّروا بها علم النحو فأصبح مضماراً لفرسان المماحكة[1] والمناضلة واطلقوا لعقولهم الأعنّة في الجدال والمكابرة فجاءوا بالتعليلات المعنّة والتوجيهات البادرة والتمحّلات[2] المستحيلة بحيث أدّوا بالنحو الى حالةٍ لايعدم معها مرتكب الغلط من مذهبٍ يردّ اليه كلامَهُ وحجّةٍ يؤيّد بها مدَّعاهُ. وجاء في أمثالهم «أبرد من حجّة نحويّ»

واشتهر بالاقبال على النحو واستنباط احكامه اهل مدينتين بالعراق العربي وهما البصرة والكوفة . ولكلٍّ من الفريقين مذاهبُ وآراء تناقض مذاهب الفريق الآخر وآراءَهُ حتى لا تكاد ترى باباً من ابواب النحو يتّفق على احكامه كِلا الفريقين اتفاقاً تاماً . وتطرّف الكوفيون في الافتراضات والتوجيهات الى حدٍّ يفوت المعقول وكأنّهم توهّموا العصمة في كل بدويٍّ قال بيتاً من الشعر وظنّوا تخطئته بدعةً جديرة بالازدراء[3] والرذل وخرقاً لحرمة اللغة خليقاً بالانكار والعذل[4]. فكانوا اذا سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيءٍ مخالفٍ للاصول المقرَّرة جعلوه أصلاً جديداً وبوّبوا عليه. بخلاف البصريّين فانهم أعدل خطّةً وأصحّ استنباطاً

ولا يخفى أنّ هذه الاستدراكات[5] التافهة والمناقضات الغريبة هي اصل

---

١ التهادي في المخاصمة ٢ تمحّل الشيء طلبهُ بحيلة وتكلف ومشقة ٣ بالاحتقار ٤ اللوم ٥ مصدر استدرك عليه القول خطأهُ فيه

الفساد الذي طمى[1] على النحو وأدّى الى تشعب[2] الآراء واختلاف المذاهب الى حدٍّ يفوق الحافظة وتعجز معه مدارك الطالب عن استيعابها[3] كلّها مهما بذل من الكدّ والجدّ فربمّا استُنْزِف[4] صبره ونفد[5] عمره ولم يحط بها جميعاً ولم يكن بمأمنٍ من شرود بعضها عن ذاكرته فيطرأ على لسانه اللحن من حيث لا يشعر. هذا اذا كان ممن رُزقوا من الجلَد[6] والوَلوع باللغة الحظّ الأعلى ولم يشغله شأنٌ من شؤون الحياة على تعدّدها وتلوّنها عن الانقطاع الى مثل هذا العمل واهمال بقيّة العلوم العصريّة وهو مما لا يغني في مقام التنازع شيئاً

الا أن المؤلّفين المحَدثين قد أدركوا مسيس الحاجة الى تجريد النحو من كل ما يشوّه وجهه ويُدخل الالتباس والاختلاط على ذهن الطالب فأخذوا ينبذون من كتبهم الاقوال الساقطة والمذاهب المرجوحة واعتمدوا في تآليفهم أصحّ الاحكام وأفصح اللغات فجعلوا النحو على حبل الذراع وقرّبوا متناوَله على الطلاّب ولعلّهم حبّبوا اليهم الاقبال عليه بعضَ الشيء

وليست كتب اللغة بأوفر حظّاً من كتب النحو. فانّ الذين عانَوا الرِحلة الى البادية وطافوا احيـاء العرب ليقفوا على لغاتهم ويدوِّنوا مفرداتها قد جمعوا كلّ ماوصلت اليه يدهم من كلام العرب على اختلاف لهجاتها وتعدّد قبائلها. فجاءَت المعجمات زاخرةً بالمترادفات حتى انّ بعض المسمّيات يُعدّ لها مئات من الاسماء ـ كالسيف والاسد ـ وهو عبءٌ[7] ثقيلٌ على كاهل[8] اللغة وغنى أشدّ وطأة وأعسر احتمالاً من الفقر بعينهِ وما كان أغنى هذه العروس عن هذه الحِلِي والحُلل[9] التي تعرقل[10] مسعاها

---

١ ارتفع وملا ٢ تفرّع ٣ استيفاؤها ٤ استخرج ٥ فرغ وفنيَ ٦ الصبر ٧ حمل ٨ اعلى الظهر ما بين الكتفين ٩ الحلى جمع حلية وهي ما يلبس من المصوغات للزينة والحلل جمع حلة وهي الثوب الكامل ١٠ تصعب

وتضغط[1] عليها الى حدّ الاختناق... ولا فائدة من هذه الالفاظ المترادفة سوى التفنن في صور التعبير. ثم كان من تنوّع لغات القبائل أنّ هذه الكتب أصبحت حافلة[2] بالالفاظ التي تطلق على عدة معانٍ متباينة — كالعين والخال — ومنها ما يطلق حتى على الضدين — كقَسَطَ — مثلاً فانها بمعنى جار وعدل وفي كتب اللغة من هذا القبيل شيء كثير وهذه الغاية القصوى في الاختلاف والتناقض. بل آيــة الآيات في الغرابة تدوين اللغويين لكلماتٍ لم يهتدوا الى معرفة معناها مطلقاً ـ كجحلنجع ـ ومع ذلك فانّ من القوم من كان لهم وقت يصرفونهُ في المباحثة عمّا اذا كان جحلنجع اسماً او فعلاً...

وأدّى الحرص بالجامعين لشتات اللغة الى تدوين اللغات المهجورة والالفاظ الوحشيّة التي لا يسوغ[3] للبليغ استعمالها على ما نصّ عليهِ علماء البيان وهي نحو ثلث مفردات اللغة. واذا زدت عليها كل ما يتعلّق بالابل والقيام عليها ممّـا لا تخلو منهُ صفحةٌ من كتب اللغه لم يبقَ لك نصف المدوَّن في هذه الاسفار الضخمة. وهذا النصف نفسهُ مشوَّهٌ[4] بالتقصير في تعريف الالفاظ ولا سيّما اسماء الحيوان والنبات والمعدن. ففي اكثرها يكتفي المؤلّف بقوله « معروف » ولعلّهُ كان معروفاً في زمانهِ وامّـا اليوم فقد صار انكر من شيء[5] هذا ما عدا التخليط والابهام في التعبير فانّ من الموادّ ما كلّما زدتهُ مطالعة وتبصّراً زادك حيرةً وتضليلاً. بحيث ان هذه المؤلّفات التي وضعت لتكون عوناً للغة اصبحت عوناً عليهـا وفاتت الفائدة من وضعها. وهكذا تطرّق[6] الفساد الى اللغة من حيث قصد اربابها صيانتها وتلافي امرهـا

---

١ تضيق وتزحم ٢ ملآنة ٣ يجوز ٤ مقبح ٥ لايخفى ان لفظة شيء تطلق على كل موجود حسّيًا كان او عقليًا ومن ثم ضرب بها المثل في العموم وعدم التعيين ٦ اتصل

ولما كان عصرنا عصر علمٍ وصناعة أدّى البحث والتنقيب الى انقلاب مسائل العلوم واعمال الصنائع التي كانت معروفة عند العرب وتغيّر مصطلحاتها واستُنبط غيرها مما لم يمرّ له طيف[1] في خيال واضعي اللغة فكثرت الاوضاع المستحدثة لاداء الاغراض العلميّة الحديثة والدلالة على أنواع المخترَعات والمكتشَفات العصريّة وما يجدّ يوماً فيوماً في كل فنٍّ من الفنون ممّا لا يقع تحت حصرٍ ولا يقف عند حدّ. ولسببٍ ما احتُكرت[2] هذه العلوم والصنائع للبلاد الغربيّة كما لا يخفى على أحد وهذه المواضَعات الجديدة محدَثة في لغاتهم ولا أثر لها في لغتنا . ومن ثمّ صارت المعاجم العربيّة بمنزلة معجمات اللغات الميتة من حيث العلوم والصناعات العصريّة لا يُعثر[3] فيها الاّ على ما كان متداوَلاً عند الأمم الدائرة[4] في العصور الغابرة... ولا عِبرة في بعض المفردات المستحدثة التي وُفِّق الى وضعها بعض كتاب العصر الذين يُعانون من نقل شيءٍ من علوم الغرب لابناء جنسهم أمراً معجزاً دونه خرط القتاد[5]. فان هي الا برض من فيض[6] ونقطة من بحر لا تروي غليلاً ولا تسدّ خللاً. أصلح الله احوالنا وسدّد[7] اقوالنا وحقق آمالنا

هذا ولا حاجة الى التنبيه أن ما تقدّم من الكلام لا يحط من مقام اللغة من حيث هي هي ولا ينقض ما اشتهر عنها من الاتّساع. فان من نظر في أوضاع اللغة العربيّة بعين النقاد البصير ووقف على اسرارها وكيفيّة تصرّف اربابها في اشتقاق ما كان يحدث من مواضعات الحضارة حين انتقل العرب من مسارح البادية الى ساحات المدن ومن اكناف المضارب[8]

---

١ خيال ٢ جمعت وحبست ٣ يطلع ٤ الهالكة ٥ أي لا يُنال الا بمشقة عظيمة والقتاد شجر صلب له شوك كالابر وخرطه انتزاع شوكه باليد ٦ قليل من كثير ٧ صوّب ٨ جنبات الخيام

الى شرَفات[1] القصور ظهر لهُ جليًّا ان هذه اللغة من ألين اللغات تطريقاً وأسهلها تطبيقاً على ما تقتضيهِ المطالب العصريَّة وتستلزمهُ مرافق[2] المدنيَّة الحاضرة. وهيهات ان توسَم[3] بطابَع العجز عن تمثيل ما يخطر في الفكر من دقائق المعاني وتُرمى بالضيق عن القيام بقضاء حاجاتنا الحاليَّة. فان اللغة كنزٌ لا تتدفَّق منهُ الخيرات الأَّ اذا صرف اصحابهُ هممهم الى العمل بهِ بجدٍّ وبصيرة. وقد تفرَّدت اللغة العربيَّة عن سائر اللغات بما فيها من وجوه التعبير المتعدّدة وفنون المجاز وضروب الاستعارات الى ما هنالك من المزايا التي لن تزال ابد الدهر عنواناً على اعجاز واضعيها وفضل أئمَّتها ما لثم النسيم عذبات[4] الأغصان وناح القُمريُّ[5] على الافنان[6]

وسنذكر ههنا من علماء النحو واللغة اشهرهم صيتاً في اندية الأدب واللهُ الموفّق الى سواء السبيل وبلوغ الأرب .

---

١ جمع شرفة وهي ما أشرف من البناء ٢ منافع ٣ توسم تعلم اي يجعل لها علامة والطابَع كل ما يطبع ويختم بهِ ٤ أطراف ٥ نوع من الحمام ٦ الأغصان

علماء البصرة

أَبُو ٱلْأَسْوَد (٦٨٨م ٦٩هـ)

هو ابو الأسود ظالم بن عمرو الدؤليّ. وُلد بالبصرة ونشأ بها وكان من وجوه اهلها واكابر أُدبائها ولما ظهر الاسلام دخل فيه وصحب عليّ بن ابي طالب وتشيّع [1] لهُ وشهد معهُ وقائع صفين الشهيرة وعمل [2] لهُ مدَّة على البصرة وكان من أكمل الرجال رأياً وأسدّهم عقلاً غير أنّهُ يؤخذ عليه حرصٌ شديد الى حدّ الافراط ومن قولهِ « لو أطعنا المساكين في اموالنا لكنّا أسوأ حالاً منهم ». وهو أول من وضع النحو وضعهُ على الاصل الذي أرشدهُ اليه عليّ بن ابي طالب بقولهِ: « الكلام كلّهُ ثلاثة أضرب اسم وفعل وحرف » ثمّ قال لهُ: « انحُ هذا النحو » فسمّي هذا العلم نحواً [3]. ويُحكى انهُ دخل على زياد بن ابيهِ يوماً وهو والي العراقين وقال لهُ: « أصلح الله الامير اني أرى العرب قد خالطت هذه الاعاجم وتغيّرت السنتهم أفتأذن لي ان أضع لهم ما يقيمون بهِ كلامهم » قال « لا » ثمّ اتّفق ان جاء رجل فقال لزياد مستغيثاً « أصلحَ اللهَ الامير

---

١ إدّعى دعوته ٢ كان عاملاً من قبلهِ ٣ كذا يقولون في سبب تسمية هذا العلم

تُوُفّي أبانا وترك بنون ... » فقال زياد « أُدعوا لي أبا الأسود » فلمّا حضر قال « ضع للناس ما نهيتك عنهُ » وقيل انهُ دخل بيتهُ يوماً فقالت لهُ بعض بناته « يا أبتِ ما أحسنُ السماء » فقال « يا بُنيَّة نجومها » فقالت « اني لم أُرد ايَّ شيءٍ منها احسن انما تعجبت من حسنها » فقال إذن فقولي : ما أحسنَ السماء وافتحي فاكِ » ويقال ان أول بابٍ وضعهُ هو باب التعجّب. وكان كلّما سمع لحناً [١] فاشياً في القوم وضع الباب الذي يقابلهُ.

وابو الأسود هو أوّل من وضع الحركات. قيل انهُ اتّخذ كاتباً وقال لهُ « اذا رأيتني قد فتحتُ فمي بالحرف فانقط نقطةً فوقهُ وان ضممت فمي فانقط بين يدي الحرف وان كسرتُ فاجعل النقط من تحت وان سمعتَ غُنَّة فانقط نقطتين » وما زالوا يدلّون على الحركات بنقطةٍ تخالف لون الخطّ حتى أُحدث الاعجام فجعلوا النقط لتمييز الحروف المتشابهة الصور بعضها عن بعض وخالفوا في وضعها ثم جعلوا الحركات على الصورة المتعارَفة في أيامنا فاستُغني عن استعمال مدادين [٢] في الخطّ [٣]

---

١ خطأ في الاعراب ٢ حبرين ٣ كان العرب يكتبون في اول الامر بلا حركات ولا اعجام لمكانهم من معرفة لغتهم واستغنائهم عما يقوّم السنتهم الا ان اختلاطهم بالاعاجم ادى الى فشوّ اللحن لدقة احكام الاعراب وخفاء مواقعها على العامة ثم استعجمت الالسن وكثر التصحيف والتحريف في الفاظ اللغة نفسها ولا سيما في اعلام الاشخاص والاماكن حيث لا قرينة تدلّ على حقيقة اللفظ فأحدث الاعجام تلافياً لهذا الخلل. ومن مستملح مايذكر في هذا المعنى ما تروى عن الفرزدق ان عجوزاً اتتهُ وقالت لهُ « اني استجرت بقبر ابيك » فقال لها « وما شأنك » قالت « ان تميم بن زيد خرج بابنٍ لي ولا قرة لعيني ولا كاسب عليّ سواهُ » فقال لها « وما اسم ابنك » قالت « خنيس » فكتب

ولأبي الأسود شعرٌ حسنٌ غير أنهُ لم يشتهر بالشعر اشتهارهُ بالنحو ومن شعرهِ قولهُ :

وما طلب المعيشة بالتمنّي ولكن ألقِ دلوك في الدلاءِ
تجيء بملئها طوراً وطوراً تجيء بحمأةٍ[1] وقليل ماءِ

وغير ذلك من متين الشعر وسديد القول . وأُصيب في آخر عمرهِ بفالج عطل نصف جسمهِ وتوفّي ابو الأسود الدؤلي بالطاعون الجارف بالبصرة سنة ٦٨٩ مسيحية. ولم يبلغ دولة بني العبّاس لكنّنا آثرنا تأخير ترجمتهِ الى الآن لنذكره في صدر باب النحاة فانّ لهُ عليهم جميعاً فضل التقدُّم.

أَلخَلِيل (٧٨٦م ١٧٠ هـ)

هو أبو عبد الرحمان الخليل بن أحمد الفراهيديّ. كان رجلاً عاقلاً حليماً وقوراً وافر الذكاء واسع العلم ولهُ المقام الرفيع في النحو واللغة ولم يزل طول ايّام حياتهِ منصبّاً على درس العلوم وتدريسها وأخذ عنهُ مشاهير علماء زمانهِ ومنهم سيبويهِ إمام النحاة واقوالهُ حجّة العلماء في اللغة وعلوم العرب ومن كلامهِ الدالّ على فضلهِ وهمتهِ قولهُ « اني اذا خرجت من منزلي

الى تميم :

تميم بن زيد لا تكوننْ حاجتي بظهرٍ فلا يعيا عليّ جوابها
وهب لي خنيساً واحتسب فيهِ منّة لعبرة امٍّ لا يسوغ شرابها

فشك تميم في اسم الرجل (خنيس) واستقرى اسماء رجالهِ فوجد ستة اسماؤهم بين خنيس وحنيش وحبيش الخ فوجّههم اليه ...

[1] الطين الاسود

لقيت احد ثلاثة اما رجلاً أَعلم مني فذلك يوم فائدة او مثلي فذلك يوم مذاكرة اودوني فذلك يوم ثواب »

وكانت للخليل معرفة في النغم وقد وضع مصنَّفاً في هذا الغرض ولعل علمهُ بالالحان هو الذي أَعانهُ على استنباط علم العروض لما بين الايقاع في الأنغام الموسيقيّة والتقطيع في الأجزاء العَروضيّة من شدَّة الشبه والموسيقى والشعر علمان أخَوان عند جميع الأُمم. غيرَ أنهم يرون سبباً آخر لاستنباطهِ العَروض وهو أنهُ كان يوماً مارًّا بسوق الصفّارين [١] بالبصرة فسمع لدق مطارقهم على الطسوت نظاماً وايقاعاً أرشدهُ الى تقطيع ابيات الشعر. ويحكى انهُ كان لهُ ابن جلف [٢] فدخل عليه يوماً فسمعهُ يقطع بيتاً من الشعر بأَوزان العَروض فاستغرب كلامهُ فخرج الى الناس وقال « جُنَّ أبي جُنَّ أبي » فقال الخليل مخاطباً لهُ:

لو كنت تعلم ما أَقولُ عذرتني　　او كنت تعلم ما تقول عذلتُكا [٣]
لكن جهلت مقالتي فعذلتني　　وعلمت انك جاهلٌ فعذرتُكا

والخليل أوّل من ألف في اللغة. فعانى لذلك الرِحلة الى البادية وخالط أهلها ووقف على كلامهم ودوَّن ما جمع من الفاظ اللغة في مصنَّفٍ شهير يعرف بكتاب « العين » سَّماهُ باسم الحرف الذي بدأهُ به فانهُ لم ينسّق الكلم على ترتيب حروف الهجاء المتعارَف ولا على ترتيبها في حساب الجمَّل بل وضع للحروف ترتيباً من عندهِ واتّخذ المقاطع اساساً لنسقهِ وهو نظام معقول صحيح يشهد بأصالة رأيهِ وحسن ذوقهِ. فقدم الحروف الحلقيّة مبتدئاً بأقصاها مقطعاً « ع ح هـ خ غ ق » ثمّ الشجريّة « ك ج ش ض » ثم

---

١ صنّاع الصفر اي النحاس الاصفر ٢ غليظ جاف ٣ عذره رفع عنه اللوم وعذله لامه

أحرف الصفير « ص س ز » ثم الأَحرف اللسانية « ط د ت ظ ذ ث ر ل ن » ثم الشفهيّة « ف ب م » ثم المعتلّة « و ا ي » وتسمية الكتاب بأول لفظٍ من الفاظه عادة جرت عند كثيرٍ من الأُمم . ويقال ان الخليل شرع في تأليف كتاب العين بخراسان ووافته المنيّة ولم يفرغ منه فاكمله تلامذته ولم يكونوا من طبقة استاذهم فيقفوا آثاره في التأليف فجاء مختلاً غير أهل لأن يُعزى[1] للامام الذي بدأ بهِ. ولما نُقل من خزانة الدولة الطاهريّة الى بغداد تداولته أيدي كثيرين فزادوا وحذفوا وقدَّموا وأخَّروا كلٌّ على مقدار علمهِ وذوقهِ فكثر في الكتاب التخليط والاضطراب والفساد حتى مسخوه[2] مسخاً .

سِيبَوَيْهِ (٧٩٦م ١٨٠هـ)

هو أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب سيبويهِ وهو لقب فارسيٌّ معناه رائحة التفاح والفرس يقولون سيبُويَه . ولُد ببلاد فارس وقدِم البصرة وأخذ النحو عن الخليل واللغة عن الأخفش الأكبر وبرع في النحو حتى فاق المتقدّمين والمتأخّرين وصار كلامه في هذا العلم الحجّة التي لاتُردّ والقول الفصل الذي ليس بعده مِريةٌ ولا مراء[3]. ويحكى ان سبب قراءته النحو انه جاء الى حمّاد بن سلمة لكتابة الحديث فاستملى منه « ليس من اصحابي احدٌ الاّ لو شئت لأخذت عليهِ ليس أبا الدرداء » فقال سيبويهِ « ليس ابو الدرداء » فصاح بهِ حمّاد « لحنت[4] ياسيبويهِ انّما هذا استثناء »

---

١ ينسب ٢ حولوا صورته الى اقبح منها ٣ شك وجدال ٤ أخطأت في الاعراب

فقال «لأَطلبنّ علماً لا يُلَحِّنُنِي معهُ أحد» ثمّ مضى من فورهِ وشرع في قراءة النحو واستطلاع اسرارهِ حتى أصبح فيهِ نسيج وحدهِ[١] وامام النحاة غير معارَض وألّف كتابهُ المشهور ولشدّة اعجاب القوم بهِ واتّفاقهم على مزيّتهِ[٢] أطلقوا عليهِ اسمَ «الكتاب» تنويهاً[٣] بشهرتهِ واجلالاً لقدر صاحبه . وكان اذا قيل بالبصرة «قرأ فلان الكتاب» عُلم انهُ كتاب سِيبَوَيْهِ. وكان المبرّد اذا اراد مريدٌ ان يقرأ عليهِ كتاب سيبويهِ يقول له «هل ركبت البحر» تعظيماً لكتاب سيبويهِ واستصعاباً لما فيه. ومن كلام أبي عثمان المازنيّ «من اراد ان يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد سيبويه فليستحِ»

وقدم سيبويهِ من البصرة الى بغداد والكسائي يومئذٍ يعلّم الأمين بن هارون الرشيد فجمع بينهما وتناظرا وكان الكسائي كوفياً. وفي هذا المجلس قام الجدال بينهما على مسألةٍ شهيرة تُعرف «بمسألة الزُّنبور» وخلاصتها ان الكسائي زعم أن العرب تقول «كنت اظنّ الزنبور اشدّ لسعاً من النحلة فاذا هو إياها» فقال سيبويهِ «ليس المثل كذا بل «فاذا هو هي» وتشاجرا كثيراً ولما طال الجدال اتّفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب[٤] كلامهُ شيء من كلام اهل الحضَر[٥]. وكان الامين شديد العناية بالكسائيّ لكونهِ معلّمهُ فاستدعى عربياً فقال كما قال سيبويهِ. فقال لهُ «نريد ان تقول كما قال الكسائي» فقال العربيّ «ان لساني لا يطاوعني على ذلك فانهُ ما يسبقُ الاّ إلى الصواب» فقرّروا معهُ ان شخصاً يقول «قال سيبويه كذا وقال الكسائي كذا فالصواب مع من منهما» فيقول العربي «مع الكسائيّ» فقال «هذا يمكن» ثم عُقد لهما المجلس

---

١ منفرد لا نظير لهُ ٢ فضيلتهِ ٣ اظهاراً وتعظيماً له ٤ يخلط ٥ سكان المدن

واجتمع أئمّة هذا الشان وحضر العربي وقيل لهُ ذلك فقال « الصواب مع الكسائي وهو كلام العرب » فعلم سيبويهِ انهم تحاملوا عليه وتعصّبُوا للكسائي فخرج من بغداد وقد حمل في نفسهِ لما جرى عليهِ وقصد بلاد فارس وتوفّي بقريةٍ من قرى شيراز يقال لها البيضاء .

أبو عُبَيْدَة (٨٢٤م ٢٠٩هـ)

هو أبو عبيدة مَعْمَرَ بن المثنّى . كان أبوه يهوديًّا من أهل بَاجَرْوَان ببلاد فارس ولم يزل ابنهُ مبغضاً للعرب أشدَّ البغض وألّف الكتب في مثالبهم[١] وهو مدخولٌ في دينه خارجيّ المذهب خبيث اللسان لا يسلم من لسانه أحد لا شريف ولا وضيع . وكان ألثغ[٢] واذا تحدَّث او قرأ لحن عمداً واذا أنشد بيتاً لا يقيم وزنهُ وَمِنْ قولهِ « النحو شؤمٌ كلّهُ » وكان رثّ[٣] الهيئة قذر اللباس سيّئ المنظر والمخبر واما من حيث العلم والأدب فلأبي عبيدة مقام سامٍ في عصابة العلماء فقد كان غزير المادَّة واسع الرواية عالماً باللغة والشعر خبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وايامهم قديمها وحديثها ولهُ في هذا المعنى الأخير تصانيف اوضح بها معالم[٤] هذه الطريق فقفا أثرهُ جماعة منهم ابو الفرج الاصبهانيّ صاحب الأغاني وان كانوا قد فاقوهُ فلهُ عليهم فضل السابق المتقدّم . وكانت بين ابي عبيدة والاصمعيّ مساماة[٥] ومنافرة كما هو الشأن لذوي الصناعة الواحدة وكثيراً ما فضّلهُ قومٌ على قرنهِ وقيل انهُ كان كثير الفوائد جمّ العلوم مع سوء

---

١ عيوبهم ٢ في لسانه لُثغة اي ثقل ٣ بالي ٤ جمع مَعلم وهو ما يستدل به على الطريق ٥ مفاخرة

عبارة والاصمعيّ قليل الفائدة مع حسن انشاد وزخرفة والى ذلك اشار تلميذه ابو نؤاس بقولهِ « الاصمعيّ بلبلٌ بقفص وأبو عبيدة أديمٌ[١] طوي على علم »

وأبو عبيدة أوّل من ألّف في علم البيان ويعرف تأليفهُ « بمجاز القرآن » وكان سبب وضعهِ لهُ أنهُ لما استقدمهُ الوزير الفضل بن الربيع من البصرة الى بغداد حضرَ وأنشدهُ فطَرِبَ وأنس بهِ وقرَّبهُ. ثمَّ دخل ابرهيم بن اسماعيل من كتّاب الفضل ووزرائه فأجلسهُ بجانبهِ وسألهُ « أتعرف هذا » فقال « لا » فقال « هذا ابو عبيدة علاَّمة اهل البصرة أقدمناهُ لنستفيد من علمهِ » فالتفت الرجل الى أبي عبيدة وقال « كنت اليك مشتاقاً وقد سُئلتُ عن مسألةٍ أفتأذن لي ان اعرفك » فقال « هات » فقال « قال الله تعالى (طلْعُها[٢] كأنهُ رؤوس الشياطين) وانما يقع الوعد والايعاد[٣] بما قد عُرف مثلهُ وهذا لم يُعرَف » فقال أبو عبيدة « انما كلَّم الله العرب على قدر كلامهم. اما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفيُّ[٤] مُضاجعي ومسنونةٌ[٥] زرقٌ كأنياب اغوالِ

وهو لم يروا الغول قطّ ولما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا بهِ » فاستحسن ذلك الفضل وابرهيم. ولم يزل ابو عبيدة يُؤلّف حتى مات ويقال أن تصانيفه تقارب المائتين

ولما كان ابو عبيدة شعوبيًّا شديد التعصُّب حاد اللهجة لايفتأ يطعن

---

١ الجلد المدبوغ ٢ الطلع من النخل ما يخرج كأنّه نعلان مطبقان والحمل بينهما منضود ٣ وعده خيراً وأوعده شرًّا ٤ المشرفي السيف المنسوب الى مشارف اليمن ٥ صفة للسهام المحذوفة

في العرب ويمزّق أعراضهم أوغر[1] صدورهم وملأ قلوبهم حقداً وشحناء[2] فدسّ بعض اعدائه له سمًّا بموز وأطعمه فمات منه .

الأَصمَعِيّ (٨٣٢ م ٢١٧ هـ)

هو ابو سعيد عبد الملك بن قُرَيب الباهليّ المعروف بالاصمعيّ نسبةً الى أصمع أحد أجداده وُلد بالبصرة وأقبل على العلوم فأتقنها جميعاً حتى أصبح حجّة أدباء زمانه في كل فنّ من فنون الأدب. وترامى صيتهُ في الآفاق وعظم قدرهُ في الناس فاستقدمهُ هارون الرشيد وأجرى عليه رزقاً واستخلصهُ لمجلسه وحظي عندهُ كثيراً بظرفه وسعة علمه وصدق روايته وحسن تديُّنه. بل ربّما تخطّى حدود الاعتدال في تعبُّده حتى كان مفرط الاحتراز في تفسير القرآن والسُّنّة فاذا سئل عن شيء منهما يقول « العرب تقول معنى هذا كذا ولا أعلم المراد منهُ في الكتاب والسنّة أيُّ شيء هو » وكان الامام احمد بن حنبل يقول « انّ الاصمعيّ ثقةٌ في السنّة » وقال الشافعيّ « ما رأيت بذلك المُعسكَر أصدق من الاصمعيّ »

وللاصمعيّ تصانيف كثيرة جدًّا تشهد بغزارة مادّته منها « كتاب الخيل » وقد روى هو نفسهُ قصةً في شأن هذا الكتاب قال: حضرت انا وابو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال لي « كم كتابك في الخيل » فقلت « مجلّدٌ واحد » فسأل ابا عبيدة عن كتابه فقال « خمسون مجلّداً » فقال لهُ « قم الى هذا الفرس وامسك عضواً عضواً منهُ وسمِّه » فقال

---

١ اوقدها من الغيظ ٢ بغضاً

«لست بيطاراً وانّما هذا شيءٌ أخذته عن العرب» فقال لي «قم يا اصمعيّ وافعل انت ذلك» فقمت وأمسكت ناصيتَهُ وشرعت أذكر عضواً عضواً وأضع يدي عليه وأُنشد ما قالت العرب فيه الى أن فرغتُ منهُ. فقال «خذهُ» فاخذتهُ وكنت اذا اردت أن أغيظ ابا عبيدة ركبتهُ اليهِ. ونوادرهُ وملحهُ وغرائبهُ لا تُحصى. وكان معجزة زمانهِ بقوة ذاكرتهِ حتى قيل انهُ يحفظ ستة عشر الف ارجوزة. ولما طعن في السنّ عاد الى البصرة وحرص المأمون أن يصير اليهِ فلم يفعل واحتجّ بضعفهِ وكبرِهِ فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيّرها اليهِ ليجيب عنها. ولمّا تُوُفّي رثاهُ ابو العتاهية بقولهِ :

أسفتُ لفقد الاصمعيّ لقد مضى ... حميداً لهُ في كل صالحةٍ سَهْمُ
تقضّت بشاشاتُ المجالس بعدَهُ ... وودَّعَنا اذ وُدِّعَ الأُنسُ والعلمُ
وقد كان نجمَ العلمِ فينا حياتَهُ ... فلما انقضت ايّامهُ أفل النجمُ

إبن دُرَيْد (٩٣٣م ٣٢١هـ)

هو أبو بكر محمّد بن الحسن بن دُرَيد. وُلد بالبصرة ونشأ بها وتعلّم على مشاهير علمائها واقتبس منهم شيئاً كثيراً وأصبح راسخ القدم في اللغة وأنساب العرب واشعارهم وبرع في الشعر ولهُ نظمٌ جزلٌ رقيق يدلّ على ملكة قوية وقريحةٍ سخيّة. وانتقل عن البصرة الى عمّان ثم عاد اليها بعد سنين ومنها شخص الى بلاد فارس وصحب ابنَي ميكال عبد الله بن محمّد وابنهُ ولهُ في ابيهما المعروف بالشاه ابن ميكال وفيهما قصيدة شهيرة من جيد الشعر تعرف بالمقصورة مطلعها :

ياظبيةً اشبـــه شيءٍ بالمَهى ترعى الخزامى بين اشجارِ النقا [1]

وهي طويلة جدًّا جمع فيها اكثر المقصور فأَجزل ابن ميكال صلتهُ وقلّدهُ ديوان فارس وكانت تصدر كتب فارس عن رأيهِ ولا يَنفذ أمر الا بتوقيعهِ فأفاد اموراً كثيرةً وكان مفيداً مبيداً لا يمسك درهماً سخاءً وكرماً . والّف برسم ابني ميكال كتاب «جمهرة لسان العرب» وهو كتاب نفيس في اللغة وله مؤلّفات أُخَر غيرهُ. ولمّا عُزل ابنا ميكال عن عمالة فارس وانتقلا الى خراسان قدم ابن دُريد بغداد فأنزلهُ الوزير عليّ بن العزات في جوارهِ وأفضل عليهِ وعلم الامام المقتدر خبرهُ ومكانهُ من العلم فأجرى عليهِ خمسين ديناراً في كل شهر كفتهُ مؤونة السعي فانقطع الى الاهتمام بالأدب . وكان مولعاً بآلات الطرب مدمناً [2] للخمرة ولما كان لا يعرف للمنع معنى بذّر أموالهُ بمجالس اللهو والهبات وذُكر أنّ سائلاً سألهُ شيئاً فلم يكن عندهُ غير دنّ [3] نبيذ فوهبهُ لهُ فأنكر عليهِ أحد غلمانهِ وقال « تتصدَّق بالنبيذ » فقال « لم يكن عندي شيءٌ سواهُ واستشهد بالآية « لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون » ثم أُهدي لهُ بعد ذلك عشرة دنان فقال لغلامهِ « أخرجنا دنًّا فجاءَنا عشرة » وأُصيب بالفالج في آخر عمرهِ وعاش بهذهِ العلة سنتين .

---

[1] الظبية الغزالة والمهى بقر الوحش جمع مهاة والخزامى نبت زهره طيب الرائحة والنقا القطعة من الرمل المحدودبة [2] ملازماً لشربها [3] وعاء كالبرميل للخمر

أَلمُبَرَّد (٨٩٩م ٢٨٦هـ)

هو أبو العبّاس محمّد بن يزيد الملقب بالمبرّد. وُلد بالبصرة وأخذ النحو عن مشاهير علمائها كأبي عثمان المازنيّ وغيره ولهُ في النحو واللغة القدح المعلّى [١] وكان من أئمة العلم المشار اليهم بالفضل واشتهر بالأدب فأقبل الطلّاب عليه يقتبسون منهُ. وكان حسن المحاضرة مليح الاخبار كثير النوادر خفيف الروح. وجرت بينهُ وبين ثعلب النحويّ مناظرات كثيرة كان يعلو فيها بذرابة [٢] لسانهِ وحلو اشارتهِ على خصمهِ ويحجُّهُ [٣]. وذكرهُ يوماً ثعلب بكلام قبيح فبلغ ذلك المبرّد فأنشد:

ربَّ من يعنيهِ حالي وهو لا يجري ببالي
قلبهُ ملآنُ مني وفؤادي منهُ خالي

ونقلت الابيات الى ثعلب فلم يعد يتعرّض لذكرهِ. وثعلب هذا من مشاهير أدباء زمانهِ ولهُ مع المبرّد مقام رفيع عند ارباب العلم. ومن قول معاصريهما فيهما «قد خُتِمَ بالمبرّد وثعلب تاريخ الأُدباء» وللمبرّد من التصانيف «كتاب الكامل» في اللغة والأدب و «كتاب الروضة» وغيرهما

وذكر أبو العبّاس سبب تلقيبهِ بالمبرّد قال «كان صاحب الشرطة [٤] يطلبني

---

١ سابع سهام الميسر وهو اكسبها ٢ حدّة ٣ يغلبه بالحجّة ٤ طائفة من خيار أعيان الولاة

للمنادمة والمذاكرة فكرهت الذهاب اليهِ ودخلت الى ابي حاتم السجستانيّ فجاء رسول الوالي يطلبني فقال لي ابو حاتم « ادخل في هذا » يعني غلاف مزمّلةٍ[1] فارغاً فدخلت فيه وغطّى رأسهُ فلم يعثر[2] عليّ الرسول وخرج فجعل ابو حاتم يصفّق وينادي على المزمّلة « ألمبرَّد ألمبرَّد » وتسامع ذلك الناس وهجوا بهِ .



علماءُ الكوفة

مُعَاذٌ ٱلْهَرَّاء (٨٠٥م ١٩٠هـ)

هو ابو مُسلِم مُعاذ بن مُسلِم الملقّب بالهَرَّاء لأنه كان يبيع الثياب الهَرَوِيَّة نسبةً الى هراة بلدة بخراسان. هو أقدم نحاة الكوفة وأُستاذ الكسائيّ وأوَّل من وضع الصرف اي انهُ أفرد القواعد المتعلّقة بأبنية الكلمات عند افرادها وهي الصرف عن التي تبحث في التغيير الطارئ على اواخر الكلم عند تركيبها وهي النحو. والصرف مقدَّم طبعاً على النحو كما ان

١ جرّة او خابية لتبريد الماء ٢ عثر عليه وجده

المفرد مقدَّمٌ على المركَّب. غير أنهم لا يزالون يريدون بالنحو عند الاطلاق الصرف والنحو معاً اي مجموع قواعد اللغة العربيّة . ولم يظهر لمعاذ مصنَّف وأوَّل من ظهر لهُ كتابٌ في النحو من الكوفيين هو ابو جعفر الرؤاسي ابن أخي مُعاذ وسمَّى كتابهُ « القيصل [1] »

وعُمِّر مُعاذ طويلاً حتى ضُرب بهِ المثل في الكِبَر والى ذلك أشار سهل الشاعر بقولهِ :

ان مُعاذ بنَ مسلم رجلٌ ليس لميقات عمـــرهِ أمَدُ
قد شابَ راس الزمان واكتهل م ألدهر واثوابُ عمرهِ جُدُدُ [2]
قل لمعاذٍ اذا مررتَ بـــهِ قد ضجَّ من طول عمرك الأبَدُ
يـا بكر حوَّاءَ كم تعيش وكم تسحب ذيل الحيـاةِ يا لُبَدُ [3]
قد أصبحت دار آدمٍ خَرَبـاً وأنت فيهـا كأنك الوتـدُ

الكِسَائِيُّ (٨٠٤ م ١٨٩ هـ)

هو ابو الحسن علي بن حمزة الملقَّب بالكِسائي. أخذ النحو عن محمد الرؤاسي وقدم الى الكوفة ودرس على الخليل بن احمد ثم طاف أحيـاء البادية وسمع عن العرب حتى صار من أئمَّة عصره وأركان علوم اللغة وذاع صيتهُ في البلدان وانتقل الى بغداد واتخذهُ المهديّ معلماً لابنهِ

[1] السيف القاطع [2] اكتهل صار كهلاً اي كان عمره يتراوح بين الثلاثين والخمسين وجدد جمع جديد [3] لبد نسر زعم العرب انه كان للقمان بن عاد غاش مائتي سنة فضرب به المثل في طول البقاء

الرشيد ثم أقامهُ الرشيد مؤدّباً لابنهِ الامين وكان يقرّبهُ ويعظمهُ كثيراً لأدبهِ وعلمهِ وكان للكِسائي شهرة في قراءة القرآن وهو أحد القرّاء السبعة المعوّل عليهم. وصنّف كُتُباً بأمر الرشيد وصل الينا منها «رسالة في لحن العامّة» وجرت بينهُ وبين نحويّي عصره مناظرات مرّ ذكر احداها في ترجمة سيبويهِ ولم يكن لهُ في الشعر يدٌ حتى قيل «ليس في علماء العربيّة أجهل من الكِسائي بالشعر»

وتعلم الكِسائي النحو على كِبَر وكان سبب تعلّمهِ انهُ جاء يوماً وقد مشى حتى أعيا فجلس الى قومٍ فيهم فَضْلٌ وكان يجالسهم كثيراً فقال «قد عييتُ» فقالوا لهُ «تجالسنا وانت تلْحن» فقال «كيف لحنتُ» فقالوا لهُ «ان كنت أردت من التعبِ فقل أعييتُ وان كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحيُّر في الأمر فقل عييتُ مخفّفة» فأنف[1] من هذه الكلمة وقام من فورهِ[2] وشمّر عن ساعدِ الجِدّ في طلب الادب وصار الى ما صار من العلم والشهرةِ بهمتهِ وثباتهِ

وخرج الرشيد الى الريّ فصحبهُ الكِسائيّ ومحمّد بن الحسن الفقيه وماتا كلاهما برنبويهِ قريةٍ على مقربةٍ من الريّ في يومٍ واحد فأسف الرشيد عليهما وكان يقول: «دفنت الفقه والعربيّة في الريّ»

---

١ ترفع وتنزّه عنه ٢ حالا

أَلْفَرَّاء (٨٢٢م ٢٠٧هـ)

هو أبو زكريّاء يحيى بن زياد المعروف بالفرَّاء . كان فارسيّ الاصل من جبال الديلم ووُلد بالكوفة وأخذ النحو عن الكسائيّ وتضلّع من علوم اللغة وفنون الأدب وعُدّ من أئمّة عصرهِ. وورد بغداد وبقي يتردَّدُ مدّةً على باب المأمون ولا يصل اليهِ حتى التقى بهِ يوماً أحد أخصّاء الخليفة فتوسَّم فيهِ الفضل ففاتشهُ عن اللغة فوجدهُ بحراً وعن النحو فشاهدهُ نسيج وحدهِ وعن الفقهِ فوجدهُ فقيهاً عارفاً باختلاف القوم وبالنجوم ماهراً وبالطبّ خبيراً وبأيّام العرب وأشعارها حاذقاً فقال لهُ: « من تكون وما أظنك الا الفرَّاء » فقال « أنا هو » ثمَّ دخل فذكرهُ عند المأمون فأمر بإحضارهِ وحظي عندهُ جدًّا

وأمرهُ المأمون ان يضع مؤلَّفاً يجمع فيهِ أصول النحو وما سمع من العربيّة وأوعز ان يفرد بحجرة من حجر الدار وأمر الخدم بالقيام بحوائجهِ وصيَّر اليهِ الورَّاقين وألزمهُ الأُمناء فكان يملي والورَّاقون يكتبون حتى صنَّف « كتاب الحدود » في سنتين ولهُ تصانيف أُخر في علوم الأدب وقد أملى كتبهُ كلّها حفظاً لم يأخذ بيدهِ نسخةً الاَّ في كتابين. وقال ابن الأنباريّ « لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية الاَّ الكسائيّ والفرّاء لكان لهم الافتخار على جميع الناس اذ انتهت العلوم إليهما »

ولمّا كان الفرَّاء فريد عصرهِ في العلم والأدب جعلهُ المأمون مؤدّباً لابنيهِ. ومن لطيف ما يُرى عنهُ معهما انهُ بعد إلقاء الدرس عليهما يوماً نهض ليخرج الى حوائجهِ فابتدر الأميران الى نعايهِ يقدمانها لهُ فتنازعا ايّهما

يقدمهما ثم اصطلحا أخيراً على ان يقدّم كلّ واحدٍ منهما فردة فقدّماها. وكان للمأمون على كل شيءٍ صاحب خبر فرفع ذلك الخبر اليه فوجّه الى الفرّاء فاستدعاه فلما دخل عليه قال له «من أعز الناس» فقال «ما أعرف أعزّ من امير المؤمنين» قال «بلى. من اذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليّا عهد المسلمين حتى رضي كلّ واحدٍ منهما ان يقدّم له فرداً» فقال «يا امير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ولكن خشيت ان أدفعهما عن مكرمةٍ سبقا اليها او أكسر نفوسهما عن شريفة حرصاً عليها» فقال له المأمون «لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً وعتباً وألزمتك ذنباً وما وضع ما فعلاه من شرفهما بل رفع من قدرهما وبيّن عن جوهرهما. ليس يكبر الرجل وان كان كبيراً عن ثلاثٍ عن تواضعه لسلطانه ووالديه ومعلّمه» وهذه لعمر الحقّ غاية الغايات في احترام العلم ورفع شأنه وإجلال اربابه

ثَعْلَب (٩٠٣م ٢٩١هـ)

هو أبو العبّاس أحمد بن يحي المعروف بثَعْلَب. أخذ النحو عن ابن الاعرابي وغيره من علماء عصره وهو إمام الكوفيّين في النحو واللغة وكان ثقةً حجّةً صالحاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالعربيّة ورواية الشعر القديم مقدّماً عند الشيوخ مذ هو حدَث فقد كان استنفد مسائل «كتاب الحدود» للفرّاء في الخامسة والعشرين من عمره ولم يزل علمه في ازدياد. وكان ابن الأعرابيّ استاذه اذا شكّ في شيءٍ قال له «ما تقول يا ابا العبّاس في هذه» ثقةً منه بغزارة حفظه. وكان قليل

الدعوى[1] لايرى الاقرار بجهله مسألةً عُرضت عليهِ عاراً ولا غضاضةً ويحكى انّ سائلاً سألهُ عن شيءٍ فقال: « لا أدري » فقال لهُ « أتقول لا أدري واليك تُضرب أكباد الابل[2] واليك الرحلة من كل بلد » فقال لهُ « لو كان لك بعدد ما لا أدري بعر لأستغنيت » ومن قول المبرَّد فيهِ « أعلم الكوفيّين ثعْلَب » وهذه خير شهادة في علوّ كعبهِ لصدورها عن خصمٍ جرت لهُ معهُ مناظرات ومجاذبات. ولمَّا تُوُفّي المبرَّد قِرن[3] ثعلب نظم ابن العلاَّف فيهما شعراً يقول فيهِ:

ذهب المبرَّد وانفضت أيَّامهُ ... وليذهبنْ إثر المبرَّد ثَعْلَبُ
بيتٌ من الآداب أضحى نصفهُ ... خرباً وباقي النصف منهُ سيخربُ
فابكوا لما سلب الزمان ووطِّنُوا ... للدهر أنفسكم على ما يسلبُ
وتزوَّدوا من ثعلبٍ فبكاس ما ... شرب المبرَّد عن قليلٍ يشربُ
وأرى لكم ان تكتبوا أنفاسهُ ... ان كانت الانفاس مما يكتَبُ

وقدم ثعلب بغداد وأخذ عنهُ جمهورٌ من المتأدّبين منهم عبد الله بن المعتزّ. ولهُ تصانيف عديدة أشهرها « كتاب الفصيح » وهو صغير الحجم كثير الفائدة. ولحقهُ في آخر حياتهِ صَمَمٌ فما كان يسمع الا بعد تعبٍ وحدّث أنهُ خرج يوماً من الجامع وفي يده كتاب ينظر فيهِ في الطريق فصدمتهُ فرسٌ فألقتهُ في هُوَّةٍ فأخرج منها وهو كالمختلط يتأوَّهُ من رأسهِ ومات ثاني يومٍ من هذا الطارئ

---

[1] الاسم من الادعاء وادّعى الشيء زعم انه لهُ حقًّا أو باطلاً [2] الابل الجمال وضرب اكبادها كناية عن ركوب الناس لها وسوقها بعنفٍ من بلادٍ بعيدة [3] كفوٌ ونظير

علماء بغداد

بنى المنصور بغداد وجعلها مقرَّ الخلافة لأسبابٍ أوجبتها الحكمة السياسيّة فجعلها بين بلادين يقطنهما قومٌ يخاف على نفسه ودولته منهم. فكان على يمينه العرب ومَن اليهم وهم منشئو المملكة الاسلاميّة وموثّقو دعائمها [1] وقد اعتزّوا في ايّام بني أميّة فحطّ المنصور من شأنهم ونكّس شموخهم [2] بتقديمه الفرس اصحاب الدعوة العبّاسيّة عليهم: فلم يأمن على نفسه منهم واضطرَّ الى التحفُّظ من بطشهم لعلمه بعصبيّتهم [3] وجرأتهم. غير أن جوار الفرس على شماله لم يكن ليطمئنّ قلبهُ اليه لاستفحال أمر الفرس على إثر فوزهم على العرب ونقلهم الخلافة من أيدي الأمويّين ممثّلي السيادة العربيّة الى بني العبّاس. فعظمت دالّتهم [4] وقويت شوكتهم الى حدٍّ أوجس [5] منهُ المنصور خيفةً على نفسه فبطش بأبي مسلم الخُراساني عظيمهم وزعيمهم دفعاً لشرّ منافسته وتأديباً للذين على مذهبه فأكبر الناس الامر وتوقّعوا شرًّا من مجازاة العبّاسيّين للقائم بدعوتهم والآخذ بناصرهم بالغدر والفتك وحنق الفرس خاصّة عليهم ونغلت [6] قلوبهم ولا سيّما وأنّهم شيعيّون عن بكرة أبيهم ولم يشدّوا أزر [7] بني العبّاس الاّ لتوهّمهم انهم يسلّمون الخلافة للعلَويّين فخابت آمالهم جميعاً

---

١ جمع دعامة وهي عماد البيت اي ما يقوم عليه ٢ كبرهم واعتزازهم ٣ العصبية ما يجعل قوماً على التناصر لرابطة بينهم كالدين والوطن الخ ٤ جُرأتهم ٥ أحسّ ٦ فسدت وضغنت ٧ الأزر الظهر وشدّ أزرهم أعانهم على نيل مبتغاهم

الاّ أن المنصور كان أدهى من ان يمكّنهم من الانتقام لأنفسهم وشيعتهم فقطع ألسنتهم وقيّد أيديهم باستخدامهم في الخُطَط العالية والمناصب السامية فأخلدوا الى السكينة حيناً من الدهر وهم يخافون الخلفاء ويحذرون بطشهم والخلفاء يخافونهم لعلمهم بحزازات صدورهم وميلهم الى العَلَويّين. وخلف المنصور عدّة خلفاء لا يقلّون عنهُ أثَرة[١] ودهاء وحُنكة اتّبعوا خطّتهُ السياسيّة فأدّى الأمر الى هدنةٍ[٢] ساعدت القوم على الانصراف الى العلوم وانتقلوا من المزاحمة المادّيّة الى مزاحمة معنويّة كان للآداب منها أوفر نصيب.

وأصبحت بغداد عند بلوغ الدَّوْلة العباسيّة ذروة[٣] المجد أمّ المدائن وكعبة[٤] الأدب ومحط رحال[٥] العلماء فكانوا يقبلون اليها من كل فجٍّ وصوب ويعيشون في ظلّ الخلفاء يقرّبونهم ويُلينون لهم الجانب ويُجرون عليهم الارزاق الوافرة ويهبون لهم الصلات العديدة. وقد رأيت ممّا مرّ أن عدّةً من علماء الكوفة والبصرة كانوا يقدمون بغداد ويستوطنها جماعة كثيرة منهم لتوفّر أسباب المعاش لهم فيها وحظوة أصحاب العلم عند الخاصّة والعامّة. وما قلناه عن إقبال النحاة الى مدينة السلام[٦] يطلق على سائر العلماء من فقهاء وأطبّاء ومنجّمين وغيرهم ولم يزل ظلّ بغداد في اتّساع الى غاية النصف الاول من القرن الثالث للهجرة فراجت فيها سوق العلوم أيّما رواج وطبّق صيت علمائها الخافقين[٧] وأمّهم[٨] مريدو العلوم من كل الآفاق يستنيرون بمشكاتهم ويقتبسون منها

---

١ اختصاص المرء نفسه بأحسن الشيء دون غيره ٢ المصالحة والدعة والسكون ٣ اعلى ٤ اي ان بغداد اشتهرت باقبال الادباء اشتهار الكعبة باقبال الحجاج ٥ جمع رَحْل وهو ما يجعل على ظهر البعير كالسرج اي مقصدهم ٦ لقب بغداد ٧ الشرق والغرب ٨ قصدهم

ثم أخذ ظلّ بغداد يتقلّص شيئاً فشيئاً مذ ضعف دست الخلافة وغُلب الخلفاء على أمرهم وصار الحَلّ والعَقد في أيدي الجند والحاشية من أتراك ومماليك وخدم. ونشأت الدول المتعدّدة في حضن المملكة العبّاسية فاستبدّ اصحابها بالخلفاء وجعلوهم آلة في أيديهم ينفّذون بهم غاياتهم فكثر الخلع والتنصيب واستفحل الهرَج والمرَج[1] في كرسيّ الخلافة واختلّ الأمن العامّ وتلك حالٌ منافيةٌ لطبيعة العلم كما لا يخفى منفّرةٌ للمجتهدين فيه. فأخذ العلماء يغادرون بغداد رُويداً من جهةٍ ومن الجهة الأخرى قلّت رغبة علماء الأقاليم في الرحلة اليها على حسب اضطراب أحوالها وانصراف الهمم عن طلب العلوم الى الثورات والمشاغب[2]

غير أنه قُيّض للعلم والعلماء في منتصَف القرن الخامس ابّان سيادة الدولة السلجوقيّة أنْ تربّع في دست الوزارة أبو عليّ الحسن بن اسحاق الملقّب بنظام الملك وكان رجلاً عالي الهمّة شريف النفس كريم العنصر محبّاً للعلم مقدّراً أربابهُ والمنقطعين اليهِ حقّ قدرهم فرأى بثاقب بصيرتهِ وبعيد نظرهِ سوء المصير منْ تضعضع أمر العلماء وتفريق شملهم في أطراف المملكة الشاسعة الأرجاء بعد ان كانوا في بغداد مجتمعين كأنجم الثريا يرفعون للعلم والدولة مناراً عليّاً تتألّق انوارهُ وتُشع أضواؤهُ الى اقاصي المسكونة. فأوعز ببناء دارٍ واسعةِ الرحبات فسيحة الجنَبات تكون معهداً للعلوم والآداب وندوةً[3] ينتظم فيها عقد العلماء في كل فنّ وصناعة يتعاونون على الدرس والتدريس فبُنيت حينئذٍ «المدرسة النظاميّة» التي جابت[4] شهرتها الآفاق وأصبحت مُنبثق[5] أنوار العلوم في المملكة العربيّة

---

١ الهرج القتال والفتنة والمرج الاضطراب والفساد ٢ الفتن والقلاقل ٣ مجلس
٤ قطعت ٥ من انبثق الفجر اذا اشرق نورهُ

جمعاء وبلغ ما أُنفق في بنائها وشراء الأوقاف التي حُبست عليها نحو ستين الف دينار . ورغّب نظام الملك أرباب العلم في الاقامة بها لتلقين العلوم فلبّوا دعوته وتصدَّر للتدريس فيها نخبةٌ من عِليّة العلماء وتخرّج عليهم جمهور عظيم ممن نالوا الشهرة الواسعة والصيت الذائع. وقلّت من ثَمَّ مهاجرةُ حَمَلة العلم واتجهت الى المدرسة النظاميّة أنظار العلماء المتفرّقين في البلاد فكانوا يقدمون الى بغداد ويستوطنونها على قدر ما تفسح لهم حوادث الايّام. وسنذكر ههنا أوسعهم علماً وأشهرهم ذكراً في محافل الأدباء .

إبنُ السِّكِيت (٨٥٨م ٢٤٤هـ)

هو ابو يوسف يعقوب ابن اسحاق المعروف بابن السكّيت. ولُقّب أبوهُ بالسكّيت لكثرة سكوته وطول صمته . وُلد بدَوْرَق بليدة من اعمال خوزستان وتخرّج على أبيه وكان أبوهُ رجلاً صالحاً حسنَ المعرفة بالعربيّة يؤدّب مع ابنه صبيان العامّة ببغداد. وصحب ابن السكّيت جماعة من أئمّة عصره واخذ عنهم فأَصبح من مشاهير علماء زمانه وأَوسعهم روايةً. وقال ابو العبّاس ثعلب « أجمع أصحابنا أنهُ لم يكن بعد ابن الاعرابي أعلم باللغة من ابن السكّيت » ويُروى أنهُ كان يحضر وهو حدَث مجلس أبي الحسن عليّ اللحيانيّ يوماً فسمعه يُملي نوادره قائلاً « تقول العرب: مُثْقَلٌ استعان بذقنه ... » فقام ابن السكّيت وقال « يا أبا الحسن انما هو: مثقَلٌ استعان بدفَّيْه — يريدون الجمل اذا نهض بحمله استعان بجنبَيْه » فقطع اللحيانيّ الاملاء. فلما كان المجلس الثاني أملى فقال « تقول العرب: هو جاري مُكاشري... » فقال لهُ ابن السكّيت

« أعزّك الله وما معنى مكاشري. انّما هو — مكاسري — كسر بيتي الى كسر بيته » فما أملى اللحياني بعدها شيئاً. هذا كان مقدار علم ابن السكّيت على صغر سنّه حتى ذاع صيته في الناس وتُحدّث به في المجالس فرغبت في مواصلته الخاصّة ولم يزل شأنه في ارتفاع الى ان قُدّم للخليفة المتوكّل فأُعجب به واتّخذه مؤدّباً لابنه المعتزّ

ويُحكى انه لمّا دخل على تلميذه لأوّل مرّة وأراد ان يشرع في التدريس قال له « بأيّ شيءٍ يحبّ الامير ان نبدأ » يُريد من العلوم فقال المعتزّ « بالانصراف » فقال يعقوب « فأقوم ؟ » قال المعتزّ « فانا أخفّ نهوضاً منك » فقام واستعجل فعثر بسراويله فسقط والتفت الى يعقوب خجلاً وقد احمرّ وجهه فانشد يعقوب :

يصاب الفتى من عثرةٍ[1] بلسانه ... وليس يصاب المرءُ من عثرة الرجلِ
فعثرتُه في القول تُذهب راسه ... وعثرته بالرجل تبرا على مهلِ

وبلغ البيتان المتوكّل فأمر له بخمسين الف درهم. ومن شعر ابن السكّيت قوله :

اذا اشتملت على اليأس القلوبُ ... وضاق لما به الصدر الرحيبُ
وأوطنت المكاره واستقرّت ... وأرست في أماكنها الخطوبُ[2]
ولم تَرَ لانكشاف الضرّ وجهاً ... ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قنوطٍ منك غوثٌ ... يمنّ به اللطيفُ المستجيبُ[3]
وكلّ الحادثات اذا تناهت ... فموصول بها فرجٌ قريبُ

---

١ سقطة ٢ أوطنت أقامت والمكاره جمع مَكرَهة وهي ما يبغضه الانسان ويشق عليه وارست ثبتت والخطوب جمع خطب وهو الامر العظيم المكروه ٣ القنوط اليأس وغوث عون ومساعدة ويمنّ يُنعم واللطيف المستجيب الله عزّ وجل

ولم تطل مدّة حظوة ابن السكّيت عند المتوكل فإنهُ كان شيعيًّا متعصّباً مجاهراً بمذهبهِ والمتوكل شديد التحامل على الشيعة يتقرّب اليهِ المتملّقون بشَتْم عليّ وتمثيلهِ في معرض الهُزُؤ والسُخريّة. فأدّى الأمر الى تغيّر قلب الخليفة عليهِ وما عتّم ان أمر بقتلهِ. وكان سبب ذلك فيما ذُكر أنهُ بينما كان يعقوب يوماً في منادمة الخليفة جاء المعتزّ والمؤيّد فقال المتوكّل « يا يعقوب أيّما أحبّ اليك ابناي هذان ام الحسن والحسين » فقال « والله ان قنبراً خادم عليّ خيرٌ منك ومن ابنيك » فأمر الاتراك فسلّوا[1] لسانهُ وداسوا بطنهُ فَحُمِلَ الى دارهِ ومات ضحيّة بدَوات[2] ملك مستبدّ غريب الاطوار ولم يدر في خلدهِ[3] أنهُ سيكون هو نفسهُ مصداق ما قال لتلميذهِ منبّهاً من عواقب عثرة اللسان. ولمّا بلغ عبدَ الله بن العزيز مقتل ابن السكّيت وكان قد نهاهُ عن اتّصالهِ بالمتوكّل أنشد:

نهيتك يا يعقوبُ عن قرب شادنٍ اذا ما سطا أربى على كل ضيغمِ[4]
فذق واحسُ ما استحسيتهُ لا أقول اذ عثرتَ لعاً بل لليدين وللفمِ[5]

وفي هذا القول من مُنكَر الشماتة ما فيهِ... وبلغ من غرابة المتوكّل وعَبَثه[6] بنفوس العباد أنّهُ سيّر لولدهِ يوسف عشرة آلاف درهم وقال « هذه دية والدك رحمهُ الله تعالى »

ولابن السكّيت عدّة مصنّفاتٍ في أغراض متنوّعة أشهرها « كتاب أصلاح المنطق » و « كتاب الالفاظ » هذّبهُ التبريزيّ وسمّاهُ « تهذيب الالفاظ » وهما مؤلّفان نفيسان جليلا القدر عند الأدباء لما فيهما من الفوائد اللغويّة

---

١ انتزعوا ٢ اهواء متقلبة ٣ فكرهُ ٤ الشادن ولد الظبية اراد به الملك وسطا بطش واربى زاد والضيغم الأسد ٥ حسا المرق شربهُ شيئاً بعد شيء وعثر سقط ولعاً كلمة تقال للعاثر فاذا أريد الدعاء لهُ قيل لعاً لك أو عليه قيل لالعاً لك ٦ لعبهُ واستخفافه

أَلْقَالِيّ (٩٦٦م ٣٥٦هـ)

هو ابو عليّ اسماعيل بن القاسم القاليّ. وُلد بمنازجرد من ديار بكر وانما قيل لهُ القاليّ لأنهُ سافر الى بغداد مع أهل قاليقلا بلدة بأرمينية. أخذ العلوم عن أَئمّة الأدب بمدينة السلام وأصبح أَحفظ أهل زمانهِ للّغةِ والشعر ونحو البصريّين وأقام ببغداد ثلاثاً وعشرين سنة قضاها ما بين درس وتدريس ثم خرج من بغداد وطاف البلاد وجاء بلاد المغرب وانتقل الى الأندلس وألقى عصا التِرحال في قُرْطُبَة فأَكرم الناصر وفادتهُ وتحفّى[1] بهِ كثيراً وقصدهُ جمهورٌ من المتأدّبين يقرأون عليهِ ويقتبسون من علمهِ. ووضع أكثر مصنفاتهِ بقرطبة وأشهرها «كتاب الأمالي» وهو مجموع ما كان يُمليهِ على تلامذتهِ ضمّنهُ نُبَذاً متنوّعةً في أغراضٍ شتّى كالاحاديث والامثال ولغات العرب وأشعارها وأخبار الملوك والخلفاء وغير ذلك من المُلَح والنوادر. ويُحكى انهُ كان في يدهِ نسخةٌ من الجمهرة بخطّ مؤلّفها فأُعطي بها ثلاثمائة مثقال فضنّ[2] بها ان يبيعها ثم اشتدَّت عليه الحاجة يوماً فاضطُرَّ الى بيعها باربعين مثقالاً وكتب عليها هذه الابيات:

أَنستُ بها عشرين عاماً وبعتُها ... وقد طال وجداني بها وحنيني[3]
وما كان ظني أنني سأبيعها ... ولو خلدتني[4] في السجون ديوني

---

[1] بالغ في إكرامهِ [2] شحّ وبخل [3] الوجدان الفرح والحنين الاشتياق [4] خلده ادامه

ولكن لعجزٍ وافتقارٍ وصبيةٍ   صغارٍ عليهم تستهلّ شؤوني [١]
فقلت ولم أملك سوابق عَبرةٍ   مقالةَ مكويّ الفؤاد حزينِ
وقد تُخرج الحاجاتُ يا أمَّ مالك   كرائمَ من ربٍّ بهنَّ ضنينِ [٢]

فردَّها الذي اشتراها وأرسل معها أربعين ديناراً .

الأَزْهَرِيّ (٩٨٠م ٣٧٠هـ)

هو ابو منصور محمد بن أحمد المعروف بالازهريّ نسبةً الى جدّه الازهر. وُلد بهراة ونشأ بها ولمّا بلغ التاسعة والعشرين من عمره قصد مكّة للحجّ وبينما كان الحُجّاج في بعض الطريق انقضّ عليهم شرذمةٌ من الخوارج المعروفين بالقرامطة فقتلوا منهم جماعة واسترقُّوا [٣] الآخرين واستولَوا على جميع اموالهم وأُسر الأزهريّ فيمن أُسر من الحاجّ [٤] ووقع في سهم عربٍ نشأُوا في البادية يتتبّعونَ مساقط الغيث ايّام النجع [٥] ويرجعون الى اعداد المياه في محاضرهم زمان القيظ ويرعون النَّعَم [٦] ويعيشون بألبانها ويتكلّمون بطباعهم البدَويّة ولا يكاد يجري على ألسنتهم لحن فاستفاد من محاوراتهم ومخاطبة بعضهم بعضاً الفاظاً جمّةً ونوادر كثيرة . وبقي في أسرهم دهراً طويلاً تضلّع فيه أراد او أ. ـ من لغات العرب الفصحاء واطّلع على كنه اسرارها للقيام بما تقتضيه مهنتهُ عند من ابتلوهُ بالاسر فكانت محنتهُ سبباً لشهرتهِ — وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم

١ تستهل تنهل أي تأتي بالمطر والشؤون جمع شأن وهو مجرى الدمع من العين
٢ ضنين بخيل ٣ استعبدوا ٤ اسم جمع بمعنى حجاج ٥ جمع نُجعة وهي طلب الكلاء في مواضعه ٦ الابل وقد يراد بها الغنم والبقر

ومَنّ الله تعالى عليهِ بفكاك أسرهِ والعود الى وطنهِ فشرع في تدوين ما تلقّاهُ عن عرب البادية ووضع كتابهُ الشهير « تهذيب اللغة » وهو من المؤلّفات النفيسة الموثوق بها لمكان صاحبهِ من صدق الرواية. وقد رتّب الالفاظ على حروف المعجم باعتبار مخارجها كما فعل الخليل في كتاب العين. وكان للازهري مداخلةٌ مع أكثر أدباء بغداد كابن دريد ونفطويهِ وغيرهما.

ألسِّيرَافِيّ (٩٧٨م ٣٦٨هـ)

هو ابو سعيدٍ الحسن بن عبد الله السيرافيّ المعروف بالقاضي لتولّيهِ القضاء ببغداد نيابةً عن أبي أحمد بن معروف. وُلد بسيراف من بلاد فارس ونشأ بها وخرج من قبل العشرين ومضى الى عمّان وتفقّه بها ثمّ قصد عسكر مُكرَم من نواحي خوزستان ودرس الكلام على ابي محمّد بن عمر المتكلّم وكان شيخهُ يقدّمه ويفضّلهُ على جميع أصحابهِ ودخل بغداد وقضى فيها للجانب الشرقيّ ثم للجانبين. وكان زاهداً يعيش من تعب يديهِ فكان ينسخ الكتب ويبيعها ويتقوّت بثمنها واشتهر بالنزاهة وحسن الأخلاق ولين الجانب وانتحل في الفقة مذهب أهل العراق وهو المذهب الحنفيّ الا انهُ كان يرى رأي المعتزلة ولا يُظهر شيئاً من ذلك واشتغل عليهِ خلقٌ كثير بعدّة فنون كعلوم القرآن والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر والعروض. وكان من أعلم الناس بنحو البصريين وشرح كتاب سيبويهِ فأجاد فيه ولهُ مصنّفات في أكثر العلوم التي كان يدرّسها لمُريديهِ. وكان بينهُ وبين ابي

الفرج الاصبهانيّ ما جرت العادة بمثلهِ بين الفضلاء من التنافس فعمل فيهِ ابو الفرج :

لستَ صدراً ولا قرأتَ على صد رٍ ولا علمُك البكيُّ[١] بشافِ
لَعَنَ الله كلَّ نحوٍ وشعرٍ وعروضٍ يجيء من سيرافِ

إبنُ فارِس (٩٨٧م ٣٧٧هـ)

هو أبو الحسين أحمد بن فارس الرازيّ. كان من أكابر أئمّة اللغة وأفراد العلم في زمانهِ. أقام مدّة بهمذان واشتغل عليهِ ناسٌ كثيرون منهم بديع الزمان الهمذانيّ والصاحب بن عبّاد. ومن قول الصاحب فيهِ « رُزق ابن فارس التصنيف وأَمن التحريف » واستقدمهُ فخر الدولة الى الريّ وألزمهُ ابنهُ أبا طالب يقرئهُ ويؤدّبهُ. وكان ابن فارس فقيهاً شافعيًّا حاذقاً فلما قدم الى الريّ انتحل مذهب مالك فقيل لهُ في ذلك فقال « دخلتني الحميّة لهذا الامام المقبول على جميع الالسنة ان يخلو عن مذهبه مثل هذا البلد وهو أجمع البلاد للمقالات والاختلافات في المذاهب على تضادّها وكثرتها فعمّرت مشهد الانتساب اليهِ حتى يكمل لهذا البلد فخرهُ » فكأن فوضى الآراء كانت حينئذٍ قائمة في تلك البلاد على قدم وساق فضنّ ابن فارس ان ينقص بابلَ زمانهِ شيء من الكمال الفلسفي فأدخل مذهباً لم يكن لهُ من اتباع قبلهُ هنالك زيادةً لأسباب الجدال والهداية... كما هي الحال في أمّهات المدن في عصرنا

١ صدر القوم رئيسهم ومقدّمهم والبكي اصلها البكيء اي القليل

وكان أبو الحسين كريماً جواداً فربمّا وهب السائل ثيابهُ وفُرُش بيته غير مبالٍ بعتاب اصحابهِ وعذلهم[١] ايّاهُ على هذا الاسراف[٢]. وتفرَّد بين مواطنيهِ بالتعصّب للعرب على الشعوبيّة والنضح[٣] عنهم والردّ على معدّدي مثالبهم[٤] وهو أمرٌ غريب من رجل فارسي الأصل كأبي الحسين الرازيّ ممّا يدلّ على نفس كبيرة وهمّةٍ عالية لا تتسرّب[٥] اليها الاحقاد الدنيئة. ولابن فارس شعر حسن منهُ قولهُ:

وقالوا كيف أنت فقلت خيرٌ تقضّى حاجةٌ وتفوت حاجُ[٦]
اذا ازدحمت هموم الصدر قلنا عسى يوماً يكون لها انفراجُ
نـديمي هرّتي وسرورُ قلبي دفاترُ لي ومعشوقي السراجُ

ولهُ ايضاً في خطاب المتواني:

اذا كان يُؤذيك حرُّ المصيفِ وكَرْبُ الخريف وبردُ الشتا
ويلهيك حسنُ زمان الربيع فأخذُك للعلم قـل لي متى

ومن قولهِ في صديق:

عتبت عليهِ حين ساءَ صنيعهُ وآليت[٧] لا أمسيتُ طوعَ يَدَيهِ
فلمّا خبرت النـاس خبر مجرّبٍ ولم أرَ خيراً منهُ عدتُ اليـهِ

وهو كما ترى رقيق المعنى دقيق المغزى. ولهُ مؤلّفات عديدة في الفنون التي أتقنها أشهرها «كتاب المُجْمَل» في اللغة ذكر فيهِ الصحيح الفصيح من كلام العرب ونبذ الوحشيّ المستنكر ولم يُثبت الا مالا ريبةَ في صحة روايتهِ. ورتّبهُ على حروف المعجم باعتبار أول حرف من أصل الكلمة.

---

١ لومهم ٢ التبذير ٣ نضح عنه دافع ٤ معايبهم ٥ تسرب الماء سال ٦ جمع حاجة
٧ أقسمت

أَلْجَوْهَرِيّ (١٠٠٣ م ٣٩٤ هـ)

هو أبو نصر اسماعيل بن حمّاد الجوهري. وُلد بفاراب من بلاد الترك وأخذ الأدب أولاً عن خاله أبي يعقوب الفارابيّ ثم قصد بغداد وتفقّه على ابي عليّ الفارسيّ وأبي سعيد السيرافي ولم يقضِ نهمتَهُ من العلم فهبّ يضرب في مناكب الارض ويجوب الاقطار لقضاء وطرهِ فرحل الى البادية وخالط الاعراب وتلقى عنهم لغاتهم ودخل الشام وداخل علماءها وقدم العراق واقتبس ممن صاحب من ارباب العلم والأدب ثم عاد الى خراسان وسكن دامغان ثم انتقل الى نيسابور ولم يزل مقيماً بها على التدريس والتأليف وتعليم الخطّ وكان من الخطّاطين المتأنّقين الى ان وافتهُ المنيّة

وللجوهري مصنّف في اللغة سمّاهُ « الصحاح » ضمّنهُ من سعة محفوظهِ ونادر علمهِ بلغة العرب وصدق روايتهِ ما جعلهُ محلّ ثقة الأدباء ومرجعاً للمحقّقين منهم. وهو سهل العبارة قريب المأخذ كثير الفائدة صحيح المادة معزَّزاً بالأمثلة الوافية المحكمة وقد رتّب المؤلّف الفاظهُ باعتبار الاصل الأخير من المادَّة باباً والاصل الاوَّل فصلاً وهو مصطلح قديم جرى عليه عدّة من مشاهير أرباب اللغة في معجماتهم. فاذا أُريد الكشف عن لفظ « درس » مثلاً أُخذ باب السين وفصل الدال وهكذا وانتهى الجوهريّ في تأليف الصحاح الى باب الضاد ولم يُفسح لهُ في الأجل لاتمامهِ فاستلم مسوّدات الأُستاذ تلميذهُ ابو اسحاق الورَّاق فبيّضها واتمّ الكتاب. الاّ أنهُ لما لم يكن من التضلّع من اللغة بطبقة معلّمهِ كثر فيما كتب التصحيف والخلط

وكان سبب موت الجوهريّ انهُ فسد عقلهُ واعترتهُ وسوسة فشد الى ظهرهِ دفتين وزعم انهُ يطيرُ فقذف نفسه من علُ فتحطّم جسمهُ ولم يطر الاروحهُ الى ربّهِ عزَّ وجلّ .

أَلثَّعَالِبيّ (١٠٣٧م ٤٢٩هـ)

هو ابو منصور عبد الملك بن محمّد الملقّب بالثعالبيّ نسبة الى خياطة جلود الثعالب وعملها قيل لهُ ذلك لأنّهُ كان فرّاء . وُلد بنيسابور وأخذ الادب عن أئمّة عصرهِ وانكبّ على العلوم العربيّة والفنون الادبيّة فأتقنها جميعاً وبرَّز في كلّ نوعٍ منها فأصبح زعيم شيوخ العلم في زمانهِ لا يعارض في إمامتهِ معارض ولا يناقض في إجماع أعيان الادب على رئاستهِ مناقض. كيف لا وهو راعي تلَعات[١] العلم وجامع اشتات النثر والنظم رأس المؤلّفين في زمانهِ وإمام المصنّفين بحكم اقرانهِ سار ذكرهُ في الآفاق سير المثل وضربت الى فنائهِ آباط الابل لهجت بذكرهِ الركبان وتحدَّث بفضلهِ القاصي والدَّان[٢] أشرقت من تآليفهِ انوار العلوم البهيّة فاستضاء بها البعيد الغريب وأينعت[٣] ثمار محاضراته الشهيّة فجناها الأليف القريب فعمّ فضلهُ العرب والعجم في غابر الدهور وامتدّ ظلّهُ الى مستقبل العصور

وهذه تآليفهُ الغرّاء يضيق عن تعدادها المقام وكلٌّ منها يشهد لهُ انهُ أوحد الزمان وأعجوبة الأيّام ولا يسعنا الاذكر القسم الأيسر الأشهر وان كانت جميعها فريدة في بابها منقطعة المثال في إيجازها وإسهابها. فمنها كتاب

١ جمع تلعة وهي ما ارتفع من الارض ٢ البعيد والقريب ٣ نضجت

« يتيمة الدهر » جمع فيه أقوال مشاهير عصره من الشعراء والكتبة وضمّنه الغُرَر الرائعة من الشعر البديع الرقيق والدرر النادرة من النثر الانيق الدقيق وهو أنفس كتبه وأكبرها وأجمعها وأشهرها وقد قيل فيها :

أبيات أشعار اليتيمة   أبكارُ أفكارٍ قديمه
ماتوا وعاشت بعدهم   فلذاك سُمّيت اليتيمه

وذيّل اليتيمة أبو الحسن علي بن الحسن الباخرزيّ في كتابه « دُمية [١] القصر وعصرة اهل العصر » وذيّل دميةَ القصر عماد الدين محمد ابن الكاتب الاصبهاني في مؤلّفه « خريدة [٢] القصر وجريدة اهل العصر » وذيّل الدمية ايضاً أبو المعالي سعد بن عليّ الورّاق الحظيري في مصنّفه « زينة الدهر » وذيّلها أيضاً أبو الحسن علي بن زيد البيهقيّ في تأليفه « وشاح [٣] الدمية » وللثعالبي « كتاب فقه اللغة » في دقائق الالفاظ المترادفة و « كتاب سرّ العربيّة » و « كتاب سحر البلاغة » و « كتاب من غاب عنه المُطرب » و « كتاب الظرائف واللطائف » و « كتاب أحسن ما سمعت » و « كتاب مؤنس الوحيد » وكثيرٌ غيرها يطول استيعابها . ولهُ شعر حسن منهُ مدح الامير أبي الفضل الميكاليّ :

لك في المفاخر معجزاتٌ جمّةٌ   أبداً لغيرك في الورى لم تُجمَعِ [٤]
بحرانِ بحرٌ في البلاغة شابَهُ   شعرُ الوليد وحسنُ لفظ الأصمعي [٥]

---

١ الصورة من عاج منقشة مزينة تضرب مثلاً في الحسن وعصرة بمعنى عصارة وهي ما سال من الشيء المعصور استعارها لنخبة القوم ٢ الخريدة الفتاة الحيّية والجريدة السجلّ ٣ الوشاح شبه قلادة عريضة مرصعة بالجوهر تشدها المرأة بين عاتقيها وكشحيها ٤ جمة كثيرة والورى الخلق ٥ شاب يشوب خلط والوليد هو ابو عبادة البحتري

وترسُّل الصابي يَزينُ علوَّهُ ... خطٌّ ابن مقلةَ ذو المحلِّ الأرفعِ [١]
كالنَّور او كالسحر او كالبدر أو ... كالوشي في بُردٍ عليه موسَّعِ [٢]
واذا تفتَّق نَورُ شعرك ناضراً ... فالحسنُ بين مرصَّعٍ ومشرَّعِ [٣]
ارجلت فرسانَ الكلام ورضت أفـ ... ـراسَ البديع وانت أمجدُ مُبدعِ [٤]
ونقشت في فَصِّ الزمان بدائعاً ... تُزري بآثار الربيع المُمرِعِ [٥]

ومن قولهِ في الشكوى:

ثلاثٌ قد رُميتُ بهنَّ اضحت ... لنار القلب مني كالأثافي [٦]
ديونٌ أنقضت ظهري وجورٌ ... من الايام شاب بها غدافي [٧]
وفقدانُ الكفاف وأيُّ عيشٍ ... لمن يُمنى بفقدان الكفافِ [٨]

---

١ الترسل انشاء الرسائل والتأنق في صناعة الانشاء وذو نعت خط ٢ النور الزهر وقولهُ كالسحر اشارة الى المثل: ان من البيان لسحراً والوشي النقش والبرد الثوب المخطط ٣ تفتق تفتح والترصيع اتفاق الفاظ الفقرتين المسجوعتين بالوزن والقافية كقول الحِريري: « وهو يقرع الاسماع بزواجر وعظهِ ويطبع الاسجاع بجواهر لفظهِ » والتصريع اتفاق مصراعي البيت في الوزن والتقفية كما ترى في مطلع معظم القصائد ٤ ارجلت الفرسان جعلتهم راجلين وراض الفرس ذلّلهُ وجعلهُ مطيعاً والمبدع من يجيء بالبدائع ٥ الفص ما يركب في الخاتم من الحجارة الكريمة وازرى بهِ وضع منهُ وحقرهُ والممرع المخصب ٦ الاثافيّ جمع اثفيّة وهي احد الحجارة التي ترفع عليها القدر ٧ انقض الحمل ظهرهُ اثقلهُ حتى سمع نقيضهُ اي صوت عظامه والجور الظلم والغداف غراب كبير استعير للشعر الكثير المسترسل ٨ مني بكذا أُصيب

عَبْدُ القَاهِرِ الجُرْجَانِيّ (٩٧٦م ٣٦٦)

هو ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني. أخذ النحو عن مشاهير زمانه وبرع فيه وعُدّ من أئمة عصره في علوم اللغة والكلام والفقه واشتهر بالتديّن والزهد في حطام الدنيا والتمسّك في اقامة شعائر الدين حتى انهُ كان يوماً في الصلاة فدخل عليه لصّ وأخذ ما وجد عندهُ من المتاع ولم يقطع صلاتهُ.

وعبد القاهر هو واضع علم البيان وان يكن قد ألّف فيه قبلهُ جماعةٌ من الأُدباء كأبي عبيدة في «مجاز القرآن» والجاحظ وابن دُريد وغيرهم من البلغاء فانهم لم يتخطوا فيما ألّفوهُ إلاَّ بعض مسائل منثورة وفوائد شتى علّقوها في مواضع متفرّقة من مصنّفاتهم ولم يبلغوا مبلغهُ من ترقية البيان الى درجة علمٍ واضح الهيئة ظاهر الحدود محرَّر القواعد مسلسل الاحكام واسع الفائدة شريف المزيّة. والذي حداه[1] الى وضع هذا العلم وجمع شتاته هو ما كان قد تفشّى في كتبة العصر من التهامل في الوقوف على اسرار الكلام والاحجام[2] عن مشقّة السعي وراء اساليب الكتابة وطرائقها الصحيحة. فكان السواد الاعظم منهم يكتفون بشيءٍ من علم النحو وحصّةٍ من الالفاظ المترادفة دون مراعاة جانب المعاني مع أنها هي جوهر الكلام والغاية منهُ.

ولعبد القاهر في هذا المعنى مؤلّفان نفيسان وسَم الاول «دلائل الاعجاز» في المعاني وسمّى الآخر «اسرار البلاغة» في البيان وقد أحاط فيهما بجميع

---

١ ساقه ٢ التقاعس والكفّ

اغراض هذا العلم فقرّر أُصوله وأوضح معالمه[١] التي كادت تضمحل[٢] على عهده. ولما كانت دولة الالفاظ قد استفحل امرهـا وداء زخرف الكلام الفارغ والاسجاع التافهة استحكم في عقول المتطفّلين[٢] على موائد الادب حمل عبد القاهر على هذه الطريقة الذميمة حملةً قاضية هتكت الستار عن معايبهـا وقوّضت اركانها وايّد دولة المعاني وعزّز شأنها وأعادهـا الى نصابها[٣] وجعل الالفاظ بمنزلة خدمٍ لها وتحت تصرّفها كما يقتضيه العقل القويم والذوق السليم.

ولولا تفاقم داء الالفاظ في زمانه وتمكّنه من الاذهان لأُخِذَ عليه الاسهاب في بسط موضوعه والتطويل في سرد[٤] الحجج واقامة الأدلّة على صحة دعواه حتى يؤدّي الى سأم[٥] المطالع. فانّه بعد ان اثبت في فصولٍ من اوائل «دلائل الاعجاز» أن الفصاحة والبلاغة انّما تكونان للمعاني وأن شرف الكلام بالمعاني دون الالفاظ فحجّ خصومه وافحمهم[٦] عاد في اواخر الكتاب وأعاد الكرّة لاثبات قضيته فيما يزيد على عشرة فصول أودعها من الحجج والبراهين والامثلة ما يُنفد صبر المطالع ولا يَنفد[٧] هو. هذا فضلاً عمّا في فاتحة «اسرار البلاغة» من الكلام في الموضوع نفسه.

ولعبد القاهر مؤلّفات أُخر منها «كتاب العوامل المائة» في النحو و «كتاب العمدة» في التصريف وغيرهما.

---

١ أوضح أبان والمعالم جمع معلم وهو ما يستدل به على الطريق ٢ من تطفّل إذا دخل وليمة ولم يدعَ اليها ٣ أصلها ٤ ايراد ٥ ضجر ٦ غلبهم بالبرهان واسكتهم ٧ نفد الشيء فرغ وانفده الرجل افرغه

أَلْمَيْدَانِيّ (١١٢٤ م ٥١٨ هـ)

هو أبو الفضل أحمد بن محمّد المَيداني النيسابوريّ. وُلد بنيسابور في محلّةٍ تعرف بميدان زياد وأقبل على العلم فأتقن فنونهُ وبرَّز في معرفة أخبار العرب وأمثالها ولهُ في الامثال مصنَّفٌ نفيس مستوعبٌ[١] لأَمثال العرب جامعٌ لشتيتها وشهرتهُ تغني عن الاسهاب في تعريف مزيَّتهِ وهو متداوَل[٢] في ايدي الأدباء ولم يُعلم مثله في بابهِ. ومن شعرهِ:

تنفَّس صَبحُ الشيب في ليل عارضي ... فقلت عساهُ يكتفي بِعِذاري[٣]
فلما فشا عاتبتُهُ فأَجابني ... أيا هل ترى صبحاً بغير نهارِ

أَلزَّمَخْشَرِيّ (١١٤٣ م ٥٣٨ هـ)

هو ابو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المعروف بجار الله لمجاورته بمكة زماناً. وُلد بزمَخشر احدى قرى خوارزم وأُولع من صباهُ بالعلم فانكبَّ على تحصيلهِ وانقطع الى الدرس والمطالعة فاستبطن اسرار اللغة وأصبح إمام عصرهِ غير مدافع في التفسير والحديث والنحو واللغة والأدب تُشدّ اليهِ الرحال من كل جانب. وكان عزيزَ النفس قليلَ الدعوى شديدَ

١ مستوفٍ ٢ من تداول الناس الشيء اذا اخذوهُ وتناقلوه ٣ تنفَّس تبلَّج او ظهر قليلا والعارض صفحة الخد والعِذار جانب اللحية

الحرص على حسن السمعة وطيب الأُحدوثة وإذ كانت إحدى رجليهِ ساقطةً بسبب برد أصابهُ في بعض أسفاره كان بيدهِ محضر[١] فيهِ شهادة خلق كثير ممّن اطّلعوا على حقيقة ذلك خوفاً من ان يظنَّ من لم يعلم صورة الحال أنّها قُطعت لريبة.

وكان الزمخشريّ معتزليّ الاعتقاد متظهراً بهِ حتى نُقل عنهُ أنهُ كان اذا قصد صاحباً لهُ واستأذن عليهِ في الدخول يقول لمن يأخذ لهُ الاذن « قل لهُ: ابو القاسم المعتزليّ بالباب » وأول ما صنّف كتاب الكشّاف كتب استفتاح الخطبة « الحمد لله الذي خلق القرآن... » وأبدلوا فيما بعدُ خلق بأنزل مراعاةً للمعتقد العامّ. ولهُ تصانيف جليلة شهيرة منها ما عدا « الكشّاف » في تفسير القرآن « كتاب اطواق الذهب » في المواعظ والخطب و « كتاب المفصّل » في النحو وكان يزعم أنهُ ليس في كتاب سيبويهِ مسألة الا وقد تضمّنها هذا الكتاب إمّا نصّاً وامّا ضمناً و « كتاب اساس البلاغة » في اللغة رتّب فيه الالفاظ باعتبار الحرف الاول من اصول المادّة وأكثر فيهِ من ذكر الشواهد والامثال غير أنهُ ربما اقتضى أُسلوبهُ في التفسير إعمال الرويّة لادخالهِ الكلمة التي يفسّرها في عدة جُمَل يستفاد منها معناها تحصيلاً دون ان يصرّح بالمعنى تصريحاً اعتماداً على فهم المطالع واستنباطهِ المراد من اللفظة بالقرائن وهو عيبٌ في كتاب لغة اذ الغرض منهُ خاصّةً ارشاد المطالع الى معنى الكلمة او معانيها على حسب الحقيقة او المجاز ومن ثم فأحرِ بأساس البلاغة ان يعدّ كتاب ادبٍ يغين الكاتب على اكتساب ملكة الانشاء ويُرهف[٢] ذهنهُ للوقوف على دقيق المغازي واسرار الرموز في صناعة الكتابة. ولعلّ

١ كتابة ٢ يشحذهُ

المؤلف لم يقصد الا هذا الغرض الشريف وقد اشار اليه بترجمة كتابه « بأساس البلاغة » والله أعلم. ولهُ من المصنّفات غير ما ذكر شيء كثير وكلها تشهد بوفور فضله وسعة علمه .

ألْجَوَالِيقِيّ (١١٤٤ م ٥٣٩ هـ)

هو أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي نسبةً الى عمل الجواليق وبيعها . قرأ الأدب على الخطيب التبريزيّ ولازمهُ حتى برع في فنونه وكان متديّناً ثقةً غزير الفضل وافر العقل مليح الخطّ كثير الضبط يتنافس الناس في الرقاع التي تنمّقها[١] براعتُهُ ويغالون فيها وهو من كبار اهل اللغة وكان فيها أمثلَ منهُ في النحو. واتخذهُ المقتفي بالله إماماً يصلّي به الصلوات الخمس وتخرَّج عليه أدباء كثيرون وأخذوا عنه علماً جمّاً. ويُروى عنهُ بينا كان يقرأ الناس عليه في حلقته بجامع القصر بعد صلاة الجمعة اذ وقف عليه شابٌّ وسألهُ معنى هذين البيتين :

وصْلُ الحبيب جنان الخلد أسكنها وهجرُهُ النار يصليني بهِ النارا[٢]
فالشمس بالقوس أمست وهي نازلةٌ إن لم يزرني وبالجوزاء إن زارا[٣]

فقال لهُ « يابني هذا شيء من معرفة علم النجم وسيرها لا من صنعة أهل الأدب » فانصرف الشاب من غير حصول فائدة واستحيا الجواليقي ان يُسأل عن شيءٍ ليس عندهُ منهُ علم وقام وآلى[٤] على نفسه ألاّ يجلس في

---

١ تحسنها وتزينها ٢ الوصل ضدّ الهجر وجنان جمع جنة والهجر المقاطعة ويصليني يُدخلني النار ٣ القوس من البروج الخريفية والجوزاء من البروج الربيعية شبه ايام هجران الحبيب بالخريف وايام زورتهِ بالربيع ٤ حلف

حلقته حتى ينظر في علم النجوم ويعرف سير الشمس والقمر وكما قال فعل وللجواليقي مصنّفات أشهرها «كتاب المعرَّب» وهو فهرس الكلمات الاجنبيّة التي استعارتها العرب من لغات الاعاجم وأدخلتها في لغتها. وما أحوجنا اليوم الى جواليقيٍّ آخر ينظر في هذه الالفاظ الاعجميّة التي هجمت علينا وهجمنا عليها فيغربلها وينفي ما لا حاجة اليه ويصقل البقيّة التي لا بدّ لنا منها فتتزيّا بزي اخواتها العربيات وتحلّ بينهنّ كواحدةٍ منهنّ... وله ايضاً «كتاب التكملة» وهو تتمّة درّة الغواص للحريريّ و «كتاب شرح ادب الكاتب» وغير ذلك.

إبنُ الأنبارِيّ (١٢٠٠م ٥٩٧هـ)

هو كمال الدين أبو البركات عبد الرحمان بن محمّد الأنباريّ. وُلد بالأنبار وسكن بغداد من صباه وتفقّه على المذهب الشافعي بالمدرسة النظاميّة وتصدّر لاقراء النحو فيها وكان من الأئمّة المشار اليهم واسع التبحُّر في اللغة وفنون الأدب وتتلمذ له جماعة من اهل الفضل وانتفعوا كثيراً بعلمه وأدبه وانقطع في آخر عمره في بيته مشتغلاً بالعلم والعبادة وتصنيف الكتب المفيدة ولم يزل زاهداً في الدنيا ومجالسة أهلها. وله من التصانيف «كتاب طبقات الأدباء» جمع فيه تراجم اهل العلم والأدب من زمان الاقدمين الى أيّامه. و «كتاب الميزان» وضعه اجابة لمقترَح القارئين عليه النحو من طلاّب المدرسة النظاميّة قابل فيه بين مذاهب البصريين والكوفيين و «كتاب اسرار العربيّة» في النحو وغير ذلك

إِبنُ الصّائِغ (١٢٤٥م ٦٤٣هـ)

هو موفّق الدين أبو البقاء يعيش بن علي المعروف بابن الصائغ. وُلد ونشأ بحلب ورحل منها في صدر عمره قاصداً بغداد يتفقه على أبي البركات ابن الانباري ولما بلغ الموصل ورد منعى ابن الانباري فلبث هنالك مدة قصيرة وسمع الحديث ثم قفل راجعاً الى حلب وتفرّغ للدرس حتى اذا آنس من نفسه التضلع من العلم والاضطلاع بأعباء[١] التدريس قدم الى دمشق وداخل أُدباءها وباحثهم فشهدوا له بعلو الكعب ورسوخ القدم في فنون الادب. وكتب له الشيخ تاج الدين الكندي خطّاً يمدحهُ فيه ويثني على فضلهِ ويصف تقدمهُ في انواع العلوم. فعاد الى حلب ثَلِج[٢] الصدر بما اصاب من الفوز المبين وتصدّر للاقراء الى وفاتهِ. وبحلب اجتمع بهِ ابن خلّكان واخذ عنهُ وخلّد ذكرهُ واعجابهُ بهِ في كتابهِ «وفيات الاعيان» قال «ولما وصلتُ الى حلب لاجل الاشتغال بالعلم الشريف وهي اذ ذاك أُم البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين. وكان الشيخ موفق الدين المذكور شيخ الجماعة في الادب لم يكن فيهم مثلهُ شرعت في القراءة عليهِ... وكان خفيف الروح ظريف الشمائل كثير المجون مع سكينة ووقار...» ومن امثلة لطائفهِ ان فقيهاً سألهُ يوماً معنى بيت لذي الرمّة:

أَيا ظبيةَ الوعساءِ بين جلاجلٍ وبين النقا آأنتِ ام أمُّ سالمِ[٣]

---

١ التضلع التملؤ والاضطلاع النهوض والقيام والاعباء جمع عبء بالكسر اي حمل
٢ فرح ٣ الوعساء الرملة وجلاجل والنقا علما موضعين وام سالم كنية امرأة

فشرح لهُ الشيخ جهدهُ معنى البيت وما جرت العادة للشعراء ان يشبهوا النساء الصباح الوجوه بالغزلان وأطال في التفسير وبسطهُ بأَحسن عبارة بحيث يفهمهُ البليد البعيد الذهن وذلك الفقيه منصت مقبل عليهِ بكلّيتهِ حتى يتوهم من يراهُ على تلك الصورة أنهُ قد تعقل جميع ما قالهُ الشيخ من شرحهِ. فلما فرغ قال لهُ الفقيه «إيش في هذه المرأَة الحسناء يشبه الظبية» فقال لهُ الشيخ قول منبسط «تُشبهها بذنبها وقرونها ...» فانقلب المجلس الى الضحك. ونوادرهُ كثيرة. ومن مؤلفاتهِ شرح كتاب المفصّل للزمخشري.

إبنُ ٱلحَاجِب (١٢٤٨م ٦٤٦هـ)

هو جمال الدين ابو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب. كان ابوهُ كرديًّا حاجباً للامير عز الدين موسك الصلاحي. وُلد بأسنا بليدة بصعيد مصر وقدم القاهرة صغيراً واشتغل بالقرآن والفقه على المذهب المالكي والقراءات والعربية وبرز في العلوم التي تعاطاها ثم انتقل الى دمشق ودرّس بجامعها وأقبل للاشتغال عليهِ خلق كثير وكان الاغلب عليهِ علم العربية. ولهُ تصانيف حسنة منها «الكافية» في النحو و «الشافية» في الصرف ولهُ على الكافية شرح ونظمها في ارجوزة سماها «الوافية». وعلق جمهور من الادباء شروحاً عديدة على الكافية بين وجيز ومتوسط ومطوّل أشهرها شرح الشيخ رضي الدين بن الحسن الاسترابادي اشبعهُ جمعاً وتحقيقاً فتداولهُ الناس واعتمدوهُ. ولهُ كتاب «الامالي» في اغراض شتى وغير ذلك.

إِبنُ مَالِك (١٢٧٣ م ٦٧٢ هـ)

هو جمال الدين أبو عبد الله محمّد بن عبد الله بن مالك الجيّاني نسبة الى جيّان من أعمال الاندلس ومنها اصلهُ. وُلد ونشأ وتأدب بدمشق ثم انتقل الى حلب وأخذ عن علمائها وصرف همتهُ الى إتقان لسان العرب فبلغ منهُ الغاية وأربى على المتقدمين حتى كان اليهِ المنتهى في النحو والقرآن والحديث واشعار العرب. وتصدر للاقراء فانثال عليهِ جمهور المتأدبين يأخذونٍ عنهُ ويستفيدون منهُ. وكان مشهوراً بالتديّن والعبادة وكمال العقل فضلاً عن سعة علمهِ وغزارة مادتهِ في كافة فنون الادب اصولها وفروعها. وبلغ من علو مكانتهِ في عيون القوم وإعظامهم لفضلهِ ان قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان كان اذا جاء ابن مالك العادلية وصلّى شيّعهُ الى بيتهِ إكراماً لهُ

ولابن مالك مصنفات جليلة عديدة لا محل لذكرها ههنا. منها كتاب « الكافية الشافية » وهي منظومة في النحو ذات ثلاثة آلاف بيت لخصها في ارجوزة اخرى ذات الف بيت فعُرفت بالألفية وهي كثيرة التداول بين طلّاب النحو حتى في ايامنا. ولما كان إقبال اهل الادب على الالفية كثيراً علّق عليها الشروحَ المتنوعة عدة من علماء النحو لا يتسع هذا الموضع لذكرهم. اشهرهم قاضي القضاة أبو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بابن عقيل وشرحهُ متوسط مشهور كثير الاستعمال. ومنهم علي بن محمد الاشموني سمّى شرحهُ «منهج السالك الى ألفيّة ابن مالك» وهو أغزر مادة من شرح ابن عقيل وأصعب ادراكاً ... ومن النحاة

من علق على هذه الشروح شروحاً اخرى سموها «حواشي». فمن شرحَ شرحْ ابن عقيل محمد الخضري الدمياطي. وممن شرحَ شرحْ الاشموني محمد الصبان المصري. ولعلهُ لم يصنف كتاب في النحو تداولتهُ اقلام الكتبة كألفية ابن مالك فشرحوها وعلقوا عليها وحَشّوها وأعربوها حتى عرف اسمَ ابن مالك المبتدي والمنتهي

ومن مصنفات ابن مالك كتاب « الاعلام بمثلث الكلام » و « لامية الافعال » و « عُدة اللافظ وعمدة الحافظ » وغيرها ولما توفي رثاهُ الشيخ شرف الدين الحصني بأبيات نذكرها لغرابتها وقد أكثر فيها من استخدام المصطلحات النحوية وذلك ما يسميه البديعيون توجيهاً:

يا شتات الاسماء والافعالِ	بعد موت ابن مالك المفضالِ
وانحراف الحروف من بعد ضبطٍ	منهُ في الأنفصال والاتصالِ
مصدراً كان للعلوم باذن ا	لله من غير شبهةٍ ومحالِ
عُدِمَ النعت والتعطف والتو	كيد مستبدلاً من الابدالِ
المٌ إعتراهُ أسكن منهُ	حركات كانت بغير اعتلالِ
يا لها سكنةً لهمز قضاءٍ	اورثت طول مدة الانفصالِ
رفعوهُ في نعشهِ فانتصبنا	نصب تمييز كيف جرُّ الجبالِ
صرفوهُ يا عظم ما فعلوهُ	وهو عدل معرّف بالجمالِ
ادغموه بالترب من غير مثلٍ	سالماً من تغيّر الانتقالِ
وقفوا عند قبرهِ ساعة الدفـ	ـن وقوفاً ضرورة الامثالِ
ومددنا الأكفَّ نطلب قصراً	منسكناً للنزيل من ذي الجلالِ

الفُقَهاءُ والمُحَدِّثون

ومَن إليهم

جمع الاسلام شتات العرب ووحّد كلمتهم فأنشأُوا مملكة مستقلّة كان قد امتدّ ظلُّها عند وفاة [1] صاحب الشريعة الاسلاميّه على شبه جزيرة العرب. وما كاد يستتبّ لهم الأمر في بلادهم حتى بثّوا سراياهم [2] في الآفاق يعرضون على الناس الاسلام او الجزية وان أبَوا فالسيف يحكم بين القومين. ففتحوا البلاد ودوّخوا الممالك ودانت لهم الرقاب في مشارق الارض ومغاربها وكان لهم من فتوحاتهم مُلكٌ فسيح الأَرجاء متنوّع الأَقاليم تضطرب فيه الأُمم المختلفة وجميعهم يرجعون في تدبير شؤونهم الاجتماعيّة الى أُمرائهم الفاتحين. فاضطُرَّ العرب الى مُعاناة القضاء في أُمور رعاياهم على تلوّن مِلَلهم [3] ونِحَلهم [4] واقتضى ذلك وضع قانونٍ يرجع اليهِ ارباب الامر والنهي في حلّ المُشكَلات التي تُعرض عليهم ويجرون على سَنَنه في أحكامهم اذا فصلوا للمترافعين دعاويهم كما هو الشأن في الممالك العظمى المنظّمة.

ولما اندفقت جيوش العرب في ممالك المعمور، ووجدوا انفسهم

---

١ سنة ٦٣٢ مسيحية ٢ جمع سرية وهي القطعة من الجيش ٣ جمع ملّة اي دين كالنصرانية والاسلام مثلاً ٤ جمع نحلة اي مذهب كالحلول مثلاً والاعتزال

مضطرين الى معاناة القضاء بين الامم التي خضعت لهم، لجأوا في قضاء شؤونهم الى ما خلّف لهم مشترعهم من قول أو فعل يقيسون عليه الوقائع المتجدّدة لديهم؛ وان لم يكن له، عمدوا الى قول أو فعل للصحابة[1] مما هم فيه وجعلوا إجماعهم على طريقة بعينها منهاجاً يسيرون عليه، وان لم يكن هناك إجماع على أمر ما ذهبوا الى التنظير[2] بين الوقائع حاضرها وسالفها وتحرّوا اصحّ الاقيسة، وحكموا على حسب المشابهة والمخالفة ومن ثمّ كان القرآن، والحديث، والاجماع، والقياس المراجع الاربعة التي اختلف[3] اليها أئمّة القوم في استنباط الاحكام الشرعية. وقد اطلقوا على المعارف المستنبطة من هذه الأصول اسم « الفقه ».

ألقُرآن

القرآن لغة مصدر قرأ ثم اطلق على كتاب الوحي عند المسلمين وهو مقسوم قطعاً مستقلة أو فصولا تعرف بالسور. فيه مئة وأربع عشرة سورة رتبها جامعو الكتاب باعتبار الطول والقصر ما عدا سورة الفاتحة فهي مع قصرها في صدر الكتاب. وعليه فالسور الطولى في أوله والصغرى في آخره. وهناك فروق أخر بينها منها قصر الآي وتواطؤها على الفاصلة الواحدة في السور الصغرى، وهو غير مطّرد في السور الطولى؛ ولرسم القرآن نمط خاصّ مخالف للمصطلح العام اما بزيادة حرف في بعض

---

١ اصحاب محمد ٢ التمثيل ٣ تردّد

الالفاظ، واختزال حرف في غيرها واما برسم هاء التأنيث في كثير من الاسماء بصورة تاء الافعال الى غير ذلك مما خولف في رسمه القياس المتعارف عند الكتاب.

والقرآن مكتوب بلغة قريش افصح وانصع[1] لغات العرب وعلى منهاج[2] بلاغتها وان كان له اسلوب خاص ولهجة تميّزه عما سواه. وكان العرب يفهمونه، ويدركون معانيه في مفرداته وتراكيبه غير انهم لما اختلطوا بالأمم الاجنبيّة فسدت لغتهم ولم تعد لغة قريش دائرة في مخاطباتهم ففاتهم شيء من معانيه فنشأ عن ذلك «علم التفسير»

الحديث

الحديث او السُّنّة عند المسلمين ما ورد عن نبيّهم من قول او فعل غير مدوّن في القرآن، حفظه الصحابة وأخذه عنهم تابعوهم، وظلّ يتناقله القوم خلفاً عن سلف. ولم يُدوّن في الكتب الاّ في أواخر القرن الثاني للهجرة.

وكان الداعي الى جمع الاحاديث اضطرار المسلمين ان يجروا على سنن مشترعهم في فهم القرآن وتأويل ما لديهم من الآيات التي لا يتأتى فهمها الا للواقف على الظروف التي دعت اليها.

---

١ أبهى ٢ الطريق الواضح

ورأى زعماء القوم أنهُ كلّما تمادى الزمن صعب عليهم الحصول على هذه الضالّة المنشودة[١] بسبب موت جماعة من الصحابة وهلاك معظمهم في الحروب وتفرّق سائرهم في بلاد العرب والعراق والشام ومصر وغيرها. فعزموا على تلافي الأمر وهمّوا بجمع الاحاديث ممن أؤتمنوا عليها فعانوا[٢] في سبيل ذلك الاسفار الشاقّة ودوّنوا خلاصة مباحثهم في المؤلفات العديدة.

وزاد قضاءَ هذه المهمّة عنتاً[٣] ومشقّةً ما شاع في الاسلام من الأحاديث التي كان يضعها أصحاب الاغراض من عند أنفسهم تنفيذاً لغاياتهم ونصرة لمذاهبهم. فألجأ ذلك المؤلّفين في الحديث الى اعتماد الاسناد المتسلسل ليتسنّى[٤] لهم إفراز[٥] الأحاديث وتمييز صحيحها من فاسدها.

واوّل من ألف في الحديث مالك بن أَنَس الأصبحيّ. وضع كتابهُ «الموطّأ[٦]» ورتّب فيه الأحاديث على ابواب الفقه. ثمّ جاء بعده إمام المحدّثين محمّد البخاريّ وألف كتابهُ «المُسنَد الصحيح» نحا فيهِ منحى مالك في الترتيب إلاّ انهُ اغزر مادّةً وأكثر استيعاباً[٧]. فمحّص[٨] الأحاديث التي وقف عليها وكرّرها في كلّ بابٍ يتطلّبها المعنى فكثرت في كتابهِ الاحاديث المكرّرة.

وتلا البخاريّ مسلمُ بن الحجّاج القُشيريّ. فوضع مصنّفاً في الحديث سمّاهُ ايضاً «المُسنَد الصحيح» حذا فيهِ حذوَ البخاريّ في تدوين المُجمَع عليهِ وحذف المتكرّر. ويُعرف كتابا البخاريّ ومسلم «بالصحيحين».

---

١ نشد الضالّة: سأل عنها وطلبها ٢ عانى: قاسى ٣ التعب ٤ ليتسهّل ٥ تفريق ٦ من وطأ الأمرَ اذا سهّلهُ ٧ استوعب الوعاء الشيء: وسعه ٨ نقّى

ثم كتب في الحديث بعد هؤلاء الأئمة الثلاثة أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي وتوسّعوا في جمع الاحاديث فزادوا على الصحيح منها، ما هو دونه رتبةً من الحسن وغيره

ومؤلّفات هؤلاء الأئمّة الستة هي امّهات الكتب في الحديث وتُعرف «بالستّة الصحاح» واليها النهاية في هذا العلم وكلّ ما أُلّف بعدها فهو شرحٌ أو تلخيص[1] أو تعليق[2] عليها.

ألفقه

الفقه في اللغة العلم ثم خُص بعلم الدين لشرفه. ويحدّ عندهم بأنه معرفة الاحكام الشرعيّة في أفعال المكلّفين[3] بالوجوب والحذر والندب[4] والكراهة والاباحة[5]. وبعبارة أُخرى هو تطبيق أحكام الشريعة على أعمال البشر للفصل بين حلالها وحرامها. وهذه الاحكام يستخرجها بالاجتهاد أئمّة القوم المعنيّين بأمر الدين كالصحابة ومَن اليهم من التابعين وغيرهم ممّن اشتهروا بحفظ القرآن ومعرفة ناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومُحكَمه[6]. وكان لذلك العهد يُسمَّون «قُرَّاءً» اي الذين يقرأون القرآن. لأَن العرب كانوا أُمّةً أُمّيّةً يُعظمون أمر القراءة والكتابة

---

١ اختصار ٢ شرح ٣ العقلاء البالغون ٤ التحريض ٥ ترديد الامر بين شيئين يجوز الجمع بينهما ٦ هو المفصّل الواضح غير المتشابه

كما هي الحال في ايّامنا عند القبائل البعيدة عن المدنيّة ومرافقها[1] . فان لمعرفة الأسود في الأبيض ـ وهي كناية القراءة عندهم ـ شأناً كبيراً ولاصحابها المقام الرفيع والكلمة النافذة فيما بينهم . فاختصّ العرب بهذا اللقب أُمّتهم لغرابته يومئذٍ . ولمّا تحضّروا وشاعت الكتابة في عامّتهم تعاطَوا العلوم وحذقوا في التعليل والاستنباط وتوفّرت لديهم عدّة[2] العلم فكمل فقههم وأصبح صناعةً كسائر المعارف المنظّمة فزالت خطورة القراءة من قلوبهم وسمّوا علماء دينهم « الفقهاء » .

ومذاهب الاسلام في الفقه اربعة : الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي .

المذهب الحنفي ينتمي[3] الى ابي حنيفة النعمان ومرجعهُ في استنباط الاحكام الشرعيّة الى القياس والدليل العقلي غير معتبرٍ غالباً الاحاديث النبويّة لقلّة رواة الحديث في العراق حيث نشأ هذا المذهب . وهو أوسع مذاهبِ الاسلام مبادئ وأقلّها ضغطاً وتشديداً وأقربها الى التساهل والتسامح لما فيهِ من روح الفلسفة . وأهل العراق والشام والهند على مذهب أبي حنيفة .

والمذهب المالكيّ أنشأهُ مالك بن أَنَس وركنهُ الحديث . وقد رأيت أن صاحبهُ هو اوّل من جمع شيئاً من الاحاديث فبنى مذهبهُ عليها واعتَمد في استنباط الاحكام فضلاً عن الأُصول العامّة أصلاً آخر وهو ما اتّفق على عملهِ اهل المدينة لِما رأى من حرصهم على تقليد مَن قبلهم . فاتّخذ اتفاقهم حجة في احكامهِ وأحلّهُ محل الادلّة الاربعة[4] .

وهذا المذهب خلو من الاقيسة المنطقية لبعد الاخلاق البدوية عن تعاطيها . واختصّ به اهل المدينة وعنهم أخذه اهل المغرب .

---

١ منافعها ٢ ما أعدّ للقيام بالعمل ٣ ينتسب ٤ اي القرآن والحديث والاجماع والقياس

والمذهب الشافعي انشأه محمد بن ادريس الشافعي مزيجاً من المذهب الحنفي والمذهب المالكي آخذاً بطريقتي اهل الحديث والقياس بيد انه وان خالف مالكاً في كثير من الفروع فهو أقرب الى المذهب المالكي منه الى الحنفي لشدّة تمسّكه بالحديث. والآخذون بهذا المذهب هم أهل مصر خاصّة.

واما المذهب الحنبلي فينتمي الى احمد بن حنبل وكان من عليّة[1] المحدّثين. وقرأ تلاميذهُ على اصحاب الشافعي مع وفور بضاعتهم من الحديث واختصّوا بمذهب آخر هو النهاية في التشبث[2] بالحديث ونبذ كل قياس ودليل عقلي. فهو والمذهب الحنفي على طرفَيْ نقيض. واتباع هذا المذهب قليلو العدد منذ نشأتهِ الى ايامنا.

وهناك مذهب آخر غير معدود من المذاهب المقررة في الاسلام ويُعرف منتحلوهُ بالظاهرية او اصحاب الظاهر لان محور مباحثهم انما هو ظاهر الكلام خاصة بمعزل عن كل تأويل فينبذون ظهرياً كل قياس عقلي في استنباط الاحكام. وزعيم هذا المذهب داود بن علي الاصبهاني وتبعهُ ابنهُ ابو بكر محمد وبعض اصحابٍ لم تتسع شهرتهم ولا كثر عددهم.

ووقف التقليد في الامصار[3] عند الأئمة الاربعة المارّ ذكرهم وأُوصد[4] عند اهل السنّة باب الاجتهاد بعدهم لمن سواهم. ولا محصول للفقه من بعدهم الا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلّد بالمذهب الذي اختارهُ بعد النظر في الاصول واتصال سندها بالرواية. فمذهب كل إمام علم مخصوص عند اتباعهِ كفاهم منشئهُ مؤونة الاجتهاد فلاسبيل اليهِ لاحد من بعده ابد الدهر.

---

١ من اهل الرفعة ٢ التمسك ٣ جمع مصر بالكسر اي البلد ٤ أُغلق

وللفقهاء منزلةٌ رفيعة في الاسلام وكان الخلفاء يُجلّون قدرهم ويرفعون مقامهم إما عن ورعٍ[١] أو عن سياسةٍ لعلمهم انهم محتاجون مع سامي مقامهم الى رضى عامّة المسلمين عنهم ولا سبيل الى استرضائهم سوى إعظام امر الفقهاء واكرامهم ولا يخفى أن الشعب منقادٌ لهم ما لم يُفسد عليهِ المضلّلون أمرهُ . غير أن كثيراً ما انقلب إعزاز العامّه للفقهاء وبالاً عليهم اذ تربّع في دست[٢] الخلافة من لا همّ لهم في أمور الدين. فقاسى معظم الفقهاء مِحَن الاهمال والضيق في دولة بني أُميّة لأنّ خلفاءها اغتصبوا الخلافة اغتصاباً فأنكر عليهم الفقهاء فعلتهم وجاهروا ببطلان حقّهم .

ولمّا آلت الخلافة الى بني العبّاس توسّم[٣] الفقهاء خيراً لما أظهروا من العزم على ردّ الخلافة الى أهل البيت. غير أنهم ما عتّموا[٤] أن لاقَوا منهم الاهوال. فانّ العبّاسيّين ما كادوا يتخلصون من أحزاب بني أُميّة ويستتبّ لهم الامر حتى احتكروا[٥] الخلافة لأنفسهم وكانوا قد أوهموا في اوائل دعوتهم أنّهم إنّما يدعون لأهل البيت من وُلد عليّ وبايعوا واحداً منهم. فلمّا نكثوا[٦] بَيعتهم أفتى الفقهاء المتشدّدون بخلعهم وفي مقدَّمتهم مالك بن أنس. فقابلهم الخلفاء بالعنف والمحنة والاهمال. وبلغ بلاؤهم نهايتهُ حينما قبض على أزمّة الأحكام الآخذون بمذهب الاعتزال من بني العبّاس كالأمين والمأمون فعظم الامر على الفقهاء وتوقّعوا شرًّا وكما أوجسوا[٧] كان فانهم أُجبروا على القول بخلق القرآن[٨] ومَن أبى منهم لقي الاهوال والشدائد الواناً .

---

١ التقوى ٢ الدست صدر المجلس ٣ تخيّل ٤ أبطأوا ٥ استبدّوا واستأثروا ٦ نكث العهد نقضهُ ٧ احسّوا وأضمروا ٨ أي انهُ غير منزل

الاّ أنّ الفرج جاءَهم في ابّان[1] الضيق وعند استشراء[2] داء الاعتزال واستفحال بلواهم. وذلك أن المتوكّل ما كاد يقبض على صولجان الخلافة حتى عدل بغتةً عن الاعتزال والتشيُّع لحكمةٍ سياسيّة وعاد الى عقائد السُنّة وعضد أهلها بالقوة والسطوة وحمل على من لا يرون رأيهُ حملات منكرة. وشدّد في تتبّع الشيعة ومَن اليهم وتخطّى حدود الاعتدال في نصرتهِ للسُنّة حتى خيّل اليهِ خُلقهُ الشكس[3] انحرافاً عن صراط[4] الحقّ في أركان الفقه أنفسهم بحيث اضطُرّ محمّد البخاريّ — وما ادراك من البخاريّ — أن يتنصّل[5] من تهمة الميل والارتداد عن مذهب السنّة ... وقس على ذلك ما أشبههُ من الوقائع العديدة التي ادّى اليها ضرورة ناموس ردّ الفعل — سُنّة الله في خَلقهِ ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

البِدَع[6]

ظهر الاسلام في بلادٍ يسكنها قومٌ سُذَّج غلبت البداوة على طبائعهم. فكان أبعدُ شيءٍ عنهم النظر والبحث والتعليلات الفلسفيّة ومن ثمّ تلقّوا بالاخبات[7] والخضوع كلّ ما ألقاهُ عليهم نبيّهم. وجُلّ ما تقاضَوا واضع

---

١ وقت ٢ تفاقم ٣ الشرس ٤ طريق ٥ يتبرأ ٦ جمع بدعة وهي كل مقالةٍ مُحدَثة في الدين مخالفة للأصول المقررة ٧ التواضع

الشريعة تحديد الفرائض العمليّة تاركين العقائد الدينية بمعزلٍ عن الاستجلاء[١] والانتقاد[٢].

تلك ايّامٌ ساد فيها بين القوم الوئام[٣] والخضوع وانقضت بانقضاء نبيّهم وتلاها عصرٌ ذهبيٌّ كان منهُ بمنزلة الثمرة من الزهرة. وقد سعى الخلفاء الراشدون جهدهم في إطالتهِ ودّوا لو ظلّ العرب على بداوتهم وحرّيتهم الفطريّة السليمة لا يمارون[٤] الاّ في اعراض المسائل الدينيّة من نحو تأويل وتفسير ولا تسوّل[٥] لهم نفوسهم وضع الجوهر عينهِ موضع البحث والتصديق والتفنيد[٦]. ومدَّ ايديهم الى القرآن نفسه وعرضه على محكّ[٧] النظر ينجده[٨] نظام الفلسفة. تلك أُمنيَّة لا وجود لها الاّ في عالم الفكر والخيال وهي والحقيقة على طرَفَيْ نقيض إذ المآل الذي لابدّ من الوصول اليهِ اضطراراً أو اختياراً هو الانقياد الى ناموس الارتقاء القاضي بانسلاخ القوم عن بداوتهم وأخذهم بأطراف الحضارة وتوابعها من التوسُّع في الكماليّات[٩] الماديّة والمعنويّة.

فشتّان[١٠] ما بين ايام الزّهاء حين لم يكن الا مذهب واحد هو مذهب الامام وطريقةٌ واحدةٌ يشير اليها علماء القوم فيبادر الشعب كبيرهُ وصغيرهُ الى نهجها وبين ايّام تفرّعت فيها المذاهب وتشعبت الطرائق حتى لا يكاد يسعها عدّ. اذ قام في الاسلام فِئةٌ من ذوي الجراة لا يسلّمون بعقيدة الا بعد تعليلها وتقليبها على كلّ وجهٍ وتمحيص

---

١ الاستيضاح ٢ افراز الجيد من الرديء ٣ واسمهُ صنع مثل صنعهِ ٤ يجادلون ٥ زيّنت وسهّلت ٦ التخطئة ٧ حجر يُحك به المعدن لكشف حقيقته ٨ يساعده ٩ ما يمكن الاستغناء عنهُ كالقراءة مثلاً ودونها الحاجيات وهي ما لا يمكن الاستغناء عنهُ الا بمشقة كاللباس ودونها الضروريات كالطعام ١٠ بَعُدَ.

أسبابها ومسبّباتها ولا يقبلونها ما لم تنطبق على الاحكام العقليّة . منهم :

المعتزلة : وهم القائلون بخلق القرآن اي انه غير موحى به وانه تمكن معارضته والاتيان بمثله وأحسن منه فصاحة وبلاغة . ثم يعمد هؤلاء القائلون بخلق القرآن الى انتقاد ما تضمّن من الاخبار والآثار والاقوال . ويبحثون في الذات الالهيّة فينفون عنهُ تعالى الصفات لزعمهم أنّ القول بصفة أزليّة يؤول الى التعدُّد مُدّعين أن من أثبت معنى قديماً واثبت مع ذلك المعنى صفةً قديمة فقد أثبت إلهين [1] ولهم غير ذلك من الآراء المستحدثة في الاسلام زادوا عليها تفسيق [2] معظم الصحابة واحتقارهم .

ولقّب أصحاب هذه البدعة بالمعتزلة لاعتزالهم فيما يقولون فئتَيْ ضلال يعنون أهل السنّة والخوارج . ويدعون معطلة لانكارهم الصفات في الله تعالى تنزيهاً له عزّ وجلّ عن المشاركة . ويسمّون قدرية لجحدهم القدر وقولهم بخلق الافعال للعباد [3] .

والمرجئة : وهم القائلون « لا تضرّ مع الايمان معصيه كما لا تنفع مع الكفر طاعة » وينكرون تخليد [4] المؤمن في النار ويزعمون ان اصحاب الكبائر من المؤمنين الذين يدخلون النار سيخرجون منها بعد ان يعذّبوا بذنوبهم .

وسمّي هؤلاء المبتدعة مرجئة من الارجاء بمعنى اعطاء الرجاء

---

١ كلّ كائنٍ فهو كائنٌ على كيفيّةٍ ما وهذه الكيفية هي ما نعبّر عنهُ بالصفات فلا بدّ اذاً من ان يكون لهُ تعالى صفات اذ هو الكون. بعينهِ فقول المعتزلة لا محصول لهُ ٢ فسّقهُ نسبة الى الفسق وهو الخروج عن طريق الحق والصلاح ٣ اي يعملون اعمالهم احراراً غير مجبورين ٤ جعله خالداً

لمرتكب المعصية في نيل المغفرة وهو ضد التئييس أو لارجائهم تعذيب مرتكب الكبيرة الى يوم القيامة.

والخوارج: وهم قوم كانوا في بداءة امرهم من حزب عليّ بن ابي طالب وابلوا معه في صفّين بلاءً حسناً. ولما رفعت المصاحف لم يخف على عليّ أنها خدعة حربٍ فاستنفر [1] أحزابه عليهم فأبوا واضطرّوه الى قبول التحكيم وكان من أمر الحكمين ما مرّ في ترجمة عليّ. فانتقض هؤلاء القوم عليه وشقوا عصا الطاعة ورفضوا التسليم وتجمهروا في النهروان [2] فأكره علي الى منازلتهم ولم يظهر عليهم [3] الا بعد عناء شديد. فاخلدوا الى السكينة ردحاً من الزمن. ولما القت الخلافة بأزمتها الى بني امية لقي الخوارج من عمالهم ضروب العذاب والهوان احتملوها بالصبر الجميل وما هي الا برهة حتى عدلوا عن خطة التحمّل وأخذوا يعاملون أعداءهم بالمثل ولم تزل الحرب قائمة بينهم وبين بعوث الخلفاء حتى قطع دابرهم المهلّب بن ابي صفرة بعد حرب دامت تسع عشرة سنة وفرّ من نجا منهم الى المغرب ونشروا مبادئهم في قبائل البربر وخلاصة اقوالهم: ان علي بن ابي طالب كافر في التحكيم وابن ملجم محقّ في قتله والصحابة كافرون خالدون في النار ومرتكب الكبيرة كافر هالك وان مؤمناً.

والشيعة: وهم من مشاهير اصحاب البدع في الاسلام شايعوا علي بن ابي طالب وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصايته واعتقدوا ان الامامة لا تخرج من ولده الا بظلم من غيرهم أو تقيّة [4] منهم. وهم يخوّنون جامعي القرآن مدّعين انهم اسقطوا لغاية ما الآيات الناطقة بحقّ عليّ وذرّيته

---

١ سألهم ان يسرعوا وينجدوه ٢ كورة بين بغداد وواسط ٣ ينتصر عليهم ٤ حذر

في الخلافة فالخلفاء الثلاثة قبله وغيرهم ممّن جاء بعده هم في معتقدهم دخلاء مغتصبون .

والشعية قسمان متوسّطة وغالية . ويتفرّعون الى فِرَق متعدّدة على حسب توقفهم في الامامة على أحد العلويّين بعد وفاته واعتقادهم انه لم يمت بل رُفِع واختفى وسيعود يوماً فيملأ الارض عدلاً ... واذا عرفت انه لا يكاد يعدم علَوي أشياعاً يقولون برجعته ويتفرّدون بمزاعم خاصّة بهم أيقنت[1] ان فرقهم لا تقع تحت حصر ومذاهبهم لا يستوفيها كلام وتمهّد لنا سبيل العذر اذا اهملنا ذكر حصة وافرة من احزابهم ولمعة وافية من مقالاتهم .

الشيعة المتوسطة : هم الذين ينسبون الى عليّ ومن يتولى[2] من ولده مزايا يمكن وجودها في البشر . منهم « الزيدية » أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن ابي طالب وهم اكثر الشيعة اعتدالاً يقولون بامامة وُلد علي وجواز خروج امامين في قطرين يستجمعان الخصال المؤهّلة . ومن اقوال زيد جواز إمامة المفضول مع قيام الافضل[3] لمصلحة أو تقية فعلّل[4] هكذا رضى عليّ بخلافة ابي بكر وعمر وعثمان . وبلغت مقالته هذه بقية الشيعة فأنكروها عليه ورفضوه من شركتهم فسُمّوا رافضة فكان كل الشيعة روافض ما عدا الزيدية .

والكيسانية : نسبةً الى كيسان مولى عليّ وقيل تلميذ ابنه محمد ابن الحنيفة ويعتقد أتباعه فيه اعتقاداً بالغاً من أحاطته بالعلوم كلها واقتباسه من سيّديهِ الاسرار بجملتها .

---

١ تحققت ٢ تولاه ، اتخذه ولياً ٣ فضل زيد عمراً فاقه في الفضل وكان افضل منه ؛ فزيد فاضل وعمرو مفضول ٤ بيّن علّة

والامامية : وهم القائلون بامامة عليّ بعد محمد بتعيين منه تعريضاً وتصريحاً [١] ولهم في تأييد دعواهم شروح ونصوص يطول سردها [٢]. ويجمعهم وسائر الشيعة الوقيعة في كبار الصحابة. ويتفردون بسَوق الامامة بعد علي زين العابدين الى ابنه محمّد الباقر [٣] فابنه جعفر الصادق وعنده يختلفون في التعدية فنهم من يتوقف ومنهم من يسوق وفرقهم كثيرة.

والاسماعيلية : وهم أشهر الشيعة بما تشعب عن فرقتهم من النحل المتعدّدة التي كان لها في تاريخ الدولة العربية شأن عظيم كالقرامطة والفاطميّين والدروز وأشياع الحسن بن الصبّاح المعروفين بالحشاشين [٤] والاسماعيلية يقولون بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه وينكرون انه مات في حياة ابيه ويدعون انه اظهر الموت تقية لئلا يُقتل ويسوقون الخلافة بعده الى ابنه محمد وهو السابع التام. وعنده يقف دور الأئمة الظاهرين ويبتدئ دور الأئمة المستورين قالوا لن تخلوا الأرض ابداً من امام حيّ قاهر اما ظاهر مكشوف واما باطن مستور ...

ولا يخفى ما في مذهب الاسماعيلية القائلين بالامام الباطن والدعاة الظاهرين من سهولة التمويه [٥] والتضليل وانفساح ميدان المخرقة والشعوذة [٦] لكلّ طمّاع جسور يدّعي انه من دعاة امام وهمي ليس له وجودٌ الا في دماغ من لا دماغ له. فيتملك رقاب العامّة ويسوق الغوغاء [٧] سوق الاغنام الى حيث شاء وشاء هواه... ولابدع ان كان منهم ما كان.

الشيعة الغالية : هم الذين يتعدّون طور المعقول ويدعون حلول

---

١ التصريح ذكر الشيء بفصيح العبارة وظاهر الكلام وضده التعريض وهو الاشارة اليه من طرف خفي ٢ صدّها ٣ قيل له الباقر لأنه تبقّر في العلوم اي توسع ٤ سمّوا حشاشين لكثرة تعاطيهم الحشيشة وهي ضرب من النبات مسكر ٥ التزوير والتلبيس ٦ ايهام الناظر وجود مالا وجود له ٧ السوقة واخلاط الناس

الالهية في أئمتهم وتفضي بهم دعواهم هذه الى مزاعم يتبرّأ منها العقل والحسّ معاً. منهم :

السبئيّة : اصحاب عبد الله بن سبا وهو رجل فارسي الاصل كان يهوديا يقول بالهيّة يشوع بن نون فلما اسلم نقلها الى عليّ بن ابي طالب. وما قُتل عليٌ حتى ادعى انه لم يقتل هو وانمّا قَتَل ابن ملجم شيطانا تصوّر بصورته. وزعم أنه في السحاب والرعد صوته والبرق سوطه وسينزل الى الارض فيملأها عدلاً كما مُلئت جوراً وعنه أخذ الشيعة القول بالرجعة متوسطهم وغاليهم. والسبئيّة اذا سمعوا الرعد قالوا: « السلام عليك يأمير المؤمنين » واقتفى [1] آثار عبد الله بن سبا كثيرون من غلاة الشيعة بل فاقوه في الرعونة [2] والرقاعة فجاؤا بغرائب منكرة هي آيات الوقاحة والحماقة والنهاية في الخبط والخلط. وما بحران [3] المحموم وهذيان [4] النائم سوى الحكم السديدة في جنب سفاسفهم ومخارقهم.

ولا بدْع فان حرية الفكر من اشدّ المزالق خطراً واكثرها استدراجا لاشياعها الى الزيغ عن محجّة الصواب والأخذ في ترّهات الضلال ولهذا السبب قد كثرت في ذلك العهد المقالات الزائفة وتهوّر بعضهم الى حدّ التمسك بآراء فائلة ومخارق مستغربة يقف الانسان عند اطلاعه عليها حائراً متّهما بصره وبصيرته، ويسأل نفسه عما اذا كانت تلك المقالات كلام قوم جمعتهم اندية العلم والأدب. فمن اولئك المعتوهين:

الغرابية : وهم يقولون ان محمّدا وعليا أشبه من الغراب بالغراب. فبُعِث جبريل الى علي فغلط وجاء محمّدا. ويقول بعضهم انه تعمّد الغلط

---

١ تتبع ٢ الحمق ٣ ما يتفوّه به المريض من الكلام المضطرب عند اشتداد نوبة المرض عليه وغيبه عن الحسّ ٤ تخليطه في الكلام

فيلعنون صاحب الريش يعنون به جبريل ...

والذمية : وهم الذين يذمون محمّداً زاعمين انه أرسل ليدعو لعليّ فدعا لنفسه. وبعضهم يقول ان محمّداً وعليا إلهان . . . ولهم غير ذلك شيء كثير من أمثال هذه المخازي.

والحُلولية : هم القائلون بالحلول فادّعوا ان الله تعالى في كل موجود وكل موجود هو الله .

والتناسخيّة : وهم الذين اعتقدوا التناسخ وانكروا القيامة فزعموا أن انفس البشر بعد خروجها من أجسامها تتقمّص[1] أجساماً أخر من الاجسام الحيّة تبعاً لاستحقاقهـا فالمؤمن التقيّ تنتقل نفسه الى اجسام الملائكة أو الحيوانات الشريفة، ونفس الفاسق الخليع تنتقل الى أجسام الشياطين أو الحيوانات الخبيثة الحقيرة المستقذرة على حسب اعمالها .

والشيعة كاسمهم أنموذج التشيّع والتعصّب لرجل الى حدّ الغلوّ والهَوَس[2] وكلّما تخطّى الانسان حدود الاعتدال خرج لا محالة عن دائرة العقل وسقط في المقالات السخيفة والاضاليل المخزية ـ والكمال واسطة بين الافراط والتفريط .

ومما تقدّم ترى ان عليّ بن ابي طالب هدف لأشياع بدعتين نقيضتين الخوارج والشيعة. فالأوّلون مبغضون له قالون[3] والآخرون محبّون غالون .

---

١ تلبس ٢ طرف من الجنون وخفّة العقل ٣ قلاهُ يقليه قِلىً كرهه غاية الكراهة

علم الكلام

تلك هي البِدَع الرئيسيّة التي ماكادت تنبثق[١] سيولها حتى زحزت بها الأودية وطمت[٢] لججها على الامّة باسرها فأوجس أرباب القوم خيفة من تفاقم الشرّ وتعاظم البلاء واشفقوا ان هم وهنوا عن صدّها وردّها ناكصة[٣] على الاعقاب طغت وبغت وغرّقت ودمّرت وانقاد الشعب كبيرهُ وصغيره الى تيارها[٤] الجارف. فهبّ كل من له شأن في حسم الداء للمناهضة[٥] والمناوأة[٦].

اما الخوارج والشيعة فلما كان لهم غايات سياسية ترمي الى قلب الدولة القابضة على صولجان الملك تصدّى[٧] لهم اصحابها وبذلوا الرجال والمال في تشتيت شملهم وسدّ افواههم. فكفى ارباب الخلافة رجال الدين مؤونة المجاولة والمصاولة[٨] مع هاتين الفرقتين.

ولما لم يكن في نظر الفقهاء من المرجئة كبير خطر على السنّة لم يعبأوا بهم كثيراً.

ولم يكن المعتزلة ممن يستهان بأمرهم فان مذهبهم كان مذهب العقل والفلسفة وانضمّ الى لوائهم جمّ غفير من جلّة العلماء والرؤساء فزادوهم رفعة وهيبة في عيون العامة والخاصّة واستفحل امرهم في الملّة وبلغوا

---

١ تنفجر ٢ علت ٣ راجعة ٤ الموج القويّ ٥ المقاومة ٦ المعاداة ٧ تعرّض
٨ المطاردة والمقاتلة

ذروة[1] المجد والعظمة في ايام الأمين والمأمون والمعتصم والواثق وأصبح علماء السُنة في أحرج المواقف لدنهم لا يحيرون[2] جواباً الا الحمهم[3] المعتزلة بفلسفتهم .

وزاد موقف السنّة حرجاً توهّم علمائها ان في تعاطي الفلسفة مروقاً[4] من الدين لِما رأوا من أن بلاياهم ومحنهم تسبّب لهم بها قوم انتحلوا مذاهب الفلاسفة . وفاتهم ان خير سلاح يعين على نكاية العدوّ هو السلاح الذي يعتزّ به هو نفسه .

ولم يزل المعتزلة اصحاب الحول والطول[5] حتى قام المتوكل فقضى على نفوذهم الماديّ بارتداده الى السنّة لغايات سياسة وبذل بطشه وصولة[6] في عضد الفقهاء . ثم جاءتهم الضربة القاضية على هيبتهم الأدبيّة في عقول الناس من عند انفسهم بعدول ابي الحسن الاشعريّ عن مذهب الاعتزال الى السنّة واستعانته بفلسفتهم نفسها لدحض ارائهم ونقض مزاعمهم وانتشرت الطريقة الاشعرية في الاسلام وعرف الفقهاء لصاحبها الفضل وأقرّوا له بالرئاسة واعظموا شأنه وراعوا اقواله في مذاهبهم .

والاشعريّ هو واضع علم الكلام ويُحَدّ عندهم انه علم يتضمّن الحِجاج على العقائد الايمانية بالأدلّة العقلية والردّ على المبتدعة المنحرفين عن مذاهب السلف . ورأس المسائل التي يبحث فيها به هو التوحيد خاصّة على ما يراه اهل السنّة وألحق بالتوحيد الكلام على الجنّة والنار والثواب والعقاب وما الى ذلك . والفرق بين علم الكلام وعلم الفقه هو ان الكلام موضوعه القسم الأول من الدين اي المعرفة . والفقه موضوعه

---

١ قمّة ٢ يردّون ٣ اسكتهم ٤ خروجاً ٥ القوة والقدرة ٦ سطوته

القسم الثاني اي الطاعة . فعلم الكلام يبحث في الأصول كالتوحيد والصفات والسمع[1] والوعد والوعيد وما أشبه ذلك من العقائد الايمانية التي تعود معرفتها الى العقل ويتوصّل اليها بالنظر والاستدلال فمن تعاطى هذا القسم دُعِي أصُوليًّا او متكلماً . واما الفقه فيبحث في الفروع كالصلاة والصوم والزكاة وما الى ذلك من الاعمال البدنية التي تعود معرفتها الى الظن ويتوصّل اليها بالقياس والاجتهاد . ومتعاطي هذا القسم يدعى فرُوعيًّا او فقيهاً .

---

١ المراد بالسمع اصطلاحاً الوحي

أَبُو حَنِيفَة (٧٦٧م ١٥٠هـ)

هو ابو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي الفارسيّ الاصل. كان في اول أمرهِ خزّازاً[١] ثم اقبل على علوم الدين وقرأها على أئمّة عصرهِ وتعاطاها زماناً طويلاً ورُزق فيها حظاً وافراً فنبغ[٢] وفاق اهل زمانهِ بتضلّعهِ[٣] من الفقه خاصّة حتى صار فيهِ الامام الاعظم الذي لا ينازع في امامتهِ منازع ولا يطمع في مجاراتهِ طامع. وكان مع وفرة علمهِ وسعة تبحّرهِ[٤] في الاصول والفروع كثير الخشوع طويل الصمت قليل الدعوى فاذا سئل عن الفقه تفتّح وسال كالوادي وسُمع له دويّ وجهارة[٥] في الكلام. واشتهر بالزهد والورع والتقوي اشتهارهُ بالعلم. وازدحم الناس ببابهِ يأخذون عنهُ ويستفيدون منهُ وكان لطيف المجالسة حسن المنطق حلو النغمة شديد التفكير سريع المؤاساة[٦] لاخوانهِ ولم يثّأر[٧] من اعدائهِ الا بالحلم[٨] والصمت حتى لم يُسمع قطّ يغتاب[٩] عدوًّا لهُ. وهذه مأثرة[١٠] تحلّهُ محلاًّ سامياً في عيون البشر أجمعين لم يكن ليرقى اليهِ بعلمهِ مهما زاد وأعجز العباد.

وامر به ابو جعفرٍ المنصور فنُقل الى بغداد وأرادهُ على ولاية القضاء فأبى فأصرّ الخليفة على رأيهِ وطال الحجاج بينهما فقال ابو حنيفة للمنصور «اتّق الله ولا ترعَ في امانتك الا من يخاف الله. والله ما انا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب. ولو اتّجه الحكم عليك ثم تهددني ان تغرّقني

---

١ يبيع الخز وهو مانُسِج من الصوف والحرير ٢ عظم ٣ تقوّي ٤ تعمّقهِ ٥ ارتفاع ٦ الاسعاف ٧ اثأر اخذ ثأره ٨ الصفح ٩ اغتابهُ ذمّهُ غائباً ١٠ مكرمة

في الفرات أو تلي الحكم لاخترت ان أغرق» ولم يكن المنصور ممن ينزل عن رأيه فأنكر حريّة الفكر على ابي حنيفة واستقلال الرأي شأن الملوك المستبدّين وزجّه في السجن ولم يظفر منه بطائل وكان قدعانى الشدائد ايضاً من قبل في تمنّعه عن ولاية القضاء بالكوفة فضربه ابن هبيرة عامل مروان بن محمّد[١] مائة سوط وعشرة اسواط ولمّا رأى ان الرجل أعلى من ان تذلّه محنة ارعوى[٢] عن ظلمه وخلّى سبيله. وقيل انّ المنصور حبسه لتشيّعه وتحامله على العبّاسيّين وأن تمنّعه عن ولاية القضاء حكاية موضوعة والله أعلم.

ومناقب الامام ابي حنيفة وفضائله كثيرة ولم تكن البلايا التي ألحقها به عظماء الدهر الا لتزيده رفعة وشهرة وتحشد[٣] له اتباعاً وانصاراً. ولم يكن يؤخذ عليه سوى قلة معرفة بالعربية فانه كان كثير اللحن[٤] ويرتضخ لُكْنَةً[٥] أعجميّة تنمّ عن أصله.

وتتلمذ له كثيرون من علماء عصره كأبي يوسف يعقوب بن ابراهيم الكوفيّ صاحب كتاب الخراج وابي عبد الله محمّد الحسن الشيباني الواسطي وهو الذي مات بالري والكسائيّ معاً وقال عنهما الرشيد «دفنت الفقه والعربيّة بالريّ» وغيرهما ممن يطول سرد اسمائهم:

وينسب الى ابي حنيفة «كتاب الفقه الاكبر» في الكلام[٦] و«القصيدة النعمانية» في مدح النبيّ وله «وصيّة» في عقائد الاسلام.

---

١ هو آخر ملوك بني أميّة ٢ رجع ٣ يجمع ٤ الخطأ في الاعراب ٥ اللكنة هي عسر في اداء الالفاظ والتركيب العربيّة وارتضخ لكنةً أعجميّة اي مال بكلامهِ الى لفظ الاعاجم ٦ كان الفقه لم يزل عاماً يشتمل القسمين

مالِك (٧٩٥م ١٧٩هـ)

هو ابو عبد الله مالك بن أنَس الأَصبحي. وُلد بالمدينة وأخذ الحديث عن الزهريّ وغيرهِ من علماء عصرهِ وبرع في علوم الدين وكان إمام اهل المدينة والآخذين بمذهبهم من التمسك بالسنّة النبويّة وتقليد السلف يصدرون عن رأيهِ ويعوّلون عليهِ في الفتوى. وكان علويّ النزعة وأفتى بصحة دعوة محمد بن عبد الله من آل عليّ وخَلْع بيعة ابي جعفر المنصور واستفحل امر محمّد هذا ولم يظهر عليهِ الا بعد عناء وتعب شديد. واتصل خبر فتوى مالك بجعفر بن سليمان عم الخليفة وكان اميراً على المدينة فغضب وأمر بالامام فجُرّد وضُرب بالسياط ومُدّت يدهُ حتى انخلعت كتفهُ. وازداد بعد ذلك الضرب علوًّا ورفعة واعزازاً في قلوب الناس. غير أنهُ عاد فحظي عند العبّاسيّين وكان الرشيد اذا قدم المدينة يحضر مجلسهُ اجلالاً لهُ.

وكان للحديث عند مالك حرمة ومزيّة عالية فاذا اراد ان يحدّث توضّأ وجلس على صدر فراشهِ وسرّح لحيتهُ وتمكن في جلوسهِ بهيبةٍ ووقار. وهو أول من وضع مصنّفاً في الحديث وضع كتابهُ «الموطّأ» بإيعازٍ من ابي جعفرٍ المنصور نفسهِ ويحكى انهُ لما اقترحهُ عليهِ قال لهُ «لم يبقَ على وجه الارض أعلم مني ومنك واني قد شغلتني الخلافة فضع للناس كتاباً ينتفعون بهِ وتجنّب فيهِ رخص ابن عباس [١] وشدّة ابن عمرو [٢] ووطّئهُ [٣] للناس توطئةً» فصنّف كتابهُ وسمّاهُ «الموطّأ» على حسب

---

١ ابن عمّ محمد ٢ احد الصحابة ٣ سهّلهُ ومهّده

اشارة الخليفة وكان يقول « والله لقد علّمني التصنيف »

وَاصِل بْنُ عَطاء (٧٩٧م ١٨١هـ)

هو ابو حُذيفة واصل بن عطاء زعيم المعتزلة ومقدمهم. كان متكلّماً وعالماً بعيد الغور [١] راسخ القدم [٢] في العقليات وتلمذ للحسن البصريّ في جملةٍ من الاصحاب ويُظنّ انّ مقالات الاعتزال تنتمي [٣] الى الحسن غير ان الأُستاذ لم يلقّنها لمريديهِ نضيجة جليّة كما قال بها المعتزلة فيما بعد ولعلّ الحسن البصري لم يفطن لما عسى ان يكون لمقدّماتهِ ومبادئهِ الحرّة من التوالي [٤] والنواميس [٥] المجحفة [٦] بالاسلام وعقائدهِ. ويروى ان رجلاً دخل على الحسن وهو في حلقتهِ وقال لهُ « ياامام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون اصحاب الكبائر وجماعة يرجئونهم فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً » فتفكّر الحسن وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء « انا لا أقول ان صاحب الكبيرة مؤمن مطلق بل هو في منزلةٍ بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر» ثم قام واعتزل الى اسطوانةٍ [٧] من اسطوانات المسجد يقرّر [٨] ما اجاب بهِ على جماعةٍ من اصحاب الحسن. فقال الحسن « اعتزل عنا واصل » فسُمّي هو واصحابهُ « معتزلة »

وكان واصل يلثغ بالراء فيجعلها غيناً ويتجنّبها في كلامهِ مع اشتهارهِ بإطالة الخُطَب ولبعضهم فيهِ من شعر :

---

١ واسع المعرفة متعمقها ٢ ثابت القدم ٣ تنسب ٤ النتائج ٥ الشرائع ٦ المضرّة ٧ عمود ٨ يثبت

ويجعل البُرَّ قمحاً في تصرُّفهِ وخالف الواء حتى احتال للشَعَرِ
ولم يطلق مطراً والقول يعجله فعاد بالغيث اشفاقاً من المطرِ

وضُرب بهِ المثل في اللثغة وذكرهُ الشعراء في شعرهم فَمِنْ ذلك قول بعضهم :

نعَمْ تجنَّبَ لا يوم العطاء كما تجنَّب ابن عطاءٍ لفظة الراءِ

وقال آخر :

أجَعلتَ وصلي الراء لم تنطق بهِ وقطعتني حتى كأنك واصلُ

أَلشَّافِعِيّ (٨٢٠م ٢٠٤ﻫ)

هو ابو عبدالله محمّد بن ادريس القُرشيّ المعروف بالشافعي نسبةً الى جدّ جدّهِ. وُلد بغزّة [١] وحُمل الى مكّة وهو ابن سنتين فنشأ بها وقرأ القرآن وحفظ الموطّأ وقصد مالك بن انس وتلاهُ عليهِ حفظاً فدهش الامام من وفرة [٢] ذكائهِ وسعة مداركهِ [٣] وقال « ان يكُ أحدٌ يفلح فهذا الغلام » ولم يزل يزداد علماً وحنكة [٤] في الفقه حتى أصبح نادرة الزمان ومعجزة الايام وقد أُهّل للفتوى وهو ابن خمس عشرة سنة. وكان الشافعيّ كثير المناقب [٥] جمّ المفاخر [٦] منقطع القرين في علوم القرآن والسنّة

---

١ مدينة من اعمال فلسطين على البحر من ناحية مصر تُوُفّي فيها هاشم بن عبد مناف جدّ محمّد نبيّ المسلمين فقيل لها غزة هاشم ٢ كثرة ٣ قواهُ العقلية التي يدرك بها ٤ مهارة ودُربة ٥ الخصال الحميدة واحدها منقبة ٦ جمع مفخرة وهي ما يفتخر بهِ

واختلاف اقاويل العلماء وبرع ايضاً في العلوم اللسانيّة وكان من اللغة والشعر وكلام العرب بمكان عظيم حتى ان الاصمعيّ مع جلالة قدره في هذا الشأن قرأ عليه اشعار الهُذليين وكان الشافعي نشأ وترعرع بينهم.

وقدم بغداد فأجلّ القوم وفادته وأقبل ارباب العلم عليه يقرأون عليه ويستنيرون بمشكاته[1] وحدّث هنالك مدة وألّف «الرسالة في الأصول» وهي أوّل مصنّف وضعه ثم جاء مكّة حاجّاً وقصد الامام مالكاً وأخذ عنه وتوجه الى مصر فألقى عصا الترحال بالفسطاط[2] وانقطع الى العبادة والاقراء والتأليف. وله تصانيف عديدة جداً لم يصل الينا منها الا القليل وقد قال تلميذه أحمد بن حنبل «ما احدٌ ممن بيده محبرة او ورق الا وللشافعي في رقبته منّة[3]» ومزايا الشافعيّ عديدة باهرة والعلماء قاطبةً من محدّثين وفقهاء ومتكلّمين ولغويين ونحاة وشعراء مجمعون على ثقته وامانته وعدالته وزهده ونزاهة عرضه وعلوّ قدره وسخائه. وله شعرٌ حسن رائق الديباجة[4] الا انه كان يأنف من قرضه لما رأى من تبذّل[5] الشعراء وتزلّفهم[6] الى عظماء الدهر بالتملّق الشائن والمدح الكاذب وهو القائل :

ولولا الشعر بالعلماء يُزري لكنت اليوم أشعر من لبيدِ

ومن شعره الدالّ على اعتقاده بالقدر المحتوم والقضاء المبرم قوله :

الجدّ[7] يُدني كل امرٍ شاسعٍ والجَدّ يفتح كلّ بابٍ مغلقِ
واذا سمعت بأن مجدوداً[8] حوى عوداً فأثمر في يديه فصدّقِ
واذا سمعت بأن محروماً اتى ماءً ليشربه فغاض فحقّقِ

---

١ المشكاة موضع السراج من الحائط ٢ مصر العتيقة ٣ فضل ٤ حسن المقال ٥ ترك التصاون ٦ تقربهم ٧ الحظّ ٨ محظوظاً

ومِن الدّليلِ على القضاء وكونهِ   بؤس[١] اللبيبُ عيش الاحمقِ

إبنُ حَنْبَل (٨٥٥م ٢٤١ﻫ)

هو ابو عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل الشيباني. وُلد ببغداد وأقبل من صباهُ على العلم ونال فيهِ شهرة وبرع في الحديث وكان يحفظ الف ألف حديث ولهُ في هذا المعنى مؤلّف سمّاهُ «المسند» جمع فيهِ مالم يتفق لغيرهِ[٢]. وهو من اصحاب الشافعيّ واخص تلامذتهِ ولم يزل مصاحبهُ حتى ارتحل الى مصر وقال في حقّهِ «خرجت من بغداد وما خلّفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل» ولحق ابن حنبل اضطهادٌ وبلاءٌ شديد لمّا دُعي الى القول بخلق القرآن فلم يجب وكان ذلك على عهد المعتصم فعومل بأشد القسوة وأصرم العقوبة فضُرب وحُبس وهو مصرٌّ على الامتناع. ولم يذق للراحة والطمأنينة طعماً الى ولاية المتوكل على الله نصير السنّة الشهير.

وتتلمذ لابن حنبل جماعة من الاماثل منهم محمّد بن اسماعيل البخاريّ ومسلم ابن الحجاج النيسابوريّ المحدّثين الشهرين. وكان للامام احمد سمعة[٣] منتشرة في النـاس بالعلم والورع ولمّا تُوفّي مشى في جنازتهِ ثمانيمائة الف رجل وستون الف امرأة وهو اكرامٌ غريب نادر.

---

١ فقر ٢ يقال انهُ جمع فيهِ خمسين الف حديث ٣ صيت

أَلْبُخاري (٨٧٠ م ٢٥٦ هـ)

هو ابو عبد الله بن اسماعيل البخاريّ[١] الاصل وكان جدُّهُ يَزْدِزْبه مجوسيّاً[٢] ومات على دينه. أُولع البخاريّ منذ صباه بالأحاديث النبويّة فطاف ينشد[٣] ضالّتهُ حيثما توهم لها مظِنّة[٤] فرحل الى خراسان والجبال[٥] والعراق والحجاز والشام ومصر وداخل من لقي من المحدّثين وأخذ عنهم. ولمّا آنس من نفسه التضلّع[٦] والاحاطة وضع كتابهُ الجامع « الصحيح » الذي أحلّه محل الامام المتّبَع بين علماء هذا الفنّ وشهد لهُ أماثل عصره بتفرده في علم الرواية. وامتحنهُ قومٌ ببغداد بأن تواطأ[٧] عشرة منهم فأخذ كلٌّ منهم عشرة احاديث وقلبوا متونها[٨] واسانيدها[٩] وخالفوا فيما بينها بحيث لا يُهتدى الى حقيقة صورنها وعرضها عليه في مجلس حافل بوجوه الناس وافراد[١٠] المحدّثين. فزكن[١١] البخاريّ انها مؤامرة[١٢] وأنهم انما قصدوا تخطئتهُ وتعجيزهُ[١٣] فكان كلّما أُلقي عليه واحدٌ من تلك الأحاديث المقلوبة يقول « لا أدري » حتى اذا فرغوا كلّهم أقبل على اولهم وقال لهُ « امّا حديثك الاوّل فهو كذا وحديثك الثاني فهو كذا » وهلم جرًّا الى العاشر وردّ كلّ متن الى اسناده وكل اسناد الى متنه. وما فعلهُ بالأول فعلهُ بالتسعة الآخرين. فأعجب من

---

١ نسبة الى بُخارى وهي مدينة كبيرة مما وراء النهر ويعني العرب بما وراء النهر بلاد تركستان والنهر هذا هو نهر جيحون ٢ المجوس قوم يعبدون النار والكواكب ٣ يطلب ٤ محلّ يُظنّ فيه وجود الشيء ٥ العراق العجمي ٦ القوة ٧ توافقوا ٨ نصوصها ٩ الاسناد سلسلة الرواة الذين يُسند اليهم الحديث ١٠ اعيان ١١ فطن ١٢ مشاورة ١٣ خطّأهُ وعجّزهُ نسبهُ الى الخطإ والعجز

في المجلس جميعاً وأفحم [1] كلّ مكابرٍ [2] ومُمارٍ [3] فضله وتقدُّمه وأقرّ له الناس بالحفظ وصدق الروايات .

ورُوي عنهُ انهُ قال « صنّفت الصحيح لستّ عشرة سنة وخرّجته من ستمائة الف حديث » ويتضمن كتابهُ تسعة آلاف ومائتي حديث منها ثلاثة آلاف مكرّرة . ولم يزل كتابهُ انموذجاً كاملاً لكلّ مؤلّف في هذا المعنى وقد بذل في تمحيص الأحاديث ونقدها ما فوق المستطاع ولا سيّما وان علم الانتقاد لم يكن ليمرّ لهُ طيف [4] في خيال بني ذلك الزمان.

مسْلِم (٨٧٥م ٢٦١ﻫ)

هو ابو الحسين مسلم بن الحجّاج القُشَيريّ [5] أحد الأئمة الحفّاظ واعلام المحدّثين . رحل في طلب الحديث الى الحجاز والعراق والشام ومصر ووضع مسندهُ الصحيح ويُروى عنهُ انهُ قال «صنّفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة الف حديثٍ مسموعة [6] » ولما استوطن البخاريّ نيسابور اكثر مسلم من الاختلاف [7] اليهِ وتوثّقت [8] عرى الاخاء بينهما وكان في نيسابور رجل من اعيان الحفّاظ يدعى محمد بن يحيى الذُّهلي واسع العلم منتشر الشهرة تتوافد الناس الى مجلسهِ يقرأون عليه ويأخذون عنهُ ومن جملتهم البخاريّ . وجرى كلامٌ في مسألة خلق اللفظ في القرآن [9]

---

١ أسكت ٢ معاند ٣ مجادل ٤ ما يمثل للنائم في نومهِ ٥ نسبة الى قشير وهي قبيلة كبيرة ٦ دوّن منها في تصنيفهِ نحو ثلاثة آلاف ٧ التردّد ٨ تقوّت ٩ اي انهما تباحثا فيما اذا كان لفظ القرآن نفسهُ منزل ام لا

بين محمّد بن يحي والبخاريّ ادّى الى خلافٍ وأسفر[١] عن وحشةٍ وقعت بين الرجلين. واتّسع الخرق بين الأستاذين حتى نهى محمد بن يحي مريديهِ عن مجالسة البخاريّ ولم يكن مسلم ليعير أُذناً مصغيةً الى تحريمٍ كهذا فأُنهي الى محمّد ان مسلماً لا يزال على ولاء خصمهِ ومذهبهِ قديماً وحديثاً لا يرجع لمعاتبة. فأحفظ[٢] الامر محمّداً ولمّا كان يوم المجلس شعّث[٣] من البخاريّ وختم كلامهُ بقولهِ «الا من قال باللفظ فلا يحلّ ان يحضر مجلسنا» فهبّ مسلمٌ واخذ الرداء فوق عمامتهِ وقام على رؤوس الناس وخرج من مجلسهِ وجمع كلّ ما كتب منهُ وبعث بهِ اليهِ وقاطعهُ. وفي هذه الجرأة الشريفة من الاريحيّة[٤] والشمَم[٥] والوفاء ما فيها.

أَبُو بَكْرٍ ٱلظَّاهِرِيّ (٩١٠م ٢٩٨هـ)

هو ابو بكر محمد بن داود الأصبهاني المعروف بالظاهريّ. كان ابوهُ داود عالماً ورعاً زاهداً في الدنيا متقلّلاً منها راغباً عن صلات موسريها[٦] وهو صاحب المذهب الظاهريّ وعنهُ أخذ ابنهُ مذهبهُ وعلى غرارهِ[٧] طبع في العلم والفضل ورقي درجة عالية في الفقه والأدب ولهُ شعرٌ ظريف رائق. ولمّا توفّي ابوهُ تصدّر[٨] في حلقته للتفقيه[٩] على مذهبهِ فاستصغرهُ القوم واستجهلوهُ واحبّوا امتحانهُ وألعبث بهِ[١٠] فدسّوا اليهِ رجلاً

---

١ كشف ٢ اغاظ ٣ غضّ ٤ كرم الاخلاق ٥ عزة النفس ٦ ايسر الرجل اغتنى فهو موسر ٧ المثال الذي تُضرب عليه النصال ٨ جلس في صدر المجلس ٩ للتعليم ١٠ الاستخفاف

وقالوا له « سله عن حدّ السكر » فأتاه الرجل وسأله عن السكر ما هو ومتى يكون الانسان سكران. فقال « اذا عزبت[1] عنه الهموم وباح[2] بسرّه المكتوم » فاستُحسن ذلك وعُلم موضعه من العلم. وصنف في عنفوان شبابه كتاباً سمّاه « الزَّهْرة » وهو مجموع ادب اتى فيه بكلّ غريبة ونادرة وشعر مستملح. وممّا يُنسب اليه قوله :

لكلّ امرئٍ ضيفٌ يُسرُّ بقربهِ ومالي سوى الاحزان والهمّ من ضيفِ
يقول خليلي كيف صبرك بعدنا فقلتُ وهل صبرٌ فأُسألَ عن كيفِ

وكانت بينه وبين ابي العباس سُرَيج الشافعيّ مباراة[3] ومناظرة ولما توفّي ابو بكر وبلغت وفاتهُ ابن سريج ألقى من يده كرّاسة كان يكتب فيها وقال « مات من كنت أحث نفسي وأجهدها على الاشتغال لمناظرته ومقاومته » وهذه شهادةٌ من خصم تعرف مقدارها اذا علمت أنّ ابن سريج كان في زمانه الامام المتّبَع ذا الكلمة العالية في أندية[4] الفقهاء يقرّون له بالفضل والرئاسة ويقال انّ فهرست كتبه كان يشتمل على اربعمائة مصنّف .

ألْأَشْعَرِيّ (٩٤١م ٣٣٠هـ)

هو ابو الحسن عليّ بن اسماعيل الاشعريّ واضع علم الكلام ومحيي معالم[5] السنّة في الاسلام. وُلد بالبصره ونشأ متوقّد الذهن ذكيّ الفؤاد وانتحل[6] مذهب المعتزلة منذ صباه وتلقى الأُصول على شيخ الاعتزال وزعيم

---

[1] بعدت [2] باحَ بسره افشاهُ [3] مسابقة [4] جمع نادٍ وهو المكان يجتمع فيه القوم
[5] جمع معلم وهو ما يُستدلّ به على الطريق [6] اتخذهُ نِحلة ومذهباً

أئمته ابي عليّ الجُبّائي ولم يزل على معتقدهم والأخذ بمقالاتهم الى الأربعين من عمره ثم عاد الى مذهب السنّة وتفانى في تأييد مبادئه وإفحام[1] القادحين[2] فيه والمعترضين عليه من انصار الاعتزال اخوانه بالأمس حتى يقال انهُ وضع في هـذا الغرض نحو المائة تصنيفاً يجاهد[3] فيها ويناضل[4] وقد قيل في حقّه «كان المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى اظهر الله الاشعريّ فحجزهم[5] في أقماع السمسم»

وكان السبب في ارتداد الاشعري عن الاعتزال مناظرة جرت بينهُ وبين أستاذه ابي علي الجُبّائي خلاصتها فيما يروون ان الاشعريَّ سأل أستاذهُ بقوله «أخبرني عن حال ثلاثة اخوة احدهم كان مؤمناً برًّا تقيّاً والثاني كان كافراً فاسقاً شقيّاً والثالث كان صغيراً فماتوا جميعاً فكيف حالهم» — فقال الجُبّائي «امّا الزاهد ففي الدرجات[6] وامّا الكافر ففي الدركات[7] وامّا الصغير فمن اهل السلامة» — فقال الاشعريّ «ان اراد الصغير ان يذهب الى درجات الزاهد فهل يؤذن لهُ» — فقال الجُبّائيّ «لا. لأنهُ يقال لهُ ان اخاك انما وصل الى هذه الدرجات بسبب طاعاته الكثيرة وليس لك تلك الطاعات» — فقال الاشعريّ «فان قال ذلك الصغير: التقصير ليس منّي فانك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة» — فقال الجُبّائيّ «يقول الباري جلّ وعلا: كنت اعلم انك لو بقيتَ لعصيتَ وصرتَ مستحقاً للعذاب الاليم فراعيت مصلحتك» — فقال الاشعريّ «فلو قال الاخ الكافر: ياإله العالمين كما علمتَ حالهُ فقد علمتَ حالي فلِمَ راعيت مصلحتهُ دوني» — فقال الجُبّائي للاشعريّ

---

١ إسكات ٢ الطاعنين ٣ الجهاد المحاربة في سبيل الدين ٤ يقاتل ٥ دفعهم وحشرهم
٦ الدرجة ما اعتُبر فيه الصعود ومن ثم قيل الجنّة درجات ٧ ضدّ الدرجة فالنار دركات

« انك مجنون » — فقال الأشعري « لا. بل وقف حمار الشيخ في العَقَبة [١] » وانقطع الجُبّائيّ. وتصارم [٢] الرجلان من ذلك الحين وتدابرا [٣] وعظمت الوحشة [٤] بينهما.

قلنا امّا كون الانسان حرًّا يُقبل على الخير أو الشرّ باختيار ارادته غيرَ مقهورٍ بتّةً فمن الحقائق التي قامت عليها البراهين القاطعة ويؤيّدها الوجدان [٥] ولا يماري [٦] فيها الا من يُغالط [٧] نفسهُ فيما تناصر العقل والحسّ معاً على تقريرهِ والاقرار بهِ. وايّ معنى للمسؤوليّة لولا الحرّيّة التامّة. وكذلك القول عن سابق علم الله فانهُ امرٌ لا مساغ [٨] فيهِ للريب عند العاقل كائناً من كان اذ لا يمكن ان يتصوّر العقل وجود الله سبحانهُ وتعالى دون سابق علمه بالحوادث قبل وقوعها. هاتان حقيقتان راهنتان [٩] لاتقلّ احداهما بياناً عن الأُخرى. وامّا التوفيق بينهما فمّا يفوق مداركنا ويعجز عنهُ عقلنا البشريّ القاصر. غير انهُ لا ينتج من عجزنا عن التوفيق بين قضيتين كلتاهما حقٌّ أنهُ ينبغي إحلال احداهما محلّ الريب او اعتبارها باطلة.

وقد قال العلّامة بوسويه [١٠] في هذا المعنى ما محصّلهُ « اذا اخذنا في النظرِ والاستدلال فأوّل ما ينبغي تقريرهُ وجعلهُ فوق كلّ ريب هو أننا قادرون على معرفة أشياء كثيرة معرفة أكيدة دون ان نستطيع مع ذلك الاحاطة بعلاقاتها وتناتجها على التمام. ومن ثم كان رأس الاقيسة المنطقيّة عندنا أنهُ لا ينبغي ابداً ترك الحقائق بعد الوصول الى معرفتها مهما صعب

١ ماصعُب ارتقاؤهُ من الجبل ٢ تقاطع ٣ تعاديا ٤ تنافر ٥ الشعور ٦ يتجادل ٧ يموّه ويخادع ٨ مجاز ٩ ثابتتان ١٠ هو جاك بنين بوسويه أسقف مدينة مو مِن اعمال فرنسا كان امام عصرهِ في العلوم الالهيّة وامير الخطابة الدينيّة بقوة برهانهِ وذكاء جنانه وذلاقة لسانهِ تُوفّي سنة ١٧٠٤ مسيحية

علينا التوفيق فيما بينهما . بل أحرٍ[1] بنا ان نفعل عكس ذلك اي ان نشدّ ايدينا متمسّكين بطرفَيْ هذه السلسلة ولو جهلنا الكفيّة وفاتنا ادراك ما هنالك من الحلقات الوسطى المتماسكة الجامعة بين كلا الطرفين ».

أَلقَاضي ٱلْبَاقِلانِيّ (١٠١٣م ٤٠٤هـ)

هو ابو بكر محمّد بن الطيّب البصريّ المعروف بالباقلاني[2]. كان فريد زمانهِ في علم الكلام أشعريّ العقيدة وانتهت اليهِ الرئاسة في مذهبهِ ولهُ التصانيف الكثيرة الجليلة في تأييد الطريقة الاشعريّة ونصرتها وهو الذي هذّبها وضبطها وأوضح احكامها وبيّن قواعدها وقرّب متناولَها للمريدين . واشتهر بجودة الاستنباط وسرعة الجواب الا انهُ كان يؤخذ عليه كثرة التطويل في المناظرة وجرت بينهُ وبين ابي سعيد الهاروني مناظرة أكثر فيها من الكلام ووسّع العبارة وزاد في الاسهاب ثمّ التفت الى الحاضرين وقال « اشهدوا على انهُ ان أعاد ما قلتُ لا غير لم أُطالبهُ بالجواب » فقال الهارونيّ « اشهدوا على أنهُ ان أعاد كلام نفسهِ سلّمت لهُ ما قال » .

---

١ ما أحرانا اي الاوفق ٢ الباقلاني نسبة شاذّة الى الباقلاء وهو الفول

ألماوَرْدِيّ (١٠٥٨م ٤٥٠هـ)

هو ابو الحسن عليّ بن محمّد البصريّ المعروف بالماورديّ[١]. كان من وجوه[٢] فقهاء زمانهِ وافراد[٣] علماء عصرهِ واسع التبحّر في العلوم على تنوّعها متضلّعاً من الآداب ولهُ التصانيف الغرّاء الشاهدة ببُعد غورهِ[٤] وتبسّطهِ في الاصول والفروع واستبطانهِ[٥] دخائل كلّ فنّ خاض عبابهُ[٦]. منها «الحاوي الكبير» في الفقه على مذهب الشافعيّ وهو مؤلّف يقع في عشرة مجلّدات منها «الاحكام السلطانيّة» أُطلق فيهِ العنان لروح الفلسفة فبحث ونظر وعلّل ووجّه وقاس واستنتج وعيّن بمقالات شهدت لهُ بغزارة المادّة والايغال[٧] في عالم العقليّات الى الغاية القصوى انموذج الكمال الذي تمثّل لهُ للهيئة الاجتماعيّة من الخليفة الى الوزير الى العمال الى الشعب عامّة. غير أن الأسف كلّ الأسف هو أنّ ما فتق لأبي الحسن ثاقب فكرهِ وصادق حدسهِ أقرب الى النظريّات والخياليّات منهُ الى العمليّات والواقعيّات[٨]. ولهُ في هذا المعنى او ما يقاربهُ «قانون الوزارة» و«سياسة الملك» ومن تآليفهِ المتداولة «ادب الدنيا والدين» جمع فيهِ ما شاءَ علمهُ وسعة خبرتهِ من الآراء السديدة والحِكَم الرائعة والبلاغات المأثورة[٩] الراجعة الى آداب المرء في دينهِ ودنياهُ ممّا جعلهُ مورداً سائغاً[١٠] للمتأدّب المجتهد يصدر عنهُ

---

١ نسبة الى الماورد أو ماء الورد ٢ أكابر ٣ افاضل ٤ كناية عن تعمقهِ في العلم ٥ استبطن الامر وقف على باطنهِ الخفي ٦ معظم الماء ٧ اوغل في البلاد أمعن وبالغ في دخولها ٨ النظريّ ما لازم الفكر فاذا أُجري فعلا فهو عمليّ والواقعي من الامور هو الحادث حقيقةً ويقابلهُ الخياليّ ٩ المنقولة عن السلف ١٠ عذباً

ريّـان القلب والعقل معاً .

وكان الماورديّ موضع ثقة عند أهل زمانه وفُوِّض اليه القضاء ببلدان كثيرة ثم ببغداد واستوطنهـا الى وفاته . ومن مزاياه مع نادر علمه حسن النية وقلة الدعوى شأن أرباب المعرفـة وجهابذة العلم ولم يُظهر في حياته تصنيفاً واحداً من تصانيفه النفيسة على كثرتها وجلالتها بل امر بها فأُودعت وأُجّل [1] ظهورها الى ما بعد وفاته .

أَلْغَزالِيّ (١١١١م ٥٠٥هـ)

هو ابو حامد محمّد بن محمّد الغزّالي الملقّب حجّة الاسلام. أُولع بالعلم من صغره واشتغل في مبدإ أمره بطوس ثم قدم نيسابور واختلف الى دروس امام الحرمين وشمّر عن ساعد الجدّ فتخرّج مدّة قريبة وصار من الاعيان المشار اليهم وكان استاذه يتبجّح به [2] ويُعجب بكمال عقله. ولمّا تُوُفّي الامام قدم الغزّالي على نظام الملك فأكرمه وعظّمه وبالغ في الاقبال عليه وجرت مناظرة بينه وبين جماعة من أفاضل العلماء كان فيها الظهور [3] للغزالي فاشتهر اسمه وسارت بذكره الركبان وفُوِّض اليه التدريس بالنظاميّة البغدادية فانثال عليه [4] طلّاب العلم وارتفعت منزلته عند أهل العراق لما رأوا من تفرّده ورجاحة عقله وزهده وسائر مناقبه. ثم غادر [5] بغداد وتنقل في البلاد فقدم الشام وبيت المقدس والاسكندرية وقصد منها الركوب في البحر الى المغرب على عزم الاجتماع بالامير يوسف

---

١ أُخّر ٢ افتخر ٣ الغلبة ٤ انصبّ ٥ ترك

بن تاشفين صاحب مُرّاكش فبينا هو كذلك بلغه نعي الامير فصرف عزمه عن تلك الناحية ثم عاد الى وطنه بطُوس واشتغل بنفسهِ واجتهد في العبادة وكان يتصوّف وصنف كتباً كثيرة في عدّة فنون لا يسع المقام الا ذكر اشهرها فمنها «البسيط» و «الوسيط» و «الوجيز» في الفقه الشافعيّ ومنها «ايُّها الولد» وهو مقالة في آداب المتعلّم وجّه فيها الخطاب الى غلام وأرشده الى سواء السبيل بغرر[1] الاقوال ودرر الحكَم والامثال ومن تآليفهِ «إحياء علوم الدين» في المواعظ وهو مرتب على أربعة اقسام العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات وقسم كلاً منها الى عشرة كتب وهو كتاب نفيس عند القوم وقد قيل فيهِ «لو ذهبت كتب الاسلام وبقي «الاحياء» لأَغنَى عمّا ذهب» وله «تهافُت الفلاسفة» حمل فيهِ على فلاسفة اليونان واتباعهم حملة شديدة وهو كتاب مبسوط العبارة مشبع الفصول رتّبه على أربع مقدّمات صدّر بها التأليف وأردفها[2] بعشرين مسألة حاول فيها نقض المقالات الفلسفيّة المغايرة لعقائد الاسلام. وله ايضاً في هذا المعنى «مقاصد الفلاسفة» وغير ذلك ممّا يطول ذكره.

ثم اضطُرّ ان يعود الى نيسابور للتدريس بالمدرسة النظاميّة فأجاب بعد تكرار المعاودات وما عتّم[3] ان عاد الى بيتهِ في وطنهِ واتخذ خانقاة[4] للصوفيّة ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جوارهِ وانقطع الى العبادة والافادة الى وفاتهِ.

---

١ محاسن ٢ اتبعها ٣ تأخر ٤ منزل الصوفية

ألشَّهْرَسْتَانِيّ (١١٥٣م ٥٤٨هـ)

هو ابو الفتح محمّد بن عبد الكريم الشهرستانيّ. كان اماماً مبرّزاً[١] ومحدّثاً واعياً[٢] وفقيهاً متكلّماً على مذهب الأشعريّ. وكان كثير المحفوظ حسن المحاورة يعظ الناس ويقبلون عليهِ كثيراً وله مؤلّفات في الفنون التي أتقنها أشهرها «المِلَل والنِحَل» وهو خير كتابٍ أُلّف في هذا الغرض واكثرها استيعاباً[٣] مع حسن تبويبٍ ولم يتعرّض للذبّ[٤] عن مذهب أو القدح فيهِ بل ذكر مقالات كلّ فرقة كما يقول بها اصحابها وهو روح تساهلٍ نادرٍ في عصرهِ. وله ايضاً «نهاية الاقدام في علم الكلام» وغير ذلك.

إِبْنُ ٱلْأَثِير (١٢٠٩م ٦٠٦هـ)

هو مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمّد الشيبانيّ المعروف بابن الاثير الجَزَريّ وهو أخو ضياء الدين بن الأثير المارّ ذكرهُ. وُلد بجزيرة ابن عمر ونشأ بها وتخرّج على علماء زمانهِ فتبسّط[٥] في الفنون التي اشتغل فيها وتضلّع منها. وانتقل الى الموصل واتّصل بخدمة الامير مجاهد الدين قايماز نائب المملكة فكتب له[٦] ثم خدم الامير عزّ الدين مسعود وابنهُ نور الدين من بعدهِ فحظي عندهما وتوفّرت حرمتهُ لديهما وكتب لهما ثم عرض لهُ مرض كفّ يديهِ ورجليهِ فمنعهُ من الكتابة مطلقاً والزمهُ

---

١ برّز الرجل في العلم فاق اصحابهُ ٢ واسع الذاكرة ٣ استوعب الشيء احاط بهِ ٤ للدفاع ٥ توسّع ٦ اي كان كاتب سرّه

دارهُ وناهزته الفُرص [١] في مدّة عطلتهِ الاجباريّة من تصنيف الكتب فتفرّغ لها وكان عندهُ جماعةٌ يعينونهُ عليها في الاختيار والكتابة واكثر الاكابر والعلماء من الاختلاف [٢] الى دارهِ والتفكّه بمطارحتهِ ومساجلتهِ [٣] في العلوم والآداب ومن تآليفهِ «جامع الاصول في احاديث الرسول» وهو كتابٌ نفيس في بابه أحسن في ترتيبهِ وتبويبهِ وتفصيلهِ وقرّب متناولهُ بالفهارس الهجائيّة [٤] بحيث سهّل الخوض في عبابهِ للمتخرّج دون عناء واستنفاد وقت مع استيعاب المؤلّف وتعدّد أبوابهِ وتفرّع اغراضهِ وهذه مزيّة نادرة في مصنّفات تلك الأيام ولو حرص على التزامها عدّة من مؤلّفي أيامنا وناشري [٥] مصنّفات الأقدمين لخدموا لغتهم خدمة جليلة وأدنوا قطوف تلك الحدائق اليانعة الاثمار لعامّة المتأدّبين. وما أشبه كتب الأقدمين عندنا بكنوزٍ مرصودة [٦] لا سبيل الى حلّ طلاسمها [٧] بغير الفهارس الهجائيّة المتنوعة وهيهات ان يكون في عصرنا قومٌ أعقّ بأجدادهم المؤلّفين منّا معشر العرب الغيورين على التقاليد التي ائتمننا عليها اجدادنا الكرام ...

وكان ابن الاثير عالي الهمّة ابيّ النفس وحكى عنهُ أخوهُ عز الدين المؤرّخ الآتي ذكرهُ انهُ لمّا أُقعد تقدّم اليهم رجلٌ مغربيّ ان يعالجهُ ولا يأخذ أجراً الا بعد برئهِ [٨] فقبلوا وشرع الرجل في العمل وأخذهُ بالمسوحات [٩] من دهن كان يركّبهُ فلانت رجلا السقيم وصار يتمكّن من

---

١ مكّنتهُ ٢ التردّد ٣ طارحهُ الكلام ساءلهُ وجاوبهُ فيهِ وساجلهُ جاراهُ في القول ٤ اي مرتّب على حروف الهجاء ٥ نشر الكتاب اظهرهُ ٦ الكنوز المرصودة هي في زعمهم التي جعل عليها اصحابها علامة خفيّة فمن اهتدى الى العلامة حاز الكنز ٧ الطلاسم جمع طِلَسْم وهو خطوط يستعملها الساحر ليدفع بها الأذى ٨ شفائهِ ٩ هي ما يمسح بهِ الجسم من الادوية

مدّهما وأشرف على كمال البرء وانهُ لكذلك اذا دعا اخاهُ وقال لهُ «أعطِ هذا المغربيّ شيئاً يرضيهِ واصرفهُ» فعجب من انقطاعهِ الفجائي عن علاج ظهر نجحهُ فقال لهُ «اراني في راحةٍ من صحبة هؤلاء القوم والالتزام بأخطارهم وقد سكنت روحي الى الانقطاع والدعة. وقد كنت بالامس وانا معافى أذلّ نفسي في السعي اليهم وها أنا اليوم قاعد في منزلي فاذا طرأت[1] لهم امورٌ ضروريّة جاؤوني بأنفسهم لأَخذ رأيي وبين هذا وذاك كثير ولم يكن سبب هذا الا هذا المرض فما أرى زوالهُ ومعالجتهُ ولم يبق من العمر الا القليل فدعني أعيش باقيهُ حرًّا سليماً من الذلّ وقد أخذت منهُ اوفر حظّ» فكأن كبر النفس الذي استفزّ اخاهُ ضياء الدين الى الخُيَلاء[2] والغطرسة والعُجب المقيت[3] استحال في مجد الدين اريحيّةً[4] واستقلالاً[5] وأنَفاً[6] حميداً.

ولابن الأثير مصنّفات أُخر منها «النهاية» في غريب الحديث و «المصطفى والمختار في الادعية والاذكار» وغير ذلك.

أَلبَيْضَاوِيّ (١٢٩٢م ٦٩٢هـ)

هو ناصر الدين ابو سعيد عبد الله بن عمر البيضاويّ. وُلد بالبيضاء وهي قرية على مقربة من شيراز في بلاد فارس وكان ابوهُ قاضياً رفيع الشأن جليل القدر فتفقه عليه وأكبّ على قراءة العلوم العقلية والنقلية فبلغ منها مبلغاً بعيداً ولم يزل مقبلاً على التضلع من كل علم وفنّ حتى

---

١ عرضت ٢ الكبرياء ٣ المُبغض ٤ شرف النفس ٥ الحرّية ٦ رفعة

أصبح نادرة زمانه وإمام عصره في الاصول والفقه والتفسير وسائر الفنون الدينية واللسانية . فترامت سمعته في البلاد وعظمت مهابته في عيون العباد وولي القضاء بشيراز فحسنت آثاره وتُحُدّث بنبله وفضله ونزاهته وازداد رفعة وسؤدداً بمآثره الغراء ومحامد اخلاقه وما عُرف به من الزهد والورع والصلاح وحبّ الخير والتفرغ لقضاء شؤون الخلق والنظر في دعاويهم .

وللبيضاوي مؤلفات عديدة في الاغراض الدينية أشهرها «انوار التنزيل واسرار التأويل» في تفسير القرآن ويعرف بتفسير القاضي وهو مؤلف كبير استعان به واضعه بكشاف الزمخشري وزاد عليه اشياء كثيرة من عنده بحيث كان كتابه هذا من امتع المكتب واكثرها تداولاً عند ارباب هذا الشان. وله «طوالع الانوار» في التوحيد وغير ذلك .

ألمؤرّخون والجغرافيون

مضت على العرب في صحاريهم دهورٌ طوال تقلّبت بهم اطوار الحدثان[1] ولعبت بهم صروف الزمان وكانت لهم شؤونٌ طوتها الايام وجرّت عليها ذيول النسيان ولا يعلمها الا خالق العباد الذي لا يخفى عليه خافية في مكان ولا يعتري علمه سهوٌ ولا نقصان وما وصل الينا من

[1] حدثان الدهر نوائبه

اخبارهم إنْ هو الا شذرات[١] لو جُمعت في سفرٍ لم تتجاوز صفحاتهُ عدد البنان يعثر عليها المنقّب عن آثارهم في تواريخ من سواهم من الأمم بعد العناء الشديد وزيادة الامعان .

ولم يزل هذا شأنهم حتى دخلت الكتابة بلادهم في النصف الاخير من القرن السادس للمسيح فدوّنوا شيئاً من آثارهم وغُلّت يد الضياع عن العبث[٢] به . وما كاد يظهر الاسلام حتى ضمّ شملهم وظهرت طلائع جيوشهم على حدود مملكَتي الفرس والروم . فوقف اربابهم في وجوههم وقفة المستضعف المستخفّ ثم ما عتّموا ان انقلب استخفافهم إعظاماً وإعظامهم هلَعاً وفرَقاً[٣] من أُولئك الابطال الغريبي الازياء والخُطّة . وما كان الا ردح[٤] من الزمن حتى غُلب الفرس على امرهم تماماً وكادت الطامّة نفسها تحيق بالروم لولا قضاء الله عزّ وجلّ فأُسقط في ايديهم[٥] وعجزوا عن حماية مملكتهم الشرقيّة فتقلّص ظلهم عنها وأصبحت طعمة الفاتحين .

وأنشأ العرب مملكتهم على انقاض هاتين المملكتين وأخذوا يجارون اهلها في حلبة التمدّن ونبغ منهم أعلامٌ في كل علم وفنّ . ولمّا كان اوّل ما تتّجه اليهِ خواطر الملوك والشعوب حفظ اخبارهم وتدوين وقائع زمانهم حبّاً بخلود الذكر وطيب الأُحدوثة ومباهاة الامم المجاورة شرع القوم يعانون جمع حوادث تاريخهم الخاصّ واعملوا مطايا[٦] الافكار في البحث عن اخبار اسلافهم في مظانّها[٧] .

فكان المعدن[٨] الأَول الذي اهتدوا اليه واستخرجوا منهُ دفائن تاريخهم

---

١ قِطَع ٢ غلهُ قيّدهُ وعبث بهِ لعب واستخفّ ٣ الهلع الخوف الشديد والجزع الزائد والفرَق الخوف ٤ مدة ٥ اشتدّ ندمهم وخاب املهم ٦ جمع مطية وهي الدابة الركوب اي انهم بذلوا اقصى المجهود ٧ جمع مظنة بكسر الظاء وهي الموضع الذي يظنّ فيهِ وجود الشيء ٨ معدن الذهب ونحوهِ منبتهُ

شعر الجاهليّة . وقد قلنا فيما مضى ان شعراء تلك الايام ضمّنوا قصائدهم فضلاً عن شؤونهم الخاصّة ما وقع لديهم موقع العجب من الحوادث المؤثّرة في اذهانهم وهي كثيرة جداً . فكانت هذه المنظومات احد مصادر التاريخ رجع اليه الكتبة لما شرعوا في تدوين الأخبار وتبويبها ولولاها لفاتنا شيءٌ كثيرٌ من احوال العرب القدماء . وليس كلّ ما ذكر المؤرّخون عن عرب الجاهليّة استنبطوهُ من الشعر بل هناك اخبارٌ كانوا يتناقلونها خلفاً عن سلف ولم يشيروا اليها في شعرهم وقد أخذها عنهم وصانها من الضياع جمهور العلماء الذين عانوا الرحلة الى البادية للوقوف على لغات العرب وأساليب بلاغتهم في كلامهم كالخليل والاصمعيّ وغيرهما ممن مرّ ذكرهم . كما ان الشعر كان مصدراً لغير التاريخ ايضاً فقد عُرف منهُ جبال بلاد العرب وأوديتها ومياهها وحيوانها ونباتها وعُلم منهُ عوائدهم في افراحهم ومآتمهم[١] ومعتقداتهم الى غير ذلك ممّا يُعنى الباحثون بالتنقيب عنهُ ويحتفلون به كثيراً طمعاً في إزاحة القناع[٢] عن ماجريات[٣] تلك العصور المتقادمة وتمثيل معايش اهلها وبعثها حيّة للعبرة والفائدة .

هـذا احد مصادر التاريخ العربي وهنـاك مصدرٌ آخر غزير المادّة متشعّب الطرق وهو مـا اجتمع لدى الساعين وراء الاحاديث النبويّة والباحثين عن صحيحها وفاسدها من تراجم افراد الرجال واخبارهم كما المعنا اليه في كلامنا على « الفقهاء والمحدّثين » . وقد قسموا اولئك الرواة الى فئاتٍ سمّوهـا « طبقات » كلّ طبقة تُعرف بالفنّ الذي يتعاطاهُ اصحابهـا كطبقات الفقهاء وطبقات الشعراء وطبقات النحـاة وطبقات الاطبّاء وهلمّ جرًّا . ومن المؤرّخين من ألّفوا في طبقةٍ دون

---

١ جمع مأتم وهو مجتمع قوم للمناحة ٢ ستار تغطي به المرأة وجهها ٣ حوادث

غيرها لتوفر مادّة التراجم عند العرب .

ومن مصادر التاريخ العربيّ في صدر الاسلام ما احتاج الى جمعهِ العمّال من أخبار فتوح البلدان وتفاصيل وقائعها ليتهيّأ لهم تعديل الجزية والخراج[1] لكلّ بلد والمال المضروب على السكّان يختلف مقداره باختلاف ظروف الفتح . فانّ من البلاد ما فُتح عنوةً ومنها ما فُتح صلحاً واماناً ونجم[2] عن ذلك عهودٌ متنوّعة البنود مختلفة الشروط . وكل ذلك بمكانٍ من الأهمّيّة ولا بدّ من اعتبارهِ والاحاطة بهِ لاجراء العدل في توظيف[3] الضرائب على البلاد. فشرع القوم في جمع هذه الاخبار وتفصيلها وقد وضعوا عدّة تآليف في هذا الشان وهم يسمّونها « مغازي » .

هذه مصادر التاريخ العربيّة ولما خالط العرب الاعاجم ووقفوا على كتبهم اقتبسوا منها شيئاً كثيراً في التاريخ العامّ وألّفوا فيهِ .

وليس لعربِ مُضَر آثارٌ تاريخيّة ماديّة لمكانهم من البداوة والأُمّيّة وهاتان الخلّتان منافيتان تمام المنافاة لما تقتضيهِ طبيعة العمران من القرار والتفرّغ لأنواع الصنائع والتعاون على اقامة المباني وتشييد المصانع[4] وما أشبه ذلك من المرافق[5] التي تستلزم اتخاذها حاجات المدنيّة المتعدّدة ويدعو اليها التبسّط في اطراف الحضارة . وقد علمت ان الكتابة لم يدخل عندهم الا في القرن الأول قبل الهجرة ولم تكن عامّةً فيهم وقد اختصّت بها قريش لانهم كانوا حضراً وأقرب الى اسباب المدنيّة من اخوانهم . ولم يزل العرب قبل الاسلام متقاطعين فيما بينهم متحيّزين[6] في قفارهم الشاسعة راغبين عن ملاذّ الدنيا في استقلالهم فلم تكن لهم جامعة تجمعهم

---

١ الجزية ما يؤخذ من اهل الذمة على انفسهم والخراج ما يؤخذ على الارض ٢ نتج
٣ تعيين ٤ القرى والمباني من القصور والحصون ٥ المنافع ٦ منفردين في مكان دون آخر

مملكة واحدة فيتحاكون بغيرهم من الأمم اصحاب الممالك الضخمة والحضارة الواسعة فيدعوهم ذلك الى المنافسة والمباهاة ويحبّب اليهم تخليد مآثرهم وتدوينها على الحجر والآجرّ وغيرها. ولا شك ان كثرة المؤرّخين في الدولة العباسيّة وما سواها من الدول العربية تدلّ على أيعاز الخلفاء والملوك الى الكتبة بتدوين الحوادث التي تجري في أيامهم رغبةً منهم بمجاراة الممالك الأجنبيّة واستنكافاً [١] من التقصير عن الدرجة العالية التي رقي الشعوب الذين بنى العرب مملكتهم على انقاض [٢] تمدّنهم كالفرس والروم والمصريين وغيرهم ولكلّ من هذه الامم تاريخ مجيد شهير يتباهون به ويعدّدون مفاخره.

واما العرب الذين سكنوا البقاع الخصيبة الملائمة للعمران وسعة الحضارة وأنشأوا الممالك كملوك حِمْير باليمن فقد خلّفوا ولا شك شيئاً من مثل تلك الآثار وقد كُشف عن بعضها الا أنَّ صعوبة الوصول الى بلاد العرب تمنع مواصلة التنقيب عمّا هنالك من الدفائن وتحول دون رغبة المولعين بالبحث عن آثار السلف والحفر عن مخلّفاتهم في مظانّها واذا ظلّت سبل المواصلة تتمهّد شيئاً فشيئاً فالامل معقود أن تُسفر [٣] الحفريّات عن آثار تدلّ على مكان اصحابها من المدنيّة وتعين العلماء على انشاء تاريخهم كما فعلوا بتاريخ الفراعنة وملوك بابل وغيرهم من الملوك الاقدمين.

ومؤرّخو العرب حريصون على سرد أنساب من يذكرون تاريخهم وهي عادة ورثوها عن إسلافهم في زمن بدواتهم فانهم كانوا أحفظ خلق الله لأنسابهم وأوسعهم معرفة بأسماء قبائلهم على كثرتها يحفظون كلّ ذلك حفظاً مدققاً لما عُلم من قوة ذاكرتهم. وهم في حاجة الى إتقان

١ انفاً ٢ جمع نقض بالفتح وهو المنقوض من الابنية ٣ تكشف

الانساب اذ لم يكن لهم في جاهليتهم عصبيّة تجمعهم وتحملهم على التعاضد في وجه عدوٍّ مجتاح[1] سوى عصبيّة النسب. وقد استحكمت فيهم هذه العادة حتى ان كتبتهم يذكرون الانساب في المواضع التي لا حاجة فيها اليها ككتب الادب والامثال وغيرها كما ترى ذلك في امثال العرب للضبّيّ مثلاً. فانهُ لا يشرع في شرح أصل المثل حتى يسلسل لك قائليهِ الى اجيالٍ متعدّدة فيؤدّي بالمطالع الى السأم[2] ويُدخل عليهِ التشويش احياناً.

وممّا ينبغي اعتبارهُ في مؤرّخي العرب انهم اقتصروا كلّهم مع كثرتهم على إيراد الحوادث مجرّدةً من كلّ نظرٍ لهم فيها عاريةً من كلّ رأيٍ في سوابقها وتوابعها وصرفوا عنايتهم الى تدوين الوقائع الماديّة كالولادة والوفاة والولاية والعزل والفتح غير ملتفتين الى تاريخ الأدبيّات وعدم اهتمامهم في النظر والقياس استدرجهم الى تصديق الخرافات والمستحيلات فأثبتوها في جملة الحقائق التاريخيّة واذا أبى عقل بعضهم قبول هذه الروايات المنكرة ضنّت[3] اقلامهم باسقاطها فأدرجوها في كتبهم متبرّئين من عهدتها. ولم تخلُ كتب اللغة نفسها من مثل تلك الأوهام المضحكة. وكان جلّ ما يتوخّونهُ[4] اسناد الواقعة الى راوٍ او رواة غير مهتمين بالبحث عن صحة روايتهِ ومكانهِ من الثقة. فجاءت مؤلّفاتهم في التاريخ سجلّات اخبار ينسقونها باعتبار الطبقات او السنين او الدول خاليةً من كلّ تمحيص[5] وانتقادٍ وتعليل لا يحييها روح الفلسفة. وعليهِ فاذا اعتبرنا التاريخ علم تعليل الحوادث وردّ المسبّبات الى اسبابها بالقياس الصحيح وحمل المتشابهات بعضها على بعض والاستدلال بالقرائن على خفايا الأمور وغوامض الأسباب ممّا اشتهر بهِ مؤرّخو هذا الزمان حتى أن بعضهم

---

١ التعاضد التعاون واجتياحهم العدوّ اهلكهم ٢ الضجر ٣ بخلت ٤ يتعمدونهُ
٥ محص الذهب طهرهُ وصفّاهُ

تنبأ على الوقائع المستقبلة وكان كما قال ــ اذا اعتبرنا التاريخ هكذا فأحر[١] بمؤرّخي العرب ان يُسمّوا اخباريّين لا مؤرّخين[٢]

وأما الجغرافية فمن العلوم المستحدثة عند العرب وكان الأجدر أن نذكر من ألّفوا فيها في باب العلوم الدخيلة لولا شدّة علاقتها بالتاريخ.

وكان العرب في جاهليتهم يهتدون الى الأماكن برقب النجوم وهو امرٌ سهل لقومٍ استوطنوا بلاداً صافية السماء جافّة الهواء يقضي المرء فيها ليلهُ مسلنقياً[٣] على ظهرهِ يرعى النجوم ريثما يغمض النعاس أجفانهُ. واذا ظعن في طلب النجعة[٤] لم يتيسّر لهُ الجولان الا في الليل خوفاً من توقّد الهواجر[٥] نهاراً. غير انهُ كان فيهم ولا شك من يعرفون المسالك ببلاد العرب وما جاورها معرفة حسنة لتسيير القوافل على ما هو مشهور عنهم منذ أقدم أزمنة التاريخ فان قريش مثلاً وهي من أقوى قبائل العرب وأعظمهم شأناً كانت لها تجارة واسعة وخبرة بالسبل الموافقة للسيّارات[٦] في ذهابها الى الأقطار المجاورة وإيابها. فكانت هذه المعلومات تُتناقل فيما بينهم غير مدوّنة في الصحف.

ولمّا جاء الاسلام جُعل الحجّ الى البيت الحرام فرضاً على المسلمين فكان لا بدّ لقاصدي مكة من معرفة الطرق والمنازل فأصبحت جزيرة العرب بعد مدّةٍ معروفة المسالك والمواطن لتقاطر الحجّاج الى مسجد الكعبة من الآفاق. وسهّل الاهتداء الى الأماكن رحلة الأدباء الى البادية وبحثهم عن المواضع التي ورد لها ذكر في شعر العرب كما قلنا آنفاً. فدوّنوا

---

١ صيغة تعجب بمعنى ما احرى اي ما اجدر ٢ يستثنى من هذا الحكم المؤرّخ الفيلسوف عبد الرحمن بن خلدون المتوفي سنة ١٤٠٥ مسيحية ٣ ملقى ٤ ظعن رحل والنجعة اسم من الانتجاع وهو طلب الكلاء في مواضعهِ ٥ جمع هاجرة وهي نصف النهار ٦ القوافل

اسماء المحالّ وعينوا مواقعها وذلك من قبيل الجغرافية المحلّيّة .

ثم لما توالت فتوح العرب وأوغلوا في الممالك الأجنبيّةِ وأخضعوها لسلطانهم اجتمع لدى أمراء الجيوش واصحاب الدولة معلوماتٌ جمّة عن احوال البلدان التي دانت لحكمهم من مواقعها واقاليمها[1] ومستغلاّتها وطبائعها وسكانها وتخومها. وكلّ هذه التفاصيل لم يكن لهم بدٌّ من الوقوف عليها بغاية الدقّة لضبط شؤون القوم وجباية[2] الخراج .

ومن الذين اضطُروا الى معرفة البلاد بنوع خاصّ اصحاب البريد[3]. فقد كان للخليفة صاحب بَريد في كلٍّ من اعمال المملكة مصلحته الجهريّة إيصال الاخبار والكتب الى كرسيّ الخلافة ونقل أوامر الخليفة الى العامل الذي في ناحيتهِ ومصلحتهُ السرّيّة مراقبة سيرة العامل وكيفية قيامهِ بأعباء وظيفتهِ. ومن جملة واجبات اصحاب البريد حفظ الطرق وصيانتها من القطّاع. فدعتهم مهنتهم الى تدوين ما يعرفون عن البلاد التي تمرّ بها السُبُرُد. وربّما فعلوا ذلك بإيعاز من لدن الخلفاء وزادوا على تعريف المسالك والمواقف والمسافات فوائد أخر تهمّ الخليفة الاحاطة بها ويؤثرون تلقيها من اصحاب البريد لسعة اطلاعهم ولأنهم موضع ثقتهِ وعيونهُ في الجهات.

ومع توفّر الموادّ وغزارتها لم يكن احدٌ ليستلمها ويرتّبها ويبوّبها ولو فعل اصحاب العلم والدراية لبلغوا بها درجةً حسنة وجعلوها علماً واسعاً خاصاً بهم يرجع فضل وضعهِ اليهم وما كانوا عيالاً[4] فيهِ على غيرهم. وما كادت تُعرَّب كتب اليونان ومن جملتها كتب الجغرافية حتى أسرع العرب

---

١ الاقاليم جمع اقليم وهو قسم من الارض يختصّ باسم ويتميز بهِ كمصر والشام واليمن ويطلق على حالة الهواء فيقال بلاد حارة الاقليم وباردتهُ والمستغلاّت ما يحصل من ريع الارض واجرتها ونحو ذلك ٢ جمع ٣ البريد الرسول ثم اطلق على خدمة خاصة يتولى القائم بها حمل رسائل السلطان الى عمالهِ وبالعكس ٤ اي مفتقرين الى غيرهم

الى ما لديهم من المُعَدّات وأجالوا فيها يد الترتيب والتأليف ووضعوا المصنّفات في هذا العلم من موجز ومبسوط حذوا فيها حذو بطليموس في مؤلّفه وأبقوا اسم كتابهِ على اصلهِ اليوناني «جغرافية» كما فعلوا بكتابهِ في علم الهيئة «المجسطى» وسمّوا العلم الذي يبحث عن مسائلهِ في ذلك الكتاب باسم الكتاب نفسه مما لم يفعلوهُ بعلم الهيئة .

وتوسّع العرب في الفنّ كما في غيرهِ من الفنون التي اقتبسوها عن اليونان وسائر الامم الاجنبيّة . وعانوا الأسفار برًّا وبحراً واطّلعوا بأنفسهم على ما دوّنهُ بطليموس في كتابهِ فأوضحوا ما استبهم عليهِ وصحّحوا ما وهم بهِ وزادوا في مؤلّفاتهم نتيجة مباحثهم مما فات المؤلّف اليوناني ذكره — وهذا شأنهم في كل العلوم الدخيلة .

ومؤرّخو العرب وجغرافيّوهم كثيرون جدًّا بحيث يضيق عن استيعابهم[1] نطاق هذا المختصر فسنقتصر على ذكر أشهرهم صيتاً عند العلماء والله وليّ التوفيق بمنّهِ وكرمهِ .

أَلْبَلَاذُرِيّ (٨٩٢م ٢٧٩هـ)

هو ابو الحسن احمد بن يحي البغدادي المعروف بالبلاذريّ . كان من جلساء الخلفاء والزمهُ المعتزّ ابنهُ عبد الله يُقرِئهُ الأدب وحكى عن نفسهِ قال : كنت من جلساء المستعين وقد قصدهُ الشعراء فقال « ليس اقبل الا من الذي يقول مثل قول البحتريّ في المتوكّل » .

---

١ الاحاطة بهم

فلوَ أنَّ مشتاقاً تكلَّف فوق ما في وسعه لسعى اليك المنبرُ

فرجعت الى داري وأتيتهُ وقلت « قد قلت فيك أحسن مما قال البحتريّ» فقال « هات » فأنشدتهُ :

فلو أنَّ بُرد[1] المصطفى اذ لبستهُ يظنّ لظنّ البُرد انك صاحبُه
وقال وقد أعطيتهُ ولبستهُ نعم هذه اعطافهُ ومناكبُه[2]

فأجازني بسبعة آلاف دينار وقال « اذّخرها ولك عليّ الجراية والكفاية ما دمت حيّاً » .

وللبلاذريّ من التآليف «كتاب فتح الامصار» وهو كثير الفائدة ثقة مسند الروايات يرتاح اليه محبّو التدقيق. ولهُ ايضاً «أنساب الاشراف» وغير ذلك. ولُقّب ابو الحسن بالبلاذريّ لتناوله شيئاً كثيراً من البلاذر وهو ثمر يشبه الجوز مفرطح قليلاً يقولون انهُ يقوّي الذاكرة فأصابهُ من ذلك دَخَلٌ[3] في عقله ساقهُ الى المارستان وقضى نحبهُ ولم يُقبل[4]

إبنُ خُرْدَاذَبَه (٩١٣م ٣٠٠هـ)

هو ابو القاسم عُبيد الله بن عبد الله. نشأ ببغداد وخالط أدباءها وكان على جانب عظيم من علوم عصره وله على ما قال المسعوديّ في مروج الذهب كتابٌ كبير في التاريخ من أجمع الكتب وأبرعها نظماً

١ ثوب مخطط ٢ الاعطاف جمع عطف بالكسر وهو جانب الرجل من لدن راسه الى وركهِ وهما عطفان والمناكب جمع منكب بفتح فسكون فكسر وهو مجتمع راس الكتف بالعضد ٣ فساد ٤ اي لم يرجع الى سابق عقلهِ

وأحواها لأخبار الامم وملوكها. غير انه لم يصل الى عهدنا من مؤلّفات ابن خرداذبه سوى كتاب « المسالك والممالك » في الجغرافية دعته الى وضعه المصلحة التي كان يتعاطاها اذ قلّد مصلحة البريد في العراق العجميّ. وقد ذكر فيه مسافات الطرق بغاية الضبط وعيّن مقادير الخراج على كل ناحية و كتابه هذا من المؤلّفات المعوّل عليها في هذا الشأن.

أَلطَّبَرِيّ (٩٢٣م ٣١٠هـ)

هو ابو جعفر محمّد بن جرير الطبري. وُلد بآمل من أعمال طبرستان وطاف في عدّة بلاد واستوطن بغداد وبها وضع تاليفه. كان اماماً في فنون كثيرة منها الحديث والفقه والتاريخ وجمع من العلوم ما لم يشاركه فيه احد من اهل عصره ومصنّفاته العديدة تدلّ على سعة معارفه وغزارة فضله. وانفرد في الفقه بمذهب خاصّ ولم يقلّد احداً من الائمة الاربعة غير انه حبط [1] مسعاه ودرس اجتهاده واستهدف [2] لسهام الحنابلة وهم كثيرون في بغداد. وله على مذهبه كتاب « تهذيب الآثار » ومن تآليفه الشهيرة كتاب « التفسير » قيل انه لمّا أراد وضعه قال لاصحابه « أتنشطون لتفسير القرآن » قالوا « كم يكون قدره » فقال « ثلاثون الف ورقة » فقالوا « هذا مما تفنى الاعمار قبل تمامه » فاختصره في نحو ثلاثة الف ورقة وفاق بحسن الاستنباط ودقّة التوجيه والترجيح جميع من تعاطوا فن التفسير قبله.

---

١ ذهب باطلاً ٢ جعل نفسه هدفاً وهو الغرض الذي يرمى

لكن اشهر مصنّفات الطبريّ واجلّها هو « تاريخ الأمم والملوك » يقع في احد عشر مجلّداً كبيراً جمع فيهِ ما وصلت اليهِ مباحثهُ من اخبار العالم من آدم الى سنة تسع وثلاثماية هجريّة ويقال ان هذا التاريخ على كبرهِ وسعة موادّهِ هو مختصر مؤلّف آخر أحجم [١] تلامذتهُ عن تدوينهِ واعترضوا عليهِ بنفس اعتراضهم على التفسير فقال « إنّا لله وانّا اليهِ راجعون ماتت الهمم ... » واضطُرّ الى اختصارهِ في نحو ما اختصر التفسير. وهذا الكتاب من أوثق ما وُضع في هذا الفنّ وقد التزم صاحبهُ فيهِ الاسناد المتسلسل كما في الحديث وهو آخر من فعل ذلك من مؤرّخي العرب فجاء تاريخهُ حجّة في اخبار العرب يُرجع اليها ويُقطع بها عرق الشبه ومعدناً نفيساً لا ينفد معينهُ [٢]. ويُروى أن الطبريّ كان من سعة العلم وغزارة المادّة وتدفّق العارضة بحيث كان يكتب اربعين ورقة كلّ يومٍ على مدة اربعين سنة ...

أَلْمَسْعُودِيّ (٩٥٤م ٣٤٥هـ)

هو ابو الحسن عليّ بن الحسين المسعوديّ نسبة الى عبد الله بن مسعود الصحابي. وُلد ببغداد ونشأ بها ولمّا بلغ العشرين من عمرهِ تاقت [٣] نفسهُ الى الاسفار فأخذ يتقلّب في بلاد الله شرقاً وغرباً وعانى رحلة طويلة لا تقلّ أهميّة عن رِحَل مشاهير جوّابي [٤] الآفاق في عصرنا

١ ضدّ اقدم ٢ المعين الماء الجاري على وجه الارض ونفد فرغ ٣ مالت ٤ مبالغة مِن جاب البلاد اذا قطعها

فطاف بجمع اخبار الأمم ويتعرّف احوالهم بلاد فارس والخزر والهند وثُبّت وجزيرة سيلان ومنها أبحر الى جزيرة كمبالو وهي مدغسكر وقفل راجعاً الى بلاده عن طريق عُمان وقصد الاصقاع التي على شواطئ بحر قزين وبلاد الروم وسوريّا وفلسطين ومصر والسودان وكان في آخر امره يتنقّل بين مصر والشام وهو منقطع الى التأليف وتدوين ما رأى وسمع ويا ليته اكتفى بما رأى ولم يكتب الا عن معاينة وتثبّت. وكان المسعوديّ حلو المحاضرة لطيف المعاشرة كثير النكات والنوادر حاوياً في صدره من الاخبار ما لا يوجد في الاسفار المدوّنة.

وله تآليف جليلة أشهرها كتاب «مروج الذهب» اودعه لُمعاً من الامم المعروفة لزمانه قديمها وحديثها وعدل في عرض كلامه عن دولة العرب الى الوقائع المتنوّعة والغرائب المنشورة شأن المسامر[1] الفكه فمثّل احوال المدنيّة الاسلاميّة ومعايش اهلها بنوعٍ واضح جليّ تلذّ المطالع الاحاطة بها وتنشط نفسه الى الاستزادة منها. وكان قد وضع سابقاً كتاباً كبيراً في ثلاثين مجلّداً سمّاه اخبار الزمان ثم اختصره وسمى المختصر «الكتاب الاوسط» ثم اراد اجمال ما بسطه واختصار ما وسطه فوضع «مروج الذهب» وهو الذي لم تصل اليه يد الضياع. وله غير ما ذُكر من المؤلّفات شيء كثير في اغراض مختلفة واكثر ذلك طوته الايام وعفت[2] آثاره الاعوام.

---

١ المحدّث ليلاً ٢ محت

أَبُو ٱلْفَرَجِ ٱلأَصْبَهَانِيّ (٩٦٧م ٣٥٦هـ)

هو ابو الفرج عليّ بن الحسين الأمويّ. وُلد بأصبهان ونشأ ببغداد وكان من اعيان أدبائها وافراد مصنّفيها ولم يُرَ نظيرهُ في زمانهِ في حفظ الشعر والاغاني والاخبار والآثار والاحاديث والسير والمغازي واللغة والنحو والخرافات مع إلمام بالطبّ والنجوم وغيرها ولهُ شعرٌ حسن يجمع إتقان العلماء وإغراب الظرفاء وكان فتّان المحادثة وآيةً في لطف المنادمة والمحادثة[1] لما وعى من الأدب النادر وحوى من آلة المنادمة كاتقان الغناء وعلم الجوارح والبيزرة[2] والبيطرة.

ولابي الفرج تآليف غرّاء اسيرها ذكراً في الآفاق «كتاب الاغاني» في واحد وعشرين جزءًا وهو في عالم الأدب أشهر من نارٍ على علَم. جمع فيهِ الاشعار التي تغنّى بها المغنّون وترجم قائلها وأورد الحوادث التي تشير اليها والوقائع التي تتّصل بها قربت أو بعدت. واذا اعتبرت ان الشعراء الذين تناول المغنّون بعض ابيات لهم ووقّعوها على آلاتهم هم الوف مؤلّفة من كلّ ملة ونحلة علمت الموادّ الفائقة العدّ المتنوّعة الاغراض التي وسعها هذا المؤلّف النادر المثال فهو اشبهُ شيءٍ بالبحر الزاخر مهما غاص الغائصون فيهِ يلتقطون الدرر العصماء فهيهات ان ينفد معينهُ وهو المستودَع الوحيد لكثيرٍ من اخبار الجاهليّة والمئات الثلاث الأوّل للاسلام ولولاهُ لم نقف لها على أثر. ويُقال انّ ابا الفرج جمعهُ في

---

١ المصادقة ٢ علم يبحث فيهِ عن احوال الجوارح من حيث حفظ صحتها وازالة مرضها ومعرفة العلامات الدالة على قوتها في الصيد وضعفها

خمسين سنة وحمله الى سيف الدولة صاحب حلب فأعطاه الف دينار واعتذر اليهِ. وحسناً صنع فان سيف الدولة كان أعلم وأبصر من أن يفوته عجز الانسان عن مكافأة صاحب تصنيف كهذا ولو بذل له من نفائس الاعلاق[1] اضعافاً مضاعفة.

وحُكي عن الصاحب بن عبّاد الامير الكاتب الشهير انه كان يستصحب في اسفاره وتنقّلاتهِ حمل ثلاثين جملاً من كتب الادب ليطالعها فلمّا وصل اليهِ كتاب الاغاني استغنى بهِ عنها جميعاً. ونما صيت ابي الفرج الى ملوك بني أميّة بالاندلس وهم انسباؤه فتقدموا اليهِ بتصنيف عدة كتب برسمهم ففعل وسيّرها اليهم سرًّا وجاءه الانعام خفية. وتآليف ابي الفرج كثيرة. ولهُ شعرٌ حسن مرّ بك منه بيتان في هجاء السيرافيّ النحويّ ومن شعرهِ قوله في الوزير المهلّبي وكان منقطعاً اليهِ ولهُ فيهِ مدائح.

ولمّا انتجعنا لائذين بظلّهِ ... أعان وما عنّى ومنّ وما منّا[2]
وردنا عليه مُقترين فَراشَنا ... ورُدنا نداهُ مُجدبين فأخصبنا[3]

أَلإِصْطَخْرِيّ

هو ابو اسحاق الاصطخريّ. وُلد ونشأ باصطخر وعُني بالاخبار عن البلاد وما يتعلّق بها وسوّل[4] له ولوعهُ بالوقوف على احوال البلدان

١ جمع علق بالكسر وهو الثمين من كل شيء ٢ انتجع الرجل طلب الكلأ في مواضعهِ ولاذ بظلهِ التجأ الى حمايتهِ وعنّى زيد عمراً ضيق عليهِ ومنّ الأولى بمعنى اعطى ومنّ الثانية بمعنى عدّد للمنعم عليهِ نعمهُ ومواهبهُ على سبيل التوبيخ ٣ المقتر المحتاج وراش الامير فلاناً اولاهُ خيراً واعانهُ على معاشه وردنا طلبنا ونداهُ كرمهُ ٤ زيّن له وسهّل

معاناة الرحل ليرى عيناً ما يسمعهُ عن اقطار الدنيا وعجائبها. فخرج من بلدهِ سنة ٩٥١ ميلاديّة وضرب في مناكب الارض شرقاً وغرباً فطاف البلاد الاسلاميّة مبتدئاً من بلاد العرب الى الهند الى الأُوقيانوس الاتلنتيكيّ فشاهد من بلاد الله شيئاً كثيراً ووصفها في مصنّفاتهِ على ما رآها وما لم يرهُ عوّل في صفتهِ على كتاب بطليموس او رواية اهل البلاد. فجاءَ ما كتبهُ في هذا الشان جامعاً بين الفائدة واللذة اذ قد ذكر ما وصلت اليهِ معرفتهُ من الكُور[1] والمدن والقرى وعيّن مواقعها والمسافات بينها وخصائص المواضع الممتازة بخاصيّةٍ تُذكر. واعتمد في التقسيم على الاقاليم السبعة اخذاً عن بطليموس في جغرافيته . والاصطخري مقدَّم جغرافيّي العرب وحذا حذوهُ كل من جاء بعدهُ منهم مع أنهُ استفاد كثيراً مما كتبهُ قبلهُ جغرافيٌّ عربيٌّ يُعرف بأبي زيد البلخيّ واسم كتابهِ « صُوَر الاقاليم » ضمّنهُ خرائط جغرافيّة متعدّدة .

وللاصطخريّ من التصانيف « كتاب الهواء » و « كتاب الأقاليم » و « كتاب المسالك والممالك » وهو أشهرها وأكثرها أهمّيّة .

إبنُ حَوْقَل (٩٨١م ٣٨٠هـ)

هو ابو القاسم محمد بن حوقل الموصليّ. تعاطى التجارة ثم مالت نفسهُ الى السياحة فهبّ من بغداد يجوس اصقاع المملكة الاسلاميّة فطاف بلاد الجزيرة والعراق وفارس والشام ومصر والمغرب والبربر والأندلس

---

[1] جمع كورة وهي القسم من البلاد يجمع عدة مدن وقرى

وأبحر الى صقلّية. وله في وصف كلّ ما رأى كلامٌ مطوَّل في كتابٍ سمّاه «المسالك والممالك والمفاوز والمهالك» غير انهُ لم يُعنَ بتّة في الضبط والتحقيق ولم يتحرَّ الصحّة في تعيين العروض الجغرافيّة ومواقع المدن فهو مضعّف عند ارباب هذا الشأن غير ثقة وكتابهُ كتاب فكاهةٍ ولذّة لا كتاب علم وتدقيق وفائدة. وقد اقتبس شيئاً كثيراً عن ابن خرداذبه والاصطخري وزيّن كتابهُ بالخرائط.

إبنُ ٱلنّدِيم (٩٩٦م ٣٨٦هـ)

هو ابو الفرج محمّد بن اسحاق بن ابي يعقوب النديم المعروف بالورّاق البغداديّ. لهُ كتاب شهير فريد في بابهِ يُعرف «بالفِهرِسْت» ويُسمّى ايضاً «فوز العلوم» وهو كما يدلّ عليهِ اسمهُ جدولٌ لكتب العلوم والفنون المعروفة لزمانهِ سواءٌ كانت عربيّة الوضع او معرّبة عن تصانيف علماء اليونان والفرس والهند وغيرهم ممن اقتبس العرب عنهم العلوم وقد اضاف فوائد تاريخيّة جليلة ساقها في طريق قلمهِ موضوعَ كلامهِ. وكثيرٌ من المؤلّفات التي ذكرها ابن النديم في فهرستهِ ضاعت ولا تُعرف الا بأسمائها التي أثبتها المؤلف في كتابهِ هذا الذي يدلّ على رواج سوق العلوم عند العرب مع قرب عهد مملكتهم من النشوء اذ ما هي ثلاث مئات او اربع في عمر دولة بالنسبة الى عمر انسان.

وهذه المؤلّفات الضائعة الشاهدة لأربابها بالاستبحار في المعارف والسبق في حلبة المدنيّة عنوانٌ على همجيّة اولئك الاقوام الذين اكتسحوا بغداد أمّ المدائن وجعلوا من كتبها جسراً على دجلة مرّوا

عليه مشاةً وركباناً وما زالت الحرب سجالاً [1] بين النور والظلمة في هذه الحياة الدنيا ولن تزال كذلك في العوالم المختلفة الى يوم استعلاء النور السرمديّ وظهوره على دياجير [2] كلّ شرّ .

وكم من مرّة رُزئت الآداب العربيّة بمثل رزيئة بغداد .

ومع شهرة الفهرست لا يُعرف من اخبار مؤلّفه الا أقل من القليل.

أَلْبِيرُونِيّ (١٠٤٩م ٤٤٠هـ)

هو ابو الريحان محمّد بن أحمد البيروني . وُلد ببيرون من اعمال خوارزم وكلف من صباهُ بالعلوم فأكبّ على تحصيلها إكباب ذي العزيمة الثابتة فأتقنها على اختلاف انواعها وتبحّر في الرياضيّات حتى أصبح نسيج وحدهِ في الاحاطة بها واستقراء دقائقها وتضلّع من الهيئة والطبّ والتاريخ والفلسفة وجرت بينهُ وبين الشيخ الرئيس مكاتبات ومناظرات ولم يكن لهُ نظير في علوم الأوائل . ولمّا كان واقفاً على دخائل اليونان رغب في الاستزادة من علوم الهند فقصد بلادهم وأقام فيها عدّة سنوات وأخذ عن حكمائها فنونهم وعلّمهم طرائق اليونانيين في فلسفتهم . وانقطع بعد عودتهِ الى خدمة سلاطين غزنة ووضع بايعاز منهم تآليف متعدّدة .

وله مصنّفات كثيرة متقنة محكمة غاية الاحكام وزعموا ان الكتب التي وضعها ينوء [3] بحملها بعير ... وهذه ولا شك اشارةٌ الى قوة عارضتهِ وغزارة مادّتهِ وتدفّق معين العلم على قلمهِ واستيعاب تصانيفهِ شوارد

---

١ الحرب السجال هي التي تكون تارة لك وتارة عليك ٢ جمع ديجور وهو الظلمة
٣ ناء بالحمل نهض بهِ بجهد ومشقة

كلّ فنّ يؤلّف فيهِ . فمن مؤلّفاته « الآثار الباقية عن القرون الخالية » في النجوم والتواريخ و « تاريخ الهند » أحسن فيهِ الوصف واعتمد الاخبار الصحيحة و « القانون المسعودي » وهو مُطَوَّل في الهيئة ضمّنهُ فوائد جغرافية وتاريخية وألّفهُ برسم السلطان مسعود بن محمود بن سُبُكتِكين الغزنويّ . وغير ذلك من المؤلّفات النفيسة .

أَلْمَقْدِسِيّ (١٠٥٦ م ٤٤٨ هـ)

هو ابو عبد الله محمّد بن أحمد المقدسي ويقال المُقَدَّسيّ . وُلد ببيت المقدس وتخصص بالبحث عن احوال البلدان فطاف اصقاع المملكة الاسلاميّة ونظر في طبائعها وخصائصها نظر الجغرافيّ المحقّق الآخذ على نفسه عهدة الضبط والتدقيق في تقدير مساحة البلاد التي يذكرها وتخطيط مواقعها وكأنهُ ورث مزيّة التحقيق عن جدّهِ ابي بكر البنّاء الرياضيّ المهندس مبتني ميناء عكّا الحصين في زمانهِ على ما روى المقدسيّ نفسهُ في كتابهِ .

ولمّا فرغ من سياحتهِ اخذ في وضع كتابهِ المترجَم « بأحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ذكر فيهِ بعد ما جال ودخل الاقاليم وتفطّن مساحتها بالفراسخ [١] واستعان على ما لم يشاهدهُ بالفحص عنهُ من الناس فما وقع عليهِ اتفاقهم اثبتهُ وما اختلفوا فيهِ تبذهُ [٢] . وليس في هذا القول مبالغة ولا دعوى شأن كثير من المؤرّخين والجغرافيين سواهُ فانّ الزلات والمزاعم التي سبق اليها قلمهُ لاتكاد تُذكر في جنب الحسنات

---

١ جمع فرسخ وهو ثلاثة اميال عربية ٢ طرحهُ

والحقائق الراهنة التي عوّل عليها في مؤلّفه. ولم يتناول وصف الأندلس والهند وبعض الاطراف استنكافاً من الكلام على السمع دون النظر واستعاض عن ذلك بوصفٍ مشبع لبلاد الشام مسقط رأسهِ. ويا ليت الذين جاءوا بعده من متعاطي فنّهِ جروا على منهاجهِ وآثروا تدوين الحقائق على تزيين المهارق [١].

أَلإِدْرِيسِيّ (١١٨٠م ٥٧٥هـ)

هو ابو عبد الله محمّد بن أحمد المعروف بالشريف الادريسي من الادارسة العلويين ملوك المغرب الاقصى [٢]. وُلد بسَبْتة ودخل الاندلس وهو حديث السنّ فتخرّج في قرطبة دار العلوم العربية في ذلك العهد وبرع في العلوم الرياضيّة والأدبيّة وأُولع بمعرفة البلدان فأخذ في السياحة ليرى بنفسهِ ما سمع عن اقطار المعمور ويتحقّق صفتها شأن العالم المدقّق فجاب بلاد الروم واليونان ومصر ومراكش وفرنسا وبريطانيا. وترامى ذكرهُ في الآفاق وعرف الناس فضلهُ فدعاهُ روجار الثاني الى صقلّية فلبّى طلبه وقدم اليهِ فقابلهُ الملك بالاعزاز والايناس وتحفّى بهِ فطابت لهُ الاقامة واقترح عليهِ روجار تدوين معارفهِ الجغرافيّة فأجابهُ الادريسي الى طلبهِ واصطنع كرة من فضة عليها اقاليم الارض وبحورها على ما اتصلت اليهِ معرفة القوم يومئذٍ وشرح ما خطّطهُ على الكرة في كتاب سمّاهُ «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وهو كتابٌ مستوعب لاطراف فنّ الجغرافية متقن التأليف على قدر ما يتسنّى لكتبة تلك العصور. وقد أضاف الى معلوماتهِ الخاصّة ما دوّن جغرافيّو العرب اسلافهُ في مصنّفاتهم.

---

١ — جمع مهرق بضم فسكون ففتح وهو الصحيفة ٢ — ملكوا من سنة ٧٨٥-٩١٩ م

أُسامة (١١٨٩ م ٥٨٤ هـ)

هو ابو المظفّر أُسامة بن مرشد من بني منقذ الملقّب مؤيّد الدولة ومجد الدين. وُلد بقلعة شيزر على النهر العاصي من برّ الشام وكانت تلك القلعة تشتمل على كورة تملّكها بنو منقذ على يد جدّ أُسامة وتوارثها اعقابهُ مائة سنة ونيّفاً [1] وكان أُسامة من افراد امراء بني منقذ واماثلهم معروفاً بالشجاعة والاقدام والفروسيّة والعلم والأدب وله تصانيف عديدة تشهد لهُ بالفضل والتقدّم فكان جامعاً بين الفخرين متناولاً كلا الطرفين السيف والقلم.

وجرت وحشةٌ بينهُ وبين عمّه عز الدين فاضطُرّ الى مفارقة شيزر وأتى دمشق ونزل على شهاب الدين محمود مدّةً ثم نبتْ بهِ الدار كما تنبو بالكريم ودبّت عقارب السعاية اليهِ عند صاحب ضيافتهِ فانتقل الى مصر وبقي بها مؤمّراً مشاراً اليهِ بالتعظيم يقضي معظم اوقاتهِ متصيّداً متفرغاً للفروسيّة والادب الى ايام الصالح بن رُزّيك ففارق مصر وعاد الى دمشق وكان قد غمس يدهُ في فتنة آلت الى قتل الخليفة الفاطميّ اسماعيل الظافر على ما يقولون وأقام بدمشق مدّة حجّ في اثنائها وخرج مع عسكر الامير نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي لمقاتلة الفرنج الصليبيّين انصار المصريين يومئذٍ ثم رماه الزمان الى حصن كيفا فأقام بهِ حتى ملك السلطان صلاح الدين دمشق فاستدعاهُ وهو شيخ قد جاوز الثمانين ولم يفارق دمشق الى وفاتهِ

---

[1] ١ ـ من سنة ١٠٨٢ ـ ١١٩٧ م اذ هدمتها زلزلةٌ شديدة ومات كل من كان فيها من بني منقذ وغيرهم تحت الردم

ولأُسامة من التآليف كتاب «الاعتبار» وهو سيرة نفسهِ دوّن فيها وقائع حياته وماجريّات ايّامهِ بعبارة جنديّ صريح المقال سديد الرأي لا يعرف للتكلّف معنى يكتب ما تملي عاليهِ فطرتهُ الحرّة فكان اوّل من ترجم نفسهُ عند العرب. ولهُ «كتاب البديع» في علوم الشعر جمع فيه ما تفرّق في كتب العلماء في نقد الشعر وذكر محاسنهِ وعيوبه وزاد على ذلك ما وقف عليهِ هو نفسهُ. ولهُ شعر عذب اللفظ منسجم المعنى شديد الاسر ينظر الى شعر فارسين شهيرين قبلهُ قالا الشعر عن وحي السليقة وهما عنترة العبسيّ وابو فراس الحمداني . فمن ذلك قولهُ جواباً عن ابياتٍ بعث بها اليهِ ابوهُ :

وما أشكو تلوّن اهل ودّي ولو أجْدت[١] شكيتهم شكوتُ
مللتُ عتابهم ويئست منهم فما أرجوهمُ فيمن رجوتُ
اذا أدْمت قوارضهم فؤادي كظمتُ على اذاهم وانطويتُ[٢]
ورحتُ عليهم طلق المُحيّا كأني ما سمعتُ ولا رأيتُ
تجنّوا لي ذنوباً ما جنتها يداي ولا امرتُ ولا نهيتُ
ولا واللهِ ما أضمرت غدراً كما قد أظهروهُ ولا نويتُ
ويوم الحشر موعدنا وتبدو صحيفة ما جنوهُ وما جنيتُ

ومن شعرهِ قولهُ ملغزاً في ضرس قلعهُ :

وصاحبٍ لا امُلّ الدهر صحبتهُ يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهدِ
لم ألقهُ مذ تصاحبنا فحين بدا لناظري افترقنا فرقة الابدِ

---

١ ـ افادت ٢ ـ القوارض اللواذع وكظم على غيظهِ ردّهُ وصبر عليهِ

ومن قوله يصف ضعفه :

اعجب لضعف يدي عن حملها قلما من بعد حطم القنا في لبّة الأسد[١]

يَاقُوت (١٢٢٩م ٦٢٦هـ)

هو شهاب الدين ابو عبد الله الروميّ. وُلد ببلاد الروم وأُسر وهو صغير على اثر غزاةٍ للمسلمين في بلده وابتاعهُ ببغداد رجلٌ حمويّ الاصل يتعاطى التجارة فنُسب اليه وعُرف بياقوت الحموي. وجعلهُ مولاهُ في الكتّاب لينتفع به في ضبط تجارته لانهُ كان لا يحسن الخطّ ولا يعلم سوى التجارة فقرأ الصبيُّ شيئاً من النحو واللغة وشغلهُ مولاهُ بالاسفار في متاجره فكان يتردّد الى كيش وعُمان وتلك النواحي ثم جرت بينهُ وبين مولاهُ نبوة[٢] اوجبت عتقهُ فانفصل عنهُ واشتغل بالنسخ بالاجرة وأقبل على المطالعة اضطراراً للقيام بمهنته واختياراً لولوعه بالعلم فحصّل فوائد كثيرة ومعارف واسعة كانت لهُ معدناً ثميناً لتأليف الكتب الشهيرة التي وضعها عند سنوح الفرصة ومسالمة الدهر.

ثم لوى[٣] مولاهُ عليه بعد مدّة وأعطاهُ شيئاً وسفّره الى كيش فتاجر وعاد فاذا صاحبهُ قد مات فأعطى اولادهُ وزوجتهُ ما ارضاهم به وبقيت بيده بقيّة جعلها رأس ماله وسافر بها وجعل بعض تجارته الكتب واتّفق ان وقع في حوزته بعض مؤلّفات الخوارج فاشتبك في ذهنه من مذهبهم

---

١ ـ اللبة اعلى الصدر ٢ ـ جفاء ووحشة ٣ ـ مال

طرف قويّ فلمّا ورد دمشق قعد يوماً في بعض اسواقها وناظر بعض من يتعصّب للطالبيين وادّى به الجدال الى ذكر عليّ بما لا يسوغ [1] فثار الناس عليه وكادوا يقتلونه ففرّ منهزماً بعد أن بلغت القضية إلى والي البلد فطلبه فلم يظفر به ووصل الى حلب خائفاً مترقّبا وخرج عنها إلى الموصل ثم انتقل إلى إربل وسلك منها إلى خراسان وتحامى دخول بغداد لأن المناظر له بدمشق كان بغداديّاً فخشي ان ينقل قوله إلى مواطنيه فيقتلوه فأقام بخراسان يتّجر ببلادها واستوطن مدينة مرو مدّة وخرج عنها الى نسا ومضى إلى خوارزم وصادفه وهو فيها خروج التتر واكتساحهم تلك البلاد فغشيه [2] من الهول ما لا يوصف وانهزم بنفسه كبعثه يوم الحشر من رمسه [3] وقاسى في طريقه من المضايقة والتعب ما كان يكلّ عن شرحه اذا ذكره. ووصل الى الموصل وقد تقطعت به الاسباب وأعوزه دنيّ المآكل وخشني الثياب فكتب إلى ابن القفطيّ وزير صاحب حلب رسالة ضافية الاذيال مشبعة الفصول يصف فيها حاله ويذكر الواقعة التي جرت بين التتر والسلطان محمد بن تكش خوارزم شاه. فدعاه ابن القفطيّ إلى حلب وجبر ما تصدّع [4] من شأنه ومدّ له يدَ المساعدة في الأمور الماديّة والادبيّة فاطمأنّ باله وعاد فتفرّغ للعلم والتأليف الى وفاته .

وله مؤلفات عديدة نفيسة تفصح كلّها عن رسوخ قدم وطول باع في انواع العلوم ومن أشهرها واعظمها «معجم البلدان» في الجغرافية وهو بحر زاخر أحاط بأسماء البلاد وما إليها من خصائص الجغرافية وذكر بعد كل مدينة من ينسب إليها من العلماء وما قيل فيها من شعر أو ورد

---

١ ـ يجوز ٢ ـ حلّ به ٣ ـ يوم الحشر يوم القيامة والرمس القبر ٤ ـ تشقق

ذكرها فيه فجمع في كتابه بين الجغرافية والتاريخ والأدب وله مختصر لهذا المطوَّل سمَّاه «مراصد الاطّلاع» على اسماء الامكنة والبقاع. وله في الفنّ نفسه كتاب «المشترك وضعاً والمفترق صُقْعاً» وهو فرع خاصّ من الجغرافية يبحث في الأماكن التي لها اسمٌ واحد مشترك فيما بينها مع تفرّقها في أنحاء المعمور كالرصافة مثلاً والرَّمادة [1].

وله في التاريخ «معجم الأدباء» و«اخبار الشعراء القدماء والمتأخرين» وكتاب «المبدإ والمآل» وكتاب «الدُّوَل» وغير ذلك. وياقوت هو خاتمة مشاهير جغرافيّي العرب.

إبنُ الأثير (١٢٣٣م ٦٣٠هـ)

هو عزّ الدين ابو الحسن عليّ بن محمّد الشيبانيّ المعروف بابن الأثير الجَزَريّ وهو اخو ابنَيْ الأثير المارّ ذكرهما. وُلد بجزيرة ابن عُمَر ونشأ بها ثم سار الى الموصل مع والده وأخويه وتخرَّج على علمائها وقدم بغداد مراراً حاجّاً ورسولاً من صاحب الموصل وسمع بها جهابذة العلوم الدينيّة والأدبيّة ورحل الى الشام والقدس وخالط من هنالك من الافاضل ثم عاد الى الموصل ولزم بيته منقطعاً إلى النظر في العلم والتصنيف. وكان بيتهُ مجمع أهل الفضل ومحطّ رحال الواردين على الموصل من ارباب العرفان يُقرّون

---

١ ـ الرصافة علَم لعدة مواضع منها رصافة ابي العباس بالانبار ورصافة البصرة ورصافة بغداد ورصافة الحجاز ورصافة الشام ورصافة قرطبة ورصافة الكوفة ورصافة نيسابور ورصافة واسط. والرمادة علم لعدة مواضع أيضاً منها بلدة بين برقة والاسكندرية وبلدة في منتصف الطريق بين البصرة ومكة ومنها قرية في نواحي نيسابور ومنها محلة كبيرة في ظاهر حلب ومنها قرية من قرى بلخ وغير ذلك

لهُ بالامامة في حفظ الحديث ومعرفتهِ وما يتعلق بهِ والوقوف على التواريخ المتقدمة والمتأخرة والخبرة بأنساب العرب وايامهم ووقائعهم واخبارهم ولهُ في هذه الفنون مصنَّفات .

فمن أشهرها وأكبرها كتاب «أُسد الغابة» في معرفة الصحابة ذكر فيهِ سبعة آلاف وخمسمائة ترجمة واستقصى أسماء الصحابة الذين دوَّن تراجمهم من سبقه من المؤلّفين واستدرك عليهم ومؤلّفه هذا رأس الكتب التي وُضعت في هذا المعنى واكثرها استيعاباً لأخبار أصحاب النبيّ ولهُ «كتاب الكامل» في التاريخ ابتدأ فيه من أوَّل الزمان إلى سنة ٦٢٨ هجرية ولهُ مختصر كتاب الأنساب للسمعانيّ استدرك عليهِ فيهِ وزاد أشياء أهملها ونبَّه علي مواضع الغلط .

وذكر ابن خلكان انهُ اجتمع بهِ بحلب فوجدهُ رجلاً مكمّلاً في الفضائل وكرم الاخلاق وكثرة التواضع وتردَّد عليهِ كثيراً وهو يلقى منهُ المبالغة في الرعاية والاكرام والايناس .

إبنُ أَبِي أُصَيْبِعَة (١٢٦٩ م ٦٦٨ هـ)

هو موفّق الدين ابو العباس احمد بن القاسم الخزرجيّ المعروف بابن أَبي أُصيبعة . وُلد بدمشق وكان ابوهُ طبيباً كحّالاً في خدمة صاحب دمشق وعمّهُ رئيس المستشفى لأمراض العيون فتخرّج عليهما في الطبّ واقتبس الآداب والحكمة عن افاضل الشام ثم قصد مصر للاستزادة من الطبّ فتعرّف هنالك بابن البيطار النباتيّ الشهير وتمكنت بينهما الصداقة وكانا يخرجان معاً الى بادية الشام في طلب الاعشاب والنبات واتّصلت أُلفتهُ ايضاً بعبد

اللطيف الطبيب البغدادي. وعيّنه صلاح الدين طبيباً للمستشفى الذي ابتناه بالقاهرة سنة ١٢٣٦ مسيحيّة وكان اذ ذاك قد رجع الى وطنه وقُلّد رئاسة الاطبّاء في المستشفى النوري فلبّى امر السلطان صلاح الدين وقدم الى مصر غير انه لم يلبث سوى سنة واحدة وقفل راجعاً الى الشام وانتقل الى صلخد على مقربة من دمشق وخدم الأمير عزّ الدين ايدمر وما زال يتردّد بين البلدتين الى وفاته .

ولابن أبي أصيبعة مؤلَّف شهير سمّاه « عيون الأنباء » في طبقات الاطبّاء وهو كتاب مبسوط استقصى فيه تاريخ الطبّ والأطبّاء على اختلاف اجناسهم من هنود وفرس ويونان وعرب ورتّب تصنيفه هذا ترتيباً جغرافيّا اي انه ذكر اصحاب التراجم بحسب الاقاليم التي وُلدوا فيها ومصنَّفه هذا من أجلّ الكتب وأنفعها للوقوف على تاريخ الطبّ من ابتداء زمانه الى ايام المؤلّف .

إبنُ خَلِّكان (١٢٨٣ م ٦٨١ هـ)

هو ابو العبّاس أحمد بن ابراهيم المعروف بابن خلّكان نسبةً الى جدّ جدّه. وُلد بإربل وقرأ العلم على ابيه وسمع جماعة من اهل الفضل وأتقن الفقه وكان شافعيّ المذهب ثم دخل بلاد الشام فورد حلب وأقام فيها مدّة طويلة وانتقل منها الى دمشق ثم قصد مصر فدخل الاسكندرية وخرج منها الى القاهرة . وتقلّب ابن خلّكان في القضاء بين ولايةٍ وعزل عدّة مرار . فأُنيب في اوّل الامر عن قاضي القضاة يوسف ابن الحسن ودُعي الى دمشق فوُلّي قضاء القضاة وظلّ امام الفقهاء من المذاهب

الاربعة خمس سنوات ولمّا استقلّ اصحاب كل مذهب بأنفسهم بأمر السلطان بيبرس لم يعد لابن خلّكان سوى قضاء الشافيّة ثم عُزل بعد مدّة بابن الصائغ. ثم أعيد الى الحكم بعد سنين ثم أعيد ابن الصائغ. وولي التدريس في عدّة مدارس لم تجتمع لغيره ثم أخذ الدهر يسلبه شيئاً فشيئاً ما أناله دفعةً واحدة حتى لم يبق معهُ في آخر وقته سوى المدرسة الأمينيّة وكان لهُ ابن يدرّس بالمدرسة التجيبيّة فيتعاونان على الدهر بتحصيل الكفاف بعد أن كانت وظائف الوالد وحدهُ كافية لتبوّئه [1] مُبوّأ الرفعة في عصابة اصحاب الجاه والسعة والنعمة .

وكان ابن خلّكان من الأئمّة الفضلاء والسادة العلماء والصدور الرؤساء ولهُ نظم حسن رائق ومحاضراتهُ غايةٌ في الافتتان والافتنان [2] ولهُ مؤلّف شهير في التراجم سمّاهُ « وفيات الأعيان » وهو معجمٌ مطوّلٌ ذكر فيه اخبار كثيرين من الملوك والعلماء والشعراء وكل من اشتهر بأمر من الرجال والنساء ممن ظهروا بعد المئة الأولى من الهجرة الى منتصف المئة السابعة منها وهو كتاب غزير المادّة تحرّى [3] صاحبه فيه الضبط والتدقيق في الرواية وقيّد من الألفاظ ما لا يؤمن تصحيفهُ [4] وهي طريقةٌ جديرة بالثناء الوافر وحبّذا لو اقتدى به كتبة الغربيّة على اختلاف اغراضهم فكفوا المطالع مؤونة البحث والتنقيب عن كيفيّة التلفّظ بأكثر الاعلام التي لا يجمعها قياس ولا تنطوي تحت ضابط. وقد ذيّل كثيرون تاريخ ابن خلّكان واشهرهم محمّد ابن شاكر الكتبيّ المتوفّى سنة ٧٦٤ هجريّة وسَم ذيلهُ « بفوات الوَفَيات » غير انهُ ضاق ذرعاً

---

١ ـ بوّأهُ الكرسيّ رفعه عليه ٢ ـ اي انهُ كان يفتن عقول سامعيه بفنون كلامه
٣ ـ تعمد الاحرى اي الاليق ٤ ـ صحف الكلمة اخطأ قراءتها بتغيير حرف او حركة

عن مجاراة ابن خلّكان فقصّر في تراجم كثيرة عن شأو سابقه ولم يُعنَ بالتحقيق والتدقيق فجاء كتابهُ أحط درجةً وأقلّ فائدةً .

أَلْقَزْوِينيّ (١٢٨٤ م ٦٨٢ هـ)

هو ابو يحي زكريّا بن محمّد القزوينيّ ويتّصل نسبهُ بمالك بن أنس. كان اماماً فاضلاً وفقيهاً عالماً أتقن فنون العربيّة وتبحّر في الآداب الدينيّة واستقضاهُ المستعصم آخر خلفاء بني العبّاس في العراق على واسط والحلّة. وتعرّف بدمشق بابن العربيّ الصوفيّ الشهير وكانت بينهما صداقه اكيدة.

وللقزويني من المؤلّفات «عجائب المخلوقات» في وصف الكون جمع فيهِ الغثّ[1] والسمين من الآراء والاخبار ولهُ «آثار البلاد» في الجغرافيّة والتاريخ ويقال فيهِ ما قيل في سابقهِ .

إِبنُ أَلْعِبرِيّ (١٢٨٦ م ٦٧٥ هـ)

هو ابو الفرج غريغوريوس بن اهرون الملَطيّ المعروف بابن العبريّ. قيل ان اباهُ كان يهوديًّا وتنصر فلُقّب ابنهُ بابن العبريّ. وُلد بملطية ونشأ ذكيًّا حادّ الذهن نبيه الفؤاد ماضي الفكر فاهتمّ ابوهُ بتربيتهِ وصرف عنايتهُ الى تثقيفهِ فأقرأهُ هو نفسهُ الطبّ واستعان بمشاهير اطبّاء زمانه ومهّد لهُ سبل الاقتباس والتضلّع من سائر العلوم وفنون الآداب فأتقنها الفتى ورسخت قدمهُ فيها وتخصّص بعلوم الدين فبرع وبرّز وكان يحسن من

---

١ ـ الضعيف

اللغات السريانيّة والعربيّة واليونانيّة .

وتوالت الضربات والمخاوف على ملطية على اثر حروب طاحنة دارت رحاها هنالك بين المسلمين والروم وما عتّم[1] المغول ان انقضّوا بخيلهم ورَجلهم[2] على تلك البلاد المسكينة فقتلوا ونهبوا وسبوا ودمّروا[3] الديار تدميراً . فلاذ اهرون الطبيب وابنهُ بالفرار ونجوا بأنفسهما الى أنطاكية. وكأن تلك الويلات الهائلة والوقائع التي تشيب لها الاطفال وقعت في قلب الشابّ الاديب موقع العبرة فاتخذها موعظةً لنفسهِ فزهد في الدنيا وعافت[4] نفسهُ أباطيلها وآثر[5] حياة النسّاك وانقطاعهم الى الحقّ سبحانهُ فنهج طريقتهم واعتزل في مغارةٍ منفردةٍ متجرداً للصلاة والصوم آخذاً نفسهُ باقتناء الفضائل والسعي وراء الخيرات السماوية الدائمة.

غير انهُ لمّـا كان صاحب الفضل والكمال كبائع المسك ينمّ عليهِ مـا عُني بتحصيلهِ وكتمانه لم تخفَ مكانتهُ على بطريرك ملّتهِ فشملهُ بعنايتهِ وشرّفهُ بإعزازهِ ورقّاهُ وهو في العشرين من سنهِ الى درجة الأُسقفيّة بعد ما أوعز عليهِ بالشخوص الى طرابلس ليتمّ قراءة البيان والطب. فعهد اليهِ اوّلاً رعاية ابرشيّة جوباس ثم نقلهِ الى لاقبين . وتُوفّي البطريرك فـكان نصيب غريغوريوس من خلفهِ توليتهُ اسقفيّة حلب جزاءً لهُ على نصرتهِ اياهُ على مناظرهِ ثم انمّ عليهِ نعمتهُ فانتخبهُ مفرياناً[6] وفسح لهُ مجالاً واسعاً لعمل الخير واستثمار كنوز غيرتهِ وعلمهِ. وحظي عند هولاكو ملك المغول بفضله وكمالهِ وحسن تدبيرهِ فأجلّهُ ورفع قدرهُ وأطلق يدهُ فاستعان بحرّيتهِ وحظوتهِ لفائدة رعاياهُ فقام بمهامّ رتبتهِ خير قيام وخلّف من الاثار الجليلة ما ينطق بهمتهِ ويخلّد لهُ الذكر الحميد أبد الدهر.

---

١ ابطأ ٢ اندفعوا بفرسانهم ومشاتهم ٣ خربوا ٤ كرهت ٥ فضل ٦ رئيس اساقفة

وكان ابو الفرج مع سعة علومهِ اللاهوتيّة واستنارة بصيرتهِ يعقوبيّ المذهب يقول في السيّد المسيح بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة وهي بدعة [1] قديمة في الشرق استُدرج اليها اوطيخا اذ هبَّ يدحض بدعة نسطوريوس القائل بأُقنومين في ابن الله المتأنّس فتهوّر هو ايضاً في الضلال وسقط بسقوطهِ قومٌ كثيرون فكان مذهبهُ ومذهب خصمه على طرفَيْ نقيض والحقّ المنير وسط بينهما وهو بعيدٌ عن الافراط بُعدهُ عن التفريط [2].

ولابن العبريّ مؤلّفاتٌ كثيرة في السريانيّة تشهد لواضعها بانفساح الذرع وبُعد الغور في الفنون التي انتدب نفسهُ للتأليف فيها. ولهُ في العربيّة كتاب «مختصر الدُّوَل» في التاريخ وضعهُ تلبيةً لمقترَح احد افاضل العرب رغب اليهِ تعريب التاريخ الذي كان قد وضعهُ بالسريانية فلخّص منهُ هذا المختصر وأضاف اليهِ تفاصيل لم تكن في المطوَّل السريانيّ ولا سيّما فيما يتعلّق بدولتي المسلمين والمغول وفسح فيهِ جانباً حسناً لأخبار الاطبّاء والرياضيّين وكان تصنيفهُ لهذا الكتاب العربيّ قُبيل وفاتهِ .

---

١ مقالة مستحدثة في الدين مخالفة للحقيقة ٢ الافراط تجاوز الحدّ والتفريط التقصير عنهُ

العُلَمَاء

قضى العرب حِقبةً[١] من الدهر طويلةً في صدر دولتهم وهممهم منصرفةٌ الى توسيع نطاق ملكهم وتوطيد[٢] دعائمه وتدبير شؤون رعاياهم على تعدُّدها وتنوّعها. فكان لهم من ذلك شغلٌ شاغلٌ عن التفرّغ للعلوم والصنائع ولم يكونوا ليلتفتوا الى علم سوى ما اعتادوهُ في جاهليتهم من إتقان لغتهم والتوسّع في ادبيّاتها والولوع بنظم الاشعار والقاء الخطب لِما أوتوا من قوّة ملكة البيان وسرعة الخاطر وذرابة[٣] اللسان. وكانت لهم معرفةٌ بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وخبرةٌ بأنواء[٤] الكواكب وامطارها على حسب ما أدركوهُ بفرط العناية وطول التجربة استظهاراً على المعاش لا على طريق تعلُّم الحقائق. وازداد بعد الاسلام حرصهم على إحكام لسانهم لما رأوا من مزيتهِ في صيانة دينهم الذي جمع شتاتهم ونبّه افكارهم وبعث هممهم الى افتتاح ممالك المعمور وبوّأهم بين شعوب ذلك الدهر مُبوَّأ الرفعة والمجد والشرف — فانقضى عصر الخلفاء الراشدين ودالت دولة بني أُميّة وليس عند العرب من العلوم سوى ما ذُكر مع بعض معلومات في الطبّ اكتسبوها من مخالطة الأعاجم ولا تتعدّى المجرّبات المعتادة.

وقد غلا القوم في بداءة امرهم بالخروج من انواع المعارف البشرية الى احكام دينهم وما يتّصل بهِ من العناية باللغة والتبحّر في فنونها فتوهّموا

---

١ مدة ٢ تمكين ٣ حدّة ٤ جمع نوء بالفتح وهو طلوع نجم في المشرق وسقوط آخر بحيالهِ في المغرب ثم اطلق على المطر الذي يحدث عند ذلك

خطراً في كل علمٍ او فنٍ لا يرمي الى الغاية نفسها ولا علاقةٍ لهُ بالدين أو ظنّوا ان القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يغنيهم حتى في أُمور الدنيا عمّا سواهُ من كتب العلوم والصنائع ومن ثمّ نُسب الى عمر إحراق مكتبة الاسكندرية ومكتبة فارس بدعوى أنهُ « ان كانت تلك الكتب موافقة لما في كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى وان كانت مخالفة لهُ فلا حاجة لنا بها » — كأن ليس بين الموافقة والمخالفة حدٌّ أوسطُ بين طرفين نقيضين لا هو من هذا ولا هو من ذاك. اذلا يُفهم كيف يوافق القرآن أو يخالفهُ مؤلَّفٌ وُضع في الهندسة والحِيَل[1] أو في الحيوان والنبات. ومتى كان الغرض منه إرشاد الانسان الى معرفة الرياضيات او كيفيّة مزاولة[2] الزراعة ومعالجة التربة بما يُعدّها لقبول البذر وإنمائهِ وتكثير غلتهِ وما شاكل ذلك من مصالح هذه الحياة الدنيا ؟

ومهما يكن من صحة هذه الرواية اوفسادها في مسألةٍ غامضةٍ اختلفت فيها آراء علماء التاريخ ورجال البحث فانها ولا شك حكاية حال العرب والعلوم دهراً من الزمان ليس بقليل. فقد كانوا في الدولة الأُموية مع ملابستهم اهل الحضارة وانتقالهم الى المدن الفيحاء يترفعون حتى عن الصنائع العقلية كالحساب مثلاً على شدة حاجتهم اليهِ في ضبط شؤون الدولة ويعتبرونهُ مهنةً تغضّ من رفيع مقامهم إن تعاطوها. ولذلك أُلجئُوا أن يرتّبوا اهل الذمة في دواوينهم ويحكّموهم في اموالهم ويطيبوا خاطراً عن السيطرة[3] على اعمالهم فان اولئك العمّال كانوا يضبطون سجلّات الدولة بالروميّة ولم تُنقل الدواوين الى العربيّة الّا في

---

١ علم الحيل فرع من الرياضيات يبحث فيه عن نواميس الحركة والموازنة وتطبيقها ويعرف ايضاً بعلم جرّ الاثقال وهو ما يسميه الافرنج ميكانيك ٢ زاول الصناعة تعاطاها ٣ المراقبة

خلافة عبد الملك بن مروان خامس خلفاء بني أُمية المتوفّي سنة ٧٠٥ مسيحيّه .

وظل العرب زاهدين فيما سوى الامارة الى اوائل دولة بني العبّاس اذ انقضى عصر الفتوحات الجليلة ومُزّقت احزاب المطالبين بالخلافة كلّ ممزَّق وسئمت النفوس الهرج والمرج[1] وجنحت طبعاً الى الهدوء والطمأنينة والتمتّع بما توفّر لديها من أسباب الرفاهية والسعة .

ولمّا كان لعمران الدول نواميس لا تُعدّى اضطُرَّ العرب أن يعنوا لها او يقولوا على دولتهم السلام . فتجرّدوا من بداوتهم العزيزة واقتفوا آثار من سلفهم من الأُمم واكبّوا على اقتباس ما فاتهم من العلوم ورُزقوا في ذلك حظّاً وافراً اذ كانت الشعوب التي حلّوا في ظهرانيها ودانت لهم مستبحرة في العمران متقنة لأسباب الحضارة . فانّ السريان مثلاً كانوا حينما دهمهم العرب في نهضة علميّة زاهرة مقبلين على نقل علوم اليونان الى لسانهم وتحفّظها والاستزادة منها . وكانت اديار رهبانهم حافلة بخزائن الكتب الثمينة المنقولة عن اليونانيّة الى السريانية وإليها اختلف النقَلة حين هبّت في العرب ريح العلم وراجت سوق المعارف في دولتهم. ولم يكن الفتح ليصدّ[2] السوريّين زماناً طويلاً عن متابعة مباحثهم العلميّة فانهم ما زالوا من قدم الدهر مؤثرين للعلم بمعزل عما سواهُ واذا هم قضوا منهُ نهمتهم هان عليهم التعزّي حتى عن السلطة وتوابعها .

وامّا الفرس فمعلومٌ ما كان لهم من ضخامة الملك واتّساع العمران وترقي المدنيّة وقس عليهم سائر الشعوب المتعدّدة التي تضطرب في تلك المملكة المترامية الأطراف وجميعهم يتمنّون التقرب من ملوكهم واولياء أمرهم بما لديهم

---

١ الفتنة والقتال ٢ ليمنع

من المعارف المتنوّعة فما كاد الخلفاء يُبدون رغبة في العلوم حتى انثال عليهم اربابها من الآفاق وفي مقدّمتهم السريان والفرس وجميعهم يحكمون ما عدا لغتهم الأصليّة العربية واليونانية او غير ذلك. واوّل من رغب في نقل العلوم الى العربيّة ابو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العبّاس. أمر بنقل شيءٍ من كتب الطبّ والهيئة والهندسة.

وكان الداعي الى اهتمام المنصور بالطبّ أنهُ أُصيب بضعف في معدتهِ وسوء استمراء [1] عجز متطببّوا العرب عن معالجتهِ. فذكروا لهُ طبيباً سريانيًّا ماهراً يُعرف بجرجيس بن بختيشوع رئيس مارستان جنديسابور فتقدّم الى عامله هنالك بإحضارهِ وشكا لهُ مرضهُ فدبرهُ أحسن تدبير وشفي على يدهِ فأُعجب بهِ المنصور وخلع عليهِ وقربهُ وجعلهُ من اخصّائهِ. ولم يزل للأطبّاء عن الخلفاء شأن عظيم وحظوة وافرة لما يترتّب على حذاقتهم وأمانتهم من النفع الشخصيّ للخليفة تلافياً للعلّة او دفعاً لها وحذراً من سمّ يدسّهُ الاعداء في طعامهِ او شرابه وذلك سهلٌ على الطبيب. فكان الخلفاء ومن اليهم من الأُمراء والسلاطين يُجرون على اطبّائهم الارزاق الواسعة ويملأُون عيونهم وقلوبهم مالاً ويتحبّبون اليهم بالمحاسنة والملاطفة لئلايكون لهم غايةٌ في مجاراة من يقصدون بهم شرًّا. وسترى مثُلاً لذلك فيما يأتي من التراجم ان شاءَ الله.

وكان المنصور مع براعتهِ في الفقه كثير الولوع بعلم النجوم كلِفاً [2] بمعرفة حركات الكواكب والوقوف على نواميسها لا لمجرّد الاحاطة بحقائق علم الهيئة كما هو المقصود من ذلك في ايّامنا بل لتمكّن النجامة من قلبهِ وشدّة اعتقادهِ بتأثير الحوادث الجوّيّة في شؤون الخلق وحظوظهم فما

---

١ استمرأ الطعام وجدهُ مريئاً اي طيباً سائغاً ٢ محبًّا

كان يقدم على عملٍ الا بعد استشارة المنجّمين . وهذا ضلالٌ لم يسلم منهُ كبير ولا صغير من الاقدمين مهما رُزق من رجاحة العقل وسعة العلم حتى لم تكن الغاية عندهم من تعلّم احكام النجوم سوى الوقوف على هذه الخرافات المضحكة التي نزلت من قلوبهم منزلة الحقائق الراهنة .

وكذلك القول عن الكيمياء فان معالجتهم المادّة على طُرُق وكيفيّات شتّى بالتحليل والتركيب والتكليس والتصعيد[١] والتخمير انما كانت للوصول الى ما تمثّل في خيالهم من مركّبٍ دعوهُ بالاكسير أو الحجر الفلسفيّ اذا أُلقي على المعادن أحالها ذهباً إبريزاً[٢] وناهيك بذلك الاكتشاف سعداً للكيماويّ البخيت الذي أُتي حظ العثور عليهِ ولبني الانسان من بعدهِ ان هو شاءَ من فضلهِ أن يُفضي اليهم بسرهِ العجيب — بل ممّا يجدر ذكرهُ في هذا المقام وفاءً لحق التاريخ هو أن خالد بن يزيد بن معاوية الأُمويّ الملقّب « حكيم آل مروان » سبق ابا جعفرٍ المنصور بنقل شيءٍ من مؤلّفات الأعاجم الى العربيّة فانهُ استقدم جماعة من علماء الكيمياء تلقّى عنهم هذه الصناعة وأمر بتعريب كتبها وألّف هو نفسهُ فيها من جملة الكيماويّين الذين تخرّج عليهم راهب روميّ اسمهُ مريانوس . فمن اهتمام حكيم بني مروان بهذه الصناعة وتلقّيهِ اياها عن راهب ترى ما أشدّ ماكان اعتقاد القوم بامكان تحويل المعادن واستحكام هذه الخرافة من عقولهم .

غير أنّ تقليب الاقدمين للموادّ على كلّ وجهٍ ممكن كان إسّاً للكيمياء الحديثة التي ملك بها القوم أزمّة العناصر ووقفوا على مكنون سرّها حتى جاءُوا بالخوارق المدهشة ممّا تحدّثنا عنهُ صحف الاخبار كلّ يوم بجديد. ومع ما شاع في تلك الاعصر من مزيّة الكيمياء في تحويل الفلزّات[٣] فقد

---

١ صعّد الشراب عالجهُ بالنار حتى يحول عما هو عليهِ طعماً ولوناً ٢ خالصاً ٣ المعادن

قام جماعةٌ من الحكماء وأعلنوا على رؤوس الاشهاد بطلان هذه المزاعم والفوا الكتب في تزييف مقالات اصحابها لكن الاطماع أصمّت آذان القوم عن سماعهم فلم يكن لهم من مجيب. وما زال الجهل في كلّ زمان ظهيراً للمشعوذين [1] على اصحابه.

واما الهندسة فقد امر المنصور بنقل بعض كتبها لما لها من العلاقة بالهيئة. وحذا خلفاؤهُ من بعدهِ حذوهُ كلٌّ على قدر طاقتهِ ومسالمة الايام لهُ وكانوا يوعزون الى امراء جيوشهم أن يصرفوا مزيد العناية الى استبقاء الكتب التي تقع في ايديهم او يعثرون عليها في مخابئها وصيانتها من ايدي الجهلة وارسالها الى بغداد لتُنقل الى العربيّة فعرّب ارباب المعرفة ما وصلت اليهِ يدهم من كتب الطبّ وما اليهِ من الفنون كالصيدلة والكيمياء والنبات والحيوان واتمّوا نقل كتب النجوم وما يتصل بها من العلوم الرياضيّة كالهندسة والحيَل والجبر وقس عليهِ سائر العلوم المعروفة لزمانهم. وللعرب في حفظ العلم فضلٌ اشهر من أن ينبَّه إليهِ فان كثيراً من كتب الهنود واليونان التي اشتغل فيها العرب ضاعت أصولها ولم تبق الا ترجمتها العربيّة فضلاً عما استنبطوهُ من عند انفسهم او زادوا عليهِ ورقّوهُ كعلم الجبر مثلاً فان المحقّقين اليوم على انهُ يكاد يكون من موضوعاتهم لأن ما أخذوا منهُ عن اليونان ليس بشيءٍ يذكر وهم الذين نشروا في العالم الارقام الهنديّة وعنهم أخذها الافرنج وهم يسمّونها الارقام العربيّة.

وما زالت شعلة العلم تمتدّ في العرب حتى تربّع في دست الخلافة عبد الله المأمون بن هارون الرشيد الخليفة العالم الفيلسوف ففاق من سبقهُ في الحرص على جمع الكتب ونقلها مهما كان موضوعها وراسل ملوك الروم في هذا الشان

---

[1] شعوذ الرجل موّه على الناس واراهم اشياء على غير هيئاتها بخفة يدهِ وخلابة حديثه

وتقدم اليهم ان يصلوهُ بما لديهم من المؤلّفات النفيسة حتى كان يجعل أخراج هذه الكتب الى العرب من شروط الصلح بعد الفتح . فلبّى الملوك طلبهُ مختارين او مضطرّين وأوعز بنقلها ونشرها في رعاياهُ ورغّبهم في قراءتها وبذل للنقلة اضعاف ما يستحقّون وكلّما زادوهُ في النقل زادهم جزاءً وغمرهم بالصلات الوافرة فلم يبق ضربٌ من العلوم والصنائع والفنون الا نُقلت كتبهُ الى العربيّة وتعلّمها العرب ثم علّموها وأقبلوا على ترقيتها بالتبويب والترتيب والاستنباط على ما ناهزتهم مدة دولتهم على قصرها كما هو معلوم . ولم يفتهم من الفنون سوى الجراحة في الطبّ والنحاتة [1] والتصوير من الآداب الرفيعة . امّا الجراحة فلمّا كانت متوقّفة على التشريح وهو محرم عندهم لم تكن لهم فيها يدٌ قويّة ولا يُذكر من أعمالها فيها الا القليل وكذلك القول عن النحاتة والتصوير فانّهما من الصنائع التي لا يجوز لمسلم تعاطيهما شرعاً غير انهم استعاضوا عنهما بالحفر وبلغوا من البراعة والدقة والأناقة فيه بحيث ضرب الافرنج المثل بالنقوش العربيّة في الجمال والغرابة وآثارهم التي أعجزت طوارئ الحدثان فظلّت قائمة الى يومنا هي أدلّة حيّة تنطق ببراعة مشيّديها في هندسة الأبنية وحسن ذوقهم في زخرفتها . وهكذا اجتمع عند العرب خلاصة علوم الاقدمين من يونان وسريان وفرس وهنود وكلدان وانباط ومصريين وغيرهم ممن درج قبلهم وعنوا بها مدّةً من الدهر وعنهم اقتبسها الافرنج حين تنبّهت فطنهم وثابت هممهم من سباتها فيما يسمّونهُ «عصر الانبعاث»

وكان اسلاف المأمون على عرش الخلافة قد أحجموا [2] عن نقل كتب الفلسفة وإخراجها الى الناس فأقدم هو على هذا الامر ولم يدع كتاباً في

---

١ صناعة نحت التماثيل ٢ ضدّ اقدموا

الحكمة معروفاً لزمانه الاّ أوعز بترجمته وبثّ نسخه في القوم. فعرِّبت على زمانه مؤلّفات فلاسفة اليونان عن بكرة ابيها [١] وكان هو نفسه منطقيّاً بعيد النظر مولعاً بالفلسفة يعقد مجالس البحث والمناظرة وينشّط الجلساء للخوض في الجدليّات ويطلق لكلٍّ حرّيّته في إبداء رأيه وتأييده بما يحضره من البراهين ولو خالف رأي الخليفة نفسه. فأقبل العرب على قراءة كتب الفلسفة وأتقنوا حفظها وألّفوا فيها التصانيف العديدة.

وتعاقبت على علوم الفلسفة اطوارٌ شتى عند العرب فزهت وزهرت في عهد المأمون ومَن على رأيه من الخلفاء كما مرّ ذكره في الكلام على «الفقهاء والمحدثين» ثم أفل نجمها عند ارتقاء المتوكّل الى سدّة الخلافة فناصب الفلاسفة العداءَ [٢] وأحلّ بهم البلاء وتتبّع آثارهم في طول المملكة وعرضها عازماً على قطع دابرهم [٣] لو استطاع الى ذلك سبيلاً. وقد فاته ان الشعب كالطفل اذا نما وترعرع فعبثاً يحاول اولياء أمره ردّه الى السرير وإدراجه في القُمُط ثانيةً. فان المأمون سرّح العقول ونزع عنها التمائم [٤] وأطلق للافكار عنانها وجعل لها الحبل على الغارب [٥] فتعذّر على من جاء بعده ردّ الأمّة على الأعقاب. ولمّا كان كلّ ممنوعٍ مرغوباً فيه زاد اشياع الفلسفة عدداً وعمدوا الى التستر ولم يكن هدوء جلبتهم [٦] الا ككمون النار في جوف الارض وشرّ الداء ما كان خفيّاً. فأنشأوا في المملكة جمعياتٍ سرّيّة عقدوها بمعزل عن مواقف الرقباء كانوا يطلقون فيها لأفكارهم واقوالهم الحرّيّة التامّة على اختلاف الأديان

---

١ اي جيمها ٢ اظهر لهم العداوة وقاومهم ٣ آخر من بقي منهم ٤ جمع تميمة وهي كل ما يعلق من خرزة ونحوها لدفع العين عن الولد ٥ الغارب من البعير ما بين السنام والعنق والعبارة مثل يضرب لاطلاق الحرية ٦ ضجتهم

والمذاهب فيتباحثون ويتفلسفون آمنين مطمئنّين حيث لا عين ترى ولا اذن تسمع . واشتهر من تلك الجمعيّات جمعيّة « اخوان الصفاء » .

ثم ما عتم الخلفاء ان غُلبوا على امرهم بنبوغ الدولة البُويهيّة في ظهرانيهم واستئثار اربابها بالحلّ والربط دونهم متبرّعين عليهم بالسلطة الروحيّة لا غير . فأُعتقت العقول والألسنة من اسارها وعاد القوم الى الاشتغال بالفلسفة على رؤوس الملأ وقد زادهم رغبةً فيها وشغفاً بها ما حال سابقاً في وجوههم من الموانع القاهرة وما لقوا من الشدة والضغط والمحنة في سبيلها — وكلّ فعل يقابلهُ ردٌّ من ضدّهِ مساوٍ لهُ في القوّة .

ولاخوان الصفاء احدى وخمسون رسالةً مشهورة دوّنوا فيها خلاصة ما تداولوهُ من المباحث وهي زبدة الفلسفة العربيّة . ومن تصفّحها يقف القارئ على آراءٍ سديدة تشهد لأصحابها بالحنكة وبُعد الغور في العقليّات ولا ينكرها فلاسفة ايّامنا مع طول باعهم في النظريّات ودقة افكارهم في الاستدلال والاستنباط .

ونرى مما اسلفنا أنّا عنينا « بالعلماء » اصحاب العلوم الدخيلة على تعدّدها وهم عددٌ غفيرٌ من الأعلام الأماثل لا يتّسع لتعدادهم هذا المختصر فسنذكر أشهرهم اسماً وأوسعهم سُمعةً في عالَم العلم والصناعة والله وليّ التوفيق بمنه وكرمهِ .

أَلنَّقَلَــةُ

حُنَيْنُ بْنُ إِسْحَاق (٨٧٤م ٢٦٠هـ)

هو ابو زيد حُنين بن اسحاق العباديّ الطبيب النصرانيّ الشهير. كان ابوهُ صيدلانيّـاً بالحيرة ونشأ الولد محبّاً للعلم فقصد بغداد وحضر مجلس يوحنا ابن ماسويهِ وجعل يخدمهُ ويقرأ عليهِ وكان كثير السؤال فسأل أستاذهُ يوماً مسألةَ مستفهم وكان يصعب على يوحنا استقصاء تلميذهِ وتواتر أسئلتهِ فحرد وقال « ما لاهل الحيرة والطبّ. عليك ببيع الفلوس[1] في الطريق » وأمر بهِ فأُخرج من دارهِ. فخرج حُنين باكياً وتوجّه الى بلاد الروم وأحكم هنالك اللغة اليونانيَّة وحصّل من كتب الحكمة شيئاً كثيراً ثم عاد ولزم الخليل ابن احمد حتى برع في اللسان العربيّ وانقلب راجعاً الى بغداد فظهر علمهُ وعظم أمرهُ واشتهر بالاحاطة في علوم الفلسفة والطبّ وبدت لهُ عجائب في التأليف والتفسير والنقل وأجلّ اطباء بغداد مقامهُ حتى ابن ما سويهِ نفسهُ وكانوا جميعاً في حاجةٍ اليهِ لتضلُّعهِ من اليونانية والعربيّة وصحّة نقولهِ وقد عرّب من مؤلّفات اليونان ما لا محلّ لاستيفائهِ ههنا ولا يكاد يوجد كتابٌ منقولٌ في ذلك العهد الاّ ولحُنين فيهِ يدٌ امّـا بالتصحيح او التهذيب او

[1] اراد ببيع الفلوس الاشتغال بالصيرفة

التفسير — وكان جرجيس بن بختيشوع يبجّله كثيراً واذا خاطبه قال له «ربن حُنين» اي يا معلّمنا حنين. وناهيك بهذا اللقب من جرجيس شرفاً لحُنين ورفعة وتنويهاً بعلمه وانفساح ذرعه.

ولمّا اراد المأمون نقل كتب الفلسفة حشد الى قصره جماعة من مهرة التراجمة ورأس عليهم حُنيناً لينظر فيما ينقلونه ويصلحه. وبذل له في مقابلة اتعابه الاموال الفاحشة حتى لقد كان يعطيه على ما يروون زنة ما ينقله هو ذهباً عيناً. ولا تسل عن اختيار حُنين لأغلظ الرقوق وتفريق أسطر الصفحات وتكبير حروف الكلمات طمعاً في توفير حجم الكتاب وجائزة نقله.

ولمّا رقي المتوكّل عرش الخلافة استخص حنيناً لنفسه وغمره بالأعطية الجزيلة واقطعه الاقطاعات السنيّة وقرّبه وحادثه محادثة الخلاّن وقال له في معرض الحديث «أريد ان تصف لي دواءً يقتل عدوًّا لا يمكن اشهار امره وانّما يكون ذلك سرًّا» فقال حُنين «ما تعلّمت غير الادوية النافعة ولا علمت ان امير المؤمنين يطلب مني غيرها» فرغّبه الخليفة وتهدّده على غير جدوى[1] وحبسه في بعض القلاع سنة ثم أحضره وامر بسيف ونطع[2] وأعاد عليه قوله فقال حنين «قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية» فقال المتوكّل «فانني قاتلك» فقال «لي ربٌّ يأخذ لي حقّي غداً في الموقف الاعظم» فتبسّم الخليفة وقال له «طب نفساً فانّا اردنا امتحانك والطمأنينة اليك» ثم سأله عن سبب امتناعه مع ما رأى من صدق الامر وجدّ المقال فقال حُنين «هما الدين والصناعة. امّا الدين فانّه يأمرنا باصطناع الجميل مع اعدائنا فكيف ظنّك بالأصدقاء. وامّا

---

١ منفعة ٢ النطع بساط من جلد يجعل تحت المحكوم عليه بالقتل

الصناعة فانها موضوعة لنفع ابناء الجنس وقد جُعل في رقاب الاطبّاء عهدٌ مؤكّدٌ بأيمانٍ[1] مغلّظةٍ أن لا يعطوا دواءً قتّالاً لأحد» فقال الخليفة «انهما لشرعان جليلان».

وجرت مناظرةٌ يوماً بين حُنين وكاتبٍ نصرانيّ يقال لهُ الطيفوريّ في شأن الصُّوَر ادَّعى فيها حنين انهُ لا ينبغي اكرام الصور المقدّسة اخذاً ببدعةٍ شهيرة نصرها ملوك القسطنطينيّة واضطهدوا فيها من لا يقولون بقولهم وقد وقف في وجوه اصحابها دفاعاً عن الحقّ وازهاقاً[2] للباطل عدّةٌ من جلّة العلماء اللاهوتيين اشهرهم القدّيس يوحنا الدمشقي وقصّتهُ مع لاون الايزوريّ معروفة عند الخاصّة والعامّة. وتهوّر حنين في جدالهِ الى حدٍّ فاحش فرُفع امرهُ الى المتوكّل وسألهُ جماعةٌ ان يبيح[3] الحكم عليهِ لارباب الديانة النصرانيّة فبعث الى الجاثيليق[4] والاساقفة من يسألهم في ذلك فأوجبوا حرم حُنين. فحُرِمٍ وقُطع زنّارهُ وانصرف الى دارهِ وفي نفسه ما فيها ومات من ليلتهِ فجأَة وقيل انهُ سقى نفسهُ سمّا وهو غريبٌ من رجلٍ آثر الموت قتلاً على الاشارة بدواءٍ سامّ لعدوّ واذا صحّ هذا الامر فانهُ يكون اقبح ختامٍ وأفضح عارٍ ركبهُ انسانٌ قضى عمرهُ بالرفعة والشرف والعزّ والجاه العريض. اذ لا ينتحر الا النذل الجبان ذو النفس الصغيرة.

إِسْحَاقُ بنُ حُنَيْن (٩١١م ٢٩٩ هـ)

هو ابو يعقوب اسحاق بن حنين المارّ ذكرهُ. كان من مشاهير اطبّاء عصرهِ ولحق بأبيهِ في النقل ومعرفة اللغات وفصاحتهِ فيها. فخدم على الترجمة

١ جمع يمين وهي الحلف ٢ ابطالاً ٣ يسمح ٤ مقدّم الاساقفة

وتولّاها وأتقنها وكانت نفسهُ أميل الى الفلسفة. ولذلك فأكثر ما نقل عن اليونانية كان في الحكمة من مقالات ارسطوطاليس وغيرهِ وقلّت نقولهُ في الطبّ. وخدم اسحاق من الخلفاء والرؤساء من خدمهم ابوهُ ثم انقطع الى الوزير القاسم بن عبيد الله واختصّ بهِ حتى كان الوزير يطلعهُ على اسرارهِ ويفضي اليهِ بما يكتمهُ عن غيرهِ. ولهُ كما لأبيهِ خلا النقول مصنّفاتٌ في الطبّ. ولحقهُ الفالج في آخر عمرهِ.

ثَابِتُ بْنُ قُرَّة (٩٠٢م ٢٨٨هـ)

هو ابو الحسن ثابت بن قرّة الحرّاني. كان في مبدإ أمرهِ صيرفيّا بحرّان ثم انتقل الى بغداد واشتغل بعلوم الأوائل فمهر فيها وبرع في الرياضيّات خاصّة وله فيها وفي الهيئة استنباطاتٌ وآثارٌ حسنة. وكان من المبرّزين في الفلسفة والطبّ ولهُ ما عدا النقول تآليف كثيرة في فنونٍ من العلم تشهد لهُ ببُعد الغور ورسوخ القدم.

وكان ثابت صابئيّ المذهب ولهُ في رسوم دينهِ وفروضهِ وسننهِ تصانيف بالسريانية وتفرّد في مذهب قومهِ بآراء انكروها عليهِ ورافعوهُ الى زعيمهم فرذل مقالتهُ ومنعهُ من دخول الهيكل فتاب ورجع عن ذلك ثم ما عتّم أن عاد الى سابق قولهِ فقطعوهُ من المجمع وخرج من حرّان ونزل كفر توثا ولقي هنالك محمّد بن شاكر راجعاً من بلاد الروم فاتصل بهِ وعاد معهُ الى بغداد وانزله محمّد دارهُ واجلّ قدرهُ لما رأى من فضلهِ وسعة معارفهِ ووصلهُ بالخليفة المعتضد فأدخلهُ في جملة المنجّمين ونال حظوةً في عينيهِ وعظمت مكانتهُ عندهُ بحيث كان يحادثهُ محادثة الخلان ويضاحكهُ ويقبل عليهِ دون وزرائهِ وخاصّتهِ.

قُسْطا بْن لُوقَا (٩٢٣م ٣١١ﻫ)

هو قسطا بن لوقا البعلبكّيّ الفيلسوف النصرانيّ. كان مولعاً بالفلسفة والطبّ ودخل بلاد الروم وحصّل من تصانيفهم عدداً وافراً وعاد الى الشام وذاع صيتهُ في الآفاق فاستدعاهُ المستعين بالله الى بغداد وولاّهُ ترجمة المؤلّفات اليونانية وكان بارعاً في اللغات اليونانية والسريانية والعربيّة فصيحَ العبارة في نقوله رشيقَ الانشاء واضحَ المنهج ولهُ ايضاً تصانيف جليلة كثيرة في فنون متنوّعة. وقد قال ابن العبريّ في حقّه «لو قلت حقّاً قلت انهُ افضل من صنّف كتاباً بما احتوى عليهِ من العلوم والفضائل وما رُزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعاني».

ويُقال انهُ قصد ارمينية بدعوة احد الامراء واقام بها الى أن مات هناك وبُني على قبرهِ قُبّةٌ اكراماً لهُ كاكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع.

* * *

هؤلاء زعماء النقَلة ويليهم جماعة من مَهرَةِ التراجمة عرّبوا تآليف شتى عن لغاتٍ متعدّدة ولهم فضلٌ وافر وان ونت خطواتهم عن اللحاق بمن ذكرنا. منهم حُبَيش بن الاعسم وهو ابن أخت اسحاق بن حنين وأحد خرّيجي حنين بن اسحاق واعزّ تلاميذهِ اليهِ. وقيل انهُ من جملة سعادة حُنين صحبهُ حُبيش لهُ فانّ اكثر ما نقلهُ حبيش نُسب الى حُنين. وكثيراً ما يرى الناس شيئاً من الكتب القديمة بنقل حبيش فيظنونهُ انهُ حُنين وقد صُحّف لتقارب الاسمين في الكتابة فيكشطهُ ويجعلهُ حُنين — ومنهم الحجّاج بن مطر نقل كتاب المجسطي في الهيئة لبطليموس القلوذيّ ومقالات

اقليدس في الهندسة — ومنهم عبد المسيح بن عبد الله الحمصي" الناعمي" نقل بعض كتب ارسطو وكان حسن العبارة فيما يعرّب — ومنهم سرجيس بن الياس الرأس عيني" الفيلسوف نقل كتباً كثيرة الى السريانية وبعضاً الى العربيّة ولم يكن متضلّعاً منها تضلّعه من السريانية — ومنهم أبو بشر متّى بن يونس زعيم المنطقيّين في عصره ومصره. كان مكثراً في شروح المنطق وطيء الكلام يتوخّى التعليم والتفهيم — ومنهم ابو زكريّا يحي بن عدي" التكريتي" المنطقي نزيل بغداد له تصانيف وتفاسير ونقول عديدة وكان ملازماً للنسخ يكتب خطّاً قاعداً بيّناً في اليوم والليلة مئة ورقة واكثر — ومنهم عبد الله بن المقفّع ناقل كتاب كليلة ودمنة وله نقول أُخر وقد مر" ذكره في باب «المنشئين» — ومنهم ابو بكر أحمد بن علي" المعروف بابن وحشيّة الكلداني" ترجم عن النبطيّة كتباً عديدة اشهرها كتاب الفلاحة النبطيّة وهو مؤلّف ثمين في هذا المعنى — ومنهم منكه الهندي" كان ينقل عن السنسكريتيّة . الى غير هؤلاء ممن يطول سرد اسمائهم على غير جدوى لما نحن فيه .

الأطبّاء

اقدم من ورد له ذكرٌ في التاريخ من اطبّاء العرب الحارث بن كلدة الثقفي الطائفي رحل الى ارض فارس واخذ الطب" عن اهل جُنْدَيْسابور وغيرها في الجاهليّة وطبّب بأرض فارس وحصّل مالاً . ثم اشتاقت نفسه

الى بلاده فرجع الى الطائف واشتهر وادرك الاسلام وكان النبيّ يأمر من به علّة ان يأتيهُ ويستوصفهُ. ومن اقوال الحارث «من سرّهُ البقاء ولابقاء فليباكر الغذاء وليخفّف الرداء وليقمع الاهواء» — وتلاهُ ابنهُ النضر وهو ابن خالة النبي فقفا آثار ابيه ورحل الى فارس وغيرها في طلب الطبّ والحكمة واجتمع بالعلماء وعاشر الاحبار والرهبان ووعى عنهم علوم الأقدمين ورجع الى وطنه وشايع اعداء محمّد وتناولهُ بمقالات الازدراء والتحقير ومن كلامه في حقّه «محمّد يأتيكم بأخبار عاد وثمود وانا آتيكم بأخبار الاكاسرة والقياصرة» وأُسر في واقعة بدر وقيد الى النبيّ فأمر عليَّ بن ابي طالب فضرب عنقهُ وذهب خبرهُ. ورثتهُ ابنتهُ بشعرٍ رائق منهُ قولها المشهور تخاطب محمداً:

ما كان ضرّك لو مننتَ وربّما   منّ الفتى وهو المغيظ المُحنَقُ[1]

وهذا البيت من ابيات قالوا انها اكرم شعر موتورٍ[2] وأعفّهُ وأكفّهُ وأحلمهُ.

وذكر ابن العبريّ من اطبّاء الدولة الأُمويّة ما سرجويه وتياذوق وثاودون طَبيبَيْ الحجّاج بن يوسف الثقفيّ. قال: امّا تياذوق فلهُ تلاميذ اجلاء تقدّموا بعدهُ ومنهم من ادرك الدولة العبّاسيّة كفُرات ابن شحناثا في زمان المنصور. واما ثاودون فلهُ كنّاش كبير عملهُ لابنهِ. وقيل انهُ دخل على الحجّاج يوماً فقال لهُ الحجّاج «ايُّ شيءٍ دواء اكل الطين» فقال «عزيمة مثلك ايّها الامير» فرمى الحجّاج بالطين ولم يعد الى اكله بعدها.

---

١ تقول لو مننت على ابي بالعفو لم يجلب ذلك عليك ضرراً اذ قد تقضي الحكمة على الانسان ان يعفو على الذي غاظهُ واحنقهُ ٢ من قتل لهُ حميم فهو يطلب ثارهُ

آلُ بَخْتيشُوع

كان آل بختيشوع من النصارى النساطرة وأصلهم من جُنْدَ يسابور وقد نبغ منهم في الطبّ عدة افرادٍ أماثل لم يشقّ لهم غباراً امهر اطبّاء زمانهم وخدموا بني العبّاس نحو ثلاثة قرون كانوا فيها واسطة قلادة العلماء في الطبّ والفلسفة وعنوان الفضل الوافر ونالوا عند الخلفاء من الثقة والحظوة والكرامة والجاه ما لم ينلهُ غيرهم من اقطاب العلم وشيوخ العرفان. وسنذكر ههنا شيئاً من أخبار مشاهيرهم ونكتفي بذكر أسماء سائرهم خوفاً من التطويل .

جِرجِيسُ بْنُ بَخْتِيشُوع (٧٧٠م ١٥٣ هـ)

هو جرجِيس أو جيورجيس بن جبريل بن بختيشوع. كان من نُطُس اطِبّاء زمانهِ وظهرت لهُ معالجات باهرة رفعت شأنهُ وأذاعت شهرتهُ وأُقيم رئيساً على مارستان جُنْدَ يسابور وتتلمذ لهُ قوم كثيرون. ومرض ابو جعفر المنصور فأمر باحضاره فتمنّع في بداءَة الامر ثم اذعن وخرج الى بغداد ووصّى ابنهُ بختيشوع بالمارستان. ولما مثل بين يدي المنصور دعا لهُ بالفارسيّة والعربيّة فعجب المنصور من حسن منطقهِ ومنظرهِ وأمرهُ بالجلوس وسألهُ عن اشياء فأجابهُ عنها بسكون فافتتن بهِ واطمأنت اليهِ نفسهُ وشكا اليهِ علتهُ فأحسن تدبيرهُ ومعالجتهُ حتى برِئَ على يدهِ باذن الله فغمرهُ الخليفة بالنعم وقرّبهُ واستخصّهُ بنفسهِ وأوعز باكرامهِ كما يُكرم اخصّ الاهل .

وبلغ من عناية المنصور بطبيبه انهُ رأى تغيّراً في وجه جرجيس وآثار ضعف أنكرها فقال لحاجبه الربيع « أرى هذا الرجل قد تغيّر وجههُ. فلعلّك منعته ُممّا يشربهُ على عادته » فقال الربيع « لم نأذن لهُ ان يُدخل الى هذه الدار مشروباً » فغضب المنصور وقال لهُ « لا بدّ ان تمضي بنفسك وتحضر لهُ من المشروب كلّ ما يريدهُ » فمضى الربيع الى قطربلّ وحمل منها اليه غاية ما أمكنهُ من الشراب الجيّد — وقال المنصور يوماً لجرجيس « من يخدمك ههنا » فقال « تلامذتي » فقال لهُ « سمعتُ انهُ ليست لك امرأة » فقال « لي زوجةٌ كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها » وانصرف بعد ذلك من الحضرة وذهب الى البيعة . فأمر المنصور خادمهُ أن يحمل من الجواري الروميّات ثلاثاً الى دار جرجيس مع ثلاثة آلاف دينار. ولما انصرف جرجيس الى منزله عرّفهُ عيسى بن شهلاثا تلميذهُ بأمر الجواري فأنكر امرهنّ وقال لهُ « يا تلميذ الشيطان لمَ ادخلت هؤلاء الى منزلي. امضِ وردّهنّ على اصحابهنّ » فرُدّت الجواري واتصل الخبر بالخليفة فأحضرهُ وقال لهُ « لمَ رددتَ الجواري » فقال « لا يجوز لنا معشر النصارى ان نتزوّج بأكثر من امرأة واحدة وما دامت المرأة حيّةً لا نأخذ غيرها » فحسن موقع هذا من الخليفة وزاد موضعهُ عندهُ وهذا ثمرة العفّة .

ومرض جرجيس واشتدّ مرضهُ فخرج المنصور اليه ماشياً وتعرّف خبرهُ فقال لهُ جرجيس « ان رأى امير المؤمنين ان يأذن لي في الانصراف الى بلدي لأنظر اهلي وولدي وان متُّ قبرتُ مع آبائي » فقال لهُ « يا حكيم اتّقِ الله وأسلم وانا اضمن لك الجنة » قال جرجيس « قد رضيت حيث آبائي في الجنة او في النار » فضحك المنصور ثم قال « اني منذ رأيتك وجدت راحةً من الامراض التي كانت تعتادني » فقال جرجيس « انا اخلّف بين

يدَي امير المؤمنين عيسى تلميذي فهو ماهر » فأمر لهُ الخليفة بعشرة آلاف دينار وأذن لهُ بالانصراف وأنفذ معهُ خادماً وقال ان مات في الطريق فاحملهُ الى منزلهِ ليُدفن هناك كما أحبّ» فوصل الى بلده حيًّا .

بَخْتيشُوع بْنُ جِرجِيس (٧٩٨ م ١٨٢ هـ)

هو بختيشوع بن جرجيس السابق ذكرهُ . تخرّج على أبيهِ وبلغ من البراعة بحيث استخلفه مكانَهُ على مارستان جنديسابور حين فارق تلبيةً لأمر الخليفة كما مرّ بك آنفاً وكفى بذلك شهيداً على منزلتهِ ومهارتهِ في مهنتهِ. ولم يزل قيّماً [١] على المارستان حتى جاءهُ امر الخليفة الهادي بالشخوص اليهِ وكان قد أصابهُ مرضٌ حار فيهِ اطباء بغداد وعجزوا عن مداواتهِ. غير انهُ ما كاد يلقي بختيشوع عصا الترحال في مدينة السلام حتى قضى الهادي نحبهُ فانكفأ عائداً الى بلدهِ وقد رأى من حسد الأطبّاء ما كشف لهُ عن سوء نيّاتهم ومرض قلوبهم وكرّه اليهِ استيطان بغداد . وما مضت على عودتهِ سنة حتى أنفذ الرشيد من يحملهُ اليهِ على إثر صداعٍ [٢] عراهُ ولمّا مثل بين يديهِ اسفر كلامهُ عن فصاحة خلّابةٍ وحكمةٍ نادرةٍ فسرّ بهِ الخليفة ايما سرور وخلع عليهِ واكرمهُ.

واحبّ الرشيد ان يمتحنهُ ليطمئن قلبهُ اليه وجلاءً [٣] لريبٍ من علمه لقّنهُ ايّاهُ طبيبهُ الخاصّ ابو قريش الصيدلانيّ وكان رجلاً حسوداً ضعيف العقل ليس لهُ من صناعة الطب سوى المخرقة والتمويه والوقاحة.

---

١ مدبّراً ٢ وجع الرأس ٣ كشفا

فقدموا لبختيشوع تفسرةً [١] في قارورة جعلوا فيها ماء دابّة فلمّا رآها قال « يا امير المؤمنين ليس هذا ماء انسان » فكذّبهُ ابو قريش فقال له « لك اقول ايّها الشيخ الكريم ان هذا ليس ماء انسان وان كان الامر على ما قلتَ فلعلّهُ صار بهيمة » فتبسّم الرشيد وقال لهُ « ما ترى ان نُطعم صاحب هذا الماء قال « شعيراً جيّداً » فضحك الخليفة وأمر لهُ بجائزة وولّاهُ رئاسة الاطبّاء وأمرهم بامتثال اوامرهِ والوقوف عند نواهيهِ والعمل باشارتهِ . ومن ذلك الحين لم يزل واحدٌ من بني بختيشوع يخدم الخلفاء مختصاً بهم دون من سواهُ .

جِبرِيلُ بنُ بَخْتِيشُوع (٨٢٨ م ٢١٣ ﻫ)

هو جبريل بن بختيشوع المار ذكرهُ اخذ الطبّ عن والدهِ وكان قد وضع لهُ كتاب التذكرة ومرض جعفر بن يحيى فخدمهُ بختيشوع ولمّا تماثل قال لهُ « اريد ان تختار لي طبيباً ماهراً » فقال لهُ « لست أعرف في هؤلاء الاطبّاء أحذق من ابني جبريل » فقال جعفر « احضرنيهِ » فلما أحضرهُ شكا اليهِ داءً كان يخفيهِ فدبّرهُ في مدة ثلاثة ايام وبرئ فأحبهُ جعفر مثل نفسهِ وغمرهُ بانعامهِ . واتفق في بعض الايام ان تمطّت [٢] جاريةٌ من جواري الرشيد ورفعت يدها فبقيت مبسوطة لا يمكنها ردّها. وعالجها الاطبّاء بالتمريخ [٣] والادهان فلم ينجح شيءٌ من ذلك . فذكر جعفر جبريل ومهارتهُ فأمر الخليفة باحضارهِ وشرح لهُ حال الصبيّة

---

١ ماء المريض يستدلّ بهِ على علتهِ ٢ مددت يديها وجذبتهما اليها ٣ مرّخ بدنهُ دهنهُ وفركهُ

فقال « ان لم يسخط امير المؤمنين عليّ فلها عندي حيلة » قال الرشيد « وما هي » قال « تخرج الجارية الى ههنا بحضرة الجمع حتى اعمل ما أريد وتتمهّل علي ولا تسخط عاجلاً » فأمر الرشيد فخرجت وحين رأها جبريل اسرع اليها ونكس رأسها وامسك ذيلها فانزعجت الجارية ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت اعضاؤها وبسطت يدها الى اسفل وامسكت ذيلها فقال جبريل « لقد برئت يا امير المؤمنين » فقال الرشيد للجارية « أبسطي يدكِ يمنةً ويسرةً » ففعلت فعجب الرشيد وكلّ من حضر وامر لهُ في الوقت بخمس مئة الف درهم واحبّهُ حبّاً لا مزيد عليهِ وحظي عندهُ حظوة عجيبة حتى كان يقول « من كانت لهُ اليّ حاجة فليخاطب بها جبريل لأني أفعل كل ما يسألني فيهِ ويطلبهُ مني » وبلغ اعزازهُ لهُ انهُ دعا لهُ وهو في الموقف بمكّة دعاءً كثيراً فأنكر عليهِ ذلك بنو هاشم وقالوا « ياسيدنا ذمّيّ » فقال « نعم ولكن صلاح بدني وقوامهُ بهِ وصلاح المسلمين بي فصلاحهم بصلاحهِ وبقائهِ » فقالوا « صدقت يامير المؤمنين » .

وخدم جبريل الأمين والمأمون ونال من سخائهم الاموال الطائلة ونادمهما كانت منزلتهُ عند المأمون مثل سابق منزلتهِ عند الرشيد وأمر اصحاب الخطط من عمالٍ وقوّاد ووزراء باجلالهِ واكرامهِ ولهُ مع الخلفاء نوادر كثيرة تدلّ على قرب مكانهِ منهم ورتع في النعمة والرخاء الى آخر ايّامهِ وخلّف من الاموال والعقارات شيئاً وافراً واذا احببت نموذجاً مما كان يصلهُ من الخليفة وحدهُ فحسبك ان تعتبر انهُ كان يفصّد المأمون دفعتين في السنة يأخذ عن كلّ دفعة خمسين الف درهم ويقدّر مجموع مرتّباتهِ السنوية بنحو خمسة آلاف الف درهم (٥٠٠٠٠٠٠) ما

عدا ريع [١] ضياعهِ العديدة .

بَخْتيشُوع بْنُ جِبْرِيل (٨٧٠م ٢٥٧ هـ)

هو بختيشوع بن جبريل المذكور آنفاً . درس الطبّ وبرّز فيه على الاقران وتقيّل [٢] اباهُ في البراعة والحكمة والمروءة ومكارم الاخلاق وخدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل ونال منهم الهبات الواسعة وجالسهم ونادمهم وكان أقرب الخاصّة اليهم. ولمّا كانت المناصب العالية مطمح الابصار والتزلّف الى الملوك والحظوة عندهم امنيّة الامانيّ كثرت في جنبات القصور السعايات والوشايات [٣] وانفسح المجال لفرسان الحسد والضغينة [٤] فدبّت عقاربهم الى بختيشوع وأوغروا عليهِ صدر الواثق فنفاهُ سنة ٨٤٤ مسيحية وظلّ مبعداً الى آخر خلافتهِ حتى أصابهُ داء الاستسقاء فامر باحضار طبيبه غير أنهُ لفظ نفسهُ الاخير قبل وصولهِ فلم ينتفع منهُ .

ورقي المتوكّل عرش الخلافة فاستخصّ بختيشوع واتخذهُ مسامراً ونديماً وكثيراً ما كان يؤنسهُ ويداعبهُ [٥] ويروى انهُ دخل يوماً على الخليفة وهو جالس على السدّة في وسط دارهِ الخاصّة فجلس معهُ على عادتهِ فوق السدّة وكان عليهِ درّاعة ديباج روميّ قد انشقّ ذيلها قليلاً. فجعل المتوكّل يحادث بختيشوع ويعبث [٦] بذلك الفتق حتى بلغ بهِ الى حدّ النّيفَق [٧] ودار بينهما الكلام الى ان سأل الخليفة الطبيب « بماذا

---

١ غلة ٢ تشبه به ٣ النمائم والاكاذيب ٤ البغض ٥ يمازحهُ ٦ يلعب ٧ الموضع المتسع من الثوب

تعلمون انّ المُوَسْوِس يحتاج الى الشدّ » فقال بختيشوع « اذا بلغ الموسوس بفتق درّاعة طبيبهِ الى حد النيفق شددناه » فضحك المتوكّل حتى استلقى على ظهرهِ وامر لهُ بخلعةٍ حسنةٍ ومال جزيل . غير ان المتوكّل كان من غرابة الاطوار بحيث لا يتهيّأ لمؤرّخ ضبط خلقهِ وتعريف هويّته . ويُحكى انهُ قال يوماً لبختيشوع « ادعُني » فقال « نعم وكرامة » فأضافهُ. وأظهر من الحفاوة والاحتفال والتجمّل والثروة النادرة ما أعجب المتوكل والحاضرين واستكثر المتوكل لبختيشوع ما رآهُ من نعمتهِ وكمال مروءَتهِ فحقد عليهِ ونكبهُ وصادرهُ مصادرة عظيمة ... وأُقصي بختيشوع الى ان ملك المهتدي بالله فأذن لهُ بالعودة الى وطنهِ وردّ عليهِ ما ابتزّهُ[1] المتوكل منهُ وأكرمهُ كثيراً .

واشتهر من آل بختيشوع خلا من ذكرنا عُبيد الله بن بختيشوع وخدم المقتدر — وجبريل بن عُبيد الله وخدم عدة من ملوك بني بويهِ وامراء دولتهم ولهُ مؤلّفات حسنة في الطبّ — وعُبيد الله بن جبريل وقد وضع كتباً عديدة في اغراضٍ متنوّعة من الطبّ. وخلاصة القول ان بني بختيشوع كانوا بهجة زمانهم وقد أُوتوا من شرف النفوس وعلوّ الهمم وكرم الاخلاق ما خلّد لهم جميل الذكر ورفيع الفخر الى منتهى الدهر.

سَهْل الكَوْسَج

هو ابو سابور سهل بن سهل الأهوازيّ الملقّب بالكوسج[2] على سبيل التضادّ لانهُ كان ألحى. وهو من مشاهير اطبّاء زمانهِ وعلت منزلتهُ في ايام المأمون وكان اذا اجتمع مع اطبّاء وقتهِ قصّر عنهم في العبارة ولم يقصّر

---

[1] سلبهُ [2] الخفيف اللحية

في العلاج وكان كثير الهزل والدعابة مضحك الكلام يرتضخ لكنة خوزيّة وله مع رصفائه حكايات ونوادر غريبة. فمن دعاباته انه ناظر يوماً جرجيس بن بختيشوع في حمّى الربع وادّت الى ملاحاة[1] خرج فيها سهل عن حدود الأدب في حقّ مناظره شأن كثيرين ممّن لم يتقنوا آداب البحث والجدال. وكان جرجيس كثير التلفت الى مَن عن يمينه وشماله من الناس وأخرجته الحدة الى زمَع[2] أصابه فصاح سهل «صُرِيَ وَهَكِّ المسيه اخرأوا في أذنه آية خرسي» اراد بعجمته «صُرِعَ وحقِّ المسيح اقرأوا في اذنه آية الكرسي[3]» ومن فنونه أنّه خرج في يوم الشعانين يريد دير الجاثليق والمواضع التي يخرج اليها النصارى فرأى يوحنا بن ماسويه في هيئة أحسن من هيئته فحسده وصار الى صاحب مصلحة الناحية فقال له «إنَّ ابني يعقّني[4] وان انت ضربته عشرين درّة[5] موجعة اعطيتك عشرين ديناراً» ثم اخرج الدنانير ودفعها الى من وثق به صاحب المسلحة. ثم اعتزل ناحيةً الى ان بلغ يوحنا الموضع الذي هو فيه فقدّمه الى صاحب المسلحة وقال «هذا ابني يعقّني ويستخفّ بي» فجحد يوحنا أن يكون ابنه وقال «يهذي هذا» فقال سهل «انظر يا سيّدي» فغضب صاحب المسلحة ورمى يوحنا عن دابّته وضربه عشرين مقرعة ضرباً مبرّحاً[6] ...

ومما يُذكر بالاسف ان هؤلاء الاطبّاء مع وفرة علمهم وفضلهم كانوا يتضاغنون[7] ويتحاسدون الى حدّ الحاق الاذى وايقاع هائل الشرور بعضهم ببعض متذرّعين بكلِّ وسيلةٍ مهما كانت دنيئة رذيلة. ويا ليتهم صرفوا

---

١ مخاصمة ٢ رعدة ٣ هي الاية المئتان والخامسة وخمسون من سورة البقرة ورد فيها لفظ الكرسيّ بقوله «وسع كرسيهُ السموات والارض ولا يؤدّهُ حفظهما» ٤ يترك مساعدتي والاحسان اليّ ٥ سوطاً ٦ شديداً ٧ يتباغضون

شيئاً من اجتهادهم في تركيب التِرياقات[1] الى العناية بأمر دينهم وتدبُّر اوامرهِ وزواجرهِ واتخذوا من خلاصتها تِرياقاً شافياً لقلوبهم من حزازات الحسد فانهُ هو السمّ الناقع الذي يودي بكلّ نفس دبّت فيها آفتهُ .

ومن مصنّفات سهل الكوسج كتاب في الأقراباذين .

يُوحَنَّا بْنُ مَاسَوَيْهِ (٨٥٧ م ٢٤٣ هـ)

هو ابو زكريّا يوحنّا بن ماسويه الطبيب النصرانيّ الشهير . كان عظيم القدر جليل الشأن مبجّلاً حظيّا عند الخلفاء بذكائهِ وفضلهِ وخبرتهِ بصناعة الطبّ وتقدّم في ايّام الرشيد وقلّدهُ ترجمة الكتب القديمة ممّا وُجد بأنقرة وعموريّة وسائر بلاد الروم التي سباها المسلمون وخدم من بعده الامين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكّل وعلت منزلتهُ عندهم جميعاً وأصاب من جراياتهم واقطاعاتهم[2] وصلاتهم اموالاً زائدة ونعمة جليلة وكان ملوك بني هاشم لا يتناولون شيئاً من اطعمتهم الا بحضرتهِ وكان يقف على رؤوسهم ومعهُ البرانيّ بالجوارشنات الهاضمة المسخّنة الطابخة المقوّية للحرارة الغريزيّة في الشتاء وبالجوارشنات والاشربة الباردة في الصيف .

وكان يوحنّا يعقد مجلساً لاقراء الطبّ والنظر في سائر العلوم القديمة فيجتمع فيهِ خلقٌ كثير من الخاصّة والعامّة على اختلاف المذاهب والأديان ولم يُرَ بمدينة السلام مجلس لمتطبّب او متكلم او متفلسف أعمر

[1] الترياق دواء مضادّ السمّ [2] الجراية ما يجرى من الاعطية والاقطاع أرض يهب الامير غلتها

من مجلسهِ. واشتهر يوحنا فضلاً عن علمهِ وأدبهِ بالنزَق[١] وضيق الصدر وكثرة الدعابة[٢] وكانت الحدّة تخرج منهُ الفاظاً مضحكة ونكاتاً غريبة يقصد الكثيرون حلقتهُ ويظهرون التلمذة لهُ لسماعها منهُ والتلهّي بها. فمن نوادرهِ انّ رجلاً شكا اليهِ علّةً كان قد شفاهُ منها الفصد فأشار عليهِ بهِ فقال الرجل «لم اعتد الفصد» فقال لهُ يوحنا «ولا أحسبك اعتدت العلّة من بطن امّك» وصار اليهِ يوماً قسّيس الكنيسة التي يتعبّد فيها وقال لهُ «قد فسدت عليّ معدتي» فقال لهُ «استعمل جوارشن الخوزيّ» فقال «قد فعلت» فقال لهُ يوحنا «فاستعمل الكمونيّ» فقال «قد استعملت منهُ ارطالاً» فامرهُ باستعمال المقداذيقون فقال «قد شربت منهُ جرّة» فقال لهُ «فاستعمل المروسيا» فقال «قد فعلت واكثرت» فغضب يوحنا وقال لهُ «ان اردت ان تبرأ فأسلم فان الاسلام يصلح المعدة».

وممّا يدلّ على دالّة[٣] يوحنّا عند الخلفاء وقربهِ من قلوبهم انهُ كان مع الواثق فوق دكان على دجلة وبيد الواثق قصبة فيها شصّ[٤] يصيد بها السمك فحُرم يومئذٍ الصيد ولم يظفر بشيءٍ فالتفت الى يوحنا وقال «قم يا مشؤوم عن يميني» فقال لهُ يوحنّا «يا أمير المؤمنين لا تتكلّم بمحال. يوحنا بن ماسويهِ الخوزي وامّهُ رسالة الصقلبيّه المبتاعة بثماني مئة درهم اقبلت به السعادة الى أن صار نديم الخلفاء وسميرهم وعشيرهم وغمرتهُ الدنيا فنال منها ما لم يبلغهُ أملهُ فمن اعظم محال ان يكون هذا مشؤوماً. ولكن ان احبّ امير المؤمنين أن اخبرهُ بالمشؤوم من هو أخبرتهُ» فقال الواثق «ومن هو» فقال يوحنا «من ولدهُ اربعة خلفاء ثم ساق الله اليهِ الخلافة

١ الخفة واحدة ٢ المزاح ٣ الدالة بمعنى الدلال وهو جراة يستبيحها انسان بسبب منزلتهِ ٤ حديدة عقفاء يصاد بها السمك

فترك خلافته وقصورها وبساتينها وقعد في دكّان مقداره عشرون ذراعاً في مثلها في وسط دجلة لا يأمن عصف الريح عليه فتغرّقه ثم تشبّه بأفقر قوم في الدنيا وشرّهم وهم صيّادو السمك » فنجع كلامه في الخليفة ولم يتغيّر له قطّ — غير ان يوحنّا كان كثيراً ما يخرق حرمة الادب بدعاباته ويتعدّى طوره بتقصّده الدين وأربابه بالازراء والاستخفاف الى حدّ الاثم الفظيع ممّا يدلّ على سوء الخُلق وضعف العقيدة ولا يُغتفر في أرباب العلم والفضل والوجاهة .

وترجم يوحنا شيئاً كثيراً من الكتب القديمة وله تآليف عديدة في الطبّ منها كتابٌ في الجذام[1] لم يسبقه احدٌ الى مثله وكتابٌ في الماليخوليا[2] واسبابها وعلاجها وغير ذلك .

ألرّازيّ (٩٢٣م ٣١١هـ)

هو ابو بكر محمّد بن زكريّا الرازيّ الملقّب بجالينوس العرب ويسمّيه الافرنج « رازس » وُلد ونشأ بالريّ وأُولع في شبيبته بالموسيقى فكان يضرب بالعود ويغنّي فلمّا التحى وجهه قال « كلّ غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يُستظرف » فنزع عن ذلك وأقبل على دراسة كتب الطبّ والفلسفة واشتغل ايضاً بعلوم الادب وقال الشعر وأصبح في الطبّ إمام وقته المشار اليه في ذلك العصر وكان متقناً لهذه الصناعة حاذقاً بها عارفاً باوضاعها وقوانينها تُشدّ اليه الرحال لأخذها عنه . واشتهر ببُعد

١ داء كالبرص ينتشر في البدن وينتهي الى تآكل الاعضاء وسقوطها ٢ السوداء وهي مرض يفسد معه عقل الانسان فتستولي عليه الوساوس والاحزان ولا يرى دنياه الا سوداء متعبة

نظرهِ وثاقب فكرهِ مذ شرع في اقتباس العلوم فقرأ كتبها قراءة رجل متدبرٍ لاغراضها متعقب على مؤلفيها فسبر [1] غورها واعتقد الصحيح منها وعلّل السقيم وبلغ من معرفة دقائقها الغاية القصوى وصنّف فيها الكتب النافعة ولم يفارق قط المدارج [2] والنسخ وما كان يُرى الاَّ في شغلٍ شاغلٍ من التسويد والتبييض مع ما عُهد اليهِ من تدبير المارستانات في الريّ اولاً ثم في بغداد. ومن ظريف ما يروى عنهُ ان عضد الدولة استشارهُ في الموضع الذي يجب ان يُبنى فيهِ المارستان. فأمر الرازيّ بعض الغلمان ان يعلّق في كل ناحية من جانبي بغداد شقّة لحم ثم اعتبر الناحية التي لم يتغيّر فيها اللحم ولم يسهك [3] بسرعةٍ واشار على الملك ان يأمر بالبناء فيها ففعل.

وكان الرازيّ مع واسع علمهِ ورسوخ قدمهِ في علوم عصرهِ كثير المطالعة والشغل قليل الدعوى لا يبرح في جلّ اوقاتهِ دائباً في الاجتهاد والاطّلاع على ما دوّنهُ العلماء الافاضل في مؤلفاتهم يصرف في الاستزادة من الوقوف على مقالاتهم ما رُزق من الذكاء والفطنة. واشتهر بالعطف على المرضى والرأفة بهم والاجتهاد في علاجهم والاحتيال لبرئهم بكلّ وجهٍ يقدر عليهِ وكان لذلك مواظباً على النظر في غوامض صناعة الطبّ والكشف عن حقائقها واسرارها. ولهُ اخبارٌ كثيرة وفوائد متفرقة فيما حصل لهُ من التمهّر في الصناعة وما تفرّد بهِ مداواة المرضى والاستدلال على احوالهم من تقدمة المعرفة وفيما خبرهُ من الصفات والادوية التي لم يصل الى علمها كثير من الاطبّاء. ومن كلامهِ « اذا كان

---

١ سبر الجرح قاس غورهُ ليعرف مقدارهُ ٢ جمع مدرج بفتح الميم والراء وهو ما لفّ بعضهُ على بعض من نسيج اوراق او غير ذلك ٣ سهك اللحم فسد وتغيرت رائحتهُ

الطبيب حاذقاً والعليل موافقاً والصيدلانيّ صادقاً فما اقلّ لبث العلة » ومنهُ « ينبغي للطبيب ان يوهم المريض ابداً الصحة ويرجّيه بها وان كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم تابعٌ لأخلاق النفس » ومنهُ « اذا عدل العالم الى اللذّات الدنيويّة فاتّهمهُ في علمه ولا سيّما في صناعة الطبّ » — وقد قيل « كان الطبّ معدوماً فأوجدهُ بقراط وميتاً فأحياهُ جالينوس ومتفرّقاً فجمعهُ الرازيّ وناقصاً فكمّلهُ ابن سيناء »

وكان الرازيّ اذا جلس للاقراء احاط بهِ التلاميذ ودونهم تلاميذهم ودونهم تلاميذ آخرون فيجيء الرجل ويلقي ما يريد لأول من يلقى فان كان عندهم علم والا تعدّاهم الى غيرهم فان اصابوا والاّ تكلّم الرازيّ في ذلك وشخّص العلّة ووصف الدواء وان كان المريض فقيراً عاجزاً عن تحصيل العلاج تصدّق عليهِ من مالهِ وأجرى عليهِ الجرايات حتى يمنّ الله عليهِ بالشفاء وهذه النهاية في الرفق بذوي العاهات والفاقة [1] من بني الانسان وانموذج لأطبّاء هذا الزمان.

غير ان الرازيّ على وفور عقلهِ وحصافة رأيهِ لم يكن لينجو من ضلال زمانهِ في مزاولة الكيمياء واعتقاد صحتّها. وقد وضع في اثبات هذه الصناعة الكاذبة كتاباً الّفهُ برسم الأمير ابي صالح منصور بن نوح من ملوك السامانيّة وقصدهُ بهِ من بغداد فأعجب بهِ الامير وشكرهُ عليهِ وحباهُ بالف دينار وتقدّم اليهِ باخراج ما في الكتاب الى الفعل فقال الرازيّ « انّ ذلك ممّا تُتموَّن لهُ المُؤَن ويحتاج الى آلات وعقاقير صحيحة » فأمر ابو صالح بأن يُحضر لهُ كلّ ما يليق بالعمل كاملاً فلمّا حقّق ذلك كاع [2] الرازيّ عن مباشرة الامر وعجز عما تقاضاهُ الأمير فأمر

---

[1] العاهة آفة تلحق الرجل فتعطل احد اعضائهِ والفاقة الفقر [2] جبن

أن يضربَ بالكتاب على رأسهِ حتى يتقطّع. فكان ذلك الضرب سبب نزول الماء في عينيهِ ولم يسمح بقدحهما[1] وقال «قد رأيت الدنيا حتى مللتها[2]».

وللرازي مؤلّفات عديدة جدًّا منها «كتاب الاقطاب» في ثلاثين مجلّداً وكتاب «الحاوي» في خمسة عشر مجلّداً وهو اول من ألّف في الجدريّ والحصبة.

سِنَانُ بنُ ثَابِت (٩٤٣م ٣٣١هـ)

هو ابو سعيد سنان بن ثابت قرّة الحرّانيّ. وابوهُ ثابت هو الطبيب الحكيم الرياضي المترجم الذي مرّ ذكرهُ بين «النقلة». تخرَّج سنان على ابيهِ ولحق بهِ في الحذق والتمهّر[3] وخدم المقتدر والقاهر والراضي ولكثرة اغتباط[4] القاهر بهِ ارادهُ على الاسلام فامتنع امتناعاً شديداً كثيراً فتهدّدهُ القاهر وكان فظّاً عنيفاً شديد السطوة فخافهُ سنان وأسلم. ثم رأى منهُ بعد مدّةٍ وجيزةٍ تغيّراً فانهزم الى خراسان. غير انهُ ما عتّم ان قُهر القاهر فخُلع لسنةٍ وبضعة اشهر من خلافتهِ وسُملت عيناهُ فجعل يستعطي في شوارع بغداد. فعاد سنان الى مدينة السلام آمناً وظلّ فيها الى وفاتهِ.

وكان سنان يشارف بأمر المقتدر مارستانات بغداد وينفذ الى الحبوس من يتعهّد شؤون المعتقَلين[5] فيها فيطوفون على المرضى يعالجونهم ويزيحون عللهم[6] من الادوية والاشربة والاطعمة ويرسل الى السواد[7] اطبّاء من بغداد

---

١ قدح الطبيب العين اخرج منها الماء المنصب اليها من داخل ٢ ضجرت منها ٣ تخرج تعلم وتدرب وتمهر بمعنى مهر اي حذق ٤ فرح ٥ المحبوسين ٦ اي يزيلون كل ما لعلهُ يكون علة لشكاة المسجونين ٧ السواد من البلدة ما حولها من القرى

لخلوّه من المتطببين مع انتشار الاوبئة[١] في اهله لما هم فيه من الحاجة والضيق والمسكنة فيقيمون في كلّ صقع مدة يعالجون المرضى ثم ينتقلون الى غيره وكان شديد العناية بتوفير اسباب الراحة للمرضى ساهراً على مصلحة المارستانات التي عُهدت اليه مراقبتها لا يألو في تشديد النكير على كلّ مقصّر من المتولّين بعض الشؤون العائدة الى رفاهية المرضى ويتقاضى قيّم الوقف تعجيل ما أرصد[٢] للمارستان من النفقة وصرفها في وجوهها الشرعيّة. واتفق انهُ جرى غلط على رجل من العامّة من بعض المتطبّبين فمات الرجل فأمر المقتدر ان يُمنع كل رجال الصناعة من التصرّف الاّ من امتحنهُ سنان وكتب لهُ رقعة بخطّه بما يُطلَق لهُ أن يتعاطى منها. فبلغ عدد الأطبّاء الذين امتحنهم سنان في جانبي بغداد ثماني مئة رجل ونيّفاً وستين رجلاً سوى من استغنى عن محنته باشتهاره وسوى من كان في خدمة السلطان.

ومن لطيف ما جرى لسنان في امتحان الاطبّاء أنهُ أُحضر اليه رجل مليح البشرة والهيئة ذو هيبة ووقار فأكرمهُ سنان على موجب منظره ورفعته ثم التفت اليه وقال « قد اشتهيت ان أسمع من الشيخ شيئاً أحفظهُ عنهُ وان يذكر شيخهُ في الصناعة » فأخرج الشيخ من كمّه قرطاساً فيه دنانير صالحة ووضعها بين يدي سنان وقال « والله ما أُحسن ان أكتب ولا أقرأ شيئاً جملة ولي عيال ومعاشي دار دائرهُ واسألك ان لا تقطعهُ عني » فضحك سنان وقال « على شريطة انك لا تهجم على مريض بما لا تعلم ولا تشير بفصد ولا بدواءٍ مسهل الا فيما قرب من الامراض» فقال الشيخ «هذا مذهبي مذ كنت وما تعدّيت السكنجبين[٣]

---

[١] جمع وباء وهو المرض المنتشر في القوم يجتاح كثيراً منهم [٢] اعدّ وعيّن [٣] السكنجبين ضرب من الاشربة حلو حامض

والجُلاّب[1] » وانصرف. ولما كان الغد حضر اليهِ غلامٌ شابٌّ حسن البزّة[2] مليح الوجه ذكيّ. فقال له سنان « على من قرأتَ » قال « على أبي » قال « ومن يكون ابوك » قال « الشيخ الذي كان عندك امس » قال « نِعم الشيخ. وانت على مذهبهِ؟ » قال « نعم » قال « لا تتجاوزهُ. وانصرف مصاحباً » .

ولسنان بن ثابت رسائل ومصنّفات عديدة منها ما هو في الطبّ ومنها ما هو في الهندسة والهيئة وسائر العلوم الرياضيّة وله في التاريخ « كتاب السيرة » ويُعرف بالتاجيّ نسبةً الى تاج الله وهو لقب آخر لعضد الدولة بن بويهِ يشتمل على مفاخرهِ ومفاخر الديلم وانسابهم وذكر اصولهم واسلافهم. وله رسالة في تاريخ الملوك السريانيّين وغير ذلك ممّا يطول عدّهُ.

إبنُ ٱلطَّيِّب (١٠٤٣م ٤٣٥هـ)

هو ابو الفرج عبد الله بن الطيّب. كان طبيباً شهيراً عظيم الشأن جليل المقدار واسع العلم كثير التصنيف وفيلسوفاً فاضلاً خبيراً مطّلعاً على كتب الأوائل واقاويلهم كثير الاشتغال في انواع العلوم المتداوَلة في عصرهِ مواظباً على معالجة المرضى في المارستان العضديّ واقراء الطبّ فيهِ حسن التعليم والتفهيم. وقد عُني بشروح الكتب القديمة في المنطق وضروب الحكمة من تآليف ارسطوطاليس وفي صناعة الطبّ من مؤلّفات جالينوس وبسط القول في ذلك بسطاً شافياً وافياً .

وكان ابن الطيّب قسيساً كاتباً للجاثيليق متميّزاً في نصارى بغداد

[1] الجلاب عسل او سكر معقود بماء الورد [2] اللبسة

بفضلهِ وتشبثّهِ بأهداب[1] الدين وحرصهِ على اقامة شعائرهِ باخبات[2] وورع وخشوع . ومن مستملح ما يروى عنه ان رجلين من بلاد العجم قصداه للتخرّج عليهِ ولمّا وصلا بغداد كان ابو الفرج في الكنيسة فدخلاها ودُلَّا عليهِ فأخذ منهما التعجّب والاستغراب كلَّ مأخذ اذ رأيا ذلك الشيخ الجليل مع شهرتهِ ورفعتهِ في الناس لابساً ثوب صوفٍ وهو مكشوف الرأس وبيدهِ مبخرة بسلاسل يدور بها في نواحي الكنيسة ويبخر . ولمحهما ابو الفرج وفهم عنهما ما هما فيهِ ولمّا دخلا في جملة المشتغلين عليهِ جعل يماطلهما بالقراءة الى اوان الحجّ فقال لهما حينئذٍ « هل حججتما قطّ » قالا « لا » فقالا ان كنتما تريدان ان تقرأا عليّ وان اكون شيخكما فحجّا واذا جئتما مع السلامة ان شاءَ الله يكون كلّ ما تشتهيان منّي » فلما عادا من الحجّ اذا هما أقرعان وقد غلب عليهما الشحوب[3]. فسألهما عن مناسك[4] الحجّ وما فعلا فيها فذكرا صورة الحال فقال لهما « لمّا رأيتما الجمار[5] بقيتما عريانين موشحين وبأيديكما الحجارة وانتما تهرولان وترميان بها ؟ » قالا « نعم » فقال « هكذا الواجب . انّ الامور الشرعيّة تؤخذ نقلاً لا عقلاً » فأدركا السرّ من امرهِ اياهما بالحجّ واتّعظا .

ولأبي الفرج بن الطيّب عدا شروحه الطبيّة والفلسفيّة مقالة مختصرة في المحبّة وشرح الانجيل .

---

١ جمع هدب بالضم وهو طرف الثوب ٢ بثقة واطمئنان ٣ تغير الجسم من هزال او سفر ٤ عبادات ٥ جمع جمرة بالفتح وهي الحصاة

إِبنُ ٱلتِّلْمِيذ (١١٦٥م ٥٦١هـ)

هو أمين الدولة ابو الحسن هبة الله بن صاعد بن ابراهيم بن التلميذ الطبيب النصرانيّ الشهير. كان نسيج وحدهِ وفريد زمانهِ في صناعة الطبّ ومباشرة اعمالها ذكي الخاطر مصيب الفكر صادق النظر خبيراً بأنواع الامراض ماهراً في تدبيرها. وكان ساعور [١] المارستان العضديّ ببغداد الى وفاتهِ ومفوّضاً من لدن الخليفة رئاسة اطبّاء بغداد ينظر في امورهم ويرى ما عند كلٍّ منهم من الصناعة وجميعهم يقرّون لهُ بالفضل والتقدُّم ويشهدون لهُ بالأُستاذيّة. وكما تفرّد بالطب تميَّز ايضاً بسعة علمهِ وتنوُّع معارفهِ فكان خبيراً باللغتين السريانية والفارسيّة متبحّراً في العربية متضلعاً من فنون الادب مستعذب النظم وان اقلّ مستظرف النثر كثير الترسّل مؤنق الانشاء بصيراً بمذاهب الكلام عارفاً بأسرارهِ ومواقعهِ.

وبلغ امين الدولة من علوّ الهمة وكمال المروءَة شأواً بعيداً وتروى عنهُ اخبارٌ ونوادر تشف [٢] عن نفسٍ شريفة ورحابة صدر عجيبة وتواضع متناهٍ. فمن ذلك ان ابا البركات الطبيب اليهوديّ الآتي ذكرهُ كان من رصفائهِ [٣] في خدمة الخليفة فحسدهُ على حظوتهِ ورفعة مكانهِ ونبلهِ وجلال قدرهِ وسوّلت لهُ نفسهُ الخسيسة ان يوقع به شرًّا فكتب في رقعةٍ من التّهم الفظيعة كل ما نفث في قلبهِ ابليس من الحسد ودسّها في محلٍّ بحيث يراها الخليفة ولمّا وقف على مضمونها صعب عليهِ جدًّا وهمّ

---

١ مقدم الاطباء ٢ شفّ النسيج دق حتى بان ما وراءهُ ٣ نظرائهِ في الصناعة

بالفتك بأمين الدولة ثم رجع الى رأيهِ واستقصى في البحث فانكشفت لهُ الحقيقة فحنق على ابي البركات حنقاً زائداً ووهب دمهُ وجميع مالهُ وكتبهُ لامين الدولة بن التلميذ فأبت نفسهُ الكبيرة ان يتعرّض لهُ بسوء. وللبديع الاصطرلابي في ابن التلميذ وابي البركات :

ابو الحسن الطبيب ومقتفيهِ ابو البركات في طرفَي نقيض
فهـذا بالتواضع في الثريّـا وهـذا بالتكبّر في الحضيض

ومن مروءة ابن التلميذ انه كان زاهـداً في الأجرة لا قيمة للمال عندهُ حتى كان يبذل عن يدٍ سخيّةٍ للمعوزين من المرضى الذين يستوصفونهُ وكانت دارهُ ببغداد مظاهرة للمدرسة النظاميّة فاذا مرض فقيه نقلهُ اليهِ وقام بعلاجهِ وخدمتهِ واذا أبلّ[1] وهب لهُ دينارين وصرفهُ وهكذا عمّ خيرهُ الملي والذمّي فاضحى انموذج التساهل الحميد لكلّ ذي مقام ورفعة. ومن شعر ابن التلميذ :

العلم للرجل اللبيب زيادةٌ ونقيصةٌ للاحمق الطيّـاش
مثل النهار يزيد ابصار الورى نوراً ويغشي اعين الخفّـاش[2]

ومنهُ قولهُ وهو مذهبهُ في معاملة الناس :

اذا كنت محموداً فانك مرْمدٌ عيون الورى فاكحلهمُ بالتواضع

ولابن التلميذ عدة مؤلّفات في الطب ومراسلات .

---

١ برئ ٢ الوطواط

أَبُو ٱلْبَرَكَات

هو أوحد الزمان ابو البركات هبة الله بن عليّ البلدي. وُلد ببلد وانتقل الى بغداد وأُولع بتحصيل الطبّ فقصد ابا الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين أحد المشايخ المتميزين في الصناعة وكان لهُ عدة تلاميذ يتناوبونهُ في كلّ يومٍ للقرءة عليهِ واشتهى ان يتعلم منهُ فرفض ابو الحسن ملتمسهُ لأنهُ لم يكن يقرئ يهوديّا اصلاً فلمّا أعيت ابا البركات الحيلةُ تخادم للبوّاب وجلس في دهليز الشيخ بحيث يسمع جميع ما يُقرأ عليه وما يجرى في حلقتهِ من البحث وهو كلّما سمع شيئاً تفهّمهُ وعلّقهُ عندهُ وظلّ على تلك الحال سنة او نحوها حتى جرت مسألة عند الشيخ وبحث تلامذتهُ فيها فلم يتّجه لهم عنها جواب ولبثوا متطلّعين الى حلّها فدخل عليهم ابو البركات واستأذن الشيخ في الكلام وشرح المسألة من جميع وجوهها وذكر الشهر واليوم اللذين سمع فيهما ابا الحسن يفاوض تلامذتهُ في هذا الموضوع فتعجّب الشيخ من ذكائهِ وحرصهِ وقال « من يكن بهذه المثابة لا نستحلّ ان نمنعهُ من العلم » وقرّبهُ من ذلك الوقت وصار من اجلّ تلاميذهِ .

ومن غريب ما اتفق لأوحد الزمان في العلاج ان مريضاً عرضت لهُ علة المالنخوليا فكان يعتقد ان على راسهِ دنّا لا يفارقهُ فاذا مشى تحايد المواضع التي سقوفها وطيئة ويمشي برفقٍ ولا يترك احداً يدنو منهُ حتى لا يميل الدنّ او يقع على رأسهِ . وكثيراً ما عالجهُ الاطبّاء فلم ينجع لهم بهِ دواء وأُنهي امرهُ اخيراً الى اوحد الزمان. ففكّر بثاقب بصيرتهِ ان يعالج ذلك الداء الوهميّ بعلاج من جنسهِ . فدبّر الحيلة وأوعز باجرائها

الى اثنين من غلمانه . فلمّا جاء بالمريض اهلهُ وشرع يقصّ عليهِ امرهُ جاراه ابو البركات على هواهُ وتظاهر بتصديقهِ ان على رأسهِ دنّاً وانكر عليهِ حملهُ ابداً واشار من طرفٍ خفيّ الى احد الغلامين فأقبل الى المريض وقال لهُ « واللّه لا بدّ ان اكسر هذا الدنّ وأريحك منهُ » ثم ادار فوق رأسهِ بنحو ذراع خشبةً كانت بيدهِ وفي الوقت عينه رمى الغلام الآخر من محلٍّ عالٍ على مقربةٍ من الموسوس دنّاً اعدّهُ لهذه الغاية فكانت لهُ وجبة [1] عظيمة وتكسّر قطعاً كثيرة . فلما رأى المريض ما فُعل بهِ وعاين الدنّ المنكسر تأوّه لهُ ولم يشكّ انهُ هو الذي على رأسهِ بزعمهِ وأثّر بهِ الوهم اثراً برئ بهِ من علّتهِ . . .

وقد مرّ بك في ترجمة ابن التلميذ شيءٌ من اخبار اوحد الزمان واطواره . وأسلم في آخر عمرهِ وحاز نعمة جليلة بحسن تدبيرهِ وتوفيق علاجهِ ووصلهُ احد السلاطين السلجوقية على اثر مداواة برئ بها على يدهِ بالعطايا الوافرة والتّحف النادرة وحملهُ على المراكب الفخيمة بالملابس الثمينة ولم يزل سعيداً الى ان قلب لهُ الدهر ظهر المجنّ ووضع من شأنهِ بعد ان اسنّ فأدركتهُ أعلالٌ قصّر عن معاناتها طبّهُ واستولت عليهِ آلامٌ لم يُطق حملها جسمهُ ولا قلبهُ وذلك انهُ عمي وطرش وبرص وجُذم . ولمّا احسّ بالموت اوصى من يتولاّهُ ان يكتب على قبرهِ ما مثالهُ « هذا قبر اوحد الزمان ابي البركات ذي العِبَر صاحب المعتبَر » .

والمعتبَرَ المشار اليهِ مؤلّفٌ لهُ وهو اجلّ كتبهِ واشهرها في الحكمة أتى فيهِ بالمنطق والطبيعيّ والالهيّ فجاءت عبارتهُ فصيحة ومقاصدهُ صحيحة .

---

[1] صوت الحائط ونحوهِ اذا سقط

ونقف عند هذا الحدّ من تراجم الاطبّاء وإن كان ثمّ جمهورٌ غفيرٌ من العلماء الاماثل نالوا بالحذق والمهارة والفضل شهرة واسعة. فانّ ذكرهم واحداً واحداً ممّا تضيق عنهُ المجلّدات الضخمة فضلاً عن مثل هذا المختصر — وسترى فيما يلي عدّة من مشاهير الفلاسفة والفلكيّين تعاطوا الطبّ وبرعوا فيهِ. ومن الاقوال المتداوَلة عندهم ان الانسان لا يكون طبيباً حتى يكون منجّماً ولا يكون منجّماً حتى يكون فيلسوفاً.

الفلاسفة

أَلْكِنْدِيّ (٨٦٠م ٢٤٦هـ)

هو ابو يوسف يعقوب بن اسحاق الكنديّ النصراني الملقّب بفيلسوف العرب ولم يكن في العرب من اشتهر عند الناس بمعاناة علم الفلسفة حتى سمّوهُ فيلسوفاً غير يعقوب هذا ولهُ القدم الفارعة [1] في الطبّ والفلسفة الباطنة والمنطق والموسيقى والهندسة وتبلغ تآليفهُ في هذه العلوم وما اليهِ نحو مئتيَ كتاب او رسالة وهو مقدارٌ فاحش يدلّ على غزارة مادّة ذلك الرجل ورسوخ قدمهِ في معارف عصرهِ. وخدم الكنديّ الملوك

[1] العالية الفائقة

بعلمه وعلت مكانته عند المأمون والمعتصم وابنه أحمد وباشر لهم ما عدا تآليفه ترجمة شيء كثير من كتب الحكمة واوضح منها المشكل ولخّص المستصعب وبسط العويص .

ولمّا ولي المتوكّل الخلافة وكان من رأيه في الفلسفة واصحابها ما علمت وشى بالكنديّ بعض الحسّاد ونعوا عليه[1] مذهبه واختلقوا عليه الاباطيل فلقوا من الخليفة أذناً مصغية فنكبه وامر بضبط كتبه بأسرها وسلّمها لابني شاكر محمد واحمد وكانا في طليعة شرذمة[2] الوشاة فأفرداها في خزانة خاصّة سُمّيت بالكندية . ولم تزل في قبضتها الى ان احبط سعيهما في جفر ترعة[3] امر بها المتوكّل فاشترط عليهما المهندس الذي عُهد اليه امتحان عملهما وتفحّص شؤونه ان يردّا على الكنديّ ما سلباه من الكتب ويأخذا خطّه باستيفائها جميعاً ان ارادا أن يستر غلطهما ففعلا . وهذا المهندس من جملة الذين أُقصوا عن بغداد بسعايات ابني شاكر وكان من خصوم الكنديّ ومناوئيه لاجتماعهما على صناعة واحدة . غير انه كان نبيل النفس عالي الهمّة مترفّعاً عن منازلة قرنه بغير شريف السلاح وفي ملاءٍ من الناس لا في ظلمات الزوايا ومغاور اللصوص .

ومن كلام الكنديّ « العاقل يظنّ ان فوق علمه علماً فهو ابداً يتواضع لتلك الزيادة والجاهل يظنّ انه قد تناهى فتمقته النفوس لذلك » .

---

١ عابوه ٢ جماعة ٣ موضع يحفر ويوصل به بين بحرين او نهرين

أَلْفَارَابِيّ (٩٥١م ٣٣٩هـ)

هو ابو نصر محمّد بن طرخان بن أوذلغ الفارابيّ التركيّ. وُلد بفاراب ونشأ بها ثم خرج منها وانتقلت به الأسفار الى ان وصل الى بغداد وهو يعرف اللسان التركيّ وعدّة لغات غير العربيّ فانكبّ على تعلّمه وأتقنهُ غاية الاتقان ثم أقبل على الاشتغال بعلوم الحكمة. وكان ببغداد حينئذٍ شيخٌ كبير نصرانيّ النحلة مشهور الاسم يعرف بأبي بشر متى بن يونس من اهل دير قُنّى يقرئ الناس فنّ المنطق فيجتمعون في حلقته كلّ يوم مئاتٍ يشتغلون عليهِ فيملي لهم شرحاً مبسوطاً وافياً حسن العبارة لطيف الاشارة فتتلمذ لهُ الفارابيّ وتلقّن عنهُ علمهُ وأُسلوبهُ حتى قال بعض علماء هذا الفنّ «ما أرى ابا نصر الفارابيّ أخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالألفاظ السهلة الا من ابي بشر» ثم ارتحل الى حرّان وفيها يوحنا بن خيلان الحكيم النصرانيّ فأخذ عنهُ طرفاً من المنطق ايضاً وقفل راجعاً الى بغداد وشرع يقرأ بها علوم الفلسفة ويتبحّر فيها فتناول جميع كتب ارسطوطاليس يطالعها ويتدبّر أغراضها ويتمهّر في استخراج معانيها ويتبطن مكنوناتها[1] واسرارها ويعيد تلاوتها كرّاتٍ عديدة حتى يقف على دقائقها واشاراتها ويزول من قلبهِ كلّ شدّة واشكال فيما يقرأ. ويقال إنهُ وُجد كتاب النفس لارسطوطاليس وعليهِ بخط الفارابيّ «انّي قرأت هذا الكتاب مئة مرّة» ونُقل عنهُ انهُ كان يقول «قرأت السماع الطبيعي لارسطوطاليس الحكيم اربعين مرّة

---

١ يكشف مستوراتها

وأرى اني محتاج الى معاودة قراءته » فهذا لعمر الحقّ انموذج الكمال في مضاء العزيمة وقوّة الصريمة[١] وهكذا فليكن النشاط لتحصيل العلم والثبات في تذليل صعابه والاّ فلا لا .

وبلغ الفارابيّ من الفلسفة شأواً ونت دونه خطوات ارباب العلم وأبطال التحصيل فهو فيلسوف المسلمين غير معارض وقد بذّ[٢] جميع اهل الاسلام وأربى[٣] عليهم في تحقيق صناعة المنطق فشرح غامضها وكشف سرّها وقرب متناولها في كتب صحيحة العبارة محكمة البيان ونبّه على ما اغفله الكنديّ وغيره من صناعة التحليل وأنحاء التعاليم فجاءت كتبه في ذلك الغاية الكافية والنهاية الوافية. وله الفضل الواسع في تعميم علوم الفلسفة ونشر كتب افلاطون وارسطو في بني زمانه وتقريبها الى عقولهم بالشروح والتعاليق الواضحة السهلة المأخذ. ولم يفته شيء قطّ من علوم عصره فقد كان متضلّعاً من الرياضيّات والطبّ والموسيقى والآداب حتى من الكيمياء ... وقد ألّف في امكان وجودها وردّ على مبطليها . فسبحان من استأثر بالعصمة والكمال وتعالى علوًّا عظيماً عن كدورات البشر وما يشوب علمهم القاصر من النقص والضلال .

ويعزى الى ابي نصر الفارابيّ اختراع الآلة الموسيقيّة المعروفة بالقانون ويُروى انه اصطنع آلة غريبة[٤] يُسمع منها الحاناً بديعة يحرّك بها الانفعالات وحضر يوماً مجلس سماع بدمشق عند ملكها سيف الدولة بن حمدان وكانت حضرته محطّ رحال العلماء وقبلة الجهابذة من ارباب كل فنّ وصناعة وضمّت حلقة الغناء كلّ ماهر حاذقٍ بضرب المعازف[٥]

---

١ العزيمة ٢ فاق ٣ زاد ٤ يقال ان هذه الآلة هي القانون نفسه ٥ جمع معزف بالكسر وهو آلة الطرب

فما حرّك احدٌ منهم آلته ُ الاّ عابه ُ ابو نصر فقال له ُ سيف الدولة « وهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً » فقال « نعم » واخرج من خريطةٍ له ُ عيداناً وركّبها ثم لعب بها فضحك كلّ من في المجلس ثم فكها وركّبها تركيباً آخر وضرب بها فبكى كلّ من في المجلس وغيّر تركيبها وضرب بها ضرباً آخر فنام كل من في المجلس حتى البوّاب فتركهم نياماً وخرج… ولا ندري أهذه الحكاية أغرب ام الآلة التي لها مثل هذا التأثير على نفوس الناس .

وأجرى سيف الدولة على الفارابيّ رزقاً واسعاً الا انه ُ كان لزهدهِ وقناعتهِ يكتفي باربعة دراهم ينفقها في حاجتهِ ولا يحفل بعد الحصول على الكفاف بأمر مكسب ولا مسكن. وكان يؤثر العزلة عن الناس والانفراد للمطالعة والتأليف فلا يُرى الا بعيداً عن ضوضاء[1] المدينة جالساً عند مجتمع مياه أو مشتبك رياض يؤلّف هناك كتبه ُ ويتناوبه[2] المشتغلون عليهِ ولم تزل هذه حاله ُ الى وفاتهِ .

وللفارابيّ مصنّفات عديدة في العلوم التي أتقنها ولا سيّما الفلسفة فانه ُ كان كثير التأليف فيها وله ُ تعاليق وشروحات وتلخيصات كثيرة على كتب الاقدمين وقد جمع من بين التراجم العديدة التي كثرت في زمانهِ ترجمة ملخّصة محرّرة مهذّبة مطابقة للأمهات من تصانيف الحكمة وسمّى كتابه ُ بالتعليم الثاني فلذلك لُقّب هو « بالمعلم الثاني » وكان معجباً بأرسطو ومن قولهِ « لو ادركته ُ لكنت اكبر تلامذتهِ » ومن تآليفهِ كتاب مطوّل في احصاء العلوم والتعريف بأغراضها لم يُسبق اليهِ ولا ذهب احد مذهبه ُ فيهِ وكأنه دائرة معارف عصرهِ. وله مؤلّف في

---

١ ضجة ٢ يأخذونه ُ كلّ في نوبتهِ

« السياسة المدنية » وهو اجلّ كتبهِ سمّاهُ « كتاب المدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة والمدينة الفاسقة والمدينة المبدلة والمدينة الضالّة » حذا فيهِ حذو افلاطون في « كتاب السياسة » ثم عاد ووضع كتاباً برأسهِ بسط فيهِ القول على القسم الأوّل من هذا المؤلّف او المدينة الأولى سمّاهُ « كتاب مبادئ آراء المدينة الفاضلة » وهو المشهور من كتبهِ دوّن فيهِ ما تمثّل لهُ من الآراء الغريبة في سياسة مدينة اذا استكملت فيها الهيئة الاجتماعيّة الصفات والشروط التي عدّدها وحدّدها كانت آية الفضل ومثال الكمال. وقد حشر باني هذه المدينة في مدينتهِ قوماً ليسوا من جبلة بني آدم الضعفاء بل من سلالةٍ تنزّهت عن شوائب النقصان وكدورات الاهواء. فكأن الرجل رمق البشر من ذروة الفيلسوف المولع بالنظريّات ولم ينزل الى موقف الحاكم الذي تساوره[١] حقائق الأمور البشرية من كلّ جانب فلا همّ له بغير العمليّات.

إبنُ سِينَـاء (١٠٣٧م ٤٢٩هـ)

هو الشيخ الرئيس ابو عليّ الحسين بن عبدالله بن سيناء استاذ حكماء عصرهِ وامام اطبّاء دهرهِ ويسمّيهِ الافرنج « أفيسينّ ». كان ابوهُ عاملاً لنوح ابن منصور الساماني بقرية من ضياع بخارى يقال لها خرميثنُ وهي من امّهات القرى وبها ولد الشيخ الرئيس ثم انتقل الى بخارى ومنها خرج يطوف البلاد وينشد العلم ويتفقّدهُ في مظانّه. ولمّا بلغ عشر سنين من عمرهِ كان قد أتقن القرآن والآداب وحفظ اشياء من اصول الدين وحساب الهند والجبر والمقابلة. وورد بخارى اذ ذاك رجلٌ

١ تواثبهُ وتزحمهُ

يدّعي الفلسفة يُعرف بأبي عبد الله الناتلي فقرأ عليه ابن سينـاء كتاب الايساغوجي وأحكم على يده المنطق واقليدس والمجسطي وفاقهُ اضعافاً كثيرة حتى أوضح لهُ منها رموزاً وفهّمهُ اشكالات لم يكن الناتلي يدريهـا. وفارقهُ الناتلي فتولّى قراءة مـا بقي من العلوم المنطقية والرياضيّة والطبيعيّة وحلّها بنفسه وغاص على اسرارهـا حتى وقف على حقائقها ودقائقها اذ لم يكن قرأ على استاذهِ الا ظواهرها. وكان مع إكبابهِ على التحصيل وتوفّر مادّة الاشتغال عليهِ يختلف[1] الى فقيهٍ يُعرف باسماعيل الزاهد يدرس عليهِ ويبحث ويناظر الى أن بلغ من العلم موضعاً جليلاً.

ثم رغب في علم الطب فتلقى اصولهُ عن ابي سهل المسيحي وأقبل على التعمّق فيه بنفسهِ فتأمل الكتب المصنّفة فيهِ وأحاط بأطرافهِ وعالج تأدّباً لا تكسّباً ففاق الأوائل والأواخر بأقل مدة وأصبح في هذه الصناعة عديم القرين فقيد المثل فانتهت اليهِ الرئاسة في هـذا الفنّ يختلف اليهِ فضلاء الأطبّاء وكبراؤهم ويرحلون اليهِ من اطراف البلدان يعرضون عليهِ مشكلاتهم ويقتبسون عنهُ انواع المعالجات التي اهتدى اليها بحذقهِ وتجربتهِ فكان عليهم اميراً غير مدافع واماماً غير منازع كلامهُ فصل الخطاب ورأيهُ منهاج الصواب. كلّ ذلك وسنّهُ حينئذٍ فيما يقال نحو ستّ عشرة سنة وهو ما لا يكاد يُصدّق لولا إجماع الرواة على القول بهِ.

غير انهُ مع ما أُوتي من المدارك المعجزة والعلوم الواسعة لم يكن ليجنح[2] الى الراحة والوناء[3] ويكتفي بما نال من المعارف النادرة على حداثة سنّهِ بل احبّ بعد تسنّم[4] ذروة العلم ان يحتاط لنفسهِ من

---

[1] يتردد [2] يميل [3] ضعف [4] رقيّ

النسيان آفة العلم وداء المتعلّمين الاغرار فتفرّغ سنةً ونصفاً للتوفّر على القراءة والمراجعة فأعاد المنطق وجميع اجزاء الفلسفة وأحيا[١] الليالي في الاشتغال حتى لم ينم في تلك المدّة ليلةً بطولها وكان كلّما أشكلت عليهِ مسألة وعجز عن الظفر بالحدّ الأوسط في قياس فزع الى الابتهال الى الله عزّ وجلّ مصدر الأنوار وأكثر من الدعاء فينفتح لهُ المنغلق ويتيسّر المتعسّر وما زال كذلك حتى استحكمت معهُ جميع العلوم ووقف عليها بحسب الامكان الانسانيّ .

وحكى ابن سيناء عن نفسهِ قال « لمّا عدلت الى العلم الالهيّ قرأت كتاب » « ما بعد الطبيعة » لأرسطو فلم أفهم ما فيهِ والتبس عليّ غرض واضعهِ حتى أعدت قراءته اربعين مرّة وصار لي محفوظاً وانا مع ذلك لا أفهمهُ ولا المقصود بهِ وأيست من نفسي وقلت : هذا كتابٌ لا سبيل الى فهمهِ . واذا انا يوماً حضرت وقت العصر في الورّاقين وبيد دلاّل مجلّد ينادي عليهِ فعرضهُ علي فرددتهُ ردّ متبرّم[٢] معتقد ان لا فائدة في هذا العلم . فقال لي : اشترِ مني هذا فانهُ رخيص أبيعكهُ بثلاثة دراهم وصاحبهُ محتاجٌ الى ثمنهِ . فاشتريتهُ فاذا هو كتاب لابي نصر الفارابيّ في اغراض كتاب ما بعد الطبيعة . فرجعت الى بيتي واسرعت قراءتهُ فانفتح عليّ في الوقت اغراض ذلك الكتاب بسبب انهُ قد صار لي على ظهر القلب وفرحت بذلك وتصدقت بشيء على الفقراء شكراً لله تعالى » .

وعانى الشيخ الرئيس اسفاراً متعدّدة فتقلّب في مناكب الارض ولقي من الامراء والرؤساء اعزازاً وحفاوة وعالج الامين نوح بن نصر السامانيّ من مرضٍ صعب فبرئ على يدهِ فقرّبهُ واذن لهُ بالدخول الى دار كتبهِ

---

١ سهر ٢ متضجر.

فلقي ثَمَّ من المؤلّفات الثمينة ما لا يوجد لهُ نظير ولا سمع باسمهِ احدٌ فأقبل على مطالعتها وتحصيل نخب فوائدها واتفق بعد ذلك ان احترقت تلك الخزانة فتفرّد ابن سيناء بما وعى في صدرهِ من علومهـا . وتقلّد الوزارة بهمذان لشمس الدولة البويهي لكنّ الجند ثاروا عليهِ ونهبوا دارهُ وأوثقوهُ وسألوا شمس الدولة قتلهُ فامتنع ونفاهُ طلباً لمرضاتهم . وتعاقبت عليهِ الحوادث بين عسر ويسر الى ان اعتُقِل بقلعة بردجان على اثر وشاية بعض الأعداء فبقي فيها اربعة أشهر ثم أُخرج وحُمل الى همذان ففرّ منهـا متنكّراً بزيّ الصوفية وقصد علاء الدولة باصفهان فصادف في مجلسهِ الاكرام الذي يستحقّهُ مثلهُ . وصنّف هناك كتباً كثيرة .

بيد أنّ ذلك الرجل الذي منّ عليهِ الخالق الجوّاد بنهـاية المدارك الانسانيّة وبلّغهُ من فضلهِ غاية الغايات من العلوم البشريّة بحيث كان معجزة الايام الباهرة وآيةً بين الأنام من آيات الله النادرة كفر نعمة ربّهِ ولم يربأ بنفسهِ عن مقارفة الدنايا[1] المخزية والتمرّغ بالفواحش المندية[2] فتهافت[3] على الملاذّ الحيوانية واستعبد لأمياله البهيميّة وقد جرّ عليهِ ارتطامهُ بحمأة[4] الرذائل داءً عياءً حبط[5] دون معالجتهِ تدبيرهُ وطبّهُ ولقي منهُ مضض الآلام وغصص المنون وكان فيهِ عطبهُ[6] فهلك موصوماً[7] بصمة العار والاستهتار موساماً[8] بسمةٍ شنعاء على ممرّ الادهار .

ولابن سيناء نحو مئة تصنيف اشهرهـا « كتاب القانون » في الطب يقع في اربعة عشر مجلّداً و « كتاب الشفاء » في ثمانية عشر مجلّداً جمع فيهِ العلوم الفلسفية واختصرهُ « بكتاب النجاة » وهو ثلاثـة مجلّدات

---

١ قارف الذنب ارتكبهُ ٢ التي يندى لهـا الجبين ويستحى منها ٣ هجم وتساقط ٤ الحمأة الطين الاسود المنتن وارتطم بالحمأة تمرغ بها ٥ بطل ٦ هلاكهُ ٧ ملطخاً ٨ وسمهُ جعل لهُ سمة اي علامة

وغير ذلك ممّا لا يسعنا تعداده. وله ايضاً نثر رائق ونظم حسن .

أَلسُّهْرَوَرْدِيّ (١١٩١ م ٥٨٧ هـ)

هو ابو الفتوح يحيي بن حبش المعروف بشهاب الدين السُّهروردي. كان متضلّعاً من العلوم الحكمية جامعاً للفنون الفلسفيّة بارعاً في الاصول الفقهيّة مفرط الذكاء جيّد الفطرة فصيح العبارة لم يناظر احداً الاّ بزّه[١] ولم يباحث محصّلاً الا أربى عليه. الا انه كان كثير التطرّف والتهوّر قليل التحفّظ في الجدال ولذلك قيل ان علمه اكثر من عقله فأدّى به الى التلاف.

وقدم شهاب الدين الشام وتوجّه الى حلب وناظر الفقهاء بحضرة الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين الايوبيّ فبان له فضل عظيم وعلم باهر وظهر على مناظريه ظهوراً بيّناً فحسن موقعه عند الملك وقرّبه وصار مكيناً عنده مختصّاً به. فأكبر حساده الامر وأكثروا من التشنيع عليه وعملوا محاضر[٢] بكفره وافتوا باباحة قتله ذاكرين انحلال عقيدته وما عُزي اليه من التعطيل[٣] واعتقاد مذهب الحكماء المتقدّمين وسيّروا كتاباتهم الى صلاح الدين بدمشق فورد جوابه الى الملك الظاهر يأمره بقتله فامتثل الامر ووجّه الى شهاب الدين من خنقه ثم أُخرج وصُلب اياماً وكان له من العمر نحو ستّ وثلاثين سنة فقُصف غصن شبابه الغضّ في إبّان إزهاره وطُرح في خلوات البلى وقد آذنت سنّه بإيناع أثماره.

ولشهاب الدين نظم رقيق رائق منسجم نحا فيه منحى الصوفيّة في اشعارهم فانهم يدّعون تورية ما بخالج صدورهم من لواعج الحبّ الالهي والتشوّق الى الامتلاء من الحكمة العلوية تحت عبارات التدلّه[٤] بالحبّ

١ غلبه ٢ جمع محضر وهو شهادة خطية بواقع ٣ انكار الخالق والقول بازلية العالم
٤ ذهاب العقل من الحبّ

الجسدي والاستهتار [1] في وصف الخمرة وعجيب مفاعيلها في مدمنيها ...
ومن ذلك قولهُ من قصيدة :

ابـداً تحنّ اليكمُ الارواحُ ووصالكم رَيحانُها والراحُ
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم والى لذيذ لقائكم ترتاحُ

وهي طويلة منهـا :

عودوا بنور الوصل من غسق الجفا فـالهجر ليلٌ والوصالُ صبـاحُ [2]
وتمتّعوا فالوقت طـاب لقربكم راق الشرابُ ورقّت الاقـداحُ

ومنها البيت المشهور :

وتشبهوّا ان لم تكونوا مثلهم انّ التشبّه بالكرام فلاحُ

وممّـا يُنسب اليه وهو يجود بنفسهِ لمّـا قُتل :

قل لأصحابٍ رأوني ميتّـاً فبكوني اذ رأوني حزَنـا
لا تظنـّوني بأني ميّتٌ ليس ذا الميّتُ والله أنَـا
انـا عصفورٌ وهـذا قفصي طرت منهُ فتخلّى رهنَـا
وانـا اليوم أنـاجي مـلأً وأرى الله عيـاناً بهنـا
لا ترعكُم سكرة الموت فـا هي الاّ نقلةٌ من ههنـا
عنصر الارواح فينا واحدٌ وكذا الاجسام جسمٌ عمّنا
فارحموني ترحموا انفسكم اعلموا انكم في أثرنـا
وعليكم من كلامي جملة فسلام الله مـدحٌ وثنـا

---

[1] اتباع الهوى دون مبالاة بقول الناس [2] الغسق ظلمة اول الليل

أَلطُوسِيّ (١٢٧٤ م ٦٧٢ هـ)

هو ابو جعفر محمَّد بن الحسن الملقَّب بنصير الدين الطوسيّ الفيلسوف الرياضيّ الشهير. كان سمحاً كريماً حسن العشرة غزير الفضل ذا بسطةٍ في علوم الأوائل ولا سيّما في الارصاد ونال عند هولاكو خان التتار حرمةً وافرة ومنزلةً عالية بحيث احتوى على عقلهِ حتى لم يكن يركب ويسافر الا في وقت يأمرهُ بهِ وولاّهُ جميع الاوقاف في البلاد التي تحت حكم المغول فرتّب في كلّ بلد نائباً يستغلّ الاوقاف ويأخذ عشرها ويحملهُ اليه ليصرفهُ في ارزاق المقيمين بالرصد وما يُحتاج اليهِ من الاعمال في ذلك .

وابتنى الطوسيّ بمراغة بأمر هولاكو قبّةً ورصداً عظيماً أنفق في عمارتهِ ما لا يحصيهِ الاّ الله وهو غير داخل فيما قرّرهُ من الرواتب للمنجّمين والحكماء والقَوَمة الذين استقدمهم من بلادٍ مختلفة . واتخذ في الرصد خزانه عظيمة فسيحة الأرجاء وملأها من الكتب التي نُهبت من بغداد والشام والجزيرة على اثر الفتح المغوليّ حتى تجمّع فيها زيادة على اربع مئة الف مجلّد انتزعتها حكمة نصير الدين من ايدي الجهل والهمجيّة فنجّاها من الاحراق والاتلاف .

ويُحكى انهُ لما اراد الطوسيّ ان يشرع في عمل الرصد ورأى هولاكو ما يعزم عليهِ قال لهُ « هذا العلم المتعلّق بالنجوم ما فائدتهُ أيَدْفع ما قُدّر أن يكون » فقال « أنا اضرب لك مثلاً. يأمر الخان من يطلع الى هذا المكان ويرمي من إعلاهُ طشت نحاس كبير من غير ان يعلم بهِ أحد» ففعل فلمّا وقع كانت لهُ وقعة عظيمة هائلة روّعت كلّ من هناك ما

عدا هولاكو والطوسيّ فقال لهُ « هذه فائدة هذا العلم . يعلم المطّلع عليهِ ما يحدث فلا يحصل لهُ من الروعة ما يحصل للذاهل الغافل عنهُ » فقنع هولاكو وأمرهُ بالشروع في العمل .

ولنصير الدين الطوسيّ تصانيف كثيرة في المنطق والطبيعيّات والالهيات والهندسة والهيئة منها « التجريد » في الهندسة و « اوصاف الاشراف » في التصوّف و « تجريد العقائد » في الكلام رتّبهُ على ستة مقاصد الاول في الأمور العامّة الثاني في الجواهر والاعراض الثالث في إثبات الصانع وصفاتهِ الرابع في النبوّة الخامس في الامامة السادس في المعاد . وهو اشهر مؤلّفاتهِ وقد اعتنى به عدّة من فحول العلماء فعلّقوا عليهِ شروحاً وافية الحواشي ضافية. ولهُ كتاب المتوسطات بين الهندسة والهيئة. ولهُ زيجٌ مشهور وضعهُ بالفارسيّة يُعرف « بالزيج الايلخاني » نسبة الى هولاكو « ايلخان » المغول دوّن فيهِ نتائج مباحثهِ في الرصد الذي ابتناهُ بمراغة وقد نقلهُ الى العربية عليّ بن محمّد الجرجاني. ولهُ مؤلّفات غير ما ذكر لا يسعنا عدّها .

هؤلاء مشاهير الفلاسفة في الدولة العبّاسيّة وقد مرّ بك جمهورٌ غفير من الفقهاء والنقلة والاطبّاء كانوا جهابذة عصرهم في العلوم الفلسفية واساتذة دهرهم في الفنون الحكميّة سواء كان في النظر او في العمل . وسترى ان من نذكر من « الفلكيّين والرياضيّين » لم يقصّروا قطّ في هذه الحلبة الشريفة. وقد نال عدةً منهم قصب السبق في السعي وراء الحكمة ضالّة اصحاب العقول الثاقبة من كلّ امّة وملّة فضلاً عن تبريز كل منهم في فنّهِ .

الفلكيّون والرياضيّون

مضت على بني الانسان عصورٌ متطاولة وعلم الهيئة والنجامة عندهم شيئان متلازمان بل شيءٌ واحد وما كان الغرض من التبحّر في حركات الكواكب وتعيين مواقعها واستطلاع احكامها سوى التمهّر في الوقوف على احوال العالم السفليّ واماطة اللثام[1] عن مخبّآت الغيب ومقدَّرات المستقبل من مراقبة تلك الآثار العلويّة . وقد رأيت انّ ابا جعفر المنصور لم يكن يُقدم على أمر ذي بال الا بعد استنطاق النجوم وهو في ذلك تابعٌ لآثار من سبقهُ من الملوك كما أن من جاء بعدهُ تبع آثارهُ وأمّا العامة فهم أبداً على دين ملوكهم . وممّا يقضي بالعجب العجاب هو انّ الأطبّاء انفسهم كانوا يراعون احوال النجوم في تدبير مرضاهم ومعالجتهم . قال ابن أبي أصيبعة « ان بختيشوع بن جبريل كان يأمر بالحقن والقمر متصل بالذنب[2] فيحلّ القولنج من ساعته ويأمر بشرب الدواء والقمر على مناظرة[3] الزُهَرة فيصلح العليل من يومه ... » فانظر بعيشك ايّ علاقةٍ بين وجع البطن والقمر وكيف تؤثر مناظرة كوكبين في دواءٍ يشربهُ عليل .

غير أن كثيرين من عقلاء القوم ولا سيّما الأفاضل من رجال الدين كانوا يقولون ببطلان النجامة ويشدّدون النكير على معتقديها وما كان نصيبهم من إذعان الناس الا نصيب القائلين بامتناع صناعة الكيمياء مع ما كان

---

١ اللثام ما على الفم من النقاب واماط اللثام نحاهُ ٢ نقطة الذنب ابعد نقطة من فلك الى الشمس ٣ مقابلة

يجرى تحت حسّهم من الحوادث التي كذّبت مزاعم المنجّمين تكذيباً فاضحاً وقد مرّ بك شيء من ذلك في ترجمة ابي تمّام. وروى ابو الفرج بن العبريّ انهُ «لما اشتد مرض الواثق أحضر المنجّمين ومنهم الحسن بن سهل بن نوبخت فنظروا في مولدهِ فقدروا انهُ يعيش خمسين سنة مستأنفة [1] من ذلك اليوم فلم يعش بعد قولهم الا عشرة ايام ...» ولكنّها الأهواء تعمي وتصمّ.

لكنما يجدر بنا ان نعتبر في هذا المحلّ ان نهوض جلّةٍ من علماء العرب ينكرون النجامة والكيمياء كان فاتحة الطور الجديد الذي دخل فيهِ هذان العلمان. فهم الذين وضعوا فأس التحقيق في أساس تلك الخرافات التي كدستها العصور منذ عهد الكلدانيّين الى ايامهم فزعزعوها ومحّصوا في بوتقة الاختبار الآراء الفائلة فجرّدوا كلا العلمين من الأكاذيب والأوهام الى ان وصلا شيئاً فشيئاً الى هذه الدرجة السامية التي نراهما فيها اليوم. فكان من النجامة علم الفلك ومن الكيمياء الوهميّة القديمة الكيمياء الحقيقيّة الحديثة.

ولا حاجة الى التنبيه فيما نظنّ ان فلكيّي العرب كانوا على مذهب بطليموس كما انّ اطبّاءهم كانوا على مذهب جالينوس وكلا المذهبين مهجورٌ في ايّامنا — وامّا الرياضيات ففيما قلنا في مستهلّ [2] هذا الباب كفايةٌ لمعرفة ما للعرب من الفضل على العالَم المتمدّن بالاحتفاظ بهذه العلوم وترتيبها واستنباط كثيرٍ من فروعها وترقيتها.

---

١ مجددة ٢ مفتتح

أَبْنَاءُ شَاكِر

هو محمّد وأحمد والحسن ابناء موسى بن شاكر. كان ابوهم موسى في غَلَواء شبابهِ وشِرّتهِ[1] لصًّا جريئاً وشجاعاً مشيّع القلب يقطع الطريق على المارّة ليلاً ويسرع فيصلّي الصبح مع الجماعة في المسجد ليوهم الناس ويخفي حقيقة أمرهِ ولا يزال سحابة نهارهِ في المدينة الى العِشاء فيصلّي العتمة مع جيرانهِ ويخرج متنكّراً ويعود الى سابق تلصّصهِ ثم ارعوى عن غوايتهِ[2] وحسنت توبتهُ ولحق بالمأمون وكان بصحبتهِ الى ان مات وخلّف هؤلاء الاولاد الثلاثة صغاراً فعطف عليهم المأمون ووصّى بهم اسحاق بن ابراهيم المصعبيّ واثبتهم مع يحيى بن ابي منصور في بيت الحكمة وكانت حالهم رثّة وارزاقهم قليلة كسائر اصحاب المأمون.

ونبغ بنو موسى بن شاكر في فنون عصرهم وكانوا نهاية في العلم والفضل وذوي هِمم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الاوائل وأتعبوا انفسهم في شأنها ورحلوا في تطلّبها وأنفذوا الى بلاد الروم من أخرجها لهم وأحضروا النقلة من الاصقاع الشاسعة بالبذل السنيّ فأظهروا عجائب الحكمة. وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحِيَل والنجوم وبرّز كلٌّ منهم بفنّ مع مشاركته في سائر الفنون فأبو جعفر محمّد وهو اكبرهم واجلّهم كان وافر الحظ من الهندسة والنجوم وأخوهُ أحمد برع في صناعة الحِيَل وفُتح لهُ فيها ما لم يفتح مثلهُ لأحد وانفرد الحسن

---

١ نشاطهِ ٢ ضلاله

وهو ثالثهم بالهندسة ورُزق فيها طبعاً عجيباً لا يدانيه احد وكلّ ما حصّل منها وقف عليه بطبعهِ ولم يقرأ في الهندسة الاّ ستّ مقالات من كتاب اقليدس في الاصول فقط وهي اقلّ من نصف الكتاب ولكنّ ذكره كان عجيباً وتخيّلهُ قويّا. ويحكى انّ حبشاً الحاسب المَرْوزِيّ صاحب الزيج المتَحَن عرّض امام المأمون باجتزاء[1] الحسن عن كتب الهندسة بقراءة ست مقالات من اقليدس واراد بذلك الغضّ من شأنهِ فقال الحسن « يا امير المؤمنين لم تسألني عن شكلٍ من اشكال المقالات التي لم اقرأها الا استخرجتهُ بفكري واتيتهُ بهِ. فما ضرّني ترك قراءتها وما نفعتهُ قراءته لكلها اذ هو عاجزٌ عن استخراج أصغر مسألة في الهندسة » فقال المامؤن « ما أدفع قولك ولكني لست أعذرك ومحلّك من الهندسة محلّك أن يبلغ بك الكسل ان لا تقرأ الكتاب كلّهُ وهو للهندسة كحروف ا ب ت ث للكلام والكتابة ».

ومن مآثر بني شاكر التي خلّدَت لهم الذكر الطيّب في أندية العلماء قياسهم بإيعاز المأمون للدرجة من خطّ نصف النهار. وذلك ان المأمون اطّلع في كتب الاقدمين ان دور كرة الارض اربعة وعشرون الف ميل[2] كلّ ثلاثة اميال فرسخ فيكون المجموع ثمانية آلاف فرسخ. فسأل بني شاكر عن رأيهم في ذلك فقالوا له « نعم هذا قطعيّ » فقال « أريد منكم ان تباشروا اختبار ذلك بأنفسكم حتى نبصر هل يتحرّر ذلك ام لا » فسألوا عن الاراضي المتساوية في ايّ البلاد هي فقيل لهم « صحراء سنجار في غاية الاستواء وكذلك وطآت[3] الكوفة ».

فأخذوا معهم جماعة ممّن يثق المأمون اليهم وجاؤوا صحراء سنجار

---

١ اكتفاء ٢ الميل الف باع والباع اربع اذرع ٣ الاراضي المنخفضة المطمئنة

واخذوا ارتفاع القطب الشمالي وضربوا في ذلك الموضع وتداً ربطوا فيه حبلاً طويلاً ثم مشوا الى الجهة الشمالية على استواء الارض من غير انحراف الى اليمين واليسار على حسب الامكان وما زالوا ينصبون الاوتاد ويربطون الحبال حتى انتهوا الى موضع اخذوا فيه ارتفاع القطب فوجدوه قد زاد على الارتفاع الاول درجة فمسحوا ذلك القدر من الحبال فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثي ميل. ثم عادوا الى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأوّل وشدّوا فيه حبلاً وتوجهوا الى جهة الجنوب وعملوا كما عملوا في جهة الشمال وقاسوا الدرجة هناك فاتّفق القياسان وصحّ حسابهم.

وعادوا الى المأمون وأخبروه بما صنعوا فطلب تحقيق ذلك في موضع آخر فسيّرهم الى أرض الكوفة وفعلوا هنالك كفعلهم في سنجار فتوافق الحسابان وعلم المأمون صحّة ما حرّره القدماء في كتبهم من مقدار دور كرة الارض.

وكان لأبناء شاكر مرصدٌ على جسر بغداد أكثروا فيه من الرصود والتحقيقات. ولهم في العلوم التي كانوا يتعاطونها استنباطاتٌ ومؤلّفاتٌ تشهد لهم بانفساح الذرع وقوّة المدارك في العلميّات والعمليّات.

وتُوُفّي ابو جعفر محمّد كبير أبناء موسى بن شاكر سنة ٨٧٣ مسيحيّة ٢٦٠ هجرية.

أَبُو مَعْشَر ٱلبَلْخِيّ (٨٨٦م ٢٧٢هـ)

هو ابو معشر جعفر بن محمّد البلخيّ المنجّم. كان في اول امره من اصحاب الحديث ببغداد يناوئ[١] ارباب العلوم ويضاغن[٢] ابا يوسف يعقوب

١ يقاوم ٢ يعادي ويبغض

ابن اسحاق الكنديّ ويغري به العامّة ويشنّع عليه بعلوم الفلاسفة. فدسّ عليه الكنديّ من حسّن له النظر في الحساب والهندسة فدخل في ذلك ولم يكمل له فعدل الى علم احكام النجوم وانقطع شرّه عن الكنديّ بتعاطيه هذا الفنّ لانه من جنس علوم الكنديّ وهذه حيلة ظريفة للتملّص من أذى عدوّ دون الالتجاء الى التدابير الخفيّة والدسائس الدنيّة التي طالما فزع منها اصحاب الغايات حتى اولئك الذين اشتهروا بالفضل والمعرفة وكانوا مظنّة الترفّع من وساوس الحسد ودنايا الوشايات .

ويُقال ان أبا معشر تعلّم النجوم بعد سبع واربعين سنة من عمره وبرع فيها وصنف عدة كتب نشرت صيته في الآفاق واتصل ذكره الى بلاد الافرنج وهم يسمّونه « ألبومازر » ويعدّونه من مشاهير فلكيي زمانه . ومن تآليفه « المدخل » في النجوم وكتاب « الألوف » وهو أشبه شيء بتاريخ علميّ صناعيّ ذكر فيه الهياكل والابنية العظيمة التي يحدث بناؤها في العالم في كلّ الف عام وله زيج على مذهب الفرس في رصودهم . وتُروى عنه حكايات غريبة في كشف المخبآت والاطلاع على المغيّبات مهّدت له سبل التزلّف الى ملوك زمانه وأحلّته عندهم محلّ الرفعة والتجلّة للانتفاع بنبوءاته ... ويقال انه أخبر المستعين بشيء قبل حدوثه وأصاب فيه فضربه اسواطاً ولذلك كان يقول « أصبت فعوقبت » ويحكى انه كان مدمناً لشرب الخمرة مشتهراً بمعاقرتها ويعتريه صرعٌ[1] عند الامتلاءات القمريّة ... ولعلّ الأقرب الى الصدق إن كان يتخبّطه الصرع حقيقةً أن يكون ذلك عند الامتلاءات الخمريّة اذ لا ندري ما العلاقة بين الصرع وامتلاء القمر. وعلى كلّ حال فان صرعه لم يقصّر من ايامه وقد مات وعمره يجاوز المئة .

---

[1] داءٌ يفقد المصاب به شعوره وينطرح على الارض مزبداً متشنج العضل

أَلبَتَّانِيّ (٩٢٩م ٣١٧هـ)

وهو ابو عبد الله محمّد بن جابر البتّاني ويسمّيه الافرنج «الباتنيوس». أصلهُ من بتّان وهي ناحية من اعمال حرّان وكان نسيج وحدهِ وعلامة عصرهِ في علم الهيئة ولا يُعلم أحدٌ من علماء الاسلام بلغ مبلغهُ في تصحيح ارصاد الكواكب وامتحان حركاتها ولهُ من الاعمال العجيبة والأرصاد المتقنة ما يدلّ على غزارة فضلهِ وسعة علمهِ .. وباشر الرصد في الرَّقّة على الفرات مدة ثماني عشرة سنة وقيّد خلاصة اختباراته في زيجٍ يُعرف بالزيج الصابي لأنهُ نفسهُ كان صابئيّاً ككثيرٍ من أَهل حرّان الاّ ان اسمهُ يشير انهُ اسلم ما لم يكن اتخذهُ مجاراةً لمن حولهُ من المسلمين كما كان يفعل عدةٌ من علماء ملّتهِ في ذلك العهد. والزيج الصابي نسختان اولى وثانية والثانية أجود ومن هذا الزيج اتخذ ابو القاسم مسلمة بن احمد المرحيطي كتابهُ « اختصار تعديل الكواكب » .

وللبتاني في مؤلّفاتهِ تصحيحات واستنباطات تشهد لهُ بالتبحّر في الهيئة والتضلّع من الرياضيّات وهو اوّل من استبدل اوتار القسيّ بالجيوب في قياس المثلّثات والزوايا ولهُ غير ذلك ممّا لا نتعرّض لذكره لئلا نُدخل في هذا المختصر مصطلحات العلوم الخاصّة .

وتُوُفي البتّانيّ عند رجوعهِ من بغداد الى الرقّة بموضع يقال لهُ قصر الحَضْر .

إِبنُ ٱلهَيْثَم (١٠٣٨ م ٤٢٩ هـ)

هو ابو عليّ محمّد بن الحسن بن الهيثم البصريّ المهندس. كان فاضل النفس مولعاً بالحكمة والنظر فيها قويّ الذكاء متفنّناً في علوم عصرهِ واسع التبحّر في الرياضيّات لا يبلغ شأوهُ احدٌ من بني زمانهِ ولم يزل قطّ منقطعاً الى الاشتغال والتصنيف زاهداً في حطام الدنيا ومناصبها محبّاً للخير ونفع بني جنسهِ. ووزر مدة لامير بلدتهِ الاّ ان هذه الخطّة لم تكن لتلائم اخلاقهُ فاعتزل الخدمة حبّاً بالنظر في العلم وقيل انهُ تحامق واظهر خبالاً[1] في عقلهِ ليُصرف ويُعفى من تعاطي مهامّ الوزارة ويُترك وشأنهُ يجالس كتبهُ ويناجي الحكماء الاقدمين.

وترامى صيت ابن الهيثم في الانحاء وتُحُدّث بفضلهِ في أندية العلم ولهجت الالسنة بتفرّدهِ في الهندسة والهيئة فرغب خليفة مصر الحاكم بأمر الله في رؤيتهِ ولا سيّما بعد ما نُقل لهُ عنهُ انهُ قال « لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل بهِ النفع في كلّ حالةٍ من حالاتهِ من زيادة ونقصان » فسيّر اليهِ الحاكم سرًّا جملةً من المال ورغّبهُ في الحضور. فرضي ابن الهيثم بالقدوم عليه وشخص الى مصر ولما وصلها خرج الحاكم بنفسهِ للقائهِ وأمر بإنزالهِ وإكرامهِ واقام مدةً ريثما استراح ثم طالبهُ بما وعد بهِ من امر النيل فصدع ابن الهيثم بالامر واتخذ الأهبة للقيام بأعباء المهمة التي ألقاها على عاتقهِ فحشد جماعة من حذاق الصنّاع ليستعين بهم على هندسة خطرت لهُ.

---

١ فساداً

ولمّا سار في الاقليم بطوله ورأى آثار الامم الخالية من سكّانه على غاية من إتقان الصنعة وإحكام الهندسة وإعجاز التصوير تحقّق ان ما يقصده غير ممكن وانه لم يعزب[١] عن القدماء علم يعلمه هو ولو أمكن اجراء ما عنّ[٢] له لفعلوا ذلك قبله. وتجسم له خطأه وبطلان دعواه عند وصوله الموضع المعروف بالجنادل قبلي مدينة اسوان وهو موضع مرتفع ينحدر منه الماء بقوّة هائلة. فعاين الشلاّل وباشره واختبره من جانبيه وايقن أن العمل الذي حدّثته به نفسه ضرب من المحال لا يستقيم بوجه من الوجوه فأُسقط في يده وانكسرت همته وجمدت قريحته وعاد الى القاهرة خَجِلاً مخذولاً واعتذر الى الحاكم عن تسرّعه في الوعد وعجزه عن إخراج فكره من النظر الى العمل. فقبل الخليفة معاذيره ووافقه على كلامه ولم يتناوله من الشدة لا بالقول ولا بالفعل وهو امر عجيب لا يكاد يُصدَّق عن رجل غريب الاطوار متقلّب الاخلاق سريع الغضب والبطش كالحاكم بأمر الله.

ثم تقدّم اليه الحاكم بولاية بعض الدواوين فتولاّها رهبة لا رغبة ورأى من بدوات[٣] الخليفة وإراقته للدماء بغير سبب او بأضعف سبب يرد على مخيّليه الخبلاء ما تحقق معه غلطه في الولاية وأجال فكرته في امر التملّص من هذه الضيقة ففتق له تدبّره العود الى سابق حيلته بالبصرة فأظهر الجنون والاختلاط وشاع ذلك عنه فأُحيط على موجوده وجُعل برسمه من يخدمه ويقوم بمصالحه. ولم يزل على ذلك الى وفاة الحاكم فأظهر على إثرها العقل وعاد الى ما كان عليه فرُفع عنه الحجر[٤]

---

١ يبعد ٢ عرض ٣ الآراء والاهواء المختلفة ٤ حجر القاضي على القاصر في ماله منعه من التصرف فيه

واستوطن قبّة على باب الجامع الازهر وانقطع الى العبادة والاشتغال بالعلم والتصنيف والافادة .

وكان ابن الهيثم يكتب خطّا قاعداً في غاية الصحّة وينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب في ضمن اشغاله وهي اقليدس والمتوسّطات والمجسطي ويشكلها . واذا شرع في نسخها جاءَه من يعطيه فيها مئة وخمسين ديناراً مصريّا وصار ذلك كالرسم الذي لا يحتاج الى مواكسة [1] ولا معاودة قول فيجعلها مؤونة لسنته . وله تصانيف كثيرة مشهورة في فنون متنوّعة لا محلّ لاستيفائها ههنا منها كتاب في المساحة وكتاب في الشفق والفجر وكتاب في المناظر اي البصريّات ذكر فيه كثيراً من أحكام الانكسار وفي هذا الكتاب حلّ المسألة المشهورة بمسألة الخازن والخازن لقب لابن الهيثم ونصّ هذه المسألة هو « في ايّ نقطة من المرآة المقعّرة ينبغي ان يقع الشعاع الآتي من جهة مفروضة حتى ينعكس الى نقطة مفروضة » وجاء في كشف الظنون من كلام عمر الخيّام عن هذه المسألة «ان ارشميدس لم يتفق له حلّها بعد ان فكر فيها مليّا فجزم بأنهُ ممتنع حتى تبعهُ ابو جعفر الخازن وحلّها بالقطوع المخروطية ... » .

عُمَرُ ٱلخَيَّام (١١٢١ م ٥١٥ هـ)

وهو ابو الفتح عمر بن ابراهيم الخيّام الشاعر الفارسيّ المشهور بمربّعاته على مذهب الصوفيّة كان من أئمة عصره في الفلسفة والهيئة والرياضيّات وتلقّى العلوم في مدرسة نيسابور وهنالك عرف طالبين أعتد [2] لهما ذكر طبّق الخافقين [3] وكتبت لهما شهرة ملأت الاسماع وتحدّثت بها الركبان

١ مناقصة ٢ هيّئ ٣ المشرق والمغرب

وان اختلفت وجهتها في كلٍّ منهما. احدهما نظام الملك وزير السلطان ملك شاه السلجوقيّ وقد مرّ بك شيء عن فضلهِ وحسن سياستهِ والآخر هو اللصّ حسن بن صبّاح زعيم الفرقة الاسماعيليّة الباطنيّة الملاحدة الحشّاشين اصحاب قلعة أَلَموت ولهم في التاريخ ذكرٌ مشؤوم بما اجترحوا من المنكرات والفظائع ... فآخى عمر الخيام هذين الشابّين وتوثّقت بينهم عرى الولاء واحتاطوا لأنفسهم من المستقبل فتعاهدوا أن من خدمهُ الدهر منهم واقبلت عليهِ الدنيا يذكر رفيقيهِ القديمين ويمدّ لهما يد المساعدة. وافترقوا على هذه المواعيد.

ودار الزمان دورانهُ وعانى الثلاثة غيرَهُ وحدثانهُ فرفعت ايدي الاقدار نظام الملك على مناكب السعد وبوّأتهُ مُبوّأ العزة والمجد فقصدهُ عمر وتقاضاهُ الوعد فاحتفى بهِ الوزير وعرض عليهِ رتبة في الدولة فأبى الاّ التفرّغ للعلم فأزاح لهُ صديقهُ علّتهُ[1] وأجرى عليهِ رزقاً واسعاً كفاهُ مؤونة السعي وتجرّد للاشتغال والتبحرّ في الفلسفة والرياضيات والنجوم حتى أصبح فيها قريع وحدهِ وسمّاهُ ابن القفطيّ في تاريخهِ « إمام خراسان وعلاّمة الزمان ».

الا ان عمر الخيّام كان واهي العقيدة دهريّ[2] المذهب مرميّاً بالالحاد والتعطيل يستر زندقتهُ تحت براقع التمويه من القول بتطهير الحركات البدنيّة لتنزيه النفس الانسانيّة. فراجت اشعارهُ عند الصوفيّة ايّما رواجٍ لما عُلم من تهافت هؤلاء القوم على كلّ ما يحرّر النفس من الشرائع ويرقّيها في غريب زعمهم الى عالم الروحانيّة حيث تسقط عنها

---

١ اي انه كان يمدّهُ ويزيل كل ما لعلهُ يمنعهُ عن التفرغ لمهمتهِ ٢ الدهري من ينكر الخالق ويقول بقدم العالم

المحظورات فلا إثم ولا حرج فيما يأتون من المنكرات. وتُحُدِّث بكفر الرجل بين الناس وفساد آرائه وكادت تتهتّك استار دهائه ورئائه فخشي على دمه وأمسك من عنان لسانه وقلمه وحج تضليلاً للمقول وتبديداً لما تجمّع فوق رأسه من غيوم الأحقاد ملؤها الزوابع والصواعق. ولما عاد من حجّته اظهر التديّن ولزم جانب الحذر واليقظة.

وكان عمر الخيّام شاعراً فصيحاً وأكثر شعره في الفارسيّة وكان يؤثر النظم مربّعات يودعها آراءه في الفلسفة والمذاهب. وهي عند الفرس بمنزلة شعر ابي العلاء المعرّي عند العرب فان فيها صدى التهكّم والهزء بالدين الذي امتازت به اللزوميّات المعرّية. وله في العربيّة شعر قليل منه:

اذا رضيت نفسي بميسور بُلغةٍ[1] يحصلها بالكدّ كفّي وساعدي
امنتُ تصاريف الحوادث كلّها فكن يا زماني مُوعدي ومواعدي[2]
أليس قضا الافلاك في دورها بأن تعيد الى نحس جميع المساعد
فيا نفس صبراً في مقيلك انّما تخرّ ذراه بانقضاض القواعد[3]

وكان عمر الخيّام بارعاً في النجوم وله في هذا المعنى زيجٌ قيّد فيه فذلكة[4] أرصاده وسمّاه «الزيج الملكشاهي» نسبة الى مخدوم صديقه وله في الرياضيّات مصنّف في الجبر له شأن عند ارباب هذا العلم وقد نقله الافرنج الى لغاتهم كما انهم نقلوا ايضاً أكثر مربّعاته.

---

١ ما يتبلغ بهِ من العيش اي يكتفى ٢ اوعدهُ بالشر هدّدهُ بهِ وواعد الرجل صاحبهُ وعد كلٌّ منهما الاخر ٣ المقيل موضع القيلولة اراد بهِ الجسم موضع اقامة النفس في هذه الحياة والذرى جمع ذروة وهي اعلى الشيء والانقضاض السقوط ٤ خلاصة وهي مأخوذة من قول الحاسب اذا فرغ من حسابهِ: فذلك كذا وكذا

هؤلاء مقدَّموا علماء الهيئة والرياضيّات في الدولة العباسيّة. وقد ذكرنا في الأبواب السابقة افراداً افاضل توسّعوا في هذه الفنون وأتقنوها والّفوا فيها كالبيروني والقزويني وثابت بن قرّة وغيرهم. وتعاطى الرياضيّات جمّ غفير من علماء العرب نبغوا في تلك الأعصر وكانت لهم فيها اليد الطولى وان لم يدركوا الغاية التي سبق اليها هؤلاء الاعلام الاماثل.

ولم نتصدَّ لذكر من اشتهروا بفنونٍ ليست من غرضنا في هذا الكتاب كالبيزرة[1] والبيطرة والجواهر وغيرها والمشتهرون فيما على كل حالٍ آحادٌ قليلون. وهناك اشياء أُخر كانوا يتناقلونها ويسمّونها علوماً منها ما لا يخرج عن حدّ الجزئيّات فلا يصحّ ان يطلق عليه اسم علم كعلم قلع الآثار مثلاً وعلم قوس قُزَح ومنها ما بُني على الأوهام كعلم تفسير الأحلام والسيمياء والرمل والجفر والفِلَقْطيرات والزايرجة[2] الى ما هنالك من

---

١ راجع تحديد البيزرة في ترجمة ابي الفرج الاصفهانيّ ٢ السيمياء غير الحقيقي من السحر يراد بهِ اظهار خيالات لا وجود لها حقيقة الى غير ذلك من الاوهام. وعلم الرمل يبحث فيهِ عن الحوادث المجهولة بعد خطوط في الرمل على هيئات خاصة. وعلم الجفر يبحث فيهِ عن الحروف من حيث هي دلائل على مستقبل الحوادث الى انقراض العالم. والزايرجة شبكة مربعة تشتمل على مئة بيت يرسم في كل واحد منها حرف مفرد ويستدل بها على الغيب. والفلقطيرات يبحث فيها عن احداث تأثيرات خاصة بخطوط طويلة تعقد عليها حروف واشكال مختلفة ... (عن كشف الظنون بتصرف) — واعلم ان الفلقطيرات (بكسر ففتح فسكون) هي في الاصل قدد من الرق كان اليهود يكتبون فيها آيات من التوراة ويعتصبون بها او يعقدونها على شمائلهم عملاً بحرفية ماجاء في ناموس موسى (تثنية ٦ : ٨) وآل بهم الامر الى اعتبارها احرازاً واتخاذها تمائم ... وكان الفرّيسيون يبالغون في اتقان هذه القدد ويكبرون حجمها على ما هو معروف من اطوارهم وولوعهم بالمباهاة في حفظ الشريعة ووقوفهم عند ظواهرها ومن ثم استهدفوا لتقريع السيد لهُ المجد وتوبيخهِ اياهم بتعريض فلقطيراتهم (متى ٢٣ : ٥)

الخرافات والأضاليل.

ونوصد ههنا باب الكلام على «اللغة في الدولة العبّاسيّة» راجين ان يكون فيما ذكرناهُ كفايةٌ للوقوف على منزلة القوم من الآداب والعلوم ومكانهم من الأمم الراقية التي أتقنت الفنون والصنائع ووسّعت نطاق العلوم وفسحت لأرباب البحث والاجتهاد في ميدان العمران فجالوا جولات الفرسان المقاديم وخُطوا خطوات الشجعان اللهاميم [1] فخدموا المدنيّة خدماً جليلة وأُحمدت مساعيهم وغاياتهم النبيلة. ولا يخفى ان العرب كانوا في الاجيال المتوسّطة ولا سيّما في المدة العبّاسيّة الزاهرة الأُمّة القويّة الوحيدة التي احلّت العلم من نفسها محلّ الاجلال والاعزاز وحرصت على اِقتنائهِ والازدياد منهُ فأوضحت معالمهُ وآثاره ورفعت بين الشعوب مناره على حين كانت أكثر الامم منجحرةً [2] في مغاور الجهالة لا همّ لها بغير ما قرب من حاجيّات المعاش.

وخلاصة القول ان العلم كان رائد العرب وحليفهم اينما بدت جنودهم وخفقت بنودهم وقد سجّل لهم التاريخ من آيات الهمّة القعساء [3] ما يستنطق الألسنة بطيّب الثناء على تراخي الأحقاب [4] وخلّدوا لأنفسهم من المآثر الغرّاء ما تتعطّر بذكرهِ الافواه على توالي الاعقاب.

---

١ جمع لهميم بالكسر وهو الجواد من الناس والخيل ٢ انجحر الضب في جحرهِ اي مأواهُ ٣ الثابتة العظيمة ٤ جمع حقب بالضم وهو المدة من الدهر

اللغة

في الانـدَلُس

دخل العرب الاندلس وامراؤها في شقاقٍ ونزاعٍ وعداء واندفقت عصاباتهم في ارجائها اندفاق السيل الجارف انقضَّ من قمم الجبال الى عرض الصحراء وأبدوا في مواقف القتال من الصبر والاستهانة بالموت ما فشلت دونهُ الجحافل الدهماء[1] وأُوتوا نصراً مبيناً وفتحاً جليلاً على اثر معارك خاضوا غمراتها خوض الأبطال الاشدّاء وخرجوا من معامعها خروج الاسود خُضِّبت لبدَاتها[2] بالدماء فازدادت هيبةً وجلالاً وألقت الذُعرَ في قلوب الأعداء وكأنَّ ما وقع في ايديهم من نفائس الأعلاق[3] شَحذَ فيهم نَهَمَةَ الفتح وشَهْوة الاستيلاء فسوّلتْ لهم نفوسهم التوسّع في بلادٍ خَلَعت عليها الطبيعة زخرفها فكانت آية البداعة والبهاء بما خصّها الخالق عزَّ وجلَّ من طِيب التربة ورقّة الهواء وصفاء الماء. وذكّرتهم مدنها المنبسطة في تلك الرياض الأَريضة[4] بدمشقَ وغوطتها[5] الغنّاء ومثّلت لهم غياضها النضرة مُرُوجَ الشام وربوعها الفيحاء. فجعلوا يتوغّلون في تلك الآفاق وايما حلّوا فالفتح أليفهم وكيفما انقلبوا فالنصر حليفهم حتى وطئت أقدامهم ما وراء الجبال البيرينيّة وهدّدوا القارّة[6] الأُوربيّة جمعاء فمادت[7] لوقع حوافر خيلهم عروشُ مَن هنالك من الملوك

---

١ السوداء الكثيرة العدد ٢ الشعر المتلبد بين اكتافها ٣ جمع علق وهو النفيس من كل شيء ٤ الكثير العشب الحسنة في العين ٥ الغوطة ما يُحيط بدمشق من الرياض والبساتين ٦ أحد أقسام الارض الخمسة ٧ اهتزت

والأمراء وأيقنوا بدنوّ الأجل وحلول القضاء .

واستطار الرعب في بلاد الافرنج من جرأة اولئك الفاتحين وإقدامهم وخاف زعماء القوم ان هم تخاذلوا وتواكلوا [١] أن يحلّ بأوطانهم ما حلّ بممالك الشرق من الانحلال والاضمحلال فألّبوا [٢] جموعهم ولمّوا اطرافهم تحت قيادة بطلٍ شهير منهم يُعرف بشرل مرتل وكان امير العرب يومئذٍ عبد الرحمن الغافقي والتقى الجيشانِ في سهول بواتياي وقد سمّاها العرب بلاطة الشهداء. ودارت بين القومين رحى حربٍ طاحنةٍ رخصت فيها ارواح الأبطال وشابت من اهوالها رؤوس الأطفال واستقتل كلا الخصمين في ساحة الوغى وأبدوا من آيات البأس والجلادة ما يعجز عن وصفهِ أفصح لسان وخلّدوا جميعاً لأنفسهم من معجزات الشجاعة ما سُجّل بمداد الفخر في جبين الدهر الى منتهى الازمان. كتب الله النصر لجيوش شرل وما النصر الاّ من عند الله فانكفأ العرب ناكصين على الأعقاب وعلموا من فشلهم وثبات خصمهم انهُ قد قُضي هنالك على مطامعهم وحسبهم ما دخل في حوزتهم من البلاد الواسعةٍ يصونونها من هجمات الأعداء ويرتعون في جنباتها الفسيحة دهراً طويلاً في الرخاء والهناء الى ان يحلّ في مملكتهم هذه الانحطاط والتضعضع فتعود الى اصحابها الأولين كأن لم تغنَ بالأمس. وانّ الارض لله يورثها من يشاء من عبادهِ وهو خير الوارثين .

وتعاقب الولاة على الاندلس من لدن خلفاء دمشق حتى اضطرب حبل الدولة الأمويّة وادال الله للهاشميّة [٣] فبذل ابو العباس السفّاح السيف في

---

[١] إتكل بعضهم على بعض [٢] جمعوا [٣] جعل لهم الدولة والهاشمية هم بنو العباس ولد هاشم أبي عبد المطّلب جد محمد نبي المسلمين

بني اميّة تخلّصاً من احزابهم ودهاتهم ونجا من المذبحة واحدٌ منهم اسمهُ عبد الرحمن وهو ابن معاوية بن هاشم بن عبد الملك بن مروان واتى بلاد المغرب ومنها ابحر الى الاندلس ونودي بهِ خليفةً في حديث طويل لامحلّ لاستيفائهِ ههنا ولُقّب بالداخل. ورسخت قدم الامويين هنالك وانشأوا مملكة مستقلّة بذلوا في ترقيتها وإعلاء شأنها ماشاء دهاؤهم وسخاؤهم وغيرتهم على تحدّي[1] العباسيين ومباهاتهم في ضخامة الملك واتّساع العمران.

وكان للآداب من تلك المباراة أوفى حظٍّ وأوفر عائدة[2] فان خلفاء الاندلس ورثوا عن اجدادهم الدمشقيّين اخلاقهم ومناقبهم وضروب سياستهم من الاستظهار بأرباب العلم لتوطيد أركان سيادتهم ولم يألوا جهداً في تنشيط العلماء واجلال مقامهم حرصاً على ما يلحق الملك من الأبّهة والمجد من استبحار المعارف والفنون حول العرش وخشيةً من ان يفوتهم شيء من الفخر الباذخ الذي ضرب سرادقه[3] على الخلافة العباسيّة إبّان زهوها وازهار العلوم فيها. وقد قام منهم من جارى مشاهير خلفاء بغداد في الاستكثار من اسباب المدنيّة والتبسّط في اطراف الحضارة من المادّيّات والأدبيّات كالناصر وابنه الحكَم ويشبّهونهما بالرشيد والمأمون. وصرف بنو أميّة ما أوحت لهم اريحيّتهم وكبرياؤهم وأثرتهم[4] في تزيين قرطبة مقرّ الخلافة المروانيّة وقد أنفقوا في ذلك من الاموال الطائلة ما لا يكاد يصدّق لولا بدائع الآثار القائمة الى ايّامنا الناطقة بما كان لرافعيها من انفساح الذرع في إتقان كاليّات العمران وتوسيع نطاق الصنائع. وقد شفعوا[5] تأنّقهم في المباني بالاحتفال للآداب ورفع منارها.

---

١ مباراة ٢ منفعة ٣ السرادق ما يدار حول الخيمة من شقق بلا شقف ٤ الأثرة اختصاص المرء نفسهُ بأحسن الشيء دون غيره ٥ شفع الشيء زاد عليهِ مثله

وكان البادئ بنشر ألوية العلم والداعي اليه الخليفة الناصر. وخلَفَهُ ابنهُ الحكَم فأتمّ ما شرع فيهِ والدهُ وكان محبّاً للعلوم مكرماً لأهلها جمّاعاً للكتب على اختلاف انواعها بما لم يجمعهُ أحدٌ من الملوك قبلهُ. وبلغ من حرصهِ على حشد الكتب انهُ بعث في شرائها الى الاقطار الشاسعة رجالاً من التجار يزيح علتهم [1] ويحمّلهم الاموال الوافرة فيجوسون [2] انحاء افريقيا ومصر وفارس وسائر البلاد العربيّة يطلبون المؤلّفات النفيسة في مظانّها ويحتالون في ابتياع ما يظفرون بهِ مهما كان فاحش الثمن ويبذلون فيهِ عن يد حتى جمعت الخزائن الملوكية بقرطبة اربعمائة الف مجلّد وقيل ستّ مئة الف رُتّبت على حسب الاغراض والمواضيع وبلغت فهارس الدواوين وحدها اربعة واربعين فهرساً في كل فهرسٍ عشرون ورقة — وكان الحكَم من الغيرة على مطاولة بني العبّاس بحيث أوفد الى ابي الفرج الاصبهانيّ صاحب كتاب الأغاني الشهير وهو امويّ النسب من يسألهُ نسخة من كتابهِ قبل ان يظهرهُ في العراق ويخرجهُ الى ملوك الشرق ونضحهُ [3] في ذلك بألف دينار من الذهب العين. وجمع بدارهِ الحذّاق في النسخ والمهرة في الضبط والمجيدين في صناعة التجليد وجعل عليهم قيّماً يشارف اعمالهم ويتقاضاهم الاحكام والتأنّق فيما عُهد اليهم ويوزّع عليهم الارزاق.

ولمّا كان الناسُ على دين ملوكهم ولا سيّما في تلك العصور دبّ في الرعية حبّ العلم وأخذوا هم ايضاً ينافسون في اتخاذ خزائن الكتب وتحصيل المصنّفات النفيسة والمباهاة بها وان لم يكونوا من حملة العلم. وصار اقتناء المكاتب من اسباب التجمّل والافتخار وآلات التعيّن والرئاسة حتى

---

١ يمدهم بما يزيل كل علة تمنعهم من القيام بمهمتهم ٢ يطوفون ٣ أعطاهُ

كان الرئيس منهم الذي لا معرفة عنده يحتفل ان تكون في بيته خزانة كتب منتخبة ليقول الناس « ان عند فلان خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس عند أحدٍ غيرهِ والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصّله وظفر بهِ » — وقامت بقرطبة سوق رائجة للورّاقين والكتبيّين يقصدها أصحاب هذا الشان ويتنافسون في شراء الكتب ويتغالون بأثمانها الى حدٍّ غريب. واشتهر أهل قرطبة بالحرص على جمع الكتب كما اشتهر أهل اشبيلية بالاقبال على الغناء وإتقان آلاتهِ فكان اذا مات عالم باشبيلية وأُريد بيع كتبهِ حُملت الى قرطبة واذا مات مطرب بقرطبة وأُريد بيع تركتهِ حُملت الى اشبيلية ...

ولا حاجة بعد ما ذُكر من استحكام الحضارة واستبحار العمران في الدولة الاندلسيّة أن نفيض في إطراء الشعراء واناقتهم في وصف ما يقع تحت ابصارهم من معجزات الصناعة وتفنّنهم في الكلام على ضروب شتى فان ما قلنا عن شعراء الدولة العباسيّة يصدق عليهم تمام الصدق وما التاريخ الا دولاب يدور ويعيد نفسه. لكنما يجدر بنا ان نعتبر في شعراء الاندلس بلوغهم أعلى درجات الرقّة والظرف وهم الذين تلاعبوا بأوزان الشعر واخترعوا هذه الموشّحات المطربة والأزجال البهجة فجاءَت أعذب من الماء الزلال على كبد الظمآن وأفتن من السحر الحلال لقلب الولهان [1]. وقد قاطعوا [2] فيها اوزان القصائد العربيّة البدويّة وخرجوا عن الدائرة التي حصر فيها شعراء الشرق نفسهم فكان خروجهم عن تلك الطريقة المطروقة دخولاً في سبيل الترقّي والكمال وبدعةً حميدة تشهد للصادعين بها بالفضل الجسيم على مرور الأجيال على حين لا يكون نصيب اصحاب

١ وَلَهَ حزن شديداً حتى كاد يذهب عقله ٢ تركوا او هجروا

البدع سوى الخذلان والابتذال [١] .

بيد ان الاندلسيّين الذين حرّروا انفسهم من ربقة [٢] التقليد والمحاكاة في الشعر كانوا أبعد الناس عن الأخذ بالبدع فيما يتعلّق بالدين فليس ثمة من شأن يُذكر لتلك النِحَل العديدة التي انتغشت [٣] بها المملكة الاسلاميّة بالشرق ولم يكن سوى مذهب السُنّة مذهبًا للجميع . وأمّا الذين أخذوا ببعض المذاهب الشاذّة كالاعتزال والظاهريّة فهم بضعة رجال أحبوا الإغراب والتفرّد عن سائر القوم فجاهروا بما يخالف المعتقَد العامّ طلباً لالتفات الجمهور وإثارةً لاحاديث الناس وجاءَ في المثل « خالف تُعرف » ولم يكن نصيب هؤلاء الافراد المتحيّزين [٤] بهذه المذاهب من قبل العامّة سوى الانكار والاستهجان والنقمة وتلقّي كتبهم بالترك والازدراء . ومازال الفقهاء هنالك اصحاب الكلمة العالية ومحتكري السيطرة على الآراء والاقوال . ولا ندري لو عاش المعرّي في الاندلس هل كان يقوم جمهورٌ غفيرٌ من الشعراء وفيهم الفقهاء فيرثونه بالقصائد الطنّانة ويبكون لفقد امرىءٍ لم يترك عقيدة حتى من عقائد الاسلام الا رماها بسهام الهزء ونبال الطعن .

واما الفلسفة فتاريخها في الأندلس هو نفس تاريخها في الشرق . غير انهُ لمّا كان الفقهاء هنالك أشدّ سطوة وأقوى نفوذاً لم يجسر الخلفاء على التظاهر بها وكثيراً ما أوهموا العامّة أنهم مبغضون للفلسفة ناقمون على اهلها وهم يتعاطونها سرًّا ويحرصون على كتبها الى حدّ الكلف . وكان اذا احبّ ملك ان يتقرّب الى الشعب ويزيل شبهة علقت بقلوبهم عليهِ تقدّم الى فقيهٍ بتفحّص خزانة كتبهِ واحراق ما لعلّهُ يكون فيها من

١ الامتهان ٢ عروة في الحبل تجعل في عنق البهيمة او يدها تمسكها ٣ تحركت وماجت ٤ المنحصرين والمنفردين في مكان بمعزل عمن سواهم

مؤلّفات الحكمة . ولا حاجة الى القول انهُ احتاط قبلاً ورفع شيئاً كثيراً منها وجعلهُ حيث لا تقع عليهِ عين ولا تصل اليهِ يد. ولم يقم في الاندلس من تجرّأ جرأة المأمون وتطرف تطرّفهُ في مسألة خلق القرأن لكنهُ قام من قفا آثار المتوكّل في تعقّب الفلاسفة والايقاع بهم والتضييق على الآخذين بأقوالهم ولم يكن ذلك ليقطع دابرهم بل كان من الاضطهاد بالاندلس ما كان منهُ بالشرق فزاد القوم رغبةً في قراءة الفلسفة وولوعاً بتعاطيها — وكلّ ممنوع مرغوبٌ فيهِ .

ولقي علماء الهيئة ما لقي الفلاسفة من إرهاق[١] العامّة وتحاملهم عليهم وتقصّدهم اياهم بالأذى حتى أُلجئوا الى التستّر اتّقاءَ شر الغوغاء وكلّما قيل « فلان يقرأ الفلسفة ويشتغل بالتنجيم » اطلقت عليه العامّة اسم زنديق وقيّدوا انفاسهُ فاذا زلّ في شبهةٍ رجموهُ بالحجارة وأحرقوهُ قبل ان يصل امرهُ الى السلطان. وكأنّ عامّة الاندلس تفرّدوا بعصبيّتهم للدين حتى أخذوا على أنفسهم السهر في اقامة حدودهِ وتقويم أوَد[٢] المنحرف عن الصراط المستقيم ولو كان السلطان نفسهُ بحيث لو ولج[٣] في شيءٍ منكر دخلوا عليهِ قصرهُ المشيد لا يعبأُون بخيلهِ ورَجْلهِ وأخرجوهُ من بلدهم صاغراً ذليلاً. واماّ القضاة والولاة المتهاونون على رأيهم فأقل ما يلحقهم الرجم. ولا ريب انّ ما يروى عنهم من هذا المعنى كان في طَوْرِ هرم الدولة وتضعضع اركانها اذ عمّت الشطارة[٤] واستفحلت اللصوصيّة وسوّلت للرعاع نفوسهم مباشرة السيطرة على سراة[٥] القوم وأفاضلهم . واذا سادت الغوغاء فعلى الدولة والآداب السلام .

وأخذت الخلافة المروانيّة بعد وفاة الحكم بن الناصر تنحطّ شيئاً

---

١ ظلم ٢ اعوجاج ٣ دخل ٤ الدهاء والخباثة ٥ اشراف

فشيئاً وقلّت عصبية العرب لها لأسباب ليست من شأننا فتقلّص ظلّها [1] وتجاذب اطراف المملكة جماعة من الامراء فتقطّعت أوصالها واقتسموها فيما بينهم فأضحت إمارات صغيرة مستقلّة عرف اصحابها بملوك الطوائف — وطَمِعَ هؤلاء الملوك بتقيّل [2] الخلفاء الذين رفعوا منار المعارف واحاطت بهم هالة [3] من العلماء الاماثل برزوا من مركزها بمجالي [4] الأبّهة والجلال فاحتفل كلّ منهم بالعلم واجلّ اربابه فكان للآداب العربيّة من هذا التنافس سهم رابح لولا ان انقسام المملكة ادّى الى خرابها. فتوالت هجمات الافرنج على تلك الامارات وجعلوا يتناوشونها [5] الواحدة بعد الأخرى حتى سقطت في ايديهم جميعاً. وآخر مدينة ضيّقوا عليها الخناق ودخلت في حوزتهم هي غرناطة اخذوها من يد أبي عبد الله محمّد بن عليّ وكان ذلك آخر عهد العرب في الجزيرة.

وقد نبغ بالاندلس علماء افاضل تبسّطوا في كلّ علمٍ وفنّ فكان منهم الفلاسفة والأطباء والفلكيّون والمؤرخون فضلاً عن علماء الدين والأدب من حافظين وفقهاء ولغويّين وشعراء. وسنذكر ههنا افراداً من ارباب كلّ فنّ على قدر ما يتّسع لذلك هذا المختصر وبالله التوفيق.

---

١ زال عزّها ٢ تقيّل فلاناً تشبه به ٣ الهالة دارة القمر ٤ مظاهر ٥ يتناولونها

الأُدَبـــاءُ

إِبنُ عَبْدِ رَبِّهِ (٩٣٩م ٣٢٨هـ)

هو ابو عمر أحمد بن محمّد بن عبد ربّه الأُموي بالولاء. ولد بقرطبة وأقبل على الأدب فأتقن اداته وتضلّع من فنونهِ ووعى في صدرهِ من اخبار العرب واشعارهم ولغاتهم ما تفرّد بهِ بين علماء عصرهِ ورفع شأنهُ عند ادباء مصرهِ. ولهُ في الأدب مؤلّفٌ نفيس شهير سمّاهُ «العقد الفريد» تأنق في تأليفهِ وضمّنهُ كنوز علمهِ وروايتهِ فجاءَ خلاصة الفنون الأدبيّة ولباب البلاغة العربيّة. وقد رتّبهُ على خمسةٍ وعشرين باباً وسم كل بابٍ بجوهرةٍ من جواهر العِقد ـ اللؤلؤ والفريدة والزبرجدة والجمانة والمرجانة والياقوتة والجوهرة والزمرّدة والدرّة واليتيمة والعَسجدة والمجنّبة والواسطة ثم المجنّبة الثانية فالعسجدة الثانية الى اللؤلؤة الثانية وهو كتابٌ مشبع الفصول جاوٍ من الأغراض المتشعبة والمواضيع المتنوّعة كلّ ما يتوق الى معرفتهِ اريب ويتشوف [1] الى الاطّلاع عليهِ اديب وقد طابق الاسم مسمّاهُ وصدق مؤلّفهُ فيما ادّعاهُ فهو في الحقيقة عقدٌ استخرج دررهُ اليتيمة من بحر علمهِ الزاخر ونظم فرائده الكريمة في سلك مقالهِ الفاخر وقلّدهُ جيد اللغة العربيّة فراع حسنها الباهر وتألّق بلآلئهِ العصماء [2] نحرها الزاهر.

---

١ يتطلّع إليه ٢ العزيزة الوجود

ولابن عبد ربّه نظم كثير البهجة رقيق الحواشي عذب اللفظ نبيه المعني فمن ذلك قوله :

ألا انما الدنيا نضارة أيكةٍ[1] اذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبُ
هي الدار ما الآمال الاّ فجائعٌ عليها ولا اللذات الاّ مصائبُ
فكم سخّنت بالامس عيناً قريرة وقرّت عيونٌ دمعُها اليومَ ساكب[2]
فلا تكتحل عيناك فيها بعَبرةٍ[3] على ذاهبٍ منها فإنك ذاهبُ

ومن شعره قوله وقد اشرف على الموت :

كلاني لما بي عاذليّ كفاني طويتُ زماني برهةً وطواني
بليت وابليت الليالي مكرهاً وصَرْفانِ للأيام مُعتوراني[4]
وماليَ لا أبلى لسبعين حجةً وعشرٍ انت من بعدها سنتانِ
واني بعفوِ الله راجٍ لفضله ولي من ضمان الله خير ضمانِ
ولستُ أبالي من تباريح[5] علّتي اذا كان عقلي باقياً ولساني

ويُروى ان الخطيب ابا الوليد بن عيال الاندلسيّ حجّ وعرّج في منصرَفهِ على مصر ورأى فيها أبا الطيّب المتنبّي ففاوضهُ قليلاً ثم قال لهُ المتنبّي « انشدني لمليح الاندلس » يعني ابن عبد ربّهِ فأنشدهُ ابو الوليد شيئاً من شعرهِ فاهتزّ لهُ المتنبّي واستعادهُ وقال « يا ابن عبد ربّهِ لقد تأتيك العراق حبوًا[6] » وكفى بشهادة ابي الطيّب دليلاً على فضل الرجل وعلو كعبهِ في علوم الأدب .

---

١ الأيك الشجر الكثير الملتف والواحدة أيكة ٢ عين قريرة أي مسرورة وسخن عينهُ أحزنهُ ٣ العَبرة الدمعة واكتحلت العين بها ذرفتها ٤ بُليَ مُنيَ ومكرها مغصوباً والصَرفان الليل والنهار واعتوره تداوله وتعاطاه ٥ جمع تبريح وهو الشدة ٦ حبا الولد زحف على يديهِ وبطنهِ

إِبنُ هَانِئ (٩٧٢م ٣٦٢ﻫ)

هو ابو القاسم محمد بن هانئ الازديّ الأندلسيّ. وُلد بأشبيلية وبها نشأ وتأدّب وقال الشعر فبرَّز فيه وفاق وترامى صيتهُ في الآفاق واتصل بصاحب اشبيلية فحظي عندهُ ونال رفدهُ وبسم لهُ الدهر فانقاد اليهِ وانهمك في الملاذّ وأخذ بمذهب الفلاسفة وشاع ذلك عنهُ فنقم عليهِ أهل اشبيلية وساءت مقالاتهم في حقّ الملك بسببهِ واتهموهُ باتّباع مذهبهِ. فأشار عليهِ الامير بالتغيّب مدةً ريثما يسكن ثائر القوم وتكف الألسنة عن اللوم. فخرج ابن هانئ الى عدوة[١] المغرب فلقي القائد جوهراً فاتح مصر الشهير فمدحهُ بقصائد طنّانة ثم تقلّبت بهِ الاحوال وخدمتهُ الدنيا ونما خبرهُ الى المعزّ لدين الله العبيديّ فطلبهُ ولمّا انتهى اليهِ غمرهُ بالانعام ولابن هانئ فيهِ مدائح غرّاء قدح فيها زناد الفكر ونصّلها فرائد ونظمها قلائد زان بها جيد الشعر.

ثم توجّه المعزّ الى الديار المصريّة على اثر فتح جوهر لها فشيّعه ابن هانئ وافترقا على ان يلتقيا بمصر وعاد لأخذ عيالهِ والالتحاق بهِ فتجهّز وتبعهُ. ولمّا وصل الى برقة اضافهُ شخصٌ من أهلها فأقام عندهُ اياماً في مجلس الانس يقصف[٢] ويلهو غير دارٍ ان الموت بالمرصاد يتربّص ولا يسهو. واختُلف في ميتتهِ فقيل ان أهل ضيافتهِ عربدوا[٣] عليهِ وقتلوهُ وقيل خرج من الدار وهو سكران فنام في الطريق وأصبح ميتاً وقيل انهُ وجد في سانية[٤] من سواني برقة مخنوقاً بتكّة سراويلهِ.

---

١ شاطئ ٢ ياكل ويشرب ٣ ساؤوا خُلقاً ٤ ساقية او ناعورة

ولابن هانئ درجةٌ عالية في الشعر وهو زعيم شعراء المغرب غير منازع وهو عند المغاربة كالمتنبي عند المشارقة ولذلك كثيراً ما يُسمّى « متنبي الغرب » ووجوه الشبه بين الرجلين كثيرة فكلا الرجلين ترقى من دركات العامّة الى درجات الخاصّة ببراعته في الشعر وعلوّ كعبه في المدح وافراطه فيه مراراً الى حدّ الخروج عن الصدد القويم والأخذ بالاغراق والغلوّ الذميم وكلاهما جالس الامراء ونادم الملوك وأحسن وصف ما يسمع ويرى وكانا متعاصرين وأُتيح لكلٍ منهما ان يلقى منيّته اغتيالاً [١] بيد عدوّ نذل دنيء وهو في كمال العمر وتناهي القوى والمدارك فان المتنبي قُتل وهو في الخمسين من عمره وقُتل ابن هانئ وعمره ستٌّ وثلاثون وقيل اثنتان واربعون سنة ولعلّ في تفاوت الايام سرّ تقصير متنبي الغرب عن متنبي الشرق وان كان ثمّة فروقٌ أُخر ينفرد بها ابو الطيّب عن مواقف الأشباه ويتسنّم من الفضل ذروة لا يعلو اليها سواه — ويقال انهُ لمّا بلغت المعزّ بمصر وفاة شاعره تأسّف عليه كثيراً وقال « هذا الرجل كنا نرجو ان نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدَّر لنا ذلك » ومن شعر ابن هانئ قولهُ وقد وجّه المعزّ قائدهُ جعفراً لفتح مصر:

رأيت بعيني فوق ما كنت أَسمعُ ... وقد راعني يومٌ من الحشر أَروعُ [٢]
غداةً كأنّ الأفق سُدّ بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلعُ
فلم أَدرِ اذ سلّمتُ كيف أُشيّعُ ... ولم أَدرِ اذ شيّعتُ كيف أُودّعُ
وكيف أَخوض الجيش والجيش لجّةٌ ... واني بمن قاد الجيوش لمولَعُ
فلا عسكرٌ من قبل عسكر جوهرٍ ... تخبّ المطايا فيه عشراً وتُوضعُ [٣]

١ على غفلة. غدراً ٢ الحشر يوم البعث وأروع مخيف ٣ تخبّ تسير الخبب وهو ان يقوم الفرس مرة على احدى رجليه أو يديه ومرة على الأخرى والمطايا الدوابّ التي تُركب وتوضع تسرع في سيرها

ومنها يذكر المعزّ:

لقد جلّ من يقتادُ ذا الخلقِ كلَّهُ	وكلٌّ لهُ من قائم[1] السيف أطوعُ
تحفّ بهِ القوّاد والأمر أمرهُ	ويقدمهُ رأي الخلافة أجمعُ
ويسحب أذيال الخلافة رادعاً	بهِ المسك من نشر الهدى يتضوّعُ
لهُ حللُ[2] الاكرام خصّ بفضلها	نسائج بالتبر المشهّر تلمعُ[2]
برود أمير المؤمنين بروده	كساهُ الرضى منهنّ ما ليس يُخلعُ
وبين يديهِ خيله بسروجهِ	يقاد عليهنّ النضار[3] المرصَّعُ
وأعلامهُ منشورةٌ وقبابهُ	وحجّابهُ تدعى لأمرٍ فتسرعُ
مليكٌ ترى الأفلاك دون بساطهِ	واعناقهم ميلٌ[4] الى الأرض خُضَّعُ
قياماً على أقدامها قد تنكّبت	صوارمها كلٌّ يطيع ويخضعُ[5]
تحلّ بيوت المال حيث محلّهُ	وجمّ العطايا والرواق المرفّعُ
اذا ماج أطناب السرادق بالضحى	وقامت حواليهِ القنا تتزعزعُ[6]
وسلّ سيوف الهند حول سريرهِ	ثلاثون الفاً دارعٌ ومقنّعُ
رأيتَ من الدنيا اليهِ منوطةً	فيمضي بما شاءَ القضاء ويصدعُ[7]
وتصحبهُ دار المقامة حيثما	أناخ وشمل المسلمين المجمّعُ[8]
وتعنو لهُ السادات من كلّ معشرٍ	ولا سيّدٌ منهُ أعزّ وأمنعُ

ولهُ على هذا الطراز البديع شيء كثير .

---

١ مقبض ٢ حلل جمع حلة وهي الثوب الجديد ونسائج جمع نسيجة وهي الاثواب المحوكة والتبر الذهب ٣ النهب ٤ جمع أميل بمعنى مائل ٥ تنكب السيف جعله على منكبه والصوارم السيوف ٦ أطناب جمع طنب وهو حبل يُشد به السرادق أي الخيمة والقنا الرماح ٧ منوطة معلقة ويمضي ينفذ ويصدع يكفّ ويصرف ٨ اناخ اقام والشمل ما اجتمع من الأمر او ما تفرق منهُ

إبنُ زَيْدُون (١٠٧٠ م ٤٦٣ هـ)

هو أبو الوليد أحمد ابن عبد الله بن زيدون المخزومي. وُلد بقرطبة وكان أبوهُ من وجوه فقهائها وأعيان أدبائها وتخرَّج في فنون الأدب وتضلَّع من علوم اللغة وتبحَّر في إخبار العرب وأشعارهم ونوادرهم وأساليبهم في مخاطباتهم ورُزق في النظم والنثر قريحة عجيبة وملكة مستحكمة فاذا نظم جاء بالشعر الغريب الرائع واذا نثر راع القلوب بالآيات اللوامع فكان قريع وحده في العلوم العربيّة وزعيم أدباء عصره في ضروب البيان وغزارة المادّة وذلاقة اللسان وروي عنهُ انهُ أُصيب في بعض حرمه فقام على جنازتها وأقبل الناس يعزّونهُ على اختلاف طبقاتهم فما أجاب أحداً بما أجاب بهِ غيرهُ لسعة ميدانه وحضور جنانهِ.

وانقطع ابن زيدون الى أبي الحزم بن جَهْوَر أحد ملوك الطوائف بالأندلس وعلت مكانتهُ عندهُ واشتهر ذكرهُ وقدرهُ وألقى اليهِ مقاليد[1] الأُمور فتصرَّف بها كيف شاء ودبَّر المملكة بما أُوتي من الحذق والحزم والذكاء وكثيراً ما توسَّط بين مولاهُ وسائر ملوك الاندلس فحسنت سفارته[2] وأعجبت القوم براعتهُ وادارتهُ. ثم انقلب دولاب السياسة فنقم عليهِ ابن جَهْوَر وحبسهُ ولم يشفع بهِ سابق حرمة وسالف خدمة. وعبثاً استعطفه[3] الوزير المسكين المنكوب برسائل افرغها في قالب الفصاحة الباهرة وقصائد خلع عليها زخارف بلاغتهِ النادرة. ولمّا أعيتهُ الحيلة في استرضائهِ فرَّ ناجياً بنفسهِ وقصد حضرة المعتضد عبّاد بن محمّد صاحب اشبيلية فتلقّاهُ

---

١ مفاتيح ٢ سَفَر بين القوم سعى في الصلح بينهم ٣ تجادل

بغاية الاحتفاء والاكرام وفوّض اليهِ أمر مملكتهِ وجعلهُ من خواصّهِ يجالسهُ في خلواتهِ ويركن الى اشاراتهِ وكان عندهُ في صورة وزير حسن التدبير تامّ الفضل متحبّباً الى الناس بلين جانبهِ وعذب كلامهِ محموداً بين العامة بحسن المنظر والمخبر.

واشتهر في زمان ابن زيدون من أديبات الاندلس ولاَّدة بنت المستكفي الخليفة الامويّ وكانت اديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر مؤنسة المحاضرة مشكورة المذاكرة تناضل [1] الشعراء وتساجل الأُدباء. فأُعجب ابن زيدون بأدبها وبراعتها وتواترت بينهما الرسائل والقصائد يتباريان بها في حلبة الفضل والحذق ويتجاريان لاحراز خصل السبق. وقد جرت لهما وقائع عديدة وحاول الحسّاد إفساد ذات بينهما واشتهر منهم ابو عامر بن عبدوس فإنهُ افرغ كنانة [2] حيلهِ في اسمالة ولاَّدة اليهِ. فشق الامر على ابن زيدون وكتب اليهِ رسالةً بديعة مطنبة الفصول ضافية الذيول اشبعهُ فيها هزءًا وتهكُّماً وبعث بها اليهِ عن لسان ولاَّدة. وهي رسالة مشهورة عند الأُدباء اطلق فيها الكاتب العنان لقريحتهِ وجعلها ديوان أدب وتاريخ وقد عُني بشرحها غير واحدٍ من الأُدباء كابن نباتة وغيرهِ.

ولابن زيدون شعر كثير كلُّهُ غرر وبدائع نقتصر منهُ على الأبيات التالية من قصيدة طنّانة ارسلها الى ولاَّدة وهو مقصىً عنها.

أَضحَى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا [3]
مَن مبلغ المُلبسينا بانتزاحهمِ ... حزناً مع الدهر لا يَبلَى ويُبلينا
أَنِ الزمان الذي ما زال يضحكنا ... أُنساً بقربهمِ قد عاد يُبكينا
بالامس كنّا ولما يخشى تفرّقنا ... واليوم نحن وما يرجى تلاقينا

---

١ تجادل ٢ جعبة ٣ التنائي الابتعاد والتداني القرب والتجافي التنحي

بِنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا شوقاً اليكم ولا جفّت مآقينا [١]
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا [٢]
حالت لفقدكمُ أيّامنا فغدت سوداً وكانتَ بكم بيضاً ليالينا [٣]
ليَسقِ عهدَكمُ عهدُ السرور فما كنتم لأرواحنا الا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيّرنا وطالما غيّرَ النأي المحبّينا [٤]

وهي طويلةٌ جدًّا كلّها من هذا الوشي الأنيق والنسج الدقيق.

إبنُ عَمَّار (١٠٨٤ م ٤٧٧ هـ)

هو ذو الوزارتين أبو بكر محمّد بن عمّار المهديّ. كان من بيتٍ خامل وأصل وضيع وورد مدينة شِلْب وهو صغير فتأدب فيها ثم قصد قرطبة دار العلوم العربيّة فداخل أُدباءها واقتبس من انوارهم ونبغ في الشعر فاشتهر أمرهُ واتّصل ذكرهُ بالمعتضد فاستقدمهُ اليهِ ورأى منهُ ذكاءً وافراً وأدباً رائعاً فأنعم عليهِ وألزمهُ ابنهُ المعتمد يلقّنهُ الأدب والشعر. ولمّا تُوُفّي المعتضد وخلفهُ ابنهُ المعتمد استخصّ ابن عمّار لنفسهِ يسامرهُ وينادمهُ وعهد اليهِ بالوَزارة وفوّض اليهِ شؤون المملكة فعلا في الناس قدرهُ وعظم بين الخاصّة أمرهُ. وكان ابن عمّار يجاري في فنون الأدب ابن زيدون القُرْطُبيّ المارّ ذكرهُ فهما فرسا رِهان ورضيعا لبان

١ بنتم بعدتم والجوانح الاضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر وكنى بابتلالها عن الفرح. وجفّت نشفت والمآقي جمع مؤق وهو مجرى الدمع من العين اي طرفها الذي يلي الأنف ٢ تناجي تُسارّ ويقضي عليه يقتله والاسى الحزن والتأسّي التصبر والتعزّي ٣ حالت تغيرت وكني بالأيام السود عن الحزن والليالي البيض عن الفرح ورغد العيش ٤ النأي البعد

ألقى اليهما الشعر عنانهُ ووقف على أقلامهما قيدهُ وليانهُ. ولابن عمّار في المعتضد وابنهِ المعتمد القصائد المشهورة والبدائع المأثورة. فمن ذلك قولهُ:

أَدِرِ الزجاجةَ فالنسيم قد انبرى … والنجم قد صرف العنان عن السرى [1]
والصبح قد أهدى لنا كافورَهُ … لمّا استردّ الليلُ منهُ العنبرا
والروض كالحسنا كساهُ زهرهُ … وشياً وقلّدهُ نداهُ جوهرا [2]
روضٌ كأنّ النهر فيهِ معصمٌ … صافٍ أطلّ على رداءٍ أخضرا [3]
وتهزّهُ ريح الصبا فتخالهُ … سيفَ ابن عبّاد يبدّد عسكرا
ملك اذا ازدحم الملوك بوردٍ … ونحاهُ لا يَردون حتى يَصْدُرا [4]
أندى على الأكباد من قطر الندى … وألذّ للأجفان من سِنَةِ الكرى [5]
قدّاح زند المجد لا ينفك من … نار الوغى الاّ الى نار القرى [6]
ماضٍ وصدر الرمح يكهم والظبى … تنبو وأيدي الخيل تعثر بالثرى [7]
قاد الكتائب كالكواكب فوقهم … من لامهم مثل السحاب كَنَهْوَرا [8]
من كل أبيضَ قد تقلّد أبيضاً … عضباً وأسمرَ قد تقلّد أسمرا [9]
يا ايّها الملك الذي حاز العلا … وحباهُ منهُ بمثل حمدي انورا
السيف أفصح من زيادٍ خطبةً … في الحرب ان كانت يمينك منبرا [10]

---

١ انبرى اعترض وصرف العنان ردّهُ ٢ الوشي تحسين الثوب ونقشه وقلّده ألبسهُ القلادة ٣ المعصم موضع السوار من الساعد وأطل أشرف ٤ نحاهُ قصدهُ ويصدر يرجع عنه ٥ أندى أجود والكرى النوم ٦ الوغى الحرب والقرى الضيافة ٧ يكهم يكل والظبى جمع ظبة وهي حد السيف وتنبو تكل وتعثر تزل وتكبو ٨ الكتائب الجيوش واللام جمع لأمة وهي الدرع والكنهور السحاب المتراكم ٩ الايض الاول الرجل والثاني السيف والاسمر الاول الرجل والثاني الرمح ١٠ زياد هو ابن ابيه الذي ألحقه معاوية بنسبه وقد تقدمت ترجمته في تراجم خطباء الدولة الاموية والمنبر محل مرتفع يرتقيه الخطيب او الواعظ

شقيتَ بسيفك أمّةً لم تعتقد الا اليهود وان تسمّت بربرا
أثمرتَ رمحك من رؤوس ملوكهم لما رأيت الغصن يُعشق مثمرا
وصبغتَ درعك من دماءِ كماتهم لمّا علمت الحسن يلبس أحمرا

الاّ ان ابن عمّار كان يستر تحت برود الرفعة والرئاسة نفساً دنيئة وطبيعة رديئة ولم تكن الرفعة التي نالها بعد الخمول لتستأصل اللؤم من عروقه وتحول دون كفرانه بمنن وليّ نعمته وعقوقه[1] ولمّا كان المعتمد مستنيماً اليهِ سيّرهُ الى تدمير نائباً عنهُ فحدّثتهُ نفسهِ بالاستقلال وزيّنت لهُ غمط[2] النعمة بخوادع الآمال فاعار أذناً واعية لوساوس الخنّاس وانقاد الى طباعهِ اللئيمة والعرق دسّاس[3] فرفع علم العصيان على سيّدهِ ومالك رقّهِ وجاهر بخلع سلطانهِ وجحد حقّه. فاعمل المعتمد الحيل عليهِ وسدّد سهام المكايد اليهِ وما زال بهِ حتى انشبه[4] في حباله وابتاعهُ من مالك رقبتهِ ابتياع المرء للسلعة بمالهِ. ولمّا حصل في قبضتهِ اعتقلهُ بحبسهِ فانجلت عن المسكين غياهب[5] الغرور وعاد الى نفسه فأخذ يسيّر الى مولاهُ القصائد والرسائل يظهر التوبة ويتأسّف على الحوبة[6] ويستمدّ ضارعاً مستخذياً[7] صفحاً وغفراناً فلم يلق الحلم من قلب ابن عبّاد مكاناً بل نزل اليهِ ليلةً في سجنهِ وقتلهُ بيده وامر بدفنهِ.

---

١ عقّ الولد والده عصاه وترك الشفقة عليه واستخفّ بهِ ٢ جحد ٣ مثلٌ معناه كلٌ يميل الى اصلهِ ٤ أوقعه ٥ جمع غيهب وهو الظلمة ٦ الاثم ٧ استخذى له انضع وانقاد

أَلحُصْريّ (١٠٩٥ م ٤٨٨ هـ)

هو ابو الحسن عليّ بن عبد الغنيّ الحصريّ. وُلد بالقيروان من ارض افريقية واتقن الادب والشعر وقراءة القرآن وله في هذا المعنى الأخير قصيدة نظمها في قراءات نافع عدد ابياتها مئتان وتسعة. واخنى الدهر على وطنهِ وأناخ على اهلهِ ببوائقهِ ومحنهِ فهاجر الى طنجة واستوطنها مدة ولمّا كان مقيماً بها أرسل غلامهُ الى المعتمد بن عبّاد صاحب إشبيلية وهم يسمّونها حمص تشبيهاً بحمص الشام فابطأ عنهُ الغلام وبلغهُ ان المعتمد لم يحتفل به فقال :

نبّهِ الركبَ الهجوعا ولُمِ الدهرَ الفجوعا
حمصُ الجنّة قالت لغلامي لا رجوعا
رحم الله غلامي مات في الجنة جوعا

وبعث اليهِ المعتمد وهو بالقيروان خمس مئة دينار وأمرهُ ان يتجهز بها ويتوجّه اليهِ فكتب اليهِ الحُصريّ :

امرتني بركوب البحر أقطعهُ غيري لك الخير فاخصُصْهُ بذا الداءِ
ما انت نوحٌ فتنجيني سفينتهُ ولا المسيح انا امشي على الماءِ

ثم دخل بعد ذلك الأندلس وامتدح المعتمد وغيرهُ من ملوك الطوائف ولم يزل يتنقّل في بلادهم وينعم بأرفادهم [١] الى ان أفلت بدورهم وخلت ساحاتهم وقصورهم فعاد الى طنجة وسكنها الى وفاتهِ.

---

١ جمع رفد وهو العطاء والمعونة

ولابي الحسن هذا ابن خالة يُعرف ايضاً بالحصريّ وهو ابو اسحاق ابراهيم بن عليّ القيروانيّ كان شاعراً فصيحاً ولهُ تآليف حِسان اشهرها «زهر الآداب وثمر الألباب» وهو من الكتب الممتّعة جمع فيهِ كل غريبة — وكانت وفاتهُ سنة ١٠٦١ م ٤٥٣ هـ.

إبنُ حَمْدِيس (١١٣٢ م ٥٢٨ هـ)

هو ابو محمّد عبد الجبّار بن محمد بن حمديس الصِقلّي. كان شاعراً ماهراً رائق الديباجة نبيه المعاني كثير التفنّن والاغراب وقد ابدع غاية الابداع في الأوصاف الطبيعيّة ولهُ القصائد الغرّاء في تعدد محاسن القصور الشامخة والبرك العجيبة والجنان الغنّاء وما حوت من البدائع الرائعة التي تتمثّل عِياناً لقارئ منظوماتهِ الفريدة. وكان ابن حمديس قد ورد الأندلس واتصل بأُمرائها ومدحهم ونال جوائزهم وعاش في ظلّهم الوارف [١] دهراً طويلاً وهنالك رأى ما رأى من عجائب المباني واستنبط من غرائب المعاني. ومن شعرهِ قولهُ يصف بركةً في قصر ابتناهُ المنصور بن أعلى الناس ببجاية عليها اشجارٌ من ذهب وفضّة ترمي فروعها المياه وعلى حافاتها اسودٌ تقذف المياه من أفواهها:

وضراغمٍ سكنت عرين رئاسةٍ   تركت خرير الماء فيهِ زئيرا [٢]
فكأنّما غشّى النضارُ جسومَها   وأذاب في أفواهها البلّورا [٣]

---

١ الممتد الواسع ٢ الضراغم الأسود والعرين مأوى الأسد والزئير صوته ٣ غشى غطّى والنضار الذهب والبلور جوهر أبيض شفاف

أسدٌ كأن سكونَها متحركٌ · في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكّرتْ فتكاتِها فكأنّما · أَقْعَتْ على أدبارِها لتثورا [1]
وتخالُها والشمس تجلوا لونها · ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنّما سلّت سيوف جداولٍ · ذابت بلا نارٍ فعُدْنَ غديرا
وكأنّما نسج النسيمُ لمائهِ · دِرعاً فقدّر سَرْدها تقديرا [2]
وبديعةِ الثمرات تعبر نحوها · عيناي بحر عجائب مسجورا [3]
شجريّةٌ ذهبيّةٌ نزعت الى · سِحْرٍ يؤثّر في النُّهَى [4] تأثيرا
قد صوحبت اغصانها فكأنّما · قبضت بهنّ من القضاء طيورا
وكأنّما تأبى لوُقّع طيرها · ان تستقلّ بنهضها وتطيرا
من كلّ واقعةٍ ترى منقارها · ماءً كسلسال اللُجَيْن نميرا [5]
خُرْسٌ تُعدُّ من الفصاح فان شَدَتْ · جعلت تُغَرّد بالمياه صفيرا
وكأنّما في كلّ غصنٍ فضّةٌ · لانت فأرسل خيطها مجرورا
وتريك في الصهريج موقع قطرها · فوق الزبرجد لؤلؤاً منثورا
ضَحِكَت محاسنهُ اليك كأنّما · جعلت لها زُهْر النجوم ثُغورا

الى آخر ما هنالك من الاوصاف التي اطلق فيها العنان لتفنّنه فجارى بها الموصوفات إبداعاً وأبدى فيها سِحْر بيانهِ الفتّان أشكالاً وأنواعاً .

---

١ أقعى الكلب جلس على مؤخرهِ وتثور تَثِبُ ٢ سرد الدرع نسجها ٣ سجر السيل النهر ملأهُ اي ان البحر زاخر عباب ٤ العقل ٥ واقعة صفة للطيور المحذوفة والسلسال الماء العذب واللجين الفضة والنمير الماء الزاكي

إِبنُ خَفاجة (١١٣٨ م ٥٣٢ هـ)

هو أبو إسحاق ابراهيم بن عبد الله بن خَفاجة؛ وُلد بجزيرة شَقْر، ورُزِق حظاً وفراً من الشعر، فبرّز فيه، وأَوْفى [١] على جهابذة النظم، ورُوّاض قوافيه؛ وله في الوصف كلّ معنى شريف، واستنباطٍ طريف. لم يبتذل [٢] شعره بتملّق ملوك زمانهِ؛ مع تهافتهم [٣] على أهل الأدب استئثاراً [٤] لأنفسهم بمزيد العلم، وسلطانه. غير أنّ له في المدح قصائدَ حسانا، تدلّ على جودة قريحته في هذا الباب، لو أراد أن يلجه [٥]، ويتّخذ المديح غرض شعره، ومنهجه. فمن شعره قولهُ يصف روضةً، وله في هذا المعنى اليد الطولى؛ وكثيراً ما نظم في الأنهار، والازهار:

وأُراكةٍ ضربت سماءً فوقنا ... تندى أصيلاً، والكؤوسُ تُدارُ
حفّت بِدَوْحتها مجرّةُ جدولٍ، ... نثرت عليه نجومَها الأزهارُ [٦]
فكأنّها، وكأنّ جدولَ مائها ... حسناء شُدَّ بخصرها زنّارُ
زفّ الزجاج بها عروس مدامةٍ ... تجلى، ونُوّار الغصون نِثارُ [٧]
في روضة جنح الدّجى ظلّ لها ... وتجسّمت نَوْراً بها الانوارُ [٨]
غنّاء ينشر وشيَه البزّاز لي ... فيه، ويفتق مسكه العطّارُ [٩]

---

١ زاد ٢ يمتهن ٣ ازدحم ٤ خصّ به نفسه ٥ يدخله ٦ الدوحة: الشجرة العظيمة؛ والمجرّة منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة لا يميزها البصر، اراد بها ماء الجدول، لما يعلوه من الزبد ٧ النِثار: ما ينثر على الحاضرين في العرس من كعك وغيره ٨ النَّور، والنُوّار: الزهر ٩ البزّاز: بائع البزّ ثياب القطن والكتان؛ وفتق المسك: خلطة لاخراج رائحته

قام الغناء بها، وقد نضح الندى وجهَ الثرى واستيقظ النُوَّارُ
والمـاء في حَلْيِ الحياء مقلّد زرّت عليه جيوبَها الاشجار [١]

وقال:

ومَجَرِّ ذيلِ عمـامة لبست بـه وشيَ الحَباب معاطفُ الأنهـارِ [٢]
خفقت ظلال الايك فيه ذوائباً، وارتجّ ردفـاً مـائل التيّـارِ [٣]
ولوى القضيبُ هناك جيداً اتلعاً، قـد قبّلته مباسـمُ النُّوَّارِ [٤]
باكرتُهُ، والغيمُ قطعة عنبرٍ مشبوبة [٥]، والبرق لفحة نـارِ
والريح تطلع فيه أرداف الربى لعباً، وتلثم أوجـه الأزهارِ
ومنابر الاشجار قد قامت بهـا خطباء مفصحةٌ من الأطيارِ

وله في وصف الرياض، والغياض، والبساتين، والرياحين شعر كثير.

إبنُ سَعِيد (١٢٧٤ م ٦٧٣)

هو نور الدين ابو الحسن عليّ بن موسى المعروف بابن سعيد نسبةً الى ابي جدهِ. كان اديباً فاضلاً عارفاً باخبار العرب وأقوالها وأشعارها وأمثالهـا ولغاتها. وقد قضى دهراً من عمرهِ في التجوّل في البلاد ومداخلة الأعيان وتفقّد خزائن الكتب يقيّد الفوائد ويضبط الأوابد

---

١ الحياء: ممدود الحيا وهو المطر والخصب والنبات؛ شبه العشب حول المـاء بقلادة والاشجار بثوب ٢ الحَباب: الفقاقيع التي تعلو الماء؛ والمعاطف: جمع مِعْطف وهو الرداء ٣ الأيك: الشجر الكثير الملتفّ؛ وخفق: حزب واضطرب؛ والذوائب: جمع ذؤابة وهي الناحية او اعلى الشيء ٤ الجيد: العنق؛ وأتلع: طويل ٥ مُوقد وجيل

والشوارد[١] ودخل مصر فأحسن شعراؤها وفادته وصاحب منهم كثيرين يناشدهم ويساجلهم بشعر أرقّ من الماء الزلال وأفتن من السحر الحلال. وكان قويّ العارضة ذَلِق اللسان حاضر الجواب سريع الاجازة[٢]. وفارق مصر الى حلب ومدح الملك الناصر وخالط من هنالك من الأدباء ثم قصد دمشق وتقرّب من السلطان المعظّم وحضر مجلس خلوته وحظي عنده وتوجّه الى الموصل وبغداد والبصرة ثم دخل أرّجان وحجّ وعاد الى المغرب فاستوطن أفريقية الى أن تُوُفّي بتونس وهو في خدمة الأمير ابي عبد الله المستنصر عظيم الحرمة عالي المنزلة نافذ الكلمة .

ولابن سعيد شعرٌ كثير كلّهُ حسنات ولطائف وبراعات وطرائف . فمن شعرهِ قولهُ يصف نهراً والنسيم يردّدهُ والغصون تميل عليهِ وهو اذ ذاك في مقتبل العمر .

كأنّما النهر صفحةٌ كُتِبت أسطُرُها والنسيم ينشئها
لمّا أبانت عن حسن منظرها مالت عليها الغصون تقرأها

وقال بمصر يذكر الأندلس ويتشوّق الى مربع صباه ومرتع مُناه ٠

هذه مصرٌ فأين المغربُ مُذْ نأى عني فعيني تسكب
فارقتهُ النفس جهلاً إنّما يُعرف الشيء إذا ما يذهبُ

---

١ نوادر اللغة وغرائبها ٢ الاجازة عند البيانيين أن يأتي الشاعر بشطر بيت تام فينظم شاعر آخر في وزنه ومعناه ما يكون به تمامه

أين حمص أين أيّامي بها | بعدها لم ألقَ شيئاً يُعجب [١]
كم بعيش لي بها من لذّة | حيث للنهر خرير مطرب
وحمام الأيك تشدو حولنا | والمثاني في ذُراها تصخب [٢]
ولكم بالمرج لي من لذّة | بعدها ما العيش عندي يعذب
والنواعير التي تذكارها | بالنوى عن مهجتي لا يُسلب
ولكم في شنتبوس من منى | قد قضيناها ولا من يعتب [٣]
أين حسن النيل من نهر بها | كل نغمات لديه تُطرب
كم به من زورق قد حلّه | قمر ساقٍ وعودٌ يضرب
والى الحوز حنيني أبداً | وعلى شنّيل دمعي صيّب [٤]
حيث سلّ النهر عضباً وانثنت | فوقه القُضب وغنّى الربرب [٥]
ملعب للهو مذ فارقته | ما تناني نحو لهو ملعب
والى مالقة يهفو هوى | قلب صبٍّ بالنوى لا يُقلب [٦]
أين ابراج بها قد طالما | حثّ كاسي في ذراها كوكب
حفّت الأشجار طوقاً حولنا | تارة تنأى وطوراً تقرب
جاءت الريح بها ثم انثنت | أتراها حذرت من يرقب
وعلى مُرسية أبكي دماً | منزل فيه نعيم معشب [٧]

---

١ حمص هي اشبيلية مدينة بالاندلس نزلها قوم من حمص الشام فسموها باسم مدينتهم ٢ المثاني جمع مثنى وهو ما بعد الاول من اوتار العود وتصخب تصوت وتضج ٣ شنتبوس سواد اسبيلية وفيه منتزهات عديدة ٤ الحوز موضع فيه مستّيات وأشجار اراد به حوزاً بعينه وشنّيل نهر يشق غرناطة ويصب في الوادي الكبر ٥ العضب السيف والقضب جمع قضيب استعاره للنساء الحسان القامة والربرب القطيع من بقر الوحش استعير للنساء الحسان العيون ٦ مالقة من مدن الاندلس على ساحل البحر كثيرة الفواكه ٧ مرسية من مدن الاندلس اختطها العرب ومعشب مخصب

هـذه حالي وأمّا حالتي | في ذرى مصرٍ ففكرٌ متعَبُ
سمعت أذني محالاً ليتها | لم تصدّق ويحها من يكذبُ
وكذا الشيء اذا غاب انتهوا | فيه وصفاً كي يميل الغيّبُ
ها أنا فيها فريدٌ مهملٌ | وكلامي ولساني معربُ
وأنادى مغربيّا ليتني | لم أكن للغرب يوماً أنسبُ
نَسَبٌ يشرك فيه خاملٌ | ونبيهٌ أين منه المهربُ
أترُاني ليس لي جدٌّ لهُ | شهرة او ليس يدرى لي أبُ
سوف أثني راجعاً لا غرّني | بعد ما جرّبت برقٌ خُلَّبُ [١]

ولابن سعيد شعرٌ كثير يسيل كلّهُ رقّة وظرفاً يضيق المقام عن الزيادة منهُ. وكانت ولادة ابن سعيد في غرناطة وانّما لُقّب بالمغربيّ عند المشارقة لمجيئه من بلاد الغرب وهي تشمل غربيّ أفريقية والأندلس أيضاً.

إبنُ ٱلخَطيب (١٣٧٤ م ٧٧٩ هـ)

هو ذو الوزارتين لسان الدين ابو عبد الله محمّد بن عبد الله المعروف بابن الخطيب. وينتمي نسبهُ الى سَلمان وهو حيٌّ من عرب اليمن القحطانيين. وُلد بلَوشة على مقربةٍ من غرناطة وقرأ العلوم والآدب على مشاهير شيوخ عصرهِ وبرع في كلّ فنّ تلقّاهُ وما بلغ أشُدَّهُ وانجلت عنهُ غرة الشباب حتى أصبح قريعَ وحدِهِ في العربيّة والنحو والقرآن

[١] البرق الخلب الذي يكون في سحاب لا مطر فيه

والفقه والكلام والتاريخ والرواية والطبّ وسائر علوم زمانه. ونظم الشعر فأجاد وأبدع وجاءَ بالغرائب المعجزة وكان من علماء القريض رائق الأسلوب سَلِس الكلام شريف المعنى كثير النكات قويّ العارضة سهل القافية لم يطرق باباً الا انفتح لهُ مجالٌ واسعٌ لا يخرج منهُ الاّ مجلّياً سابقاً ولا يطمع طامعٌ أن يكون لهُ مجارياً لاحقاً وشفع علمهُ بالشعر بتضلّعٍ نادرٍ من فنون الخطابة واطّلاع عجيب على أسرارها وطرائقها ورموزها وحقائقها. فكان اذا تكلّم في ملاءٍ أو خطب في سفارةٍ قلّدها انقادت لعذوبة مقالهِ وليانهِ الأهواء الشاردة وتحمّست لقوة برهانهِ وسحر بيانهِ القلوب الباردة فينقلب من حلبة السباق خير منقلَب وفي يدهِ خصل التفوّق والغلَب وعلى جبينهِ سمة امرئٍ حُوَّلٍ قُلَّبٍ [١].

وابن الخطيب سليل بيتٍ عريقٍ بالنبل والفضل والعلم وقد تولّى كثيرون من اجداده الخطط العالية والمناصب السامية عند أمراء زمانهم وعُرفوا جميعاً بالوجاهة والنباهة وكرم الأخلاق وطيب الأعراق. وكان ابوهُ وزيراً لبني الأحمر ملوك غرناطة ولهُ في خدمتهم الاعمال النبيلة والمآثر الجليلة وقُتل في الدفاع عن حوزتهِ في واقعة طريف العظمى التي دارت فيها الدوائر على العرب وفاز الافرنج فوزاً مبيناً سنة ١٣٤٠ مسيحيّة.

وخلف لسان الدين أباهُ في الوزارة فدبّر شؤون المملكة أحسن تدبير وأظهر من البراعة في قضاء مهامّ رتبتهِ ما أنطق الألسنة بالثناء عليهِ في كل نادٍ ورفع مقامهُ عند وليّ نعمتهِ فغمرهُ بإحسانهِ وأطلق يدهُ

---

١ اي محتال بصير بتقليب الامور

في سياسة البلاد ولم يزل يهصر [١] أفانين العزّ والهناء ويتقلّب في جنان المجد والسناء ويرقى تلَعات [٢] الفخر والعلاء ينقض ويبرم [٣] ويجري الامور كما شاء حتى قلب لهُ الدهر بغتةً ظهر المجنّ وصلاهُ [٤] نيران النكبات والمِحَن ونشبت فيهِ أظفار الاحساد والاحن [٥]. فخُلع مولاهُ واعتُقل هو وظلّ في القيد زماناً طويلاً ثم تواترت الحوادث وأدّت الى عَود سيّدهِ فعاد ابن الخطيب الى دست الوزارة من بعدهِ وتاب اليهِ الدهر الخؤون مدةً وخدمهُ بأقبالهِ وسعدهِ. غير ان الحظّ المتقلّب ارتدّ الى خِيمهِ [٦] السابق وعاد فرمى لسان الدين من حالق [٧] ففرّ من وجه الوشاة الى إفريقية وتوالت عليهِ وقائع وخطوب يطول شرحها كانت نهايتها أنه أُسلم الى أيدي الأعداء فاعتقلوهُ وجرّعوهُ كؤوس الشدائد والبلاء وأغرَوا جماعةً من الفقهاء فأفتوا بألحادهِ وزندقتهِ لتعاطيهِ الفلسفة وأباحوا دمهُ فبادرت شرذمةٌ من الأدنياء اليهِ في السجن فخنقوهُ ورموا بجثمانهِ فأخذ ودُفن ثم عادوا فأخرجوهُ لحدهِ واحرقوهُ.

وقد أسلفنا ان لسان الدين بن الخطيب كان شاعراً مفلقاً وخطيباً مصقعاً وأديباً متفنّناً وكاتباً نحريراً وفيلسوفاً بصيراً وسياسيّاً محنّكاً فضلاً عن مشاركتهِ في الطبّ والعلوم الدينية والتاريخيّة على اختلاف أنواعها وتلوّن فنونها. ولهُ في كلّ هذه الأغراض مؤلّفات ناطقة ببُعد غورهِ وانفساح ذَرعهِ. منها «الاحاطة» في تاريخ غرناطة «والاشارة» الى آداب الوزارة و «بستان الدول» وهو أغربها جعلهُ عشر شجرات بشُعَبٍ وأصول وجراثيم وعَمَد وقشر ولحاء وغصون وأوراق وزهرات

---

١ يعطف ويكسر ٢ جمع تلعة وهي ما علا من الارض ٣ أبرم الامر أحكمه ٤ أدخله فيها ٥ جمع احنة وهي الحقد ٦ الخِيم الطبيعة والسجيّة ٧ الجبل المنيف المرتفع

مثمرة وغير مثمرة ... وقد ابلغ صاحب « نفح الطيب » مؤلّفات ابن الخطيب نحو الستين مؤلّفاً . ولهُ شعرٌ كثير هو النهاية في الرقة والمتانة والابتكار وحسن التصرّف في المعاني والتلاعب بها وسنقتصر على نبذةٍ من موشّحاتهِ المؤنقة تكون أنموذجا لهذا الفنّ اللطيف الذي استنبطهُ الأندلسيون على ما مرّت الاشارة اليهِ في صدر هذا الباب قال :

جادكَ الغيثُ اذا الغيثُ همى[1] ... يازمانَ الوصل بالاندلسِ
لم يكن وصلك الا حُلُما ... في الكرَى أو خلسةَ المختلس[2]
إذ يقودُ الدهر أشتات المنى ... تنقل الخطوَ على ما ترسمُ[3]
زُمَراً بين فُرادى وثُنا ... مثلما يدعو الوفودَ الموسمُ[4]
والحيا قد جلّل الروض سنا ... فثغور الزهر منهُ تبسمُ[5]
وروى النعمانُ عن ماء السما ... كيف يروي مالكٌ عن أنسِ[6]
فكساهُ الحسن ثوباً معلَما ... يزدهي منهُ بأبهى ملبس[7]
ايُّ شيءٍ لامرئٍ قد خلصا ... فيكون الروض قد مكّن فيه
تنهب الأزهارُ منهُ الفُرَصا ... أمِنت من مكرهِ ما تتّقيه
فاذا الماءُ تناجى والحصى ... وخلا كلّ خليلٍ بأخيه[8]
تُبصرُ الوردَ غيوراً برِما[9] ... يكتسي من غيظهِ ما يكتسي

---

١ جرى بكثرة ٢ الكرى النوم واختلس سلب بمخاتلة وعاجلاً والاسم منه خُلسة ٣ أشتات جمع شتّ وهو التفرق والمُنى جمع منية وهي البغية وترسم تأمر اي ما تأمر به المنى يعمل به الدهر ٤ الزمر جمع زمرة وهي الجماعة وفرادى واحداً واحداً وثنا اثنين اثنين والموسم المجتمع ٥ الحيا المطر وجلّل غطّى وثغور جمع ثغر وهو الفم ٦ النعمان أحد ملوك الحيرة اراد به هنا شقائق النعمان وماء السما المطر ومالك امام المدينة ابن أنس احد الأئمة الاربعة ٧ الثوب المُعْلم المنقوش والموشّى ويزدهي يتكبر ويتيه ٧ تناجى تسارّ والخليل الصديق المصافي ٩ البرم الضجر الضيّق النفس

وترى الآسَ لبيباً فهِما ‏ يسرق السمع بأُذني فرسِ [١]
يا أُهيلَ الحيّ من وادي الغضا ‏ وبقلبي سكنٌ انتم بهِ [٢]
ضاق عن وجدي بكم رحبُ الفضا ‏ لا أُبالي شرقهُ من غربهِ [٣]
فأعيدوا عهد أنسٍ قد مضى ‏ تُعتِقوا عانيكم من كَرْبهِ [٤]
واتّقوا الله وأحيوا مُغرَما ‏ يتلاشى نفَساً في نفَسِ
حبسَ القلبَ عليكم كرما ‏ أفترضَون عفاءَ الحبسِ [٥]

ولهُ موشّحات عديدة كلّها آية في العذوبة والظروف وشعرٌ كثير شديد الأسر متين العبارة واضح المنهج مطبوع اللهجة .

إبنُ قُزْمَان

هو ابو بكر محمّد بن قُزمان القرطبيّ. كان شاعراً زجّالاً رقيق النظم غزير المادّة في فنّهِ مطبوع القول نبيه النادرة. قال ابن خلدون: ولمّا شاع فنّ التوشيح في أهل الأندلس وأخذ بهِ الجمهور لسلاستهِ وتنميق كلامهِ وتصريع أجزائهِ نسجت العامّة من أهل الأمصار على منوالهِ ونظموا في طريقتهم بلغتهم الحضَريّة من غير أن يلتزموا فيهِ إعراباً واستحدثوا فنّاً سمّوهُ بالزَجَل والتزموا النظم فيهِ على مناحيهم فجاءوا بالغرائب. وأوّل من أبدع في هذه الطريقة الزجليّة أبو بكر بن قُزمان

١ الآس شجر عطر الرائحة اوراقه متقابلة دائمة الخضرة واللبيب العاقل ٢ الغضا شجر عظيم من الاثل وخشبه صلب جيّد للوقود ٣ الوجد الحب والفضا مخفف الفضاء وهو المكان الواسع ٤ أعتق المولى عبدهُ حرّرهُ وأخرجه من الرق والعاني الأسير والكرب الحزن والغم ٥ حبس القلب وقفه على حبكم والعفاء الدروس والهلاك

وإن كانت قيلت قبله لكنّها لم تظهر حلاها ولا انسبكت معانيها واشتهرت رشاقتها الاّ في زمانه وهو إمام الزجّالين على الاطلاق.

وكان ابن قُزمان كثيراً ما يتردّد الى اشبيلية وينتاب الجنان المحدقة بنهرها. ويحكى أنهُ خرج يوماً الى متنزَّه في جماعة من أصحابه فجلسوا تحت عريش وأمامهم تمثال أسد من رخام يصبّ الماء على صفائح من الحجر فقال:

وعريش قد قامَ على دكّانْ بحال رواقْ
وأسد قد ابتلع ثعبانْ من غلظ ساقْ
وفتح فُو بحال إنسانْ بهِ الفواقْ
وانطلق من ثَمّ على الصِفاحْ والقى الصياحْ

وتفنّن ابن قُزمان في زجليّاته حتى مدح بها الأمراء. وجاء بعدهُ جماعةٌ من الزجّالين كان سابق حلبتهم ابو عبد الله بن الحاج المعروف بمدغليس وقد وقعت لهُ العجائب في هذه الطريقة. ومن أزجاله قولهُ:

ورذاذٍ دقّ ينزل وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضّض وترى الآخر يذهّب
والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص وتطرب
وتريد تجي إلينا ثمّ تستحي وترجع

وظهر بعد هؤلاء في اشبيلية مدينة المطربين ومحط رحالهم عصابةٌ من الزجّالين كان شيخها ابن جحدر ولهُ زجلٌ شهير في فتح ميورقة. وخلفهُ تلميذهُ البعبع ولهُ زجلٌ مشهور أولهُ:

يا ليتني ان ريت حبيبي اقبّل اذنو بالرُسلا
لش اخذ عنق الغزيّل وسرق فم الحُجيلا

وهناك فئةٌ من الأُدباء عطّرت اقوالهم الأرجاء لا يسعنا ذكرهم ولعلّ فيمن ذكرنا كفاية لمعرفة مكان عرب الأندلس من فنون لغتهم وآدابها.

أَلمُؤَرِّخُون

إبنُ خاقان (١١٤٠م ٥٣٥هـ)

هو أبو نصر الفتح بن محمّد بن عبيد الله بن خاقان الاشبيليّ. كان آيةً من آيات البلاغة لا يُشقّ لهُ غبار وفارساً من فرسان الأدب لا يُجارى في مضمار وهو كاتب بارع عذب الالفاظ ناصعها أصيل المعاني وثيقها لَعوباً بأطراف الكلام ولهُ شعرٌ جيّد عذب رقيق غير أنهُ لم يشتهر بالنظم اشتهارهُ بالنثر الأنيق والترسّل الرشيق. وكتاباتهُ كلّها شهادة ناطقة بغزارة مادّة نادرة وقريحة فيّاضة حاضرة وقد دبّج[١] تآليفهُ بنثر آنق من النَور[٢] في الأكمام ورصّعها بأسجاعٍ أطرب من سجع الحمام. منها « قلائد العقيان» جمع فيها محاسن اعيان الأندلس وترجم من أمراء ووزراء وقضاة وأدباء. ومنها « مطمح الانفس ومسرح التأنس» في مُلَح أهل الأندلس من علماء وفقهاء وأدباء لم يذكرهم في « القلائد » وكلا الكتابين معدن درر تزري بالدراريّ الزاهرة[٣] وكنز فرائد وفوائد ترخص لديها الجواهر اليتيمة النادرة لكنّها بكتب الأدب أجدر منها

١ نقش وزين ٢ زهر الشجر ٣ الكواكب اللامعة

بكتب التاريخ لأن مؤلّفها تحرّى صقل العبارة ورصف الكلام دون ضبط الوقائع التاريخيّة واستيفاء تراجم الاعلام .

وكان ابن خاقان مدمناً للخمرة لا يملّ من المعاقرة والقصف حتى هان قدرهُ وابتُذلت نفسهُ وساءَ في الناس ذكرهُ . ولمّا كانت الخمر أمّ الرذائل انغمس ابن خاقان في الموبقات[1] والمآثم وتهافت على الخلاعة وابرز صفحته[2] للمخازي والمحارم . وقد لقي هلاكهُ بما اتّسم بهِ من الاشتهار واشتهر عنهُ فانهُ وُجد قتيلاً ببيت في فندقٍ من فنادق مرّاكش وقد ذُبح ذبحاً وعُبث بهِ عبثاً فظيعاً وتُرك عبرةً لمن اعتبر وآيةً رهيبة لغضب الله عزّ وجلّ على كلّ خالع جسور من بني البشر .

إبنُ جُبَيْر (١٢١٧ م ٦١٤ هـ)

هو ابو الحسين محمّد بن أحمد بن جُبير الكنانيّ الرحّالة الشهير . وُلد ببلنسية ثم انتقل الى شاطبة وأخذ العلم عن أبيهِ وعن جماعة من شيوخ عصرهِ فأتقن القرآن والفقه والحديث وعُني بالأدب فبلغ فيهِ الغاية وبرع في صناعة القريض والكتابة ونال بعلمهِ أموالاً طائلة ودنيا عريضة فرفضها وزهد فيها . وكان عالي الهمّة كثير المروءة سريعاً الى قضاء الحوائج والسعي في حقوق الاخوان والمبادرة لايناس الغرباء وفي ذلك يقول :

يحسب النـاسُ بأني متعَبٌ ... في الشفـاعات وتكليف الورى
والذي يُتعبهم من ذاك لي ... راحةٌ في غيرها لن أفكرا
وبـودّي لو أُقضّي العمرَ في ... خدمة الطلاّب حتى في الكرى

---

[1] المهلكات [2] صفحته وجههُ اي انهُ كان يرتكب المخازي جهاراً دون استحياء

وهذه الأبيات مرآةٌ تتجلّى فيها أريحيتّه ُ العربيّة وأخلاقه ُ الزكيّة.
وعانى ابن جبير الرحلة الى المشرق مرّتين فكان انفصاله ُ للرحلة الأولى من غرناطة وأقام على متن البحر من الأندلس الى الاسكندرية ثلاثين يوماً وشخص الى الحجاز فحجّ ودخل الشام والعراق والجزيرة وغيرها. وداخل كثيرين من علماء دمشق خاصّة وجرت بينه ُ وبينهم مراسلات من شعر ونثر كلّها رقّةٌ وعذوبة وظرف وتسابقوا جميعاً في حلبة الفصاحة فلم يكن ثمَّ الا مجلّ سابق ومُـبرّز فائق. ثم قفل الرحّالة راجعاً الى المغرب فركب من عكّاء مع الافرنج وعرَّج القوم على صقلّية فعطب [1] مركبهم في خليجها الضيّق وقاسوا الشدائد في ذلك ووصل ابن جبير الى الأندلس سنة ٥٨١ هجرية وكان انفصاله ُ عنها سنة ٥٧٨ في اليوم الثامن من شوّال .

وما لبث بالأندلس مدة حتى ملّ الاقامة وهاجت في نفسهِ عوامل الشوق الى ركوب البحار ومعاناة الأسفار فقبض عصا الترحال وأعاد المسير الى المشرق ولم يُقيَّض [2] له ُ هـذه المرة الرجوع الى وطنهِ فتوفّي في الاسكندريّة. وكان هذا الرحّالة الشهير مع ولوعهِ بالتغرّب كثير الحنين الى بلادهِ لا يزال يلهج بذكرها كلّما نزح عنها شأن السواد الأعظم من جوّابي الآفاق الذين لا يقرّ لهم قرار في أوطانهم حتى اذا فارقوها طفقوا يتلّهفون ويتشّوقون اليها كأنّما أُكرهوا الى النزوح عنها إكراهاً وهو من أغرب ما رُكز في طباع هؤلاء المعذّبين بداء الحركة الدائمة والقلقلة في مناكب الأرض طولاً وعرضاً ... ويُحكى أن ابن جبير لمّا دخل بغداد اقتطع غصناً نضيراً من بساتينها فذوى [3] في يدهِ فأنشد :

---

١ انكسر ٢ يهيّأ ويسبّب ٣ ذبل ونشف ماؤه

لا تغترب عن وطنٍ   واذكر تصاريف النوى
أما ترى الغصن اذا   مافارق الأصل ذوى

وأين فعلهُ من قولهِ — وعاد ابن جبير من المشرق دامي القلب مقرّح الأحشاء ممّا عاين وسمع من الفرق المتعددة المتلوّنة التي كثر لغطها[١] وتفاقم هرجها ومرجها في الاسلام وكم صوّب سهام هجائهِ الى مريدي الفلسفة اتباع الفارابيّ وابن سيناء الشهيرين. فمن ذلك قولهُ :

قد ظهرت في عصرنا فرقةٌ   ظهورها شؤمٌ على العصرِ
لا تقتدي في الدين الاّ بما   سنّ ابن سينا وابو نصرِ[٢]

وهو القائل :

يا وحشة الاسلام من فرقةٍ   شاغلةٍ أنفسها بالسَفَه
قد نبذت دين الهدى خلفها   وادّعت الحكمة والفلسَفَه

وقد دوّن ابن جبير أخبار رحلتهِ في كتاب ضمّنهُ تفاصيل الحوادث التي جرت لهُ من لدن انفصالهِ عن غرناطة الى عودتهِ. ولهُ فيهِ الأوصاف الأنيقة البديعة للبلاد والآثار التي شاهدها ممّا يروق الاديبَ الاطّلاع عليه ويلذّ لهُ التفكّه بهِ.

---

١ اللغط الجلبة ٢ هو أبو نصر الفرابي

الفُقَهَــاء

إبنُ حَزْم (١٠٦٣ م ٤٥٦ هـ)

هو ابو محمّد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم القُرطُبيّ. كان ابوهُ وزيراً للمنصور بن ابي عامر حسن التدبير عالي المنزلة واسع الجاه والثروة ونهج لابنهِ سبيلهُ فخلفهُ في الوزارة مدّةً وحظي عند مخدومهِ وعُرف عند الناس بعلوّ الهمّة ومضاء العزيمة. ولم تستهوهِ الدنيا مع إقبالها عليهِ بل كان زاهداً في الغنى غير مكترث[١] بالازدياد من حطام الدهر وقد خرج من أصناف الملذّات والمسرّات الى التبحّر في العلوم والتأليف فيها على اختلاف أنوعها. وأعانهُ على نيل أُمنيّتهِ ما رُزق من دقّة الفكر والذكاء النادر وسرعة الحفظ وحضور الخاطر وقوّة العارضة. ولم يمرّ عليهِ ردح من الزمن حتى أُصبح فريد عصرهِ في الحديث والفقه واستنباط الأحكام فبذّ[٢] أهل الاندلس قاطبة في العلوم الدينيّة والعقليّة مع توسُّع في فنون الآداب والعربية والشعر وضروب البلاغة وإحاطةٍ تامّةٍ بالسِيَر والأخبار.

وكان ابن حزم في بداءة أمرهِ شافعيّ المذهب شديد الذبّ[٣] والمناضلة فيهِ على حين كان معظم أهل الأندلس والمغرب على مذهب مالك. وكأنّما

---

١ مبال ٢ غلب ٣ الدفاع

لم يكفه هذا التفرّد فانتقل الى مذهب أهل الظاهر وشمّر عن ساعد الجدّ في بثّهِ والنضح[1] عنهُ ووضع فيهِ المؤلّفات العديدة المسهبة. وبلغ بهِ الاغراق والغلوّ في هذا المذهب الغريب الى حدّ الهوس فأكثر من الوقوع في العلماء المتقدّمين وأئمّة المذاهب ولم يسلم أحد من بوادر لسانهِ الخبيث ولواذعهِ القارصة حتى قيل «كان لسان ابن حزم وسيف الحجّاج شقيقين».

ويقال أنهُ اجتمع من تآليف ابن حزم نحو أربعمائة مجلّد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة وهو مقدارٌ لا يكاد يصدَّق. لكنّ الأسف كلّ الأسف هو أن تلك القوّة الفائقة طور المعتاد صُرفت في تأييد مذهب فاحش التطرّف والغلوّ فكان كلّما زاد صياحهُ ودعاؤه الى مذهبهِ ووضع التأليف إثر التأليف في إثباتهِ والتنويه بهِ زاد الناس نفوراً منهُ وحنقاً عليهِ فاستهدف لفقهاء وقتهِ فتمالأوا على بغضهِ وردّ كيدهِ في نحرهِ[2] فكالوا له الصاع صاعين وأجمعوا على تضليلهِ والتشنيع عليهِ فحذّروا سلاطينهم من فتنتهِ ونهوا عوامّهم من الدنوّ اليهِ والأخذ عنهُ فأقصتهُ الملوك وشرّدتهُ[3] عن بلادها فخرج هائماً على وجههِ وانزوى في بادية ليلة يسنّ سهام الوقيعة لمن لم يرضوا بمذهبهِ الى ان مات ناقماً منقوماً عليهِ فكان علمهُ الواسع وبالاً عليه وشؤماً.

وكان ذلك الرجل الذي أتقن الفلسفة وكملت لهُ آلات البحث والنظر اذا دخل ميدان الجدال مع خصمهِ شطّ عن جادّة[4] الصواب وأغشى على بصرهِ شيطان التعصّب فيتهافت من فورهِ على ساقط المقال وبذيء الكلام ويسقي مناظرهُ الدُرديّ من أوّل دنّهِ[5] نابذاً وراء ظهرهِ ودبر أذنهِ

[1] يعني الدفاع [2] الكيد المكر بالآخرين [3] أبعدته [4] معظم الطريق ووسطه [5] الدرديّ

قوانين المناظرة وآداب البحث. وان أحببت الوقوف على نموذج من أُسلوبهِ في المباحثة فعليك بكتابهِ «الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِحَل» وهو أشهر مؤلّفاتهِ وأخطرها فترى ثَمَّ من ألفاظ السِّباب والشتائم القبيحة التي ينفح بها خصومهُ عن يدٍ فيّاضة وقلم سيّال ما لو جُمع على حدةٍ لأربى على ربع الكتاب وهو يقع في خمسة أجزاء ضخمة. وقد آثر بحملاتهِ المنكرة وفرطاتهِ السمجة ابا الحسن الأشعري بمعزلٍ عن سائر أئمّة الاسلام ولذلك قال تاج الدين السبكيّ «وكتابهُ هذا من شرّ الكتب وما برح المحقّقون ينهون عن النظر فيهِ لما بهِ من الازدراء للسنّة وأهلها».

وآية الآيات في الغرابة هي انّ هذا الجدليّ المحنّك لم يكفهِ تحاملهُ على المذاهب الاسلاميّة وعرضها على مقياسهِ بل استفزّتهُ الجرأة والوقاحة أن ينقل مذهبهِ الظاهريّ الى النصرانيّة. فحكم فيها تبعاً لمبادئهِ القويمة وطريقتهِ الفريدة ... ولمّا كان الفم ينطق من فضلة القلب أطلق الرجل لسفاهتهِ العنان وطرّز ما يدعوهُ ردوداً ملزمة وأدلّة مفحمة بعبارات الطعن والتنديد وأقوال المهاترة والمقاذعة[1] الى آخر ما هنالك من الكلام الهُراء[2] الذي وُسمت بهِ كتاباتهُ وحلّ فيها محلّ البراهين الساطعة والحجج القاطعة.

ومن تآليف ابن حزم خلا ما ذُكر كتاب «ابطال القياس والرأي» وكتاب «أخلاق النفس» وكتاب «مراتب العلوم» وكيفيّة طلبها وتعلّق بعضها ببعض وكتاب «التقريب» بحدّ المنطق والمدخل اليهِ وكتاب «طوق الحمامة» في الأدب وغير ذلك ممّا لا يسع المقام تعدادهُ.

ما يرسب في اسفل كل مائع كالاشربة والدنّ وعاء الخمر وغيرها وهو الراقود اي انه يبادئه بالشرّ من اول الأمر

١ السباب والشتم الفاحش ٢ الكثير وقيل الفاسد من حيث قواعد المنطق

إِبنُ عَبْدِ ٱلْبَرّ (١٠٧١ م ٤٦٤ هـ)

هو ابو عُمر يوسف بن عبد البرّ إمام عصرهِ في الحديث والفقه. وُلد بقُرطُبة وسمع الحديث عن مشاهير زمانهِ وكاتب فيهِ أئمّة المشرق حتى أصبح رأساً في هذا العلم تشدّ اليه الرحال وتستصبح بنبراس علمه الواسع أعلام الرجال ولُقّب بحافظ المغرب تنويهاً بسعة محفوظهِ وضبط روايتهِ. وتنقّل ابن عبد البرّ في الاندلس مدّة ففارق قرطبة وجال في غرب الجزيرة ثم تحوّل الى شرقها وسكن عدّة مدن في أوقات مختلفة كدانية وبَلَنْسِية وشاطبة وتولّى قضاء لشبونة وشنترين في أيّام ملكها المظفّر بن الأفطس.

وكان ابن عبد البرّ فضلاً عن براعتهِ في الفقه وسداد رأيهِ في القضاء والافتاء راسخ القدم في علوم الأدب وضروب البلاغة. ولهُ مؤلّفات عديدة ناطقة بفضلهِ وانفساح ذرعهِ فيما تعاطى من الفنون منها كتاب «التمهيد» لما في الموطّإ من المعاني والأسانيد وهو كتابٌ مطوّل يقع في سبعين جزءًا وكتاب «الإستيعاب» في اسماء الصحابة وأخبارهم وكتاب «بهجة المجالس وأنس المجالس» في الأدب جمع فيهِ أشياء مستحسنة تصلح للمذاكرة والمحاضرة وغير ذلك ممّا يطول عدّهُ.

إِبنُ أَبي رَنْدَقَة (١١٢٦م ٥٢٠هـ)

هو ابو بكر محمّد بن الوليد الطُرطوشيّ المعروف بابن أبي رَندَقة . وُلد بطُرطوشة وصحب أبا الوليد الباجيّ بسَرَقُسْطة فأخذ عنهُ الفقه والحديث وتخرّج في مسائل الخلاف وقرأ عليه بوطنهِ الفرائض والحساب وتلّقى الأدب عن ابن حزم الظاهريّ بأشبيلية . ورحل الى المشرق فحجّ ودخل بغداد والبصرة والشام وتفقه على من لقي من العلماء . وكان إماماً عالماً عاملاً زاهداً متقشّفاً متقللاً من الدنيا راضياً منها باليسير . ومن قوله « اذا عرض لك أمران أمر دنيا وأمر أخرى فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى » وكان كثيراً ما ينشد :

إنّ لله عباداً فُطَنَـا ... طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكّروا فيهـا فلمّا علموا ... أنّها ليست لحيٍّ وطنـا
جعلوهـا لجّـةً واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سُفُنـا

ومن شعرهِ قولهُ :

أُقلّبُ طرفي في السماء تردّداً ... لعلّي أرى النجمَ الذي انت تَنْظرُ
وأستعرضُ الركبانَ من كلّ وِجْهَةٍ ... لعلّي بمن قد شمّ عَرفك[١] أظفرُ
وأستقبل الأرواح[٢] عند هبوبهـا ... لعلّ نسيم الريح عنـك يخبّرُ
وأمشي ومالي في الطريق مآربٌ ... عسى نغمةٌ باسم الحبيبِ تذكّرُ
وألمح من القاهُ من غير حاجةٍ ... عسَى لمحةٌ من نور وجهك تُسفرُ[٣]

---

١ الرائحة الطيبة ٢ جمع ريح ٣ ألمح أبصر بنظر خفيف وتُسفر تُضيء وتشرق

ولابن أبي رندقة تآليف حسنة أشهرها «سراج الملوك» وهو حسن الترتيب كثير الفائدة جمعهُ من سير الأنبياء وآثار الأولياء وحكمة الحكماء وآداب العلماء ونوادر الخلفاء وقد قيل إنهُ ما سمع بهِ ملكٌ الا استكتبهُ ولا وزيرٌ الا استصحبهُ يستغني الحكيم بمدارستهِ عن مباحثة الحكماء والملك عن مشاورة الوزراء .

إبنُ ٱلْعَرَبِيّ (١١٤٨ م ٥٤٣ هـ)

هو محيي الدين أبو بكر محمّد بن عليّ المعروف بابن العربيّ الحاتميّ الطائيّ شيخ مشايخ الصوفيّة وإمام أئمة الطرائق الاسلاميّة في عصرهِ . وُلد بمُرْسية وانتقل الى اشبيلية في الثامنة من عمرهِ وقرأ بها العلوم الدينيّة على مشاهير علماء زمانهِ ومال الى الآداب فبلغ فيها شأواً بعيداً وكتب لبعض الولاة مدّةً ثم حدّثته نفسهُ بالانقطاع عن الدنيا فارتحل الى المشرق حاجًّا وعرّج في طريقه على برّ العدوة ودخل بجاية ورأى ثمّ رؤيا في آية الآيات في الغرابة فتأوّلوها[١] لهُ او تأوّلها لنفسهِ أنهُ سيكون بحر علم زاخر لا قرار لهُ ولا ساحل ... وكان شديد الاعتقاد بالرؤى ولهُ فيها مؤلّفات بسط فيها كيفيّة العمل للحصول عليها والتذرّع[٢] بها للارتقاء الى ما فوق الأطوار البشريّة ... وقد نزلت أضاليل زمانهِ في قلبهِ منزلة الحقائق الراهنة غير أنهُ كان يستمدّها على ما يزعم من عالم الأرواح لا بالحيلة والمزاولة كسائر القائلين بها من بني دهرهِ وكثيراً ما كان يقول «إني أحفظ الاسم الأعظم وأعرف الكيمياء بطريق التنزّل

---

١ فسروها ٢ توسل

ادّعاء علم الغيب

لا بطريق التكسّب » وقِس على ذلك الجفْر وعلم الحروف وما الى ذلك من الخزعبلات المضحكة. وكانت لهُ في الطبّ طريقة علاجيّة خاصّة. ودونك نصّ دواءٍ شافٍ للقولنج يُنسب اليهِ :

قلبيَ قُطبي وقالَبي أجفاني ـ سِرِّيَ خِضْرِي وعينهُ عرفاني
روحيَ هارون وكليمي موسى ـ نفسي فرعون والهوى هاماني

قالوا « وذكر بعض الثقات أن هذين البيتين يُكتبان لمن بهِ القولنج في كفّهِ ويلحسهما فانهُ يبرأ بإذن الله تعالى. قال: وهو من المجرَّبات ».

ومن غرائب ابن العربيّ جمعهُ بين مذهبين ضدّين فإنه كان ظاهريّاً في العبادات وباطنيّاً في الاعتقادات على مذهب الصوفية وقد توغّل في الطريقة توغلاً لم يقدم عليهِ أحد من قبله بحيث أصبح الأنموذج الذي تمثلت فيهِ أخلاق الصوفيين وآدابهم في الأقوال والأفعال. وكل تآليفهِ على كثرتها وتنوعها ــ وهي تُعدّ بالمئات ــ موضوعة في هذا المذهب من ادّعاء التجرد عن الطبيعة البشرية والتنزه عن الأهواء الى حدّ سقوط الشرائع عن أصحابهِ بارتقائهم الى ما فوق الطوْر المعتاد الذي يقف عندهُ سائر بني الانسان الضعفاء وحلول الالهية فيهم عند تسنُّمهم ذروة الكمالات الصوفية. ولهم في ذلك طرق وأساليب ومصطلحات خاصة بهم تفوق مدارك من سواهم فيما يقولون.

وقد ألمعنا الى هذا المذهب في ترجمتَي ابن الفارض والشهاب السُهروردي القتيل بحلب واشرنا الى ما للصوفية من القصائد الضافية الاذيال المحشوة بعبارات التدلّه فضلاً عن اوصافهم للخمرة ومفاعيلها العجيبة. غير أن ابن الفارض والسهروردي ومن على شاكلتهم لا يُعدّون نقطة في بحر ابن العربي زعيم أصحاب الطرائق وإمامهم.

والناس في ابن العربي كما في غيره من منتحلي التصوّف حزبان نقيضان فمنهم من يبرره ويزكّيه ويحمل كلامه على محامل حسنة ويتأوله ومنهم من يكفّره ويؤثّمه ويرميه بالالحاد والزندقة ويحملون كلامه على ظاهره ويأبون أن يفهموا من قوله مثلاً « قد حلّ مني اللاهوت في الناسوت » سوى مؤدّى ألفاظه وعبارته. وأما مزكّوه فيقولون « ما ينسب الى المشايخ له محامل الأول انه لم تصح نسبته اليهم. الثاني بعد الصحة يلتمس له تأويل موافق فإن لم يوجد له تأويل في الظاهر فله تأويل في الباطن لم نعلمه وانما يعلمه العارفون. الثالث أن يكون ذلك صدر منهم في حال السكر والغيبة والسكران سكراً مباحاً غير مؤاخَذ ولا مكلّف ».

ومن تآليف ابن العربي العديدة « الفتوحات المكية » في التصوف وهو أشهرها زعم فيه ان الحقّ سبحانه يملي له على لسان ملاك الالهام جمع ما يسطّره وهذه دعواه في كلّ كتبه. ومنها « فصوص[١] الحكَم » رتّبه على سبعة وعشرين فصّا في سبعة وعشرين نبيّا لكلّ نبيّ فصّ من آدم الى محمد. وقد قال فيه « إني رأيت رسول الله في مبشرة أريتها بدمشق وبيده كتاب فقال لي « هذا كتاب فصوص خذه واخرج به الى الناس وينتفعون به » وقد مرّ بك حرصه على المنامات وشدّة اعتقاده لها وان لم تكن سوى أضغاث أحلام وله « مشاهد الأسرار القدسية » وغير ذلك ممّا يطول تعداده ولا يكاد يقع تحت حصر ويدلّ على مادّة غزيرة وقريحة متدفّقة.

---

١ جمع فصّ وهو ما يركّب في الخاتم من الحجارة الكريمة .

ألأَطِبَّاءُ وَٱلفلاَسفَة

أَبُو ٱلْقَاسِمِ ٱلزَّهْرَاوِيّ (١١٠٧م ٥٠٠هـ)

هو ابو القاسم خلَف بن عبّاس الزهراويّ نسبة الى الزهراء وهي مدينة صغيرة على نحو سبعة أميالٍ من قرطبة . والافرنج يسمّونه « ألْبُوكَازِيس » . كان من مشاهير أطبّاء زمانه حاذقاً في تشخيص الأمراض موفّقاً في علاجها وتميّز على معاصريهِ من أرباب الصناعة بتعاطي الجراحة وإتقان أعمالها على قدر ما مكّنته من ذلك الأحوال فانّ الجراحة كانت في غاية القصور والاهمال لتوقّفها على التشريح وهو محرّم في الدين الاسلاميّ. فكان أطبّاء العرب لا يعرفون صفات الأعضاء التشريحيّة الا بالوصف الذي يطالعونهُ في كتب اليونان ومن ثَمَّ لم تكن لهم يدٌ في الجراحة وقد تراجعت هذه الصناعة الجليلة في ايامهم واقتصرت على غير المهمّ من الاعمال. غير ان أطباء الاندلس لم يكونوا ليتركوها بتاتاً فكان ابو القاسم بارعاً في بتر الاعضاء واستخراج ما يعترض في الحلق من الاجسام المبتلَعة واستعمال الكيّ بالحديد ولهُ في الجراحة مؤلّفٌ سيأتي الكلام عليهِ قريباً .

واقتدى بأبي القاسم فئةٌ من الاطبّاء الافاضل لم يأنفوا كمن سواهم من الاهتمام بالجراحة ولم يترفّعوا عن تولّي اعمالها. فكان مروان بن عبد الملك ابن زُهر الآتي ذكرهُ مشهوراً بمعالجة الكسر والخلع وفتح

القصبة وغير ذلك من اوّليّات الأعمال الجراحيّة. ومن كلام الطبيب الفيلسوف ابن رُشد القرطبيّ قولهُ «من اشتغل بالتشريح ازداد إيماناً بالله».

ولأبي القاسم مصنَّفٌ شهير سمّاهُ «التصريف لمن عجز عن التأليف» جعلهُ على قسمين الطبّ النظريّ والطبّ العمليّ وهو الجراحة قسّم كلاًّ منهما على خمسة عشر فصلاً. وقد نُقل تأليفهُ هذا الى العربيّة واللاتينيّة وكان للقسم العمليّ او الجراحيّ منهُ شأن كبير عند أطبّاء الافرنج.

إبنُ بَاجة (١١٣٨ م ٥٣٣ هـ)

هو أبو بكر محمّد بن باجة التُجَيبي السَرَقُسطيّ المعروف بابن الصائغ ويسمّيهِ الافرنج «إفَنْبَاس». كان عالماً فاضلاً متميّزاً في العربيّة والأدب عالي الهمّة مولَعاً بالبحث والتنقيب والنظر وأفرغ ذرعهُ للعلوم الفلسفيّة فخرج فيها على ثقابة ذهنهِ ومضاء عزيمتهِ علاّمة عصرهِ ونادرة زمانهِ. وهو أوّل من علّق الشروحات الضافية على كتب الحكمة التي استُجلبت من المشرق في خلافة الحكَم بن الناصر الأُمويّ ونفع أهل الأندلس بها غير ملتفتٍ الى سخط العامّة ونقمتهم على المولَعين بالفلسفة وإيذائهم للمتظاهرين بها فكان لهُ من ذلك عناء شديد ومحنة دائمة وكثيراً ما حاولوا إهلاكَهُ ولم ينجُ الا بالجهد الجاهد ورموهُ بالكفر والالحاد والزندقة إغراءً للملوك بإهدار دمه[1].

وكان لابن باجة باعٌ طويلٌ في الهيئة والرياضيّات والطبّ والموسيقى

---

[1] أهدر دَمَهُ أباح قتله

ولهُ في هذه العلوم مصنّفات حسنة أشهرها « رسالة الوداع » تشتمل على مباحث في القوّة المحرّكة في الانسان العاقل وخلود النفس ولهُ ايضاً رسائل أخر في الفلسفة وبقيّة الفنون التي أتقنها ما عدا الشروح التي وضعها على طائفةٍ من كتب أرسطو ـ ووزر ابن باجة للأمير أبي بكر بن ابرهيم الصحراويّ صاحب سرقسطة من قِبَل ملوك المرابطين وكانت لهُ عندهُ حظوة كبيرة فنادمهُ وأفضى اليهِ بسرّه الاّ أنَّ الاشاعات التي كان أعداء الوزير الفيلسوف يبثونها في صدور الغوغاء اتّصلت بالجند فحرّكت كامن [1] أهوائهم وهاجت أحقادهم فاعتزل ابن باجة الخدمة وأقام ببَلَنْسِية ثم ورد اشبيلية فغرناطة ورحل من ثمّ الى المغرب فنزل بفاس ووزر ليحيي بن يوسف بن تاشفين دهراً طويلاً فصلحت بهِ الأحوال ونجحت على يديهِ الآمال فحسدهُ الأطبّاء والكتّاب ومن اليهم من هوامّ البشريّة الذين تنتغش [2] بهم قصور الملوك ولاهمّ لهم سوى مصّ الدماء وتمزيق الأعراض الشريفة المترفعة بنبلها عن مخازيهم ودناياهم فتمالأوا عليهِ وكادوهُ وقتلوهُ مسموماً بباذنجانة .

بَنُو زُهْر

اشتهر بنو زهر في الأندلس بالطبّ والفلسفة اشتهار بني بختيشوع في العراق فكانوا كلّهم أعياناً علماء ورؤساء حكماء وأطباء أجلاّء ووزراء فضلاء وقد نالوا المراتب العالية وتقدّموا عند الملوك ونفذت أوامرهم وكثرت

---

[1] خفيّ مستتر [2] تتحرك وتموج يقال انتغشت الدار بالاولاد اذا كثروا فيها وماجوا وكذلك انتغشت القرية بالنمل وما اشبه ذلك

في الناس مآثرهم ولهجت الألسن بأريحيتهم وكرم أخلاقهم وعموم مؤاساتهم[1].

وأوّل من اشتهر من هذا البيت الكريم ـ أبو بكر محمّد بن مروان ابن زُهر الأياديّ ـ كان عالماً بالرأي حافظاً للأدب فقيهاً حاذقاً بالفتوى متقدّماً فيها متقناً للعلوم فاضلاً جامعاً للدراية والرواية وحدّث عنه جماعةٌ من علماء الاندلس وتُوُفّي بطلبيرة سنة ١٠٣٠ مسيحيّة. وعُرف بعده ابنهُ ـ أبو مروان عبد الملك بن محمد ـ كان فاضلاً في صناعة الطبّ خبيراً بأعمالها رحل الى المشرق فتطبّب[2] هنالك زماناً وتولّى رئاسة الطبّ ببغداد ثم بمصر والقيروان. ورجع الى الاندلس وقصد مدينة دانية ولقي من ملكها إكراماً كثيراً وطار ذكرهُ في أقطار الاندلس واشتهر بالتقدّم في الصناعة والحذق بمزاولتها. وانتقل الى اشبيلية ولم يزل بها الى أن وافتهُ منيّتهُ.

وجاءَ بعدهُ ابنهُ ـ أبو العلاء زُهر بن عبد الملك ـ من مشاهير أطباء زمانه وأفاضل علمائه وأماثل أدبائه. وقد رُزق في الطبّ براعة وبصيرة تدلاّن على قوة استنباطه وسعة اطّلاعه على دقائق الصناعة ولهُ نوادر في مداواته للمرضى ومعرفته لما يجدون من الآلام بمجرّد تفرّسه فيهم او جسّ نبضهم. ونال في دولة الملثّمين وهم المعروفون ايضاً بالمرابطين منزلةً رفيعة وذكراً جميلاً. وفي أيامه وصل كتاب القانون لابن سيناء الى الاندلس فلم يعجبهُ فاطّرحهُ وجعل يقطّع من طرره ما يكتب فيه نسخ الأدوية لمن يستفتيه من المرضى. ولأبي العلاء مصنّفات في الطبّ منها كتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «النكت الطبيّة» ألّفها لابنه ابي مروان وجُمعت لهُ نسخٌ ومجرّباتٌ بعد وفاته أمر بجمعها

---

١ آسى فلان قريبهُ جعله أسوةً لنفسه في ماله وعزّاه في مصيبته ٢ تعاطى الطبّ

عليّ بن يوسف بن تاشفين بمرّاكش وبسائر بلاد العدوة والأندلس ممّا يدلّ على مكان الرجل من قلوب معاصريهِ ووفرة ثقتهم بعلمهِ ودرايتهِ حتى أنزلوا أقوالهُ منزلة وصيّةٍ ثمينةٍ عملوا بها بعد موتهِ . وكان ذلك سنة ١١٣٠ مسيحيّة ٥٢٥ هجرية .

وخلفهُ في الصناعة ابنهُ ـ أبو مروان عبد الملك بن زُهر ـ ولحق بأبيهِ في حسن المعالجة واستقصاء الأدوية المفردة والمركّبة وشاع ذكرهُ في الأندلس واشتغل الأطباء بمصنّفاتهِ ولم يكن من يماثلهُ في زمانهِ بمزاولة أعمال الصناعة . وخدم الملثمين ونال من جهتهم نعماً وأموالاً كثيرة ولمّا انتزع عبد المؤمن المدّعي نسباً في بيت العلويّين بلاد المغرب والأندلس من أيدي المرابطين واستقلّ بالمملكة قرّب أهل العلم وأكرمهم ووالى إحسانهُ اليهم واختصّ لنفسهِ أبا مروان وجعل اعتمادهُ عليهِ في الطبّ وأنالهُ من الأعطية فوق أمنيتهِ وكان مكيناً عندهُ عالي القدر متميّزاً على كثير من أبناء زمانه ولهُ في علاجهِ وتدبير صحتهِ وتحيّله في مداواتهِ نوادر كثيرة وهي وإن فاقت طور التصديق تدلّ على دقــة نظرهِ ولطف أسلوبهِ في معالجة الأعلاّء والاستيلاء على خواطرهم فتنجع فيهم الأدوية بأكثر سهولة . ولأبي مروان تآليف منها مقالةٌ في علل الكلى ورسالة في علّتي البرص والبهق وكتاب « التذكرة » وكتاب « الزينة » ألّفها لابنهِ عند شروعهِ في التطبّب وهو صغير السنّ .

وقام بعدهُ ابنهُ ـ ابو بكر محمّد بن عبد الملك بن زهر ـ وهو عين ذلك البيت الشهير ومصباحهم المنير واذا قيل « ابن زهر » بالاطلاق فإنما يراد بهِ أبو بكر دون سواه لسموّ مقامهِ وتفرّدهِ عن مواقف الأشباه . وُلد بأشبيلية ونشأ بها وتميّز في العلوم وأخذ الطبّ عن أبيهِ وباشر أعمال الصناعة تحت رعايتهِ ولم يزل يزداد علماً وخبرة ودُرْبة ودراية حتى أحصى

دقائقها واستجلى غوامضها وأحاط بأصولها وفروعها وأصبح العلَم الذي يشار اليهِ بالبنان ومنقطع القرين بين أطبّاء ذلك الزمان. ولم تقتصر همّتهُ الشمّاء على التبريز في الطبّ بل كان من حفّاظ القرآن ورواة الحديث واشتغل بالأدب والعربيّة وتبحّر في أسرار اللغة فصار من شيوخ علمائها وأفاضل أئمتها ونظم الشعر فأجاد فيهِ ولهُ موشّحات مشهورة تناقلتها الألسن وتغنّى بها الحُداة .

وشارك أبو بكر أباهُ في خدمة دولة الملثّمين ودولة الموحّدين من بعدهم وأظهر من حسن المعالجة وثقابة الرأي ما أعجب عبد المؤمن وأعلى منزلتهُ عندهُ ولم يزل في خدمة خلفائهِ مكرّماً مهيباً كثير الحظوة الى آخر أيامهِ . ولهُ في الناس مآثر ومحامد تشهد لهُ بطيب العنصر والأريحيّة التامّة لكن مناقبهُ ومكارمهُ لم تكن لتقيهُ مكايد الحسّاد الأدنياء وكثيراً ما وشوا بهِ واتهموهُ عند الخليفة بقراءة كتب الفلسفة وضعف العقيدة فطاشت سهام مكرهم وردّ كيدهم في نحرهم. ولمّا أعيتهم الحيلة عمدوا الى سمّ دسّوهُ في بيض وقدّموهُ لهُ فأكل منهُ هو وابنة أخت لهُ فماتا كلاهما ولم ينفع فيهما علاج. وكانت أختهُ وابنتها المذكورة عالمتين بالطبّ ولهما خبرةٌ جيّدة بما يتعلّق بمداواة النساء وكانت تدخلان الى نساء المنصور ثالث خلفاء الموحّدين وتعالجانهنّ .

ومن شعر أبي بكر بن زُهر قولهُ يتشوّق الى ولدهِ :

ولي واحدٌ مثل فرخ القطا صغيرٌ تخلّف قلبي لديْهْ
نأت عنهُ داري فيا وحشتي لذاك الشُخيص وذاك الوُجَيْهْ
تشوّقني وتشوّقتهُ فيبكي عليَّ وأبكي عليْهْ
وقد تعب الشوق ما بيننا فمنهُ اليَّ ومنّي إليْهْ

ونظر يوماً الى المرآة وهو في آخر عمره فأنشد:

إني نظرتُ الى المرآة اذ جُليت ... فأنكرت مقلتايَ كلَّ ما رأتا
رأيتُ فيها شُييخاً لستُ أعرفهُ ... وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى
فقلت أين الذي بالأمس كان هنا ... متى ترحّل عن هذا المكان متى
فاستجهلتني وقالت لي وما نطقت ... قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى
هوّن عليك فهذا لا بقاءَ لهُ ... أما ترى العُشْب يفْنى بعد ما نبتا
كانت سُليمى تنادي يا أخيَّ وقد ... صارت سُليمى تنادي اليوم يا أبتا

وكان مقتل ابن زهر سنة ١١٩٩ م ٥٩٦ هـ.

وخلفهُ ابنهُ — أبو محمَّد عبد الله بن محمد — وقرأ على والدهِ ووقف على كثيرٍ من أسرار الصناعة وأعمالها وعُني بالنظر فيها والتحقيق لمعانيها بحيث صار رأساً في علم الطبّ وكان جيّد الفطرة حسن الرأي مفرط الذكاء وحظي عند الخليفة الناصر رابع الخلفاء الموحّدين ولقي عندهُ من الاكرام والانعام ما يفوق الوصف. وتُوفّي مسموماً كأبيهِ سنة ١١٢٥ مسيحيّة وهو في الخامسة والعشرين من عمرهِ وخلّف ولدين عُرفا بالفضل والكرامة أحدهما يُسمّى أبا مروان عبد الملك والآخر وهو الأصغر يسمّى أبا العلاء محمّداً وكان معتنياً بصناعة الطبّ ولهُ نظرٌ جيّد فيها.

إبنُ الطُّفَيل (١١٨٥م ٥٨١هـ)

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن الطُفيل القيسيّ الطبيب الفيلسوف الشهير. وُلد بوادي آش وتتلمذ لابن باجة فتلقّى عليهِ العلوم ونبغ في الطبّ والفلسفة وطار صيتهُ في أنحاء الأندلس وكتب لأمير غرناطة فحسنت لديهِ

آثاره ثم اتصل بخدمة الموحدين وحظي عندهم ووزر لأبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن وكان نديمه ونجيّه وموضع سرّه وثقته. وحبّب اليه قراءة كتب الحكمة ومهّد لأصحابها سبيل التقرّب منه وكان من جملة من سعي في تقريبهم ابن رشد الشهير زعيم فلاسفة الاندلس . وكان الخليفة يعقد مجالس المناظرة للفلاسفة في قصره ويخوض معهم في جميع المباحث ويظهر من الحنكة في الجدل وبعد الغور في استنباط الأدلّة وسعة الاطلاع على مقالات الحكماء ما يدهش له السامعون ويُعجب به جهابذة العلم أنفسهم .

وابن الطُفيل على مذهب أرسطوطاليس كسائر فلاسفة العرب وله عدّة مؤلّفات في الفنون التي تعاطاها أشهرها الرسالة الذائعة الشهرة في أسرار الحكمة المشرقيّة التي سمّاها «حيّ بن يقظان» أودعها ما تمثّل لخاطره من الآراء الفلسفيّة وأبرز مذهبه بصورة رواية يدور فيها الكلام على غلام ساقته التقادير الى جزيرة خالية خاوية لا مرشد له فيها ولا مؤدّب. فمثّل المؤلّف كيف يكون تنبّه قوى الفتى واستيقاظ مداركه وترقّي نفسه شيئاً فشيئاً الى ذروة الكمالات الانسانيّة بمجرّد أعمال عقله وتبصّره في أحوال الطبيعة ومظاهرها العجيبة .

إبنُ رُشْد (١١٩٨ م ٥٩٥ هـ)

هو أبو الوليد محمّد بن أحمد بن رُشد المالكي القرطبيّ زعيم فلاسفة الأندلس وأستاذ حكماء زمانه وخاتمة علماء العرب المشهورين في الجزيرة ويسمّيه الافرنج «أفرُوس» وله عندهم شهرة واسعة ومكانة عالية وقد نقلوا الى لغاتهم طائفة من مؤلّفاته . وُلد بقرطبة من بيت عُرف بالوجاهة

والنبل والفضل وكان أبوهُ فقيهاً عالماً متوليّاً للفتوى كثير الخير حميد المآثر وتخرّج ابنهُ على أشهر علماء عصرهِ فأتقن الفقه والكلام والطبّ ثم وقف وقتهُ على تحصيل الفلسفة وانقطع لمطالعة كتب الحكمة وداخل الفيلسوفين الشهيرين ابن زهر وابن الطُفيل وأخذ عنهما ولم يزل يتبحّر في هذا الفنّ ويستغرق في مباحثهِ وينقّب عن مسائلهِ حتى خرج فيهِ نسيج وحدهِ تشدّ اليهِ الرجال من أقاصي البلدان وتتحدّث بعلمهِ وفضلهِ أنديةُ الأدباء وجماعات الركبانِ.

واتصل ابن رشد بالخليفة أبي يعقوب يوسف على يد ابن الطفيل ولقي منهُ إعزازاً ورعاية وكانت لهُ عندهُ حرمةٌ عظيمة وموضع جليل ولاّهُ قضاء اشبيلية ثم قضى في قرطبة ومنها شخص الى مرّاكش بأمر الخليفة ثم انقلب راجعاً الى الاندلس. ولمّا مات يوسف خلفهُ المنصور وأقرّ ابن رشد في مقامهِ مدّة وأنالهُ من الحظوة والكرامة ما كان يلقى عند الخليفة السالف. الا أنهُ ما عتّم أن قلب لهُ ظهر المجنّ ونقم عليهِ ونفاهُ الى اليسانة وهي بلدة على مقربة من قرطبة وكان السرّ في هذا الانقلاب أن جماعة من الأعداء الحسدة وشوا بهِ عند الخليفة وشنّعوا عليهِ بقراءة الفلسفة وفساد العقيدة وجحد القرآن وشملوا بسعايتهم هذه قوماً من أفاضل العلماء كان ابن رشد يجالسهم ويباحثهم كما هو شأن حملة العلم في كلّ مكان جمعتهم فيهِ الظروف. فنُكبوا جميعاً وفُرّقوا في أطراف البلاد. ثم عاد المنصور الى نفسهِ ورضي عن الجماعة واستدعى ابن رشد الى مراكش وغمرهُ بالنعم والكرامات وردّ لهُ سابق مقامهِ وحظوتهُ. ويروى أن سبب رضاهُ عن الفيلسوف هو أنهُ رغب هو نفسهُ في الاشغال بالحكمة والوقوف على مقالات الفلاسفة والتخرّج في طريقتهم. وهذه بدوات وغرائب عوّدنا التاريخ اسماعها عن أولئك الملوك المستبدّين

الذين لا رادع لهم سوى أهوائهم وأمانيّهم .

وكان ابن رشد شديد الاعجاب بأرسطو الى حدّ الغلوّ حتى ارتأى أنه أنهى العلم الى أبعد غاياته بحيث لا يُستطاع لمن بعده أن يزيدوا عليه . وفي هذه الدعوى ما فيها ... وقد قصر نفسه على خدمة مؤلّفات المعلّم الأول فوضع لها شروحاً ومختصرات تقرّب منالها لطلاّب الحكمة . وله تصانيف عديدة في الفلسفة والطب ضاع بعضها تماماً وفُقد الأصل العربيّ للبعض الآخر فلا تُعرف الا بترجمات لاتينيّة أو عبرانيّة . وامّا ما بقي منها على أصله فهو قليل جدًّا أشهرها « تهافت التهافت » وهو ردٌّ على « تهافت الفلاسفة » للغزّاليّ وقال في آخره « لا شك ان هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة ولولا ضرورة طلب الحقّ مع أهله ما تكلّمت في ذلك » ومنها « فصل المقال » فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال وهي رسالة مفيدة حاول فيها أن يقنع قوماً من غلاة السنّة أنه لا تناقض بين العقل والدين — ولابن رشد من المؤلّفات أيضاً كتاب « الكلّيّات » في الطبّ وهو مصنّفٌ جليلٌ طُبع مراراً باللاتينيّة وله تلخيصاتٌ لكثير من كتب جالينوس في الاسطقسات[1] والأمزجة والعلل والأعراض والحمّيات وغيرها .

امّا مذهب ابن رشد — إن صحّ أن له مذهباً خاصّاً به — فخلاصته أن مادّة العالَم أزليّة وما الخلق عنده سوى حركة اضطراريّة في تلك المادّة تنشأ عنها الكائنات وتتولّد بعضها من بعض . والخالق في مذهبه هو تلك الحركة او المحرّك . ولمّا كانت المادّة أزليّة وجميع الموجودات ناجمة عنها كانت المخلوقات مشاركة لها في الأزليّة او الالهيّة تبعاً لارتقائها

---

[1] العناصر

في العلم. بحيث ان الانسان العاقل اذا تجرّد لتحصيل العلم توصّل شيئاً فشيئاً الى الاستغراق في الله وهذا ما يُسمّى بمذهب « النشوء » وهو قريبٌ جدًّا من «الحلول [1] ». وممّا يجدر ذكرهُ أن ابن رشد والمتصوّفة متّفقون على إمكان تألّه الانسان ولا يختلفون الاّ في الطريقة. فابن رشد يقول هي العلم والمتصوّفة يقولون هي الصلاة.

ويترتّب على هذا المبدإ أن النفوس تموت مع أجسادها وترجع الى مادّتها الاصليّة فلا خلود الا لتلك المادة وبالتالي فلا ثواب ولا عقاب بعد هذا الحياة. وأن العقول واحدة في البشر ترجع جميعها الى العقل الاوّل الذي يسمّيه «العقل الفاعل» الازليّ في مقابلة «العقل المنفعل» الحادث. وهذا العقل الفاعل العامّ هو وحدهُ متّصلٌ بالله دون العقول الفرديّة ومن ثم فليس للخالق معرفةٌ الابكلّيّات الحوادث التي تجري في العالم ولا علم لهُ بجزئيّاتها. الى غير ذلك من الاقوال التي لا محلّ لها هنا.

وقد تصدّى [2] علماء كثيرون للردّ على هذه الفلسفة الارسطوطاليّة الرشديّة أشهرهم القدّيس توما الأكوينيّ علاّمة الكنيسة الكاثوليكية فانهُ نقض بناء هذا المذهب ولم يترك منهُ حجراً على حجر.

إبنُ مَيْمُون (١٢٠٨ م ٦٠٥ ه)

هو أبو عمران موسى بن ميمون الفيلسوف اليهوديّ الشهير ويسمّيه الافرنج « ميمونيد » وُلد بقُرطُبة وتفقّه في العلوم الدينية على مذهب أهل ملّته وبرع في سنن اليهود وكان يُعدّ من فضلاء أحبارهم واكابر

---

١ مذهب القائلين ان الله حالّ في كل شيء ٢ تعرض

علمائهم وكانت لهُ في بني جنسهِ مكانة خطيرة وكلمة نافذة — وصرف ابن ميمون عنايتهُ الى تحصيل الآداب العربيّة والفلسفة والطبّ فنال منها حظًّا وافراً وأصبح ممن يرمى بالابصار وبلغ موضعاً جليلاً في عصابة ذوي الاقدار والاخطار وتوثّقت عرى الاخاء بينهُ وبين فلاسفة عصرهِ كابن الطُفيل وابن رشد وغيرهما .

ولمّا ملك الموحّدون بلاد الاندلس ورسخت قدمهم فيها لحق أهلَ الذمّة منهم شرٌّ وضيقٌ وبلاءٌ شديد فاضطُرّوا جميعاً من يهود ونصارى الى مهاجرة اوطانهم او جحد إيمانهم فآثر النصارى الجلاء وقصدوا طُلَيطلة عاصمة قشتالة فألقوا فيها عصا الترحال وامّا اليهود فأسلموا او تظاهروا بالاسلام في العلانية وظلّوا يقيمون سرًّا شعائر دينهم في الخلوات. وجاراهم ابن ميمون على هذه الخطّة فأظهر الاسلام وحفظ القرآن وتعاطى الفقه حتى اذا دبّر شؤونهُ وباع عقاراتهِ[1] واستصفى اثمانها هاجر الى مصر وعاد الى سابق دينهِ ورأس بني ملّتهِ وانشأ بالفسطاط مِدْراساً[2] تُتلقّى فيهِ العلوم على مذهب اليهود .

ونما صيتهُ الى السلطان صلاح الدين الأيوبيّ فقربهُ اليهِ واتخذهُ طبيباً لنفسهِ وخدم ابنهُ الملك الأفضل من بعده ووضع لهُ مؤلّفاً في السموم والتحرّز من الأدوية القتالة وهي الهُولة[3] الفظيعة التي ما برح ملوك ذلك الزمان تستطار أفئدتهم لها ويصافون ويتملّقون من أجلها الأطبّاء مهما كان مذهبهم ولو اضطُرّوا الى تناسي العرش معهم وترك كبرهم واستبدادهم .

ولابن ميمون تصانيف عديدة باللغة العبرانيّة في أغراض دينيّة

---

١ جمع عقار بالفتح وهو ما لا ينتقل من المال كالدار والبستان ٢ مدرسة تدرس فيها العلوم على مذهب اليهود ٣ كل ماهالك والهولة ما يفزع بهِ الولد

وفلسفيّة لها عند اليهود قيمة جليلة وخطورة كبيرة ويعدّون صاحبها إمام فلاسفتهم وأفلاطون نحلتهم وله ايضاً تآليف عربيّة منها « دلالة الحائرين » في الفلسفة والدين .

إبنُ ٱلْبَيْطار (١٢٤٨م ٦٤٦هـ)

هو ضياء الدين أبو محمّد عبد الله بن أحمد بن البيطار النباتيّ الشهير. وُلد بمالَقة وأولع منذ صباهُ بعلم النبات فتخلّى لطلبهِ واستنزف[1] أيامهُ في معاناتهِ حتى أصبح علاّمة وقتهِ وقريع وحدهِ في معرفة النبات وتحقيقهِ واختبارهِ ونعت أسمائهِ على اختلافها وتنوّعها وتعيين منابتهِ . ورحل لاتقان الفنّ والبلوغ منهُ أبعد الغايات الى بلاد الأغارقة ودرس اللغة اليونانيّة فحذقها واطّلع على ما فيها من كتب النبات للأقدمين كديُسقوريدس العين زَربيّ وجالينوس وأدى بهِ الترحال الى أقصى بلاد الروم ولقي جماعةً يعانون هذا الفنّ وأخذ عنهم معرفة نباتات كثيرة وعاين مواضعها وتحقّق ماهيّتها وهكذا كان دأبهُ في سائر الأقاليم التي جابها كالمغرب ومصر والشام .

ولمّا قدم ابن البيطار الى دمشق اجتمع بالطبيب المؤرّخ ابن أبي أُصيبعة ورسخت بينهما قواعد المودّة ومما جاءَ في « طبقات الأطبّاء» عن ابن البيطار « ورأيت من حسن عشرتهِ وكمال مروءتهِ وطيب أعراقهِ وجودة أخلاقهِ وكرم نفسهِ ما يفوق الوصف ويتعجّب منهُ ... » وخدم بدمشق الملك الكامل وكان يعتمد عليهِ في الأدوية المفردة والحشائش وتوجّه بعد وفاة مخدومهِ الى القاهرة فخدم الملك الصالح وكان حظيّا

---

[1] استفرغ

عندهُ وجعلهُ رئيساً على العشابين وأصحاب البسطات [1] في الديار المصريّة. ثم عاد الى دمشق وسكنها الى وفاته .

ولابن البيطار تآليف في الفنّ الذي انصرف اليه وبذَّ [2] فيه أهل عصره قاطبةً منها كتاب « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » وهو المعروف بمفردات ابن البيطار حشر فيه ما قدر عليه من تصانيف الأدوية المفردة ككتاب الغافقيّ وكتاب الزهراويّ وكتاب الشريف الادريسيّ الصقلّيّ وغيرها وضبطها على حروف المعجم واستقصى ذكر الأدوية المفردة وأسمائها وتحريرها وقواها ومنافعها وبيّن الصحيح منها وما وقع الاشتباه فيه بحيث كان هذا المؤلّف النفيس من أجلّ وأجود ما صُنّف في هذا الشأن. ولهُ أيضاً في المعنى نفسه كتاب « المُغني » وهو مرتّب بحسب مداواة الأعضاء الألِمة .

وهناك عصابةٌ جليلة من أرباب الاجتهاد وأصحاب النظر يطول استقراؤها عانوا كلّ نوع من العلوم والفنون والصنائع واستقصوا البحث عمّا يعرض للعاقل المتبصّر في هذا الكون العجيب وحاولوا الكشف عن مخبّآت الطبيعة واستشفاف [3] أسرارها من وراء السجف [4] التي ضربتها دون عامّة البشر وطمعوا في الاستيلاء على قواها لمنفعة بني الانسان ممّا كان ولو على غاية البعد مقدمة لهذه النتائج التي نعاينها اليوم مبهوتين ولا يكاد المرء يصدّق فيها حسّ نفسه. ونذكر ههنا على سبيل المثال والفكاهة شيئاً ممّا جاء في نفح الطيب في غرض الكلام عن مزايا

---

١ البسطة لوح يبسط عليه البقال بضاعتهُ ٢ غلب ٣ استشفّ الشيء تبيّنهُ واستقصاهُ ٤ جمع سجاف بالكسر وهو الستر

أهل الأندلس قال « ومن حكاياتهم في الذكاء واستخراج العلوم واستنباطها أنّ أبا القاسم عبّاس بن فرناس حكيم الأندلس أوّل من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأوّل من فكّ بها كتاب العروض للخليل وأوّل من فكّ الموسيقى وصنع الآلة المعروفة بالمنقال ليعرف الأوقات على غير رسمٍ ومثال. واحتال في تطيير جثمانه وكسا نفسهُ الريش ومدّ لهُ جناحين وطار في الجوّ مسافة بعيدة ولكنهُ لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأذى في مؤخّرهِ ولم يدرِ ان الطائر انما يقع على زمِكّه [1] وفيهِ قال مؤمن بن سعيد الشاعر من أبيات :

يطمّ على العنقاءِ في طَيَرانها   اذا ما كسا جثمانهُ ريشَ قشعمِ [2]

وصنع في بيتهِ هيئة السماء وخيّل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود ..... » ويلي هذا الكلام تعدادُ أفرادٍ أماثل نبغوا في العلوم على تنوّعها بحيث لم يكن قطّ علمٌ أو فنٌّ في المشرق الاّ تناولهُ اهل المغرب واشتغلوا بهِ فألّفوا فيهِ وبرّزوا .

ونحبس عند هذا الحد عنان القلم في الكلام على زعماء الفضل وأرباب العرفان بالأندلس ولو أردنا أن نفيض في ذكر الأعلام الأفاضل الذين رفعوا هنالك منار الآداب والعلوم فأوضحوا معالمها الدارسة [3] وبدّدوا ظلمات الجهل الدامسة لا نفسح أمامنا مجالٌ واسع الأطراف لا تقع العين منهُ على نهاية واقتضى ذلك مجلّداً مشبع الفصول ليس من

---

١ زمك الطائر وزمكاه بكسرتين فشدة منبت ذنبه ٢ يطم يعلو والعنقاء وعنقاء مغرب طائر وهميّ عظيم الجسم طويل العنق يبعد في طيرانه والجثمان الجسم والقشعم النسر المسنّ ٣ المعالم جمع معلم بفتح الاول والثالث وهو ما نستدل بهِ على الطريق من اثر ونحوه والدارسة الفانية الممحوة

غرضنا وضعهُ وفيما أوردنا في هذا المختصر كفاية . والأقرب الى ظنّنا أنّ المطالع اللبيب وقف من هذه اللمعة على منزلة أولئك القوم الذين جعلوا بلادهم كعبة العلوم والفنون فأشرقت منها بدورهم الساطعة وضُربت اليهم أكباد الابل [١] من الأقاليم الشاسعة وامتدّت أنوارهم الزاهرة من ثمّ الى سائر القارّة [٢] الأوربيّة فأقبل أهلها يستصبحون بنبراس [٣] المعارف عند ثقات علماء العرب وإثباتهم حتى اكتحلت أبصارهم بضياء العلم واستيقظوا من عميق سباتهم [٤] .

اللغة

في

طَورِ ٱلإنحِطاط

سقطت بغداد أمُّ المدائن العربيّة ودُمّرت [٥] تدميرا وثُلّ [٦] عرش الخلافة العبّاسيّة وسيق الخليفةُ للذبح مقهوراً اسيرا ودُكّت [٧] اركان القصور الشامخات فتقوّضت [٨] على أصحابها وكانت لهم صُوًى [٩] وقبورا ومدّت أيدي الهمجيّة الى صروح [١٠] العلم مشاعلَ الجهل فغدت هباءً منثورا وطُرحت نفائس المصنّفات في دجلة فكانت للرجّالة والفرسان معابر

---

١ كناية عن قصد الناس لهم ٢ احد اقسام الارض الخمسة ٣ مصباح ٤ نومهم ٥ خربت ٦ هدم ٧ دك الحائط هدمهُ حتى سواهُ بالأرض ٨ تهدمت ٩ جمع صوة وهي ما يركم فوق القبر من الحجارة ١٠ جمع صرح اي قصر

وجسوروا وأقوت[١] مغاني العلم وانتثر عقد العلماء فصارت قاعاً صفصفاً وصاروا قوماً بورا[٢] وقامت نوادب الآداب فوق تلك الطلول تنادي ويلاً وثبورا[٣] وتبكي على سقوط أمّة العزّ والعلم سقطةً لا لعا[٤] لها أجيالاً ودهورا.

سقطت بغداد فوهت دعائم العرفان وتداعت[٥] صروح الآداب وانقضّت شُهُب العلوم من أفلاكها فخيّم الظلام شيئاً فشيئاً على الآفاق العربيّة ودبّت عوامل الهرم في اللغة ودخلت في طور الانحطاط ولم يغنِ في تلافي أمرها قيام عصابةٍ من جلّة العلماء رفعوا فوق الرؤوس منارها وردّدوا فيما بينهم شعارها[٦] فإنْ هم الا آحادٌ تقسّمتهم الأعصر فلم يسعهم إنعاش اللغة من عثرتها[٧] الهائلة وما كان ظهورهم في سماء البلاد العربيّة الا برقاً تألّق[٨] مدّةً فسرى الأقوام في نورهم برهة ثم ما عتّموا أن لحقوا بالأوّلين وعاد أبناء جلدتهم يتسكّعون[٩] في دياجير ليلِ أليَل.

نعم قضي الأمر وانقضى عصر الوضع والاستنباط والتعريب والتأليف وتلاهُ دهرٌ ونت فيهِ الهمم وتخاذلت[١٠] العزائم واقتصر الناطقون بالضاد[١١] على الجمع والتلخيص والتعليق على بقيّة الذخائر النفيسة التي لم يعبث بها الدهر ووقفوا من كلّ ذلك عند الحدّ الذي بلغهُ أجدادهم وقد فات ذرعَهم أن يتمّوا الشوط[١٢] النشيط الذي شرع فيهِ سلفاؤهم وخطوا فيهِ خطوات فسيحةً كبت دونها جياد من سواهم من أُمم ذلك الزمان. ومع ذلك فإنّ

---

١ اقوى اقفر والمغاني جمع مغنى بالفتح وهو المنزل ٢ القاع الصفصف المستوي وقوم بور هالكون ٣ هلاكاً ٤ كلمة تقال للساقط دعاء لهُ بالانتعاش ٥ وهي ضعف وتداعى البناء همّ بالسقوط ٦ نداء خاص يتعارف بهِ القوم في الحرب ٧ سقطتها ٨ لمع ٩ يسيرون على غير هدى ١٠ تخاذل القوم تركوا نصرة بعضهم بعضاً ١١ هم العرب لان حرف الضاد لا يوجد الا في لغتهم ١٢ شوط الفرس الطلق من جريهِ

ما اتّصل الينا من أعمال هؤلاء المتأخّرين يشهد لهم بالثبات ومضاء الصريمة [1] ومغالبة الأيام لو كانت الايّام تُغالَب. وقد اعذروا [2] وايم الحقّ فيما اتوهُ مع خيانة الدهر وانحلال الأزر.

امّا الشعر فقد انحطّ شأنهُ وهبط الى دركة الابتذال وعري من كلّ تفنّن ورونق وطلاوة ولم يكن من ديدن [3] الناظمين سوى التقليد الأعمى فأخذوا أنفسهم بتحدّي [4] امرئ القيس وجرير والمتنبّي وأمثالهم وشتّان ما بين شؤون الفريقين في الأخلاق والأغراض والمادّيّات والمعنويّات. فضربوا في عرض الصحراء والتقوا بالأحبّة على العقيق وزاروا الحيَّ خلسةً وبكوا الطلول وتشبّبوا بلابسات الخلاخيل وظعنت قلوبهم مع الأظعان الى آخر ما هنالك من المعاني التي آخذنا على شعراء الدولتين [5] أنفسهم الاستمرار عليها. وهم عند أنشادهم لتلك القصائد جاثمون في عُقرِ [6] دورهم متقلّبون على فُرُش الراحة والخمول. واذا تحمّسوا واعتقلوا الرماح وتقلّدوا السيوف فمن وراء جدرانٍ موثّقة وأبوابٍ موصَدة [7] خوفاً من طارقٍ مفاجئٍ. فجاء شعرهم خدعة صيدلانيٍّ أشفت [8] تجارتهُ على البوار فكتب على قواريرهِ ما ليس فيها ... واذا عمد الباحث الى استكشاف أخلاقهم واستطلاع طلع أحوالهم من خلال كلامهم خانهُ نظرهُ وعاد بخفّي حُنَين وقد احبطت فلسفته في قومٍ ألِفوا التنكّر والتلبّس فليس الى الوقوف على كُنْهِ أمورهم من سبيل.

وأمّا اللغة فمع تقلّص [9] ظلّها وزُهد القوم فيها لم تعدم من أفرادٍ أفاضل تبحّروا فيها وملكوا أزمّتها فضبطوا شواردها وجمعوا شتاتها في

---

١ العزيمة ٢ اتوا بما يعذرون عليهِ ٣ عادة وشأن ٤ مباراة ومسابقة ٥ الاموية والعباسية ٦ جثم بالمكان لصق بهِ وعقر الدار احسن موضع منها ٧ موثقة ممكنة وموصدة مقفلة ٨ اشرفت ٩ انسحاب

مؤلّفات ضافية الأذيال مشبعة الفصول مستوعبة لأوابد[١] الكلم وفرائد[٢] الفوائد. ولا يخفى على من لهُ إلمامٌ بالآداب العربيّة انّ أوسع كتب اللغة وأسيرها ذكراً وأكثرها تداولاً عند الأدباء إنما وُضعت في ذلك العهد كلسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروزاباديّ وكفى بهذين المصنّفين فخراً لزمنٍ أناخ الدهر فيهِ على العرب بكلكلهِ والقى جرانهُ[٣]

وللتاريخ أيضاً من تلك المدّة ذكرٌ حسن. ولعلّ انقضاء دولة القوم وسكون جعجعتهم[٤] وإخلادهم الى السكينة على اثر أفول نجمهم وإخناء[٥] الدهر عليهم ممّا يدعو الى الاعتبار والنظر في الأسباب والمسبّبات نظراً صافياً مجرَّداً من كدورة الأهواء والاغراض والعصبيّات. فيتسنّى للمرء أن يسير في طيّات القرون الغابرة على هُدى وبصيرة وهو تامّ العدّة متقن الأداة لاحكام هذا الفنّ. فلا بِدع ان نبغ في ذلك العهد ابن خلدون الحضرميّ فيلسوف مؤرّخي العرب.

بيد أنهُ مهما كان من علم هؤلاء الأفراد الأماثل وبُعد غَوْرهم فيما تعاطوهُ من فروع الآداب لم يكونوا ليستوقفوا تهافت اللغة ويقُوها من الضياع والاضمحلال الذي دبّت آفاتهُ في جسمها بسقوط الدولة العربيّة وقيام الممالك الأعجميّة على أنقاضها[٦] — وهل اقبال علماء فضلاء في زماننا على درس اللغات الدائرة[٧] كالأشّوريّة والفينيقية والهيرغليفيّة وإتقان بعضهم اياها الى حدّ التأليف فيها يعيد الى تلك اللغات سالف مجدهنّ وغابر[٨] رونقهنّ. هيهات أن يكون ذلك فانّ هذه الألسنة مهما بلغت من الرقيّ

---

١ شوارد ٢ جمع فريدة وهي الدرة الكبيرة في العقد استعيرت للفائدة البليغة ٣ الكلكل من البعير صدرهُ والجران مقدم عنق البعير واناخ بفلان البلاء حلّ عليهِ والعبارتان كناية عن اتيان الدهر وحلولهِ بمصائبهِ ٤ ضجتهم ٥ اتيان ٦ جمع نقض بفتحتين وهو ما نقض اي ضرب من الابنية ٧ الهالكة ٨ سابق

والكمال دُفنت الى الأبد مع الأقوام الذين تكلّموا بها وقد أصبحت نظيرهم اثراً بعد عين لا يُلتفت اليها الاّ على سبيل العبرة والبحث والفكاهة.

هذا شأن لغات الأرض جميعاً ولم يشذّ عن هذا الناموس القاضي بموت اللغة مع اهلها الاّ اللغة العربيّة وحدها. فقد دالت دولة العرب منذ أعصارٍ متقادمة وعبث الدهر بهذه الأمّة فأكل على ظهرها وشرب ولم تزل لغتهم حيّة تهزأ بصروف الأيام وتجدّد صباءها من أعمار نعاتها الأغرار.[١] وقد كثر ما أنذر المنذرون وتنبّأ المتنبئون منذ مئة عام مضت انّ عمر اللغة العربيّة أمسى ايّاماً معدودات وما هو الا صباح يومٍ ومساؤهُ فيُقضى الأمر وتكبو بها الجدود العواثر[٢] فتُلحد في بطون الدفاتر وتلحق بأخواتها الدواثر وتعود نسياً منسياً. وبينا هم يُعدّون لها المراثي ويسجّلون في كتبهم وفاتها اذ نفضت عنها غبار المشيب وبدّلت الأكفانَ بـبُردٍ قشيب ماست[٣] بهِ أعطافها زهواً وخُيلاء[٤] ولسان حالها ينشد قول نبيّ الشعراء.

كم قد قُتلتُ وكم قد متُّ عندكُمُ ثم انتفضتُ فزال القبر والكفَنُ

وسترى مصداق ذلك في الفصل الآتي ان شاء الله. وها نحن نشرع في ذكر مشاهير تلك المدّة المديدة مجتزئين من تراجمتهم على ما تقتضيه الحال.

---

١ النعاة جمع ناعٍ وهو المخبر بموت احد الناس والأغرار جمع غِر بالكسر وهو الجاهل. ٢ السواقط ٣ القشيب الجديد وماست تمايلت وتبخترت ٤ اعجاباً وكبراً

أَلشُّعَرَاء

إِبن زُبَيْلَاق (١٢٦٢ م ٦٦١ هـ)

هو يوسف ابن زَبلاق الموصلي. كان شاعراً فصيحاً حافل القريحة رقيق النظم مولعاً بوصف الرياض ومجالس الأنس تباري عذوبة ألفاظهِ وسلاسة معانيهِ مناغاة الأطيار فوق أغصان الأشجار في الحدائق والمتنزَّهات التي قصر عليها معظم أوصافهِ. فمن ذلك قوله موشّحاً.

يا نديميَّ بالرُّضابِ قفا   فهي لي مذهبُ [١]
وأديراها خمرةً قَرْقَفا   لونها مُذهبُ [٢]

حُجبت بالبهاءِ والحُسنِ عن عيونِ البشرْ
وبَدَت في الخفاءِ كالوَهمِ تُجتنى بالفِكَرْ

لا تخالف يا مُنيتي أمري   وارعَني بالرحيقْ [٣]
ما ترى صحبتي من السكرِ   ليسَ منهم مُفيقْ
نحن قومٌ من شيعة الخمرِ   ونُحبُّ العتيق

---

١ الرضاب العسل استعارهُ للخمرة ٢ القرقف اسم للخمر ومذهب مطلي بالذهب
٣ الرحيق اطيب الخمر

قد نفضنا بهِ عنا الحزنِ بسماعِ الوترِ
وحمانا من واصبِ[1] الهمّ وعدُك المنتظَرْ

حُثَّ شمسَ الكؤوس يابدرُ فالنُدامى نجومْ
وٱسقنيها كأنّها تبرُ من دِنانِ الرومْ
ضحكت في ثغورها الزُهرُ ببكاءِ الغيومْ[2]
وتغنّت بأطيبِ اللحن صادحات[3] الشجرِ
ناطقاتٍ بألسنٍ عُجم طابَ شربُ السَحَرْ.....

ومن شعرهِ قولهُ :

قم لا عدمتُك فالرياحُ تغربلُ والرعدُ يطحن والغمائم تنخلُ
والمسكُ قد عجن الثرى بسحيقهِ والعود يُحرق والحميّا تُشعِلُ[4]
والدنُّ تنّورٌ توقّد جمرهُ الـصهباءُ باطنهُ وفار المنزلُ[5]
واللون تبرٌ والحقيقة جوهرٌ والريح مسك والمذاقة فوفلُ[6]
والبردُ قد ولّى فمالك راقداً متدثّراً يا ايُّها المزّمّلُ[7]
أو ما ترى فصل الربيع وحسنهُ والروض يضحك والحيا[8] يتهلّلُ
والغيم كالكافور ينثر لؤلؤاً والجوّ مسكٌ والغدير مصندَلُ[9]
أبدت بدائعَ زهرها لك جنّةٌ قد زُخرفت فنعيمها متعجّلُ

---

١ متعب ٢ الزهر جمع ازهر وهو الابيض المشوب بحمرة اراد بها الفقاقيع التي تعلو الخمر اذا مزجت وبكاء الغيوم الماء ٣ صدح الطائر غرد ٤ السحيق المسحوق والعود نوع من الخشب يتبخر بهِ والحميا سورة الخمر اراد بها الخمرة نفسها ٥ الصهباء الخمرة لصهبة لونها وهي مبتدا وباطنهُ خبرهُ وفار المسك انتشرت رائحتهُ اسند الى المنزل مجازاً ٦ التبر الذهب والفوفل ضرب من النخل الهندي له ثمر في كبائس (اقناء) كهيئة البلح ويعرف طلعهُ بجوز الفوفل ٧ تدثر بالدثار اشتمل بهِ والدثار ما يتغطى بهِ النائم وتزمل وازمل بثوبهِ التف بهِ وفي البيت اقتباس ظاهر ٨ المطر ٩ مطيب بعطر الصندل وهو شجر هندي طيب الرائحة يشبه الجوز

نسجت يد الابداع وشيَ رقومها فلأجل ذاك النسج عيني تغزل [١]
فمصفّرٌ ومبيّضٌ ومطوّسٌ ومريّشٌ ومرقّشٌ ومكلّل [٢]
ومُدَبَّجٌ ومكتّبٌ ومذهّبٌ ومفضّضٌ باللازَوَرْد مكحّل [٣]
جلّ المكوّنُ أعيناً ما زانها كحلٌ ومبدع صبغة لا تنصل [٤]
فاذا اجتليتَ فكلّ شبرٍ نزهةٌ واذا ظمئت فكلّ باعٍ منهل [٥]
وهزارُها شحرورُها ورَشانُها سُمّانُها دُرّاجُها والبلبل [٦]
هذا يحادث ذا بأحسن منطقٍ واذا شدا [٧] الثاني أعاد الأوّلُ
ويضمّ مأتمها الفواختَ سحرةً فكأنهنّ مفجعاتٌ ثُكّل [٨]
وعلى الغدير شباك تبرٍ حاكها شمسُ الضحى وسنا دروعٍ تُصقل [٩]

وكلّ ما يؤثر له من هذا الطراز الأنيق. الاّ ان إقبالهُ على الخمرة حطّ من مزيّة شعره فتخطّى في غزله حدود الأدب .

وكان ابن زيلاق يرشف كؤوس الرغد وأكواب الصهباء [١٠] ويهصر أغصان الهناء في متنزّهات الحدباء [١١] واذا بجيوش المغول دهمت المدينة وبذلت في أهلها السيف فقُتل الشاعر فيمن قُتل .

---

١ الوشي النقش وتغزل من غزل الرجل بفلانة اذا حادثها وفي البيت ايهام مراعاة النظير بين نسج وغزل ٢ المطوس المزين والمرقش المزخرف ٣ المدبج المنقش والمكتب المخطط اللازورد معدن شفاف ازرق ٤ لا يحول لونها ٥ اجتليت نظرت والمنهل موضع الشرب على الطريق ٦ الهزار والشحرور والبلبل طيور حسنة الصوت والورشان والسمان والدراج طيور طيبة اللحم ٧ تغنى ٨ الفواخت جمع فاختة وهي الحمامة المطوقة ومفجعات موجعات بفقد عزيز وثكل جمع ثاكل وهي الفاقدة ولدها ٩ صقل الدرع جلاها ١٠ يرشف يشرب والاكواب جمع كوب وهو قدح لا عروة لهُ والصهباء الخمرة ١١ يهصر يكسر والحدباء لقب الموصل

إِبنُ ٱلثُّرْدَة (١٣٤٩ م ٧٥٠ هـ)

هو عليّ بن ابرهيم المعروف بابن الثردة. نشأ وتفقّه ببغداد وكان واعظاً بواسط وقدم دمشق مرّاتٍ ووعظ بها بالجامع الأمويّ ثمّ غلبت عليهِ السوداء فأضرّت بهِ وتغـيّرت حالهُ وخولط في عقلهِ. وكان يدّعي أنّ لهُ ببغداد خزانة كتب تحوي نحو ألفي مجلّد وأن جماعة من التجار الذين قدموا دمشق اغتصبوها وباعوها. واذا شفق عليهِ أحدٌ ودفع اليهِ شيئاً من الدراهم أو غيرها لا يقبل منهُ ويقول « من أنت. أظنّ أنّ عندك شيئاً من كتبي فأنت تبرطلني على ذلك ».

وكان يتخذ كارة[1] يحملها تحت إبطهِ لا يفارقها ليلاً ولا نهاراً أينما ذهب وكلّما وجد خيطاً أو حبلاً شدّهـا بهِ فلا تزال في نموّ وازدياد وهو حاملها وكان يقول « لو دُفع لي مُلك مصر فيها ما بعتهـا. ولو خـيّرت بين دخول الجنة بلا كارتي أو دخول النار وكارتي معي لاخترت دخول النار على دخول الجنّة » ولمّا مات فُتحت تلك الكارة الثمينة فما وُجد فيها سوى جزئين بخطّهِ وكراريس وعظيّات وشعر تغزّل ... وكان ينظم الشعر الجيّد مع سوء حالهِ واستحكام خباله. ولهُ قصائد وموشحات ومواليا فمن موشحاتهِ قولهُ :

يـا ايّها النائم كم هذا الرقادْ انتبـه كم نومْ
انتبه من ذا الكرى ياذا الجمادْ تلتحق بالقـومْ
وتأهـّب لغد يوم المعـادْ يا لهُ من يومْ

---

[1] صرة ثياب

وافعل الخير لتحظى بالنجاحْ لا تكن كسلانْ
واجتهد فالمجتهدْ يلقى الفلاحْ ويرى الاحسانْ
قد تقضى العمر دع لهو الصبا ايّها الغافلْ
لا تكن ممّن الى الجهل صبا تعسَ الجاهل
كلُّ شيءٍ تهب الدنيا هبا[١] ليس بالطائلْ
كم حريصٍ خلّف الدنيا وراحْ لابسَ الأكفانْ
واخو الفقر تُوُفّي فاستراحْ قلبهُ التعبان

صَفِيُّ ٱلدِّينِ ٱلحِلِّيّ (١٣٤٩ م ٧٥٠ ه)

هو صفيّ الدين ابو البركات عبد العزيز بن سرايا الحلّيّ. وُلد ونشأ بالحِلّة ايّام كان العراق معترَك جيوش جرّارة تضيق بها السهول وتميد لها الجبال ومشتبَك وقائع هائلة تُراع منها الأبطال وتشيب رؤوس الأطفال فاستفحل الشرّ وعظم الشقاء وفُقد الأمن وعمّ البلاء. فهجر الشاعر مسقط رأسهِ وأمّ[٢] ملوك آل أرتق الأكراد أصحاب ماردين بالجزيرة فحط في فنائهم رحالهُ وعلّق بهم آمالهُ فأحسنوا وفادته وأجزلوا صلته وأمّنوه من المخاوف والعدوان وصانوا وجههُ عن بني الزمان فرتع في بحبوحة عيش هنيّ تصافحهُ السعود وتخدمهُ الأمانيّ ووقف على مدائح أرباب نعمتهِ شعرهُ وبراعتهُ واستحثَ قريحتهُ الفيّاضة في تعداد مآثرهم وإذاعة مكارمهم ولهُ فيهم القصائد الطنّانة المعروفة «بالأرتقيّات» هي عيون فرائدهِ وأواسط قلائدهِ. منها في مدح السلطان نجم الدين

---

١ مقصور هباء وهو الغبار ٢ قصد

ابي الفتح تسعٌ وعشرون قصيدة كلٌّ منها تسعةٌ وعشرون بيتاً على حرف من حروف المعجم يُبدأ بهِ البيت ويُختم بهِ من الهمزة الى الياء ووسم هذا المجموع « بدُرَر النحور في مدائح الملك المنصور » وهاك انموذجاً منها من القصيدة الميميّة :

مغانم صفو العيش أسنى المغانم هي الظلُّ الا انهُ غير دائمِ
ملكت زمام العيش فيها وطالما رُفعت بها لولا وقوع الجوازمِ [1]
مكثت بها دهراً وعيني قريرةٌ بها ورواق العزّ عالي الدعائمِ [2]
مواضي سرور لا انتقاع يذكرها اذا لم أُعدها بارتكاب العظائمِ

ثم يتخلّص في كلّ منها الى مدح الملك على قدر ما تسعهُ الدائرة التي حصر فيها نفسهُ . وكان صفيّ الدين شديد الولوع بالصناعة اللفظيّة الى حدّ الاغراب وهو منهاج أعوج استُدرج اليهِ جمهورٌ غفيرٌ من نظّامي الشعر فصرفوا عنايتهم الى تنميق الالفاظ وتزويقها وأستكرهوا قرائحهم في السعي وراء الجناسات وتطبيقها وتنسيقها ووهت قواهم دون الاحاطة بكلّيات المعنى والاستنباط فتشاغلوا بالجزئيّات يتأنقون بها دون علاقة ولا ارتباط فأصبح الشعر صورة جامدة لا يجري فيها ماء الحياة الى أن أمسى شيئاً ما لهُ من اسم لا يُعرف وجههُ من قفاه .

وورد صفيّ الدين مصر ومثُل في حضرة الملك الناصر فمدحهُ ونال منهُ الهبات الجسيمة ثم عاد الى ماردين وحنّت نفسهُ الى العراق فانتقل الى بغداد وهناك وافتهُ المنيّة .

---

١ اراد بوقوع الجوازم انقلاب العيش من السرور الى الحزن كما تقلب لم معنى المضارع الى الماضي ٢ الرواق شبه خيمة تشرع في مقدم البيت

ومن شعرهِ قولهُ يحرّض الملك الصالح على الاحتراز من المغول ومنافرتهم عند إقبالهم :

لا يمتطي المجدَ من لم يركب الخطرا ... ولا ينال العلى من قدّم الحذرا [١]

ومن اراد العلى عَفْوًا بلا تعبٍ ... قضى ولم يقضِ من إدراكها وطرا [٢]

لا بدَّ للشهد من نحلٍ يمنّعهُ ... لا يجتني النفعَ من لم يحمل الضررا

من فاتهُ العزّ بالأقلام ادركهُ ... بالبيض يقدح من أطرافها الشررا [٣]

لا يحسُن الحلمُ الا في موطنهِ ... ولا يليق الوفا الا لمن شكرا [٤]

ولا يُنال العلى الا فتى شَرُفت ... خلالهُ فأطاع الدهرُ ما أمرا [٥]

كالصالح الملك المرهوب سطوتهُ ... فلو توعّد قلبَ الدهر لانفطرا [٦]

يكاد يقرأُ من عنوان همتهِ ... مافي صحائف ظهر الغيب قدسُطرا [٧]

كالبحر والدهر في يومَيّ ندى وردى ... والليث والغيث في يومَيْ وغى وقِرى [٨]

ما جاد الناس الا قبلها سألوا ... ولا عفا قطُّ الا بعد ما قدرا

اذا غدا الغصن غضّا من منابتهِ ... من شاء فليجنِ من أفنانهِ الثمرا

من آل أُرتُقٍ المشهور ذكرهمُ ... اذ كان كالمسك ان اخفيتهُ ظهرا

الحاملين من الخطّيّ اطولهُ ... والناقلين من الاسياف ما قصرا [٩]

لم يرحلوا عن حمى ارضٍ اذا نزلوا ... الاّ وأبقوا بها من جودهم اثرا

تبقى صنائعُهم في الارض بعدهمُ ... والغيث إن سار ابقى بعدهُ الزهرا

---

١ يمتطي يركب واراد بالحذر الفزع ٢ عفواً بلا كلفة وقضى مات والوطر الحاجة ٣ البيض السيوف ٤ الحلم الصفح عند المقدرة ٥ خلالهُ خصالهُ مفردها خلة بالفتح ٦ انشق ٧ اي اذا همّ بأمر آتاهُ الله توفيقاً بحيث اصبح عزمهُ على الشيء دليلاً على قضاء الله بهِ ٨ الندى الكرم والردى الهلاك والوغى القتال والقرى الضيافة وفي كلا الشطرين طيّ ونشر ٩ الخطي الرمح . وصف الرمح بالطول والسيف بالقصر اشارة الى استكمال الات الحرب

يا ايها الملك الباني لدولتـــــهِ ذكراً طوى ذكر اهل الارض وانتشرا
كانت عداك لها دستٌ فقد صدعت حصاة جدّك ذاك الدست فانكسرا [١]
فأوقع اذا غدروا سوط العذاب بهم يظل يخشاك صرف الدهر إن غدرا
وارعب قلوب العدى تنصر بخذلهمِ [٢] ان النبيّ بفضل الرعبِ قد نُصرا
ولا تكدّر بهم نفســاً مطهّرةً فالبحر من يومهِ لا يعرف الكدرا
ظنّوا تأنّيك عن عجزٍ وما علموا انّ التأنّي فيهم يعقب الظفرا [٣]
احسنتَ فبغَوا جهلاً وما اعترفوا لكم ومن كفر النعمى فقد كفرا [٤]

ومن هذه الابيات ترى ديباجة شعر صفيّ الدين ولا شكّ انهُ كان نابغة شعراء عصرهِ قويّ العارضة جزل العبارة رشيق النظم فنّان التفنّن وقد أجاد في القصائد المطوّلة والمقطعات والموشحات والأزجال ولهُ في كل نوع بدائع مأثورة زانها بالالفاظ المصقولة والمعاني المعسولة ووشاها بالاستعارات الشريفة والكنايات اللطيفة والنكات الظريفة فجاءت اشهى من الماء الزلال واحلى من السحر الحلال لا يؤخذ على صاحبهـــا سوى تعمّد الصنعة كما مرّت الاشارة الى ذلك آنفاً ولعلّ صفيّ الدين اشعر شعراء العرب في طور الانحطاط ولهُ بديعيّة سيأتي ذكرها .

---

١ الدست الغلبة في لعبة الشطرنج اراد بهِ مطلق الغلبة واراد بالحصاة معنييها القريب وهو واحدة الحصى والبعيد وهو العقل والراي وحسن التدبير والجدّ بالكسر الاجتهاد والاحتياط وصدعهُ كسرهُ يقول كانت الغلبة لعداك على خصومهم فلما دميتهم بحسن تدبيرك وكمال رايك انقلبت غلبتهم انكساراً ٢ بفشلهم ٣ التأني الترفق واعقب التأني الظفر سببهُ فكان الظفر عاقبتهُ ٤ بغى مال عن الحقّ وكفر النعمى لم يشكر عليها صاحبها والنعمى بمعنى النعمة وكفر الثانية بمعنى لم يؤمن يقول قابلوا نعمك بالنكران ومن كفر المعروف كمن كفر بالدين فهو مستوجب القتل

إبنُ نُبَاتَةَ ٱلفَارِقِيّ (١٣٦٧ م ٧٦٨ هـ)

هو جمال الدين ابو بكر محمد بن محمد الفارقيّ. وُلد بميافارقين ونشأ وتخرّج بمصر ونبغ في الشعر ولهُ القصائد البديعة الجامعة بين الرقة والجزالة وديوانهُ كلهُ قلائد كريمة وفرائد يتيمة تشهد بما كان لهُ من الشهرة العالية والمكانة السامية عند أرباب العلم وزعماء الأدب. وتنقّل في عدة مدن بمصر والشام وورد على الملك المؤيد صاحب حماة فلقي منهُ إكراماً زائداً واحتفاءً جميلاً أنطقهُ بالمدائح الغرّاء دوّن فيها شكرانهُ ونوّه بذكر من أسبغ عليهِ أحسانه[1] وتعرف هذه القصائد «بالمدائح المؤيّديَّة».

وتقدّم اليهِ السلطان حسن ان يفد عليهِ الى مصر ويتولّى كتابة سرّهِ فلبّى ابن نباتة مقترحَهُ وغادر[2] حماة ودخل القاهرة وما كادت تمضي عليهِ في الخدمة سنةٌ واحدة حتى عاجلت المنون مخدومهُ وظلّ الكاتب يعاني ضيق العيش ونكد الحياة من تأخر الجراية[3] التى رُتّبت لهُ وانقطاعها عنهُ في بعض الأحيان بتاتاً فكانت لهُ تلك الشدّة غصّة لا تساغ[4] عكّرت صفاء عمرهِ وزادت شيخوختهُ مضضاً وكُربة[5] وساقتهُ مرغوماً مغموماً الى المارستان حيث قضى نحبه.

ولابن نباتة شعرٌ نبيه المعاني بديع التفنّن تطّرد فيه مياه الرقة والأناقة. ومن لطيف تلاعبهِ بالنظم قصيدة بعث بها الى صلاح الدين الصفديّ وكان قد أرسل اليهِ قصيدة يعاتبهُ بها وجعل أبياتها شطراً منهُ وشطراً من معلّقة امرئ القيس فطبع ابن نباتة على غرارهِ وقال مجيباً لهُ:

---

١ اتمه ٢ ترك ٣ ما يجري من الرزق على الرجل ٤ اساغ غصتهُ ازال ضيقتهُ وفرج عنهُ ٥ الماً وحرقة

فطمتَ ولائي ثم أقبلت عاتباً   أفاطمَ مهلاً بعد هذا التدلُّلِ [١]
بروحيَ ألفاظٌ تعرّض عتبها   تعرُّضَ أثناء الوشاح المفصّلِ [٢]
فأحيينَ ودًّا كان كالرسم عافياً   بسِقط اللوى بين الدخول فحَومَلِ [٣]
تعفّي رياح العذرِ منك رقومهُ   لما نَسَجتْها من جَنوبٍ وشمأَلِ [٤]
نعم قُوّضت منك المودّةُ وانقضت   فياعجباً من رَحلها المتحمَّلِ [٥]
أمولاي لاتسلك من الظلم والجفا   بنابطن خبتٍ ذي قِفافٍ عَقَنْقَلِ [٦]
ولا تنسَ منّي صحبةً تصدعُ الدجى   بصبحٍ وما الاصباحُ منها بأمثلِ [٧]
فكم خدمةٍ عجّلتها ومحبّةٍ   تمتّعتُ من لهوٍ بها غير معجلِ
وكم أسطرٍ مني ومنك كأنها   عذارى دوارٍ في مُلاءٍ مذيّلِ [٨]
وكم ناصحٍ كذّبتُ دعواهُ اذ غدت   عليّ وآلت حِلفةً تُحلَّلِ [٩]
الى أن تبدّى عذرهُ متمطّياً   وأردف أعجازاً وناءَ بكلكلِ [١٠]
وضنّ بأسطارٍ كأنّ يراعها   أساريع ظبيٍ او مساويكُ إسحلِ [١١]

---

١ فطمت ولائي قطعت اسباب مودتي وقولهُ افاطم لا يجوز فيهِ سوى الضم لان المخاطب مذكر واما في معلقة امرىءً القيس فيجوز الفتح على لغة من ينتظر في الترخيم والضم على لغة من لا ينتظر لأن المخاطب مؤنث اي فاطمة ٢ اثناء الثوب طياتهُ والوشاح شبه قلادة من نسيج عريض يرصع بالجوهر تشدهُ المراة بين عاتقها وكشحيها والعقد المفصل ما خولفت الوان خرزاتهِ ٣ عافيًا ممحوًّا والسقط منقطع الرمل واللوى الرمل الملتوي والدخول وحومل موضعان ٤ تعفي تمحو ونسجت الريح الربع تعاورته ريحان طولاً وعرضاً ٥ قوضت هدمت والرحل ما يستصحبهُ المسافر من الاثاث ٦ الخبت ما اطمأن من الارض والقفاف جمع قف بالضم وهو حجارة غاص بعضها ببعض لا تخالطها سهولة والعقنقل الوادي المتسم وهو بيان لخبت ٧ صدع كسر وامثل اوقف ٨ دوار صنم كان العرب يدورون حولهُ والملاء جمع ملاءة اي ملحفة ومذيل طويل الذيل ٩ آلى حلف ويحتمل ان يكون هنا آل بمعنى رجع اي صارت دعواهُ حلفة محرمة ١٠ تمطى تمدد اردف اتبع واعجاز جمع عجز بفتح فضم وهو المؤخر وناء مقلوب نأى بعد والكلكل الصدر ١١ ضنّ بخل والاساريع دود ابيض الابدان احمر الرؤوس تشبه به الاصابع وظبي علم

ويقرع سمعي من معاريضِ لفظه   مَداكَ عروس او صلاية حنظلِ [١]
وعُدنا لودٍّ يملأ القلب عَودُهُ   بشحمٍ كُهدّابِ الدمَقْسِ المفتّلِ [٢]
أعدتَ صلاح الدين عهــد مودّةٍ   بكلِّ مغار الفتل شُدّت بيذبلِ [٣]

وسترد قصيدة صلاح الدين الصفدي فيما يلي. ولهُ ما عدا ديوانهُ «سَجْع المطوّق» جمع فيهِ عدّة تراجم من رجال عصرهِ للملك المؤيّد صاحب حماة ولهُ «سَرْح العيون» في شرح رسالة ابن زيدون.

عَائِشَةُ ٱلبَاعُونِيَّة (١٥١٦م ٩٢٢هـ)

هي أمّ عبد الوهّاب عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعونيّ الدمشقيّ. كانت شاعرةً فصيحة مطبوعة المقال وقد اشتهرت ببديعيّة أنيقة رشيقة طائرة الذكر عند زعماء الأدب تدلّ على قوّة عارضة ناظمتها وعلوّ طبقتها في الشعر وحسن تصرّفها وتفنّنها في أشكال البديع ووسمت منظومتها «بالفتح المبين في مدح الأمين [٤]» وعلّقت عليها شرحاً لطيفاً حسناً. قالت:

في حسن مطلع أقــارٍ بذي سلمٍ   أصبحت في زمرة العشّاق كالعلمِ [٥]
أقولُ والدمع جارٍ جارحٌ مُقَلي   والجارُ جارٍ بعذلٍ فيهِ متّهمِ [٦]

موضع بعينه والمساويك جمع مسواك وهو عود تنظف بهِ الاسنان والاسحل ضرب من الشجر

١ المعاريض جمع معراض وهو من الكلام فحواهُ ومؤداهُ والمداك حجر يسحق عليهِ الطيب والصلاية حجر يسحق بهِ الطيب وغيره والحنظل نبات لهُ ثمر شديد المرارة ٢ الهداب من الثوب خيوط تبقى في اطرفهِ والدمقس الحرير الابيض ٣ مغار الفتل محكمهُ ويذبل علم جبل في بلاد نجد ٤ لقب محمد ٥ ذو سلم موضع بالحجاز يكثر فيهِ شجر السلم والعلم الجبل ٦ المقل جمع مقلة وهي العين وفي الصدر جناس مذيل بين جار وجارح وفي العجز جناس تام بين الجار وجار

يا للهوى في الهوى رُوحٌ سمحتُ بها ولم أجد رَوْحَ بشرى منهمُ بهم[1]
وفي بكائي لحالٍ حالَ من عدمٍ لفّقتُ صبراً فلم يُجدي لمنع دمي[2]
يا سعدُ ان أبصرت عيناك كاظمةً وجبتَ سلعاً فسل عن أهلها القُدمِ[3]
فثَمَّ أقمارُ تِمٍّ طالعين على طُوَيلعٍ حيّهم وانزل بحيّهم[4]

وهي طويلةٌ ذات مئةٍ وثلاثين بيتاً منسّقة الألفاظ مرصّفة المعاني وسُمت[5] بطابع الرقة والانسجام ولعائشة شعرٌ جيّد غير بديعيتها .

ولمّا كان الشيء بالشيء يُذكر أحببنا أن نورد في هذا المقام نبذة في تاريخ علم البديع ونذكر أشهر البديعيات المتداولة عند أرباب هذا الفنّ ولو ادّى الأمر الى بعض الاستطراد[6]

قد علمتَ ممّا سلف أنّ واضع علم البديع هو عبد الله بن المعتزّ العبّاسي فانهُ جمع منهُ سبعة عشر نوعاً . وعاصره قُدامة بن جعفر الكتاب البغدادي المتوفّى سنة ٩٢٢ مسيحيّة فجمع عشرين نوعاً توارد[7] معهُ على سبعةٍ منها فتكامل لهما ثلاثون نوعاً وسمّى كتابهُ « نقد الشعر في البديع ». ثم جمع أبو هلال حسن بن عبد الله العسكريّ المتوفّى سنة ١٠٠٤ سبعة وثلاثين نوعاً في « كتاب الصناعتين » وجمع أبو عليّ الحسن بن رشيق

---

١ الروح بالفتح الرائحة وفي البيت جناس محرف بين روح بالضم وروح بالفتح ٢ حال انقلب وتحول ولفق الحديث زخرفهُ وفي البيت جناس ملفق بين من عدم ومنع دمي ٣ كاظمة اسم مدينة نبي المسلمين وجاب المكان يجوبهُ قطعهُ وسلع علم مكان بارض الحجاز وفي البيت جناس مركب الفروق بين سلعاً وسل‌عن ٤ ثم بالفتح هنالك وتم بالتثليث التمام وطويلع تصغير طالع وهو الفجر الكاذب وفي البيت جناس مصحف بين ثم وتم وجناس مطلق بين طالعين وطويلع وجناس مركب مقرون بين حيهم وبحيهم ٥ منسقة منظمة ومرصفة محكمة الربط ووسمهُ جعل لهُ سمة اي علامة والطابع ما يطبع بهِ ٦ الانتقال من موضوع الى آخر برابطة ٧ اتفق

القيروانيّ مثلها في كتابهِ « العمدة » في صناعة الشعر. وبلغ بها أحمد بن يوسف التيفاشيّ من أهل القرن الثالث عشر للميلاد السبعين نوعاً. وتصدّى لها ركن الدين أبو محمد عبد العظيم بن ابي الاصبع العدوانيّ المتوفّى سنة ١٢٥٦ فأوصلها الى التسعين وأضاف اليها من مستخرَجاتهِ ثلاثين سُلّم لهُ منها بعشرين وسمّى كتابهُ « تحرير التحبير » في البديع تحرى فيهِ التدقيق وصحة النقد.

وأمّا أوّل من نظم قصيدة سرد فيها أشكال البديع وسُمّيت من ثمّ « بديعية » فهو الشاعر الشهير صفيّ الدين الحلّي ومطلع بديعيتهِ:

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلمِ　　واقرَ السلامَ على عُربٍ بذي سَلَمِ

جمع فيها مئة واربعين نوعاً وجعل كلّ بيتٍ منها مثالاً شاهداً لذلك النوع وذكر اسم النوع البديعيّ الى جانب البيت وسمّى منظومتهُ « الكافية البديعيّة » ولهُ عليها شرحٌ لطيف. وتلاهُ عزّ الدين الموصليّ المتوفّى في حدود سنة ١٣٩٧ ومطلع بديعيتهِ:

براعةٌ تستهلّ[1] الدمعَ في العلم　　عبارةٌ عن نداء المفرد العلمِ

والتزم تسمية النوع في نفس البيت كما ترى للنوع المعروف « ببراعة الاستهلال ». وعقبهُ تقيّ الدين أبو بكر عليّ بن حجّة الحمويّ المتوفّى سنة ١٤٣٣ ومطلع بديعيتهِ:

لي في ابتدا مدحكُم يا عُربَ ذي سَلَم　　براعةٌ تستهلّ الدمع في العلَم

والتزم فيها تسمية النوع وعلّق عليها شرحاً مطوّلاً مفيداً أصبحت بهِ

---

[1] تستهلّ الدمع تجعلهُ يهلّ اي ينسكب وكنى بالمفرد العلم عن النبي

بديعيّته سفراً جليلاً سمّاه « خزانة الأدب » ويُعرف أيضاً « بتقديم أبي بكر » وهو مجموع أدبٍ نفيس بما حوى من الأمثلة المحكمة المقتبسة من أشعار المتقدّمين والمتأخرين. وقَفَتْهُ عائشة الباعونية المارّ ذكرها آنفاً ولم تلتزم تسمية النوع. وتلاها عبد الغنيّ النابلسيّ المتوفّى سنة ١٧٣٠ ونظم بديعيّتين لم يلتزم في أولاهما تسمية النوع والتزمها في الثانية.

ومطلع الأولى:

يا منزلَ الركب بين البانِ فالعلَمِ   من سفح كاظمةٍ حُيّيت بالدِيَمِ [١]

ومطلع الثانية:

يا حسن مطلع من أهوى بذي سلمِ   براعة الشوق في استهلالها ألمي

وسمّى منظومته « نسمات الاسحار » وعلّق عليها شرحاً مسهباً سمّاه « نفحات الأزهار » وتعمّد فيهِ تخطئة ابن حجة وحمل عليهِ حملاتٍ شديدة. وتبعهُ الخوري نيقولاوس الصائغ الآتي ذكرهُ ومطلع بديعيتهِ:

بديعُ حُسنِ امتداحي رُسْلَ ربّهم   براعةٌ في افتتاحي حمْدَ برِّهمِ

والتزم فيها تسمية النوع. وجاء بعدهُ الخوري ارسانيوس الفاخوري الآتي ذكرهُ ومطلع بديعيته [٢]:

براعةُ المدحِ في نجمٍ ضياهُ سَمِي   تهدي بمطلعها مَن عن سناهُ عَمِي

والتزم فيها تسمية النوع. وكلّ هذه البديعيّات من البسيط وعلى قافية الميم كما ترى. واما مواضيعها فالاسلاميّة منها في مدح محمد والصحابة والبديعيتان النصرانيتان في مدح السيد المسيح والرسل الأطهار.

---

١ اراد بالركب ركب الحجاز والبان والعلم موضعان بالحجاز وسفح الجبل أسفلهُ والديم جمع ديمة وهي مطر يدوم في سكون ٢ ولهُ ايضاً بديعيتان اخريان سيأتي الكلام عليهما في ترجمتهِ

أَلشَّبرَاوِيّ (١٦٥٢ م ١٠٦٣ هـ)

هو جمال الدين أبو محمّد عبد الله بن محمّد الشبراويّ. وُلد بالقاهرة بمحلّة يُقال لها شبرا وكان غايةً في الفهم والذكاء وأخذ العلوم عن مشاهير عصرهِ فبرع في قليل من الزمان وتقدّم على الأقران وما زال يترقّي في الأحوال والاطوار حتى صار إمام وقتهِ وعلاّمة ملّتهِ يُرجع الى رأيهِ في المعضلات[1] ويُهتدى بمقالهِ في المشكلات. وتولّى مشيخة الجامع الأزهر فنقل الفتوى من المذهب المالكيّ الى المذهب الشافعيّ ولهُ عند الفقهاء وعلماء الأزهر المكانة العالية والقيمة الغالية وحصل لهُ من رئاستهِ جاهٌ عَريض وحرمة وافرة وخلّف عقارات[2] وأموالاً طائلة. وحسنت آثارهُ في مهمته الرفيعة فكان طلبة العلم في مكانٍ من الأدب والاحترام وصار لأهل العلم في مدتهِ مهابة عظيمةٌ ورفعة مقام.

وللشبراويّ من المؤلّفات «عنوان البيان وبستان الأذهان» ضمنهُ الحكم السديدة الرائعة والنصائح المفيدة الناصعة[3] ودبّجهُ بمنتخابات المنثور والمنظوم.

ولهُ شعرٌ كثير الطلاوة نبيه المعاني عليهِ مسحة من العذوبة والرقة والانسجام ومن شعرهِ قولهُ:

الصمتُ زينٌ والسكوت سلامةٌ   فاذا نطقتَ فلا تكن مكثارا
ما إن ندمتُ على سكوتي مرّةً   ولقد ندمت على الكلام مِرارا

---

١ المسائل المشكلة المستغلقة ٢ جمع عَقار كل ملك ثابت لهُ أصل كالدار والنخيل
٣ البينة الظاهرة

وقال في شرف العلم :

العلم أنفس ذُخرٍ انت ذاخرهُ من يدرس العلم لم تدرس[1] مفاخرهُ
أَقبِل على العلم واستقبل مقاصدهُ فأوّل العلم إقبـــال وآخرهُ

إبنُ مَعتُوق (١٦٧٧م ١٠٨٧هـ)

هو شهاب الدين أبو معتوق محمد بن معتوق الموسوي. كان شاعراً حافل القريحة رقيق النظم منسجم الكلام طويل الباع في المدح وأكثر شعرهِ منهُ لا يكاد يتعدّاهُ الى غرض آخر. واتّصل بالسيّد عليّ خان بن السيّد خلف الموسويّ فحظي عندهُ ونال منهُ نعمة وافرة فانقطع الى مدحهِ ولهُ فيهِ وفي بعض أعضاء عترتهِ[2] قصائد قدَحَ في نظمها زناد الفكرة فأورت[3] ناراً ونوراً وجعل لها ذكر مواليهِ غرضاً رفيعاً وعلماً مشهوراً. وجمع ابنهُ بعد وفاتهِ شتات أشعارهِ ومتفرّق آثاره .

ومن شعرهِ قولهُ يمدح السيّد عليّا ويهنئهُ بعيد الفطر :

ياساكني الجرعاءِ لا أقوى الغضـــا منكم ولا فقـــدت مهاكم توضحُ[4]
رفقاً بمنتزح اليـــكم روحهُ تغدو بهـــا ريح الصبا وتروّحُ[5]

---

١ لم تمحَ ٢ عشيرتهِ ٣ اورى الزند اخرج نارهُ ٤ الجرعاء الرملة الطيبة لا وعوثة فيها واقوى المكان خلا من السكان والغضاء شجر من الاثل صلب الخشب وجمرهُ يبقى زماناً طويلاً واراد بهِ هنا موضع نبتهِ والمهى بقر الوحش استعارها للنساء الحسان وهي مفعول بهِ لفقدت وتوضح علم موضع — واعلم ان الجرعاء والغضا وتوضح اعلام امكنة كثيرة الورود في شعر الاقدمين فجاراهم الشاعر بذكرها ولم يقصد بها مواضع بعينها ٥ المنتزح المبتعد وتغدو تذهب في الغداة وتروح تذهب مساء

خلّفتمُ الوجد المبرّح بعدكم عندي فروحي عنـدكم لا تبرحُ[١]
أشكو الزمانَ الى بنيهِ وانّما فسد الزمان وليس فيهم مصلحُ
ساءت خلائقهم وساءَ فلا أرى شيئاً بهِ الاّ عليّا يمدحُ
الماجد العذب الذي في نفسهِ وبمالهِ يشري الثناءَ ويسمحُ
حرٌّ يريك البشرُ منهُ لدى الندى شيماً كأزهار الرياض تفتّحُ
قرنٌ اذا اجرى جداول قُضبه أذكت على الهامات ناراً تلفحُ[٢]
تهوي الجبال الراسيات وحلمهُ في الصدر لا يهوي ولا يتزحزحُ[٣]
لا مبدياً جزعاً لاعظم فائتٍ منهُ ولا بحصول ذلك يفرحُ[٤]

وقصائدهُ طويلة النفس وكلّها على وتيرة[٥] واحدة لا يتحوّل عنها فيستهلّها بالغزل المسهب ثم يتخلّص الى تعداد مناقب ممدوحهِ ومفاخرهِ من أنسابٍ ذكية عليّة وأحسابٍ سريّة عَلَوية[٦]. ولهُ ما عدا المدائح أربعُ مراثٍ إحداها في الحسين بن عليّ بن أبي طالب وبعض مقطعات ومواليات وخمس نُبذٍ لطيفة تُعرف بالبنود وهو أشعرُ منهُ في شعرهِ. فممّا رثى بهِ الحسين قولهُ:

هلَّ المحرَّمُ فاستهلَّ مكبّرا وانثر بهِ دُرَر الدموع على الثرى[٧]
قُتل الحُسين فيا لها من نكبةٍ أضحى لها الاسلام منهدم الذُرى[٨]
حزني عليهِ دائمٌ لا ينقضي وتصبّري منّي عليّ تعذّرا

---

١ الوجد الحزن والمبرح الشديد الوطأة ٢ القرن السيد والقضب السيوف القاطعة واذكت اضرمت والهامات الرؤوس ٣ الراسيات الثابتات وهوى سقط ٤ المبدي المظهر والجزع ذهاب الصبر ٥ طريقة ٦ سرية شريفة وعلوية نسبة الى علي بن ابي طالب ٧ هل الشهر ظهر هلالهُ والمحرم اول شهر السنة الهجرية وفي العاشر منهُ قتل الحسين واستهلّ رفع صوتهُ وكبر قال الله اكبر ٨ جمع ذروة وهي اعلى الشيء

واحرحتاهُ لصارخاتٍ حولهُ تبكي لهُ ولوجهها لم تسترا[1]
ملقى على وجه التراب تظنّهُ داودَ في المحراب حين تسوّرا[2]
لهفي على الهاوي الصريع كأنهُ قرٌ هوى من أوجهِ فتكوّرا[3]
لهفي على تلك البنان تقطعت لو انها اتصلت لكانت أبحرا
لحق الغبارُ جبينهُ ولطالما في شأوه لحق الكرام وغبّرا
فكأنما أثر الدماء بوجههِ شفقٌ على وجهِ الصباح قد انبرى

ومن بنده الاول يصف الآيات السماويّة :

ايّها الراقد في الظلمة نبّه طرْف الفكرة من رقدة الغفلة وانظر أثر القدرة واجلُ غلَس[4] الحَيرة في فجر سنى الخبرة وارنُ[5] الى الفلك الأطلس[6] والعرش وما فيهِ من النقش وهذا الأفق الأدكن[7] في ذا الصنع المتقن والسبع السماوات ففي ذلك آيات هدى تكشف عن صحة إثبات الهٍ كشفت قدرتهُ عن غرر الصبح وارخت طُرَر[8] النُجح على نحر ضياه فغدا يعسل من مبسمهِ الاشنب[9] في مضمضتَي نور سناه لعس الغيهب[10] واستبدلت الظلمة من عنبرها الأسود بالأشهب واعتاضت من مفرقها الحالك بالاشيب...

---

١ قولهُ لم تسترا اصلهُ لم تسترن قلبت نون التوكيد الخفيفة الفاً على حد قول المتنبي : بادِ هواك صبرت ام لم تصبرا ٢ المحراب مقام الامام من المسجد وتسوّر الحائط صعد عليهِ وفي البيت اشارة الى ما جرى لداود مع ملاكين ظهرا لهُ على ما يرويه القرآن ٣ هوى سقط والاوج العلو وتكور سقط ٤ ظلمة آخر الليل ٥ انظر ٦ اغبر الى سواد ٧ المائل الى السواد ٨ جمع طرة وهي طرف الشيء وجانبهُ ٩ ابيض الاسنان حسنها ١٠ اللعس سواد في الشفتين مستحسن والغيهب الظلمة

جِرْمَانُوسُ فَرْحات (١٧٣٢ م ١١٤٥ هـ)

هو جبريل بن فرحات مطر الحلبيّ المارونيّ. وُلد بالشهباء ونشأ ذكياً متلّهب الفؤاد حادّ المدارك وصرف أبواهُ الصالحان جلّ العناية في تهذيبهِ وتثقيفه فأرضعاهُ لبان التقى والعلم والأدب من طفوليّتهِ وماكاد يذرّ[١] شارق بلوغهِ حتى حصّل مبادئ اللغتين العربية والسريانيّة وتاقت نفسهُ الى التوسّع في فنونهما والتضلّع من آدابهما. فلزم عالماً شهيراً من أئمة حلب المسلمين يُعرف بالشيخ سليمان النحويّ فقرأ عليهِ العربيّة وأتقنها في مدة وجيزة. ثم أخلى ذرعهُ للاشتغال بالعلوم البيانيّة والوقوف على اشعار العرب وأخبارهم وآثارهم فأحاط بذلك كلّهِ وكان يرويهِ عن ظهر الغيب كأنما يتلو في صحيفة مسطورة. وأحكم السريانيّة كما أحكم العربيّة وأكبّ على درس الطليانيّة فبلغ منها مبلغاً بعيداً وعرّب عنها الكتب الممتعة الجمّة ثم سدّد مرهف[٢] ذهنهِ الى العلوم العالية فمضى فيها مضاءً وتبحّر في المنطق والخطابة والفلسفة واللاهوت والتاريخ المدنيّ والكنسيّ على حين لم يزل في مقتبل العمر وريعان الشباب ريّان الفتوّة غضّ الاهاب[٣]. وما برح مدى العمر منكبّاً على التحصيل والمطالعة كلّما ازداد في العلم بسطة ازداد رغبةً ونهمة بحيث أصبح نابغة عصرهِ وإمام مصرهِ وحجة دهرهِ يحطّ طلّاب العلم والحكمة رحالهم في فنائهِ ويستصبح جهابذة[٤] النظر بباهر ضيائهِ ويصدر[٥] ذوو الخبرة والبصيرة عن ثواقب آرائهِ.

---

١ ظهر ٢ مرقق الحدّ ٣ الجلد اي حديث السنّ ٤ جمع جهبذ وهو الناقد العارف بتمييز الرديء من الجيد ٥ يرجع وينصرف

ولم يكن حرصهُ على كسب الفضائل المسيحيّة والتحلّي بالكمالات الروحيّة بأقلّ من اهتمامهِ باقتباس العلوم والآداب البشرية . ومع ما أُوتي من المواهب السامية والخلال الحميدة والمزايا الشائقة مما جعلهُ منقطع القرين وآية من آيات الخالق الفائقة لم يمنَّ قطّ ولا بالتفاتةٍ الى أباطيل الدنيا وبهرجتها[١] وعافت[٢] نفسهُ الطاهرة زخرفها وبهجتها فأعرض عنها إعراض المزدري المستخفّ بها المتعلّي عن خوض لجّتها. وما ناهز الثالثة والعشرين من عمرهِ حتى غادر مسقط رأسهِ في عصابة من الشبان الأتقياء جمعهُ واياهم صافي الوداد وحبّ الانقطاع الى خدمة ربّ العباد وأتوا جميعاً جبل لبنان الشهير بأديارهِ ومناسكهِ ومثلوا بين يدي البطريرك العلامة إسطفان الدويهيّ الذائع الشهرة فنالوا منهُ البركة وعرضوا لهُ ما عقدوا عليهِ النيّة الصالحة فرحّب غبطتهُ بهم وأذن لهم استحداث رهبانيّة وبذل لهم عن نفس سخيّة الأمداد الروحيّة والمادّيّة ومهّد لهم سبل النجاح وبلوغ الأمنية.

وما مضت على جبريل سنتان من انتظامهِ بسلك الرهبانيّة حتى رُقّي الى مقام القسيسيّة ورُئس على إخوانهِ مع تمنّعهِ الشديد من تبوّؤ[٣] المناصب الرفيعة وتهالكهِ على تخيّر الخطط الوضيعة والاختفاء في زوايا النسيان وإقامة سدٍّ مانع بينهُ وبين مفاخر هذا الزمان. واضطرّتهُ مهامّ الرهبانيّة الى معاناة الاسفار الشاسعة فقصد رومية العظمى وتبرّك بزيارة قبرَيْ الرسولين بطرس وبولس ونال من لدن الحبر الأعظم انعطافاً وإعزازاً وإكراماً نادراً وبعد ما دبّر شؤون رسالتهِ بصفة رئيس تاقت نفس العالم الى تفقّد آثار العرب الكرام بجزيرة الأندلس فشخص الى هنالك وعاين من المباني الشاهقة والمصانع البديعة ما زادهُ إعجاباً بهمّة رافعي عمادها

١ زينة ٢ كرهت ٣ تبوّأ المكان نزله وحل فيه او رقي

وموثّقي أوتادها ثم قفل راجعاً الى لبنان وقاسى في طريقه أهوالاً ومحناً فادحة [1]

وفي سنة ١٧٢٥ رُفع على كرسي الأسقفيّة وسيم مطراناً على حلب وسمّي جرمانوس وهو الاسم الذي اشتهر بهِ في الناس فقام بأعباء منصبهِ أحسن قيام ومثّل في سيرتهِ الشخصيّة والرعائيّة فضائل الرسل العظام فهدى رعيتهُ في مهيع الخلاص القويم وشمل الكبير والصغير بعنايتهِ الأبوية وفضلهِ العميم وبينما هو يدأب [2] في حرث كرم الربّ واصلاً آناء الليل بأطراف النهار يسقيهِ بعرق جبينهِ ويجني منهُ شهيّ الأثمار اذ وافاهُ داعي ربّهِ فبرح دار البلاء والفناء ومضى مستقبلاً وجه البقـــاء ونالت مبرّاتهُ في جنان الخلد خير مكافأة وأوفى جزاء فغاض من بعدهِ بحر العلم الزاخر وفاضت سيول الدمع من المحاجر [3] وذوت [4] رياض الشعر وصوّحت حدائق النثر البواسم وكسدت سوق الأدب وقد كانت بهِ مواسم وانقلبت أندية العلماء بفقدهِ مآتم وراحت نوادب الفضل ترثي ربّ المحامد والمكارم .

وكان السيّد جرمانوس فرحابت حبراً جليلاً وقوراً غيوراً وخطيباً مصقعاً منطيقاً بليغاً ومؤلّفاً واسع المعرفة منفسح الذرع كثير المحفوظ صادق الرواية سديد المنهج حسن البيان بصيراً بطرق الاستدلال والاستنباط. ولهُ في العلوم اللسانية والدينيّة نحو الأربعين مصنّفاً بين بسيط ووسيط ووجيز واذا أُضيف اليها معرَّباتهُ ومختصَراتهُ ومصحّحاتهُ أربت على المئة مجلداً وهو مقدارٌ يستغرق السنين الطوال وتني دونهُ همم الأبطال وهيهات أن يفي بهِ عقلٌ فيّاضٌ وقف أيّامهُ جمعاء على التأليف في الغدوّ والآصال فكيف بمن تجاذبتهُ تدبير رهبانيّة وسياسة رعيّة وتقاذفتهُ شاسعات الأسفار

---

١ عظيمة ٢ يجدّ ٣ جمع محجر وهو من العين ما دار بها وبدا ٤ ذبلت ويبست

طوراً في مناكب الأرض وتارة على متون البحار. فلا مراء أن صاحب هذه الأعمال الخطيرة انما هو معجزة الزمان وآيةٌ من آيات العليّ الرحمان. ولهُ ديوان حافلٌ بالقلائد الكريمة والدرر اليتيمة تشهد أنه كان شاعراً فصيحاً غزير المادّة قويّ العارضة بديع التخيّل يترقرق شعرهُ عذوبة وطلاوة وانسجاماً لا يؤخذ عليهِ سوى تجوّزٍ في النظم كان في غنى عنهُ بما رُزق من حسن الملكة وفيض القريحة وهذه شذرة من شعره يتغزل بمحبة الله:

الله الله أنت السمع والبصرُ ... في العاشقين وأنت الفوز والوطرُ[١]

هَوَيْتُكم والهوى مني على صغرٍ ... ياحبّذا وَالِهٌ قد زانه صغرُ[٢]

هجرت فيكم ربوع الوالدَيْن وما ... أهوى فلم يُرضني من دونكم أثرُ

سيروا الهُوَيْنا بقلبٍ سائرٍ بكمُ ... كأنهُ فلك أنتم لهُ قمرُ

الذكر صورتكم والقلب مركزها ... والحبّ دائرة شعاعها الفكرُ

كأنّ عيني إذا صوّرتكم فلكٌ ... في أفقها قمرٌ دانت لهُ الصورُ

أفني زماني بأخبارٍ أعدّدها ... والدهر يفنى وما يفنى لكم خبرُ

عشقي وشوقي غرامي في محبتكم ... سرٌّ سرورٌ ونار ضمنها شررُ

ان تهجروني أجد في وَصْلكم طمعاً ... كالشمس تُرجى وجُنْح الليل معتكرُ[٣]

قد مازج الحب قلبَ المستهام إذا ... رام انفصالاً فيوصلٌ فَصْلَهُ السهرُ

بُعداً لقلبٍ خليٍّ من صبابتهِ ... وهل يروقك غُصْنٌ ما بهِ ثمرُ[٤]

خُذْ حبّهم ياضمير الرفع ملتزماً ... فصلاً ووصلاً فلا تخلو ولو هجروا

كأنني الفعل والمحبوب فاعلهُ ... سِيّان متّصل فيهِ ومستترُ

أحلى غرامٍ اذا ما كان مشتهراً ... يا عاذلين دعوني فيه اشتهرُ

---

١ الوطر المأرب ٢ الواله المتحير من شدة الوجد ٣ الشديد السواد ٤ خليّ فارغ والصبابة رقة الشوق

أبيت والليلُ يطويني وينشرني نوحاً وحبّا فأطويهِ وينتشرُ
يا سالباً نور عيني في محبتــه أزرْ فؤادي إذا ما خانني البصرُ
الموت أوفق بي من هجْركم فاذا ما عشت في غيركم فالعيش لي وزَرُ[١]
اني تحولت لا أنفكُّ ملتفتاً تلقا محيّاك حتى يهتدي النّظَرُ
يشكو فؤادي الجوى من نار حبكمُ فأعجب لجنّة نور ضمنها سقَرُ[٢]
سكرت من حبكم حتّى وحقّكم غادرت كل الورى في حبكم سكروا
خسرتُ في عشقكم عمري فأسعدني يارِبح قوم بكم بالربح قد خسروا
أجثو انكساراً اذا كررت ذكركمُ كأنما قد علاني الصارم الذكرُ[٣]
ذلّي وضعفي ونقصاني يقابلهُ عزّ وبطش كمالٌ فيكم وَقرُ[٤]
حمدٌ ومدح لكم من اصغريّ كما لي منكم المضنيانِ الخوف والحذرُ[٥]

وشعره كله في مدح السيد المسيح ومريم العذراء والرسل الأطهار والقديسين النسّاك والحدثّ على اقتناء الفضائل المسيحيّة والوعظ وتذكير العواقب والتنويه بمزايا الحياة الرهبانية المقدسة وما إلى ذلك من الحقائق الدينية والأغراض الروحية .

واما تآليفه فمنها «بحث المطالب» في الصرف والنحو نهج فيه منهاجاً مستحدثاً في حسن الترتيب والتبويب وتقريبٍ منال القواعد العربية للطالب فجعلها منهم على حبل الذراع وكانت قبلاً بما سخرها متفلسفو النحاة من التحكّمات والتمحّلات في حيّز غير المستطاع . ولم يكن للنحاة العصريين لكي يجيدوا ويفيدوا سوى اقتفاء آثارهِ والطبع على

---

١ الوزر الحمل الثقيل وحرّك ثانيه بالفتح لاقامة الوزن ٢ الجوى الحبّ وسقرجهنم ٣ الصارم الذكر السيف القاطع الشديد ٤ وَقر مصدر وقر ايَ كان رزينا محترماً مهيباً وحرّك ثانيه لاقامة الوزن ٥ الأصغران القلب واللسان

غراره. ومن تآليفه «الاعراب عن لغة الأعراب» وهو معجم اختصره عن قاموس الفيروزبادي وأضاف اليه ألفاظاً وفوائد من عنده ومنها «فصل الخطاب» في صناعة الوعظ ومنها «المثلّثات الدرّية».

وخلاصة القول أن السيد جرمانوس فرحات كان بهمته الشمّاء وتآليفه الغرّاء داعياً لنهضةٍ أدبيّة في مسيحيّي عصره ومركز دائرة العلوم لبني دهره وسابقاً بطلاً رفع منار المعارف فتألّق في الشرق ضياؤها وانتشر ومهّد سبيل اليقظة لنصارى القرن التاسع عشر.

نيقولاوس الصائغ (١٧٥٦م ١١٧٠ه)

هو نيقولاوس بن نعمة الله الصائغ من طائفة الروم الكاثوليك. وُلد بحلب ونشأ على الصلاح والتقوى ولمّا ترعرع [1] جعله والداه الفاضلان في أحد المكاتب فتلقّى مبادئ العربية وبدت فيه مخايل الذكاء والفطنة والنباهة فاستبشر به معلّموه وأنبأوا أنه سيكون له شأن خطير في المستقبل. ولم يتسنَّ [2] له الاستزادة من الدرس لأن أباه ضمّه اليه وأحبّ ان يرث ابنه صنعته ويزاول الصياغة. فصدع الغلام بالأمر وأخذ يتعاطى شغله بهمّة وإتقان وكلّما ناهزته الفرص أقبل على المطالعة رغبةً في التضلّع من العربيّة فتبحّر في اللغة والصرف والنحو وسائر الفنون اللسانيّة ودرس على أحد الكهنة العلماء الرياضيّات والفلسفة واللاهوت استعداداً للكهنوت. وكان كَلِفاً بمباشرة أعمال الخير حريصاً على اقتناء الفضائل والاقتداء بأرباب البرّ والتقى.

---

١ تحرك وشبّ ٢ سهل وتيسّر

وكان الفتى نيقولاوس الصائغ في الحادية والعشرين من عمره إذ قدم حلب القسّ جبريل بن فرحات المارونيّ عائداً من رومية العظمى فاجتمع بهِ صاحب الترجمة وتتلمذ لهُ لما رأى من فضلهِ وورعهِ وحكمتهِ وجنى من نصائحهِ ثمار الخلاص والكمال. وشدّد جبريل تلميذهُ فيما أزمع من الانقطاع الى خدمة الله عزّ وجلّ فصرم نيقولاوس حبال الدنيا وهاجر مسقط رأسهِ وجاء الى لبنان وترهّب في دير القديس يوحنا الصايغ بالشُوير. وما توشّح بالاسكيم حتى وجّه أنظارهُ الى ذروة الكمال الرهبانيّ وأخذ يرقى إليها بنشاطٍ وثباتٍ لا يثبّطهُ[1] وهن ولا يدركهُ ملل. فبهر إخوانهُ بفضائلهِ وأجمع رؤساؤهُ على أهليّتهِ فرقّوهُ الى درجة القسيسيّة المقدسة.

وتقلّب القسّ نيقولاوس في رتب الرهبانيّة وانتُخب رئيساً عامّـا مع إبائهِ تقلّد المناصب الرفيعة ونفورهِ منها فقام بأعباء مهمتهِ اتم قيام. ورأى أمامهُ مجالاً وسيع الجنبات فسيح الأطراف فأطلق لغيرتهِ عنانهـا ووقف حياتهُ على صلاح ابنائهِ فكان أبد الدهر يتعهّد الأديار وينظر في أحوالها الروحيّة والماديّة ويستنهض همم الرهبان على السير الحثيث في سبيل الكمال مهما تمنّعت الطبيعة من انتهاجهِ[2] وصعب عليها مرتقاهُ. وبارك الربّ أتعاب عبدهِ وكلّل مساعيهُ بالنجاح فعاين البذر الذي ألقاهُ في القلوب نامياً مثمراً يانعاً. وأوضح دليلٍ على غيرة القسّ نيقولاوس العثرات التي اعترضت طريقهُ والنقم والويلات التي صبّها عليهِ عدوّ كلّ خيرٍ حقيقيّ والاضطهـادات التي أثار زوابعهـا عليهِ ومـا الى ذلك من المحن والمصائب الفادحة التي تخور[3] دونها قوى من لم يكن

١ يحبسه ويعوقه ٢ سلوكه ٣ خار ضعف ووهى

نظيرهُ شديد الاعتصام بحبل الله راسخ القدم في أسمى الفضائل بحيث يكون أشبه بالذهب الابريز لا تزيدهُ البلوى سوى نقاء وصفاء. وأمّا رهبانيتهُ فقد خرجت بحسن تدبيره من كلّ العواصف كالشجرة القويّة متأصّلةً في الأرض عروقُها باسقة[1] في الهواء غصونُها فزهت أنوارها وينعت ثمارها وورفت أفياؤها وآنق الأبصارَ رُواؤها[2] وبهاؤُها .

وكان القسّ نيقولاوس كاهناً فاضلاً غيوراً وأباً حنوناً بصيراً ومدبّراً حازماً خبيراً وعالماً بعيد الغور فسيح الذرع وشاعراً بديع التصوّر لطيف الطبع ولهُ ديوانٌ أودعهُ الشعر الرقيق الرائق في الاغراض الدينيّة والمواضيع البيانية والمدح والرثاء والتهنئة وقد مرّ بك كلامٌ على بديعيته الحسناء التي جعلها روضة المعاني الأنيقة والتخيّلات الدقيقة تطّرد فيها مياه الانسجام على أبياتٍ كأنّها النَور في الأكمام[3] أو الدرّ في النظام .

ومن شعره قولهُ يذمّ الغنى ويمدح الفقر الاختياري :

لا تغبطنَّ امرءًا يزهو بثروته	ولا تخلْهُ سعيداً فالثراء ثرى[4]
انّ السعيد الذي تمّت سعادتهُ	بالموت هيهاتِ من يحظى بذاك ترى
فذو المسرّة من ساغت مسرّتهُ	أوانَ مَسراه لا مَن بالسرور سرى[5]
كم أذهبَ الذهبُ الموموق من شرفٍ	سامٍ وكم فضّةٍ قد فضّت الفكرا[6]
والدرُّ كم درَّ ضرًّا للعقول وكم	من مُستهام بحبّ التبرِ قد ثُبرا[7]
وردُ الثراءِ يزيدُ الناهليه صدًى	فكلما زاد زادت كبدهم سُعُرا[8]

١ مرتفعة في علوها ٢ الرواء حسن المنظر ٣ جمع كم بالكسر وهو غطاء النَوْر اي الزهر ٤ غبط الرجل صاحبه تمنى مثل حاله الحسنة من غير ان يريد زوالها عنه والثراء المال والثرى التراب ٥ ساغت جازت والمسرى مصدر سرى اراد به الموت وسرى سار ليلاً ٦ الموموق المحبب وفضّت فرقت ٧ درّ أكثر والتبر الذهب وثبر هلك ٨ الورد الماء الذي يُورد والصدى العطش والسعر شدة الجوع او العناء والعذاب

أضحَوا لذلك كمستسقين ما فتئُوا صادين لن يشعروا عن وِرْدهِ صدرا[١]

نامَ الفقير خليّاً من وساوسهِ وبات ذو المال يقضي ليلهُ سهرا

وكلّما بسط الأرقامَ في عدَدٍ خوفاً من الكسر الاّ وهو كُسرا

مأوى الكآبةِ مثرٍ يختشي أبداً فقر الغنى وغنيٌّ كان مفتقرا[٢]

دعني من المال إني لست أعدم من قوتٍ وثوبٍ كفافاً يمنع الضررا

كم ذاد عني خمولي عن أذًى وقذًى فليت باذخ ذكري قطّ ما ذكرا[٣]

فآفةُ المرء في دنياه شهرتهُ وَيْسٌ لمن شاع بين الناسِ واشتهرا

ان فضّل الدرَّ بعضٌ واستهام بهِ فدُرّة القنع عندي تفضل الدُررا

كفانيَ الزهدُ شرَّ الاهتمام لذا سيّان غلتها الايسارَ والعُسُرَا[٤]

زهدٌ تساوت لديَّ الحالتان بهِ ان قلّ ما في يدي يوماً وان كثرا

ما نلت ضمن ضميري راحةً وهنًا حتى نبذت الورى عن منكبيَّ ورا[٥]

فقعدتُ كل هموم العيش مذ فقدتْ يدي النقودَين أعني البيضَ والصفُرا

لا ارتضي عيشةً من ذا الزمان وإن صفا فإنيَ قد الفيتهُ كَدَرا

وكيف أرجو أماناً والحياةُ به حربٌ على الأرض لن تُبقي ولن تذرا

ولا حاجة الى التنبيه أن شعراء أعصر الانحطاط أكثر من أن يتّسع لذكرهم هذا المختصر ولعلّ فيمن ذكرنا كفاية للمطالع الأديب .

١ الصادي العطشان والصدر الاسم من صدر عن الماء اذا رجع ٢ الكآبة الحزن والمثري الغني ٣ ذاد دافع والخمول مصدر خمل الذكر اذ خفي وانخفض والقذى ما يقع في الشراب من تبنة ونحوها والباذخ العالي ٤ الغلّة شدة العطش والايسار مصدر أيسر الرجل صار ذا غنى والعسر الضيق والشدة ٥ نبذ الشيء ألقاه وطرحه والمنكِب مجتمع رأس الكتف بالعضد

أَلنُّحَاةُ وأَللُّغَوِيُّون

إِبنُ مَنْظُور (١٣١١م ٧١١هـ)

هو جمال الدين أبو الفضل محمّد بن مكرَّم الأنصاريّ الأفريقيّ المصريّ المعروف بابن منظور نسبة الى جدهِ الرابع. كان علاّمةَ عصرهِ ونادرة مصرهِ في علوم اللغة والتاريخ والنحو والانشاء والأدب. ورُزق من سعة المحفوظ وغزارة المادّة وسرعة الخاطر في الكتابة ما لا يكاد يصدَّق وأُولع باختصار كتب الأدب المطوَّلة كالأغاني والعقد الفريد ومفردات ابن البيطار وغيرها حتى بلغت مختصراتهُ فيما يقال خمس مئة مجلّد. غير أن رأس مؤلفاتهِ هو كتاب اللغة الشهير المسمّى «لسان العرب» جمع فيهِ بين تهذيب اللغة للأزهريّ والمحكم لابن سِيده [١] والصحاح للجوهري وجمهرة العرب لابن دُريد والنهاية لابن الأثير الجَزَري ورتّب موادّها وبسط وجيزها وأوضح مبهمها وأتمّ ناقصها وأكثر من الاستشهاد بالقرآن والسنّة وأشعار العرب وأمثالها وفنون آدابها ودقائق لغاتها بحيث جاء معجمهُ هذا أوسع المعاجم العربيّة وأعظمها شأناً وأتمّها نقلاً وأصحها

١ هو لغويّ أندلسي توفي سنة ٤٥٨ هجرية ولهُ في اللغة مصنفان أحدهما لفظي وهو المحكم المشار اليهِ والآخر معنوي سمّاهُ المخصص والمراد بالمعنوي ما جمعت فيه الألفاظ طوائف بحسب معناها كما ترى في الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمذاني وفقه اللغة للثعالبي ونجعة الرائد لابرهيم اليازجي

ضبطاً وأحقها بالثقة عند جهابذة أهل النظر وأساتذة النقد والتدقيق. ولهُ مجموع في الأدب سمّاهُ «نثار الأزهار في الليل والنهار» وهو غايةٌ في لطف الاختيار وحسن التبويب ونفاسة الأغراض ونباهة المعاني وجزالة الانشاء.

وكانت ولادة ابن منظور بأفريقية وهي بلاد المغرب وانتقل الى مصر وخدم في ديوان الانشاء زماناً طويلاً وولي قضاء طرابلس وكان صدراً رئيساً وافر الحرمة كثير الفضل متشيّعاً بلا رفض وعُمّر كثيراً وعمي في أواخر حياتهِ.

إبنُ آجُرّوم (١٣٢٤م ٧٢٣هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن داود الفاسيّ المعروف بابن آجُرّوم الصنهاجيّ نسبة الى صنهاجة وهي قبيلة بالمغرب. لم يصل الينا من أخبارهِ وآثارهِ سوى أنهُ وضع لابنهِ ابي محمّد رسالة مختصرة في النحو تعرف «بالآجُرّوميّة» كثيرة التداول في حلقات التدريس بالكتاتيب العربيّة وهي بمثابة مدخل العلوم النحويّة للمبتدئين ومقدّمة لما سواها من مطوّلات هذا الفنّ.

وقد علّق جماعةٌ من النحاة شروحاً وحواشي على متن الآجرّوميّة لايضاح مبهمها وتسهيل مأخذها للطلاّب إذ كثيراً ما يترتّب على الايجاز المفرط لَبسٌ وتشويش. فمّن شرحها الشيخ خالد بن عبد الله الازهريّ المتوفّى سنة ٩٠٥ هجريّة وعلى هذا الشرح حاشية للشيخ محمّد ابي النجا الطندتاعيّ من نحاة القرن الثالث عشر. وشرحها الشيخ حسن الكفراويّ المتوفى سنة ١٢٠٢ هجريّة وعلى هذا الشرح حاشية للشيخ اسماعيل الحامديّ

من أبناء هذا العصر . ومن الشروح التي لا حاشية عليها شرح الشيخ أبي زيد عبد الرحمان المكوديّ المتوفّى سنة ٨٠١ هجريّة . ووضع بعضهم « متمّمة » للآجرّوميّة ولهذه المتمّمة شرحٌ ولهذا الشرح حاشيةٌ ...

إبنُ هِشام (١٣٥٩ م ٧٦١ ه)

هو جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاريّ المصريّ. كان إماماً في النحو لا يُجارى وأستاذاً متقدّماً في علوم العربيّة لا يُبارى وهو خاتمة النحاة ذوي الآراء والمذاهب وهي مزيّة تافهة لم يكن في حاجة الى الامتياز بها على ما توفّر لهُ من العلم الواسع وقوّة الملكة في هذه الصناعة وسعة الاطّلاع على دقائقها وغوامضها ولهُ في النحو مصنّفات تشهد لهُ بعلوّ القدر والبراعة الفائقة. وكان فقيهاً فاضلا خبيراً شافعيّ المذهب ثم انتحل في آخر عمرهِ مذهب الحنابلة .

ومن مصنّفات ابن هشام « مُغني اللبيب عن كتب الأعاريب » وهو أوسع مؤلفاتهِ وأشهرها وأجلّها فائدةً وقد رتّبهُ على ثمانية أبواب استوفى فيها أحكام الاعراب مُجمَلة ومفصّلة وتكلّم على الحروف والمفردات والجمل بغاية الوضوح والضبط والاحاطة بحيث جاء كتابهُ هذا نهاية في علم النحو وللعلماء شرحٌ وحواشٍ تفوت الحدّ علّقوها على « المغني » لكثر إقبال الناس على الاشتغال بهِ . فممّن شرحهُ الشيخ بدر الدين محمّد بن أبي بكر الدمامينيّ المتوفّى سنة ٨٢٨ هجريّة وسمّى شرحهُ « تحفة الغريب بشرح مغني اللبيب » ومنهم الشيخ تقيّ الدين أحمد بن محمد الشمنيّ المتوفّى سنة ٨٧٢ هجريّة وسمى شرحهُ « المنصف

من الكلام على مغني ابن هشام» وللجلال الدين السيوطي الآتي ذكره شرح مسهب وحواشٍ مطوّلة على المغني لم يدع فائدة الا قيّدها ولا قاعدة الا أيّدها.

ولابن هشام أيضاً في النحو «قَطر الندى وبلّ الصدى» وعليهِ شرح وحاشية وله «شذور الذهب في معرفة كلام العرب» وعليهِ شروح وحواشٍ وغير ذلك ممّا لا محلّ لتعداده.

ألفيرُوزَابَادِيّ (١٤١٣م ٨١٦هـ)

هـو مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزابادي نسبة الى فيروزاباد وهي بلدة بفارس على مقربةٍ من شيراز كان أبوهُ منهـا. وُلد بكارَزين وقضى معظم العمر يطوف البلاد شرقاً وغرباً في طلب العلم فدخل العراق وسكن مدّة الطائف وبغداد يتلقّى عمن هنالك من العلماء الحديث والتفسير واللغة وانقطع الى الشيخ تقيّ الدين السبكيّ يتفقّهُ عليهِ وصحبهُ الى بيت المقدس واشتغل ثمّ بعلوم الأدب نحو عشر سنواتٍ فبرع فيها وفاق وذاع اسمهُ في الآفاق ثم شخص الى مصر وخالط أُدباءَها فأفـاد واستفاد ورحل الى بلاد الروم فأكرمهُ السلطان بايزيد العثمانيّ إكرامـاً زائداً وقصد الهند وعاد منها الى بغداد فلقي من سلطانها أحمد بن أُوَيس معزّة وحفاوة واجتمع بشيراز بالفاتح الشهير تيمورلنك فنال منهُ حظوة وعطاءً وافراً ثم قصد الهند ثانيةً وانقلب راجعاً عن طريق اليمن متيمّماً[1] مكّة فبالغ الملك الأشرف اسماعيل بن عبّاس في إكرامهِ وأزوجهُ ابنتهُ وقلّدهُ قضاء اليمن فألقى عصا التسيار في زبيد ولم يزل فيها قاضي القضاة الى وفاتهِ.

---

١ قاصداً

وكانت لمجد الدين الفيروزاباديّ بسطة[1] في علوم عصره ولا سيّما في اللغة. فإنه أنفق أيّامه على طلبها وتفرّغ للتبحّر فيها والتضلّع من فنونها ولم يزل متوجّهاً إلى تحصيلها حتى نبغ فيها وبرّز فأحصى مسائلها واستبطن دخائلها ومحّص[2] حقائقها واجتلى[3] غوامضها ودقائقها بحيث شهد له معاصروه أنه الامام الذي يُصار اليه في معرفة شواردها وأوابدها[4] والأستاذ الذي يتلمذ له مريدو فرائدها وفوائدها. وكان حريصاً على نشر العلم في قضائه وترقية عقول الشعب ببثّ المعارف فيهم فأنشأ عدة مدارس بالمدينة ومكّة ورتّب فيها معلّمين يتصدّرون للاقراء إذا غاب.

وللفيروزاباديّ مصنّفٌ في اللغة أشهر من نارٍ على عَلَم[5] يعرفه الصغير والكبير والمبتدئ والمنتهي والعربيّ والمتعرّب سمّاه « القاموس[6] المحيط والقابوس[7] الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط[8] » وضعه وهو مقيمٌ في بيتٍ مشرفٍ على طريق الحاجّ بقرب الصفا وقد ألمع بتسميته أنه أحاط بألفاظ اللغة جمعاء وهو محض ادّعاء إذ فاته من الكلم شيء كثير وإن كان قد صرف غاية العناية الى تكثير الموادّ. ولمّا كان « صحاح » الجوهريّ أكثر كتب اللغة تداولاً لذلك العهد وأحقّها بالثقة تعمّد الفيروزاباديّ تخطئته وكشف أوهامه والزيادة عليه وتمكّنت دعواه من عقول كثيرين حتى أصبح « القاموس » عندهم رأس كتب اللغة صحّةً وإحاطةً وصار اسمه مرادفاً لكل مصنّفٍ فيها.

ومع ما للقاموس من الحسنات التي لا تُنكر والفضائل الجمّة التي امتاز بها فإنه يؤخذ عليه الافراط في الايجاز والتقصير في التعريف الى حدّ

---

١ سعة ٢ خلصها من كل عيب ٣ أبان واظهر ٤ جمع الآبدة وهي الكلمة الغريبة ٥ العلم الجبل والعبارة مثل يضرب في الشهرة ٦ البحر ٧ ذو الوجه الجميل من الرجال ٨ جمع شمطوط أي متفرق

التعمية [1] وإدخال التشويش واللبس على المطالع وقد استُدرج الى ذلك بحرصهِ على مكاثرة [2] صاحب الصحاح وتبجُّحه [3] بالزيادة عليهِ مع الاختصار. ولهُ ديباجة [4] على مؤلَّفهِ ضيافية الذيول مشبعة الفصول بسط فيها ما للكتاب من الأغراض والمزايا وهي أصدق صورةٍ لأخلاق الرجل ومذهبهِ ومن مطالعتها يستدلّ القارئ أن الفيروزابادي مع نادر اطّلاعهِ على غريب لغة العرب جافّ العبارة بادي التكلُّف معتسف عن جادّة الوضوح والرشاقة بل اسم معجمهِ نفسهُ يشفّ عن ولوع بالاغراب.

وتصدّى لردّ دعوى الفيروزاباديّ وإعادة الحقّ الى نصابهِ عدة أدباء منهم أبو زيد عبد الرحمان المغربيّ التادليّ وسمّى ردّهُ «الوشاح وتثقيف [5] الرماح في ردّ توهيم المجد للصحاح» ومنهم الشيخ عبد الغنيّ النابلسيّ وغيرهما ولاحمد فارس الشدياق من أدباء القرن المنصرم كتابٌ جليل كشف فيهِ أوهام القاموس وأغلاطهُ سمّاهُ «الجاسوس على القاموس».

وعلّق كثيرون من علماء اللغة شروحاً وحواشي على القاموس وأشهر مؤلَّف في هذا الشان هو «تاج العروس» لمحمّد مرتضى الزبيديّ المتوفّى بمصر سنة ١٢٠٦ هجريّة وشرحهُ هذا بحرٌ زاخر بدرر الفوائد وقد طبع في عشرة مجلّدات ضخام.

---

١ عمّى الكلام لبسهُ عليه وأخفى معناهُ ٢ مغالبته في الكثرة ٣ افتخاره ٤ فاتحة
٥ ثقف الرمح قوّمه وسوّاه

ألمؤرّخون وألجغرافيّون

ومَن إليهم

إبنُ ألفِدَاء (١٣٣١ م ٧٣٢ هـ)

هو الملك المؤيّد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن الملك الأفضل نور الدين عليّ الأيّوبي. وُلد بدمشق ايّام لجأ أبوهُ إليها عند اكتساح المغول مدينة حماة قاعدة ملكهِ ونشأ في حِجر السيادة والفضل وتأدّب على علماء عصرهِ وبرع في العلوم الدينية واللسانيّة وبرّز في الفقه والتاريخ والطبّ والأدب والشعر وحذق علم الهيئة فكان رأس الفنّ وواحده في زمانهِ وتدرّب من صغرهِ في الفروسيّة وكان شجاعاً مقدماً مشيَّع القلب[1] وحضر مع أبيهِ حصار قلعة مرقب التي فتحها المسلمون على الاسبتاريّة وأبلى في حصار طرابلس وعكّاء بلاءً حسناً وأبدى في كافّة الوقائع من الجرأة والبأس ما أُعجب بهِ أمراء الجيش وأحلّهُ من قلوبهم مكانة رفيعة.

ولما كان الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكرك تقرّب اليهِ أبو الفداء وسعى في مرضاتهِ وبالغ في خدمتهِ فسُرّ بهِ الملك وولاّهُ نيابة حماة ووعدهُ بسلطنتها وقام بوعدهِ بعد مدة وأحضرهُ الى القاهرة وأركبهُ بشعار السلطنة ومشى الأمراء والأكابر في خدمتهِ ولقّب بالملك الصالح ثم بالملك

---

[1] قويّ

المؤيّد وعاد إلى حماة وملك فيها مطلق اليد يفعل ما يشاء دون رقيب ولا مسيطر. وحسنت مآثرهُ في الرعيّة وعمّت مكارمهُ أهل الفضل والعلم والأدب فانطلقت الألسن بتعداد مناقبهِ الغرّ وتعطّرت بذكرهِ أندية الأدباء وحلقات الشعراء. وكان في كلّ قليل يتوجّه إلى القاهرة ومعهُ أنواع الهدايا والتحف يرفعها إجلالاً لمقام متبوعهِ وإبراماً لأسباب تابعيّته فضلاً عما يبعث بهِ من حماة من الطُرَف المتتابعة.

ولأَبي الفداء نظم ونثر وتصانيف منها «المختصر في أخبار البشر» في التاريخ اختصرهُ عمن تقدّمهُ من مؤرّخي العرب كالطبريّ وابن الاثير وتمّمهُ إلى سنة ٧٣٠ هجريّة وقد عُني عدة من علماء الافرنج بنقلهِ الى لغاتهم. ولهُ في الجغرافية كتاب «تقويم البلدان» جمع فيهِ ما عزّت فائدتهُ من تصانيف المتقدّمين من جغرافيين وفلكيّين فضبط الأسماء وحقّق الأطوال والعروض وقدّم ما تجب معرفتهُ من ذكر الأرض والبحار والأقاليم العرفيّة والحقيقيّة على مذهب القدماء وكان لهذا المصنّف شأنٌ عند الافرنج للوقوف على الجغرافية العربيّة.

ولمّا مات رثاهُ جمال الدين نباتة بقصيدة أوّلها:

ما للندى لا يلبّي صوتَ داعيهِ	أظنّ أن ٱبن شاذٍ قام ناعيهِ [1]
ما للرجاء قد استدّت مذاهبهُ	ما للزمان قد اسودّت نواحيهِ
نعي المؤيّدَ ناعيه فيا أسفي	للغيث كيف غدت عنّا غواديهِ [2]
كان المديح لهُ عرسٌ بدولتهِ	فأحسن اللهُ للشعر العزا فيهِ

---

١ يلبّي يجيب. وابن شاذ هو أبو الفداء وقام ناعيه توفّي ٢ غدا ذهب غدوةً والغوادي جمع الغادية وهي السحابة تنشأ صباحاً وممطرة الغداة

يا آلَ أيّوب صبراً إن إرثكمُ من أسم أيوب صبرٌ كان ينجيهِ
هي المنـايا على الاقـوام دائرةٌ كـلٌّ سيأتيهِ منها دور ساقيهِ

النُّوَيْرِيّ (١٣٣١ م ٧٣٢ هـ)

هو شهاب الدين احمد بن عبد الوهّاب النويري الكنديّ المصريّ؛ ولد في نُوَيْرة، من البهنساء، من صعيد مصر الأَدْنى. كان إمام دهرهِ، وعلاّمة قطرهِ، منقطع القرين في تنوّع المعارف، وسعة المحفوظ، وكثرة استيعاب أخبار السلف، راسخ القدم في الفقه، والتفسير، خطّاطاً، مؤنق الوشي، بديع التحبير، كأنّ رقاعه شقق الديباج، وقطع الرياض؛ وكتب بخطّ يده الصحيح البخاريّ ثماني نسخ، بذل له في كلٍّ منها الف درهم. قرّبهُ الملك الناصر، محمّد بن قلاوون، وولاّه نظارة الجيش في طرابلس.

وله المؤلّف الحاوي الشهير الموسوم: «نهـاية الأرب، في علوم العرب»، وهو تاريخ كبير يقع في ثلاثين مجلّداً، رتّبه على خمسة فنون: الأوّل في السماء، والآثار العلويّة، والارض، والعالم السفلي؛ والثاني في الانسان، وما يتعلّق به؛ والثالث في الحيوان الصامت؛ والرابع في النبات؛ والخامس في التاريخ؛ وكل من هذه الفنون يشتمل على خمسة اقسام، وقد جعل القسم الخامس من النبات، في الطبّ.

إِبنُ ٱلوَرْدِيّ (١٣٦٧ م ٧٦٨ هـ)

هو زين الدين أبو حفص عمر بن مظفّر المعروف بابن الورديّ . وُلد بمعرّة النعمان وتلقّى العلوم عن مشاهير وطنه وقدم حماة وأخذ الفقه عن القاضي هبة الله بن البارزيّ ونبغ في جميع الفنون التي اشتغل فيها وذاعت لهُ سمعة طيّبة وشهرة عالية في العلوم الدينية والأدبيّة وأجاد في الانشاء وضروب الكتابة ولهُ نظم فتّان رشيق ونثر طليّ أنيق وكان كثير التفنن بليغ العبارة وشعرهُ غايةٌ في الرونق والانسجام وقرب المأخذ ولهُ قصيدة حكميّة شهيرة تُعرف باللاميّة جعلها قلادة نظم فيها فرائد الحكم وجوامع الكلم وهي من السهل الممتنع الذي تُطمع مطالعتهُ وتُعجز متابعتهُ وهذه بعض شذرات منها .

إعتزلْ ذكر الأغاني والغزَل ... وقلِ الفصلَ وجانب من هزَل[١]
ودع الذكرى لأيام الصبا ... فلأيّام الصبا نجمٌ أَفَل[٢]
وافتكر في منتهى حسن الذي ... أنت تهواهُ تجد أمراً جلَلْ
واهجرِ الخمرة إن كنتَ فتىً ... كيف يسعى في جنونٍ من عقَلْ
واتّقِ الله فتقوى الله ما ... جاورتْ قلبَ امرئٍ الا وصَلْ
ليس من يقطع طرقاً بطلاً ... انّما من يتّقي الله البطل
كُتب الموتُ على الخلق فكم ... فلّ[٣] من جيشٍ وأفنى من دُوَلْ

---

١ التغزّل الأقوال والأحوال الجارية بين المحب والمحبوب والفصل الحقّ وهزل مزح
٢ أفل النجم غاب ٣ فلّ الجيشَ هزمه

أين نمرودٌ وكنعان ومن ملك الأرضَ وولى وعزل
أين من سادوا وشادوا وبنوا هلك الكلُّ ولم تغنِ القُلَل [١]
أين أربابُ الحجى أهل النُهى أين أهل العلم والقوم الأُوَل [٢]
سيُعيد الله كلاًّ منهمُ وسيجزّي فاعلاً ما قد فَعَلْ
أطلب العلم ولا تكسل فما أبعدَ الخيرَ على أهل الكسَلْ
لا تقل قد ذهبت أيّامهُ كلُّ من سار على الدرب وصَلْ
في ازدياد العلم إرغامُ العدى وجمالُ العلم إصلاحُ العمَلْ
جمِّلِ المنطقِ بالنحو فمن يُحرَم الاعراب بالنطق اختبَلْ [٣]
انظم الشعرَ ولازم مذهبي في اطّراحِ الرفد لا تبغِ النِحَلْ [٤]
فهو عنوانٌ على الفضل وما أحسن الشعر اذا لم يُبتذلْ
لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنّما أصل الفتى ما قد حصَلْ
قد يسود المرء من دون أبٍ وبحسن السبك قد يُنفى الزغَلْ [٥]
إنما الورد من الشوك وما ينبت النرجس الا من بصَلْ
قيمة الانسان ما يُحسنهُ أكثر الانسانُ منه أو أقلْ
ليس يخلو المرء من ضدٍّ ولو حاول العزلة في رأس الجبَلْ
دارِ جارَ السوء بالصبر وإن لم تجد صبراً فما أحلى النُقَلْ
جانب السلطان واحذر بطشهُ لا تعاند من اذا قال فعَلْ
لا تلِ الأحكام إن هم سألوا رغبةً فيك وخالف من عَذَلْ [٦]
إنّ نصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام هذا إن عدَلْ

---

١ القُلل جمع قلة وهي أعلى كل شيء ٢ الحِجى العقل والفطنة والنُهى جمع نُهْيَة وهي العقل ٣ اضطرب ٤ الرِّفد بالكسر العطاء والصلة والنِحَلِ جمع نِحلة وهي العطية والهبة ٥ سبك الذهب سبكًا اذابه وخلصهُ من زغله اي رذالته ٦ عذل لام

قصّر الآمل في الدنيـــا تفز فدليل العقل تقصــير الأملْ
غِبْ وزر غبّا تزد حبّا فمن أكثر الترداد أقصـــاهُ الملَلْ [1]

وتقلّد ابن الورديّ نيابة القضاء بحلب للقاضي محمّد بن النقيب وظلّ مدة في هذه الرتبة ثم استعفى منها على إثر رؤيا رآها ووقف أوقاتهُ على معاناة الأدب والتأليف ولهُ مصنّفات عديدة منها ما عدا ديوانهُ شرح الفية ابن مالك وتذييل تاريخ أبي الفداء سماهُ « تتمة المختصر في أخبار البشر » انتهى بهِ الى سنة ٧٤٩ هجرية وغير ذلك مما لا حاجة الى ذكرهِ. وللعلماء مباحث فيما إذا كان ابن الورديّ هذا هو نفس ابن الورديّ مؤلّف « خريدة العجائب وفريدة الغرائب » في الجغرافية والطبيعة دسّ فيهِ روايات واهية وخرافات مستحيلة كما يدلّ على ذلك اسمهُ وفيهِ كلام وخلطٌ كثير حتى على أحوال القيامة .

ألصَّفَدِيّ (١٣٦٢م ٧٦٤هـ)

هو صلاح الدين أبو الصفاء خليل بن أيبك الصفديّ. كان من صدور العلماء المعدودين وفحول الشعراء المُوفِين [2] ومبرّزي الكتبة المجيدين متضلعاً من الآداب عارفاً بالأخبار والآثار وتولّى كتابة الانشاء بدمشق والقاهرة وحلب. ولهُ نظمٌ رائق كثير الطلاوة ومن شعره قولهُ معاتباً ابن نباتة ومصدّراً أبيات امرئ القيس كما مرّت الاشارة الى ذلك آنفا :

---

١ زار غبّا اي زمناً بعد زمن وأقصى ابعد والملل الضجر ٢ الفائقين

أفي كلّ يوم منك عتبٌ يسوءُني ... كجلمود صخرٍ حطّهُ السيلُ من علِ ١

وترمي على طول المدى متجنّياً ... بسهميك في أعشار قلبٍ مقتّلِ ٢

فأمسي بليلٍ طال جنحُ ظلامهِ ... عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

وأغدو كأنّ القلب من وقدة الجوى ... إذا جاش فيه حميُهُ غليُ مرجلِ ٣

تطير شظاياهُ بصدري كأنّها ... بأرجائهِ القصوى أنابيشُ عنصلِ ٤

إذا عاين الاخوانُ ما بي من الأسى ... يقولون لا تهلك أسى وتجمّلِ ٥

ترفّقْ ولا تجزعْ على فائت الوفا ... فما عند رسمٍ دارسٍ من معوّلِ ٦

ولي فيك ودٌّ طالما قد شددتهُ ... بأمراس كتّانٍ الى صمّ جندلِ

ولي خطَراتٌ فيك منها جوانحي ... صُبحنَ سُلافاً من رحيقٍ مفلفلِ ٧

فكُرَّ على جيش الجنايةِ عائداً ... بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ ٨

وخلِّ الجفا وارجع الى معهد الوفا ... وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملِ ٩

---

١ العتب ملامة الصديق على اساءته والجلمود الحجر العظيم وعل فوق ٢ تجنى على فلان ادعى عليه ذنباً لم يفعله وسهميك مثنى سهم استُعير للعينين لتاثيرهما في القلوب وجرحهما اياها والأعشار وقلب اعشار مكسور على عشر قطع ٣ الجوى شدة الحبّ وجاشت القدر غلت والحمي مرارة الغيظ والمرجل القدر ٤ الشظايا الفلقات من الشيء جمع شظية والارجاء النواحي والقصوى البعيدة والانابيش جمع انبوشة وهي اصول النبت والعنصل البصل البريّ ٥ الاسى الحزن وهلك الرجل ماتّ وتجمل صبر ولم يظهر على نفسه المسكنة والذل ٦ ترفق لطف ولم يعنف والرسم ما بقي من اثر الدار والدارس المحو ومعول معتمد ٧ خطرات جمع خطرة وهي المرة من خطر الامر ببال مرّ وذكره بعد نسيان والجوانح الضلوع التي تحت الترائب مما يلي الظهر وصبح شرب الصبوح والسلاف أجود الخمر والمفلفل الذي أُلقي فيه الفلفل ٨ كرّ عطف ومال ورجع والجناية الذنب والمنجرد القصير الشعر صفة للفرس والاوابد جمع آبدة وهي الوحش والمراد بقيد الاوابد ان الفرس يلحقها فيمنعها عن الفرار والهيكل الضخم ٩ الجفاء الغلظة وترك الصلة وازمع الامر صمم عليه واجمل اصبر والصرم الهجر

حلا ودُّك الماضيَ وإن لم تعُدْ أعُدْ   لدي سَمُرات الحيّ ناقفَ حنظلِ [١]

وللصفديّ عدّة مؤلّفات أشهرها وأعظمها « الوافي بالوفيات » في التراجم وهو كبيرٌ جدًّا يقع في ستة وعشرين مجلّداً حشر فيه أخبار الأعيان ونجباء الزمان ممّن وقع عليه اختيارهُ ولم يغادر أحداً اشتهر بأمر ما حسُنَ أو قَبُحَ الاّ ذكرهُ. ولهُ في المعنى نفسه « أعيان العصر في أعوان النصر » اقتصر فيه على معاصريه. ولهُ « جنان الجناس » في علم البديع. وعلّق شرحاً على لاميّة العجم للطغرائيّ ورسالة ابن زيدون الى غير ذلك مما يطول تعدادهُ.

إبنُ بَطُّوطَة (١٣٧٦ م ٧٧٧ ﻫ)

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجيّ الرحّالة الشهير. وُلد بطنجة ونشأ وتأدّب بها ولمّا بلغ الثانية والعشرين من عمره حدّثتهُ نفسهُ بالرحلة في بلاد الله فاقتعد غارب الاغتراب [٢] وأخذ يضرب في مناكب [٣] الأرض شرقاً وغرباً. فقصد مكّة وأقام مناسك [٤] الحجّ ثم جاب [٥] العراق ومصر والشام واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة البلاد واتصل بملكها فوقع منهُ موقعاً حسناً واستعملهُ بخطّة القضاء على مذهب المالكيّة

١ سَمُرات جمع سمرة بفتح فضم شجر صغير الورق قصير الشوك له برمة صفراء وناقف الحنظل من يشقه ٢ الغارب من الجمل ما بين السنام والعنق والاغتراب أي سافر والعبارة مثل ٣ جمع منكب وهو الجهة من كل شيء ويضرب يسير فيها ٤ عبادات ٥ طاف

وساح في الاقطار الصينية وابتُلي هنالك بالأسر وتملّص من محنته بعد خطبٍ طويل وعاد فدخل بلاد التتر وتوغّل في أواسط القارّة الأفريقية الى تمبكتو وطاف في بلاد الأندلس وانقلب أخيراً الى المغرب وألقى عصا التسيار بفاس .

وتقرّب ابن بطوطة من السلطان أبي عنان أحد ملوك بني مَرِين فغمرهُ بصلاته وقرّبهُ وأكرمهُ كثيراً فذاق لذّة الدعة والقرار وزهد في تجشّم الأسفار والأخطار . وكان يملك القلوب ويسترقّ الخواطر بحديثه الفكه الفتّان ويقصّ أخبار رحلته وما عاين من العجائب والغرائب التي بثّها الخالق سبحانهُ وتعالى في أقطار الأرض وزان أصقاعها به . فأوعز اليه الملك أن يُملي على الكاتب محمّد بن جُزَيّ الكلبيّ ما شاهد من الأمصار وما علق بحفظه من نوادر الأخبار . فلبّى الأمر وقصّ على الكاتب المذكور ما جريات رحلته وجُمعت في سفرٍ سمّاهُ « تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وهي مشهورة متداوَلة . وعُني أدباء الافرنج بنقلها الى لغاتهم لما فيها من الفكاهة واللذة والفائدة العلمية .

إبنُ خَلْدُون (١٤٠٦ م ٨٠٨ هـ)

هو وليّ الدين أبو زيد عبد الرحمان بن محمّد المعروف بابن خلدون الحضرميّ فيلسوف المؤرّخين وأستاذ المحقّقين وينتهي نسبهُ الى وائل بن حُجر من أقيال [١] كندة في حضرموت هاجر خلدون بن عثمان جدهُ التاسع

١ جمع قيل بالفتح اي ملك

الى الأندلس في أواخر القرن الثالث للهجرة ونزل قرمونة ونمت ذريته فيها ثم انتقلت عشيرته الى اشبيلية ومنها خرج جده الى تونس وهنالك ولد صاحب الترجمة فغُذي بلبان الأدب ودرج من مهد السراوة [1] والنباهة والعلم وتأدب على أبيهِ وقرأ على مشاهير شيوخ عصرهِ فأتقن القرآن والفقه والنحو والعربيّة والشعر وتضلّع من فنون الأدب وتبحّر في التاريخ وأوغل في استقصاء مباحثهِ واستجلاء غوامضهِ بحيث أصبح فيهِ إمام وقتهِ غير مدافع ونسيج وحدهِ غير منازع .

وتعلّق ابن خلدون بالخدمة السلطانيّة على حداثة سنهِ وما برح الى وفاتهِ يتقلّب في المراتب العالية ويتولّى الخطط السامية فقُلّد مراراً الكتابة والحجابة والنيابة والقضاء وهو في أثناء ذلك يعلو ويسفل ويُولّى ويُعزَل فبينا هو يتفرّع [2] ذرى المعالي فتشرئبّ [3] اليهِ الأعناق وترمقه الأبصار وتعنو [4] لهُ الوجوه وتحفّ [5] بهِ الأنصار اذ تدبّ الى وثير [6] مهادهِ عقارب السعاية ويمشي الحسّاد الى سلطانهِ بضروب الوشاية الى أن يوغروا [7] صدرهُ فينكبهُ ويقذف بهِ من حالق ويعتقله [8] مدّة يعاني فيها غصص المحنة ويندب العزّ السابق... وغادر المغرب ردَحاً [9] من الزمن وشخص الى الأندلس ووفد على أبي عبد الله بن الأحمر ملك غرناطة فاهتز السلطان لقدومهِ وأركب خاصّتهُ للقائهِ وأنزلهُ في أحد قصورهِ وبالغ وزيرهُ لسان الدين بن الخطيب في إكرام ضيف مولاهُ والترحّب بهِ ونظم لاستقبالهِ قصيدة غرّاء . وسفر ابن خلدون في عقد الصلح بين أمير غرناطة وصاحب قشتالة وقام بهمتهِ أحسن قيام فلقي من ملك الافرنج الاحتفاء

---

١ السيادة ٢ يعلو ويفوق شرفاً ٣ تتطالّ ٤ تخضع وتذلّ ٥ تحيط ٦ ليّن
٧ أوغر الصدر أحماه من الغيظ ٨ يحبسهُ ويمنعهُ ٩ مدة طويلة

والكرامة الفائقة. ولحقهُ بالاندلس من شرور السعاية ما نغّص عيشهُ وكرّه اليهِ المقام فقفل راجعاً الى وطنه وجعل يترقّب ما تجيء بهِ الأيام. فعاد الى ما كان عليهِ سابقاً من الأطوار المتفاوتة فتارة يتسنّم مناكب الرئاسة ويخدمهُ الجاهِ العريض وطوراً ترجح كفّة حسّادهِ في ميزان السياسة فيعثر بهِ الحظ ويهوي الى الحضيض [1].

وسئمت [2] نفس ابن خلدون تقلّب دهرهِ وتلوّنه فاستأذن سلطانهُ بالسفر الى المشرق للحجّ وأبحر الى الاسكندريّة فوصلها بعد مسير اربعين يوماً وتأهّب للحجّ فلم يتيسّر لهُ فانتقل الى القاهرة وما كاد يطأها حتى انهال عليهِ طلّاب العلم يقتبسون من نبراسه [3] الساطع ويغترفون من بحرهِ الواسع واتصل بالسلطان برقوق فقرّبهُ وأكرم مثواهُ وولّاهُ على تمنّع منهُ قضاء القضاة على المالكيّة فعدل في وظيفته وساوى بين الناس غنيّهم وفقيرهم كبيرهم وصغيرهم وأنصف المظلوم من الظالم دون هيبة ولا محاباة وضرب على أيدي من دونهُ من القضاة واقام لهم حدوداً لا يتعدّونها وعفّى [4] آثار المخاتلات والمغابنات [5]. فثار عليهِ ثائر القوم وأصلوهُ [6] من عداوتهم وشاياتهم ناراً حامية واختلقوا عليهِ الأكاذيب تشفياً من حزازات [7] قلوبهم الدامية ورفعوا شكواهم الى السلطان فلم يعبأ بهم ولم يقم لكلامهم وزناً. فكانت لابن خلدون من هذه الدسائس بلابل تخامرهُ [8] وقلاقل تساورهُ وبلغ السيل الزُبى [9] بورود خبر غريق عيالهِ

---

١ القرار من الارض عند منقطع الجبل ٢ ملّت وضجرت ٣ مصباحه ٤ مَحَا ٥ جمع مغابنة وهي الغش في البيع ٦ أصلى فلاناً النار أدخله فيها وجعله يقاسي حرها ٧ جمع حزازة بالفتح وهي وجع في القلب من غيظ ونحوه ٧ تخالطهُ وتداخله ٩ الزُبى جمع زبية وهي الرابية لا يعلوها ماء وهذا مثل يضرب في استفحال الامر

وهم قادمون اليه من تونس فأحنت هذه المحنة متنه[١] وسهدت[٢] جفنه فاستعفى من القضاء وانقطع الى التأليف ثم قصد مكّة فقضى فريضة الحجّ وانكفأ راجعاً الى مصر واعتزل في الفيّوم وهي قرية أقطعه اياها السلطان وصرف همته الى التأليف والتدريس ومراسلة الأدباء والشعراء .

وظهرت في الشام أثناء ذلك جحافل تيمور لنك الجرّارة تدمّر البلاد وتستبيح دماء العباد فسار السلطان فرج بن برقوق لمحاربته وصحبه ابن خلدون فدارت الدوائر على المصريين وولّوا مدبرين. وامّا صاحب الترجمة فقصد معسكر الفاتح السفّاح ولقي منه إكراماً وإعزازاً وشفّعه في أسرى المسلمين وأذن له بالعودة الى مصر فعاد الى معالجة الحظوظ وما ذال يُولّي القضاء ويُعزل ويُحقّق رجاؤه ويُخذل الى أن وافته المنون وكفته مرارة إخفاق الآمال وخيبة الظنون — ووصفه معاصره العالم الشهير والكاتب النحرير لسان الدين الخطيب قال « ... وامّا المترجَم به فهو رجلٌ فاضل حسن الخلق جمّ الفضائل باهر الخصل رفيع القدر ظاهر الحياء أصيل المجد وقور المجلس خاصّي الزيّ عالي الهمّة عزوفٌ عن الضم صعب المقادة قويّ الجاش طامح لقُنن[٣] الرئاسة خاطب للحظ متقدّم في فنون عقليّة ونقليّة متعدّد المزايا سديد البحث كثير الحفظ صحيح التصوّر بارع الخطّ مغرًى بالتجلّة جواد حسن العشرة مبذول المشاركة مقيم لرسم التعيّن عاكف على رعي خلال الاصالة مفخر من مفاخر التخوم المغربية . . . » .

ولابن خلدون كتابٌ جليلٌ في التاريخ ذائع الشهرة سماه « كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر » وهو مؤلّفٌ

---

١ ظهره ٢ أرقت وأسهرت ٣ جم قُنة بالضم وهي اعلى الجبل

نفيس يقع في ثمانية مجلّدات جمع فيهِ فضلاً عن أخبار الدول العربيّة ما لم تصل اليهِ يد غيرهِ من تاريخ البرابرة وأخبار الدول التي تعاقبت في المغرب والافاضة في الكلام على ممالك النصارى بالأندلس. وصدّر كتابهُ بمقدّمة طويلة تنيف على خمس مئة صفحة هي من أجلّ ما كتب في فلسفة التاريخ بالعربيّة افتتحها بنبذة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبهِ والالماع لما يعرض للمؤرّخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها وقسمها الى فصول متعدّدة تنطوي على مباحث خطيرة في أحوال الأمم والأطوار التي تتدرّج فيها من نشأتها الى شبابها إلى كمالها الى هرمها الى اضمحلالها. وجرّهُ ذلك الى بسط الكلام على طبيعة العمران وما يعرض فيهِ من البدو وتغلّب الأمم الوحشية والقبائل على أهل الحضر وإخلادهم على إثر ذلك الى القرار وأخذهم بأطراف حضارة المغلوبين وتطوّرهم فيها. وما يترتّب على ذلك من دفع عماد الدولة وتوثيق[1] دعائمها وأصل الملك والخلافة والامامة وأحوال السياسة والمراتب السلطانيّة وتخطيط البلدان وتمصير الأمصار[2] وأسباب المعاش ووجوه الكسب ونشوء العلوم والصنائع وتنوّعها وترقّيها وهبوطها وكيفيّة التعليم وترتيب طرقه الى آخر ما هنالك من الأغراض العامّة والخاصّة وما يعرض في كلّ ذلك من الأحوال.

ومن مزايا هذه المقدّمة المسهبة أن المؤلّف كلما وضع قاعدة وقرّر ناموساً عزّز كلامهُ بأمثلة منتزَعة[3] من تاريخ المتقدّمين يدعم بها مقالتهُ فلا يدع مجالاً للريب والتردّد في صحة المبادئ التي أيّدها وجعلها دستوراً لكتابة التاريخ ممّا دلّ على سداد رأيهِ وصدق نظرهِ وبُعد غورهِ وانفساح ذرعهِ وحنكتهِ في التعليل والاستدلال والاستنتاج. فجاء كتابهُ

١ إحكام ٢ الامصار جمع مصر بالكسر وهو المدينة ومصر الامصار بناها ٣ متخذة

هذا « فذًّا [١] بما ضمّنهُ من العلوم الغريبة والحِكَم المحجوبة القريبة » .
« على أنهُ لمّا لم يكن للمؤلّف إلمامٌ بتاريخ اليونان وحكوماتهم الجمهورية ولم يقف على أخبار الرومان قبل استبداد القياصرة تحيّزت [٢] حتماً فلسفتهُ التاريخيّة بالممالك الاسلاميّة وقلّت مزيّتها من حيث التاريخ العامّ » [٣]
وممّا يجدر اعتبارهُ في هذا المقام أن المؤلّف أخلّ في النواميس التي وضعها هو نفسهُ لكتابة التاريخ ولم يسلم من المغالط عينها التي أخذ على سابقيهِ الوقوع فيها وما الكمال الا الله .

ألدَّميريّ (١٤٠٥ م ٨٠٨ هـ)

هو كمال الدين محمّد بن موسى الدميريّ . كان في أول أمرهِ يتكسّب بالخياطة ثم أقبل على العلم وأخذ عن علماء القاهرة وبرع في التفسير والحديث والفقه والعربية ومهر في الأدب وشارك في عدة فنون وتصدّر للاقراء بالجامع الأزهر . وكان في صباهُ أكولاً نهِماً ثم صار بحيث يطيق سرد [٤] الصيام واشتهر بالزهد والقنوت [٥] والخشية والبكاء عند ذكر الله سبحانهُ وجاور بالحرمين مدّة .

ولهُ تآليف أشهرها « حياة الحيوان الكبرى » قيل أنهُ جمعها من خمس مئة وستين كتاباً ومئة وتسعة وتسعين ديواناً وذكر فيها ما يزيد على ألف نوع من الحيوان رتّبها على حروف المعجم . على أن هذا الكتاب ليس في شيء من تقرير الحقائق العلمية في الحيوان لأن المصنف كان فقيهاً محقّقاً في العلوم الدينيّة وليس من أهل هذا الفنّ وإنما مقصدهُ تصحيح الألفاظ

---

١ فرداً ٢ انحصرت ٣ راجع تاريخ كليمان هوارت ص ٣٤٩ . ٤ متابعة ٥ القيام في الصلاة على الرجلين والامساك عن الكلام فيها

وتفسير الأسماء المبهمة وقد جمع فيه الغثّ[١] والسمين وله استطرادات كثيرة في أغراض مختلفة من حكم وآداب ولغة وخصّص فصلاً بالتاريخ اختصر فيه أخبار الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين بالعراق ومصر والفاطميين والملوك الايوبيّين والمماليك .

أَلقَلْقَشَنْدِيّ (١٤١٨م ٨٢١ه)

هو شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن عليّ القَلقَشَنْديّ نسبة الى قَلقَشَنْدة وهي قريةٌ من أعمال قليوب في الديار المصريّة . كان من شيوخ العلم وأقطاب[٢] الصناعة واسع الاطلاع كامل الآلة متبحّراً في فنون الكتابة وضروب الانشاء. وله في هذا المعنى مؤلّف جليل سمّاه « صبح الأعشى[٣] في صناعة الانشا » وهو كتاب مبسوط العبارة مستوعب لاطراف الفنّ رتّبه على سبعة أجزاء استوفى فيها الكلام على أصول هذه الصناعة وفروعها وأوضح مسائلها وقرّب منالها على الطلاّب ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا ذكرها وجعل باباً من أبوابه مخصوصاً بعلم الخطّ وأدواته . فجاء كتابه حاوياً للفوائد الأدبيّة الجمّة حافلاً بالنكات التاريخية النادرة التي يُعنى الكاتب بالوقوف عليها وينضي مطايا الطلب في الوصول اليها وقد اختصره في كتاب سمّاه « ضوء الصبح المسفر[٤] وجنى الدوح المثمر » وهو وجيزٌ كثير التداول بين طلاّب الأدب ومزاولي صناعة الكتابة .

---

١ الرديء ٢ جمع قُطب وهو مدار الشيء وسيد القوم ٣ سيّء البصر ٤ أسفر الصبح أضاء وأشرق

أَلمَقْريزيّ (١٤٤٢ م ٨٤٥ هـ)

هو تقيّ الدين أبو العباس أحمد بن عليّ المقريزيّ نسبةً الى مقريز وهي محلّةٌ ببعلبكّ من برّ الشام وكان أصل عشيرتهِ منها. وُلد ونشأ بالقاهرة وتفقّه على مذهب أبي حنيفة ثم تحوّل شافعيًّا بعد مدة طويلة ومال الى مذهب الظاهر وتعصّب على الحنفية إخوانهِ بالأمس وسمع الحديث من شيوخ زمانهِ وتضلّع من الآداب وبرع في علوم الدنيا والدين. وكان مؤرّخاً ضابطاً للوقائع متفنّناً ومحدّثاً صادق الرواية واعياً وتقلّد عدة وظائف دينيّة وولي حسبة[1] القاهرة غير مرّة وأول ولايتهِ من قِبل الملك الظاهر برقوق. وعُرض عليهِ قضاء دمشق في أوائل دولة الملك الناصر فرج بن برقوق فأبى ولم يقبل الاّ مشارفة الأوقاف والنظر فيها.

واشتهر المقريزيّ بعلم التاريخ وصار يضرب بهِ المثل في الاحاطة بأخبار السلف من العلماء والملوك وكان إماماً فاضلاً كثير المحاسن حسن المحاضرة ولم يزل منقطعاً في دارهِ للعبادة والتأليف قلّ ان يتردّد الى أحد الا لضرورة. ولهُ في العلوم التي أخلى ذرعهُ لتحصيلها مصنّفات كثيرة كلّها مفيدة نفيسة أشهرها كتاب «الخطط» وعنوانهُ التام «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» بسط فيهِ الكلام على أخبار مصر وجغرافيتها وأحوال سكانها وكتاب «الأوزان والمكاييل الشرعيّة» وكتاب «النقود الاسلاميّة» وكتاب «السلوك لمعرفة دُول الملوك»

---

[1] المال الذي يأخذه محتسب البلد على الموزونات والمكيلات

وهو تاريخ سلاطين المماليك بمصر وله التاريخ الكبير المقفّى في تراجم أعيان مصر والواردين اليها ولو كمل هذا التاريخ تجاوز الثمانين مجلّداً وغير ذلك مما يطول عدّه .

إبنُ حَجَرٍ ٱلعَسْقَلانِيّ (١٤٤٩ م ٨٥٣ ﻫ)

هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن عليّ المعروف بابن حَجَر العسقلانيّ . وُلد بمصر العتيقة ونشأ يتيماً وربي في حجر وصيّه[١] وحفظ القرآن وحجّ غير متجاوزٍ الاحدى عشرة من عمرهِ واحترف التجارة وهو مع ذلك مغرًى بالأدب وتحصيل العِلم وقرض الشعر لا تسنح له فرصةٌ للاستفادة الاّ قبض بناصيتها[٢] . ثم أولع بالحديث فوقف على سماعهِ أيامهُ وعانى في أتقانهِ الرحلات العديدة في بلاد مصر والشام والحجاز يخالط مشاهير المحدّثين ويأخذ عنهم ولم يسمع بإمام عالمٍ الا شدّ اليهِ رحاله[٣] وعلّق بهِ حبالهُ فجاب مدن مصر ودخل دمشق وحلب وبيت المقدس والخليل والرملة وجاور بمكة زماناً وورد اليمن وقصد عدن وزبيد وهو في كل هذه الأسفار ينشد ضالتهُ ويقتبس عن شيوخ الحديث ما عندهم ولم يزل هذا دأبَهُ ودَيْدَنهُ حتى أصبح حافظ زمانهِ وإمام فنّهِ ضابط لمسائلهِ قليلها وجليلها وكان المعوّل عليهِ في تلقّي الحديث ومعرفة الرجال . وقلّد القضاء بمصر ذات المرار وعُزل عنهُ كذلك وانقطع في آخر عمرهِ الى التأليف والاقراء .

ولابن حجر مؤلّفات عديدة أكثرها في الحديث علمهُ الخاصّ منها

---

١ الوَصي بفتح فكسر الذي يفوض اليه الحفظ والتصرف بمال القاصر ٢ الناصية مقدم شعر الراس اي تشبث بها ٣ قصده للاستفادة منهُ

كتاب « الاصابة في تميز أسماء الصحابة » وكتاب « تقريب التهذيب » في أسماء رجال الحديث وكتاب « نزهة النظر في توضيح نخبة الفِكَر » في اصطلاح الحديث وكتاب « الدرر الكامنة [1] في أعيان المئة الثامنة » ضمّنهُ تراجم مشاهير القرن الثامن للهجرة وهو مرتب على حروف المعجم. ولهُ غير ذلك تآليف يطول عدّهـا .

أَلسُّيُوطِيّ (١٥٠٥م ٩١١هـ)

هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمان بن الكمال السيوطيّ إمامٍ أئمّة الاسلام. وزعيم العلماء الأعلام. وُلد بسيوط [2] ونشأ بمصر يتيماً منذ السادسة من عمرهِ وحفظ القرآن وهو دون ثماني سنين وتأدّب على جماعة من أكابر العلماء وكان فطناً يقظ الفؤاد سريع الفهم قويّ الذاكرة كثير الاستيعاب بعيد النسيان فأتقن في قليل من الزمن فنون عصرهِ ما عدا المنطق والحساب وقد قال عن نفسهِ « أمّـا علم الحساب فإنهُ أعسر شيء عليّ وأبعدهُ عن ذهني واذا نظرت في مسألة تتعلق بهِ فكأنما أحاول جبلاً. وكنت في مبادئ الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق ثم ألقى الله كراهتهُ في قلبي وعوّضني عنهُ علم الحديث. ولو شئت أن أكتب في كلّ مسألة مصنّفاً بأقوالها وأدلّتها النقلية والقياسيّة ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرتُ على ذلك من فضل الله لا بحولي ولا بقوّتي » وقال « ورُزقتُ التبحّر في سبعة علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب

---

١ المستتر والمستخفية ٢ وهي أسيوط اليوم

والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . ودون هذه السبعة أصول الفقه والجدل والتصريف . ودونها الانشاء والترسّل والفرائض . ودونها القراءات ولم آخذها عن شيخ . ودونها الطب ... » .

وساح السيوطيّ في بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور وكانت بينه وبين من يلقى من العلماء مطارحات ومفاوضات[١]. وولي تدريس الفقه بالمدرسة الشيخونية وكان أبوهُ درّس فيها من قبله وبالمدرسة البيبرسية فترامى ذكرهُ في الآفاق وملأ صيتهُ الأسماع وشُدّت اليهِ الرحال من كل الأصقاع[٢] وانتهت اليهِ الرئاسة في العلوم الدينية ولم ينقطع قطّ عن الاقراء والتصنيف. وكانت لهُ شهرةٌ عالية في الجدَل ولم تزل المناظرات العنيفة قائمة بينهُ وبين علماء مصرهِ على قدم وساق . وكثيراً ما استهدف[٣] لسهام الأضداد وأثار كامن[٤] الأحقاد بما يفرط في كلامهِ من بوادر الحدة والنزق[٥]. ومن غريب أطوارهِ أنه كان ثقيل الوطأة على الكتّاب الذين يُخيَّل لهُ أنهم اقتبسوا من مؤلّفاته فيندّد[٦] بهم ويشدّد عليهم النكير ويشهّرهم على حين كان هو نفسهُ لا يرعى للمتقدّمين ذماماً[٧] في مؤلّفاتهم فينتحلها[٨] وينسخها ويعبث بها كيفما شاء

وكان السيوطيّ سريع الخاطر في الكتابة غزير المادّة سيّال القلم ومؤلّفاتهُ تنيف على ثلاث مئة مؤلّف بين بسيط ووسيط ووجيز . على أن عدّة من هذه المؤلّفات هي من نتائج قرائح الأقدمين كما أشرنا الى ذلك آنفاً لا فضل لهُ فيها سوى الشرح أو التتمة أو التلخيص أو الترتيب الى

---

١ جمع مفاوضة مصدر فاوض الرجل صاحبه في الامر ذاكره فيه ٢ جمع صقع وهو الناحية ٣ انتصب كالغرض اي كان يرمي بالاقاويل ٤ مستور ٥ الخفة الطيش ٦ يصرح بعيوبهم ٧ عهداً ٨ ينسبها الى نفسه

غير ذلك من ضروب الاقتباس ولو ذكر أسماء المؤلفين الذين استعان بهم ما أخذ بلوم ولا عيبَ بسرقة بل كان يبرز [١] تلك المؤلفات بعد إجالة القلم فيها كأنها أعمال صناعته ويعرضها على الملإ عرض التاجر لبضاعته. لكنما لا ينكر عليه أنه افاد كثيراً بإبرازه الى عالم الوجود طائفةً من المصنّفات لولاه لبقيت في زوايا النسيان وعبثت بها صروف الزمان فقرّب منالها على الطلاّب وجعلها منهم على حبل الذراع وهي مأثرة جليلة .

فمن مؤلّفاته « الاتقان » في علوم القرآن وقد جعله بمثابة مقدّمة لتفسير أكبر سمّاه « مجمع البحرين ومطلع البدرين » ومن تفاسير القرآن الشهيرة « تفسير الجلالَين » وهما جلال الدين المحلي شيخ السيوطيّ وقد فسّر الى آخر سورة الاسراء وجلال الدين السيوطيّ وله تفسير السُوَر البواقي . وله عدة طبقات كطبقات الأصوليين وطبقات البيانيين وطبقات الحفّاظ وطبقات الخطّاطين وطبقات الكتّاب وطبقات المفسّرين وطبقات النحاة . ومن مؤلّفاته المفيدة « حسن المحاضرة » في أخبار مصر والقاهرة لخّصه من ثمانية وعشرين كتاباً ومنها « الشماريخ [٢] في علم التاريخ » وهي رسالة في هذا الفنّ ومنها « لبّ اللباب » وقد مرّ ذكره الى غير ذلك مما يضيق عن استيعابه المقام .

أَلمَقَّرِيّ (١٦٣١ م ١٠٤١ هـ)

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقّريّ التِلْمْسانيّ نسبة الى مقّرة وهي قريةٌ من قرى تلمسان ببلاد المغرب منها أصل عشيرته .

---

١ يُظهر ٢ جمع شِمراخ او شمروخ وهو العثكال الذي عليه بسر

وُلد بتلمسان ونشأ بها وقرأ العلوم الدينية على عمّه الشيخ أبي عثمان سعيد بن أحمد المقّريّ مفتي تلمسان ستين سنة وبرع فيها وتفرّد بعلم الحديث حتى لُقب بحافظ المغرب وتضلّع من الآداب واللغة والشعر وكان آيةً في جودة القريحة وقوة البديهة وحسن المحاضرة وانتهت اليه رئاسة علماء زمانه في علم الكلام والتفسير والحديث وترامى صيتهُ في الآفاق ولمّا ورد فاس كرسيّ الخلافة المرّاكشية لقي من سلطانها غاية الاعزاز والاحتفاء وقلّدهُ الفتوى فقام باعباء مهمته أتمّ قيام وظلّ في هذا المنصب نحو ثلاث عشرة سنة ثم توالت القلاقل والفتن على إثر موت السلطان فسئم المقّريّ الاقامة ورحل عن مراكش وقصد مكة فأدى فرائض الحجّ وتوجّه الى مصر وسكنها مدّة فلم يطب لهُ فيها مقام فغادرها وزار بيت المقدس ورجع الى القاهرة وكرّر منها الذهاب الى مكّة خمس مرات وأملى فيها على قصد التبرّك دروساً عديدة ثم عاد فدخل بيت المقدس وألقى عدة دروس بالجامع الأقصى وزار الخليل وكانت مدة إقامته خمسة وعشرين يوماً ثم ورد من المقدس الى دمشق وأنزلهُ مواطنوهُ المغاربة في مكان لا يليق به فأرسل اليه أحمد بن شاهين مفتاح المدرسة الجقمقية ولمّا دخلها أعجبتهُ فنقل أسبابهُ اليها واستوطنها مدة إقامته .

ولقي المقّريّ بدمشق من الاكرام والتجلّة والحظوة عند العامة والخاصة وإقبال الناس عليه مالم يتفق لغيره من العلماء الواردين وكان كثيراً ما يشيد بذكر [1] أهلها ويفيض في تعداد مناقبهم ومآثرهم وينوّه [2] بكرم اخلاقهم وكمال أريحيتهم ويصف محاسن مدينتهم وقد عقد في كتابه

---

[1] يشيعه ويعلنهُ بالثناء عليهِ [2] يُشهر

« نفح الطيب » فصلاً يتعلّق بها وبأهلها وأورد في مدحها أشعاراً كثيره. وجرت بينه وبين أدبائها وعلمائها مطارحاتٌ[١] شتّى ومخاطبات شعريّة ونثريّة ذكر منهـا قسماً صالحاً في كتابهِ المشار اليهِ. ويحكى انهُ دُعي الى مجلس بعض الأعيان وكان في صحبته عبد الرحمان العماديّ مفتي دمشق وأحمد بن شاهين المارّ ذكرهُ فسّ المقّريّ ثلجاً وقال « الماس هذا » فأنشد أحمد بن شاهين مرتجلا :

شيخنا المقّريُّ وهـو الناسُ   والذي بالأنام ليس يقـاسُ
مسّ ثلجاً وقال « ألماسُ هذا »   قلتُ « ألماس عندنا ألماسُ »

ثم ارتجل بيتين آخرين في الثلج :

غنيتُ بالثلج عن سوداءَ حالكةٍ   من قهوةٍ لم تكن في الأعصر الأوَلِ
وقلت لمّـا غـدا خلّي يعنّفني   في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحَلِ[٢]

فقال العماديّ :

يا بردها ثلجةً جاءَت على كبدٍ   حرّاءَ من فرقة الأحباب في وجلِ[٣]

فقال المقّريّ :

تحلو إذا كُرِّرت ذوقاً وعادةُ مـا   أُعيدَ أن يُلتقى بالكُرهِ والمللِ[٤]

فقال العماديّ :

لعلّ اعـلالةً بالثلج ثانيـةً   يدبُّ منها نسـيم البرء في عللي[٥]

---

١ جمع مطارحة مصدر طارحهُ الكلام والشعر اذا جاوبهُ وناظرهُ ٢ عنّفه لامهُ ووبّخهُ وزحل نجم بعيد خفي ٣ الوجل الجوف ٤ الكُره البغض والملل الضجر ٥ يدب يسري والبرء الشفاء والعلل الامراض جمع علة

فقال المقّريّ :

إذا دعاني بمصرٍ ذكر معهدها أجاب دمعي وما الداعي سوى طللِ

فقال العماديّ :

لو كان في مصرَ ماءٌ باردٌ لكفى عن الثلوج ومن للعور بالحوَلِ [1]

وكانت إقامة المقّريّ بدمشق دون الأربعين يوماً ورحل منها الى مصر وعاد الى دمشق مرّةً ثانية وحصل لهُ من الاكرام ما حصل في قدمتهِ الأولى وحين فارقها أنشد :

إن شام قلبي عنك بارق سلوةٍ ياشام كنت كمن يخون ويغدرُ [2]
كم راحلٍ عنها لفرط ضرورةٍ وعلى القرار بغيرها لا يقدرُ
متصاعد الزفرات مكلوم الحشا والدمع من أجفانهِ يتحدّرُ [3]

ورجع الى مصر واستقرّ بها مدة يسيرة وأراد العود الى دمشق للتوطّن بها ففاجأهُ الحمام قبل نيل المرام .

وللمقّريّ عدّة تآليف أجلّها وأشهرها كتاب « نَفْح الطيب في غصن الأندلس الرطيب » وهو تاريخ كبير يقع في أربعة مجلّدات ضخام جمع فيه أقوال من سلفهُ من مؤرّخي الأندلس وزاد عليها ما وصلت إليهِ يدهُ مما لم يذكروهُ ورتبهُ على قسمين أوّلها في الكلام على جزيرة الأندلس وما توالى عليها من الدول وتعاقب فيها من الحدثان منذ

---

١ لا يخفى ما في بعض هذه الابيات من التضمين لبعض أشطر من قصيدة للمتنبي مطلعها : أجاب دمعي وما الداعي سوى طللِ دعا فلباهُ قبل الركب والإبلِ ٢ شام البرق رقبه لينظر اين يمطر والسلوة الذهول والنسيان ٣ الزفرات جمع زفرة وهي استيعاب النفس من شدة الغمّ ومكلوم مجروح

افتتاحها على يد طارق بن زياد الى انقراض ملك العرب فيها بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ مسيحيّة وقد أفاض في وصف مدنها وعوائد أهلها وتراجم ملوكها وأمرائها وعلمائها وأدبائها وأديباتها والراحلين منها وأليها بحيث أصبح كتابهُ هذا أكمل تاريخ لمدة العرب في الأندلس.

وأمّا القسم الثاني منهُ فستقلٌّ بأخبار لسان الدين بن الخطيب وقد بسط فيهِ الكلام على أصلهِ وفصلهِ فعرّف بعشيرتهِ وعدّد أسلافهُ واستوعب حوادث سيرتهِ. وفصّل ما جرى لهُ منذ ولادتهِ الى يوم نكبتهِ وعقّب بتراجم مشايخهِ وأولادهِ وتلامذتهِ وما يتعلّق بهم وأطنب في إيراد لُمَعٍ من مخاطباتهِ ومراسلاتهِ ونظمهِ ونثرهِ ومصنّفاتهِ وكلّ ما يرمي اليهِ من قريب أو بعيد ومن قليل أو جليل. ولا مرية ان تصنيفهُ هذا بحرٌ زاخرٌ بالفوائد التاريخيّة والعلمية والأدبيّة ويكاد يكون غاية الغايات في هذا الباب لولا ما يؤخذ على المؤلّف من الافراط في الاستطرادات ولو لفائدة ما وعدم اكتراثهِ بالترتيب والتبويب ممّا جرّهُ الى تكرارات كان في غنى عنها.

هؤلاء على ما ترى أشهر مشاهير المؤرخين في «طور الانحطاط» وقد بقي ولا شك عددٌ وافرٌ من العلماء الأعلام نبغوا في تلك المدة المديدة وايّدوا جانب الآداب لكن حدود هذا «المختصر» لا تتسع لذكرهم فعسى أن يكون فيما ورد كفاية في هذا المقام.

ملحق

في المؤلَّفات الغُفْل [1]

لا يخفى على من لهُ قليل إلمـــام [2] بالآداب العربيّة أن عدةً من المؤلّفات الشائعة الذكر على ألسنة الخاصّة والعامّة لا يُعرف لها واضع. منها ما هو بلغة العامّة كقصة بني هلال المعروفة بالتغريبة وليست من غرضنا ههنا ومنها ما هو باللغة الفصحى وسنذكر بعضها توفية للبحث وتتمة للفائدة .

سيرة عنترة

مرّ الكلام على هذه « السيرة » في باب « اللغة في الجاهلية » فعليك بالمراجعة .

ألف ليلة وليلة

هو الكتاب الشهير الذي طار صيتهُ في مشارق الأرض ومغاربهـا وأُولع الناطقون بالضاد كبيرهم وصغيرهم بمطالعتهِ والتفكه بهِ فأضحى أنيسهم في خلواتهم وجليسهم في حلقاتهم واتخذوهُ رفيق أسفارهم وحديث اسمارهم [3]. وترامت سمعتهُ الى الأعاجم فنقلوهُ الى لغاتهم واقبلوا على قراءتهِ وتفهّمهِ وأُعجبوا بهِ شديد الاعجاب حتى فاقوا أصحابهُ بمعرفتهِ وانتقادهِ وتمييز أقسامهِ وجمع شتاتهِ واللهج بذكرهِ .

---

[1] هي التي لا يعرف واضعها [2] معرفة [3] جمع سمر وهو الليل والحديث في الليل

والمزيّة الجليلة التي اتسم [١] بها هذا الكتب وحببّته الى الناس جميعاً على اختلاف أذواقهم وأطباعهم إنما هي حسن وصفهِ لأخلاق العرب في العصور الاسلامية الوسطى بالعراق ومصر والشام وبسط الكلام على عوائدهم في افراحهم ومآتمهم [٢] ومجالسهم ومعاملاتهم وسائر أحوالهم من أعلى طبقات الهيئة الاجتماعية الى أدناها. فجاءت رواياته أشبه شيء بمشاهد حيّة استحضر فيها مصطنعها أشباح [٣] الغابرين من ملوك ومماليك وسراة وصعاليك [٤] فأعادوا على مرأى من القارئ وقائع أيامهم وماجريات أقوامهم. مما تلذّ الأديب مطالعته وتروق العالم المنقّب الاحاطة بهِ لاستطلاع طلع الامم والوقوف على آدابهم الانفرادية والاجتماعية.

الاّ أنّه يستهجن ما فيه من الأخبار المجونيّة التي تنفر منها أذواق أهل العصر؛ فاضطر ارباب الدين وذوي الآداب الصحيحة ان يحذّروا من مطالعته. ودفعت الغيرة حضرات الآباء اليسوعيين في بيروت إلى تنقيحه، وحذف ما يستسمج منه، فزاد ذلك في قيمة الكتاب، وقرّب متناوله من جميع الناطقين بالضاد.

ومع ما لهذا الكتاب من الشهرة البعيدة لم يهتد الباحثون الى معرفة واضعهِ او واضعيهِ وقد شمّر علماء النقد عن ساعد الجدّ لازاحة اللثام [٥] عن وجه الحقيقة فسلكوا طرق الاستدلال والاستنتاج واستنفدوا أسباب التحقيق والاستنباط فلم يتسنّ [٦] لهم قطع عرق الشبه [٧] والجزم بشيءٍ في هذه المسألة المبهمة وتضاربت [٨] آراؤهم في أصل وضعهِ وزمان تأليفهِ.

---

١ وسمه جعل لهُ سمة اي علامة فاتسم ٢ جمع مأتم وهو المناحة ٣ جمع شبح وهو الخيال والشخص والغابر الماضي ٤ السراة الاشراف والصعاليك الفقراء ٥ كشف الحجاب ٦ تسنى الامر تسهل ٧ ازالة الالتباس ٨ تصادمت

فذهبت جماعةٌ أن الكتاب فارسيّ اللغة وأن ما لدينا منقول عن نسخةٍ فارسيّة قديمة العهد عُرّبت فيما عُرّب من الكتب الأعجميّة في الدولة العباسيّة وسندوا مذهبهم الى ما جاء للمسعوديّ في مروج الذهب عند كلامهِ عن الكتب المترجمة من الفارسيّة والهندية والروميّة مثل كتاب « هزار افسانه » وتفسير ذلك من الفارسيّة الى العربيّة « الف خرافة » والخرافة بالفارسيّة يقال لها افسانه والناس يسمون هذا الكتاب « الف ليلة وليلة » وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شيرازاد ودينازاد » فيؤخذ من هذا النصّ أن الكتاب منقول برمّتهِ [1] عن الفارسية وهو غير الواقع كما سترى. ولصاحب الفهرست كلام في المعنى نفسهِ أشبه بالاستدراك على ما سبق. فقد قال عند ذكره كتاب « هزار افسانه » ما محصّلهُ :

« ونقلتهُ العرب الى اللغة العربية وتناولهُ الفصحاء والبلغاء وهذّبوهُ ونمّقوهُ وصنّفوا في معناهُ ما يشبههُ ... وابتدأ أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياريّ صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيهِ ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم فاجتمع لهُ من ذلك أربع مئة ليلة كلّ ليلة سمرٌ تامّ يحتوي على خمسين ورقة وأقل واكثر ثم عاجلتهُ المنيّة قبل استيفاء ما في نفسهِ من تتميمهِ ألف سمر »

فاذا اعتُبرت هذه الأقوال معاً استُفيد منها أن العرب لدى اطلاعهم على الكتاب الفارسيّ « هزار افسانه » أحبّوا أن يكون لهم شيء من مثل ذلك فهبّ قومٌ من العارفين بالأخبار يتحدّونه [2] وينسجون في لغتهم على منواله فعرّبوا عنهُ بضع حكايات يتمّ [3] على أصلها الفارسيّ الأعلام

---

[1] بكليتهِ [2] يتعمدون اسلوبهُ [3] يدلّ

الواردة فيها كشهريار وشاه زمان وشهرازاد ودينازاد وأضافوا اليها كلّ ما وصلت إليه يدهم من الأخبار المحقّقة والمختلَقة [١]. ولمّا أرادوا تحقيق عنوان الكتاب حشروا فيه حكايات متلونّة انتزعوها من مآخذ متعدّدة لا جامع بينها سوى العدد المعهود. فأغاروا [٢] لذلك على أساطير [٣] الهنود واقاصيص العجم وخرافات اليونان وأنباء الجاهلية وأخبار الاسلام حتى على التوراة والتواريخ النصرانية التي سمعوا رواياتها عن اليهود والنصارى المقيمين بين ظهرانَيْهم [٤]. وما زالت الأيدي تتداول هذا الكتاب دهراً دهراً وهو في عيون القوم ملكٌ مشاع [٥] لا يرون بأساً بالزيادة عليه والتنقيص منه حتى وصل الينا على هذه الصورة شبيهاً بفلك نوح فيه من الأنواع والأخناس ما فيه ...

هذا وقد يمكن أن يكون المسعوديّ رأى ترجمة كاملة لكتاب «هزار افسانه» لم يبلغنا منها سوى القليل ولا يبعد أن يكون القوم قد وضعوا كتباً متعدّدة اتفقت في المعنى والتسمية وهو كثير الحدوث في العربيّة.

وأمّا زمان وضع الكتاب فلعلّ الأرجح أنه جُمع نبذاً نبذاً في أزمان متفاوتة كما ألمعنا اليه سابقاً ولا شكّ أن جُلّ الكتاب إن لم نقل كلّه من موضوعات طور الانحطاط فإن لغته أقرب الى اللغة العاميّة منها الى الفصحى. على أن روايته لا تخلو من تفنن في سرد الحكايات وسياق الحوادث مع رقة وانسجام في العبارة وبراعة في الوصف تنشط على مطالعة الكتاب والتفكّه بأحاديثه الغريبة ووقائعه العجيبة.

---

١ الموضوعة والمخترعة ٢ هجموا ٣ جمع اسطورة وهي القصة التي لا اصل لها
٤ في وسطهم ٥ مشترك

أمثال لقمان

من هو هذا لقمان الذي تُنسب اليهِ هذه الأَمثال؟ أهو لقمان الحكيم أَو لقمان بن عاد او لقمانٌ آخر؟ هل لقمان الحكيم ولقمان بن عـاد رجلٌ واحد؟ في أَي زمن عاش؟ هل هذه الأمثال عربية أَو معرَّبة؟ متى دُوِّنت؟ تلك أَسئلة يتعذَّر [١] الجواب عليها بوضوح.

أَمَّا لقمان الحكيم فقد ورد لهُ ذكرٌ في القرآن في آيتين من «سورة لقمان» وهما: «ولقد آتينا لقمان الحكمة أَن اشكُرْ لله ومن يشكر فإنَّما يشكر لنفسهِ ومن كفر فإن الله غنيٌّ حميد. وإذ قال لقمان لابنهِ وهو يعظهُ يا بُنيَّ لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم» وقيل في التفسير أن لقمان كان نبيًّا وقيل كان حكيماً وقيل كان رجلاً صالحاً وقيل كان خيّاطاً وقيل كان نجّاراً وقيل كان راعياً وقيل كان حبشياً غليظ المشافر [٢] مشقّق الرجلين وقيل كان من عبيد سليمان وقيل انهُ هو سليمان نفسهُ وقيل غير ذلك. وكم للعرب من قيل وقال في مشكلات الامور. ورُوي أن انساناً وقف على لقمان وهو في مجلسهِ فقال «الستَ الذي كنت ترعى معي في مكان كذا وكذا» قال «بلى» قال «فما بلغ بك ما أرى» قال «صدق الحديث وإداء الأمانة والصمت عمّا لا يعنيني».

وأمَّا لقمان بن عاد فان العرب يصفونهُ بالحذق والزكن والفراسة [٣] والمكر والدهاء والحسن والقبيح ويزعمون أن لقمان هذا هو الذي بعثتهُ عاد في وفدها الى الحرم يستسقي لها فلمّا أُهلكوا خُيّر لقمان بين بقاء سبع بعرات سُمر من أَظبٍ عُفرٍ [٤] في جبلٍ وَعرٍ لا يمسّها القطر أو بقاء

---

١ يستحيل ٢ جمع مشفر وهو شفة البعير ٣ الزكن الفطنة والفراسة الاستدلال بالظاهر على الباطن ٤ الظبي الأعفر ما كان أبيض في غبرة

سبعة أَنسرٍ كلما هلك نسر خلَف بعدهُ نسر. فاختار النسور. وكان يأخذ فرخ النسر فيعيش عنده خمس مئة سنة أو أقل او أكثر فاذا مات أخذ آخر مكانهُ وهكذا الى السابع وهو اطولها عمراً وسمّاهُ لُبَداً ولما مات لُبَد مات لقمان. وقد ذكرتهُ الشعراء، قال النابغة:

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبَدِ [1]

هذا مجمل ما يروى عن اللقمانين. واما الأمثال فيرجّحون أنها من قلم راهب سريانيّ نبغ بين القرن العاشر والقرن الثاني عشر للميلاد حذا فيها حذو «أمثال إيزوب» اليونانيّ وضعاً وتعريباً فأن كثيراً من هذه الأمثال مرويّة في اليونانية ومعزوة الى إيزوب. وأخبار الحكيمين العربيّ واليونانيّ تتشابه جدًّا بحيث قالوا أنهما واحد والله اعلم.

---

١ الضمير في أضحت للديار واحتمل ارتحل وأخنى عليه الدهر أهلكهُ

اللغــة

في

طَوْرِ ألانبعَــاث[١]

من أوائل القرن التاسع عشر الى أيامنــا

اليقظـة

جرت في الأصقاع[٢] الغربية في أواخر القرن الثامن عشر حوادث خطيرة أدّت الى فتن وقلاقل اضطربت لها القارّة الأوربيّة جمعاء. فمادت[٣] عروش الملوك وتحطّمت صوالجتهم[٤] وهوت تيجانهم الى الحضيض[٥] وانقلبت الممالك ساحات قتال وعراك اصطدمت فيهـا الشعوب فبيعت النفوس رخيصة وانهمرت[٦] الدماء غزيرة. فما هو الاّ صباح يوم ومساؤه حتى انقلبت طبقات الهيئة الاجتماعية هنالك ظهراً لبطن وأصبح عاليها سافلها فتبوّأ المأمور منصّة[٧] الأحكام واعتصب المملوك تاج الملوك العظام وقبض الصعلوك عصا السيطرة[٨] على الأنام.

---

١ بعثهُ فانبعث أحياهُ فحيي ٢ جمع صقع وهو الناحية ٣ تحركت واضطربت ٤ جمع صولجان وهو عصا الملك ٥ الارض ٦ انسكب ٧ المنصة الكرسي واعتصب التاج لبسهُ ٨ سيطر على القوم تسلط عليهم

واستطارت شعلة الحرب الى الشرق بإغارة الفرنسيس على البلاد المصرية لغايات ليس لذكرها محلٌّ في هذا المقام فتوغّلوا [١] في البلاد شرقاً وغرباً وتخطّت [٢] جيوشهم الى ما وراء القطر المصريّ فدخلوا سورية وفتحوا عدة مدنٍ منها. فهبّ الشرقيّون فجأة من عميق سباتهم على دويّ المدافع وصلصلة النصول [٣] وأخذوا في الكفاح والدفاع مدةً من الدهر وتعدّدت المعارك الهائلة التي ازدحمت فيها الأقدام وتحكّكت الأقوام بالأقوام. ثم ما لبثت الأحوال السياسية ان اضطرت الفاتحين الى التقهقر [٤] والجلاء عن البلاد التي شنّوا عليها غاراتهم [٥] فانفثأت سورة [٦] الاضطراب وحطت الحرب أوزارها [٧] الى حين وعاد الشرقيون يرتعون مدةً في بحبوحة الطمأنينة والسلام وفي قلوبهم مما رأوا من الأوربيين أشياء.

ولا يتوهّمنّ المطالع الكريم أنّ في ذلك إشارةً ولو بعيدةً الى شيءٍ من الحفيظة تسرّب [٨] الى قلوب بني المشرق فإنّ الأريحية العربية أسمى من أن تنالها هذه الشواعر الدنيئة وإن هم الاّ أبناء أولئك الابطال الذين طالما أبدوا آيات البطش والبسالة في حومة الوغى [٩] فقهروا العدوّ بجريّ كرّاتهم وصادق طعناتهم حتى اذا عدلوا الى المحاجزة بعد المناجزة [١٠] صافح الخصم خصمهُ مصافحة الصداقة والاخاء وأطرى [١١] كلٌّ بأس صاحبهِ وإقدامهُ بعبارات ثناءٍ لا يشوبهُ رثاء وكلاهما يعلمان أنهما أخوان في الفروسيّة قد قُدَّا من أديمٍ [١٢] واحد فكانا أشبه من الساعد بالساعد.

---

١ ابعدوا ٢ تجاوزوا ٣ النصل حديدة السيف وصلصلة النصول صوتها اذا حرّكت ٤ التقهقر الرجوع الى خلف والجلاء عن البلاد الخروج عنها ٥ شنّ الغارة فرّق الخيل وصبها من كل جهة ٦ سكنت حدّته ٧ اوزار الحرب اثقالها اي آلاتها وسلاحها وحطت الحرب اوزارها كناية عن انقضاء القتال ٨ الحفيظة الغضب وتسرّب الماء سال ٩ ساحة الحرب ١٠ المحاجزة المسالمة والمناجزة المقاتلة ١١ مدح ١٢ قُدّ شُقّ والاديم الجلد

بل ما وقع في قلوبهم إنما هو إعظام مدنية أولئك الغرباء وإعجابهم بما في أيديهم من أسبابها وأدواتها ومعدّاتها وراعهم ما رأوا من احتفال الفاتحين بأمر العلوم والآداب والصنائع ورغبتهم في رفع لوائها بينهم وإيثارهم بفوائدها غير مستأثرين [١] عليهم بشيء منها وازداد دهشهم لمّا رأوا مع تلك الحملة الحربية حملة علمية قوامها من مشاهير العلماء الأعلام لا همّ لهم سوى التنقيب عن آثار السلف واستكشاف ما كان عندهم من وسائل العمران والتمدّن. وألقوا نظرةً الى الطارئين عليهم والى أنفسهم فألفوا والأسف ملء قلوبهم أن بين الفريقين بوناً شاسعاً وشوطاً [٢] بعيداً ضربته أيدي الدهور المتطاولة التي أركن فيها العرب الى الدعة والخمول ولم يزل نجم العلوم والآداب عندهم يهوي الى الأفول. فربأوا [٣] بأنفسهم وهم أرباب الحضارة القديمة أن يظلّوا في هذه الوهدة [٤] من الانحطاط والتقهقر وآلوا [٥] ان يتشبّهوا بهؤلاء الكرام ويفلحوا فلاحهم. فنشطت هممهم من عقلتها وثابت [٦] نفوسهم من غفلتها وتربّصوا [٧] يتحيّنون الفرص [٨] لنيل المنى والنهوض الى أوج [٩] العلى.

أَلنَّهْضَةُ ٱلمِصْرِيَّة

ولم تمر بضع سنوات حتى أحلّت الأقدار في دست ولاية مصر المصلح الكبير والرجل العصاميّ [١٠] الشهير محمد علي باشا رأس الأسرة [١١] الملكيّة

---

١ آثرهُ بالشيء ايثاراً خصهُ بِهِ واستأثر بالشيء خصهُ بنفسِهِ ٢ المسافة التي تجريها الخيل مرّة ٣ رفعوا ٤ الهوّة ٥ حلفوا ٦ نشطت خرجت والعقلة القيد وثابت رجعت ٧ انتظروا ٨ يقصدونها ٩ اعلى الشيء ١٠ هو الذي شرف باعمالِهِ ويقابلهُ العظاميّ وهو الذي ورث الشرف من اجدادهِ ١١ العشيرة

فرأى ببعيد نظرهِ وثاقب بصيرتهِ أنهُ لا سبيل الى لمّ شعث [1] الأمة وتدارك أمرها قبل الانحلال والاضمحلال الاّ بتثقيف عامة الشعب وتنوير عقولهم بالآداب والعلوم الصحيحة . وشاهد عياناً ما خلّف الفرنسيُّون في القطر من الآثار الحسنة الصالحة على قصر مدة احتلالهم للبلاد فقدّر مدنيّتهم حقّ قدرها ووطّن النفس على استقدام عصابةٍ من علمائهم يتخرّج عليهم أبناء الوطن ويتلقّون عنهم علومهم وفنونهم حتى اذا أحكموها استظهر [2] بهم على إصلاح البلاد وترقية شؤونها . وكما عزم فعل فمهّد وسائل الاستيطان لأولئك الغرباء ووفّر لهم أسباب الراحة والرفاهية والغنى فطابت لهم الاقامة في ظلّهِ الظليل وسمع مواطنوهم بما يلقون من الاعزاز والاكرام فتقاطروا زرافاتٍ [3] الى وادي النيل يفيدون بما عندهم ويستفيدون في مقابلة ذلك الثروة الطائلةَ والجاهَ العريض .

ولم يكتفِ محمد علي بدعوة الأجانب لتدريب شعبهِ على ضروب التمدّن الحديث بل أرسل أيضاً فئةً من نخبة شبّان البلاد الى فرنسا يتعلّمون في مدارسها ويتفحّصون خواصّ الحضارة الغربية في منبتها ومتى وقفوا على حقائقها وكشفوا أسرارها واستبطنوا دخائلها رجعوا الى وطنهم ولقّنوا أبناء جلدتهم [4] بلغتهم ما حصلوا من العلوم والفنون وهكذا كان. ولم يدّخر وسعاً في بذل ما عندهُ من الحكمة والسلطة والمال لتوفير أسباب الرقيّ في البلاد باستحضار ما لا بدّ منهُ من الأقطار الغربية للمشروعات الجديدة واستنباط كل ما يمكن استنباطهُ من القطر نفسهِ. فأنشأ المدارس وأوعز بترجمة المؤلّفات المفيدة وطبعها وأمر بها فنُشرت في الشعب وصارت العلوم بها من عامّة الطلاّب على حبل الذراع وكانت المطبوعات قبلاً بمثابة تحفٍ نفيسة

---

١ ما تفرق من الشيء ٢ استعان ٣ جماعات ٤ ابناء جنسهم

عزيزة الوجود في الشرق لا يتسنّى اقتناؤها لغير الأغنياء .

وجرى خلفاء محمد علي الكرام على أسلوب أبيهم المقدام فرفعوا للعلم دولة فسيحة الأرجاء وارفة[١] الأفياء وجعلوا قطرهم مركز دائرة المعارف والآداب العربية ومنبثق[٢] أشعتها البهية فنُقلت بأمرهم تآليف الافرنج في العلوم الحديثة وأبرزت المطابع مصنّفات السَلَف النفيسة من زوايا النسيان وبذلوا الأموال عن يدٍ سخيّة لاقتناء الكتب المتنوعة وحشدها من الجهات وأنشأوا في عاصمتهم مكتبة شرقية حافلة تباري[٣] أعظم مكاتب العواصم الأوربية في غناها العلميّ بما حوت من المطبوعات والمخطوطات الثمينة . فسجّلوا لأنفسهم من المناقب المشكورة ما يُسطّر بمداد الفخر في جبين الدهر .

أَلنَّهْضَةُ ٱلسُّورِيَّة

وامّا في سورية فلم يكن القوم ليلبثوا هنيهة في معزلٍ عن حركة العلم والتجدّد الأدبيّ التي دبّت عواملها في جيرانهم وقد اشتهروا منذ القدم بعلوّ الهمم والاقدام على العظائم وما زال العلم ضالّتهم المنشودة ولو كان منهم مناط الثريّا[٤] فكيف وقد أصبح على طرف الثمام[٥] . وقد رأيت آنفاً أن بلاد الشام أصابها من احتلال الأجانب بعض ما أصاب مصر ولما ألقت الأحكام أزمّتها الى محمد علي ساقته الحوادث الى إرسال جنوده

١ الارجاء الانحاء وظلّ وارف اي ممتد واسع ٢ مكان انبثاق النور اي انبعاثه ٣ تسابق ٤ المناط مكان النوط اي التعليق والثريا سبعة كواكب في عنق الثور والعبارة مثل يضرب في البعد ٥ الثمام نبت قصير ضعيف لا يطول . والعبارة مثل

الى سورية وكان يتمنى تملكها فبسط ابنهُ ابرهيم باشا سلطتهُ عليها بضع سنوات وكان من حروبهِ وتداخل الدول الأوروبية ما كان.

فامتزج الشعبان في الحرب والسلم وورد كثير من نبهاء السوريين الى مصر ورأوا فيها متسعاً لاستثمار قواهم العقلية ومجالاً لجياد قرائحم الذكية فاستوطناها وخدموا العلم خدماً جليلة. ولقي محمد علي في لبنان رجلاً مقداماً طمّاحاً الى العلى وهو الأمير بشير الشهابي الكبير فوقعت محبة كلٍّ منهما في قلب صاحبهِ وتآخيا على السرّاء والضراء وطلب الأمير من صديقهِ أن يأذن لعصابةٍ من نجباء اللبنانيين في الذهاب الى مصر ليتلقّوا علوم الطبّ في القصر العينيّ فأجابهُ الباشا الى سؤْلهِ وازدادت روابط العلم وثاقة بين البلادين. وكأن تقدّم المصريين في النهضة الحديثة هاج غيرةً شريفة في السوريين فاندفعوا يجرون في مضمار [١] العلوم اندفاع الجواد أضرّ بهِ طول الجمام [٢] ولم تنِ لهم همةٌ [٣] حتى أدركوا إخوانهم السابقين ومشوا معهم قدماً لقدمٍ كفرسي رهان [٤] ورضيعي لبان والله يعلم كيف كانت حالهم لو مدّت إليهم يد الأقدار من الإسعاف ما مدّت لجيرانهم.

غير أنّ للنهضة الحديثة في سورية أسباباً أُخر من الخطورة بمكان عظيم وهي الرسالات التي تقاطرت اليها من الآفاق الأوربية والأميركية على تعدّد مللها ونحلها. وكأن أبناء الغرب لما رأوا ما في احتلال الشرق بقوة السلاح من خشونة المركب عدلوا الى الفتح السلميّ وهو أسلم عاقبةً وأوفر عائدةً لكلا الفريقين فضلاً عمّا لهم فيهِ من حسن الذكر وطيب الأُحدوثة والمأثرة السنيّة. فتباروا [٥] جميعاً في إنشاء المدارس

---

١ ميدان ٢ الراحة ٣ ونى الرجل يني ضعف ٤ خيل الرهان هي التي يراهن على سباقها والعبارة مثل في التساوي ٥ تسابقوا

العالية وفرّوا فيها أسباب العلم النظرية والعملية وتخرَّج فيها الجماهيرُ الغفيرةُ من أبناء سورية ونبغ منهم جماعةٌ هم أساطين العلم ونوابغ الأدب حلّقوا [١] في سماء الشرق كالكواكب الساطعة وبعثوا أشعّتهم المحيية الى أقاصي البلاد العربية .

ولأرباب هذه المدارس الأجنبيّة فضلٌ على السوريين خاصّة وأبناء العرب عامّةً لا يمحوه كرور الزمان ولن ينسوهُ ما تعاقب المَلَوان [٢]. فقد ربي في ظلّهم أجيالٌ متتابعة لا تقع تحت حصر كان منها العلماء والأطبّاء والشعراء والكتبة الى آخر من هنالك من حَمَلة العلم وأُولي العرفان الذين يفاخر بهم الشرق سائر أُمم العالم. ومهما قال أصحاب العصبيات في الغايات التي يرمي إليها منشئو هذه المعاهد العلمية ومدبّروها فلا أقلَّ من أن يقرّ كل امرئٍ حرّ صادق أن هؤلاء الأعاجم الذين نشروا لغاتهم وعلومهم فيما بيننا قد أنعشوا أيضاً اللغة العربيّة من عثرتها [٣] وحبّبوها الى أبنائها أنفسهم واستثاروا كامن هممهم لتحدّي [٤] أجدادهم الأماجد واسترجاع سالف عزّهم بعد ان أصبح أثراً بعد عين [٥]. فتداركوا قبس [٦] العلم عند الشرقيين قبل انطفائهِ واحتالوا في تلك الشعلة الضئيلة [٧] حتى امتدت شيئاً فشيئاً وعمّت البلاد العربية وكان عنها هذه الحياة الجديدة التي نستمتع بها الآن ونتمنى لها بحَوْلهِ تعالى مستقبلاً مجيداً .

وهبّ الوطنيون وقد ثارت في رؤوسهم حميّا الغيرة القوميّة فأنشأوا هم أيضاً المدارس الكبرى جعلوا فيها للّغة العربية المقام الأول فتقاطر إليها الطلاّب من كلّ فجّ وصوب [٨] وضاقت بهم حلقات التدريس على رحبها

١ النوابغ جمع نابغة وهو الرجل العظيم الشأن وحلق الطائر ارتفع في طيرانهِ ٢ الليل والنهار ٣ سقطتها ٤ يتعمدون طريقتهم ٥ عين الشيء ذاتهُ وشخصهُ ٦ شعلة النار ٧ الضعيفة ٨ الفج الطريق بين جبلين والصوب الناحية

وأكبّوا جميعاً على التضلّع من العلم ولا إكباب الجياع على القصاع [1] حتى إذا ما قضوا نهمتهم [2] منها أخذوا على أنفسهم بثّ ما اقتبسوهُ في عامّة الشعب فبرزوا في ميدان الحياة يجولون جولات الفرسان ويصولون صولات الشجعان. فنهم من عقدوا الجمعيات العلمية يتعاضدون [3] فيها على رفع منار العلم ويتعاونون ومنهم من انقطعوا الى التأليف والتصنيف فأحيوا الليالي [4] في التحرير والتحبير ومنهم من احتذوا مثال الأوربيّين في احتراف الصحافة يخاطبون بها القريب والبعيد ويبعثون فوائد العلم الى قصر الأمير وكوخ الفقير.

وليس المراد بهذا المقال أن المدارس العالية كانت معدومة في الشرق قبل القرن التاسع عشر فان رؤساء الطوائف الكاثوليكية كانوا شديدي الحرص على تلقين رعاياهم العلوم الصحيحة لا تفتر لهم همةٌ في تنشيط الناشئة على ارتشاف أفاويق [5] العلم والأدب والتبحر في المعارف والفنون لعلمهم أن الجهل عاقبتهُ وخيمة حتى في أمور الدين وأنّ العلم والدين صنوان [6] شقيقان ما فُرّقا إلاّ تطرّق الوهن الى كلّ منهما وإن هما الا شعاعان من شمس الحقّ السرمديّ الذي قال عن نفسه عزّ وجلّ « انّ الله نور » — وامّا المسلمون فمدرستهم المصرية المعروفة بالجامع الأزهر أشهر من أن تحتاج الى تعريف ولم تزل في طور الانحطاط ملجأً العلوم العربية وقد تفقّة فيها عصابة جليلة من أولي المعرفة كانت لهم في الآداب القدم الفارعة. غير أن فوائد تلك المدارس مهما عظمت وجلّت

---

١ جمع قصعة وهي الصحفة الكبيرة ٢ شهوتهم ٣ يتساعدون ٤ سهروها ٥ ارتشف الماء بالغ في شربهِ والأفاويق جمع افواق جمع فيقة وهي اللبن يجتمع في الضرع بين حلبتين ٦ أخوان

لم تتعدَّ الخاصّة ولا سبيل الى النهضة الاّ بتنوير عامّة الشعب ونشر المعارف حتى في أدنى طبقاته فيهبّ كلّهُ دفعةً واحدة ينفض عن عاتقهِ[1] غبار الخمول ويسعى في طلب العلى سعياً حثيثاً[2].

وما قيل في نهضة مصر وسورية يقال في نهضة سائر البلاد العربية وإن كانت غالباً أخفّ وأضعف فأنّ اللغة هي لجميع هذه الأقطار بمثابة الروح من الجسد تنتعش في الأعضاء الرئيسية ثم تعم سائر الأعضاء. فكأن صوت النفير[3] الذي دوى في مصر وسورية ترامى صداهُ الى الآفاق القاصية فاستيقظ الأقوام جميعاً على نداء: حيَّ على الفلاح.

وَسَائِلُ ٱلنَّهْضَة

مَن أمعن النظر فيما آلت إليه الآداب العربيّة من الانحطاط في الطور الماضي وما أسفر[4] عنهُ القرن التاسع عشر من النهضة الزاهرة الزاهية أيقنَ أن السرّ في ذلك الانقلاب الحميد إنما هو إنشاء المدارس في أنحاء الشرق وترقي فنّ الطباعة ودخول الصحافة عند الناطقين بالضاد. ولا مراء أن تعدّد المطابع واستحداث الصُحُف من أقوى العوامل التي استظهر بها عقلاء الأمّة وعلماؤها على سلطان الجهل الذي كان قد مدّ أطنابهُ وضرب سُرادقهُ[5] على هذا الوطن العزيز ولولاها لما استفدنا كثيراً من احتكاكنا بأمم الغرب وإقبالنا على اقتباس علومهم وفنونهم وصنائعهم ومدنيّتهم من مدارسهم ومن اوطانهم نفسها ولكنّنا الآن في أول شوطنا من مضمار الحضارة أو إن أحببت فقل لكانت بلادنا تستضيء بغلَسٍ عميق

---

١ موضع نجاد السيف (علاقتهُ) من الكتف ٢ سريعاً ٣ البوق ٤ أسفر الصبح أشرق ٥ الاطناب جمع طنب وهو حبل طويل تشد بهِ الخيمة والسرادق الخيمة العظيمة

نسير في نوره الضئيل بخطوات مضطربة . ولما كانت الصحافة من الطباعة بمنزلة الثمرة من الشجرة أحببنا أن نأتي بفذلكة[١] من تاريخ الفنّين عندنا تتمةً للبحث وزيادة للفائدة . وأمّا المدارس فقد مرّ عليها من الكلام ما فيه كفاية .

ألطِّبَاعة[٢]

يعلم المطالع الأديب أن فنّ الطباعة اكتُشف في أواسط العقد الثالث من القرن الخامس عشر على يد غوتنبرج الألماني الشهير وكان لاختراعه في قلوب معاصريه من الدهشة والاعجاب ما كان . وما كاد يشتهر أمر الطباعة بالحروف النقّالة حتى اصطُنع منها قوالب للّغات الشرقية وفي سنة ١٥١٤ ظهر أول كتاب طُبع بالعربية وهو كتاب صلوات عُنيت بنشره مطبعةٌ سعى بانشائها الحبر الأعظم يوليوس الثاني ثم طُبع الزبور[٣] في جنوة سنة ١٥١٦ بأربع لغات منهنّ العربية على يد أحد الاساقفة . وأخذت المطبوعات الشرقية ولا سيّما العربية تزداد شيئاً فشيئاً حتى عمّ استعمالها في العواصم وأمهات المدن بأُوربّا وأصدرت مطابعها عدداً غير قليل من المؤلفات الخطيرة كالأسفار المقدسة للعهدين العتيق والجديد وكتب دينية وجدلية ومصنّفات علمية كنزهة المشتاق للادريسيّ وقانون ابن سينا وتحرير أصول اقليدس للطوسيّ وغير ذلك مما يطول استقراؤه[٤] . فكانت المطبوعات العربية ذات الشأن من واردات أوربّا .

---

١ بخلاصة وهو مأخوذ من قول الحاسب اذا فرغ من حسابه واجله : فذلك كذا وكذا ٢ اقتطفنا هذه العجالة من مقالة مطولة في تاريخ الطباعة في الشرق لحضرة الاب الفاضل لويس شيخو اليسوعي (المشرق ٣ : ٣) ٣ الزبور بفتح الزاي الكتاب وغلب على مزامير داود ٤ تتبعه

ودخلت الطباعة الى الشرق عن طريق القسطنطينية سنة ١٤٩٠ بمساعي عالم يهوديّ طبع لأبناء ملّتهِ تآليف عديدة دينية وعلمية ولم تظهر فيها المطبوعات بالحرف العربي الاّ سنة ١٧٢٨ ولم تزل نزرةً جدًّا الى أوائل القرن التاسع عشر. ولا عجب فأن العربية هنالك لغة فئة قلية من أرباب العلم.

وأمّا البلاد العربية فكان السبق فيها لسورية في اتخاذ المطابع وأول مطبعة استُحضرت اليها هي مطبعة دير قزحيا أنشأها الرهبان اللبنانيون في أوائل القرن السابع عشر وطُبعت فيها التآليف العربية بالحرف السرياني المعروف بالكرشوني واقتصرت في الأغلب على إصدار كتب دينية. وظلّت الكتب العربية تُطبع في الشرق بحرف أجنبيّ إمّا عبرانيّ أو سريانيّ الى أن ظهرت في حلب في أوائل القرن الثامن عشر المطبوعات العربية بحرفٍ عربي اصطنعهُ أحد أساقفة الروم الملكيين وأبرز بهِ عدة مؤلفاتٍ دينية فكان للشهباء بمساعيهِ الحميدة شرف التقدم على ما سواها من مدن الشرق في فن الطباعة العربية وكفت اللغة مؤونة العارية فلم تعد عالةً [1] على أختيها في أمر المطبوعات. ولاشكّ أن هذه المأثرة من ثمار النهضة العلمية التي دبّت عواملها في نصارى حلب وبدت طوالعها في أوائل القرن الثامن عشر وكان قطب [2] رحاها المثلّث الرحمات السيد جرمانوس فرحات الماروني ومن هنالك انتشرت شيئاً فشيئاً في القطر الشاميّ.

ثم جاءت مطبعة دير مار يوحنا الصابغ في الشوير من لبنان أنشأها رجلٌ حلبيٌّ شهير بتقاهُ وعلمهِ يُعرف بعبد الله زاخر كان قد هاجر الى لبنان وانقطع في العبادة والتصنيف وأنشأ مطبعة أبرز منها تآليف دينية

---

١ يقال هو عالة على أهلهِ اذا كان عاجزاً مفتقراً لمن يعولهُ ٢ حديدة تدور عليها الرحى

عديدة. وتلت المطبعة الشويرية مطبعة القديس جاورجيوس للروم غير الكاثوليك في بيروت برزت منها بعض كتب دينية ثم عُطّلت نحو مئة سنة ولم تعد الى العمل الاّ في أواسط القرن المنصرم. وأنشأ الانكليز مطبعة عربية في مالطة سنة ١٨٢٢ تولّى تصحيح مطبوعاتها اللغويّ الشهير فارس الشدياق ونُقلت الى بيروت سنة ١٨٣٤ وهي المعروفة بالمطبعة الأميركية واصطنع لها أربابها حروفاً جميلة جليّة طبعوا بها تآليف عديدة في كلّ علمٍ وفنٍّ وهي مشهورة متداوَلة.

ولمّا كانت سنة ١٨٤٨ أنشئت المطبعة الكاثوليكية الشهيرة ومـا زالت ترقى شيئاً فشيئاً معارج [١] النجاح والفلاح حتى بلغت مقاماً رفيعاً قصّرت عن الوصول اليه مطبعةٌ سواها في الشرق وندر وجود نظيرها في الأصقاع الأوربية نفسها. فضُرب المثل بنضارة [٢] وتنوّع أشكالها ودقة عملها وإحكام صنعتها وإشراق المطبوعات التي تبرز منها وبها بلغت الطباعة العربية أوج الزهاء والأناقة [٣]. ولا حاجة الى الافاضة في وصف كتبها وتعداد محاسنها وهي منتشرة في أنحاء العالم المتمدّن حاملةً كنوز العلوم الدينية والعقلية والأدبيّة ناطقة بفضل أربابها الكرام الذين وقفوا حياتهم ومشروعاتهم الجليلة على خدمة الدين القويم والآداب السليمة. وتعدّدت على إثر ذلك المطابع في بيروت وخدمت جميعها الآداب العربية خدمةً تُذكر فتُشكر. ولا تزال بيروت الى الآن مدينة المدارس والمطابع.

ودخلت الطباعة القدس الشريف بهمّة الآباء الفرنسيسيّين فأنشأوا سنة ١٨٤٦ مطبعة الأرض المقدّسة أضافوها الى ديرهم العامّ لتسهيل خدمة رسالاتهم في فلسطين ومع أن هذه المطبعة خاصّة بمصالح رهبانيّتهم فقد طُبع

---

١ جمع معرج وهو مكان العروج اي الصعود ٢ حسن ٣ الاتقان

فيها عدة كتب دينية وعلمية كثيرة الفائدة . وحذت سائر المدن الشامية حذو بيروت باستحضار أدوات الطباعة وافتتاح المطابع . وأنشأ حضرات الآباء الدومينيكيين سنة ١٨٥٦ مطبعة في الموصل لها في خدمة الدين والعلم مآثر معدودة وقد أعانت على النهضة في بلاد العراق .

امّا الديار المصرية فكان دخول الطباعة فيها على يد الحملة الفرنسوية سنة ١٧٩٨ ولما أجلوا[١] عن البلاد أخذوا أدواتهم معهم حتى إذا قبض محمد عليّ باشا على أزمّة الأحكام ورأى مسيس الحاجة الى تعميم العلم في رعيته استعاد أدوات الطباعة من الفرنسويين وأنشأ مطبعة بولاق الشهيرة سنة ١٨٢٢ وما انفكّ أرباب الأمر من بعده يسعون في ترقيتها وتوسيع نطاقها الى أن بلغت مقامها الحاليّ من النجاح وقد طُبعت فيها المؤلفات الخطيرة كما أشرنا اليه سابقاً وكان لها في إحياء اللغة فضلٌ عظيم . وازدادت المطابع في القطر المصريّ بازدياد جمهور المتأدّبين وكثرت المطبوعات العربية الى حدّ يفوت الاحصاء كما هو معلوم .

ومن هذه اللمحة الخفيفة التي ألقيناها على تاريخ الطباعة يتّضح جليّاً لكلّ ذي عينين ما لرجال الدين الكاثوليكيّ من المآثر[٢] الغرّاء والمساعي المشكورة في تمهيد السبل لهذه النهضة الشريفة وتوفير أسبابها وما لهم على البلاد العربية من الأيادي[٣] البيضاء ببذلهم النفس والنفيس في إنشاء المدارس واستحداث المطابع . فأزهرت رياض العلوم وأينعت[٤] ثمارها وراجت سوق الآداب وازدحم طلاّبها وتشبّث الشرقيون على إثر يقظتهم بالعلم فصانوا لغتهم من الفناء ووقوا أنفسهم شرّ الاضمحلال في حومة[٥] تنازع البقاء وشرعوا يجارون الأمم الراقية في مضمار العمران وفي قلوبهم من الأمانيّ ما فيها .

١ خرجوا ٢ جمع مأثرة وهي المكرمة ٣ النعم ٤ نضجت ٥ موضع القتال

ألصِّحافَة

لا حاجة فيما نرى أن نفيض في الكلام على جلال هذا الفنّ الحديث ونصف ما لهُ من الخطورة في الهيئة الاجتماعيّة فأن مقام الصحافة أصبح في أيامنا أعلى من أن يحتاج الى توجيه الأنظار اليهِ وتأثير الصحف في الخاصّة والعامّة واقعٌ لا يشك فيهِ كبير ولا صغير ولا يعزب عن فكر السياسيّ المحنّك والأمّي الغرير [1]. فالأمر والنهي والحرب والسلم والأمن والاضطراب والفقر والغنى كلٌّ ذلك متوقّفٌ على الرأي العامّ والرأي العام متوقفٌ على رأي الصحافيين. فهم في حقيقة الأمر حكّام الحكّام وأرباب النقض والابرام [2] وما إرخاء عنانهم [3] في بعض البلدان والقبض عليهِ في البعض الآخر سوى الدليل البيّن على ما في أيديهم من القوة العظيمة التي يُخشى منها ويُتّقى جانبها.

وكان دخول الصحافة في بلاد الشرق عن طريق مصر على يد الحملة الفرنسية المارّ ذكرها فأنشأ القوم جريدتين فرنسيتين سمّوا الواحدة « بريد مصر » والأُخرى « العُشارة المصرية » [4] وكانت تُوزَّع نشرة عربية تحتوي فذلكة حوادث الديوان الذي رتبوهُ للنظر في قضايا الوطنيين. ذكر ذلك عبد الرحمان الجبرتي في تاريخه عند ترجمته لاسماعيل بن سعد الخشاب قال « ولما رتب الفرنساوية ديواناً لقضايا المسلمين تعيّن المترجم

---

١ الجاهل ٢ ابرم الامر احكمهُ ونقضهُ ضد ابرمهُ ٣ العنان سير اللجام ٤ كان بريد مصر صحيفة سياسية والعشارة المصرية صحيفة علمية والمراد بالعشارة مدة عشر ايام لان الفرنسيس على اثر الثورة قسموا الشهر الى ثلاثة اقسام جعلوها بمثابة الاسابيع كل قسم عشرة ايام

في كتابة التاريخ لحوادث الديوان وما يقع فيه من ذلك اليوم . لأن القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم وأماكن أحكامهم . ثم يجمعون المتفرق في ملخّص يُرفع في سجلّهم بعد أن يطبعوا منهُ نسخاً عديدة يوزعونها في جميع الجيش حتي لمن يكون منهم في غير المصر من قرى الأرياف فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم . فلما رتبوا ذلك الديوان كما ذُكر كان هو المتقيّد برقم كل ما يصدر في المجلس من أمر أو نهي أو خطاب أو جواب أو خطإٍ أو صوابٍ وقرّروا لهُ في كلّ شهر سبعة آلاف نصف فضة فلم يزل متقيّدًا في تلك الوظيفة مدة ولاية عبد الله جاك منو [1] حتى ارتحلوا من الاقليم » .

ولمّـا آلت إمرة [2] مصر الى محمد عليّ باشا أمر بإنشاء جريدة سمّيت « الوقائع المصريّة » عهد بادارتها الى رفاعة الطهطاويّ وكانت تصدر أولاً باللغتين العربية والتركية ثم جُعلت عربية محضة ولا تزال الى أيامنا الجريدة الرسمية للحكومة المصرية تصدر ثلاث مرات في الأسبوع . وظلّت الوقائع المصرية الجريدة العربية الوحيدة في الديار المصرية الى أن صدرت جريدة وادي النيل سنة ١٨٦٧ ثم ظهرت بالاسكندرية جريدة الأهرام الشهيرة بمساعي سليم وبشاره تقلا السوريين ثم نقلاها الى القاهرة . وكانت في ابتداء الأمر عثمانية النزعة ، موالية لفرنسا ؛ ولم تزل على هذه الخطّة حتى استعرت الحرب الكونية ؛ ولمّا حطت اوزارها ، وتألف الوفد المصري ، كانت ممّن شدّ ازرهُ ؛ وعضدت سعد زغلول باشا ، ودافعت عن القضيّة المصرية الدفاع المجيد . وهي تعدّ الآن من امهات الجرائد الوفديّة .

---

[1] هو احد قوّاد الحملة الفرنسية اسلم بمصر وتسمى عبد الله [2] امارة

وتعدّدت الجرائد في القطر المصريّ ولا سيّما بعد الاحتلال الانكليزيّ وإطلاق حرّيّة الطباعة فنشأت صحفٌ متلونة الطرق والمذاهب لكلّ الملل والنحل لا سبيل الى إحصائها وكان يرجى منها إحداث حركةٍ أدبية جليلة الفوائد لولا تطرّف طائفة منها بانتهاك[1] حرمة الدين والآداب وتطاولها على أرباب الأمر وذوي الأحساب الكريمة فعظم لغطها[2] وعلا صياحها وكان عنها فوضى[3] قلميّة مستهجنة أدّت الى تقصير عنانها والضرب على أيدي الجامحة منها .

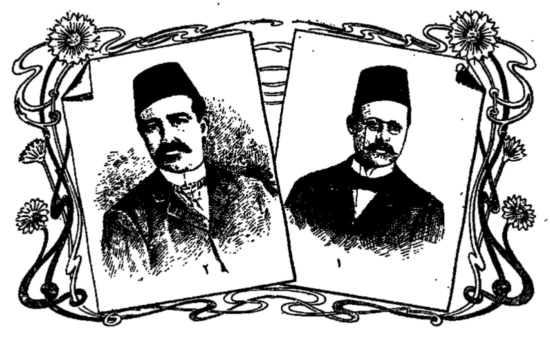
وأمّا سورية فظهرت أول جريدةٍ فيها ببيروت في غرّة كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٥٨ على يد فقيد الصحافة المرحوم خليل الخوري. فأنشأ « حديقة الأخبار » خدم بها الوطن والآداب خمسين سنة لم تَنِ له في أثنائها عزيمة ولا عرا ثباتَهُ ملل[4] الى ان لبّى داعي ربّه فاحتجبت جريدتهُ معهُ. وأخذت الصحف العربية تتكاثر شيئاً فشيئاً. فأُنشئت سنة ١٨٦٠ جريدة تونس الرسمية «الرائد[5] التونسي» وجريدة «الجوائب[6]» بالاستانة لأحمد فارس الشدياق وجريدة « البرجيس[7] » في باريس لسليمان الحرائريّ وصدرت سنة ١٨٦٥ جريدة دمشق الرسمية « سورية » وتلتها في السنة التابعة جريدة حلب الرسمية «الفرات» ثم ظهرت بمساعي الأميركان ببيروت « النشرة الشهرية » خلفتها سنة ١٨٧٠ « النشره الأسبوعية » فهبّ الآباء اليسوعيون الأفاضل يعارضون الصحيفة البروتسطانية بصحيفة كاثوليكية أنشأوها في السنة عينها وسمّوها أوّلاً « المجمع الواتيكانيّ » ثم دعوها « البشير » وهي تخدم الى يومنا بهمّة ونشاط مصالح الدين القويم

---

١ انتهك حرمتهُ تناولهُ بما لا يليق من الكلام ٢ اللغط الاصوات المختلطة ٣ حالة قوم لا حاكم فيهم ٤ ضجر ٥ الرسول ٦ جمع جائبة وهي الخبر الطارئ ٧ المشتري وهو اعظم السيارة جرماً

والآداب واللغة وعزّزها أصحابها سنة ١٨٩٨ بمجلة علمية سمّوها «المشرق» وقفوها على خدمة الدين والعلوم والفنون في الأقطار الشرقية.

وظهرت على إثر الجرائد الأخبارية المجلات العلمية وأول من سعى في استحداثها اللغويّ الشهير المعلم بطرس البستانيّ فأصدر في غرة كانون الثاني سنة ١٨٧٠ مجلّة «الجنان» وشفعها بجريدة سياسية دعاها «الجنّة».



يعقوب صروف ❀ فارس نمر

وجاءت بعد الجنان بسبع سنوات مجلّة «المقتطف» المشهورة أنشأها الأدباء فارس نمر ويعقوب صرّوف وشاهين أبكاريوس من تلامذة الكلّيّة الاميركيّة وأصدروها أولاً في بيروت ثم اضطرّوا أن ينقلوها الى مصر وأضافوا اليها جريدة سمّوها «المقطّم» مالأوا[1] فيها المحتلّين. وقد أودعوا مجلتهم المشار اليها المقالات المفيدة في العلوم والفنون والآداب نهجوا فيها المنهج الحديث وبثّوا في كتبة العصر روح التحقيق والتدقيق

---

١ ظاهروا

في مباحثهم وهوّنوا عليهم احتمال الانتقاد لما يبرزون الى عالم الصحافة من ثمرات عقولهم سواء كان في الجرائد والمجلات أم في التآليف الخاصّة ولا تزال هذه المجلة على خطتها الى يومنا تخدم العلوم والآداب العربيّة بهمّة ونشاط وحبذا لو تحاشت التطرّف في مباحثها الدينية والفلسفية ولم تصوّب سهام الطعن والوقيعة الى العقائد المقدّسة بدعوى العلم وحرية البحث .

وكثرت الصحف السياسية والعلمية في سورية وبشّرت بواكيرها بريعٍ[1] خصيب ولكنّ القوانين الشديدة التي تواترت على المطبوعات قصّت أجنحتها وشدّدت عليها الخناق حتى لم يعد لها شأنٌ يُعتدُّ بهِ . فصبر من الصحافيّين من صبر وهاجر من هاجر وحطّ المهاجرون رحالهم في مصر . وما من أديب يجهل أن عدداً وافراً من حملة الأقلام المشهورين بمصر هم من أبناء سورية هاجروا الأوطان الى قطر مضياف آنسوا فيهِ حريّة حُرموها في ديارهم وما المنشورات الموسومة بالأهرام والمقطم والمقتطف والهلال والمنار بمحتاجةٍ الى تعريفٍ واطراء وهي جوّابة[2] الآفاق العربية وكلّ بلاد حلّ فيها عربيٌّ او مستعرب فضلاً عمّا يصدر من الصحف في الاقطار الأميركيّة .

وللجرائد والمجلات لو اتخذ لها أصحابها الأهبة التامة مزيةٌ عظيمة في إيقاظ الشعب وإنهاضهِ من وهدة الجهل والخمول بما تنشر من الحقائق النيّرة والمباحث المفيدة التي تعمّم العلوم بين أفراد الأمة وتقرّبها الى أفهامهم بالمقالات المستحسنة الجامعة الى فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى ومتانة التركيب جلاءَ العبارة ووضوح الغرض وسهولة المأخذ

---

١ غلة ٢ صفة مبالغة من جاب البلاد اذا قطعها

بحيث تشف الألفاظ عن المعاني شفوف الماء الزلال عن الحصباء [1] فيتشرّب لبّ العاميّ على الفور [2] معنى ما يقرأ ويسمع وتنطبع صورة التعبير عنهُ في ذهنهِ بدون عناء فتجري على لسانه عند الحاجة حتى إذا استأنس الجمهور باللغة الفصحى دارت على لسانهِ رويداً رويداً على توالي الأيام .

ولا يخفى أن الصحيفة هي من الشعب بمنزلة الأستاذ العامّ الذي يعي كلامَهُ كبير القوم وصغيرهم غنيّهم وفقيرهم شيخهم وشابّهم . وذلك الأستاذ على عظم شأنهِ وعلوّ مكانهِ لين العريكة [3] خافض الجناح لا يجشّم تلميذهُ تعب المسير اليهِ بل يقصد هو نفسهُ داره ويبثّهُ أسراره وأخباره . سيّان عندهُ دخول قصر الأمير الخطير وكوخ الصعلوك الحقير فهو المؤدّب الوحيد الذي لا يُملّ إرشادهُ ولا يتجالّ [4] عن التلمذة لهُ عظيم القدر مهما رفع عمادهُ [5] وقد ازدحم في حلقتهِ طلاّبٌ من جميع بني الانسان على تنوع أجناسهم وأصنافهم وأنسابهم وطبقاتهم ومذاهبهم وليس عليهِ في هـذا الاختلاط حرجٌ ولا تثريب [6] .

وعلى كلّ حال فمن منشئي الصحف وسائر كتبة العربية الأفاضل يرجى تعزيز هذه اللغة الشريفة وتجديد شبابها وتسهيل صرفها ونحوها وترتيب متنها وتوفير مادّتها العلمية بحسن الوضع والنقل والتعريب واعتماد خطةٍ معتدلةٍ في تحدّي اللغات الأجنبية تقينا إن شاء الله معرّة الفشل والخذلان في معترك الأمم بحيث يتّقون تعصّباً ذميماً للغة العربية يعدّ إدخال اللفظ المستحدث فيها انتهاكاً لحرمتها وغضّاً [7] من كرامتها

---

١ شفّ الثوب رقّ حتى يرى ما خلفهُ والحصباء الحصى الصغار ٢ بسرعة ٣ الخلق ٤ يترفع ٥ العمود وفلان رفيع العماد اي شريف ٦ الحرج الاثم والتثريب اللوم ٧ غضّ من فلان نقص من قدرهِ

ويستنكفون[١] من تفرنج سمج[٢] يحدو جمهوراً كبيراً من المتحذلقين[٣] الى الغلوّ في الاقتداء والتشبّه بمن توهّموا فيهم الكمال فأدّى بهم حرصهم على النقل عنهم دون رويّة الى عقوقِ شائن[٤] وعبوديّة تعافها[٥] النفس الأبيّة وخير الأمور أوساطها .

وقد مرّ لنا فيما سبق كلامٌ على حاجاتنا اللغوية العصرية نضرب صفحاً عن إعادته ههنا تفادياً[٦] من الترديد المملّ ونُحيل المطالع الكريم اليه — أنار بصائرنا ربُّ العباد وألهمنا السداد[٧] وهدانا سبل الرشاد فمنه عزّ وجلّ المبدأ وإليهِ المعاد .

ألشعَراء

نقدّم ذكر الشعراء لا لرفعة مقام الشعر في أيامنا هذه وخطر أمر قائليهِ في الهيئة الاجتماعية واهتمام أرباب السلطة بما يقولون كما كان الشأن في أيام الدول العربية بل لاتّباع السَّنَن[٨] الذي جرينا عليهِ في تبويب هذا الكتاب حتى الآن .

---

١ يأنفون ويترفعون ٢ قبيح ٣ تحذلق ادعى الحذق ٤ العقوق نكران الولد فضل والدهِ والشائن العائب ٥ تكرهها ٦ تجنّبا ٧ الصواب في القول والفعل ٨ الطريق

وشعراء هـذا الطور الجديـد تختلف سمة شعرهم تبعاً لزمانهم فالمتقدّمون منهم لا يكادون ينكّبون عن المنهج [1] القديم ثم يأخذ الشعر بالتطوّر [2] مع الأمّة شيئاً فشيئاً فيرقّ ويروق ويأخذ مسحة عصرية هي غايةٌ في الأناقة والتفنن في الاستنباط والتبسّط في وصف الأخلاق العصرية ومُعدّات المدنية الحاضرة ومرافقها .

بُطْرُس كَرَامة (١٨٥١ م ١٢٦٨ هـ)

هو بطرس بن ابرهيم كرامة الحمصي من طائفة الروم الكاثوليك . وُلد ونشأ وتأدب بحمص وقال الشعر من حداثته ولهُ في أعيان بلدته مدائح حسنة نوّهت بذكرهِ [3] ورفعت من قدرهِ وهو غضّ الاهاب [4] زاهي الشباب وفي تلك المدة لحق الكاثوليك بحمص اضطهاد أثار عليهم أعاصيرَهُ [5] قومٌ من الأعداء فاضطرّ الشاعر الشاب ان يهاجر وطنهُ مع والده فقصدا بلاد عكّار ومدح بطرس حاكمها فحظي عندهُ وخدمه نحو خمس سنوات ثم قدم جبل لبنان واتصل بالأمير بشير الشهابي الكبير فأُعجب برجاحة عقله وفصاحة لسانه فقرّبهُ ورفع منزلته ولقي من أمانتهِ وحسن تدبيرهِ وحصافة رأيهِ [6] فوق ما تمنى فاستنابه في المهمات وفوّض اليه كتابة سرهِ لحسن إنشائهِ ومعرفتهِ باللغة التركية واعتمد عليه في تهذيب ولده

---

١ نكّب عن المنهج عدل عن الطريق ٢ التنقل من حال الى حال ٣ نوّه به شهرهِ وأذاعه ٤ الغض الطري والاهاب الجلد كناية عن نضارة عمره ٥ جمع أعصار وهو الريح الشديدة تثير الغبار ٦ جودتهِ

الأمير امين وغمره بصلاته ونعمه فحصلت لهُ من ذلك دنيا واسعة وجاه عريض وهيبة في قلوب الناس .

وجرت في حدود سنة ١٨٤٠ حوادث سياسية أفضت [١] الى نفي الأمير بشير الى مالطة فالاستانة فرافقهُ بطرس في منفاهُ ولزم خدمته حتى قضى نحبه ثمّ عيّن مترجماً في المابين الهمايوني فقام بأعباء وظيفتهِ أحسن قيام ولم يزل في ذلك المنصب الى وفاته. وخالط في الاستانة جماعة من أولي [٢] الفضل والعلم والأدب فكانت لهُ عند الجميع المكانة العالية والحرمة الوافرة لبراعتهِ وظرفه وحسن أسلوبه .

وكان بطرس كرامة شاعراً مطبوعاً حافل القريحة قويّ العارضة [٣] كثير التصرف في المعاني مالكاً لأعنّه [٤] القوافي تنقاد لهُ شواردها وتسهل عليهِ أوابدها [٥] وقد أقرّ له فضلاء عصرهِ بعلو الكعب [٦] ورسوخ القدم في صناعة النظم .

فمن شعرهِ قوله في باقة زهرٍ أهداهُ إياها الأميرُ بشير :

وباقة زهرٍ من مليكٍ مُنحتها ... معطّرةِ الأرواح [٧] مثل ثنائهِ
فأبيضها يحكي جميع خصالهِ ... وأصفرها يحكي نضار [٨] عطائهِ
وأزرقها عينٌ تشاهد فضلهُ ... وأحمرها يحكى دماء عدائهِ

ولهُ في الأمير بشير شعرٌ كثير رائق ولهُ أيضاً في مدح أكابر زمانهِ قصائد رنانة أشهرها قصيدته الخاليّة رفعها الى داود باشا حاكم العراق وركن النهضة الأدبية فيه قال :

---

١ ادّت ٢ جمع ذو الصاحبية ٣ القدرة على الكلام ٤ جمع عنان وهو سير اللجام ٥ القوافي الشاردة ٦ الشرف ٧ جمع ريح ٨ الذهب

أمن خدّها الورديّ أفتنك الخال ... فسحّ من الأجفان مدمعك الخال [1]
وأومض برقٌ من محيّا جمالها ... لعينيك أم من ثغرها أومض الخال [2]
رعى الله ذيّاك القوامَ وإن يكن ... تلاعب في أعطافه التيهُ والخال [3]
ولله هاتيك الجفونُ فإنّها ... على الفتك يهواها أخو العشق والخال [4]
مَهاةٌ بأمي أفتديها ووالدي ... وإن لامَ عمي الطيّبُ الأصلِ والخال [5]

وهكذا الى آخر القصيدة وهي ذات خمسة وعشرين بيتاً جعل قافية كلٍّ منها لفظة « الخال » بمعنى غير المعنى السابق فافتتن بها داود باشا وأُعجب بها كلّ مطّلع عليها من قالة الشعر وأرباب الصناعة وخالفهم الشيخ صالح التميمي وردّ عليها بقصيدة قال في مطلعها مخاطباً داود باشا .

عهدناك تعفو عن مسيء تعذّرا ... الا فاعفنا عن ردِّ شعرٍ تنصّرا [6]

وكفى بمطلعها دليلاً على ضيق صدر قائلها وغرابة مذهبه فلم تَرُقْ داود باشا هذه المعارضةُ وأوعز الى بطرس أن يُردّ عليه وأحسِنِ الأدب معهُ . فامتثل الشاعر الأمر ونظم قصيدة من نفس البحر والقافية قال :

لكلِّ أمرىءٍ شأنٌ تبارك من برا ... وخصّ بما قد شاءَ كلاًّ من الورى [7]
ولو شاءَ كان الناسُ أُمّةً واحدٍ ... ولم تلقَ يوماً بينهم قطُّ منكَرا
اذا انحطَّ قدرُ الدر من أجل بائعٍ ... فذلك جهل باللآلي بلا امترا [8]
كما عابَ شعري قائلٌ في قريضه ... الا فاعفنا عن ردِّ شعرٍ تنصّرا

---

[1] الخال في الشطر الاول شامة الخد وفي الثاني السحابة الماطرة [2] اومض لمع والخال البرق [3] ذياك تصغير تحبب لذاك والاعطاف جمع عطف وهو الجانب والخال العجب والكبر [4] الخال ضد العاشق اي الخالي من الحب [5] المهاة البقرة الوحشية تشبّه بها المرأة الحسناء والخال اخو الام [6] ساء الرجل اذنب وتعذّر المسيء اظهر عذره [7] برأ الله الخلق انشأهم والورى الناس [8] امترى في الشيء شك به

عجبت له مع أنه خير فاضل فكيف تغاضى عن أخي الفضل وٱزدرى[1]
نعم إنني من أمة عيسوية وأهل كتاب لن يشان ويحقرا[2]
وأقرب من كل الأنام مودة اليه كما قد جاءه الذكر مخبرا
لعمرك ما داعي الفصاحة ملة ولا نسب حتى ألام وأهجرا
فقيس مسيحي والسموأل موسوي وغيرهما ممّا تقدم أعصرا

وللسيد عبد الجليل البصري قصيدة محكمة الأبيات سديدة المنهج حكم فيها بين الخصمين مطلعها :

حكمت وحكمي الحق ناء عن المرا بأن التميمي الأديب تعثرا[3]
بذم قواف في تمام جناسها وذلك نوع في البديع تقررا[4]

قلنا لا مراء ان ذلك شكل من أشكال البديع اللفظي يدل على طول باع الشاعر وسعة محفوظه واستحكام ملكته غير أنا اذا اعتبرنا هذه الألفاظ المشتركة ـ كالخال والعين والعجوز ـ رأينا ان معانيها المتبادرة الى الفهم المأنوسة في الاستعمال لا تتعدى الثلاثة في الأكثر وما بقي منها غريب مهمل يحتاج المطالع حتى المتضلّع من اللغة ان يفزع[5] الى معجمه ليقف على المراد به وهو عيب نبّه اليه علماء الفصاحة وقضوا بالعدول عنه . ويا حبذا لو أمكن الابدال لاستبدلنا اذاً بأخوالنا وعيوننا وعجائزنا وزدنا عليها مئات من مترادفاتنا ـ لاستبدلنا بكل ذلك بضع عشرة لفظة لبضعة عشر معنى من عدة معان نحن في أمس الحاجة إليها .

---

١ تغاضى تغافل وازدرى احتقر ٢ عيسوي نسبة الى عيسى وهو اسم السيد المسيح عند المسلمين واهل الكتاب هم الذين لهم كتاب منزل كالنصارى واليهود وشانه عابه ٣ ناء بعيد والمراء مصدر مارى الرجل خصمه اذا افرط في جداله تعنتاً له وتعثر في الشيء عثر اي اصطدم به فسقط ٤ اراد بالقوافي الابيات من تسمية الكل بالبعض ٥ تضلّع الرجل من الشيء اكل منه حتى امتلأت اضلاعه وفزع لجأ اليه

آلُ اليازِجيّ

خدم آل اليازجي الكرام آداب اللغة العربية خدمة جليلة قلّما قامت بمثلها عشيرة أخرى وقد نهجوا[1] جميعاً منهاج كبيرهم وعماد أسرتهم في القرن الماضي الشيخ ناصيف اليازجي نابغة شعراء زمانه وحجة بلغاء عصرهِ وركن النهضة العلمية في البلاد السورية ومعزّز جانب الآداب في سائر الأقطار العربية . وأصل هذه الأسرة الكريمة من حمص جلت عنها جماعة منهم في العقد الأخير من القرن السابع عشر لحيفٍ[2] لحق بهم فاستوطن بعضهم جبل لبنان ونزل غيرهم وادي التيم وتفرّق الآخرون في البلاد . والذين نخصهم بالذكر ههنا هم من الفرع اللبناني كان أحدهم كاتباً لبعض عمّال الدولة في أواسط القرن الثامن عشر فعُرف باليازجي ولزم لقبه أبناءُه من بعدهِ .

ناصيف اليازجيّ (١٨٧١ م ١٢٨٨ هـ)

هو ناصيف بن عبد الله اليازجي من طائفة الروم الكاثوليك. ولد بكفر شيما من قرى جبل لبنان ونشأ ذكيًا حادّ الذهن متلهب الفؤاد يتلقّف[3] ما يُلقى عليه من مبادئ العلوم تلقُّفاً ويتمثلها عقله بسرعةٍ عجيبةٍ ودقة تامة .

وكان والده أديباً شاعراً وطبيباً حاذقاً على المذهب القديم فعُني بتهذيب ابنه والتمس من أحد القسوس أن يعلمه مبادئ القراءة والكتابة ثم لقّنه الطب فوعى أصوله ووضع فيه أرجوزة سماها « الحجر الكريم في أصول الطب القديم » .

---

١ نهج منهاجه سار على طريقهِ ٢ ظلم ٣ يتناولهُ بسرعة

ثم أقبل على تحصيل العلوم بنفسه فأكبّ على مطالعة المؤلّفات التي تصل اليها يده فنها ما كان يستظهره استظهاراً [1] ومنها ما يكتفي بخلاصته ومنهـا ما ينسخه بخط يدهِ وهو كثير لقلة المطبوعات في ذلك العهد بحيث أصبح وهو في شرخ الشباب [2] ومقتبل العمر آية في سعة المحفوظ وكمال الآلة في الكتابة وعلوم اللغة والأدب والشعر .



الشيخ ناصيف اليازجيّ

وكان الأمير بشير حينئذٍ في ذروة مجدهِ [3] يقصده الأدباء والشعراء من كل فجّ وصَوْب فينزلون عنده على الرحب والسعة وينالهم من إفضاله وإنعامه حظٌّ وافرٌ فأمَّ [4] الشيخ ناصيف فناءه ولقي عنده حظوة فقرّبه واعتمد عليه وجعله كاتب سرهِ ولم يزل في خدمته الى سنة ١٨٤٠ اذ نُفي الأمير وتفرّق شمل أتباعهِ فنزل ناصيف بعيالهِ الى بيروت وانقطع الى المطالعة والتأليف والتدريس ومراسلة الأدباء فترامت شهرته في البلاد ولهج [5] بذكره كل ناطق بالضاد وكان منزله قبلةَ [6] الشعراء ومحط

١ يحفظهُ ٢ اولهِ ٣ ذروة الجبل اعلاهُ ٤ قصد ٥ ردّد اسمهُ ٦ المكان الذي يستقبلهُ الرجل

رحال البلغاء على اختلاف مِلَلِهم ونِحَلهم وكلٌّ يجد منهُ فوق ما انتظر ويصدّق عنده الخُبرُ الخَبرَ [١] .

والشيخ ناصيف اليازجي فريدُ دهرهِ ووحيدُ عصرهِ في قرض الشعر نظمهُ وهو لا يتجاوز العشر سنوات ولم تزل ملكته في نموّ ونضج واتساع الى ان بلغ أشُدَّهُ [٢] فكان شاعراً فحلاً مطبوع اللهجة سريع البديهة بديع الأبتكار [٣] نبيه المعنى جزيل العبارة ناصع [٤] اللفظ شديد الأسر دقيق الديباجة حكميّ المذهب لم يدع فنّا من فنون الشعر الا تعاطاهُ وبرّز فيهِ ولا ضرباً من ضروب النظم الا طرق بابهُ وجاء فيه بالعجيب المعجز . وكان ينحو في شعره نحو كبار شعراء القرون الغابرة فيجري في مضمارهم ولا تني [٥] خطاهُ عن تقفّي آثارهم وكان شديد الاعجاب بالمتنبي حتى حفظ ديوانه بتمامهِ فيما حفظ من الشعر القديم وكثيراً ما تحدّى [٦] مذهبَه وأخذ نفسه بالطبع على غرارهِ [٧] ولهُ عدة قصائد دبّت فيها روح متنبيٍّ زمانه وشهدت لقائلها أنه من فرسان ميدانه .

وشعر ناصيف اليازجي جارٍ على الألسنة متداوَل عند الأدباء لحسن أسلوبه وكثرة ما جمع من الحكم السديدة والأمثال السائرة . ولهُ في عظماء عصرهِ مدائح ومراثٍ غراء كلها مشهورة وله في التاريخ الشعري براعة عجيبة وقلّما جرى حادث خطير في زمانه الا نظم تاريخهُ في أبياتٍ هي النهاية في الرقة والسلاسة فمن شعره قوله يمدح أسعد باشا قائد جيش البلاد العربية :

---

١ الخُبر هو الاختبار والتجربة ٢ استكمل قواهُ ٣ البديهة خلاف التبصر والاستعداد للكلام وابتكر المعنى سبق اليهِ ٤ نقي خالص ٥ ونى يني ضعف ٦ تعمد ٧ مثالهِ

بنــاء العُلى بين القنا والبوارق — على صَهَوات الخيل تحت البيارق[1]
ولله سرٌّ في العبــــاد وإنّما — قليلٌ محلُّ السرّ بين الخلائق[2]
يقلّب هذا الدهر أحوالنــا كما — تقلّب فينـا لاحقاً إثرَ سابق
ولولا اختبارُ الدولة ابنَ سريرها — لما اعتمدتْهُ في المعـاني الدقائق[3]
كريمٌ تَولّى الأمرَ يُصلح أمره — كفتقٍ تولتـــه أناملُ راتقِ
أقام السرايا ينُفِر الموج خيلها — بكلّ لواءٍ فوق لبنانَ خافقِ[4]
يُحدّث أهلُ الغرب في كل ليلةٍ — بما فعلت غاراتهُ في المشــارق
فيَعجَبُ من أفعاله كلُّ عاقلٍ — ويُثني على افضـــاله كلُّ ناطق
تَضيقُ بحارُ الشعر عنه وتستحي — ببحرٍ لهـا في بحر كفّيهِ غارق

ومن قصائده الحكمية قوله :

لَعمركَ ليس فوقَ الأرض باقٍ — ولا ممّـا قضـاهُ اللهُ واقِ
وما للمرء حظٌّ غــير قوتٍ — وثوب فوقه عقد النطـاقِ[5]
وما للميت إلاّ قيـــدُ باعٍ — ولو كانت له أرض العِراقِ[6]
أضلُّ الناس في الدنيا سبيلاً — محبٌّ بات منهـا في وثاقِ[7]
وأفضلُ ما اشتغلت به كتابٌ — جليلٌ نفعهُ حلوُ المَذاقِ
مضى ذكرُ الملوك بكل عصرٍ — وذكرُ السوقـة العلماءِ باقِ[8]
اذا هلكت رجالُ الحيّ أضحى — صبيُّ القوم يحلف بالطلاقِ

---

١ القنا جمع قناة وهي الرمح والبوارق جمع بارق وهو السيف وصهوة الفرس مقعد الفارس منهُ ٢ يقول ان الذين يختارهم الله ويجعلهم موضع سره ليتمهُ بهم هم قليلون ٣ سرير الملك عرشهُ واراد بابن سرير الدولة حامي حماها والمعنى الدقيق الخفي يحتاج فيهِ الى زيادة تبصّر ٤ السرايا جمع سرية وهي الجيش وانفر اعان واللواء الراية يقول ان الجيوش البحرية مستمدّة لامداد جيوشهِ في البرّ اذا استنفرها اي استحثّها على القتال ٥ النطاق ما يشد بهِ الوسط ٦ العراق بلاد ما بين دجلة والفرات ٧ الوثاق الرباط ٨ السوقة من الناس خلاف الملوك

ومن تواريخه قولهُ مؤرِّخاً وفاة يوسف العُسيلي وقد تُوفي قتيلاً سنة ١٨٤٧ مسيحية :

هــذا العُسيليُّ الذي نزل الثرى كالغصن من حر المنايا يُقصف
ومسطّر التاريخ أنشد حــولهُ هــذا قميصك شاهدٌ يـا يوسف

ومن عَبْقَريّاته [١] في التاريخ الشعري قصيدته التي يمدح بهـا إبرهيم باشا وقد ضمَّن كلَّ شطر تاريخاً لسنة ١٢٤٨ﻫ ومطلعها :

الزهر تبسمُ نوراً عن أقاحيهـا [٢] إذا بكى من سحاب الفجر باكيها

وقد جاءَ بهـا مع التزامهِ التاريخ في كل شطر منهـا غاية في الرقة والانسجام وهي طويلة ذات تسعين بيتاً اذا جُمعت أوائلها حرفاً حرفاً كان منها بيتان يتضمن كل شطر منها تاريخين للسنة عينها وهما :

أنت الخليلُ وفي . الأطلالِ بردُ لظًى
أطلالِ عــكا ورفضُ . الرعب والحذرِ
كــن بالغاً أوج سعدٍ . مـا به ضررٌ
أو غالبـــاً لم يزل في . أوّلِ الظفرِ

ولناصيف اليازجي مؤلفات عديدة في علوم الأدب موضوعة على طريقة مدرسية تسهّل على الطالب اقتباس الآداب العربية وهي متداوَلة [٣] في حلقات المدارس منها « مجمع البحرين » وهو كتاب مقامات عِدَّتُها ستون مقامة نسج فيها على منوال الحريري ضمّنها شيئاً كثيراً من غريب

---

١ العبقري كلّ ما بلغ غاية من الكمال تقصر عنها قوى الناس عادة ٢ جمع أقحوان وقحوان وهو زهر أبيض في وسطهِ كتلة صفراء تشبه بهِ الاسنان ٣ تداول القوم الشيء أخذهُ هذا مرة وهذا مرة

اللغة والنكات الأدبية وأشكال البديع المعنوي واللفظي وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم وعاداتهم وأمثالهم ممّا دلّ على غزارة مادّته ورسوخ قدمه في فنون اللغة . ومنها « الجمانة [1] » وهي ارجوزة في الصرف و« جوف الفرا [2] » وهو أرجوزة أخرى في النحو وله عليها شرح مطوّل وله « فصل الخطاب » وهو مختصر محكم في الصرف والنحو و« عقد الجمان » في علم البيان و« نقطة الدائرة » في العروض والقوافي و« قطب الصناعة » في المنطق وغير ذلك مما يطول تعداده . وشعره مفرّق في ثلاثه دواوين « نفحة الريحان » و« فاكهة الندماء [3] في مراسلة الأدباء » و« ثالث القمرين » وشرع في وضع شرح لديوان المتنبي حالت منيته دون إتمامه فأتمه ابنه الشيخ ابراهيم ومن آثاره مساعدة جماعة الأميركان في تعريب الأسفار المقدسة .

ومُني [4] الشيخ ناصيف في آخر عمره بفالج نصفيّ عطّل شطره الأيسر ثم فوجئ بوفاة بكره الشيخ حبيب فانقض [5] هذا المصاب عليه انقضاض الصاعقة فقوّض [6] أركانه ولم يعش بعده الاّ يسيراً وتوفي بغتة على إثر سكتة دماغيّة عرته فقضى فيها نحبه وكان قد أخذ في نظم مرثية لفلذة كبده فعمل منها أبياتاً ثم خانته قريحته فلم يتمها وهي هذه :

ذهب الحبيبُ فيا حشاشة [7] ذوبي أسفاً عليه ويا دموعُ أجيبي
ربّيتُه للبين حتى جاءه في جنح ليلٍ خاطفاً كالذيب [8]

---

١ واحدة الجمان وهو اللؤلؤ ٢ حمار الوحش وهو اشارة الى المثل : كل الصيد في جوف الفرا ٣ جمع نديم وهو الذي يجلس معك على الشراب ٤ بلي ٥ سقط ٦ هدم ٧ بقية الروح في المريض ٨ البين البعاد والجنح القطعة من الليل

يا أيتها الأمُّ الحزينــــةُ أجملي   صبراً فانَّ الصبرَ خيرُ طبيبِ
لا تخلعي ثوبَ الحــداد ولازمي   ندباً عليـــــه يليقُ بالمندوبِ
إني وقفتُ على جوانب قــبرهِ   أسقي ثراهُ بمدمعي المصــبوبِ
ولقد كتبتُ له على صفحاتهِ   يا لوعتي من ذلك المكتوبِ
لك يا ضريحُ[1] كرامةٌ ومحبَّةٌ   عندي لأنك قــد حويت حبيبي



السيدة وردة اليازجي

[1] قبر

خليل اليازجيّ (١٨٨٩ م ١٣٠٧ هـ)



الشيخ خليل اليازجي

هو أصغر أبناء الشيخ ناصيف اليازجي وُلد ببيروت ودرج من حجر[١] الفضل والأدب والعلم فنشأ ذكيّاً مولعاً باقتباس العلوم والآداب حريصاً على اقتفاء آثار أخويه ومجاراتهما في تقيُّل أبيهم[٢] والتشبّه بأخلاقه الكريمة وهو اذ ذاك زعيم عصابة الأدباء وإمام جهابذة اللغويين والشعراء فأخذ بقسم صالح من الأدب ونظم الشعر وهو صغير ثم دخل الكلية الأميركانية فتلقّى فيها العلوم ومهر في الطبيعيات والرياضيات ونظمها شعراً وفي سنة ١٨٨١ قدم مصر وتقرّب من عظمائها فحظي عندهم وشرع في اصدار مجلة سماها «مرآة الشرق» ظهرت منها بضعة أعداد ثم هبّت أعاصير[٣] الثورة العرابية فاضطر أن يرجع الى وطنه وأقام في بيروت يدرّس اللغة العربية في المدرسة البطريركية والكلية الأميركانية الى ان أصيب بصدره

---

١ حضن ٢ التمثل به ٣ جمع إعصار وهو ريح عاصف ترتفع بالتراب أو بمياه البحار وتستدير كأنها عمود ثم تجري فتدمر كل ما اعترض سبيلها

فانقطع عن التدريس وأخذ يطلب علاجاً لدائه فقصد الديار المصرية ثانية للاستشفاء فلم يُجده تبديل الهواء نفعاً فعاد الى لبنان وهنالك وافته المنية في ريعان الشباب وربيع الحياة .

وكان الشيخ خليل شاعراً حافل القريحة حسن التفنُّن والاستنباط ومن شعره قوله يرثي المعلم بطرس البستاني :

أجرى اليراعُ عليك دمعَ مدادهِ فكسا بهِ القرطاسَ ثوبَ حدادهِ [١]
وبه نخطُّ لك الرثاءَ من الأسى فهو المقيمُ على عهـود ودادهِ [٢]
فلكم بِمَيْدان الطروس هزرتهُ حتى جلعت الرمح من حسّادهِ [٣]
إن كان يبكيك اليراعُ بدمعهِ فلقد بكاك حزيننُا بفؤادهِ
يا صاحبَ الفضل الذي لو أننا نبكي به لم نخشَ وشْلَ نفـادهِ [٤]
يا قطرَ دائرة المعارف والحجى ومحيطَ فضلٍ فاضَ في إمدادهِ [٥]
فاذا المُحيطُ بكاك لم يكُ دمعُهُ دون المحيط يزيدُ في إزبادهِ [٦]
يبكي الحسابُ عليك متخذاً لهُ دمعاً يسيلُ عليك من أعدادهِ
خدم البلاد وليس أشرفُ عنده من أن يُسمَّى خادماً لبـلادهِ
ومحبةُ الأوطان كان يعدُّها مما يدورُ عليـهِ أمرُ معادهِ [٧]

وكتب على إحدى صوره :

لمّـا تملكتم على قلبي ولم أطمعْ له من عندكم بمعادِ
أهديتكم رسمي لكيما تجمعوا ما بين جسمي عندكم وفؤادي

ومن آثار الشيخ خليل ما عدا ديوانَهُ المعروف « بنسمات الأوراق »

---

١ اليراع القلم والمداد الحبر والقرطاس الورق ٢ الاسى الحزن ٣ الطروس جمع طرس بالكسر وهو الصحيفة ٤ الوشل السيلان والنفاد الانقطاع ٥ الحجى العقل وفي البيت تورية ظاهرة لقطر المحيط ودائرة المعارف ٦ المحيط الاول مؤلف المعلم بطرس البستاني والمحيط الثاني البحر المحيط ٧ المعاد الآخرة

رواية شعرية تمثيليّة سماها «المروءة والوفاء» جعل محورها ما يروى عن حنظلة الطائيّ والنعمان بن المنذر وهو الحادث التاريخي المشهور الذي جرى على عهد الجاهلية وآل الى تنصّر النعمان لما رأى من وفاء حنظلة وكمال مروءته. ومنها «الصحيح بين العاميّ والفصيح» وهو شبه معجم جمع فيه ما يرادف الألفاظ العامية من مفردات اللغة الفصحى وهو مبحث جليل جدير بان يهتمّ لهُ أدباء العربية ومن يعنيهم أمر إصلاحها ولحاقها بلغات العصر الراقية لما يترتب عليه من الفائدة العظمى بسدّ ثلمة لا تزيدها الأيام الاّ اتساعاً.

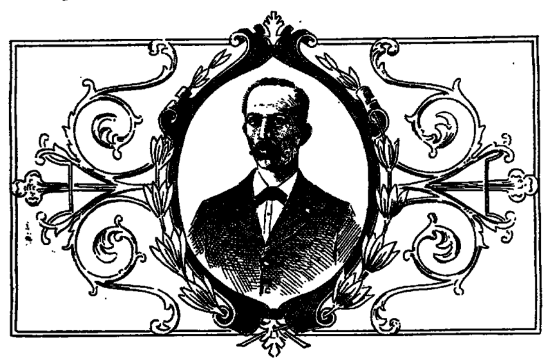
ابراهيم اليازجيّ (١٩٠٦ م ١٣٢٤ هـ)

هو واسطة عقد بني اليازجي الكرام ووريث أبيهِ في زعامة العلماء الأعلام ولد ببيروت ورضع أفاويق العلم مع اللبن وما تفتقت أنوار عقله حتى وجّه والده اليهِ مزيد العناية وتعهّده بالتهذيب والتثقيف فأقرأه علوم العربية وخرّجهُ في فنونها ولقّنه آدابها بحيث تضلع منها وأتقن أصولها وفروعها وهو في زهاء الشباب وغضارة العمر ثم عكف على المطالعة ووقف أوقاته على التبحر في اللغة واستبطان دخائلها واستجلاء غوامضها والوقوف على أسرارها ودقائقها ولمّا كان متوقد الفؤاد صافي الذهن نيّر البصيرة بلغ في مدة غير طويلة من الاحاطة بعلوم اللغة مبلغاً بعيداً حتى أصبح نسيج وحده[١] في فنون الآداب من بعد أبيهِ إمام البلاغة غير منازع وحجة اللغة غير مدافع.

وقال ابراهيم اليازجي الشعر وهو صبيّ وزادت ملكته استحكاماً مع الأيام واشتهر بجودة النظم وتناقلت حلقات الأدباء شعرهُ وأعجبوا بهِ

١ لانظير لهُ

أيما إعجاب فتهافت[١] اليه رجال العلم والأدب يناشدونه ويشاورونه وكان منزله مجتمع الشعراء والمنشئين وملتقى حملة الأقلام على اختلاف النزعات والمذاهب وهم يتساجلون[٢] ويتفاوضون ويحتكمون اليه فيما ينظمون ويؤلفون لما آنسوا[٣] من سعة علمه وبعد مرمى نظره .



الشيخ أبرهيم اليازجي

الا أن هذه المباحث مع ما فيها من الفائدة واللذة لم تكن لتفي بما تتوق[٤] اليه نفسه من الشهرة وإذ رأى الشعر والاهتمام بالشعر يستغرق معظم أوقاته عدل عنه وانقطع الى الانشاء وتفرّغ للغة وآدابها وكانت نفسه تتوق الى رفع منار اللغة العربية وإعلاء شأنها وإلحاقها بأرقى اللغات الأوربية في جميع العلوم العصرية وهي الأمنية التي لم يزل يسعى وراءها ويقصدها والضالّة التي قضى العمر ينشدها[٥] ومن ذلك الحين الى يوم وفاته وقف مواهبه ومعارفه على هذه الغاية ولم يبتغ الشهرة الاّ من هذا السبيل .

١ تتابعوا ٢ يتناشدون الشعر هذا بيتاً وهذا بيتاً ٣ علموا وابصروا ٤ تشتاق ٥ تعاطيه

ورأى الشيخ ابراهيم أن مزاولة الانشاء خير وسيلة في هذه الأيام لنشر العلم وتعميم اللغة الفصحى بين الناطقين بالضاد فخاض عباب[1] هذا الفنّ فبرّز فيه وجرى في حلبة[2] الصحافة فحاز قصب السبق الاّ أنه آثر المجلاّت العلمية على الجرائد السياسية فصرف اليها عنايته وأول مجلة ظهرت فيها آثار قلمه هي « الطبيب » أصدرها سنة واحدة بمؤازرة[3] الطبيبين بشارة زلزل وخليل سعادة وكان ينشئ فيها المقالات الأدبية واللغوية .

ثم طرأ على حريّة الصحافة بسوريا ما طرأ على ما أشرنا اليه في صدر هذا الباب وتحوّل الكتّاب والأدباء الى مصر فهاجر الشيخ فيمن هاجر من حملة العلم وعزم على استيطان مصر الاّ أنه قصد أولاً البلاد الأوربية وتجوّل في مدائنها ثم قفل راجعاً وألقى عصا التسيار في القاهرة وباشر إنشاء مجلة « البيان » بمعية صديقه وزميله[4] الدكتور بشارة زلزل أصدراها سنة ثم افترقا فاستعاض عنها الشيخ ابرهيم بمجلة « الضياء » الشهيرة واستقل[5] بإنشائها وتوفر لتحبير مقالاتها الرائقة وتدبيج[6] فصولها الشائقة ولم يزل يصدرها مرتين في الشهر الى وفاته فانطفأ بانطفائها نبراس[7] الأدب ورزئ بها وبصاحبها كل ناطق بلسان العرب.

وللشيخ ابراهيم اليازجي في العربية آثارٌ جليلة أجلّها تصحيحه للأسفار المقدسة التي عربّتها حضرات الآباء اليسوعيين الأفاضل وقد بذل في القيام بهذه المهمة الشريفة ما فوق الطاقة[8] من الهمة والعناية وظل نحو تسع سنوات وهو لا يألو جهداً في ضبط العبارة وتهذيبها

---

١ معظم الماء ٢ الدفعة من الخيل في الرهان خاصة ٣ مساعدة ٤ رفيقه ٥ انفرد ٦ نقش وتزيين ٧ مصباح ٨ القدرة

وتنقيحها حتى برزت من بين يديه آيةً غرّاء تميس من فصاحة قلمه وبلاغته ببرد قشيب [1] . ومن آثاره شرح ديوان المتنبي الذي كان أبوه قد شرع فيه . ومنها كتاب « نجعة الرائد [2] » في المترادفات يقع في ثلاثة أجزاء لم يظهر منها الا اثنان وهذا التأليف عنوان فضله وحسن ذوقه ودليل على بعد غوره وسعة اطلاعه . وقد خدم والده باختصار بعض مؤلفاته وشرحها فقرّب على الطلاب متناولها والانتفاع بها . وكان قد شرع في وضع معجم اقتصر فيه على الصحيح الفصيح من كلام العرب الأقدمين والمولدين فحالت منيته دون إتمامه .

وكان الشيخ ابراهيم غيوراً على اللغة حريصاً على سلامتها من كل شائبة [3] شديد الانكار لما تشطّ [4] به أقلام الكتّاب وله في الضياء مقالات انتقادية حمل فيها حملات عنيفة على أرباب القلم من قدماء ومحدثين ولم يسلم من تخطئته شعراء الجاهلية وأصحاب المعلقات انفسهم وهو غريب . وكثيراً ما قامت بينه وبين أدباء عصره المجادلات والمشاحنات [5] لما نالهم من لواذع كلامه وقوارص نقده ومع ما استباح لنفسه من تناول رصفائه بالتنديد والتفنيد [6] لم يكن يحتمل ردودهم برحابة الصدر لما طُبع عليه من الاباء والأنفة والترفّع الى حد الافراط وهي خلال [7] أدّت به أحياناً الى مقالات كان في غنى عنها وحبذا لو نزّه قلمه عن تسطيرها .

---

١ ماس تمايل كبرا والبرد القشيب الثوب الجديد ٢ النجعة اسم من الانتجاع وهو طلب الكلاء في مواضعه والرائد هو الرجل يرسله القوم في طلب المرعى ٣ عيب ٤ شط الرجل تجاوز الحد ٥ المباغضات ٦ ندد بفلان عدد عيوبه وفند رأيه خطأه وكذبه ٧ خصال

ولهُ فضلٌ على المطابع العربية باصطناع قوالب للأحرف على شكل أنيق بهج وكان ماهراً في الأعمال اليدوية من رسم وحفر كثير التأنق في الخط كانت كتابتهُ سلاسل الذهب وقلائد الدر الاَّ أنهُ أفرط في هذا أيضاً فكان بطيئاً في نسخ مؤلفاته بحيث لم يؤدّ للغة الخدم العديدة التي كان يترقبها القوم من مثله .

ومن حميد آثاره وضع مرادفات عربية لعدة الفاظ إفرنجيّة في العلم والصناعة خلت منها لغتنا ولهُ في ذلك من طول الباع ولطف الذوق ما يندر اتفاقه لغيره من كتّاب العصر — ومن أمثلة شعره قوله يصف الزهرة :

وقف بي نحيِّ رباها أيها الحادي ... فتلك أبياتها في عدوة الوادي [1]
قد خيّمت باللوى الغربي ضاربةً ... عليه أطنابها من غير أوتادِ [2]
مقيمةٌ لم تُقم الا على سفرٍ ... ما ينقضي بين تأويب وإسآدِ [3]
تمشي الهُوَيْنا كما مرّ النسيم ضحىً ... في هودجٍ من شعاع النور وقّادِ
يسارق الطرف عين الشمس منظرها ... فالشمس من دونها حلت بمرصادِ
حتى اذا هجعت في ليلها ظفرت ... منها العيون بلمح الميسم البادي [4]
فنبئينا رعاكِ الله جارتَنا ... بل أنت سوغٌ لنا من عهد ميلاد [5]
قد انقطعنا فما أن بيننا صلة ... ولا سبيلٌ لملاحٍ ولا حادِ [6]
ولم يكن بيننا سدٌّ وقد ضربت ... أيدي الفضا دون لقيانا بأسداد
ما أن ينالكم للبرق منطلقٍ ... ولا يقرّبُ منكم سير منطاد

---

١ الحادي السائق الابل وعدوة الوادي شاطئهُ وجانبهُ ٢ اللوى منعطف الوادي والاطناب جمع طنب وهو حبل طويل يشدّ بهِ الخيمة ٣ التأويب السير في النهار والإسآد السير في الليل ٤ هجعت رقدت (اي الشمس) والضمير في منها عائد الى الزهرة وامرأة ذات ميسم اي ذات جمال والبادي الظاهر ٥ يقال هو اخوهُ سوغهُ وهي اختهُ سوغهُ اي لم يولد بينهما ٦ الملاح النوتي

وإنما رُسلنـا الأنوار حاكـية نار الصليب تبدّت فوق أنجاد [1]
تهدي لنا عنكم رمزاً تعود لـكم بمثله بين إصـدار وإيراد [2]
يا ليت شعريَ هل تدرينَ موضعنا وهل لديك رجالٌ أهل ارصاد
وهل رأوا ركبنا النوريّ منطلقاً في ليلهم بين تصويبٍ وإصعاد [3]
وهل أقاموا لنا مثلَ الذي رفعت آباؤنا لكِ من تكريمٍ عباد
فذي هياكلكِ الشمآء قد شخصت هاماتهـا في الذرى أمثال أطواد [4]
رأوكِ للحسن معبوداً وما وهموا فالحسن معبود عشاقٍ وزهاد
لعلّ للأرض هـذا الحظ عندكمُ وانهـا لو علمتم دار إفسـاد
وعلّكِ اليوم خلوٌ من مفاسدهـا وإن نكن قد خُلقنا خلق أنداد [5]
أنت الفتية لا تدرين مفسـدةً أين المفاسد من أخلاق أولاد

*
* *

ضـل الجميع وتاهوا في غوايتهم فما اهتدى حاضرٌ منهم ولا بادِ [6]
وأصبح الزور مرفوع اللواء بهم وقائل الحق موصـوفاً بإلحاد [7]
قام الخصامُ بمـا لا يعلمون له كنهاً ولم ترهُ أبصار أشهادِ
شغبٌ تفاقم في الأجيال واضطرمت بهِ العداوات دهراً بين أكبادِ [8]

---

١ تبدى ظهر والانجاد جمع نجد وهو مـا ارتفع من الارض واراد بنـار الصليب النيران التي يوقدها النصارى في اعالي الجبال ليلة عيد الصليب ٢ الرمز الاشـارة والاصدار الارجاع والايراد ضد الاصدار ٣ اراد بالركب المركوب والتصويب الخفض والاصعاد الارتفاع ٤ الشماء المرتفعة وشخصت ارتفعت وهاماتها رؤوسها والذرى جمع ذروة وهي اعلى الشيء والاطواد جمع طود وهو الجبل ٥ الانداد جمع ندٌ وهو المثل والنظير ٦ الغواية الضلال والحاضر المقيم في المدن والبادي المقيم في البادية ٧ الالحاد الكفر ٨ الشغب الخصام وتفاقم تعاظم

*
* *

أما كفاكم بني الانسان شقوتكم ... وانكم للمنايا جدٌّ ورّادِ [١]
وما تعانون من جهد الحياة وقد ... أمست كوقرٍ ثقيل بين اكتادِ [٢]
ومن تقلب أطوار الزمان بكُمْ ... كأنما هو حرباءٌ بأعوادِ
ومن مراغمة الأقدار طاردةً ... لكم كتيار يمّ حول طرّادِ [٣]
ومن مزاولة الأرزاق بغيتَها ... تزاحمون بأقدام وأعضادِ [٤]
ومن مكابدة الأدواء ساطية ... ومن نوازل لا تحصى بتعدادِ [٥]
فما لكم تسعدون الدهر بعضكمَ ... لكيد بعض به يا شرَّ اسعادِ [٦]

*
* *

وإنما أرضنا دار السلام لمن ... يبغي السلام ودار الحرب للغادي
وكلنا فوقها رهن الزوال فلا ... أضلُّ بعد الكُفى من سعي مزدادِ [٧]

عبد الغفّار الأخرس (١٨٧٣ م ١٢٩٠ هـ)

هو السيد عبد الغفار بن عبد الواحد الملقب بالأخرس لحبُسةٍ [٨] في لسانهِ. ولد بالموصل ونشأ وتخرّج في بغداد وبرع في العلوم الفعلية واللسانية

---

١ المنايا جمع منية وهي الموت وورد الماء اقبل عليهِ وبلغهُ فهو وارد وهم ورّاد ورجلٌ جدّ عالم اي متناهٍ في العلم كرجل عالم جدًّا ٢ الوقر الحمل والاكتاد جمع كتد وهو ما بين الكاهل الى الظهر ٣ المراغمة المهاجرة والمعاداة والتيار الموج واليم البحر والطراد السفينة الصغيرة ٤ المزاولة المعالجة وبغيتها مفعول لاجلهِ والاعضاد جمع عضد وهو ما بين المرفق والكتف ٥ كابد المشقة قاساها وتحملها والادواء جمع داء وهو المرض والعلة وسطا عليهِ عدا عليهِ والنوازل المصائب ٦ اسعدهُ اسعفهُ والكيد الخداع والمكر بالغير ٧ الكفى جمع كفية وهي القوت ٨ اسم من الاحتباس وهو تعذر الكلام عند ارادتهِ

ونظم الشعر وهو فتى فأجاد كل الاجادة ولنظمه رقة وطلاوة ونباهة حببت شعرهُ الى الأدباء فتناقلته الألسن وتناشدته حلقات الأنس. وكان يتجول في مدن العراق ويتقرب الى الفضلاء والأعيان فيمدحهم ويستعين على دهره بما ينال من صلاتهم وأكثر إقامته في بغداد والبصرة. ومن شعره قوله من قصيدة رفعها الى داود باشا والي العراق يلتمس منه أن يأمر بمعالجة عقلة لسانه :

هذا لسـاني يعوقه ثقل   وذاك عندي من أعظم النُوَب[1]
فلو تسبّبت في معالجـتي   لنلت أجـراً بذلك السبب
وليس لي حرفةٌ سوى أدبٍ   جمٍّ ونظم القريض والخُطَبِ
من بعد داود لا حُرِمتُ مُنَى[2]   فقلت قد مضت دولة الأدب

فأرسلهُ الوالي الى الهند وتقدم الى أحد الأطباء بمعالجة لسانه فقال له «أنا أعالج لسانك بدواء فإمّا ان ينطق وإما ان يكون حتفك[3] فيه» فقال «لا أبيع كلّي ببعضي» وأبى العلاج وقفل راجعاً الى بغداد ومن شعره قوله يصف سفره من البصرة الى بغداد على سفينة بخارية:

قد ركبنا بمركب الدخانِ   وبلغنا به أقاصي الأماني[4]
ثم سرنا والطير تحسدنا بالأمسِ   لاسراعنا على الطيرانِ
يخفق البحر رهبةً حين يجري   والذي فيه كائنٌ في أمانِ
كلما أبعد البخار بمسرى   قرّب السيرُ بعد كل مكانِ
أتقنت صُنعَهُ فطانـةُ قومٍ   وصفوهم بدقة الأذهانِ

---

١ النوب جمع نُوبةٍ وهي النازلة والمصيبة ٢ المنى جمع منية وهي ما يتمناهُ المرء
٣ موتك ٤ جمع أمنية بمعنى منية

أبرزوا بالعقول كلَّ عجيبٍ ما وجدناه في قديم الزمانِ
وبنوا للعلى مبـاني علاءٍ عاجزٌ عنها صاحب الايوان [1]
فلهم في الزمان علمٌ فخرٌ ومقامٌ يعلو على كَيْوانِ [2]

فرنسيس المرّاش (١٨٧٣م ١٢٩٠هـ)

هو فرنسيس بن فتح الله المراش من طائفة الروم الكاثوليك. ولد بحلب وأكبّ من صغره على تحصيل العلوم فأتقن فنون العربية وأولع بالآداب والفلسفة منذ صباه فكانت لا تفوته فرصة للازدياد منها الاّ قبض بناصيتها [3] ثمَّ حدثته نفسه باحتراف الطب فدرس أصوله على طبيب انكليزي بحلب ولمّا كانت نيته التوسع في الصناعة وإتقانها نظراً وعملاً قصد باريز لبلوغ أربه والحصول على الاجازة المؤذنة بكفايته وأهليته لتعاطي الفن الاّ ان الدهر الخؤون أبى الا مناوأته [4] فانتابته أسقامٌ أوهنت قواه [5] وختمت محنته بأن أُصيب في عينيه بحيث كاد يكُفّ بصره [6] فعاد الى موطنه مرغوماً دون أن ينال مبتغاه وتفرّغ للآداب مع ما هو عليه من ضعف البصر وانحطاط القوى الى أن وافته المنون وهو في ريعان العمر.

وكان فرنسيس المراش عالي الهمة عزيز النفس حرّ المقال يعاف التقييد والتقليد وقد أدى به حرصه على حفظ استقلاله الفكري الى نبذ قوانين

---

١ العلى الرفعة وعلاء جمع عليّ اي مرتفع وصاحب الايوان هو كسرى انوشروان الشهير ٢ كيوان اسم زحل بالفارسية وهو أحد الكواكب السيارة يضرب بهِ المثل في العلوّ ٣ شعر مقدم الراس ٤ معاداته ٥ انتابته الاقسام اصابته واوهنت اضعفت ٦ يعمى

الانشاء ظهريًّا وكسر قيود اللغة نفسها فكثيراً ما خالف قواعدها في كتاباته غير مبالٍ بشقشقة البيانيين وهدرات النحاة. ولهُ شعر رائق حسن حكمي النزعة فمن ذلك قوله :

صدقوني كلّ الأنام سواءٌ من ملوكٍ الى رعاة البهائمْ
كل نفسٌ لها سرورٌ وحزنٌ لا تني في ولائم أو مآتمْ[1]
كم أميرٍ في دسته[2] بات يشقى باله والأسير في القيد ناعمْ
أصغر الخَلق مثل أكبرها جرماً لهذا وذا مزايا تلائمْ
هذه النمل تستطيع الذي تعجز عن فعله الأسود الضياغمْ[3]
والخلايا للنحل أعجب صنعاً من قصور الملوك ذات الدعائمْ[4]

ولفرنسيس المراش مؤلفات منها «غابة الحق» و«مشهد الأحوال» أولهما شعري والآخر نثري ضمنهما آراءً فلسفية واجتماعية على أسلوب مبتكر وله ديوان سمّاه «مرآة الحسناء» وله في علم الطبيعة كتاب دعاه «المرآة الصفيّة في المبادئ الطبيعيّة» وغير ذلك.

ولفرنسيس المراش أخٌ اسمهُ عبد الله عُرف بالفضل والأدب تلقى مبادئ العلوم بالشهباء ثم تعاطى التجارة في البلاد الأوربية واشتهر بالاستقامة وحسن المعاملة والحنكة[5] في التدبير وقضاء المهامّ التجارية وكان مع اشتغاله بالتجارة لا يهمل جانب الآداب ويسترق الفرص فيختلف[6] الى مكاتب العواصم التي ينزلها كباريس ولندن ويطلع على ما هنالك من الآثار العربية وينسخ منها ما يروقه ويرى فيه منفعة لبني

---

١ ونى يني ضعف والمآتم جمع مأتم وهو المناحة ٢ صدر المجلس ٣ المفترسة ٤ الخلايا جمع خلية وهي بيت النحل والدعائم جمع دعامة وهي عماد البيت ٥ التجربة والبصر بالامور ٦ يتردد

جنسهِ وقد أثبت المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي ترجمته في ضيائه (٢ : ٣٤٤) وعقبها بذكر شيءٍ من آثارهِ الأدبية وهي تشهد لصاحبها بدقة النظر ولطف الذوق وسعة الاطلاع . وتوفي سنة ١٩٠٠م ١٣١٨هـ.

عُمَرُ الإِنْسِيّ (١٨٧٦م ١٢٩٣هـ)

هو الحاج عمر بن محمد ديب من أسرة عريقة[١] في الشرف اشتهر لقبها بالصقعان. ولد ببيروت وتخرج في العلوم الدينية واللسانية ونظم الشعر فبرّز فيهِ وكان لطيف الأسلوب فصيح المنطق عذب المحاضرة[٢] وقلّد من لدن الحكومة عدة مناصب حمدت فيها آثارهُ وعُرف بالاستقامة والاباء وعلوّ الهمة وحسن الدربة[٣] غير أنه ما زال مشتغلاً بالمطالعة والتأليف والتدريس كلّما وجد الى ذلك سبيلاً فكان يقضي في خدمة الآداب الأوقات التي لم تستغرقها مهامُّ خدمتهِ للوطن. وله شعرٌ رقيق حسن جُمع في ديوان سُمّي « المورد العذب » فمن شعرهِ قوله في الزهد :

رغبت عن الدنيا وزخرف أهلها ... وقلت لنفسي إنما العيش في الأُخرى
فدعني وزهدي في الحطام[٤] فإنني ... أرى الزهد في الدنيا هو الراحة الكبرى

وقال عن لسان نارجيلة :

أنا التي اختارني قومي سمير عُلىً ... إن الأديب فصيحَ النطق مختارُ[٥]
اذا الهوى بفؤادي مرّ أكتمهُ ... وللهوى بفؤادِ الحرّ أسرار

---

١ اصيلة ٢ المحاورة ٣ درب الرجل بالشيء دربة مرن عليهِ واعتادهُ ٤ حطام الدنيا اموالها وخيراتها الفانية ٥ السمير الذي يتحدث معك بالليل

قالوا تحملت نيراناً فقلت لهم ... النار في حبّ من أهوى ولا العارُ
شُهرت حتى غدت تعشو السُراة الى ... ناري ولي بمزيد الفضل آثارُ [١]
فهـا أنا مثل صخر حيث قيل به ... كأنهُ علمٌ في رأسه نارُ [٢]

وقال يهجو غلام قهوة يدعى هلالاً :

تعس الهلال القهوجيّ لأنهُ ... قد قطّع الانفاس من انفاسهِ [٣]
هذا الهلال هو الهلاك وإنّما ... غلطوا فلم يضعوا العصا في راسهِ [٤]

ارسانيوس الفاخوري (١٨٨٣ م ١٣٠١ هـ)

هو فارس بن يوسف الفاخوري الماروني ولد ببعبدا من قرى جبل لبنان ولمّا ترعرع أرسلهُ والدهُ الى مدرسة عين ورقة الشهيرة فتفرّغ الفتى لاحراز الفضائل المسيحية واقتباس العلوم الدينية والدنيوية وما مضى عليه ردح من الزمن حتى رسخت قدمهُ في سبيل البرّ ونبغ في كافة الفنون التي يتلقاها الطلبة بحيث أصبح أنموذج الفضل والعلم يغبطه الأقران [٥] ويسعون بتقفي خطاه [٦] ويعزّهُ الأساتذة ويعجبون بأدبهِ وتقاهُ ومن العلوم التي أتقنها الفلسفة واللاهوت والحق القانوني وبرع في العربية

---

١ عشا المسافر الى النار رآها ليلاً من بعيد فقصدها والسراة جمع سارٍ من سرى الرجل اذا سار ليلاً ٢ العلم الجبل ٣ الانفاس الأولى جمع نفس بمعنى الهواء الخارج من الرئتين والثانية بمعنى ما يشرب من التنباك في المرة الواحدة ٤ اراد بالعصا معناها البعيد وهو الخط الذي يجعل فوق اللام فتصير كافاً ولا يخفى ما في البيت من التورية ٥ الردح المدة الطويلة ورسخ ثبت ونبغ في كذا اجاد والانموذج المثال وغبطهُ الاقران تمنوا لانفسهم مثل حالهِ الحسنة من غير حسد ٦ تتبعها

والسريانية والطليانية واللاتينية وأولع بالتاريخ فتبحر فيه ووعى من الأخبار والوقائع ما لا يقع تحت حصر وكان إذا روى حادثة جاء على تفاصيلها التاريخية بدقة عجيبة حتى يخيل للسامع أنه إنما يقرأ في كتاب لا عن ظهر القلب .

وعُهد الى الخوري أرسانيوس بعدة مهام كان فيها مثال النشاط والغيرة والاستقامة فكتب السر لغبطة البطريرك ثم للقصاد الرسوليين وعلم في مدرسة مار عبدا هرهريا ولما كان قد درس الفقه ومهر فيه وأحاط بأصوله وفروعه تولّى القضاء في لبنان على عهد الأمير بشير الكبير وخلفه الأمير حيدر اللمعي وظل في منصبه سبع عشرة سنة اشتهر في أثنائها بالنزاهة والعدل وتحدث القوم بعفافه [1] وعلو همته على اختلاف الملل والنحل .

وما زال في خطة [2] القضاء الى ان أصيب بعينيه فاستعفى من الخدمة واعتزل في بيته منقطعاً للتأليف والمطالعة وقرض الشعر الى ان كُفّ بصرهُ وحاقت [3] به شدائد الشيخوخة فتحمل هذه المحن بالصبر الجميل وازداد خشوعاً وتقىً وشكراً على كل مكروهٍ يحل بـه استعداداً للقاء ربهِ الى ان وافته المنية فكان على أتم الأهبة [4] للسفر الأبدي .

وكان الخوري ارسانيوس كاهناً غيوراً وخطيباً مصقعاً [5] وشاعراً فصيحاً رشيق النظم جيد القريحة ومن شعرهِ قوله يرثي أباهُ .

أشكو بعادك يا أبي وأودّ لو ... ان المسبب للبعاد بعيدُ
وأبيت أحسدُ من ينادي يا أبي ... يا ليتني في ذا أنا محسودُ
قد بات بعدك مأنسي في وحشةٍ ... وعلا موائد عيشتي التنكيدُ

---

١ ترفعه عن الاطماع الدنيئة ٢ مقام ٣ احاط ٤ العدة ٥ بليغاً ماهراً

ومما نظمه قبل وفاته بيوم واحد قوله متشوقاً الى الموطن السماوي:

نفسي تناءت عن حماك بوزرها ... ياخالقي قد أسخطتك بشرها [١]
فبحبك السامي انحدرت من السما ... لخلاصها وفداتها من أسرها [٢]
إذ متّ عرياناً ومصلوباً على ... عود لتكسوها ملابس برها
يا ربها الفادي يسوع إلهنا ... لكم السجود من النفوس بأسرها [٣]
خذني إليك لكي أحبك في السما ... حبّاً عظيما كاملاً في خدرها [٤]
فلأشكرنك ما حييت وإن أمت ... فلتشكرنك أعظمي في قبرها

وللخوري ارسانيوس ثلاث بديعيّات سبق لنا ذكر إحداها وله على الثانية شرح سمّاه « زهر الربيع في فنّ البديع » ومطلعها:

فحيِّ حيَّ الجليل الجامع العِظَم ... وبيت لحماً وآلاً قد سمت بهم

ومطلع الثالثة:

إني لأحكام القضاء مسلّمٌ ... ولسان حالي بالهوى متكلّمُ

والبديعيات الثلاث في الموضوع عينه. وله مؤلفات منها «روض الجنان في المعاني والبيان» و« الميزان الذهبي في الشعر العربي» وله شرح لديوان المطران جرمانوس فرحات وشرح لديوان المتنبي وغير ذلك.

---

١ تناءى بعد وحمى القوم المرضع ينزلونه فيحمونه عمن سواهم والوزر الاثم
٢ الأسر العبودية ٣ باسرها كلها ٤ الخدر ستر يمد للجارية في ناحية البيت استعير لمقام البارّ في دار القرار ومن ثم قيل الاخدار السماوية

عبد الله باشا فكري (١٨٩٠ م ١٣٠٨ هـ)



عبد الله باشا فكري

هو عبد الله فكري بن محمد بليغ من نوابغ الناشئة المصرية. وُلد بمكة ونشأ بالقاهرة وتلقى العلوم الدينيّة واللسانية في الجامع الأزهر فبرّز فيها واستوعب[١] أطرافها واستبطن دخائلها ثم استخدم في مناصب الحكومة المصرية فأظهر من البراعة والنشاط ما حبّبه أولياء الأمر وكان مع تضلّعه من المعارف والفنون عالماً باللغة التركية فألحقه سعيد باشا بمعيته ولما تولّى الأريكة[٢] الخديوية اسماعيل باشا أقرّه في منصبه واستصحبه في سفره الى الاستانة وعهد اليه بمهمات عديدة قام بها أحسن قيام وكان موضع ثقة عند مولاه فقرّبه وأحسن اليه وما زال يرقى من رتبة الى أعلى منها حتى تقلّد أسمى الخطط ووجهت اليه نظارة المعارف.

---

١ وعى ٢ السرير

وتقدم إليه اسماعيل باشا بمراقبة دروس اللغات الشرقية التي على ولي عهده وبعض أمراء الأسرة الخديوية فبذل مـا فوق الطاقة في مشارفة [١] أمرهم والاهتمام بأسلوب تخريجهم [٢] وتهذيبهم على ما تقتضيه مقاماتهم العالية فكان يتعهد [٣] الأساتذة بإرشاداته ويباشر أحياناً هو نفسه أمر التعليم حرصاً على أداء واجبات الخدمة الجليلة التي ألقيت على عاتقه [٤] بدقة وامانة .

وهبت سنة ١٨٨٢ زوبعة الثورة العرابية وكان من أمر أصحابهـا ما كان على ما هو مشهور فقُبض على عبد الله باشا فيمن قبض عليهم من المتهمين بممالأة [٥] الثائرين واعتُقل [٦] مدة ثم استُنطق فظهرت براءته وأطلق سراحه الا أنهم قطعوا عنه معاشه فالتمس المثول بين يدي الخديوي فلم يؤذن له فنظم حينئذٍ قصيدة فريدة عامرة الأبيات وبعث بهـا الى الأمير فوقعت عنده موقع القبول وأوعز [٧] فرُدَّ له راتبه وأعيد الى سابق مقامه. قال :

كتابي توجّه وجهة الساحة الكبرى
وكبّر اذا وافيت واجتنب الكـبرا [٨]

ومنهـا :

مليكي ومولاي العزيز وسيدي ومن ارتجى آلاءَ معروفه العمرا [٩]
لئن كـان أقوامٌ عليَّ تقوّلوا بأمرٍ فقد جاؤوا بما زوّروا نكرا [١٠]

---

١ مراقبة ٢ تعليمهم ٣ يتفقد ٤ موضع نجاد السيف من الكتف ٥ معاونة ٦ حبس ٧ امر ٨ كتابي منادى محذوف الاداة وعنى بالساحة الكبرى حضرة الامير وكبر الرجل قال الله أكبر ٩ الآلاء النعم مفردها إلىً او إليٌ ١٠ تقول عليه الباطل اتهمه به والنكر القبيح المنكر

حلفت بما بين الحطيم وزمزمٍ ... وبالباب والميزاب والكعبة الغرّا [١]
لما كان لي في الشرّ باعٌ ولا يدٌ ... ولا كنت من يبغي مدى عمرهِ الشرّا
ولكنَّ محتوم المقادير قد جرى ... بما الله في أمّ الكتاب له أجرى [٢]
اتذكر يا مولاي حين تقول لي ... واني لأرجو ان ستنفعني الذكرى
أراك تروم النفع للناس فطرةً ... لديك ولا ترجو لذي نسمة ضرّا
فعفواً أبا العباس لا زلت قادراً ... على الأمر انّ العفو من قادرٍ أحرى [٣]
وحسبي ما قد مرَّ من ضنك أشهرٍ ... تجرعتُ فيها الصبر اطعمهُ مرّا [٤]
يعادل منها الشهرُ في الطول حقبةً ... ويعدل منها اليومُ في طولهِ شهرا
أيجمل في دين المروءة انني ... أكابد في أيامك البؤس والعسرا

وكلها من هذا الطراز البديع تشهد لموشي بردتها [٧] بعلو الكعب وكمال الشاعرية . ثم نظم قصيدة أخرى يشكر مولاهُ على نعمته . منها قوله :

الا انّ شكر الصنع حقٌّ لمنعمٍ ... فشكراً لآلاء الخديوي المعظّم [٨]
مليكٌ له في الجود فضلٌ ومفخرٌ ... على كل منهلٍّ من السحب مُرهِم [٩]
سأشكره النعماءَ ما عانقت يدي ... يراعي أو استولى على منطقي فمي

---

١ الحطيم جدار حجر الكعبة وزمزم بئر عند الكعبة والباب باب الكعبة والميزاب ميزاب الكعبة اي مزرابها والكعبة المسجد الحرام بمكة سمي بذلك لانهُ مربع الشكل يقول انهُ يحلف باقدس الاشياء عند المسلمين ٢ القدر المحتوم هو الواجب وجوباً لا يمكن ردهُ والمقادير جمع مقدور بمعنى القدر وهو قضاء الله للاشياء وجعلها على وجه مخصوص وام الكتاب فاتحة القرآن ٣ احرى اولى واجدر ٤ تجرع الماء ابتلعهُ شيئاً بعد شيء ٥ الطراز النمط والبردة ثوب مخطط ووشى نقش ٥ الصنع الصنيعة اي الاحسان ٧ انهل المطر اشتد انصبابهُ وارهمت السماء اتت بالرهمة وهي المطر الضعيف الدائم

وتجوّل عبد الله باشا في جهات الحجاز والشام ثم أُوفد الى استكهلم نائباً عن الحكومة المصريّة في مؤتمر المستشرقين سنة ١٨٨٨ وزار العواصم وأمهات المدن الأوربيّة وقد وصف رحلته هذه في كتاب سماه « إرشاد الألبّا الى محاسن أوربّا » حالت منيته دون إتمامه فأنجزهُ من بعده نجلهُ أمين باشا فكرى وكان من مشاهير المحامين ومهرة الكتّاب .

وكان عبد الله باشا شاعراً مبرّزاً وكاتباً محبّراً [١] طويل الباع في الانشاء متفنناً في ضروب الكلام راسخ القدم في علوم البلاغة ذلق اللسان [٢] لكلامه طلاوة ورونق ولهُ آثار أدبية منها « نظم اللآل في الحكم والأمثال » و « المقامة الفكرية في المملكة الباطنية » وغير ذلك ومن مآثره الغرّاء تحريض الحكومة على الاهتمام بأمر الكتب التي في حوزتها ورفع في ذلك تقريراً أفضى الى انشاء المكتبة الخديوية الشهيرة .

نجيب الحدّاد (١٨٩٩ م ١٣١٧ هـ)

هو نجيب بن سليمان الحدّاد من طائفة الروم الكاثوليك وأمه كريمة [٣] الشيخ ناصيف اليازجي ولد ببيروت وظهرت عليه مخايل [٤] النجابة من صغره وورد معين الآداب منذ ذرّ [٥] شارق عقله فتخرّج على خالَيه الشيخين ابرهيم وخليل اليازجي ونحا نحوهما في الولوع بفنون العربية والتبحر في علومها وقدم القطر المصري وهو حديث السنّ فدخل احدى مدارس الاسكندرية وأتقن فيها الفرنسية ثم ثار ثائر العرابيين هنالك فكرّ راجعاً الى بيروت وأتم دروسه في المدرسة البطريركية .

---

١ حبّر الكلام حسنهُ ٢ حديد اللسان فصيحهُ ٣ ابنة ٤ دلائل ٥ ظهر



الشيخ نجيب الحداد

ولما انقشعت غياهب [1] الفتنة عاد الى الاسكندرية وخاض عباب الصحافة وجال في ميدان الكتابة فأحرز في قليل من الزمن شهرة واسعة وأصبح على حداثة عهده في التأليف ممن يشار اليهم بالبنان [2] وتهافت الأدباء على مطالعة مقالاته وهم يعجبون بغزارة مادة منشئها ومتانة عبارته وحسن أسلوبه .

وكان نجيب الحداد مع تضلّعه من الانشاء وتحبيره للفصول الشائقة الرائقة في الجرائد والمجلات المصرية شاعراً سيّال القريحة رائق الديباجة سلس العبارة دقيق المغزى عصري المذهب جامعاً في قصائده بين المتانة والرقة قارناً فصاحة الأقدمين بهلهلة [3] المحدثين .

١ انقشعت انكشفت والغياهب الظلمات مفردها غيهب ٢ الاصابع واحدها بنانة ٣ رقة النسج

ومن مستحسَن شعره قوله في ذم القمار :

لكلّ نقيصةٍ في الناس عارُ ... وشرّ معايب المرء القمارُ
هو الداء الذي لا برء منهُ ... وليس لذنب صاحبه اغتفارُ
تُشادُ له المنازل شاهقاتٍ ... وفي تشييد ساحتها الدمارُ [١]
منازلُ كم أُريق دمٌ عليها ... وكل دم أراقته جبارُ [٢]
نصيب النازلين بها سهادٌ ... فإفلاسٌ فيأسٌ فانتحارُ [٣]
قد اختصروا التجارة من قريبٍ ... فعدمٌ في الدقيقة أو يسارُ [٤]
كأن وجوههم ندماً وحزناً ... كساها لونَ صفرته النضارُ [٥]
فبينا تبصر الوجنات ورداً ... اذا هي في خسارتهم بهارُ
عصائبُ لا يود المرء فيها ... أخاهُ ولا يراعي الجارَ جارُ [٦]
يلاحظ بعضهم بعضاً بعينٍ ... يكاد يضيء أسودَها الشرارُ
فكم غضبوا على الأيام ظلماً ... وكم حنقوا على الدنيا وثاروا
وكم تركوا النساء تبيت تشكو ... وتُسعدها الأُصيبيةُ الصغارُ [٧]
تبيت على الطوى ترجو وتخشى ... يؤرّقها السهادُ والانتظارُ [٨]
فبئست عيشة الزوجات حزنٌ ... وتسهيدٌ وهجرٌ وافتقارُ [٩]
وبئست خلة الفتيانِ همٌّ ... وأتعابٌ وخسرانٌ وعارُ

ومن قلائده النفيسة قوله في احتراق سوق المحبة بباريس حيث

---

١ شاد المنزل وشيّده رفعه والدمار الخراب ٢ ذهب دمهُ جباراً اي هدراً ٣ السهاد عدم النوم وانتحر فلان قتل نفسهُ ٤ العدم الفقر واليسار الغنى ٥ النضار الذهب ٦ العصائب جمع عصابة اي جماعة ٧ الاصيبية تصغير تحبب لاصبية جمع صبي ٨ الطوى الجوع وارّقهُ جعلهُ يأرق اي لا ينام ٩ سهدهُ تسهيداً منعهُ النوم

فجعُ الكاثوليك الفرنسيون بجمهور غفير من سراتهم فذهبوا جميعاً رجالاً ونساءً ضحيَّةً نقية في سبيل البرّ :

أيُّ رُزءٍ أجرى الدموع دماء   وأذاب القلوب والأحشاءَ [١]
وأسال النفوس حزناً وأذكى م الصدر ناراً واستنزف العين ماءَ [٢]
أي خَطب أصاب باريسَ أمَّ م المدن بنتَ التمدن الزهراءَ
فجعة أكمدت ضحاها وقد خصَّـت بنيها وعمت الغرباءَ [٣]
ليس بِدعٍ في خطب باريس ان م تشمل آثار حزنه الدنياءَ [٤]
هي قلب الدنيا اصيب بسهم   فأصابت آلامه الأعضاءَ
وهي أمُّ الآداب أثكلها الدهر م فأبكت بوجدها الأبناءَ [٥]
قد دهاها مصاب سادوم لكن   خص من بين قومها الأبرياءَ
فهي في الحزن مثل راحيل اذ م تبكي بنيها ولا تريد عزاءَ
أصلت الكهرباءُ فيها لهيباً   قد كرهنا لأجله الكهرباءَ
ورماها نور الضياء بنارٍ   أظلمتها فما تلاقي الضياءَ
في مكانٍ أُنشي لدفع بلاءٍ   عن فقيرٍ فكان فيه بلاءَ
سوق برٍّ تباع فيها اللُّهى بيعاً ويشرى الثواب فيها شراءَ [٦]
زيَّنتها بيض الأيادي وأيدي م البيض من محسنٍ ومن حسناءَ
أنفسٌ تبتغي السماءَ فما أمسين الاَّ وقد بلغن السماءَ
أدركتْ ما تروم من جنة م الخلدِ ولكن كان الطريقُ صِلاءَ [٧]

---

١ الرزء المصاب ٢ اذكى النار اضرمها واستنزف الماء استخرجهُ كلهُ ٣ الفجعة المصيبة المؤلمة واكمده الحزن غمهُ وغير لونهُ والضحى من النهار بعد طلوع الشمس استعارهُ للبهجة ٤ البدع الامر الغريب ٥ اثكلهُ ابنهُ افقدهُ اياهُ والوجد الحزن ٦ اللهى جمع لهوة وهي العطية الجزيلة والثواب الجزاء ٧ الخلد البقاء والصلاء النار

من رأى قبلها جحيماً يؤدي لنعيم أبناءه الشهداء
أو رأى محسناً يجود على النا س فيلقى نار الحريق جزاء
أترى كان ذاك مطهر من ما توا فيمحو عن النفوس الخطاء
أم هو الدهر لا يزالُ مسيئاً لكريم ومُكرماً من أساء
ياربوعاً كانت معاهد إحسا نٍ وحسن فأصبحت قفراء
وديارا كانت منازل إينا سٍ فأضحت بَلاقعاً وخلاء [١]
وكراماً كانوا مَناهِلَ جودٍ لفقيرٍ فأصبحوا فقراء [٢]
أمراء نادي الندى فأطاعو هُ أميراً لهم ولبّوا نداء [٣]
وحسانٌ قد جُدْن براً فكان م البرّ ثوباً يزيدهن بهاء
ساحةٌ تُنبتُ المكارمَ والرأ فةَ والمجدَ والندى والاخاء
فنساءٌ بها تباري رجالاً ورجالٌ بها تباري النساء [٤]
أوجهٌ يشرق السنا من محيا ها فتزداد بالجميل سناء
وحن يزهون بالبياض فما أمسين الا كوالحاً سوداء [٥]
رمماً لم تدع بها النار الا رسمَ جسمٍ وأعظماً جرداء
كنَّ ناساً فصرن ناراً فأصبحـ ـنَ رماداً بها فصرن هباء [٦]
قد كفت لحظةٌ لأن تقلب الأمـ ـرَ وان تجعل النعيم شقاء
فاستحال الهناء بؤساً وأحزا ناً وأضحى ذاك السرور بكاء
نقمة صبّها القضاء على الأبـ ـرار ظلماً ومن يردُّ القضاء
رحم الله من قضى وشفى الجر حى وعزّى الباكين والتعساء

---

١ البلاقع جمع بلقعة وهي الارض القفر ٢ المناهل جمع منهل وهو عين الماء ٣ الندى الكرم ولبى نداءهُ اجابهُ مطيعاً ٤ تباري تسابق ٥ الكوالح جمع كالحة اي عابسة ٦ الهباء الغبار المتطاير في الهواء

ومن آثار نجيب الحداد رواياتٌ تمثيلية وغير تمثيلية عرّب بعضها عن اللغات الاوربية ووضع البعض الآخر، منهــا رواية السيّد للشاعر كُرنيل الفرنسي ورواية حمدان عربها عن رواية «ارناني» لفكتور هوغو ورواية شهداء الغرام عربها عن رواية روميو وجوليت لشكسبير وروايتا البخيل والطبيب المغصوب لموليار ورواية الفرسان الثلاثة لاسكندر دوماس. ورواية صلاح الدين الأيوبي لولتر سكوت الشاعر الانكليزي عربها بتصرف وسبكهـــا في قالب التشخيص ورواية المهدي ورواية الرجاء بعد اليأس ورواية غصن البان ورواية ثارات العرب. ولهُ ديوان شعري هو النهاية في النباهة والظرف يعرف «بتذكار الصبا».

وكان يرجى من همة نجيب الحداد خدمٌ جليلة للآداب العربية لولا ان الأسقام ما زالت تنتابهُ وتثبّط[1] عزيمتهُ وهو يعاندهـا وتعيد عليه كراتها فتجهد[2] قواهُ وهو يجاهدها الى أن هصرت غصن حياته غضّـاً[3] رطيباً ولم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره.

سامي باشا البارودي (١٩٠٤م ١٣٢٢هـ)

هو محمود سامي الباروديّ. ولد بالقاهرة وكان أبوهُ من كبار الجيش المصري فدخل المدرسة الحربية وتلقن فيها العلوم اللسانية وتضلّع من فنون الأدب فبلغ منها شأواً[4] بعيداً وقرض الشعر فأبدع وأجاد ثم رحل

---

١ انتابهُ المرض أصابهُ وثبط عزيمتهُ حبسها وردعها ٢ جهدهُ واجهدهُ حمّلهُ فوق طاقتهِ واجهد مالهُ افناهُ ٣ هصر الغصن كسرهُ والغضّ الناعم الناضر ٤ غاية

الى القسطنطينية فأتقن التركية وكان له إلمام[1] بها ودرس الفارسية وتقلّد منصب الكتابة في وزارة الخارجية وشهد الحرب العثمانية الروسية ورقي فيها الى رتبة لواء. ولمّا شخص[2] الخديوي اسماعيل الى القسطنطينية مثل سامي بين يديه فأُعجب به ورأى منه همة وشهامة وأدباً واسعاً فأحبّه وألحقه بمعيته وعاد به الى مصر وقلده عدة مناصب أسفرت[3] عن كفايته وأهليته وحسن فراسة[4] الأمير به فرفع مقامه ورقاه ونال الحُظْوة عينها عند الخديوي توفيق ولم يزل يتنقل من رتبةٍ الى أعلى منها حتى تربع في دست رئاسة الوزراء.

واتفق في تلك الأثناء حدوث الثورة العرابية وكان زعيمهم احمد عرابي المصري ومن مالأه من وجهاء القوم ينادون بالحرية والمساواة والاخاء بين أفراد الشعب واستخلاص البلاد من أيدي الأجانب الذين استأثروا بالخطط العالية وردّ مصر الى المصريين وما الى ذلك من المزاعم والدعاوي التي يتشدق[5] بها في كل بلاد الخوارج على السلطة الشرعية فأصابت أقاويلهم من رئيس النُظّار أذناً واعية وجاراهم على هواهم وأمدّهم[6] بما لديه من القوى المعنوية والمادّيّة ثم آل الأمر الى ما هو مشهور وحوكم زعماء الفتنة فنفي سامي باشا الى جزيرة سيلان فيمن نفي وظلّ هنالك سبع عشر سنة ثم عفي عنه فرجع الى وطنه وسكن القاهرة الى وفاته.

وكان سامي البارودي شاعراً فحلاً متين العبارة محكم النظم جاهلي اللهجة شديد الأسر[7] بصيراً بمواقع الكلام وتنسيق[8] القوافي وكان

---

١ معرفة قليلة ٢ ذهب ٣ كشفت ٤ الاستدلال بالظاهر على الباطن ٥ تشدق بكذا ملأ به شدقيه واكثر من ترديده ٦ اعانهم ووصلهم ٧ الضبط والقوة ٨ ترتيب وتنظيم

شعره صدى أقوال عنترة وأبي فراس وغيرهما من حَمَلَة السيف وقالة الشعر ومن أمثلة نظمه قوله وهو في منفاه :

محا البينُ ما أبقت عيونُ المها منّي ... فشبتُ ولم أقضِ اللُّبانةَ من سنّي [١]

عناءٌ ويأسٌ واشتياقٌ وغربةٌ ... الا شَدَّ ما ألقاه في الدهر من غبنِ [٢]

فأن أكُ فارقتُ الديارَ فلي بها ... فؤادٌ أضلّته عيونُ المها عني

بعثت به يوم النوى إثرَ لحظةٍ ... فأوقعه المقدارُ في شركِ الحُسنِ

فهل من فتى في الدهرِ يجمع بيننا ... فليس كلانا عن أخيه بمستغنِ

ولمّا وقفنا للوداع وأسبلت ... مدامعنا فوق الترائب كالمُزنِ [٣]

أهبت بصبري ان يعود فبزّني ... وناديتُ حلمي ان يثوب فلم يُغنِ [٤]

وما هي الا خطرةٌ ثم أقلعت ... بنا عن شطوط الحيّ أجنحة السفنِ [٥]

فكم مهجةٍ من زفرة الوجدِ في لظى ... وكم نقلةٍ من غزرة الدمع في دجنِ [٦]

وما كنت جربتُ النوى قبل هذهِ ... فلما دهتني كدتُ أقضي من الحزنِ [٧]

ولكنّني راجعتُ حلمي وردّني ... الى الحزم رأيٌ لا يحوم على أفنِ [٨]

---

١ البين البعد والمها جمع مهاة وهي البقرة الوحشية تشبه بها المراة الحسناء واللبانة الحاجة ٢ الغبن الخديعة وقولهُ الا شدّ بمعنى التعجب اي ما اشدّ ٣ اسبل الدمع صبهُ والمدامع جمع مدمع وهو مجتمع الدمع في العين استعارهُ للدمع نفسهِ والترائب عظم الصدر اوما ولي الترقوتين منهُ خاصة واحدتها تريبة والمزن السحاب ذو المطر ٤ اهاب بهِ دعاهُ وبزّهُ غلبهُ على امرهِ وثاب يثوب عاد ولم يغنِ لم يكن فيهِ غناء اي نفع وكفاية ٥ الخطرة المرة من خطور الامر بالبال اي مرورهُ اي لم يكن وداعنا وما لقينا فيهِ من اللوعة الا مقدار خطرة واجنحة السفن اشرعتها ٦ المهجة دم القلب استعارها للنفسِ والوجد الحزن واللظى لهب النار والمقلة العين الدجن الظلام ٧ النوى البعد ودهتهُ نازلة اصابتهُ وقضى هلك ٨ الحزم اخذ الامور بالتروي والتدبر والافن ضعف الرأي

ولولا بُنيّاتٌ وشيْبٌ عواطلٌ لمـا قرعت نفسي على فائتٍ سني [١]
فيا قلبُ صبراً ان جزعت فربّما جرت سُنُحاً طيرُ الحوادث باليُمنِ [٢]
فقد تورق الأغصان بعد ذبولها ويبدو ضياء البدر في ظلمة الوهنِ [٣]
وأيُّ حسامٍ لم تُصبْهُ كهامةٌ ولَهْذَم رمح لا يُفلُّ من الطعنِ [٤]
ومن شاغب الأيام لان مريرهُ وأسلمه طول المراس الى الوهنِ [٥]
وما المرء في دنياهُ الاّ كسالكٍ مناهجَ لا تخلو من السهل والحزنِ [٦]
فإن تكن الدنيا تولّت بخيرهـا فأَهْوِنْ بدنيا لا تدوم على فنّ [٧]
اذا عرف المرء القلوب وما انطوت عليه من البغضاء عاش على ضغنِ [٨]
يرى بصري من لا أودّ لقاءهُ وتسمع أُذْني ما تعاف من اللحنِ [٩]
تحملتُ خوف المنِّ كلَّ رزيئةٍ وحملُ رزايا الدهر أحلى من المنّ [١٠]
وعاشرت أخداناً فلمّا بلوتهم تمنيتُ أن أبقى وحيداً بلا خِدنِ [١١]

وشعره كله من هذا الطراز الأنيق.

---

١ اراد بالشيب النساء الشيب والعواطل اللواتي لا حلى عليهنّ ٢ السنح من الطير ما جاء عن يمينك والعرب تتيمن بهِ ٣ الوهن نصف الليل او نحوهُ يشير الى امكان انقلاب الحال من العسر الى اليسر ٤ كهم السيف كلّ ولم يقطع واللهذم القاطع وفلّ السيف ثلم حدهُ ٥ شاغب خاصم ولان مريرهُ ضعفت قوتهُ ومارس الامور مراساً عالجها والوهن الضعف ٦ المناهج جمع منهج اي طريق والحزن من الارض خلاف السهل اي ما غلظ وارتفع ٧ تولى ذهب واهون بدنيا صيغة تعجب اي ما اهون الدنيا والفن الطريقة ٨ الضغن الحقد ٩ عاف الشيء يعافهُ كرههُ واللحن الخطاء في الاعراب استعارهُ للكلام الساقط ١٠ المنّ مصدر منّ فلان على فلان اذا فخر بأحسانهِ اليهِ وقرعهُ بهِ والرزيئة البلية والمنّ طلّ (ندى) ينزل من السماء على شجر او حجر ويحلو وينعقد عسلا والمنّ اسم المادة العجيبة التي كانت تسقط من السماء في البرية لبني اسرائيل ١١ الاخدان جمع خدن وهو الصديق

حفني ناصف (١٩١٩ م ١٣٣٨ هـ)

هو محمّد حفني بن اسماعيل ناصف، ولد يتيماً فقيراً، ببركة الحجّ، من إعمال القليوبيّة بمصر، سنة ١٨٥٥، فكفله خاله، وجدّته أم أبيه؛ ولما ترعرع، تعلّم القرآن على أستاذ كان يسيء معاملته، ويضربه، ففرّ هارباً ماشياً الى الأزهر، واقام فيه عشر سنين، فجوّد القرآن، وحفظ المتون، ودرس الفقه الشافعي، والعلوم العربيّة، وزاول الأدب، والشعر، فبرع فيهما، وأجاد؛ ولعلّه اكثر أدباء عصره اطّلاعاً على تاريخ الادبيات العربيّة! ودخل دار العلوم فبزّ زملاءه؛ وتقلّب في مناصب عديدة، بعد خروجه منها.

درّس الآداب العربيّة، والمنطق، وآداب البحث، والمناظرة، بمدرسة الحقوق؛ وتولّى القضاء الاهلي مدّة عشرين سنة، كان في خلالها مثال العدل، والنزاهة؛ ثمّ عيّنته وزارة المعارف مفتّشاً أوّل للغة العربيّة، فأقام في منصبه هذا ثلاث سنوات، بذل فيها طاقته في ترقية اللغة العربية، وفنّ التعليم، فخدم امّته، ووطنه، خدماً تذكر فتشكر.

وكان شيّق الحديث، رقيق الفكاهة، مليح النوادر، حاضر الجواب مفحماً، مع دعابة فيه، يورد شعره بقالب جيّد منمّق؛ اذا جالس الفقهاء، والأدباء، أو المعلمين خلته منهم؛ وشعره يحلّه المحلّ الأوّل، بعد البارودي وعبد الله فكري؛ واكثره من السهل الممتنع، يسيل رقّة، وعذوبة وينسجم انسجام الماء، فهو مرآة الحضارة العصرية، ولابدع، فقائله ممّن تمّ على أيديهم نقل الكتابة من الطريقة المسجوعة القديمة، الى الطريقة الحاليّة. له ما عدا ديوان شعره، كتب النحو والبلاغة المستعملة

في المدارس المصرية، وكتاب حياة اللغة العربية، وكتب في علم البديع واللغة العامية في الشام والصعيد، ورسائل في المنطق، والاصول، والعروض والقوافي، والبحث والمناظرة واكثرها لم يطبع، أو عبثت به يد الضياع.

قال متأسفاً على ضياع خبرته :

أتقضي معي، إن حان حيني، تجاربي
وما نلتها إلاّ بطول عناءِ
ويحزنني أن لا أرى ليَ حيلةً
لاعطائها مَنْ يستحقُّ عطائي
إذا ورَّث المثرونَ أبناءَهم غنى
وجاهاً، فما اشقى بني الحكماءِ!

وقال قصيدة في وصف قنا، مخاطباً وزير الحقانية :

رقيتني حسنـــا ومعنى، فلصنعك الشكرُ المثنّى

منهـا :

هـا قد أمنتُ البردَ والـ	ـبُرَداءَ، والقلبُ اطمأنّا
ووقيتُ أمراضَ الرطو	بة واستراق الريح وهْنـا
وأنـامُ غـير مدثّرٍ	شيئاً اذا مـا الليل جنّـا
قـد خفّت النفقات، اذ	لا اشتري صوفاً، وقطنـا
ووفّرتُ من ثمن الوقو	د النصفَ أو نصفاً وثمنـا
فاذا بدتْ لي حـاجةٌ	في الغسل، ألقي الماء سخنا
أو رمتُ طبخاً، او عـلا	جَ الخبز، ألقى الجوَّ فرنـا
عش في القُرى رأساً، ولا	تسكنْ مع الأذناب مُدْنـا

توفّي في ٢٥ نوفمبر «تشرين الثاني» ودفن بالقرافة.

وكان لحفني ناصف ابنة تدعى ملك، على جانب عظيم من الذكاء، وكرم الأخلاق، تلقّبت « بباحثة البادية » وقد حلّت محلاً سامياً، بين أديبات هذا العصر؛ ولدت، ونشأت بالقاهرة، وتلقّت العلوم بمدارسها فنالت الشهادتين الابتدائيّة، والعالية، ومارست فنّ التعليم ردحاً من الزمن، ثمّ اقترنت بعبد الستار باشا الباسل؛ ورغماً مما كان لدي زوجها من وفرة المال، لم تأنف أن تمارس هي بنفسها اكثر أعمالها المنزليّة، وتدبج المقالات الرائعة، ابّان الفراغ؛ وهي مع ذلك تكره المولعات بالسرف في الحليّ والملابس؛ وبالاجمال كانت مثال الأدب، والعفاف، وخير قدوة للنساء المصريات، برزانتها، ونفعها لأمّتها.

بلغت بمساعدة والدها، وميلها الفطريّ، وذكائها، درجة مقبولة في النظم والنثر؛ لها كتاب « النسائيّات » مجموع مقالات وأبحاث؛ وما عداه تقرير وافٍ ضمّنته آراءها في وسائل تربية المرأة. توفّيت عام ١٩١٨م.

اسماعيل صبري باشا (١٩٢٣م ١٣٤١هـ)

هو اسماعيل صبري، شيخ شعراء العصر، وزعيمهم المتّبع، في سلامة الذوق، ونقد الشعر، ونهج منهج جديد لم يسبق اليه أحد. نشأ متوقّد الذكاء، ميّالاً بفطرته الى الشعر، والأدب؛ زاول النظم، وهو حديث السنّ وبرع فيه. وله شعر أنيق، رائق الديباجة، حسن الاسلوب يشفّ عن رقّة في الطبع، ودقّة الاحساس، والذوق، وعبقريّة؛ قد أضاف الى مواهبه الفطريّة حسنات آداب الفرنجة، والتضلّع من لغتها اذأتمّ علومه العالية في مدارس فرنسا.

تقلّب في المناصب حياته كلّها، وكان مثال النزاهة، والعدل، والاستقامة، واستقال الخدمة لبلوغه المرتّب الكامل، وهو وكيل الحقانيّة سنة ١٩٠٧.

نضجت ملكته الشعريّة في العقد الرابع من سنّه، فجاء شعره آية في الابداع، ولطف الشعور، وحسن الذوق، وجودة اختيار اللفظ؛ كان في نظمه أميل إلى البيتين، والثلاثة، والمقاطيع، منه الى القصائد الطويلة؛ شديد النقد لشعره، شأن زهير، كثير التعديل، والتحويل، حتى اذا استقام على ما يتطلّبه ذوقه الصائب، من رقّة اللفظ، وفصاحة الاسلوب، اهمله، فنسيه؛ ولم ينظم اسماعيل صبري الشعر للشهرة او التزلّف الممقوت، وانما كان يدعوه الى قرض الشعر خواطر تجيش في صدره، لحادثة شهدها، أو خبر ذي بال سمعه، أو كتاب طالعه، فينفثه لسانه، ويعلّقه قلمه، وهذا هو الشعر الحقيقيّ.

ولا يكاد المأثور من نظمه يخرج عن تمثيل الوجدان أو الشعور، والحكمة، وحبّ الوطن: أما تمثيل الوجدان فهو فارس حلبته المجلّي، الذي لا يشقّ له غبار ومن أمثلة ذلك قوله في الرجاء، واستعطاف العزّة الالهيّة:

يا ربِّ! أينَ ترى تُقامُ جهنّمٌ ... للظالمين غداً، وللأشرارِ؟
لم يُبقِ عفوُكَ في السماوات العلى، ... والأرضِ شبراً خالياً للنّارِ!
يا ربِّ! أهِّلني لفضلِك، واكفني ... شططَ العقولِ، وفتنةَ الافكار؛
ومُرِ الوجودَ يشفّ عنك، لكي أرى ... غضبَ اللطيفِ؛ ورحمةَ الجبّارِ
يا عالمَ الأسرارِ، حسبي محنةً ... علمي بأنّك عالِمُ الأسرار؛

أَخْلِقْ برحمتِكَ التي تسعُ الورى   ألاَّ تَضيقَ بأعظمِ الأوْزارِ ! [١]

ومن جيّد قوله في الحكم :

إن سئِمتَ الحياةَ ، فارجعْ الى الار   ضِ ، تَنَمْ آمناً من الأوصابِ
تلكَ أمٌّ أحنى عليكَ من الأُ   مِّ التي خلّفتكَ للأتعابِ
لا تَخفْ ، فالمماتُ ليس بماحٍ   منك إلاَّ ما تشتكي من عذابِ
كلٌّ مَيْتٍ باقٍ ، وإن خالفَ الـ   منوانُ ما نُصَّ في غضونِ الكتابِ
وحياةُ المرءِ اغترابٌ ، فان ما   تَ ، فقد عادَ سالماً للترابِ [٢]

ومما قاله عن لسان شوقي ، وهو بالاندلس :

يا ساكني مِصْرَ : إنّا لا نَزالُ على   عهدِ الوفاءِ ، وانِ غبنا ، مُقيمينا ؛
هلاَّ بعثتم لنا من ماءِ نهرِكُمُ   شيئاً ، نبلُّ بهِ أحشاءَ صادينا !
كلُّ المناهلِ ، بعدَ النيلِ ، آسنةٌ ؛   ما أبعدَ النيلَ إلاَّ عن أمانينا !

ومن جميل قوله في الوفاء :

اذا خانني خلٌّ قديم ، وعقّني ،   وفوّقتُ يوماً في مَقاتِله سَهْمي ،
تعرَّضَ طيفُ الودِّ بيني ، وبينه ،   فكسّر سهمي ، فانثنيتُ ، ولم أرْمِ

وجميع شعر صبري يمتاز بهذه الروح التي تشفّ عنهُ ؛ وتصوير العواطف ، والوجيدان ، تصويراً صادقاً ، لا يشوبه تعمّل ؛ وسيبقى شعره خالداً ما بقي قلب يخفق في صدر ناطق بالضاد .

---

١ لا شكّ ان رحمة الله عزّ وجلّ غير متناهية ، ومهما عظمت ذنوب المرء ، لا ينبغي له ان ييأس من المغفرة بشرط أن يعود تائباً ؛ الا انه لا يؤخذ من ذلك التهافت على ارتكاب الاثم طمعاً بالمغفرة ٢ الجسم يعود الى التراب اما النفس فتدان وتعاقب او تثاب

سليمان البستاني[1] (١٩٢٥ م ١٣٤٤هـ)



سليمان البستاني

هو سليمان بن خطّار البستاني الماروني، السياسيّ المحنّك الشهير، والشاعر النابغة المفلق، واللغويّ المؤلّف الكبير، من أسرة عريقة في الفضل، والفضيلة، والأدب، والمجد المؤثّل؛ ولد ببكشتين، وهي قرية بقضاء الشوف من اعمال لبنان، ونشأ فيها متوقّد الذكاء، سريع الفطنة، آية من آيات الله في قوّة الحفظ، فاتحاً صدره للهواء الطلق، وذهنه لالتقاط العلوم، ميّالاً إلى الوقوف على كنه الحقائق، ودقائق الأمور، يستقصي البحث عمّا يقع تحت حواسّه؛ وقد ورث عن ذويه، وأنسبائه روح التقوى، والتديّن، ولم يحد عن إيمانه قطّ. دخل المدرسة الوطنيّة لنسيبه، أبي النهضة الأدبيّة المعلم بطرس البستانيّ، وهو في السابعة من سنّه، فاكبّ على الدرس، واقتباس العلوم بجدّ ونشاط، وتمكّن من اللغات

١ مجلّة المشرق: سنة ١٩٢٥

العربيّة ؛ والانكليزية ، والفرنسيّة ، وتلقّى الطبيعيّات ، والرياضيات ، والتاريخ ، والجغرافيا في خلال ثماني سنوات ، ونال شهادة المدرسة النهائية. حرّر في الصحف ، ودبّج المقالات الشيّقة في « دائرة المعارف » ، وبذل جهد المستطاع في نشر العلوم ، فكان ركناً من أركان النهضة السورية ، وعلماً من أعلامها ؛ واغتنم ربيعَ الحياة ، لارتياد منهل المعارف ، وترويض النفس بالاطلاع على آداب الامم المختلفة ؛ واتقان اللغات .

وعلقت نفسه بالاسفار ، فباشر رحلاته العلميّة الى جزيرة العرب ، فزار اليمن ونجد ، وحضرموت ، وغيرها ، ودرس أحوالها ، وأخلاق اهلها ؛ وزار الاماكن المشهورة في شعر العرب ، وهو يبحث ، اينما حلّ ، بحث العالم المدقّق. ثمّ رجع الى بيروت ، وعاد إلى التأليف ، والتحبير في دائرة المعارف ؛ ثمّ استأنف اسفاره فلم يزل دهراً طويلاً في حلّ ، وترحال ، فجاب لبنان ، والشام ، والاناضول ، ومصر ، والهند ، والعراق ، والعجم ، وهو لا يألو جهداً فيما يعود بالفائدة على البلاد الشرقية من أبحاث دقيقة لغوية ، وأدبيّة ، واجتماعيّة ، وسياسيّة ؛ وتضلّع من اللغة الفارسيّة ، واطّلع على مؤلفاتها الثمينة ، وملاحمها الشهيرة ؛ وأقبل على درس اليونانيّة القديمة ، والحديثة ، والسريانية ، واللاتينيّة ، وفروعها ؛ وتعلّم التركيّة ، والمّ بعض الالمام بالعبريّة ، والالمانيّة ، والروسيّة ، والهنديّة ؛ وهو لا يفتأ يواصل تآليفه الثمينة ، فأصدر جزئين من دائرة المعارف ، وعرّب الياذة هوميرس ، منظومة نظماً بديعاً تختال ببرد قشيب من البلاغة العربيّة ، وظهرت في عالم الطباعة تحفة ثمينة ، يحسد الغربُ الشرقَ عليها .

وتقلّب البستاني في مناصب الدولة التركيّة كعضو في مجلسي النواب ، والاعيان ، وتوزّر ، وترأس وفوداً الى اوربا . ولمّا شبت نار الحرب ،

العظمى، قدَّم استعفاءه، واعتزل السياسة، وغادر الاستانة الى سويسرا، فأقام الى ما بعد الحرب، وألمّ به مرض فقدم مصر للاستشفاء، ولم ينقه من مرضه حتى عاوده ألم عينيه، فأمّ امريكا؛ ولم يطأ ارضها حتى هرع لاستقباله، والاحتفاء به، المهاجرون من أبناء الوطن؛ ولم تمهله الكوارث طويلاً حتى ألمّت به ففقد بصره واغتالته المنون في غرّة يونيو «حزيران» سنة ١٩٢٥ وله من العمر ٦٩ عاما.

وجيء بجثمان الفقيد الى لبنان، فدفن في بكشتين، مسقط راسه، ومحطّ جثمانه. وكان المترجم قويّ العزم، ماضي الهمّة، ثابت الارادة، عظيم البصر؛ شديد التعلّق بدينه، محترماً لدين قريبه، يكره التعصب الذميم: وهو مع ذلك، متواضع الجانب، واسع الصدر، لطيف المعاشرة، رقيق العواطف، شهم الفؤاد، ذو مهابة، وجلال عظيمين.

اما في السياسة، فهو الحكيم المحنّك، الحصيف الرأي، وله فيها الغرر الواضحة، والأيادي البيضاء، والمساعي المحمودة؛ اخلص الخدمة للدولة، والأمّة، والوطن.

وآثاره وفضله على العلم، والأدب اكثر من ان تحصى؛ منها تعريب الالياذة نظماً، وقد ضمنها من بدائع الاعجاز، وعلوّ الطبقة، مع طول النفس، واستمرار اللهجة العلوية ما يخلب القلب، ويبهر العقل؛ وصدّرها بمقدمة مطولة أودعها المباحث الجليلة في آداب العرب، واليونان، وأشبع الكلام على الشعر العربي، واوزانه، وفنونه، ومزاياه، واطواره، من عهد الجاهليّة الى أيامنا، فاجاد وأفاد؛ لو لم يكن له الاّ هذا الأثر الجميل، لكفاه فخراً أبد الدهر؛ بيدأن له، ما عدا مخترعات لطيفة منها آلة لقلب ورق المعزّف، وآلة الكتابة العربيّة، واشتراكه في تأليف دائرة المعارف، عبرة وذكرى، والداء والشفاء، وتاريخ العرب، ومذكرات،

وديوان شعر العرب الحاليّين ، وغيرها من القصائد ؛ ومقالات بالعربيّة ، والانكليزية ، والتركيّة .

من قوله في وصف حالته مريضاً :

وقالوا : صِفْ علاجَك ، قلتُ : ضيمٌ أُحمّلهُ لدفعِ الضرّ ضُرّا
فحين أهبُّ ممّا قد دعوه رُقاداً ، وهو مني قد تبرّا ،
لكهف الكهرباءِ أُقاد ، حتى مجاريها تساق اليَّ جرّا
كأنَّ لها شعوراً بالتياعي ، فتسمعني أنينَ الحزن جهْرا
فمن ظهر إلى بطنٍ ، وفخذٍ صفائحُ ترمضُ الاعضاء حرّا

ومن غرر أقواله :

شؤون ذوي الشأن مرعيّةٌ ، ولو اعلت الارض أنذالها
ولا يعرف الفضل الا ذووهُ ، فلا تبخس الناس اعمالَها ؛
وفي الصدر فاحفظ وعوّدك دهرًا أو اقطع لسانك إن قالها ؛
كفاك عفاف على عزّةٍ تؤيّد بالفضل إجلالها ؛
ولاتحنِ رأساً ولا تُدْنِ نفساً تقطّع بالذلّ أوصالَها
وخلِّ الحسودَ على كيدهِ ؛ فإنّ من النار أكّالَها
إذا العرضُ زينَ بطيب الفَعالِ ، وسؤ المطالب ما طالَها ،
فلستُ أُبالي بقيلٍ ، وقالٍ ولو سنّت الألْسُن أنبالَها

ومن نظمه :

ولا يقوم بنــاء لا تحيط به عينُ العناية إلّا شابه الخَلَلُ

المنشئون

هم سائر أرباب العلم وحملة الأقلام الذين عززوا جانب الآداب وخدموا اللغة خدماً جليلة بما وضعوا من التآليف النفيسة وحبّروا [١] من المقالات الرائقة فاشتهروا بالكتابة والانشاء وإن كان لأكثرهم شعرٌ حسن. وسنذكر ههنا أبعدهم صيتاً وأوسعهم شهرةً في عالم الأدب.

رفاعة بك الطهطاويّ (١٨٧١ م ١٢٨٨ هـ)

هو الشيخ رفاعة بن بدوي الطهطاوي ويرتقي نسبهُ الى فاطمة الزهراء [٢]. وُلد بطهطا من صعيد مصر وكان قد أخنى الدهر على عشيرتهِ [٣] فذاق في صغرهِ مرارة العيش ولم يتمكن من تلقي مبادئ العلم الاّ بالجهد والعناء الشديد ومات والدهُ وهو حديث السن فقدم القاهرة وجاور بالجامع الأزهر ثماني سنوات تضلّع في أثنائها من العلوم الدينية واللسانية وأظهر من النشاط والبراعة ما حبّبهُ الى أولياء أمرهِ وجعل لهُ في الناس ذكراً حسناً.

وأحبَّ محمد علي باشا في تلك الأثناء أن يرسل الى أوربّا عصابة [٤] من الشبان المصريين يتلقون في مدارسها العلوم الحديثة [٥] ويعودون الى بلادهم

---

١ زينوا ٢ بنت محمد نبي المسلمين وزوجة علي بن ابي طالب ٣ اتى عليها ونكبها
٤ جماعة ٥ الجديدة

فيبثونها[١] في أبناء جنسهم فاوعز الى الشيخ رفاعة أن يسافر بصحبتهم وعينهُ إماماً لهم في الوعظ والصلاة .

وناهز الفرص[٢] وهو في باريس من تعلم اللغة الفرنسية فأكبّ على درسها بما عهد فيه من الجدّ والذكاء فبلغ منها مبلغاً حسناً سهّل عليه مطالعة مؤلفاتها وتحصيل العلوم فيها ونقل المفيد منها الى اللغة العربية وقد عرّب وهو في باريس كتاباً سماهُ « قلائد المفاخر في غرائب عوائد الأوائل والأواخر » وهو فاتحة معرّباته النفيسة التي قربت مأخذ العلوم العصرية لأبناء الوطن وأحلّت صاحبها محلاً رفيعاً بين أركان النهضة العلمية الحديثة وهو أول من نهج[٣] لكتاب العصر طريق التعريب وسبق الى نقل العلوم الغربية لبني الشرق وان فاقهُ من جاء بعده بضبط الترجمة وبراعة التحبير فان الفضل للمتقدم .

ولمّا عاد من فرنسا ولاهُ محمد علي منصب الترجمة في المدرسة الطبية ثم في مدرسة الطوبجية[٤] وعهد اليه سنة ١٨٣٥ برئاسة مدرسة الألسن فقام بجميع هذه المهامّ أحسن قيام ونال حظوة في عيني مولاهُ فرقاهُ وانعم عليه ومنحه الرتب الفخرية الى رتبة أمير ألاي ومن ثم دُعي الشيخ رفاعة رفاعة بك وكان يلبس سابقاً اللباس العربي فاستبدلهُ باللباس الافرنجي .

وأُرسل رفاعة بك الى السودان ناظراً لمدرسة الخرطوم ثم عاد الى مصر وتقلّد عدة مناصب حسنت فيها آثاره وخدم وطنه خير خدمة الى وفاته . ولهُ مؤلفات ومعرّبات عديدة في عدة فنون كالتاريخ والجغرافيا والطب والهندسة والفنون العسكرية وغيرها ولهُ مقالات ومنظومات لم يطبع منها الا القليل ومن تآليفه خلاما ذكرنا « خلاصة الابريز والديوان

---

١ ينشرونها ٢ اغتنمها ٣ اوضح وابان ٤ نسبة الى طوب وهو المدفع بالتركية

النفيس» وصف فيه رحلته الى فرنسا وما عاين فيها من آثار التمدن الحديث و «التعريبات الشافية لمريد الجغرافية» و «مواقع الأفلاك في أخبار تليماك» و «مباهج الألباب المصرية في مناهج الألباب العصرية» في آداب العصر وعلومه وفنونه وسياسته وصنائعه وكتاب هندسة ساسير وجغرافية ملطبرون وغير ذلك. ومن آثاره سعيه ومساعدته في إنشاء «الوقائع المصرية» جريدة مصر الرسمية وهي أول جريدة عربية في الشرق كما قلنا سابقاً وتولى في آخر حياته إدارة جريدة «روضة المدارس».

بطرس البستاني (١٨٨٣م ١٣٠١هـ)

هو بطرس بن بولس البستاني الماروني من أسرة عريقة [١] في الفضل والأدب والوجاهة [٢] وُلد بالدِّبيَّة وهي قرية على مقربة من دير القمر بجبل لبنان وتلقى العلوم الدينية واللغوية بمدرسة عين ورقة الشهيرة فتعلّم اللغات العربية والسريانية واللاتينية والايطالية وتفقّه في الفلسفة واللاهوت والحقّ القانوني وتضلّع من التاريخ والجغرافيا والحساب وقد عقد النية على الانتظام في سلك خدام الكنيسة ثم عدل عن مقصده مدّة يتعاطى التدريس في المدرسة التي تخرّج فيها.

ثم سكن بيروت ودرس اللغة الانكليزية وتقرّب الى دعاة المذهب الانجيلي من مرسلي الأميركان فقرأ على بعض أساتذتهم العبرانية واليونانية وأخذ عنهم المعارف المستحدثة وعلّمهم العربيّة وما زالوا به حتى استمالوه

---

١ من عشيرة أصيلة ٢ الرفعة

فاستدرجوه الى [1] مذهبهم فانتحل [2] البروتستانية وصار ينشئ الرسائل الدينية وترأس مدرسة الأحد عندهم ببيروت خمس عشرة سنة وكان قد تولى التعليم في مدرسة عبيه الأميركانية سنتين ألّف في اثنائها كتابه المشهور «كشف الحجاب في علم الحساب» واستعان بهِ مرسلو الأميركان في اعمال مطبعتهم ولاسيما في تعريب التوراة وقلدته قنصلية أميركا ببيروت منصب ترجمتها .

وأنشأ المعلم بطرس في بيروت سنة ١٨٦٣ مدرسة عالية سمّاها «المدرسة الوطنية» نالت بحسن عنايتهِ ولطف تدبيرهِ شهرة عظيمة في البلاد العربية وتقاطر [3] اليها الطلاب أفواجاً ثم تخلّى عن رئاستها لابنهِ سليم وكان أديباً متفنناً يتقصى [4] آثار والدهِ في الفضل والعلم فتولى إدارة شؤون المدرسة الى ان قضت الظروف بإقفالها . وقد تقدم لنا كلام في صدر هذا الباب عمّا بذل المعلم بطرس البستاني وابنه في ترقية الصحافة العربية في القطر السوريّ وما لكليهما من المآثر الحميدة في هذا المشروع الجليل الجزيل الفائدة .

وتفرّغ بطرس البستاني في المدة الأخيرة من حياته للمطالعة والكتابة والتأليف ومن آثاره الأدبية كتابهُ الشهير في اللغة «محيط المحيط» ضمّنه ما حوى القاموس المحيط للفروزابادي وزاد عليهِ شيئاً كثيراً من المصطلحات العلمية والألفاظ المتفرقة في المؤلفات العديدة التي وصلت اليها يدهُ فجاء مصنفاً جليلاً نفيساً غزير المادّة قريب المأخد سهل المتناول حسن الترتيب وهو خير معجم وضع في اللغة مذ انتعاشها من عثرتها الى

---

١ استدرجهُ الى كذا ادناهُ منهُ على التدريج ٢ انتحل المذهب اتخذهُ ٣ اتوا من الاقطار المختلفة ٤ تقصى الامر بلغ اقصاهُ

يومنا وله مختصر لهذا الكتاب سماه « القطر المحيط » .

وشرع بعد ذلك في وضع مصنف خطير في كل علم وفن لم يسبق اليه في العربية سماه « دائرة المعارف » فأصدر منه ستة مجلّدات وتوفي وهو آخذ في إعداد السابع فأتمه من بعده ابنه سليم وألحقه بالثامن وحالت منيته دون متابعة العمل فأصدر المجلدات التاسع والعاشر والحادي عشر ورثة الفقيد من آل البستاني الكرام ووقف هذا المشروع الجليل عند هذا الحدّ .

وكان المعلم بطرس البستاني عالماً بعيد الغور [١] كثير الاطلاع مشاركاً في علوم عديدة شديد الغيرة على وطنه متفانياً [٢] في نشر المعارف في أبناء جلدته وترقية شؤونهم كبير النفس عالي الهمة عظم القدر والخطر [٣] في عيون الناس على اختلاف مذاهبهم ومنازعهم [٤] .

اديب بك اسحاق (١٨٨٥ م ١٣٠٣ ﻫ)

هو من طائفة الأرمن الكاثوليك وُلد بدمشق وتلقى مبادئ العلوم وأصول اللغتين العربية والفرنسية في مدرسة الآباء العازاريين وكان نبيهاً ذكيًا متوقد الفؤاد ونظم الشعر في صباه عفوًا [٥] ولا علم له بالعروض وغادر [٦] المدرسة صغيراً واستخدم في الجمرك بصفة كاتب ودرس أثناء ذلك اللغة التركية ولم يزل يتحين [٧] الفرص للمطالعة والاشتغال بالآداب والانشاء والنظم والتبحر في العربية والازدياد من الفرنسية والتركية .

---

١ العمق كناية عن سعة معرفته ٢ متهاكا ٣ رفعة القدر ٤ جمع منزعة وهي ما يرجع اليه الرجل من رأيه وامره وتدبيره ٥ بسهولة دون استكراه قريحته ٦ ترك ٧ يترصدها



اديب اسحاق

ثم قدم بيروت وخالط جماعة من الأدباء والشعراء وأهل العلم فأعجبوا بأدبه وطلاقة لسانه وبراعته في النظم والنثر وانقطع من ذلك الحين الى الكتابة واحترف[1] الصحافة فعرّب بعض المؤلفات والروايات الفرنسية وألّف البعض الآخر فضلاً عما كان يظهر في الجرائد من نفثات[2] أقلامه التي فتن بها القرّاء لرشاقتها[3] وانسجام عبارتها وقرب مأخذها مع فصاحة عبارتها وبلاغة تركيبها لولا ما دسّ فيها من المبادئ الثورية فكدّر موردها على القرّاء.

وبارح[4] بيروت الى القطر المصري وأنشأ جريدة «مصر» ثم «التجارة» أطلق فيها العنان لقلمه السيّال وحبّر الفصول الرائقة والمقالات الطنانة فتهافت[5] الناس على مطالعتها وتداولتها أيدي الأدباء وهم يكبرون شأن منشئها ويهشون لهذه اللغة الصحافية الجديدة الخالية من التعقيد والاغراب المنزهة عن الركاكة والابتذال[6] فراجت كتاباته هنالك أيما

١ اتخذ حرفة ٢ كتابات ٣ سلاستها ٤ ترك ٥ تسارع ٦ الكلام المبتذل هو الذي كثر استعماله ولاكته الاقلام والافواه

زواج الاّ انهُ لم يعدل عن خطتهِ[١] المتطرفة وبث روح الثورة في الشعب فصدر أمر الحكومة المصرية بإلغاء[٢] صحيفتيهِ .

فرحل الى فرنسا ونزل باريس وداخل جماعة من كتبة الفرنسيس والترك واختلف الى مجلس الأمة الفرنسية فزاد إعجابه ببلغاء خطبائها وما زال هنالك مهتماً بالسياسة والكتابة إلى أن أُصيب بصدرهِ فعاد الى موطنهِ واستأنف[٣] الانشاء بالجرائد تارة في سوريا وطوراً في مصر إلى ان غلبهُ الداء فمات في الحدث من قرى جبل لبنان في التاسعة والعشرين من عمرهِ .

وكان أديب اسحاق كاتباً نحريراً[٤] وخطيباً مصقعاً ذلق اللسان فصيح اللهجة سريع البديهة يرتجل[٥] المقالة والخطبة ارتجالاً فتجيء على أحسن ما يكون مبنًى ومعنى وقد جمعت منتخبات من إنشائهِ في كتابٍ سُمّيَ « الدُّرَر » تمثلت فيها أخلاق الرجل ومواهبه ومناقبه وهي جديرة بهذا اللقب لولا ما ضمنها صاحبها من مزاعم أهل الثورة والالحاد[٦] وآراؤهم المتطرفة ومذاهبهم الزائغة ودعاويهم الفارغة .

ولأديب اسحاق شعر رقيق حسن ومن أمثلتهِ قوله المشهور في المرأة :

حسب المرأةَ قومٌ آفــةً ... من يدانيها من النـاس هلك[٧]
ورآهـا غــيرهم أمنيّةً ... ملك النعمةَ فيها من ملك
فتمنى معشرٌ لو نُبــذت ... وظلام الليـل مشتدّ الحلك[٨]
وتمنى غيرُهم لو جُعلــت ... في جبين الليث أو قلب الفلك[٩]

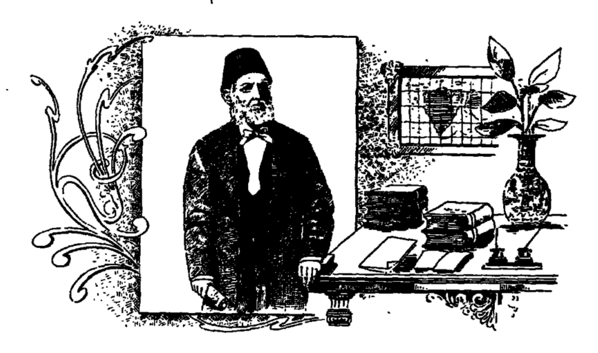
---

١ طريقة ٢ إبطال ٣ جدد ٤ ماهراً نحر الأمور علماً ٥ ارتجل الكلام قاله دون سابق استعداد ٦ الكفر ٧ الآفة العاهة والبلية ٨ نبذ طرح والحلك شدة السواد ٩ اشارة الى المثل « اعزّ من جبهة الاسد

وصواب القــول لا يجهله حاكمٌ في مسلك الحق سلك
إنما المرأةُ مرآةٌ بهـــا كل ما تنظره منك ولك
فهي شيطانٌ إذا أفسدتها وإذا أصلحتها فهي ملك

ومن آثار أديب اسحاق ما عدا ما ذكر تعريب رواية «اندروماك» و «شرلمان» وتأليف «رواية الباريسية الحسناء» وغيرها .

أحمد فارس الشدياق (١٨٨٧ م ١٣٠٥ هـ)



فارس الشدياق

هو فارس بن يوسف الشدياق الماروني. وُلد بعشقوت من قرى جبل لبنان وتلقّن مبادئ العلم في مدرسة عين ورقة وكان على جانب عظيم من النباهة والذكاء مولعاً منذ الصغر بمطالعة تآليف البلغاء ورواية الشعر والوقوف على أسرار اللغة واستظهار الالفاظ الغريبة ولم يزل هذا دأبه[1] الى ان بلغ من الشعر واللغة والكتابة ما بلغ .

---

١ شأنهُ وعادتهُ

ورحل الى القطر المصري فأتمّ دروسهُ وكتب في «الوقائع المصرية» ونظم الشعر فبرّز وأجاد واشتهر اسمهُ بين علماء مصر وأدبائها ثم دعاهُ المرسَلون الأميركان الى مالطة فتولى إدارة أعمال مطبعتهم وتصحيح ما يطبع فيها وسافر الى أوربا فتجوّل في مدائنها وقصد لندن تلبية لمقترح جمعية ترجمة التوراة فاشتغل بضبط عبارة الترجمة العربية وتنقيحها وعاد الى باريس وأقام فيها زمناً .

وقدم عاصمة الفرنسيس في تلك الغضون[١] أحمد باشا باي تونس فأحسن القوم وفادته[٢] ونظم فارس الشدياق قصيدة طنانة في مدحهِ جارى فيها لامية كعب بن زهير وبعث بها إلى الباي بعد عودته الى ولايته فأعجب بها وأحب مشاهدة ناظمها فاستقدمهُ اليهِ وأمر بإعداد سفينة حربية تقلّه[٣] الى تونس فدهش الشاعر من هذه الدعوة واستغرب جدًّا هذا الاكرام وقال « ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها » فاحتفى[٤] الباشا بقدومهِ وأنزلهُ على الرحب والسعة وقلدهُ المناصب الرفيعة وكان يكتب المقالات الشائقة في الرائد التونسي جريدة الولاية الرسمية .

وطلبتهُ الصدارة العظمى من باي تونس فقدم الاستانة وأنشأ جريدة « الجوائب » وأبدى فيها من البراعة في ضروب الانشاء والمهارة في أساليب الكتابة ما بهر العقول وملأ الأسماع ودلّ على بعد غوره في فنون الأدب ورسوخ قدمهِ في علوم اللغة فضلاً عن حنكتهِ في المباحث السياسية وطول باعهِ في تحبير المقالات العمرانية[٥] ودقة نظرهِ في المسائل الاجتماعية

---

١ الأثناء ٢ قدومهُ ٣ تحملهُ ٤ بالغ في اكرامهِ ٥ اسم لما تعمر بهِ البلاد

ووقوفه على أسرار الصحافة واستبطان دخائلها واستجلاء[1] غوامضها بحيث كان لكلامه في أمور الشرق شأن عظيم عند زعماء السياسة في الأقطار الاوروبية فضلاً عن ترامي شهرته في البلاد العربية وسائر الآفاق الشرقية .

وكان مع اهتمامه بإنشاء الجوائب لا ينقطع عن مراسلة الأدباء ومساجلة[2] الشعراء ووضع المصنّفات الجليلة ونشر الآثار الأدبية القديمة التي تصل اليها يده فأحيا عدداً وافراً من نفائس مؤلفات السلف وهي خدمة للآداب العربية جزيلة الفائدة عظيمة القدر .

وكان فارس الشدياق وحيد زمانه ونابغة عصره في علوم اللغة والأدب والكتابة والشعر وله آثار حميدة تشهد بسعة اطلاعه وعلو كعبه في كل فنّ تعاطاه وألّف فيه . فمن مؤلفاته « الواسطة في أحوال مالطة » ذكر فيه تاريخ تلك الجزيرة وجغرافيتها وأخلاق أهلها وعوائدهم وسائر شؤونهم . ومنها « كشف المخبّا عن أحوال أوربّا » وصف فيه ما شاهد في بلاد الأوربية من آثار التمدن الحديث بعبارة جليّة[3] وأسلوب رشيق ودقة نظر تحبب الى المطالع قراءته ومنها « الجاسوس على القاموس » وهو انتقاد مطول تتبّع فيه هفوات[4] الفيروزابادي في قاموسه وأودعه من الفوائد اللغوية ما شاء ذوقه اللطيف وعلمه الواسع ومعرفته النادرة للغة العرب وهو يشتمل على مقدمة وأربعة وعشرين نقداً تبلغ نحو سبع مئة صفحة كبيرة وله في المعنى نفسه أو ما يقرب منه « سرّ الليال في القلب والابدال » و « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » و « اللفيف في كل معنى ظريف » ومن مؤلّفاته كتاب ودّ كل أديب لو ربأ بنفسه

---

١ استكشاف ٢ مناشدة ٣ واضحة ٤ زلاّت

ونزّه قلمهُ عن تسطيرهِ يعرف « بالساق على الساق في ما هو الفارياق » والفارياق لفظ مقتطع من اسمهِ (فارس الشدياق) وقد أطلق فيهِ العنان لقلمهِ الذرب[1] وشحنهُ بالقصص المجونية التي تتفادى[2] من سماعها الآذان ويندى لمطالعتها جبين الأدب ولا مزية لهذا التاليف سوى أنه جمع فيه شيئاً كثيراً من المترادفات لموضوعات شتى كأصناف المأكول والمشروب والمشموم والمفروش والمركوب والحلى والجواهر وغير ذلك ولكن أين هذه الفائدة من التهافت على سحت[3] الكلام وانتهاك حرمة الأدب؟ ولهُ غير ذلك من المؤلفات فضلاً عن جريدة الجوائب التي أصدرها ٢٣ سنة ووكل إدارتها في آخر مدتها الى ابنه سليم .

ولفارس الشدياق شعرٌ رائق حسن الديباجة[4] رقيق الحاشية متين العبارة يأخذ بمجامع الفؤاد . ومن أمثلة نظمهِ قولهُ يمدح باي تونس .

زارت سعادُ وثوب الليل مسدولُ	فما الرقيب بغير النشر مدلولُ[5]
وشاحها مثلُ قلبي لم يزل قلِقاً	وزندها أخرس الدملوج مجدولُ[6]
ما عاذلي في هواها غير ذي سفهٍ	لم يدرِ أن الهوى للمرءِ تجميلُ[7]
امَّا المديح فإني قد خصصتُ بهِ	في وصف أحمدَ ما تُتلى أقاويلُ
ملكٌ يُجير اذا دهرٌ يجور فمن	ناداه كان له كالجار تنفيلُ[8]
يعطي الجزيلَ ابتداءً وهو معتذرٌ	حتى الكثيرُ من الاطراءِ تقليلُ[9]

١ الحادّ ٢ المجون تجاوز حدود الادب في المزاح وتفادى تحامى ٣ ما يجلب العار ٤ الديباجة من الوجه حسن بشرتهِ استعيرت للكلام ٥ سدل الثوب أرخاهُ والنشر الرائحة الطيبة ٦ شبه قلادة من أديم عريض يرصع بالجواهر تشدهُ المرأة بين عاتقيها وكشحيها واخرس الدملوج كناية عن امتلاء زندها وزند مجدول محكم الفتل ٧ عذلهُ لامهُ وجمّلهُ زيّنهُ ٨ أجارهُ أغاثهُ وجار يجور ظلم ونفّل عنهُ دفع عنهُ وحماهُ ٩ يعطي ابتداء اي دون ان يسأل والاطراء المدح

لما بدا بفرنسا نورُ طلعته ... ومن يديه لهم سحّت أهاليل ١
غار الحيا منه حتى قال قائلهم ... لنا سحابان مسؤول ومملول ٢
لم يبقَ في الشرق أو في الغرب من أحدٍ ... إلاّ وعنه مديحٌ فيه منقولُ
ان يُشركِ الناسَ في الأسماء فهو بما ... لهُ من الفضل لم يشركهُ تفضيل ٣
ساسَ البلادَ بعدلٍ ليس يصرفهُ ... لهوُ المعيشة عنه والأباطيلُ
مُلّيتِ يا تونسُ الخضراء حضرتهُ ... ما دام في الأرض قطرٌ وهو مأهول ٤
ان كان في مصرَ يرجى النيل آونةً ... ففيكِ في كل آنٍ جودهُ نيلُ
أو إن تكن عجمٌ تزهى بأرضهم ... ففي سمائكِ كلُّ الفجر مشمول ٥
حمدًا على عودهِ الميمون يقدمهُ ... عزٌّ ونصرٌ وتعظيمٌ وتبجيل ٦
ما غاب عن بلدٍ الاّ ونائلهُ ... فيه مقيمٌ بهِ الايسارُ مكفول ٧
في الغرب حضرتهُ والارض قاطبةً ... ثناؤهُ بالدعاء الدهرَ موصول ٨
ظلٌّ الالهِ وداعيهِ ونائبهُ ... وسيفهُ لاجتياح الضدّ مسلول ٩
وهل يناويهِ الا الأخسرون ومن ... إليهم الحتف قبل الفتح تعجيل ١٠
مؤيَّد العزم والرحمانُ ناصرهُ ... مسدّدُ الرأي والمقدور مجهول ١١

---

١ سحّ المطر اشتد انصبابهُ والأهاليل جمع اهلة جمع هلال وهو الدفعة من المطر ٢ الحيا المطر والسحاب المسؤول هو الامير والسحاب المملول هو الماطر وملّ الشيء ضجر منهُ ٣ اي اذا شاركهُ بعض الناس في الاسم فليس لهُ شريك في الفضل ٤ ملّى الله عمر فلان أطالهُ وقطر مأهول عامر بأهلهِ ٥ زُهي الرجل تاه وشمل الامر القوم عمّهم ٦ الميمون المبارك يقدمهُ يسبقهُ ٧ النائل العطاء والايسار الغنى ٨ قاطبة جميعاً والثناء المدح يقول ان حسن ذكرهِ جعل الدنيا قاطبة حضرة لهُ ولا يُثني عليهِ احدٌ الاّ قرنَ ثناءه بالدعاء له ٩ ظلّ خبر لمبتدا محذوف تقديرهُ هو (اي الامير) ظلّ الاله واجتاح اهلك والضدّ العدوّ ١٠ ناوأهُ قاومهُ والحتف الموت وبين الحتف والفتح جناس مقلوب ١١ مؤيد مقوّى ومسدّد الرأي مستقيمهُ والمقدور بمعنى القدر والواو في قولهِ والمقدور حالية

ان ينو أمراً فإن الحقّ مقصدهُ أو يقضِ أمراً فبالتوفيق مفعولُ
أدامــهُ اللهُ فخراً للورى وعلى هاماتهم من أياديهِ أكاليلُ[١]
ودام مبتهجاً هذا الزمانُ به ما ان تلا قارئٌ حم تنزيلُ[٢]

وكان فارس الشدياق مع رجاحة عقله وحصافة رأيه[٣] واهي العقيدة مذبذباً[٤] في الدين فلما عاشر الأميركان جنح[٥] الى البروتستانية ثم نزل تونس فأسلم وتسمى أحمد. وهذه خلة ذميمة في كل إنسان فكيف بمن منّ عليه الخالق سبحانهُ وتعالى بالمواهب الغزيرة والمدارك السامية. وقد أخبرنا ثقةٌ من أنسبائهِ كثير الاطلاع على أحوالهِ ان الرجل لما أحسّ بدنوّ أجلهِ عاد الى نفسهِ وأقرّ بخطاياهُ بين يدي كاهن كاثوليكي ومات على دين أجدادهِ نادماً تائباً.

يُوسُفُ ٱلأَسِير (١٨٩٠ م ١٣٠٨ هـ)

هو الشيخ يوسف ابن السيد عبد القادر الحسيني الأسير. وُلد بصيداء ومال من صغره الى الأدب فأخذ مبادئ العلم وحفظ القرآن في بلدهِ ثم قصد دمشق ودرس مدة في المدرسة المراديّة وهاجر الى مصر وتفقّه في الجامع الازهر على جماعة من شيوخ العلم المشهورين وكان على جانب من الذكاء والفطنة والرغبة في اقتباس المعارف فأعجب بهِ أساتذته وأثنوا على

١ الورى الخلق والهامات الرؤوس والايادي النعم ٢ وحم (حاميم) لفظ تفتتح به بعض سور القرآن وقولهُ تنزيل اشارة الى ما جاء في القرآن بعد حم: تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ٣ جودتهِ واحكامهِ ٤ متردداً ٥ مال

فضلهِ وأدبهِ ولم يزل يكد في التحصيل حتى نبغ في كافة العلوم العقلية والنقلية التي تقرأ في الازهر .

ثم عاد الى سوريا وتنقل في مدنها وتقلّد عدة مناصب حمدت فيها آثاره فسكن صيداء وطرابلس وبيروت ولبنان وانتقل الى الاستانة فتولّى رئاسة التصحيح في نظارة المعارف وتدريس العربية في دار المعلمين الكبرى وكان لهُ عند علماء الاستانة ومشايخها مكانةٌ عاليةٌ وحرمةٌ وافرةٌ لما آنسوا من نُبْله [1] وفضلهِ وسعة علمهِ . ولم تطب لهُ الاقامة طويلاً في عاصمة السلطنة فرجع الى وطنه وأقام في بيروت منقطعاً الى المطالعة والتأليف وافادة الطالبين الذين يقصدونه وكان شديد الرغبة في بث العلم ونشرهِ بين طبقات الشعب وتقريب منالهِ لكل مريد .

وكان الشيخ يوسف الأسير عالماً فاضلاً وكاتباً بليغاً وشاعراً فصيحاً وأديباً متفنّناً لطيف المحاضرة لـيّن العريكة [2] زاهداً في حطام الدنيا وأباطيلها .

ومن تآليفهِ « رائض الفرائض » في الفقه وشرح « أطواق الذهب » للزمخشري ولهُ ديوان شعر حسن يُعرف « بالروض الأريض » .

إبراهيمُ الأحْدَب (١٨٩١ م ١٣٠٩ هـ)

وُلد الشيخ إبراهيم الأحدب بطرابلس الشام وكلف [3] منذ الصبا في اقتباس العلوم فأقبل على الدرس وتخرج على شيوخ بلدهِ ثم انقطع الى التبحّر [4] في العلوم الدينية واللسانية فأتقنها جميعاً وأصبح نابغة عصرهِ

---

١ آنس ابصر وعلم والنبل الفضل ٢ سلس الخلق ٣ أولع ٤. التوسّع والتعمّق

في الفقه والكلام والحديث والتفسير والفرائض [١] والنحو واللغة وفنون الأدب وأمّا الشعر فكانت لهُ فيهِ قريحة عجيبة وقوة عارضة [٢] نادرة المثال حتى بلغ مجموع ما نظم نحو ثمانين ألف بيت وقلما اتفق ذلك لغيره من الشعراء.

ورحل الى الاستانة فلقي من عُلَمَائها التجلّة والاعزاز وعرّج [٣] على القطر المصري فبالغ فضلاؤه في الاحتفاء به وسكن بيروت مدة طويلة خدم فيها الآداب والوطن بمن اشتغل عليه من طلّاب العلم وما وضع من التصانيف الجليلة. وتقلّد الخطط العالية والمناصب الخطيرة فاشتهر بعلوّ الهمة ونزاهة النفس وتحدّث الناس بكرم أخلاقهِ وأريحيتهِ [٤] وكان في أثناء ذلك لا يمل التأليف ويراسل الأدباء والشعراء في أنحاء العالم العربي ويمدح بقصائدهِ الطنّانة الأمراء والوزراء وأكابر الفضلاء.

ولهُ تصانيف عديدة منها ثلاثة دواوين شعرية وثمانون مقامة جارى فيها الحريريّ زعيم هذا الفن و« فرائد الأطواق في أجياد محاسن الأخلاق » نسجها على منوال مقالات الزمخشري و « فرائد اللآل في مجمع الامثال » نظم فيهِ أمثال الميداني وشرحها شرحاً مُطوّلاً وقد طبع هذا الكتاب طبعاً متقناً بحرف أنيق مشرق وميزت الأمثال عما سواها باللون الأحمر الزاهي فجاء تحفة نفيسة من تحف الطباعة العصرية التي أبرزتها مطبعة الآباء اليسوعيين الأفاضل. ولهُ « كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان » وغير ذلك مما يطول تعداده.

ومن أمثلة نظمه قولهُ في قصيدة أرسلها الى الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني الشهير:

---

١ علم الفرائض ما يعرف بهِ كيفية تقسيم الميراث على مستحقيهِ ٢ القدرة على الكلام ٣ مال اليهِ وقصدهُ ٤ خصلة يرتاح بها المرء الى المحامد

خذوا بثاري من قدود الحسان　فهنَّ أثخنَّ جراح الجنان[١]
تلومني ان همت في شادنٍ　في حبّهِ دمعي له أيُّ شانٍ[٢]
أبدى الحريريُّ على خدّهِ　مقامةً تنسي بديع الزمان[٣]
شاعرُ قطر الشام من أصبحت　له أيادٍ ببيان المعان
صرفيٌّ فضلٍ ما نحيي نحوُهُ　لهُ بنقد الشعر أمسى يدان[٤]
أقلامُهُ في الطرس تُبدِي لنا　أغصانَ روضٍ أو فروعَ القيان[٥]
كم أَلِفٍ خُطَّت لنا همزُها　ورقاءُ قد قامت على غصن بان[٦]
أين عيون البيض من سودها　اذا جرت في كفهِ والبنان[٧]
أخرجَ من كنز المعاني لنا　جواهراً أزرت عقودَ الجمان[٨]
صرِّحْ بأنَّ الفضلِ أمسى لهُ　ودع أحاديث فُلٍ أو فلان[٩]
فقل علاهُ مُبتَدًا في الورى　من غير إخبارٍ ودع ذكر كان[١٠]
والفرقُ دانٍ انه في العلى　يقصرُ عن إدراكهِ الفرقدان[١١]

---

١ اثخن الجراح بالغ فيها والجنان القلب ٢ الشادن ولد الظبية والشان مجرى الدمع ٣ الخدّ الطريقة والأسلوب وأبدى اظهر ٤ نحا نحوهُ قصدهُ ونقد الشعر اظهر مواضع الخطا فيهِ ومواضع الصواب ولهُ في الامر يد اي قوة وفي هذه الابيات تلميح الى الفنون التي اشتهر بها الشيخ ناصيف اليازجي ٥ الطرس الصحيفة وابدى يبدي اظهر وفروع جمع فرع وهو من المراة شعرها والقيان جمع قينة وهي الجارية المغنية ٦ الورقاء الحمامة الرمادية اللون. شبه الهمزة فوق الالف بورقاء قامت على غصن بان وفي ذلك اشارة الى حسن خط الشيخ ناصيف ٧ البنان الاضابع واحدها بنانة ٨ ازرى به وضع من شانهِ وحقرهُ وعقود منصوب على نزع الخافض والجمان اللؤلؤ والواحدة جمانة ٩ فل مقتطتم من فلان وهو خاصٌ بالنداء فيقال يافلُ ولا يجيءُ لغير النداء الا ضرورة كما ترى في البيت ١٠ يقول ان رفعتهُ في الخلق ابتداء لم يكن لها نظير في اخبار الاقدمين ولا يخفى ما في البيت من التوجيه ١١ دانٍ قريب والفرقدان نجمان قريبان من القطب الشمالي

سليم بك وبشارة باشا تقلا

(١٨٩٢م ١٣١٠هـ — ١٩٠١م ١٣١٩هـ)

هما مؤسّسا جريدة الاهرام الشهيرة وشيخا الصحافة في البلاد المصريّة ولد سليم بن خليل تقلا بكفر شيما وقرأ مبادئ العلوم بقريته ثم دخل مدرسة عبيه الأميركانية وامتاز بدماثة [١] أخلاقهِ وحدة ذكائهِ واجتهادهِ في تحصيل المعارف. وشبت [٢] في تلك الاثناء نيران الفتنة المشهورة (سنة ١٨٦٠) واتصلت بعبيه وما جاورها من القرى فنزل سليم تقلا الى بيروت ودخل المدرسة الوطنية التي أنشأها المعلم بطرس البستاني واستأنف [٣] الدرس وما زال يكدّ ويجدّ حتى تفوّق على أقرانهِ وأعجب أساتذتهُ بقوة عزيمتهِ ونادر ثباته ولمّا أتم دروسهُ انتدبته [٤] المدرسة البطريركية لتعليم العربية فأبدى من النشاط والبراعة ما حببهُ الى أولي الأمر فولّوهُ رئاسة الأساتذة وتدبير شؤون المدرسة. وأسعدتهُ وظيفتهُ بالتقرّب من الشيخ ناصيف اليازجي فكان يلقي عليهِ مشاكله [٥] اللغوية ويستفيد من واسع علمهِ حتى رسخت قدمهُ في فنون اللغة وألّف كتاباً في النحو سمّاهُ «مدخل الطلاب» اعتمدتهُ المدرسة في تدريس العربية لسهولتهِ وحسن تبويبهِ.

ثم حدّثتهُ نفسهُ في الرحيل الى مصر لما بلغه من أريحية أميرها وتقديرهِ أرباب العلم والأدب حق قدرهم وإطلاقهِ لهم حرية القول والكتابة فقصد وادي النيل وتقرب الى الخديوي اسماعيل بقصيدة رنّانةٍ وقعت عنده موقع القبول ومهّدت [٦] لهُ سبل النجاح في الحصول على امتياز [٧] بإصدار

١ لين ٢ اتقدت ٣ جدد ٤ دعتهُ ٥ المشكل الامر الملتبس ٦ سهلت ٧ رخصة تمنحها الحكومة بتعاطي عمل من الاعمال

جريدة الأهرام وقد لقي في سبيل نشرها من العقبات وعانى من المشقّات ما تني له عزائم الرجال وتخبط[١] فيه مساعي من كان دونه حزماً[٢] وعلماً واختباراً واقتداراً .

ولمّا كانت الثورة العرابية اضطرّ الى المهاجرة وأحرقت مطبعة الأهرام وذهب قسم كبير من كتاباته ومؤلفاته طعمة النيران غير أن ذلك لم يكن ليكفه عن استئناف العمل فما كادت تنقشع غياهب الثورة[٣] حتى عاد الى مصر وأصدر الأهرام ثانية وبذل في تحريرها وتحبيرها وترقيتها من الهمة والعناية ما فوق الطاقة فذلّت له الصعاب وخدمه النجاح وذاعت صحيفته في الآفاق واصبحت في مقدّمة الجرائد العربيّة شهرة وانتشاراً .

وكان سليم تقلا كاتباً بليغاً وصحافيّا ماهراً وشاعراً فصيحاً ووطنيّا صادقاً لـيّن الجانب رقيق الخلق معروفاً بسهولة المعاملة وحبّه للمسالمة عند الناس جميعاً وهي مناقب حميدة ومزايا سامية لا بدّ منها لكل من تحرّى[٤] إرضاء الخاصة وخدمة العامة .

وأصيب في آخر حياته بألم في القلب فقصد لبنان لتغيير الهواء فلم يجده[٥] التبديل نفعاً وما عتّم أن قضى نحبه وكان ذلك سنة ١٨٩٢ .

وأمّا اخوه بشارة فولد أيضاً بكفر شيما وتلقى العلوم في المدرسة الوطنية وأتمّها في المدرسة البطريركية ثم قضى سنتين في مدرسة عين طوره يعلّم ويتعلّم الى أن استقدمه أخوه سليم الى الديار المصرية فجاءها وشرع يعاونه ويشدّ أزره[٦] في تذليل الصعاب وتمهيد العقبات الشاقة التي اعترضتهما في إنشاء جريدتهما . ولم يكن بشارة دون أخيه ذكاءً وحزماً وهمةً وإقداماً

---

١ تذهب باطلاً ٢ اخذ الامور بالضبط والتدبر ٣ انكشفت ظلماتها ٤ تعمّد وقصد ٥ أجدى عليه انفع ٦ ظهره

وجرأةً على اقتحام[1] الاخطار وركوب كل مركب خشن في سبيل النجاح وترقية الصناعة التي احترفها .

وما زال مشاركاً لشقيقهِ في السرّاء والضرّاء الى ان مُني بوفاتهِ فآلت إدارة الأهرام اليهِ وحدهُ فقام بأعباء[2] هذا المشروع خير قيام وسلك بجريدته مسلك الدراية والجدّ والثبات حتى نالت باجتهادهِ وحسن سعيه أعلى مقام بين الجرائد العربية فنهج[3] لمن تبعهُ من الكتّاب سبل الصحافة وكان لهم بمنزلة الأستاذ الخبير والمرشد البصير وقد خدم العلم والآداب بما بذل من السعي الدائم في نشر المعارف بين الناس وترغيبهم في المطالعة حتى كثر إقبال الناس على قراءة الصحف واهتمامهم لأمور السياسة واستطلع طلع[4] الحوادث مما حدا عدداً وافراً من الكتاب الى إنشاء الجرائد وكانت الصحافة العربية قبل الأهرام أكسد الحِرَف بضاعة وأكثرها استهجاناً[5] في عيون القوم .

ونال بشارة تقلا من الجاه والرفعة ما لم ينله كاتب شرقيّ قبله وكثيراً ما تردّد الى الاستانة والعواصم الأوربية فقابل الملوك والأمراء والوزراء وزعماء السياسة ولقي منهم رعاية وحفاوة[6] وإعزازاً وإعجاباً بمناقبهِ ومعارفهِ السياسيه ونال المكافآت الكثيرة من لدن جلالة السلطان والدول الأجنبية.

ولم تكن المنزلة السامية التي رقي اليها ذلك الرجل العصاميّ لتستفزهُ[7] الى العجب والترفع فقد كان لين العريكة وديع الأخلاق كثير المجاملة والمسالمة مشهوراً برأفتهِ ورفقهِ بمستخدميه غيوراً على مصالح وطنهِ وخدمة مواطنيه ولا سيما الضعفاء منهم وهذا ما جرّهُ الى تسطير مقالة شهيرة بعنوان

---

١ اقتحم الخطر رمى بنفسهِ فيهِ ٢ احمال ٣ اوضح وابان ٤ استكشاف باطن الامر ٥ استقباحاً ٦ المبالغة في الاكرام ٧ تستخفهُ

« ظلم الفلاح » نشرها في الأهرام سنة ١٨٧٩ واستهدف[1] بها لصواعق اسماعيل باشا فعُطلّت جريدته وسجن واضطر أخوهُ سليم الاستتار. ومقالاته التي حلّى بها جيد[2] الأهرام وأبدى فيها من البراعة والحنكة والمقدرة السياسية أكثر من أن تحصى.

علي باشا مبارك (١٨٩٣م ١٣١١هـ)

ولد في قرية برنبال من مديرية الدقهلية بمصرٍ وشغف[3] بالعلم من صغرهِ وقاسى في تحصيلهِ غصص المحن ومضض[4] الاوجاع ولم يزل يسعى حتى دخل مدرسة القصر العيني ثم مدرسة الهندسة واقتبس من العلوم الرياضية ما تيسر له وأرسل الى باريس بأمر محمد علي باشا فدرس فنّ الحرب وأُلحق عند عودتهِ بالجيش المصريّ وعهد اليه عباس باشا الأول بوضع نظام للمدارس فشرع في العمل ورفع تقريراً أعجب الأمير فأنعم عليهِ وولاَّه نظارة المدارس وتنفيذ[5] القانون الذي سنّه فأحسن القيام بذلك جميعهِ.

وانتشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا فأُوعز اليه بالمسير مع الحملة المصرية لمساعدة تركيا فسافر وحضر حرب القريم وعاد سالماً الاّ أن الحسّاد حالوا بينه وبين الأمير فأُخلي سبيلهُ من العسكرية وظلّ مقصيّاً[6] منسيّاً مدة ولاية سعيد باشا فصبر صبر الكرام وتفرغ للآداب حتى ولي الأريكة الخديوية اسماعيل باشا فأخرجه من زوايا الاهمال والحقه بمعيّتة فعلا مقامهُ بعد الخمول واخضلّت[7] أغصان آمالهِ بعد الذبول.

---

١ جعل نفسهُ هدفاً وهو الغرض ينصب للرمي ٢ عنق ٣ اولع ٤ حرقة ٥ اجراء ٦ مبعداً ٧ اخضرّ وصار رطباً

وتوالت على إثر ذلك الوكالات والنظارات ورئاسة الدواوين والمهامّ الخطيرة التي عُهد اليه بها وقد أبدى فيها كلها من الهمّة والنشاط والحنكة وبعد النظر ما أنطق الألسنة بالثناء عليه ووجّه التفات أولياء الأمر اليه فأُنعم عليه بالامتيازات والرُتَب وأهدت اليه أعاظم الدول الاجنبية الأوسمة [١] الفاخرة دلالة على ارتياحها الى معاملته وحسن دربته. وله المآثر الغراء في انشاء المدارس وترتيب أساليبها وتوسيع نطاق الدروس وتنشيط أرباب العلم وتعزيز جانب الآداب وهو الذي أنشأ المكتبة الخديوية الشهيرة ففتح كنوز الفوائد للعلماء والأدباء وسهّل لهم الاطّلاع على المؤلفات النفيسة وجعلها منهم على حبل الذراع [٢].

وكان علي مبارك رجلاً هماماً حازماً ووطنياً صادق الخدمة لبلاده خبيراً بتقلبات الأمور مطّلعاً على أطوار الرجال ولمّا هبت زعازع [٣] الفتنه العرابية لم يكن ليغترّ بهدرات المتشدّقين [٤] المدّعين الاصلاح وإن هم إلاّ رسل الخراب يعيثون [٥] في الأرض فساداً وظلّ محافظاً على ولاء الأمير يدعو القوم الى الطاعة ويشدّ أزر مولاه بما استطاع.

وله آثار أدبية حسنة أشهرها « الخطط التوفيقية » نسبة الى توفيق باشا خديوي مصر وهو تكملة لخطط المقريزي نسجهُ على منواله ووصف فيه ما استحدث في مصر من الخطط الجديدة وضمّنه فوائد صناعية وفنّية وتاريخية كثير الفائدة. وله « تقريب الهندسة »

١ جمع وسام وهو علامة فخرية تنعم بها الدول على من اتى عملاً مجيداً ٢ هو عرق في الذراع يضرب مثلاً للقرب ٣ ريح زعزع شديدة تزعزع الاشياء ٤ الهدرات جمع هدرة وهي المرة من هدر البعير اذا ردّد صوتهُ في حنجرتهِ وتشدّق بكذا ملأ بهِ شدقيهِ ٥ يفسدون اشر الفساد ٦ جمع خطة وهي الارض تخط للبناء

و« عَلَم الدين » على شكل رواية ادبية عمرانية في عدة أجزاء أودعها الفوائد الجمة . ومؤلفات أخر في الرياضيات تشهد بطول باعه وتضلّعه من الفنون التي تعاطاها .

عَبْدُ ٱللّٰهِ نَدِيم (١٨٩٦ م ١٣١٤ هـ)



عبد الله نديم

هو السيد عبد الله بن مصباح وينتهي نسبه الى ادريس الأكبر من أسباط[1] الحسن بن علي . وُلِدَ بالاسكندرية وقرأ العلوم على مشاهير شيوخ زمانه فأتقن الفقه والأصول والمنطق وعلوم اللغة وفنون الأدب ونظم الشعر فأحسن وبرع وحبّر المقالات الفريدة فأجاد وأبدع وكانت له في الكتابة أساليب خاصة وفنون مستحدثة يعجب بها الأدباء ويتسابقون

١ السبط ولد الولد

الى الوقوف على نفثات قلمهِ السيّال فيتناشدون قصائدهُ الرقيقة ويتجاذبون فصولهُ الأنيقة وكلٌّ يحرص على التعرّف بهِ والتقرب اليهِ بحيث كان مجلسهُ نادي[1] رجال العلم وحملة الأقلام لا يخلو من مباحثة لغوية ومطارحة[2] أدبية ومساجلة شعرية ومفاوضة[3] سياسية وهو في اثناء ذلك ينثر من لآلئ نثرهِ ما يبهر الكتّاب وينظم من قلائد شعرهِ ما يفتن الألباب.

ثم مال الى السياسة فأخذ يعقد الجمعيّات وينشئ الجرائد والمجلات وينشط المشروعات الوطنية ويسعى في نشر المعارف وتعميم فوائد العلم ويشدّ أزر كل داعٍ الى الاصلاح وترقية الشعب وتهذيبهِ وتنويرهِ وقد وقف على المصلحة العامة ما أوتي[4] من المواهب والمقدرة الادبية وما كاد يقوم قائم الثوّار العرابيين حتى جنح الى حزبهم[5] ومالأهم على مقاصدهم وتمكنت منهُ مزاعم القوم لما سمع من تشدقهم باصلاح الفساد واستنقاذ البلاد وتحرير رقاب العباد ولمّا كان عبد الله نديم خطيباً مفوّهاً[6] سريع الخاطر قويّ العارضة استهوته النفس الى خوض غمرات الجهاد ودعوة القوم الى الدفاع عن حوزة الوطن بحيث أصبح لسانَ حال الخوارج وخطيبَ الحزب الوطني.

وكان من أمر الثورة ما كان واختفى عبد الله نديم وظل عشر سنوات يتنقل في بعض الجهات فبثّت الحكومة في إثره العيون[7] والارصاد وجعلت الجعائل لمن يدلّ عليه وهو يضلّل الرقباء بالتنكّر فيتزيّا تارة بزيّ الدراويش وطوراً بزيّ المغاربة وغيرهم الى ان قُبض عليهِ اخيراً وأُمر بالخروج من مصر فقصد يافا وتجول في أنحاء فلسطين مدة ثم عُفي

---

١ مجتمع ٢ طارحهُ الكلام ناظرهُ فيهِ وجاوبهُ ٣ محادثة ٤ اعطي ٥ مال الى عصبتهم ٦ بليغاً ٧ الرقباء

عنه فعاد الى مصر إلاّ أنه ما عتم ان كُلِّف مغادرة [1] مصر ثانية فعاد الى يافا ثم رحل الى الاستانة فعيّن مفتشاً للمطبوعات ونال حظوة كبيرة عند جلالة السلطان وعظماء القوم وعلمائهم واتصل هنالك بفيلسوف الشرق الشهير جمال الدين الأفغاني فتمكنت بينهما عرى [2] الصداقة ورأى كلٌّ من صاحبهِ فوق ما سمع .

وللسيد عبد الله نديم مؤلفات كثيرة فُقد أكثرها ومما أبقى عليه الدهر ثلاثة دواوين شعرية وبعض رسائل وروايتان تمثيليتان «الوطن» و «العرب» وقد جُمعت منتخباب من أقواله في كتابٍ سُمّي «سلافة [3] النديم في منتخبات السيد عبد الله نديم» ومن أمثلة نظمهِ قوله يصف القطار البخاري:

نظر الحكيم صفاتهِ فتحيّرا شكلاً كطودٍ بالبخار مسيّرا [4]
دوماً يحنّ الى ديار أصولهِ بحديد قلبٍ باللهيب تسعّرا
ويظلّ يبكي والدموع تزيده وجداً فيجري في القضاء تستّرا
تلقاهُ حال السير أفعى تلتوي أو فارسَ الهيجا أثار العِثْيَرا [5]
أو سبعَ غابٍ قد أحسّ بصائدٍ في غابهِ فعدا عليه وزجرا [6]
أو انها شهبٌ هوت من أفقها أوقبةُ المنطاد تنبذ بالعرا [7]

---

١ ترك ٢ جمع عروة وهو كل ما يؤخذ باليد ويتمسك بهِ من حلقة ونحوها ٣ خمرة ٤ الطود الجبل ٥ الهيجا الحرب والعثير الغبار ٦ عدا عليهِ هجم عليهِ ٧ الشهب جمع شهاب وهو الكوكب الذي يخيل للرائي انهُ يسقط من السماء ونبذ طرح والعراء الفضاء

محمّد عبدُه (١٩٠٥ م ١٣٢٣هـ)

وُلد الشيخ محمد عبدُه بمحلّة النصر وهي قرية صغيرة من مديرية البحيرة بمصر وكان أبوهُ يتعاطى الفلاحة وأدخل فيها اولادهُ الا محمداً فأنه عزم على تعليمهِ لما توسّم [١] فيهِ من مخايل النجابة والذكاء فقرأ الولد مبادئ العلم في مكاتب ناحيتهِ ثم أرسلَهُ والده الى الجامع الأزهر فأحرز جانباً صالحاً من العلوم بكدّهِ واجتهادهِ واستنبط لنفسه أسلوباً في المطالعة غير الأسلوب المعتمد عليه في تدريس الطلبة عاد عليهِ بالنفع الجزيل وأُلع من ذلك الحين بالتبحّر في العلم والازدياد منهُ كلما سنحت [٢] لهُ الفرصة.

وورد مصرَ في تلك الأثناء الفيلسوفُ العلامة جمال الدين الأفغاني وتولى تعليم المنطق والفلسفة فانتظم محمد عبده في سلك تلامذتهِ واغترف من بحر علمهِ الزاخر وأخذ نفسهُ بتقيّل [٣] أستاذهِ في أخلاقهِ وآدابهِ وعلومهِ فدبّت فيه روح جمال الدين وأصبح نابغة زمانه في العلوم الدينية والعقلية واللسانية فضلاً عن روح الحرّيّة وعلو الهمة وعزة النفس التي اقتبسها كلٌّ من اتصل بذلك الرجل العظيم. ولم تكن مناقب التلميذ لتخفى على أستاذهِ فأنه رأى ببصيرتهِ النقّادة ما سيكون منهُ ولمّا قُضي عليهِ بالخروج من مصر لأسبابٍ سياسيّة قال لبعض خاصّتهِ «قد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى بهِ لمصر عالماً».

---

١ نظر اليهِ ليعرف امرهُ ٢ عرضت ٣ التشبه بهِ

واشتغل بعد ذلك بالمطالعة والكتابة والتأليف وتقلّد عدة مناصب قام بها أحسن قيام حتى كانت الثورة العرابية فوافق أصحابها وأيّدهم [١] بما عندهُ من السلطة الأدبية وأفتى [٢] بخلع الخديوي توفيق باشا ثم انجلت غياهب الثورة عما هو معلوم وقبض على الشيخ محمد عبده وحكم عليه بالنفي فقصد سوريا وحلّ فيها ضيفاً كريماً عظيم الحرمة معزّز الجانب يقصدهُ فضلاء القوم ويستفيدون منهُ علماً وأدباً وفضلاً غزيراً .



جمال الدين الافغاني

وأقام في سوريا ست سنوات ثم لحق بأستاذهِ جمال الدين في باريس وأنشأا هنالك جريدة « العروة الوثقى » فدبّج فيها الشيخ محمد عبده المقالات الرنّانة وحلاّها بدرر علمهِ وغرر أدبهِ فترامت شهرتها في الآفاق الاّ أنها لم تعش طويلاً . وانتهز فرصة إقامتهِ بباريس لدرس اللغة الفرنسية.

١ قوّاهم ٢٠ ادّى الفتوى وهي الحكم في مسألة شرعية

ثمَّ عفي عنه فعاد الى وطنه وولي الخطط الرفيعة وعُـيّن أخيراً مفتياً عامّاً للديار المصرية وظل في هذا المنصب الخطير الى وفاتهِ .

وكان الرجل جليل المناقب[١] شريف المزايا غزير العلم والفضل فسيح الذرع[٢] حصيف الرأي قويّ الحُجَّة بليغ اللسان دَمِث الأخلاق رَحْب الصدر بعيداً عن التعصّب المَقيت[٣] وهو مع ذلك شديد التمسك بدينهِ حريصاً على كرامتهِ وإقامة شعائرهِ[٤] وقد وقف مواهبه ومداركه على إصلاح قومهِ ورفع شأن ملّتهِ وتمهيد سبل النجاح لبني جنسهِ وهي الأمنية التي سعى اليها سعياً حثيثاً[٥] طول عمرهِ والى ذلك أشار في قولهِ من قصيدةٍ نظمها قبيل وفاتهِ :

ولستُ أُبالي أن يقال محمدٌ   أَبَلّ أو اكتظّت عليهِ المآتمُ[٦]
ولكنَّ ديناً قد أردتُ صلاحهُ   أحاذر ان تقضي عليهِ العمائمُ

ومن آثارهِ تعريب رسالة لأستاذهِ عنوانها « الرد على الدهريين[٧] » صدرها بترجمته ولهُ شرحٌ نفيس مطول على مقامات بديع الزمان تزيد فوائده على فوائد المتن نفسهِ وشرحٌ على مجموع خطب الأمام عليّ المعروف « بنهج البلاغة » .

---

١ المكارم ٢ كناية عن مقدرتهِ ٣ البغيض ٤ عبادتهِ ٥ سريعاً ٦ ابلّ برى واكتظ ازدحم والمآتم جمع مأتم وهو المناحة ٧ الذين يقولون بقدم الدهر وينكرون البعث

ابرٰهيم بك المُوَيلحيّ (١٩٠٦ م ١٣٢٣ هـ)



ابرهيم بك المويلحي

هو ابرهيم المويلحيّ المصريّ، كان نادرة في الذكاء، وتوقّد الذهن، والاقتدار على تفهّم الامور، والاحاطة بخفاياها، وكشف غوامضها؛ ولد في القاهرة، ونشأ ميّالاً الى الأدب، والشعر. تعاطى في صدر حياته تجارة ورثها عن والده، إلاّ ان الطمع أودى بها فاستنزفت المضاربة كلّ ثروته وأثقل الدين عاتقه، فأمدَّه اسماعيل باشا الخيدويّ بالمال. واستخدمه؛ ولم تكن مهامّ التجارة، ولا الشؤون السياسيّة لتُضعِف ميلَهُ إلى الأدب، فأسّس شركة لنشر الكتب، وتسهيل اقتنائها؛ وانشأ مطبعة باسمه لهذه الغاية، واصدر جريدة؛ غير أن مساعيَهُ لم تكلّل بالنجاح.

ولما سافر اسماعيل باشا الى ايطاليا، استقدم المترجم، فأقام لديه مدّة، ثم قصد القسطنطنيّة فألقى عصا الترحال، واستوطنها خلال عشر سنوات، فلم يبلغ أمانيه؛ ولعلّ في سرعة تقلّبه، وشدّة رغبته في النجاح

السريع ، وتشتيت قواه سببا من أسباب إحباطه . ولما عاد من اسفاره الى مصر ،كانت ملكة انشائه قد نضجت بالممارسة ، والاختبار ، ومؤالفة أعاظم الرجال ، فعلق يدبّج المقالات السياسيّة ، والأدبيّة الشائقة في الجرائد ؛ ثم أنشأ « مصباح الشرق » جريدته الاسبوعيّة ؛ ولم يزل عاملاً في خدمة الصحافة ، مخلصا للوطن ، وللاسرة العلويّة الكريمة ، حتى توفّي ، وهو في الثانيّة ، والستين من عمره .

وكان حلوَ المحاضرة ، لطيف النادرة ، سريع الخاطر ، حسن الاسلوب ، نابغة في الانشاء الصحافيّ السياسيّ ، متين السبك ، رشيق السّنن ، مع ميل الى النقد ، والمداعبة ؛ ولا يخلو انتقاده من لواذع ، ولواسع ؛ لايحجم عن شحذ لسانه على صديقه ، وقريبه ، ونسيبه ، حتى قيل : « لم ينجُ من قوارص قلمه ، الا الذي لم يعرفه » .

يوسف الدِّبْس (١٩٠٧ م ١٣٢٥ هـ)

هو يوسف بن الياس الدبس الماروني وُلد براس كيفا من قضاء الجبّة ونشأ على التقوى والصلاح ولما ترعرع أرسلهُ المطران بولس موسى رئيس اساقفة طرابلس الى مدرسة عين ورقة الشهيرة فتلقى فيها العلوم الدينيّة واللسانيّة وأتقن السريانية ولما غادر المدرسة تفرّغ سنتين كاملتين لاتقان اللغة اللاتينيّة وكان قد أخذ بطرف منها في المدرسة والتعمّق في اللاهوت والفلسفة بحيث أصبح راسخ القدم في الفنون التي أخلى لها ذرعهُ يشار إليه بالبنان ويذكرهُ بالخير كلّ إنسان لما اشتهر من فضلهِ وعلمهِ ودربته وهو لا يزال في عنفوان الشباب تام القوى غضّ

الاهاب لم يتجاوز العشرين ربيعاً. فاستقدمهُ حينئذٍ المطران بولس واتخذهُ كاتباً لسرّهِ. ثم انتدبهُ غبطة البطريرك للتدريس في مدرسة مار يوحنا مارون فلبّى الأمر وقام بهذه المهمّة خير قيام ورُقّي في تلك الأثناء الى درجة الكهنوت المقدسة . وألفتت فضائلهُ العديدة ومزاياهُ الفريدة أنظار البطريرك فآثر الانتفاع بخدمهِ فاستدعاهُ وعهد إليهِ بكتابة سرّهِ فتولى أعمال هذه الخطة الخطيرة بما لا مزيد عليهِ من الحنكة والصدق والتفاني في مصالح الطائفة فاستنطق الألسنة بالثناء على محامد خصالهِ وحكمة أقوالهِ وأفعالهِ .

وكان الخوري يوسف الدبس مكبّا على العمل مُتوفّراً لشؤون الوظيفة التي قُلّدها إذ فُجِعت الطائفة بوفاة الطيب الذكر المطران طوبيا عون رئيس أساقفة بيروت فاتجهت أنظار البطريرك الى كاتب سرّهِ وآنس من لفيف المطارنة ارتياحاً الى استخلافهِ أبرشية بيروت . فحسر المطران الجديد عن ساعد الجدّ واقبل يحرث كرم الربّ بهمّة ونشاط وعزيمة لا يدركها وناء ولا ملل ولا تزيدها الأيام الاّ قوّةً وثباتاً فقضى خمساً وثلاثين سنة لا يلهوله طرف ولا يسهو منهُ بال عن السعي في خير رعيتهِ والاهتمام بمصالحهم الروحية والأدبيّة والماديّة . وهذه آثارهُ الباهرة الغرّاء في أيدينا وبين ظهرانيْنا لا تزال ناطقةً بفضلهِ ذاكرةً ما لهُ في خدمة الدين والآداب من الأيادي البيضاء شاهدةً له بعلوّ الكعب وبُعْدِ الغَور في العلوم الدينيّة والأدبيّة وصدق الخدمة والاخلاص والتفاني في سبيل المشروعات الوطنية. أما ما أتاهُ من عظائم الأعمال الروحيّة والماديّة فنكتفي بالاشارة إليها إذ ليست من غرضنا ونكتفي بذكر فضلهِ في نشر العلم وترقية الآداب في هذا الوطن العزيز .

كان المطران يوسف الدبس نابغةَ عصرهِ وعلاّمةَ دهرهِ في العلوم

العقلية والنقلية ففي المباحث الفلسفيّة كان جدليّا محنكاً ومُناظراً دَرِباً قويّ العارضة دامغ الحجّة حاضر البرهان واضح الدليل سديد المنهج على رحابة صدره ونزاهة أسلوبه ووفرة أدبه بحيث لا يتمالك الخصم من الاعجاب به والتسليم لهُ. وفي المسائل التاريخية كان قريع وحده في الاحاطة بكليّاتها وجزئياتها وتمحيص مقدماتها ونتائجها وكثيراً ما كشف القناع عن جهات الحوادث وغوامض الأمور بما أُوتي من استنارة البصيرة وبُعد النظر وصحة الانتقاد فضلاً عن كثرة اطّلاعه وسعة محفوظه بحيث أصبح رأيهُ حجّة في تاريخ الشرق المدني والكنسي وهذا كتابهُ « تاريخ سوريا » أصدق شاهدٍ على تفوّقه في هذا الفنّ الجليل .

ورُزِق صاحب الترجمة في الخطابة ملَكة نادرة فكان اذا تسنّم منبر الوعظ بهر العقول بفصاحة منطقه وبلاغة عبارته وحسن أُسلوبه واستولى على قلوب سامعيه وتصرّف في أهوائهم كيفما شاء فانقادوا الى دعوته وصدوراً عن رأيه لما خامرهم من صدق لهجته وقوّة برهانه وسداد منهجه . وقد جُمعت عدّة من مواعظه وطبعت على حدة لما تضمّنت من الفائدة الدينيّة والأدبيّة فهي والحق يقال مشكاة تنبعث منها أنوار الحق الساطعة فتبدد دجى الأضاليل التي ركمتها الدهور وتمزق حجب التمويه والسفْسطة التي سدلتها أيدي العصور .

وللمطران يوسف الدبس مؤلفات عديدة بين معربة وموضوعة في أغراض شتى فمن معرباته « تاريخ الأرطقات » للقديس الفونس ليغوري و « الرسوم الفلسفية » للاب لويس دوموفسكي و « الدروس اللاهوتية » للأب يوحنا بروني اليسوعي . ومن مؤلفاته « تحفة الجيل في تفسير الأناجيل » و « سِفر الأخبار في سَفَر الأحبار » وصف فيه المدن التي مرّ بها في سفره بمعيّة البطريرك بولس مسعد إلى رومة . ولهُ « مغني

المتعلم عن المعلم » في الصرف والنحو على أسلوب سهل مستحدث و « روح الردود » اثبت فيه بالحجج الملزمة ثبات الموارنة في الايمان الكاثوليكي منذ القدم إلى أيامنا وهذا الكتاب هو فصل الخطاب في هذه المسألة الخطيرة عند الطائفة المارونية وقد أملاهُ عليه قلبهُ وعقلهُ معاً.
ومن مصنّفاته « مربّي الصغار ومرقّي الكبار » في واجبات الانسان. الا ان رأس تآليفه وأشهرها « تاريخ سورية » من الخليقة الى أيامنا وهو كتاب كبير يقع في تسعة مجلّدات حشر فيه كل ما وصلت إليه يدهُ من الأخبار المتعلقة بسوريا قربت أو بعدت مستعيناً بما اكتشفهُ الأثريون من مخلفات الأمم الغابرة ودوّنوهُ في كتبهم على كثرتها وتنوّعها وقد انتزع منهُ مختصراً في جزئين لتلامذة المدارس. الى غير ذلك من المؤلفات التي لا محلّ لذكرها ههنا.

ومما لا يسعنا إغفال ذكره فضلهُ على الآداب بتشييده مدرسة الحكمة الزاهرة فقد تخرّج فيها من مشاهير الكتبة عددٌ غفيرٌ تغني شهرتهم عن ذكرهم وكفى بهم شاهداً على ما لهذا المعهد العلمي من الخدم الجليلة في ترقية أبناء العصر وما لمؤسسه من الأيادي البيضاء على الناطقين بالضاد. فضلاً عن المدارس الابتدائيّة التي أمر بأنشائها في أنحاء لبنان لتربية الناشئة من الجنسين على مبادئ الدين والعلم.

السيّد عليّ يوسف (١٩١٣م ١٣٣٢هـ)



السيد علي يوسف

هو عليّ بن احمد بن يوسف، زعيم الحركة الوطنيّة المصرية، ولسان حالها، وفارس حلبتها، غير مدافَع؛ ولد في بَلَصْفورة، من مدريّة جرجا، بصعيد مصر، وأخذ بقسط من العلم في مدينة بني عديّ؛ ثمّ اتّصل بالأزهر، وهو في الثامنة عشرة من سنّه، فأقبل على اكتساب العلوم بجدٍّ ونشاط عظيمين، ومال خاصّة الى الأدب، والشعر.

اشترك باصدار «المؤيّد» مع الشيخ احمد ماضي؛ ولم يلبث ان استقلّ بتحريره، بعد وفاة شريكه، فحمل فيه الحملات العنيفة على الجرائد المؤيّدة الاحتلال، وخاصّة المقطم، فكان لصوته صدى استحسان ردّده وادي النيل، من أقصاه إلى اقصاه.

ولم يقتصر السيّد عليّ في أبحاثه على الشؤون الوطنيّة، بل تخطّاها

الى مصالح العالم الاسلامي بأسره ، وأصبح « المؤيّد » بفضله ، في مقدّمة الجرائد الراقية ، ولسان حال المسلمين كافّة .

ولمّا شعر ان سياسة العنف ، والشدّة لا تثمر ثمر الرجاء ، مال الى اللين والملاطفة ، بيد أنه لم يزل متمسكاً بمبدأ الوطنيّة ، والمطالبة بالجلاء الى ان وافته المنيّة ، وهو في الخمسين من عمره .

وللسيّد علي يوسف ديوان شعر ، نظمه في صباه ، سماه «نسمة السحر» واكثر ما فيه مقطعات ، ومدح ، وتهانئ تحدّى فيها طريقة الاقدمين من التغزّل ، وذكر الأحبّة ، مما يتجافى عنه الذوق العصرى ، إلاّ انه سهل الاسلوب ، منسجم التركيب ، ومنه قوله في الدهر :

يا بارقَ الدهرِ! قد أبطأتَ بالمطَرِ ؛
فاقرأْ على السمعِ منّي صفحةَ الخَبَرِ ؛
فانّ طولَ انتظارِ المرءِ متْعَبةٌ ،
والناسُ تألف دوماً راحةَ الفِكَرِ ؛

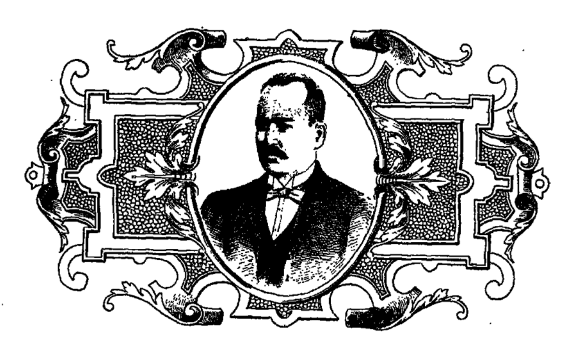
منها :

ما شئتَ ، يا دهرُ ! فافعل ، انّني جَلِدٌ ؛
ما قلتُ عندَ خطوبي : «ضاعَ مصطبري»
أرَشتَ لي سهمَ غدرٍ ، بان عن وتَرٍ ،
ولم أقل في الورى : «قد خانني وتَري»
وكم تعدّيْتَ ، لا جرمٌ ، ولا سببٌ ،
ولم يغيّرْ جَناني حادثُ الغِيَرِ ،
إذْ لستُ أرْتاعُ من سهم تُسدّدهُ
نحْوي ، ولو كان فيه اعظمُ الضَّررِ .

آمنتُ باللهِ، هـذا الدهرُ منعكسٌ
في صفحتيهِ لأهلِ الجدِّ، والهزَرِ
هـذا اعتقادي، ولا يرتابني أحدٌ،
والحمدُ للهِ، إني صادقٌ خبَري.

اما نثره لذلك العهد، فهو مسجّع، على النسق القديم، يعتوره التكلّف، والتعمّل، بخلاف ما صار اليه فيما بعد.

جرجي زيدان (١٩١٤ م ١٣٣٣ هـ)



جرجي زيدان

هو جرجي بن زيدان مطر، من طائفة الروم الارثوذكس: وُلد ببيروت، ونشأ متوقّد الذهن، حادّ الفؤاد؛ وأخذ بقسط من العلوم الابتدائية، في بعض المدارس؛ ثم اضطرّ الى مساعدة والده صغيراً، فبارح المدرسة، ونفسه تائقة الى ارتياد منهل العلم؛ ولم يزل يكافح الدهرَ،

والدهر يكافحه، حتى تمكّن من درس اللغة الانكليزيّة. في مدرسة ليليّة، وتأهّب للانخراط في سلك طلبة الطبّ، بالكليّة الاميريكيّة، فقضى فيها ما ينيف على سنة؛ ولمّا اختلّ نظام المدرسة غادرها، وبعض زملائه. ثمّ أمّ القطر المصري، مصمّماً النيّة على إتمام دروسه الطبيّة؛ إلاّ ان طول المدّة الدراسيّة، وضيق ذات يده، حالا دون أمنيّته، فاشتغل بالعلم، وتحرير جريدة الزمان سنة؛ ورافق الحملة النيليّة سنة ١٨٨٤ مدّة عشرة أشهر، عاد بعدها الى بيروت، فطالع العبرانيّة، والسريانيّة خلال عشرة أشهر، ووضع كتاب الفلسفة اللغويّة؛ وعاد الى مصر، فساعد في تحرير المقتطف مدة، ثم استقال وألّف تاريخ مصر الحديث، وفوّض اليه ادارة التدريس في المدرسة العبيدية، لكنه لم يعتّم أن تخلى عنها وانتظم في سلك حملة الاقلام، فاصدر مجلّة الهلال سنة ١٨٩٢، واستقلّ بتحريرها، إلى ان كبر نجله «اميل»؛ توفي فجأة على اثر سكتة قلبيّة.

وكان المترجم دمث الاخلاق، ليّن المعاشرة، لطيف الحديث، متوقّد الذكاء، عظيم الصبر، صادق العزيمه، لا يثبّط همّته أمر مهما كان فادحاً؛ ولولا ذلك، لما تمكن من ان يبلغ ما بلغه، وهو صفر اليدين، مدفوع الى كسب معاشه، بكدّه؛ وقد برهن عما وهبه المولى من كريم الاخلاق بما أبقى من الآثار الأدبيّة الجمّة، وهي تناهز الخمسين مجلّداً، ما عدا مجلّة الهلال.

وكان محبّا للسلم، أبغض شيء لديه الخوض في المسائل التي ينجم عنها الجدال؛ إلاّ انه، يؤخذ عليه التهافت على بعض آراء حديثة لا تتّفق مع العلم الصحيح، والتاريخ الصادق؛ والتعريض ببعض أشياء ينبذها الدين القويم، وكان الأجدر به أن يتحاشاها.

ولم يكن يتحدّى في سبك عباراته اسلوباً خاصاً ، أو يتعمّد التنميق ، بل كان يرسل لفظه مسوقاً للمعنى المطلوب ، دون تكلّف أو صنعة ، رغبة في افادة الجمهور ، وللجمهور قد ألّف ؛ ومؤلفاته كثيرة جدًّا منها تاريخ مصر الحديث ، وتاريخ التمدن الاسلامي ؛ والعرب قبل الاسلام ؛ ومشاهير الشرق ؛ وآداب اللغة العربيّة ، وغيرها ؛ واثنتان وعشرون روايّة تاريخيّة .

ومن اقواله : لا يصحّ الا الصحيح ، ولا يبقى الا الأنسب .

ألاخ ساروفيم فيكتور (١٩٢٢ م ١٣٤١ هـ)

هو رشيد بن يوسف عطا الله الماروني ؛ ولد من أسرة عريقة في الفضل ، والتقوى ، بعبيه من قرى لبنان ، ونشأ في بيروت ؛ ولما ترعرع دخل مدرسة الفرير ، وتلقّى فيها مبادئ العلوم الدينيّة ، والدنيويّة ، وامتاز بين أقرانه بورعه ، وتوقّد ذهنه ، وحدّة ذكائه ، والانكباب على اكتساب المعارف ؛ ولمّا ناهز الثانية عشرة من سنّه ، طلب الانضواء الى اخوة المدارس المسيحيّة ، فلم يلبَّ طلبه ، باديَ بدء ، رغبةً في اختباره ، ولما بقيَ مصمّماً على عزمهِ ، استجيب ملتمسهُ ، فأرسل الى بيت لحم حيث قضى بضع سنوات أتمّ في خلالها دروسه ، واتقن اللغتين العربيّة والفرنسيّة ، ونبغ في كافة الفنون التي يتلقاها الطلبة ، ورسخت قدمه في سبيل البرّ ، وتجلّت فضائله ، وكرم أخلاقه من لين الجانب ، ونبل الفِطرة ، وصدق الطوية ، ومضاء العزيمة ، وسداد البرهان ، بحيث اصبح نموذج الفضل والعلم ، وتفوئل بأنه سيكون فريد زمانه ؛ ولم يلبث أن احتفل بقبوله

بين اعضاء الجمعيّة، ولقّب بالاخ « ساروفيم فيكتور »، فأقام سنة متفرّغاً لممارسة الواجبات الرهبانيّة، والتدرّب على اسمى الفضائل المسيحيّة؛ ثمّ عيّن استاذاً لصغار المبتدئين، فقام بأعباء منصبه خير قيام، واكتسب القلوب بحسن أسلوبه، وأدهش العقول بما أحرزه من ذلاقة اللسان، وفصاحة المنطق؛ وانكبّ منذ ذاك على العمل فعرّب عدّة كتب روحيّة، ونظم كثيراً من القصائد الرقيقة؛ وحينئذٍ شعر بوفود الداء الذي أنهك قواه، وأودى بحياته. وقصد سنة ١٩٠٠ القاهرة ليستجمّ، ويغيّر الهواء، حذرَ استشراء الداء، فتحسنّت صحته نوعاً، ثمّ قفل راجعاً الى القدس الشريف، ففوض إليه تدريس الآداب العربيّة، ومراقبة التدريس في كليّة الفرير؛ فزاول عمله هذا عدّة سنين بهمة، ونشاط جديرين بكل ثناء، ونفسه لا تطمح إلاّ إلى تهذيب الناشئة، وترويضها على حسن الخصال، وشريف الفعال، واعزاز شأن اللغة العربيّة: ولم يدّخر وسعاً لبلوغ هذه الأماني، فعرّب روايات تمثيليّة، أدبيّة المغزى، صحيحة المبنى، وألّف كتباً شتّى منها هذا الكتاب « تاريخ الآداب العربيّة » خصيصاً لهذه الغاية، رغماً مما كان يلمّ به من انتكاس صحته، وتراكم الاشغال عليه؛

إلاّ انّ الداء اشتدّت وطأته عليه، فلم يدع له في قوس الصحة منزعاً، وأثخنه[1] السقم، وتخوّنه[2]، فاضطرّ الى مغادرة القدس، وأعفي تماما من مزاولة كل عمل، وهو في ميعان الشباب، وفي الآولة التى كان ينتظر منه فيها جليل الخدم في التعلم، والتأليف؛ ولما لم تجده الراحة نفعاً في ربوع فلسطين، أمَّ فرنسا انتجاعاً للصحة، ولكن على غير جدوى. فقضى فيها زهاء عشر سنوات، يتألّم من مضض الأوصاب، ويحنّ الى وطنه؛ ولقي

---

١ اشتدّت قوته عليه ٢ انتابه مرّة بعد أخرى، وبرى جسمه

ربّه، نازحاً عن مسقط راسه، نازعاً اليه، وهو في الثالثة والاربعين من عمره.

وكان، رحمه الله، حاضر الجواب، مفحم التفنيد، يستغني بالرمز عن العبارة؛ راجح حصاة الرأي، يجلّي ليل الخطوب بسداد قوله؛ لا يجري لسانه بغير الصدق، ولا يخشى في الحقّ لومة لائم؛ وهو، مع ذلك، متجافٍ عن مقاعد الكبر، يتلقى من يقصده بوجه منطلق، ولا يلقاهُ أحد الاّ متهيبّاً، فاذا خبَرَ ما عنده من سعة الصدر، يستسلم اليه بثقتهِ، ويكل أمره إلى رأيهِ، وتدبيره، فيتحرّى له المترجَم وجوه النصح. وبالاجمال، كان لاخوانه، وتلاميذه، كوكبَهم اللامع، ونبراسهم الساطع، فلا عجبَ ان بكوه بدمع المزن.

وكان الاخ ساروفيم متضلّعاً من اللغة العربيّة، والفرنسيّة، حافظةً راوية، قد ألمّ بالكثير من المعارف، والعلوم، وحفظ ما بين دفّتي « الفرائد الدرّيّة »، وشيئاً كثيراً من الشعر العربي، والامثال.

أما انشاؤه فنمّق العبارة، سلس الاسلوب، ناصع البيان، حسن الديباجة؛ له في الشعر القصائد الحسان، والموشّحات اللطيفة؛ وفي النثر القدم الفارعة، والقدح المعلّى؛ يحذو فيه حذو الشيخ ابرهيم اليازجي، في شدّة الأسر، وتنقيح العبارة، وتنزيهها عن سخف الالفاظ، وركاكة التأليف، لا ظلّ عليها للابتذال، مهما كان الموضوع مطروقاً؛ ولو أمدّ الله تعالى عمره، وأناله قسطاً وافراً عن الصحة، لكان منقطع القرين، ولتبوأ منصباً عالياً في الجمعيّة، وخدم اللغة العربيّة خدماً لا تحصى.

ومن نظمه، موشّح بديع، ذكر فيه وفود المجوس الى بيت لحم افتتحه بقوله:

سكنت اورشليمْ، وانتشرْ بين أهليها الكرى، بعد السَّهَرْ،
وعلى الابواب أجنادُ الخَفَرْ يدفعون الهمَّ عنهم، والضَّجَرْ
بحديثٍ راق في ضَوْءِ القمر

وهو طويل، ختمه بقوله :

وكذا نُهديك يا فادي الانام ذهبَ الحبّ، وقلباً مستهام،
وتسابيحَ بَخُورٍ باحترام، وبِلَى الأيامِ صبراً في الختام،
وآهدِ دارَ الخلْدِ عبداً قد صَبَرْ

ومما نظمه في صدر حياته، في الزهد، وغرور الدنيا، قصيدة جعل رويها الواو الساكنة، اصعب قافية في اللغة العربيّة،

مطلعها :

عاشقَ الدنيا، إلى ما أنت غَوْ ! قلبٌ إيٍّ ودُّها، ولم يُدَوْ [١] ؟
قد ظننتَ ماءَها يروي الظما؛ أتروم الريَّ، والاناءُ صَوْ [٢] ؟

منها :

كلُّ خيرٍ نازحٌ عنها؛ ألاَ إنما الأكدارُ فيها شبه نَوْ [٣]؛
فبجام الراحِ تسقيك الرَّدَى، وكأيٍّ جَدَحَتْ سمّاً بِحَوْ [٤] !
كم وكم قومٍ بها هاموا، وقد خدعتهم، فَهَوُوها، وهَوَوْا [٥] !

وختمها بقوله :

واذْكُرْ في أربعٍ لا تَنْسَها : إن ذكراها لنور الله كَوْ [٦] !

---

١ الغو، مخفف غوٌّ، وهو الفصيل المهزول لفساد جوفه؛ استعير للمنصبّ على الملاهي؛ ودَوَّى الرجل، سار في الدوّ، اي المفازة، يريد، تاه، وهلك ٢ مخفّف، صوٌّ: فارغ ٣ النو، المطر ٤ جدحت، خلطت، والحو، العسل ٥ هوُوها: عشقوها، وهوَوْا، سقطوا، وماتوا ٦ الكو مخفّف، كوٌّ وهو النافذة والكوّة

موتُ جسمٍ عاجلاً، أو آجلاً، دينُ نفسٍ، ثمَّ دارُ الخلْد أو ...

وآخر ما نظمه قصيدة بعث بها من فرنسا، يذكر فيها حنينه الى وطنه، واصدقائه:

يا نسيمَ الصبحِ، سرْ نحوَ الشآم، وزرِ الأحباب، واقرئْهم سلامْ

منها:

نابني الدهر بأنواع البــلا سهمه جاز فؤادي، والعظام
يا ربوعَ الشام؛ لازال الهنــا شاملاً أهليك طــرًّا للدوام
لسواكِ القلب لم يعرف هوى، وهوى الأوْطان مــا فيه ملام
لن تزالي في فؤادي أبداً في فمي ذكرك اشهى من مُدَام!
أنتِ فِرْدوسُ نعيمٍ دائمٍ؛ تربك العنبر في ريّـا الخزام!
نسماتٌ منــك تحي مهجتي؛ ماؤك العذب شفاءٌ للسقـام!

ومنهـا:

كلماً هبّت الينــا ريحكم، قشعت غيم اكتئاب، واغتمام
ومتى عــادت الى أرجائكم، حملت شوقي إليكم، والهيـام
هل الى لبنانَ لي من عودة فترى عينــاي هاتيك الأكام

وختمها قائلاً:

ان يشأْ، يجمعْ إلهي شملنــا، وبمرآكم يبلغني المــرام؛
واذا بالبعد يقضي أبــداً، فعليكم، وعلى الشام السلام!

ومؤلفات الاخ ساروفيم كثيرة جداً بالنسبة لما عاناه من مضض الاسقام ؛ منها ما لعبت به يد الضياع ، بسبب انحراف صحته ، وتنقله أثناء اعتلاله ؛ ومنها ما لا يزال مخطوطاً ؛ والبعض نشر بالطبع ؛ واليك اسماءها :

١ ـ تاريخ الآداب العربيّة ، وهو أعظمها ، وأنفسها ، وأشهرها .
٢ ـ كتيب في الصلوات ؛ طبع في القدس الشريف .
٣ ـ نجوى العابد ، مجموع صلوات ، طبع في بيروت .
٤ ـ مجموع مقالات دينية .
٥ ـ نظامات جمعية اخوة المدارس المسيحيّة .
٦ ـ كتاب آداب المعاشرة ؛ وقد لعبت به يد الضياع .
٧ ـ كتاب علم المعاني ، والبيان ، والبديع ، لم يتمّه .
٨ ـ خمس روايات تمثيلية ، عربها عن الفرنسية ، وجعل لها اغاني والحانا موسيقيّة ؛ وهي : من غربل الناس نخلوه ؛ والدسيسة ، والملكة المريخية ؛ وجلالة الامير؛ والغلام الآبق .
٩ ـ ديوان شعر ، وفيه ٢٩ قصيدة مرتبة قوافيها على كل حرف من حروف المعجم ؛ وقد ضاع معظم هذا الديوان ، ولم يبقَ منه الا نتف مبعثرة في بعض المخطوطات .
١٠ ـ مجموعة أمالي ، وبضع رسائل ـ وكلّ هذه الكتب لم ينشر منها الا الثلاثة الأولى فقط .

السيّد مصطفى المَنْفَلُوطيّ (١٩٢٥ م ١٣٤٤ هـ)

هو مصطفى بن محمّد بن لطفي المنفلوطيّ ؛ ولد بمدينة مَنْفَلُوط في صعيد مصر سنة ١٨٧٦ م ، من أسرة مشهورة بالنبل والفضل . وتلقّي مبادئ القرآءة في مدرسة أوليّة بمسقط رأسه ، وخرج منها حافظاً القرآن . دخل الازهر ، فأقام فيه عشر سنوات امتاز في خلالها بين أقرانه بحدّة الذكاء ، والفطنة ، والذوق السليم ، وكلف بدراسة كتب الطبيعة ، والأخلاق ،

والأدب، والحكمة، وشغف بها شغفاً يفوق الوصف، فرقت مداركه، وصقلت ذهنه، فقال الشعر، وأجاد النثر، ثمّ التحق بالشيخ محمّد عبده، واكثر من مصاحبته مدّة عشر سنوات كاملة، فأتمّ ما نقص من علومه، ونضجت ملكة انشائه. بارح الازهر عند وفاة استاذه، وعاد الى مسقط رأسه، منفلوط، وراسل جريدة «المؤيّد» بمقالات أسبوعيّة شائقة، رائقة، تكسو فائدتها اللذة، وتجمع بين طلاوة الجديد، وبلاغة الاقدمين. ثمّ استدعاه للعمل سعد زغلول باشا، وهو وزير للمعارف، فتقلّب في مناصب الحكومة مدّة طويلة؛ ووافته المنون، وهو عضو في مجلس الشيوخ.

وكان المترجم صادق الوطنيّة، رزيناً، وقوراً، أنوفاً، عزيز النفس، مترفعاً عن مخالطة من لا تلائمه أخلاقه، ولذلك كان فيه انقباض عن الناس يخاله الرائي صلفاً، وكبراً. أمّا انشاؤه فقد نهج فيه اسلوباً بليغاً لم يحد عنه في كل ما كتبه، فاذا عمد الى موضوع، وان يكن مبتذلاً، كساه من قلمه برداً قشيباً، يأخذ بمجامع القلوب؛ ولا بدع ان كان الاقبال على مؤلّفاته عظيماً؛ «وقد فتح باب الانتقاد الصحيح، وأحيا آداب اللسان، بادخاله في الانشاء العربي، اسلوباً عصرياً جميلاً، فاجاد؛ وجمع بين بلاغة صدر الاسلام، وأدب هذه الأيّام [1]» وانتقاده حادّ اللهجة. مُرّ لاذع، لا يخلو من تطرّف.

إلاّ أننا نأخذ على المنفلوطي بعض مقالات وددنا لو نزّه قلمه عن كتابتها لما فيها من إثارة الاحقاد، وزيادة التنافر، وامتهان ما من شأنه ان يكرم ويصان، ولعلّه كان الأجدر به ان يتحف اللغة العربيّة بغير «العبرات» و «ماجدولين» لانهما تضمّنا حكايات محزنة، وغراماً،

---

[1] جرجي زيدان

وانتحاراً، وكلّ ذلك ممّا لا يجدي القارئ نفعاً، وانما يدفع به الى الائتساء بهؤلاء البؤساء.

ويرى بعضهم انه فشل فشلاً تاما في تصوير اشخاص رواياته فانها اشباح لا ارواح [1].

وللمنفلوطي، ما عدا النظرات، وفي سبيل التاج، والشاعر، وغيرها من الروايات المعربة عن الفرنسية، شعر قليل، نظمه في صدر حياته، ثم عدل عن الشعر الى النثر، لقصيدة اتّهم في الاشتراك بنظمها طعنا بالخيدوي.

ومن شعره في وصف القلم:

يا يَراعي، لولا يدٌ لك عندي، عِفتُ نظمي في وصفك الأشعارا
يا يراعَ الأديب، لولاكَ، ما اصـ ـبحَ حظّ الأديب يشكو العِثارا
غير أني أحنو عليك، وان لم تكَ عوناً في النائبات، وجارا
أنت نِعم المعينُ، في الدهر، لولا ان للدهر همّةً لا تجارى

وقال في الحكم:

اذا ما سفيهٌ نالني منه نائلٌ، من الذمّ لم يَحْرَج بموقفةِ صدري
أعود الى نفسي، فان كان صادقاً عتبت على نفسي، وأصلحت من أمري
والا، فما ذنبي الى الناس، ان طغى هواها، فما ترضى بخير، ولا شرّ

ومثله قوله:

ضلالٌ يرى الانسان فضلا لنفسهِ، وساعده في المكرمات قصيرُ،
وما المرء إلاّ صدقه، ووفاؤه، وكلّ كبير بعد ذاك صغيرُ

---

١ محمود تيمور

المستشرقون

هم جماعةٌ من علماء الغرب تفرَّغوا للبحث في الآثار الشرقية . ولما كانت اللغة العربية أرقى لغات الشرق وأغناها بالمؤلفات الخطيرة[١] كثر الراغبون في دراستها والمُقبلون على تحصيل آدابها . وقد نبغ من فضلاء الأجانب أفرادٌ أماثل[٢] بلغوا من العربية مبلغاً بعيداً ووضعوا في لغاتهم تآليف غرّاء عن لغات العرب وأدبيّاتهم ودياناتهم وأخلاقهم وأخبارهم وسائر شؤونهم لا يتمالك المطّلع عليها من الاعجاب بسعة علمهم ودقة نظرهم فضلاً عمّا هو مشهورٌ من بُعد غَورهم في المباحث العلمية وحنكتهم في حلّ المشكلات واستجلاء الغوامض بما فطروا عليهِ من الولوع في التنقيب والتنقير والعناية بجمع الآثار وأمهات الكتب للمقابلة والتنظير والاستنتاج . وقد أدّت بهم هذه الخطة المثلى الى الجَرح والتعديل[٣] والتنقيح والتصحيح فأماطوا اللثام[٤] عن كثير من مُبهمات المسائل وقلبوا عدّة من القضايا التأريخية ظهراً لبطن فجاءوا بالعجب العجاب .

ولم تقف خدمتهم لهذه اللغة عند هذا الحد بل استنطقوا الألسنة بعاطر الثناء على همّتهم وأريحيتهم بما نشروا من آثار السلف التي أخرجوها من زوايا النسيان فجعلوها من قرّاء العربية على حبل الذراع وكانت لولاهم أسماء يسمع بذكرها السامع ولا يطمع بمسمّياتها طامع . ولهم في إبراز هذه المكنونات[٥] الثمينة مزايا فريدة من الدقّة والامانة والعناية

---

١ ذات القدر ٢ أفاضل ٣ جرح الشاهد اظهر فيهِ ما تردّ بهِ شهادتهُ وعدّله اظهر انهُ شاهد عدل ٤ كشفوا النقاب ٥ اظهار هذه المستورات

قلّ من يمتاز بها من ابناء الشرق. وهي أنهم إذا عزم احدهم على نشر مؤلّف قديم شرع في البحث عن نسخه في مظانّها [١] واستنفد [٢] في إحرازها او استنساخها ما في وسعهِ من الوسائل المادية والمعنوية لا يضنّ [٣] بمال او وقت أو مشقة. حتى اذا اجتمع لديهِ كل ما وصلت اليهِ يده من هذا الشأن عمد الى المقابلة بين النُسَخ واستخلص منها ما هو الأصح او الأقرب الى الصواب واذا لاح له أن لروايتين او أكثر وجهاً من الصواب أحال [٤] القارئ الى حاشية يثبت فيها تلك الاختلافات بل ربما ذكر الروايات كلها حرصاً على الحقيقة ووفاءً بحق الخدمة لواضع الكتاب. ثم يأخذ على نفسهِ تذييل التأليف بالفهارس الواسعة المتعدّدة بحيث تنجلي للمطالع أغراض الكتاب لأول وهلة [٥] فتكفيهِ نظرة الفهرس مؤونة البحث والتنقيب الساعات الطوال. ويشفع الخدمة العلمية باستكمال معدّات الطبع فيبرز المؤلّف للطالبين طُرْفَةَ أدب وتُحْفَةَ [٦] صناعة الخواطر وتحلو للنواظر.

وإن شئت تقدير هذهِ الخدمة الجليلة حقّ قدرها فعليك بكتابٍ نُشِرَ في الأقطار الأوربية وقابله بنظيرهِ مطبوعاً في البلاد الشرقية يتضح لك جليّاً ان أولئك الاجانب أشدّ غيرة منا على آدابنا وأبرّ بالآباء من الأبناء أنفسهم. هذا اذا لم تكن الطبعة الشرقية نسخة عن الطبعة الأوربية أعادها أحد الورّاقين ممن اتخذوا العلم سِلعة [٧] يُتاجر بها وسكت عن أصلها وأغفل اسم المستشرق السابق الى نشرها فحرمه ما هو

---

١ جمع مظنّة وهي الموضع الذي يظن فيه وجود الشيء ٢ استفرغ ٣ يبخل ٤ ردّ وصرف ٥ على الفور ٦ الطرفة الشيء الانيق المعجب والتحفة الشيء الثمين ٧ بضاعة

أهلٌ لهُ من الشهرة وأكل ثمرة أتعابه غنيمة باردة [١] . . . وفي ذلك من امتهانٍ [٢] الآداب وهضم الحقوق والاجحاف [٣] بالمصلحة العامّة مـا فيهِ. ولاحول ولاقوة الاّ بالله .

وكنا نودّ ذكر شيءٍ من تراجم أولئك ألافاضل لولا ضيق المقام وقلّة ما لدينـا من أخبارهم واقتصارهم في الغالب على التأليف بلغاتهم . وقد جمع حضرة الأب لويس شيخو اليسوعيّ في كتابهِ « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » فذلكة [٤] أعمالهم فنحيل اليها المطالع اللبيب .



١ هي التي يظفر بها بدون تعب ٢ احتقار ٣ هضم الحق غصبهُ ونقصهُ واجحف بمصلحته اضرّ بها ٤ خلاصة

الأدباء الأحياء

لم نتعرّض في هـذا الكتاب لذكر الأدبـاء الأحيـاء فإنهم أعزّهم الله لا يزالون عاملين علي تشييد صروح [١] المجد لأنفسهم بتعزيز جانب العلم ورفع منار الآداب. وهذه الصُحُف السيَّارة تُطرِفنا كل يوم من فرائد نثرهم بما يزري [٢] بعقود الجمان وتتحفنا من قلائد شعرهم بما يُحلّى بهِ جيد [٣] الزمان. مدّ الله في أيامهم ومتعنا دهراً طويلاً بنفثات أقلامهم.



١ شاد وشيد البناء رفعهُ والصروح جمع صرح وهو القصر ٢ ازرى بهِ حقرهُ ووضع من شانهِ ٣ عنق

فهرس الموادّ

فهرس هجائي

الرقم المحاط بقوسين (—) يشير الى الصفحة التي وردت فيها ترجمة الشاعر او المصنف وما بقي من الارقام يشير الى المواضع التي ورد ذكره فيها عرضاً .

فهرس كتبي

لما كان هذا الكتاب مؤلفاً برسم ابناء المدارس لم نرَ فائدة من تثقيل حواشيه بتدوين المآخذ التي اعتمدنا عليها في وضعه. على اننا احببنا ان نذكر ههنا اهمّ المؤلفات التي استعنّا بها مرتّبة على حروف المعجم اقراراً بحقوق مؤلفيها الفضلاء وارشاداً للطالب اللبيب اذا اراد التوسع في تاريخ الآداب .

الآداب العربية في القرن التاسع عشر « للاب لويس شيخو » جزآن.
الاغاني « لابي الفرج الاصبهاني » ٢١ جزءاً .
تاريخ التمدن الاسلامي « لجرجي زيدان » ٥ اجزاء .
تاريخ الحكماء « لابن القفطي »
خلاصة الاثر في تراجم اعيان القرن الحادي عشر « للمحي » ٤ اجزاء .

سلك الدرر في تراجم اعيان القرن الثاني عشر « للمرادي » ٤ اجزاء.
شعراء النصرانية « للاب لويس شيخو » ٦ اجزاء .
طبقات الاطباء « لابن ابي اصيبعة » جزآن.
طبقات الادباء « لابن الانباري ».
قلائد العقيان « للفتح بن خاقان » .
كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون « للحاج خليفة » جزآن.
مشاهير القرن التاسع عشر « لجرجي زيدان منشئ الهلال » جزآن.
الملل والاهواء والنحل « لابن حزم » ٥ اجزاء وبها مشه الملل والنحل « للشهرستاني » .
مقدمة « ابن خلدون » .
مقدمة الاليانة « لسليمان البستاني » .
نفح الطيب « للمقري » ٤ اجزاء وبها مشه مروج الذهب « للمسعودي ».
وفيات الاعيان « لابن خلكان » جزآن .
فوات الوفيات « لابن شاكر الكتبي » جزآن .
يتيمة الدهر « للثعالبي » .

بعض مؤلفات للعلماء المستشرقين نخص بالذكر منهم كليمان هوارت ورنهارت دوزي وسلفستر دي ساسي .

فضلاً عن الدواوين والمجامع الادبية والمعاجم التاريخية ومؤلفات مشاهير المؤرخين والمجلات العلمية كالمشرق والضياء والهلال والمقتطف وغيرها .

طبع بمطبعة الفرير الصناعية — باب سدره بالاسكندرية

